

النَهْضَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

فِي سِيرِ أَعْلَامِهَا الْمُعَاصِرِينَ

تَأَلَّفَ

الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ حَبِيبُ الْبُيُوتِي

عَمِيدُ طَبَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْمُتَوَكَّلَةِ

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ

الدَّارُ السَّامِيَّةُ
بِئْرُوتَ

دارُ الفَلَمِ
دِمَشقُ

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم

للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

دار السامية

للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦-٩٣

التَّهْذِيبُ الْإِسْلَامِيُّ

في سيرة أعلامها المعاصرين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقَدِّمَةُ الْكِتَابِ

مهما اعترض المسلمين من خطوب، فهم بالقياس إلى ماضيهم القريب يعيشون في ظلّ نهضة تبسط جناحها على أكثر مرافقهم المتشعبة، فنحن في النصف الأخير من القرن العشرين لا يمكن أن نُقاس إطلاقاً بمُسْلِمِي القرن التاسع عشر، إذ أن المسافة القريبة بيننا وبينهم قد تمخّضت عن تقدّم يبشّر بالنجاح في أكثر الميادين، ونقول: المسافة القريبة، لأن القرن الواحد في حساب الزمن الطويل لا يُعَدُّ شيئاً ذا بال، ومع ذلك فقد سبق المسلمون إلى وثبات رائعة، نرجو أن تُكَلَّلَ بالنجاح، حتى ترفرف روح الإسلام في شتى مجالات الحياة.

هذه النهضة النشيطة في حاجة ماسّة إلى مَنْ يَفِيها حقّها من الدراسة والتقييم، وقد اخترت أن أتحدّث عنها في ظلال أبطالها من أئمة المسلمين، لا لأترجم لحياة هؤلاء الأبطال، فما أقصر همّة تتّجه إلى رصد سنوات الميلاد والرحلة والوظائف والوفاء، إذا جعلت ذلك غاية جهدها المدوّن بين السطور، ولكن الحديث المشر هو الذي يكشف عن أعمال المصلح، ويفسّر دوافعه الذاتية، ويقدر جهاده الدائب فيما اعترضه من الصّعاب، وإذ ذاك يتّسع المجال للحكم العادل من المؤلّف، والاطمئنان الواعي من القارئ الحصيف.

وإذا كان هناك مَنْ يؤرّخون للنهضات في ظلال مُثُلها المرموقة، واتجاهاتها الهادفة، فإن تاريخ هذه النهضات من حديث أبطالها المجاهدين يقَدِّم الوجه الثاني

من هذا التاريخ، وهو لون يجد الترحيب من قرائه، إذ يتخلّله من المتعة العقلية والنفسية ما يساعد على استيعابه وتمثيله، وبخاصّة: إذا كان العاملون تحت راية الإسلام لا يجدون التقدير المُنصف من رجال الإعلام في دنيا الصحافة والإذاعة على أوسع نطاق يجذب أنظار الجماهير! وهو إهمال تبحث عن دوافعه الأليمة فيلفحك شرار الغضب، وبخاصّة حين تجد الترويج الرخيص لأناس لم يبلغوا معشار ما بلغه هؤلاء المكافحون، ولكن الغرض يعمي ويصمّ، فلا أقل من أن يقوم تلاميذ هؤلاء المستشهدين في حومة الإصلاح الديني بحقّهم الأكيد في الاحتفال والتنويه.

وإذا كان الإسلام عامّاً شاملاً ينفذ بقوانينه إلى شتى مناحي الحياة، فإن العاملين تحت رايته يتخصّصون في شتى اتجاهاته ليجمعهم في النهاية طريقه المستقيم: طريق الذين أنعم الله عليهم من عشاق الفضيلة، ورواد الحقيقة، وطالبي الإصلاح، وما أهده من طريق!.

ففي اتجاه مكافحة المحتل الغاصب تجد أعلاماً ضحّوا براحتهم، وأفنوا صحتهم ثائرين على الاحتلال، مرّحين بعذاب السجن، وأليم الجوع، ومرير البرد، حتى تعلو كلمة الله. ومن هؤلاء: عبد الحميد بن باديس، وعبد العزيز جاورش، ومحمد البشير الإبراهيمي، ولهم مع ذلك صرخاتهم البيانية في إيقاف الرقود، وإلهاب النفوس.

وفي مجال الدعوة إلى مجد الإسلام والاستمسك بعُروته الوثقى، وتدبيح الكتب، وإقامة الندوات لإذكاء الهمم وإيقاد العواطف، تجد أمثال: محمد إقبال، ومحمد عاكف، وعبد الرشيد إبراهيم، وشكيب أرسلان، وعبد الوهاب عزّام، واللورد هدلي داعية الإسلام في بلاد الإنجليز.

وفي مجال الدّود عن مقدّسات الشريعة، وحماية القرآن والسُّنة من كيد المبشّرين، وردّ السّهام الباغية إلى صدور ذوي الغرض من المستشرقين تجد أمثال: محمد فريد وجدي، ومحمد رشيد رضا، وطنطاوي جوهرى.

وفي مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل الجهود المضنية في العمل بشريعة الإسلام مهما قامت الحوائل وتكاثفت الصُّعاب، تجد أمثال: محمود أبي العيون، وأحمد غلوش، ومحمد الخضر حسين.

وفي مجال تقدير التاريخ الإسلامي والنظر إلى أبطاله بعين الإنصاف مع التصدي لكل شبهة يلوكها الاستشراق تجد أمثال: رفيق العظم، ومحمد الخضري، وعبد الوهاب النجار، وأحمد أمين.

وفي مجال تنشيط الأدب العربي وإحياء اللغة العربية والعمل على نشر الثقافة الإسلامية، وبعث التراث القديم، تجد أمثال: أحمد حسن الزيات، وأحمد تيمور، وسيد بن علي المرصفي، وعبد القادر المغربي.

وقد تشابك هذه المجالات وتتعانق، فتتعدّد آثار هؤلاء الأعلام وتتشعب مواقفهم في أكثر من اتجاه، ولكن الرابط العام وراء ذلك هو الغيرة المُفرطة على الإسلام، والهام الكلف بمبادئه وقيمه، والإسلام بعد ذلك كله جنة سابعة لأصحابه، ودرع واقية لناصره، وكم اعتزّ به الدليل، ونَبّه الخامل، فإذا تجمّع المخلصون للذود عنه في دنيا المطامع والأهواء فلإنما يأوون منه إلى معقل أشم، ويلوذون بركن شديد.

ولست حين أتحدث عن النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين أميل إلى رأي معين في الصراع الفكري الدائر حول موضع الفرد من بيئته، وموضع البيئة من الفرد، أو بعبارة أخرى: أيكون الفرد بنبوغه ومقدرته قائداً لبيئته ودافعها إلى التقدّم؟ أم تكون البيئة بتهيئتها للإصلاح وارتقابها إياه دافعة الفرد إلى القيادة والتوجيه؟ فذلك جدل مضت السنوات عليه دون أن يقنع فريقاً بمذهب فريق، مع أن الحق الذي لا مِرْيَةَ فيه: أن الفرد والبيئة كلٌّ لا يتجزّأ، ومحاولة الارتفاع بأحدهما على الآخر في كل الظروف والأحوال تطرّف لا يجد مبرّره المعقول، فقد يكون الفرد قائد مجتمعه في موقف، وقد يكون المجتمع مهياً لقيادة بعض أفرادهِ في موقف آخر، وصفحات التاريخ الإنساني على مدّ عصوره المتلاحقة تسرع

بالدليل المقنع لمن يريد، ولكن كتابنا هذا يتحدث عن نهضة قام بها أبطال معروفون لذوي البصر من المنصفين، وقد رأى مؤلفه أن تسجيل روائع هؤلاء الأبطال يُحيي مجداً ويرسم قدوةً، ويهيئ طريقاً محدود المعالم لقافلة أخرى ينتهي بها السير إلى نصر عزيز.

الدكتور محمد عزيز (اليتوي)
مديرة اللغة العربية بالصور

النّهضة الإسلامية المعاصرة

إن دراسة التاريخ في سيره الطويل ضرورة ملزمة، لا لناخذ العبرة من حوادث الزمن وكوارثه فحسب، بل لنقدّر خطواتنا التالية في ركب الإنسانية، وتطلّعاتنا الآملة في موكب التقدّم الحضاري، على ضوء ما نعلم من أحداث، وفي تقدير ما مرّ بنا من تجارب، وما تحمّلناه من أعباء. والتاريخ الإسلامي غذاء نافع لأبناء الأمة الإسلامية، لأنه يحفل بما تحفل به تواريخ الإنسانية جمعاء من خطأ وصواب، وقد حرص أصحابه على تدوين روائعه وتسجيل أحداثه حرصاً مخلصاً، لم تكد تُفقد منه حلقة من الحلقات، بحيث لو وقف المؤرّخ على فجوة بين الوقائع استطاع أن يملأها عن طريق الحدس الصادق، والتخيّل الأمين، مقارنة النظائر بالنظائر والأشباه بالأشباه، وهو في أكثر أمره مُهتدٍ إلى حقيقة الأمر وجليّة الوقائع إذا استقام النظر واعتدل القياس، هذا التاريخ الحافل الفسيح يقدم إلينا كثيراً من الطمأنينة الحافزة على العمل، ونحن أحوج ما نكون إليها في دنيا تعجّ بالمتناقضات، وتضطرم بما يتوقّع وما لا يتوقّع من الأحداث.

لم تخلُ فترة من فترات التاريخ الإسلامي من قيام معارضة حاكمة على مثله العادلة، وموازينه الهادفة، وتلك سُنّة الحياة في إيجاد دوافعها الباعثة على اليقظة والحذر، ولكن العهد الأول من تاريخنا الزاهر قد استطاع أن يتغلب على مُناوئيه، لأنه بدأ قوياً نزيهاً يحرص على قيم الإنسانية المثالية التي خلّدها كتاب الله : من

حرية وعزة وإخاء وعدالة ومساواة، واستطاع بهذه القيم الإنسانية الخالدة أن يضع الموازين بالقسط وأن يرفرف علمه في مدى قرن واحد على أرض شاسعة لم تستطع الإمبراطورية الرومانية أن تبلغ مداها في مدى ثمانية قرون!، وقد يخطيء كل الخطأ من يرجع فتوح الإسلام إلى قوته الحربية وحدها، فكم قوة كاسحة من قبله ومن بعده قد فعلت أكثر مما فعلته قوة الإسلام، ثم انتفض عليها البناء مرة واحدة، بحيث أصبحت فتوحاتها سراباً لا يغلّ غير الحسرة والالتئاع.

ولكن قوة الفتوح الإسلامية تكمن في قيمه الإنسانية الرائعة التي جعلت نصارى تغلب - على سبيل المثال - يتركون إخوانهم في الدين ليعملوا تحت راية الإسلام في حروب الروم، والتي جعلت عتاة التتار ينتصرون على الإسلام في وقائع حاسمة، ثم يسلمون إليه القياد عن طواعية، فيدخل الغالبون في دين المغلوبين، وتلك من أعجب الخوارق النادرة في التاريخ! لأننا نعلم أن للغالب المنتصر بريقاً لا يُقاوم، فإذا استطاع المغلوب على ضعفه الواهن أن ينتصر عليه بما لديه من قيم مثالية، ومبادئ إنسانية يضمّنها دينه الكريم، فإن عظمة هذا الدين لا تَجُحَد، ومن يتعرّض لها بتشكيك فإنه يخالف طريق النظر الصحيح عن قصد أو عماء.

هذه القوة العظيمة في المبادئ والمثل، قد أُتيح لها عبر السنين من لا يصدر عن أمرها من الحاكمين، بحيث لم يقدر أولو الأمر حكومة الإسلام، كما جاء بها القرآن، بل انصرفوا إلى مآربهم الأنانية، دون التفات إلى هذه المبادئ، جاهلين أن عظمة سلطانهم لا ترجع إلى شيء غير ما تجاهلوه من قيم وأخلاق، فبدأت الغشاوة ترين على وجه الأمة الإسلامية شيئاً فشيئاً، وأُتيح لها نفر من الوصوليين باعدوا بين الحاكم وطرائق الحكم في الإسلام في كثير مما يصدر ويدع من الأمور، ومع هذا البُعد الواغل في أكثر موارده ومصادره فقد استطاع الإسلام أن يظلّ مرفرف العلم في أمادٍ كثيرة، لأنه - مع نشاز أتباعه عن الجادة في أكثر ما يصدرون - كان أنظف أدوات الحكم بين مُعاصريه.

فمهما قيل في مظالم بني العباس والفاطميين والأندلسيين، فقد كانوا بالقياس لمُعاصِرِيهم من ملوك المِلَل المختلفة أرقى شأنًا وأقرب طريقاً، وقد تحقّق على أيديهم من الفتوحات العلمية والحضارية والإنسانية ما كان دعامة التقدّم الإنساني في قرونٍ مختلفةٍ، وحسبك أن تعلم أن العصور المظلمة - التي أُطلِقَت على فترةٍ واسعة من التاريخ الأوروبي - كانت هي عصور الحضارة الزاهرة في عالم الإسلام، وماذا كانت دول أوروبا أيام المأمون في بغداد، والعزّيز في القاهرة، والناصر في قرطبة؟! بل أيّ شيء تكون مدنيّة أوروبا لو لم تستطع أن تجد مثالها الرائع في مدنيّة الإسلام؟.

قد يظن القارئ أننا نكتب عن حماسة دافعة لا عن علم أكيد، ولكن قراءة التاريخ الحضاري للإنسانية الذي كتبه المُنصِفون من أبناء الغرب أنفسهم - تنطق بكلّ ما نقول، فقد كان احتكاك الغرب بالإسلام في الحروب الصليبية وفي صقلية والأندلس أول خطوات النهضة الأوروبية والإصلاح الديني في الكنيسة، وقد جاء ملوك أوروبا بقوّتهم البربرية إلى الشرق، ليجدوا حضارة زاهرة في دمشق والقاهرة وبغداد، وليروا من روائع الأنظمة في البحث الحضاري ما جعلهم يقفون مشدوهين حائرين، حتى إذا رجعوا إلى قومهم كان التقدّم الحضاري في بلاد الإسلام هدفهم الأول، والذين كتبوا تاريخ الإصلاح المسيحي من القساوسة أنفسهم في عهودهم الأخيرة يرجعون بدعوات مارتن لوثر وكلفن في الإصلاح إلى المقارنة بين مبادئ الإسلام في الشرق، وطغيان البابوات في الغرب، أكثر مما يرجعون بها إلى نصوص الإنجيل!.

ظَلَّت الأمة الإسلامية على مناعتها الحصينة أمدًا غير قصير! والمُغرضون من كُتّاب التاريخ يحاولون أن يقصروا مدى الانتصار الإسلامي إلى أمدٍ لا يتجاوز القرن الأول من العصر العباسي، وهو تخبط ظالم يتجاهل الحقائق الصريحة، لأن الأمة الإسلامية وإن تعرّضت لهزّات المطامع الداخلية والخارجية على أمدّها الطويل، فقد ظلّت محافظة على مكان قوّتها الداخلية إلى مدًى بعيد. ففي القرن السادس عشر الميلادي: كانت القوّة الإسلامية صاحبة الكلمة العليا في العالم

كله، فقد كانت الدولة الفارسية الصفوية في إيران، والإمبراطورية المغولية في الهند تحميان حدودهما في قوّة واضحة. أما الدولة العثمانية في الشرق الأدنى والأوسط: فقد كانت أقوى قوّة عالمية تهجم بجيوشها الظافرة، فتكتسح أوروبا على يد سليمان القانوني، ومحمد الفاتح الذي أسقط القسطنطينية في وثبته الظافرة، كما وقف الجيش الإسلامي في عهد السلطان سليمان سنة ١٥٢٩ م على أسوار فيينا مهدداً بفتحها، فارتجّت دول أوروبا ارتجاجاً لبطلته الخارقة، وأصبح السلطان العثماني موضع التزلف والرضا لدى شتى ممالك الغرب، حتى كتبت له الیصابات تعلن: أن المسيحية البروتستانتية أقرب إلى الإسلام من مسيحية الكاثوليك، وهي حقائق لا ينكرها أعرق المتعصّبين.

ولكن عظمة العثمانيين لم تستمر في تقدّمها الرائع عبر الزمن إلّا لشيء واحد لا شيء سواه، وهو: ابتعادها عن القيم الإسلامية فيما أخذت تقوم به من الأمور، بحيث عاودها داء العصور السالفة من الجبروت والطغيان، واحتقار ما سنّه الإسلام من عدالة وحرية ومساواة، ولو تمسكت بهذه القيم الخالدة فعرفت حقوق الرعايا في كل مكان يرتفع عليه لواؤها المرفرف، لنهضت بنفسها وبالعالم الإسلامي نهضة لا ترحزحه عن مكان الصدارة لحظة عين، ولكن الله لا يغيّر ما يقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من والٍ.

تنازعت الدولة العثمانية أهواؤها الداخلية والخارجية، فأغفلت حقوق رعاياها في البلاد الإسلامية التي تستظلّ بلوائها كما أتاح لنفّر من الوصوليين أن يسيطروا على توجيه سياستها سيطرة لا تتبع تعاليم الإسلام في شيء، وبذلك أخذت عوامل التصدّع تضرب في كيائها البادخ، بينما قامت النهضة الصناعية في أوروبا بدورها المكتسح، فاستخدمت البخار والكهرباء في شتى المرافق الصناعية، وأعدّت من الأسلحة الفاتكة ما لم يتيسّر للشرق الإسلامي في شيء، ثم جاءت أوروبا بقوّتها الصناعية لتسيطر على الأمة الإسلامية، مرتكبة أسوأ الفظائع في حصد الأرواح وترويع الأمنين، واستئصال عناصر المقاومة، حتى استطاعت بقوّتها الصناعية أن

تسود وأن تسيطر، وحتى أوهمت الدنيا أنها تحمل في تقدّمها الصناعي حضارة إنسانية جديدة، وهي - عِلْمُ الله - لا تحمل إلا أدوات الفتك ووسائل الدمار.

لقد انتصرت أوروبا عسكرياً بتقدّمها الصناعي، وحسبت أنها تستطيع أن تنتصر حضارياً وإنسانياً فتجذب إليها المغلوبين، ثم قَدِمَتْ إلى الشرق وفي نيتها أن تُعيد الحروب الصليبية في لونٍ جديدٍ، فبدلاً من أن تكون الحرب سافرة في ساحات المعارك الدامية فإنها تكون حرباً نفسيةً وثقافيةً: نفسيةً حين تتجه إلى التشكيك في القيم الإسلامية، ومحاولة إظهارها في وضع تكون معه مدعاة التأخر، وباعث التقهقر الإنساني في ركب الحضارة الصاعدة، وثقافية حين تفرض ألواناً من المعارف والفنون تنسب لأوروبا المسيحية، وتراها وحدها باعثة التقدم، وطريق النهوض! وقد حاول أصحاب هذه الحرب الضارية أن يعملوا على نجاحها في جهتيها المختلفتين بما يبيّتون من خِطَط، وما يضعون من أهداف، وقد ظنوا أن الثمرة مُواتية، وأن النتيجة متحققة، فما هي إلا سنوات حتى تُمحي معالم الحضارة الإسلامية، وتلاشى القيم النبوية، لتجد مكانها قيماً جديدةً تنتمي إلى أوروبا في كل سِمة واتجاه.

وماذا يمنع - في نظر هؤلاء - دون أن تُمحي القيم الإسلامية، ودون أن تنزع العقيدة الربانية وأصحابها متخلفون يقفون في مهبط الأعاصير دون نصير؟ بل ماذا يمنع في نظر هؤلاء من تمكّن النفوذ المسيحي في ديار الإسلام، وفي كل ناحية حاكم مستعمر متعصب، يؤيده السلطان الباطش، وتطيعه القوة الغاشمة، فيسهل عليه أن يستميل الأغرار بما يزيّف من بريق، ليتخذهم رُسُلَهُ إلى هؤلاء المتمسكين بدينهم، ويجعلهم واجهته الخادعة حين يغريهم بالمناصب والأموال، وحين يحارب كلّ حرّ يدين بمثله، ويتمسك بإيمانه الركين.

وأنت تقرأ عمّا يحوكه هؤلاء الواهمون من آمال عريضة في سحق المُثل الإسلامية، فتجد عجباً أيّ عجب! تجد افتياتاً صارخاً على الحقائق التاريخية والإنسانية، وتمويهاً كريهاً بقشور يزينون بها واجهاتهم الخادعة، حتى جزم

(بريس) المؤرخ السياسي^(١): بأن عمر الإسلام لن يبقى منه سوى قرنين يبحث بعدهما عنه فلا يوجد أثره في مكان! وحتى قال (كيمون) الفرنسي في كتابه «باثولوجيا الإسلام»: إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس، وأخذ يفتك فيهم فتكاً ذريعاً، بل هي مرض مريع وشلل عام، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء، ويُدمن معاقرة الخمر - مع أنها محرمة في الإسلام لا في المسيحية - ويجمع في القبائح، وما قبر محمد في مكة إلا عمود كهربائي يثّ الجنون في رؤوس المسلمين، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الهستيريا العامة، والدّهول العقلي، وتكرار لفظة الله إلى ما لا نهاية، والقعود على عادات تنقلب إلى طباع أصلية ككراهية لحم الخنزير والنبذ والموسيقى والجنون الروحاني والليمانيا والماليخوليا، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات^(٢).

وأمثال هذه الأقوال لا قيمة لها إذا وُضعت في ميزان النقد الصحيح، فهي ضباب كاذب يتبدّد سريعاً حين تحرقه شمس الحقيقة، ولكن قيمتها تتأكد حين تجد الحاكمين من المستعمرين في أكثر البلاد الإسلامية يوالون ترويجها والدعاية لأكاذيبها الشائنة، ومعهم كل وسائل التنفيذ من جبروت متحكّم، وخداع متمرّس، وإغراء بالمناصب والوظائف، ونشر للصحف الخائنة على نحو ممتدّ فسيح، وقمع لكل مُعارض نزيه يحاول أن يرفع كلمة الحق بين الطوفان فيأخذه النكال من كل مكان!.

هذه الإمكانيات الضخمة دفعت أمثال (بريس) إلى الاعتقاد بأن عمر الإسلام لن يمتدّ إلى أكثر من قرنين، وأغرت (كيمون) أن يفترى الأكاذيب الحقيرة على نبي الإسلام وأتباعه المخلصين!، وقد نسوا شيئاً هاماً ذا بال، هو: أن الإسلام لا يعيش في جُحور النمل مخفياً عن الأنظار حتى تلصق به التُّهم دون

(١) مجلة الهلال، نوفمبر، ١٩٠٤ م.

(٢) الإسلام والردّ على منتقديه، ص ٢٣.

تمحيص، فإن كتابه الخالد (القرآن الكريم) مشهور متداول، يقرؤه كل مسلم، فيعرف الرائع الممتاز من قيمه الهادية، ومثله الكريمة، فهو الكتاب الأول في الوجود الإنساني الذي يرفع علم الحرية والإخاء والمساواة، قبل أن تتشقق بها الثورة الفرنسية بأكثر من عشرة قرون! كما أن التاريخ الإسلامي المزدهر في صفحات العباسيين والأندلسيين والفاطميين وغيرهم من حاكمي الإسلام قد أثبتت نفاسة المعدن الحضاري للأمة الإسلامية العريقة، فبأي باطلٍ مُموه يستطيع هؤلاء المزيفون أن يخدعوا المسلمين عن كتابهم الخالد، وتعاليم دينهم وتاريخهم الحافل؟.

ولكن المسألة ليست من السهولة بحيث تترك الحومة دون أبطال يدافعون! فالعدو المستبد بجيشه وذخيرته يأخذ مكانه في مواقع هامة، ليعلن أراجيفه دون حياء! ولم يكن الحكام من البريطانيين والفرنسيين رجال سياسة فقط ولكنهم قساوسة متعصبون، درسوا الإسلام دراسة تبشيرية ليقوموا بتشويهه فيما يُزاولون من مهام! ولنضرب المثل لذلك بحاكمين طاغيتين أحدهما: إنجليزي، والآخر: فرنسي.

أما الأول: «فكرومر» طاغية الإنجليز في مصر، إذ وفد على البلاد بعد أمدٍ قضاه في الهند ألم فيه بأحوال المسلمين في آسيا، ثم انتقل إلى قلب أفريقيا لينفذ مخططاً بغيضاً، يشجع منظمات التبشير ومعاهد الإرساليات على التغلغل في بيئات إسلامية ظلت أمداً طويلاً بعيدة عن وباء التبشير، وقد تبلورت حملاته المنكرة في نقاط هامة تنجّه إلى الإرجاف بالإسلام كسبب أصيل للتأخر والانحطاط، فهو في رأيه عدو الحضارة الإنسانية، ولن يستطيع المسلم أن يرقى درجة واحدة في سلم المدنية إلّا إذا نبذ هذا الدين الصحراوي، الذي يأمر بالجهل والتعصب والرق وإهدار الكرامة للمرأة! وإلّا إذا اتجه نفر من شُبّانه إلى إنجلترا ليمارسوا المدنية الإنجليزية ممارسة تجعلهم ينقمون على كل أثر للإسلام في الشرق، ثم يعودون ليتبؤوا كبار المناصب، عاملين على إطفاء المشاعر المتوهجة في دينهم الخالد.

والذي لا تنبعث به الهمة إلى مهاجمة دينه وإعلان تنصله، سيظل في أعماق نفسه ناقماً على تقاليد قومه وتعاليم عقيدته - كما يتخيل اللورد - أما القرآن؛ فلا بد أن تجند الجنود لزعزعة أفكاره، واصطياد الشكوك الدائرة حول قضاياه، وإصااق كل بدعة زائفة بتعاليمه، ليصبح في النهاية مصدر تأخر حضاري لمُعْتَبِيه، كما أن بلاد الإسلام يجب أن تنقطع أوصالها المتماسكة بإثارة عوامل التفرقة بين الإخوة المتحابين: فالمصريون ليسوا بعرب، والسوريون فينيقيون، والعراقيون آشوريون، والمغرب بربر، فكيف يمكن اتحاد هؤلاء؟! أما اللغة فلا بد أن تبعد عن الفصحى ليسهل الابتعاد عن لغة القرآن، وعن فكرة الرابطة الإسلامية. هذا بعض ما حواه مخطط هذا الداهية الخطير، ولم يكتف بتقريراته السنوية طيلة خمسة وعشرين عاماً أخذت تتوالى كل عام لتبين خطوات هذا العمل الإجرامي خطوة خطوة، ولتجذب نحوها نضراً من ذوي الأوهام يروجون لها في صُحف الاستعمار ترويح المُتَهَيِّز المأجور.

لم يكتف بذلك، حتى أصدر كتابه عن مصر الحديثة في خاتمة عهده، ليكون دستوراً لخلفائه من بعده، وقد حشاه بالافتراءات الصارخة عن التعصب والرقّ والمرأة والمدنية الإسلامية ومُجافاة القرآن للعرمان! وكان الخير في صدور هذا الكتاب، لأنه وجّه أنصار الفكرة الإسلامية إلى نقض أخطائه وتفنيد أوهامه. وكان الأستاذ محمد فريد وجدي في طليعة هؤلاء المتصدّرين لنقض الكتاب على أساس علمي يبعد عن المهاترة الصاخبة، والتشنج المفتعل، ويدعو للحق بالحكمة والموعظة الحسنة، إذ يجادل بالتي هي أحسن، وقد أوضح في جلاء أن الإسلام المُتَهَم بالباطل كان وحده سبب اليقظة في الأمة العربية، وباسمه قامت الخلافة المتحضرة التي حفظت كنوز العلم اليوناني، وأسهمت في ركب الحضارة الإنسانية أعظم إسهام، ومن المُحال أن تُلقى تَبْعَة الفساد المعاصر في الأمة الإسلامية على دين قامت التجربة التاريخية على صلاح قيادته، وعظيم مدنيته.

أما الرقّ: فلم تبتكره الشريعة الإسلامية، ولكنها عملت جاهدة على تضيق منافذه، وفتحت أبواباً كثيرة تتجه إلى القضاء عليه، ولم يفت الكاتب أن يوضح

رأي الإسلام الرائع في المرأة، كما فسح المجال لبيان حقائق القرآن، وجمعه الرائع بين القوانين المدنية والدينية، بحيث أصبح هذا الجمع دليل انسجامٍ حيٍّ في القيم الإسلامية، وهو ما كرهه كرومر حين حاول فصل الدين عن السياسة ليُطْفِئ من مُثُل الإسلام في تقديس الحرية والشورى والإخاء والمساواة!

وهذا تلخيصٌ يوميٌّ ويشير ولن يُغني شيئاً عن مراجعة الردِّ المُفجِع بنصّوصه الرائعات، هذا بعض القول في لورد كرومر الإنجليزي.

أما الاستعمار الفرنسي: فنضرب المثل له «بالماريشال ليوتي» الذي صنع في المغرب العربي صنيع كرومر في مصر، بحيث عدّه الفرنسيون مُنشئ المغرب الحديث، وقد ساعد على شَبِّ النزاع المحتدم بين العرب والبربر، وضمَّ إليه نفراً من أدعياء التصوّف ليُظهروا الإسلام في مظهر الجمود، والانحطاط العقلي، والكسل المتعطل، وهو ما حاربه ابن باديس والبشير الإبراهيمي في المغرب بعامة والجزائر بخاصة محاربة فضحت أسرارهِ، وهتكت أسرارهِ.

وقد قدّرتِه الدوائر الفرنسية تقديرًا خاصاً حين مكّنت له من العمل الاستعماري، وأعانتَه على تنفيذ مخطّطه في الشقاق العنصري.

وما بنا أن نُظيل في مساوئهِ، إذ كان نسخة جديدة من كرومر، تتفق أهدافهما في العمل وتفترق في اتجاه المنفعة، ذلك إلى فرنسا وهذا إلى إنجلترا.

وقد زادت ضراوة فرنسا عنفاً وجِدّة حين ظهر بين مفكّريها أكبر عدد مناوئٍ للفكرة الإسلامية، ولهم من ذبوع الصيت وجهارة الصوت ما يساعدهم على انتشار أقوالهم في كل مكان، بحيث لا يُقاس بهم أمثال: «مرجليوث» الإنجليزي، على تخرّصاتهم المنكرة.

وكان من الطامة: أن تكثُر البعثات التعليمية إلى فرنسا بالذات، ليرجع منها بعض الوافدين وقد حملوا جراثيم التبشير، ومعاول الهدم وأراجيف الدعاية، ولهم

من ألقابهم العلمية ما يُهَيِّئ لهم مكان القيادة في دنيا المدارس والجامعة والتأليف والصحافة والنشر، ومكافحة ذلك تستدعي من الجهود ما قام به دُعاة الفكرة الإسلامية الذين تُشير إلى جهادهم الكبير في هذا الكتاب عن حمية ويقين.

وكَلَّنا يعلم ما حاوله «رينان» و«هانوتو» الفرنسيان أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن من هجوم يتَّسم ظاهراً بطابع البحث، على حين يخالف في باطنه كلِّ مقررات العلم، والتاريخ والمنطق الاستدلالي الصريح.

إذ زعم رينان: أن العرب يفتقدون الروح العلمية في البحث، وما يقال عن علوم العرب وتمدُّن العرب وفلسفة العرب خطأ صريح، لأن ذلك كله نتاج أُمم غير عربية قد اندمجت في الأمة العربية، لأن الإسلام في رأيه لا يشجّع على العلم والفلسفة، والبحث الحرّ بما فيه من اعتقاد بالغيب، وإيمان تامّ بالقضاء والقدر، ومَن اشتغل بالفلسفة من المسلمين قد اضطهد أو حرقت كتبه!.

وكلّ ذلك افتيات منكر نفاه الباحثون من مُنصِّفي باريس كالمسيو «مسمر» رئيس البعثة المصرية الفرنسية إذ ذاك قبل أن يكرّ عليه جمال الدين بالتفنيذ!.

وموضع المغالطة في تهجّم الفيلسوف الفرنسي الذي لم يلتفت إليه مَن خاضوا في نقده عن جدارة وإطلاع، أن الذين يزعمهم من غير العرب كالفارابي وابن سينا وابن رشد كانوا مسلمين يتمسّكون بدينهم عن إيمان أصيل، فإذا كانوا قد برعوا فيما زاولوه من مسائل الفلسفة والعلم فكيف يكون الإسلام مانعاً عن دراسة الفلسفة، وغير مشجّع للبحث العلمي؟

وماذا يقول في الحضارات العلمية الزاهرة التي أشرقت بنور الإسلام في كل موضع، ومكانها التاريخي بحيث لا يجهله فيلسوف كبير «كرينان»؟

لقد اضطر الرجل بعد معارضته القويّة بالحجّة الدامغة أن يتراجع عن كثير من آرائه، في لباقة يموّه بها على البسطاء ممّن لا يفطنون إلى دوافعه المُججفة.

ولم يكذب بطوي صحيفة تهجمه حتى بسطها فرنسي آخر هو المسيو «هانوتو»! هذا الذي أفرغ أحقادهم في مقالين خالف فيهما كل الحقائق الواضحة مخالفة يقودها الهوى المتمكن، وقد كشف عن آلامه الحزينة حين قال في بعض ما كتب^(١):

«وخلاصة القول: إن جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة واحدة، يدبرون أعمالهم ويوجهون أفكارهم إلى الجهة التي يبتغونها، وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذي تتصل به أشياء تتحرك بحركته، وتسكن بسكونه، بل هي القطب الذي تنتهي إليه قوة المغناطيسية، ومتى اقتربوا من الكعبة، من البيت الحرام، من بئر زمزم الذي ينبع منه الماء المقدس، من الركن الذي يقولون عنه: إنه سرّ العالم اشتعلت جذوة الحمية الدينية في أفئدتهم، فتهاوتوا على أداء الصلاة صفوفاً، وتقدمهم الإمام مستفتحاً العبادة بقوله: (بسم الله) فيعمّ السكون والسكوت، ويملأ الخشوع قلوبهم! ثم يقولون بصوت واحد «الله أكبر» بصوت خاشع يمثل معنى العبادة.

تري في قرانا - يقصد المستعمرات الفرنسية في أفريقيا - فقيراً شاحب اللون متدنراً بأرديته البيضاء المعلّمة بخطوط سوداء، يلهج لسانه بذكر الله، والصلاة على نبيه، لا يلويه عن ذلك شيء.

هذا الدرويش الذي ينتقل من خيمة إلى خيمة، ومن قرية إلى قرية، راوياً حوادث الأقطاب من مشايخ الإسلام، إنما يبذر في القلوب حيثما حلّ وأين توجه بذور الحقد والضغينة علينا.

إن العالم الإسلامي منقسم إلى طوائف وطرائق لا عداد لها، ينخرط في سلكها الألوف من رعايانا المسلمين، يخترقون بلا انقطاع ولا توائٍ مستعمراتنا الأفريقية، فيستقبلهم أهلها بالترحاب، ويحسنون وفادتهم، ويكرمون مشواهم، حتى أن الفقير منهم لا يرى في إكرام (الدرويش) أقلّ من أن ينحر له شاة.

(١) الإسلام والردة على منتقديه، ص ١٧.

هذه الوحدة الإسلامية المتماسكة كانت مبعث ثورة «هانوتو» فكتب مقالیه ليحشوهما بأخطاء كشفها الأستاذ الإمام «محمد عبده» بما لا يدع بعض اللبس لدى قارئ مخدوع، وقد قال الإمام في خاتمة مقاله الأول ما نصّه:

«وقبل إلقاء القلم أذكر الذين يتفانون في إجلال مثل هذا الوزير كما يتفانى المسلم في الله - على رأيه - أني أصغرت شأن «هانوتو» في معارفه التاريخية، لأنه صغير فيها حقيقة، وكثير من قومه يعرف ذلك منه إذ لا أمير في العلم غير المعلم».

ومما يدل على تحوّل الغرض الهادم إلى مرض مُلّازم لدى أعضاء النهضة الإسلامية، أن الواحد منهم يأتي بالاعتراض الخادع مُسهباً في تفصيله، ملتمساً له شتى الأدلة، وكأنه حقٌ صريح، فيعمد له أحد المدافعين الكماة من حُماة الإسلام فيكشف عن عواره، وينسفه نفساً بما يدع باطله المتراكم أنقاضاً فوق أنقاض.

ثم يأتي على أثره كاتب آخر ينحو منحاه في التجنيّ على الإسلام فيعيد ما سبق أن افتراه صاحبه متغافلاً عما وُجّه إليه من نقد مصيب كشف مساوئه، وأتى على بنيانه من القواعد، ولو كان هؤلاء ممّن ينشدون الحق لوجه الحق لتركوا المُمارة واللجاج، فلم يعودوا يلوكون افتراءً وضح مذهب الحق في تفنيده.

وأظهر ما يكون هذا اللجاج حين يتعرّضون إلى سيرة محمد ﷺ، فأنّت تجدهم حينئذٍ يتجاهلون المعارف الأولية ليصلوا إلى تقرير وهم خادع، وماذا تقول في مستشرق يهودي متنصّر «كمرجليوث»^(١) يفني عمره الطويل في دراسة الحياة العربية في الجاهلية والإسلام، ثم يجترىء به حقه فيزعم أن محمّداً لم يعرف والده، يقول هذا وهو يعلم اهتمام العرب بالأنساب، ويعرف عناية قريش بأبائها وأبنائها، فكيف فات هؤلاء النسّابون الوعاة أن يجهلوا نسبة محمد لبني هاشم، وقد عرفوا أنساب الخيول من الحيوان؟ أفئؤمن هذا المتخرّص على قضية يعالجها، وهو يسمح لقلمه أن يفترى عامداً بما ينكره اطلاع الدؤوب؟».

(١) من كتابنا المخطوط (من وجهة إسلامية)، ورقة ١٦٣.

لقد كشف الأستاذ الهندي «خ. كمال الدين» في كتابه «المثل الأعلى للأنبياء» عن خديعة كبرى يدلف إليها «مرجليوث» وأشباهه في اختلاق مآثمهم الفاضحة، إذ أن أحدهم يختلق فرية كاذبة، ثم يحيطها بالشك، ولا يجروء على الجزم بها، وقد اختلقها، فيجيء مُعرض آخر فيمسك بتلابيبها كحقيقة مُسلمة أكدها سابقه!.

ومن ذلك ما زعمه الدكتور «منجانا» من أنه عثر على ترجمة سريانية للقرآن بها اختلافات ذات بال، ثم قال متصلاً: إنه لا يجزم بِقَدَمِها، ولا يعرف مبلغها من الصحة، فجاء مرجليوث وتلقف هذه الفرية ليضيف إليها أن الدكتور (منجانا) يجزم بِقَدَمِها جزماً أكيداً لا يقبل الشك، إذن فقد أصبحت حقيقة مُسلمة في رأيه، مع أن صاحبها الأول قد تخلّى عنها، وقطع الأمل من فائدتها، وكأنه يعلم أن من ورائه مَنْ سيسير على منهاجه فيجعل الخطأ صواباً والوهم حقيقة.

وما زالت الأراجيف تتوالى ويعمل على إذاعتها بعض مَنْ يروفهم أن يتملقوا الباطل ليفرحوا بما يمهد لهم من ارتقاء وثراء، وما زال دُعاة الفكرة الإسلامية يعملون على دحضها في قوة جَبارة مكيئة، حتى انقضت الأيام وعروق الإسلام تزداد تمكيناً ورسوخاً، بحيث أصبح دين المستقبل لدى مَنْ ينظرون إلى قيمه الخالدة ومُثله العالية نظرة الإنصاف، إذ كانت عجيبة العجائب أن يحتضن الإسلام كل وافد من الخير، تتمخض عنه الحركات المُصلحة، بحيث تجد أصولها في الإسلام راسخة ممتدة، كما كانت عجيبة العجائب أن يطرد الإسلام كل وافد من الشر، بحيث يشنّ عليه الحرب الماحقة مستعلياً بنصوصه وبراهينه، ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره.

ولنا بعد هذه الإلمامة العابرة أن نواجه الذين يسيئون الظن بمستقبل النهضة الإسلامية بما يعلمون من تقلّبات التاريخ جزراً ومدّاً، واختلاف الدولات صعوداً وهبوطاً، فنذكر لهم: أن مَنْ يعلم ما تعرّض له الإسلام من مِحَن داهمة منذ سقوط بغداد وما وليها في أيدي التتار، وهجوم الصليبيين على المشرق، واستئصال المسلمين بالأندلس!.

هذه المِحن الثلاث، كانت تلقي في نفوس كثيرة: بأن الإسلام هامة اليوم والغد، وأن التكالب والتزاحم على استئصاله من كل مكان يوشك أن يهوي بينانه إلى حيث لا يستطيع النهوض في أحداث هذه الرعازع المتلاحقات، وقد مضى الزمن وذهبت العواصف المتزاحمة مرتدة خائبة، وخرج المسلمون من مصائبهم الداهية منتصرين، فحفظت مصر الإسلامية كما حفظ غيرها من الربوع المترامية تراث بغداد والأندلس معاً، وفتحت مصر صدرها للوافدين من الشرق والغرب معاً، حتى وجد الخائف مأمنه، والتقط الإسلام بعد المعركة الظافرة أنفاسه، لتبزغ شمسُه بعد احتجاج.

هذا الظفر الحاسم في ماضي الإسلام القريب يؤذن بظفر كامل إن شاء الله في حاضره الممتحن بالاستعمار الأوروبي والحق الصهيوني، فقد استشرى عدوان إسرائيل ومن شايعها على الأمة العربية الإسلامية، وطاب لها أن تذوق حلاوة النصر بعض الوقت، لتتوقع بخيلائها المغرور، جاهلة أن حتمية التاريخ تمنع أن يكسب المعتدي حقَّ غيره بقوة الظالمة، وتؤذن بيوم حاسم يرجع بالحق لذويه، إذ لا ييش من روح الله إلا القوم الكافرون.

ونعود إلى منطق التاريخ مرة ثانية: فنضرب المثل بإنجلترا التي أسهمت إسهاماً كبيراً في استعمار مراحع الإسلام، واعتصمت بقوةها الحربية بعد تفوقها الصناعي اعتصاماً جعلها صاحبة الكلمة الأولى منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى ما قبل قيام الحرب العالمية الثانية في هذا القرن، ومع خروجها من الميدان ظافرة منتصرة تجد أملاكها الشاسعة تتقلص، وخيراتها تنفد، وقوتها تنكمش، وأخذ الذين سَطَروا المجلدات الذائعة في تمجيد الإمبراطورية البريطانية يتساءلون عنها الآن، فلا يجدون إلا الجزيرة البريطانية وحدها، تحاول أن تُقيم جسورها الممتدة إلى الشرق والغرب على أساس المنفعة المتبادلة، وكان الأسطول البريطاني يحول في محيطات العالم رهيباً مرعباً، ويسلط النار والحديد والموت على الضحايا الأمنين، فأصبحنا اليوم نبحت عنه فلا نكاد نجده، أ تكون إسرائيل في ذلها الأبدي

وقلّتها الضئيلة، وقرصتها الغادرة أحسن عاقبة من دولة عظمى كانت تزعم أن الشمس لا تغيب لحظة واحدة عن ممتلكاتها المتراميات؟.

وطريق النهضة الإسلامية في شتى ميادينها المتباعدة لن يكون دون مراجعة فاحصة لتاريخ المكافحين المعاصرين، ممّن واجهوا تحدّيات الاستعمار في ميادين السياسة والعلم والأدب والخلق والعزة الدينية، ووقفوا أمام عوائقه الحاجزة وقفات الجهاد والجلاد وهم من الكثرة بحيث لا يستطيع أن يحصيهم غير القلّة من المتفرّغين، وقد حاولت أن أخصّ بعضهم بالحديث لأضع لبنة متواضعة في صرح النهضة الإسلامية المعاصرة. وقد تكون اللبنة قليلة الحيز، ضئيلة المكان، ولكنها تسدّ فراغاً عاماً، وتدعو بضآلتها المحدودة ذوي الأقلام الموهوبة إلى وضع اللّبنات القوية حتى ينهض البناء.

وإذا كنّا نعلم أن الطاقة الفردية للإنسان الواحد محدودة فإن الحديث عن طاقات مختلفة تتغايّر ميادين كفاحها وتتشعب مجالي جهادها من سياسة إلى علم إلى أدب إلى إحياء تراث إلى إعطاء مثل وقيم، هذا الحديث المختلف باختلاف رجاله يتجمّع في صفحات متوالية، ليقدر إخلاص المُخلص، ويبارك جهود المُثابر، وليكون موضع القدوة لمن يطمح إلى القيادة من ناشئة العصر، وهو بذلك كله موضع نفع مؤكد لمن يطمح إلى استكمال حلقات الفوز من العاملين، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

رَوَاذُ النَّهْضَةِ فِي مِرَاةِ كَاتِبٍ كَبِيرٍ

قلت في مقدمة بحثي عن المُصلِح الاجتماعي المغفور له «محمود أبي العيون» ما نصّه: «تمرّ مواسم الذكرى لرحيل النابهين من العلماء والمُخلصين من رجال الدين دون أن نجد لها صدًى فيما نقرأ من الصُّحف، وما نسمع من الإذاعات، فإذا سألت عن ذلك قيل: إن هؤلاء الراحلين من الأعلام نفر من الخاصّة، لا يعني الجمهور أن يتتبع آراءهم العلمية، ومؤلفاتهم المنهجية، وإنما يرجع واجب التاريخ لجهودهم إلى تلاميذهم فيما يصدر من كتب وبحوث، وهو ردّ متكلّف واهن لا يحتمل النقض، وإذا سلّمت به جدلاً فقط، فلك أن تسأل هؤلاء عن مُصلِح كبير مثل الأستاذ «محمود أبي العيون» يعرف العامّة قبل الخاصّة جهاده الحافل في شتّى ميادين السياسة والاجتماع والأدب والخلق: إذ قاد من معارك الإصلاح ما رنّ صدهاء في كل أذن، وسطر من رائع المقالات الاجتماعية والأدبية والدينية في مدى أربعين عاماً من حياته ما جعل اسمه يتلأأ في كل أفق باهر الضياء جذاب الالتماع... ثم كاد أن ينساه الناس في زمن لا يقدر المخلصين من ذوي الحمية الثائرة تقديره لذوي الطبول الهاتفة ممّن يصطنعون صغار الكاتبين ليؤالوا الحديث عنهم كل حين».

وقلت في مقدمة بحث تالٍ عن الدّاعية المُصلِح الدكتور أحمد غلوش ما نصه «في صمت هادئ انتقل إلى جوار ربّه البطل المجاهد الدؤوب، الدكتور

أحمد غلوش رئيس جمعية منع المُسكرات بمصر، وداعية الإسلام في أوروبا، وقد قرأت نعيه بالصُّحف في سطور محدودة نشرتها أسرته ودفعت ثمن النشر، كما تعلن وفاة كلِّ مَنْ يقدر أهله على نفقات منعه في صحيفة الوفيات! وانتظرت أن تفيض الأقلام عقب ذلك في وصف كفاحه الدءوب في ميادين العمل النافع، ابتغاء مرضاة الله حقاً طويلاً جاوزت الستين، إذ أن الفقيد الجليل قد شارف على التسعين من عمره المبارك السعيد، فما قرأت شيئاً قلَّ أو كثر!.

أفلو كان الراحل ممثلاً عصرياً شارك في إفساد النشء بما قدّم من أباطيل! أفلو كان الراحل مطرباً فنياً ساعد على انتشار الأغاني الماجنة! أفلو كان الراحل قصاصاً يلتقط فضائح الجنس وينسج جيل الإثم! لو كان الراحل شيئاً من ذلك لرأينا الصور الحزينة والمراثي الحارة والكلمات الإذاعية تحتشد لذكره احتشاداً، ولكن الراحل بعض مَنْ أسلم وجهه إلى الله وهو مؤمن واستمسك بالعروة الوثقى، وقد كرّمته الدولة حين منحه جائزة التقدير في بعض أعياد العلم، ولكن الذين يكتبون في الصُّحف ويتحدّثون في الإذاعة لا يهتمون بأمثال هؤلاء الأبطال، إذ جيلٌ بينهم وبين ما يعملون».

في هذين النصّين ما يبيّن دوافعي إلى تسجيل بطولات نفر من قادة النهضة الإسلامية في عصرنا الراهن، حيث وجدت نجوم هؤلاء القادة تسطع في زمانها، مُرسِلة شعاعها النفاذ في كل اتجاه، ثم يأتيها اليقين فتمضي إلى ربّها دون أن تجد مَنْ يردّد ذكرها العاطر في شتى المناسبات، ولا أنكر أن نفرّاً مخلصاً من الباحثين يُوالون الحديث عنها، ولكن نطاقهم المحدود في مجالاتهم الضيقة يدعوا إلى أن نوجّه رجال الإعلام في مجالاته الفسيحة إلى أن يقوموا بحق الوطن والعروبة والإسلام في تمجيد العامل وتقدير المُصلح، مع انتهاز كل مناسبة تحين لعرض نماذج رائعة من كفاح هؤلاء المُثابرين...

ورغبة الحديث عن هؤلاء القادة قد استولت عليّ حين قرأت منذ سنوات كتاب المغفور له الأستاذ الدكتور أحمد أمين عن (زعماء الإصلاح في العصر الحديث) حيث تحدّث عن سيّر عشرة من المصلحين المُحدّثين في الأقطار

الإسلامية المختلفة، راجياً في مقدمة كتابه أن يكون حديثه باعثاً للشباب، يستثير همهم، فيحذون حذو أولئك المصلحين ويهتدون بهديهم، وكان قلم الدكتور أحمد أمين رحمه الله من القوة والنفوذ بحيث أدى رسالته في كتابه الذائع على نحو جيد مستنير، وقد اختار الدكتور مصلحيه من رجال الطبقة الأولى في النهضة الإسلامية المعاصرة، حيث تحدّث عن أمثال محمد بن عبد الوهاب، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وأحمد خان، وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهم، ولكن طبقات أخرى من تلاميذ هؤلاء القادة قد حملوا المشعل وواصلوا السير كل قدر طاقته، وحسب اتجاهه، ولا بدّ من تدوين كفاحهم المناضل ليجد القارئ النشط سلسلة تمتدّ حلقاتها من المناضلين، فيستشعر من التفاؤل والثقة ما يبعثه على العمل الصادق، والجهاد المخلص، فيحقّق ما أراه الدكتور أحمد أمين حين تمنى أن يكون حديثه باعثاً على استشارة همّ الشباب وداعياً بهم إلى العمل الدؤوب.

وإذا كان كتاب «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» قد طُبِعَ طبعات مختلفة، وكُتِبَ له من الرواج والذّبوع ما كُتِبَ لمؤلفات كاتبه الكبير، فقد رأيت ألاّ أتعرّض للحديث عمّن عنّاهم بالقول من أئمة الطبقة الأولى من المصلحين، لأن قلّمي في خطواته المتواضعة لا يستطيع أن يأتي بجديد فوق ما قاله الباحث المتعمّق الهادئ! وأرى من اللغو السؤوم أن أتحدّث عن أناس رزقوا حظّهم من الخلود دون أن أضيف الجديد! ولكن قارئ كتابي سيجد تلاميذ برّة لبعض من خصّهم الأستاذ بالحديث، فيتطلّع إلى مراجعة ما قال عنهم في كتابه الجهير، وقد يكون من الحقّ المنصف أن من المؤرّخين الأفاضل من كتب عن هؤلاء متفرّقاً أو مجموعاً كما كتب الأستاذ أحمد أمين، ولكن أشر (زعماء الإصلاح في العصر الحديث) في نفسي كان ذا سيطرة نافذة بحيث دفعني إلى البحث عمّا أقدر عليه من حلقات السلسلة على امتدادها واختلافها، وذلك ما يجعلني أخصّه بالحديث، وكيلاً لأحرم القارئ المتعجّل من الوقوف على ملامح هامّة من ونبات أولئك القادة، فسأبيح لنفسي أن أشير إلى أهم خصائصهم البارزة كما دونها الأستاذ أحمد أمين في كتابه الرائع ليجد المتصفّح خطواته من أول الطريق.

لقد تحدّث الكاتب أول ما تحدّث عن محمد بن عبد الوهّاب، فسوّر دعوته إلى التوحيد الخالص من كل شائبة، ومهاجمته الأضرحة والنذور، ومُجاهرته بأن كلام الفقهاء في التحليل والتحريم ليس بحجّة يغلق بعدها باب الاجتهاد، إذ أن كلّ مَنْ استوفى أدواته من العلماء فله الحقّ أن يجتهد، وعليه أن يستخرج من الأحكام ما يؤدّيه اجتهاده، ثم أفاض في أثره الإصلاحي ومَنحاه الفكري متحدّثاً عمّن انتفعوا بأفكاره في شتّى الحواضر الإسلامية، ولم يعفه من نقد حين قصر دعوته على العقيدة وحدها، ولم ينظر إلى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها! وقد كان حديث المؤلّف عنه أول ما كتب بمصر في موضوعه دون إسراف في النقد أو مبالغة في المُحاباة.

ثم انتقل المؤلّف إلى مدّحت باشا المُصلح التركي، فجلا مواقفه الإصلاحية خير جلاء، وقد رأيت أن أتخطّاه إلى جمال الدين الأفغاني، لأن مدّحت باشا على عظيم جهاده، وطويل صبره، وشدّة بلائه، كان رجل سياسة أكثر منه رجل دين. أما جمال الدين فقد أحسن الأستاذ تلخيص اتجاهه حين قال^(١):

«أراد السيد أن يدعو إلى إصلاح المسلمين دينياً واجتماعياً وسياسياً، وإذ كان الإسلام تمتزج فيه العقائد بالنظم الاجتماعية وبالنظم السياسية كانت دعوته شاملة لهذه المناحي الثلاثة، وكان المثل الأعلى له حالة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين، من حيث العقيدة والصفات الخلقية والنظام السياسي، فيرى أنهم كانوا موحدّين حقاً معتزّين بدينهم، لا تفرّقهم المذاهب والنحل، مترابطين برباط الأخوة فيهم خلق الإباء والشّمم، يبذلون أعزّ شيء في سبيل عقيدتهم وعزّهم، ينشرون بينهم العلم ما استطاعوا، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في غير هواة، ثم دخل الفساد على توالي الزمن من خمسة أبواب: من عقيدة الجبر والخطأ في فهم القضاء والقدر حتى صُرِفَت النفوس عن الجدّ في الأعمال. ومما أدخله الزنادقة على تعاليم الإسلام في القرنين الثالث والرابع، فجعلوا المسلمين شيعاً

(١) زعماء الإصلاح، ص ٨٣.

وأحزاباً، وأضعفوا قوّة الدين بما أدخلوا من تعاليم فاسدة، ومما أحدثه السوفسطائية من أفكار، ومما عمله كذّبة المُحدثين من وضع أحاديث ينسبونها إلى رسول الله، وفيها السّم القاتل لروح العمل والإباء، ومن ضعف التربية والتقصير في إرشاد الجمهور إلى أصول دينهم ونشر العلم بينهم. وزاد في بعض المقالات أسباباً أخرى أهمها تفكّك الروابط بين أجزاء الأمة وترك الدعوة إلى القوة والجهاد».

وفي الحديث عن أثره السياسي نقل المؤلّف مقال الشيخ محمد عبده عن بعض جهاده حين قال الأستاذ الإمام^(١):

«إن أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ كانوا يرون شؤونهم العامّة بل وانخاصّة مُلْكاً لحاكمهم، ومَن يستنبيه عنه في تدبير أمورهم، يتصرّف فيها حسب إرادته، ويعتقد أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله أو خيانتة وظلمه، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحقّ له أن يُبديه في إدارة بلاده، أو إرادة يتقدّم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحاً لأمتة، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصروفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم، وكانوا في غاية البُعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوروبية، ومع كثرة مَن ذهب منهم إلى أوروبا وتعلّم فيها من عهد محمد علي لم يشعر الأهالي بشيء من ثمرات تلك الأسفار.

ومع أن إسماعيل أبدع مجلس الشورى في مصر سنة ١٢٨٣ وكان من حقّه أن يعلم الأهالي أن لهم شأنًا في مصالح بلادهم، وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها لم يحسّ أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن له ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية؛ لأن مُبدع المجلس قيّده في النظام وفي العمل، ولو حدّث إنساناً فكره السليم بأن هناك وجهة غير التي يوجّهها الحاكم لَمَّا أمكنه ذلك، فإن بجانب كل لفظ نقيّاً عن الوطن أو إزهاقاً للروح أو تجريداً من المال».

(١) زعماء الإصلاح، ص ٦٨.

تلك لوامع تهدي إلى معرفة اتجاه جمال الدين! وهو الآن أشهر من أن نُشير إليه بحديث. فإذا تركنا جمال الدين الأفغاني إلى المُصلح الهندي السيد أحمد خان فإننا نجد الأستاذ أحمد أمين يقرنه بالشيخ محمد عبده، لأن الإصلاح^(١) عندهما إصلاح العقلية بالثقيف والتهذيب، والنظر إلى الدين لديهما نظرة سماحة ويُسر، والاستقلال السياسي يأتي بعد ذلك، فلا استقلال لجاهل ولا لمُخرف، إنما عماد الاستقلال العلم بالدين والدنيا وبكل شيء أتت به المدنية الحديثة من طبيعة، وكيمياء، ورياضة، وفلك، وعلم نفس، واجتماع، ونظام الحكم والإدارة، وكل ذلك يحتاج إلى دين يُحيي القلب ولا يَقيد العقل، ويُغذي النفس ولا يشل التفكير، ويوجه الإنسان في حياته وفي علمه وتفكيره إلى الخير.

ثم كلاهما كان يرى أن السلطان في مصر، وفي الهند، في يد الإنجليز ولهم من القوة المادية من الأسلحة والذخائر، في البر، والبحر، ومن القوة العلمية، والسياسية، ما لا تستطيع الهند، ومصر مقاومتها. قد يستطيعون المقاومة إذا اتحدوا، ولكن كيف يكون اتحادهم مع جهلهم وضعف خلقهم؟ بل كيف يكون ذلك مع فساد أمرائهم إذ ذاك، وبحثهم عن منافعهم الشخصية ولو على حساب الأمة؟ فالأولى مُسالمة الإنجليز والتفاهم معهم، وأخذ ما نستطيع لخير الشعب منهم لفهم الإنجليز أن عليهم واجب النهضة بالشعوب التي يحكمونها عقلياً كما ينهضون بها مادياً، وأنهم مسؤولون عن جهل الأمم التي يحكمونها، كما أنهم مسؤولون عن فقرها، ثم كلاهما قد عانى من المتاعب ما عانى الآخر، فمسألة المستعمرين لا تُرضي - عادةً - دُعاة الوطنية والاستقلال ويرون فيها خيانة.

وقد يرى بعضهم أن لا مفاوضة ولا مطالبة ولا مُسالمة إلّا بعد الجلاء، ومن جهة أخرى هناك الطبقة الجامدة من العلماء التي ترى العلوم الحديثة التي أتت بها المدنية الأجنبية مفسدة، والقول بأن قوانين الدنيا في الزراعة والاجتماع والصحة والمرض وكل شيء مبني على السبب والمسبب كفر بالقضاء والقدر، وإنكار سلطة

(١) زعماء الإصلاح، ص ١٢١.

المشايخ والأولياء والأضرحة زندقة. فهؤلاء وهؤلاء يشنون الغارة على مثلي الشيخ محمد عبده والسيد أحمد خان، فيتخطون دعوتهم وسط هذه الأشواك الحادة، وقد يمدّ الأمراء دُعاة الرجعية بوسائلهم للنيل إلى أقصى حدٍّ من المُصلِحين من هذا القبيل لأنهم نقموا عليهم الالتجاء إلى معاونة الأجنبي دونهم، ولو التجؤوا إليهم مع الأسف ما نفعوهم، كلُّ هذا كان في مصر وفي الهند لأن طبيعة الأشياء واحدة وقوانين الطبيعة لا تتخلف.

هذا رأي الدكتور أحمد أمين في المُصلِحين الكبارين، ونحن نعلم جهاد محمد عبده، ونفيه بعد الثورة العربية لمحاربته الإنجليز برأيه وقلمه وجهده، وقد كان من تمكّن قوتهم عقب الاحتلال ما ألجأه إلى بعض المُسالمة الظاهرية ليتفرغ إلى تنفيذ برنامجه الإصلاحية حين اعترضه الخديوي، وألب عليه جموعاً بهمها أن تنال رضاه مهما قامت العوائق دون الإصلاح!

أما السيد أحمد خان فقد أنصفه الكثيرون ممّن قدّروا موقفه ورأوا بواكير الخير تتحقّق على يديه، وإن كنّا نرى نفراً من الكُتّاب ينقدونه نقداً لاذعاً، وقد يشتطّ أحدهم فينكر عليه كل صالح تمّ بجهده ومن وراء مسعاه، وأذكر أن الأستاذ الدكتور محمد البهيّ كان بين من سلطوا سياط نقدهم^(١) على الرجل لبعض آراء ذكرها في تفسيره للقرآن، إذ خصّه بحديث ناقد في كتابه القيم (الفكر الحديث وصلته بالاستعمار) ومع تقديرنا الكبير لهذا الكتاب الموجّه وانتفاعنا به فإننا لا نرى رأيه في السيد أحمد خان، إذ لكل مفكّر من الآراء ما ينقد ويصوّب ولا يحول ذلك دون تقديره! وإذا كان جمال الدين الأفغاني ممّن انتقدوا أحمد خان بالُعُروة الوثقى، فإن الأفغاني كان من المتطرّفين في دعوته الثائرة، وهو لا يتحمّل المهادنة ولا يميل إلى من يتحمّلها. وقد خالفه الصواب حين فهم أن أحمد خان ممّن يقولون بالطبيعة، لدورانها في بعض كلامه، على أنه من ملاحدة الدهريين! والحقيقة أنه يعني بحديثه عن الطبيعة الاتجاه العلمي إلى دراسة الطبيعة والكيمياء

(١) الفكر الإسلامي الحديث، ط ٤، ص ٢٧ وما بعدها.

والميكانيكا في عصر العلم، ومحاولة الوقوف على أسرارها في عالم الصوت والضوء والمغناطيسية والكهرباء دون أن يتعدى ذلك إلى شطط الدهريين، لذلك كان الأستاذ أحمد أمين أكثر إنصافاً للرجل، ومحاولة إصاقه بالقاديانية التي ظهرت بعد نشاطه محاولة مُجحفة لا تجد لها تكأة من يقين، ومن المفيد أن نُحيل القارئ على ما كتبه المفكر الدقيق الأستاذ عباس محمود العقاد عن السيد أحمد خان في كتابه (الإسلام في القرن العشرين) حيث قرنه في جهاده الإصلاحية بالسيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، وقال عنهم ما نصّه^(١):

«هؤلاء المُصلِحون المُعلِّمون الثلاثة نشأوا كنشأة الإخوة في أسرة واحدة، وكان بينهم من التخصّص على غير قصد ما يشبه توزيع الوظائف في المهمة الواحدة، فتولّى كلُّ منهم عمله الذي يستطيعه حيث استطاع، ولم يكن للعالم الإسلامي غنى عن واحد منهم في موضعه أو في مهمته كما فرضتها دواعي الإصلاح».

وقال عنه العقاد في مناسبة أخرى مُوضحاً علاقته بالإنجليز^(٢):

«وكاد المترجمون له أن يصفوه بالأناة والحذر، ولكنهم لو وصفوه بالإقدام أو الهجوم لوجدوا الدلائل على ذلك أظهر وأكثر من دلائل الأناة، وإن كان معنى الأناة أن يتخلف المستأني عن العمل في حينه، فما توانى أحمد خان عن مُصارحة الإنجليز بتبعاتهم وعيوب إدارتهم، وما توانى عن مُصارحة قومه بجمودهم وعجزهم ووسائل الخلاص من نكبتهم، وما توانى بعد ذلك عن مُصارحة الهند كلها بتنظيم الحياة النيابية فيها على النحو الذي يصلح لجميع أبنائها، مع تعدّد النحل وتفاوت النسبة في توزيع السكان، ولكنه كان يتأنى حين يخشى مغبة العجلة ولا يؤمن بجدواها، وكانت هذه الأناة منه أدلّ على الشجاعة من الهجوم السريع، لأنه كان يُغضب بها أضعاف من يُرضيهم بالتعجل في غير جدوى».

(١) الإسلام في القرن العشرين، ط ١، ص ١٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٠.

لقد أكثرنا من الحديث عن أحمد خان بعض الشيء لتُنصِف الأستاذ أحمد أمين كما تُنصِف أحمد خان، متذكّرين قول شوقي :

إن الذي جعل الحقيقة علقماً لم يُخل من أهل الحقيقة جيلاً

ثم يجيء حديث السيد أمير علي بعد حديث السيد أحمد خان مباشرة فيلور الدكتور أحمد أمين اتجاهه الإصلاحية في صفحات جيدة تتركز خلاصتها الدقيقة في قوله^(١) :

«لقد كان أهم ما يمتاز به السيد أمير علي الإخلاص للعقيدة، عقيدته في دينه، وعقيدته في قومه، وعقيدته في وطنه. رأى أن مواهبه في لسانه، وفي قلمه، فصقلهما صقلاً بلغ به الغاية. فهو في لسانه خطيب بارع، وفي قلمه بليغ ساحر، فلما أن بلغ بهما هذا المبلغ، وضعهما في خدمة عقيدته. يكتب عن الإسلام وعن محمد، فنصل كتابته إلى كثير من الأوروبيين الذين لم يسمعوا عن الإسلام ومحمد، إلا التافه من القول، وتصل إلى مواطنيه، فيرون معلومات مألوقة عرضت عرضاً جديداً حتى كأنها جديدة. ويوم وصل إليهم كتابه عن محمد أوقفوا الدراسة في المدارس يوماً احتفالاً بهذا الكتاب واعترافاً بحُسن أثره. ثم يستعمل لسانه وقلمه في خدمة قومه من المسلمين، فيحركهم ويجمع شملهم، ويدفعهم للمطالبة بحقوقهم، فيفقد بذلك كثيراً من المال كان يصح أن ينهال عليه، ومن ألقاب الشرف كان يمكن أن ينالها بمركزه ومواهبه وجاهه، ولكنه كان راضياً بما في يده مع راحة ضميره، وكارهاً طعم الغنى والألقاب مع عصيان الضمير. وهو من تأليفه ودفاعه وثمره عمله في غنى وشرف لا يساويهما أي غنى أو شرف».

أما خير الدين التونسي فمثل مدحت باشا، فصل الدكتور جهاده الإصلاحية في سياسة بلده تفصيلاً ندعو إلى قراءته وتتبعه، واعتذر عن الإفاضة في حديثه وحديث عبد الله النديم وعلي مبارك، لأنني أخصّ كتابي بمن كانت الوجهة

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص ١٤٤.

الإسلامية والعربية طابعهم العام في الجهاد العلمي أو القلمي، وهؤلاء على إخلاصهم الزائد وفضلهم الجَمّ، قد اقتصروا على جهات من النشاط المُثمر، تغلّبت على ما نعينه بالتحديد، وقد تُسعدنا الأيام بالحديث عنهم في مجالٍ آخر فنُرضي رغبة تتطلّع إلى تقديرهم الأكيد.

وأما الآن حديث المؤلف عن الكواكبي ومحمد عبده. أما الكواكبي فقد كان مثلاً نادراً في الرجال، مؤدّب اللسان^(١) «فلا تؤخذ عليه هفوة، يزن الكلمة قبل أن ينطق بها وزناً دقيقاً. حتى لو ألقى عليه السلام لفكر في الإجابة، متّزن في حديثه، إذا قاطعه أحد سكت وانتظر حتى يتم حديثه، ثم يصل ما انقطع من كلامه، فيؤدّب بذلك محدّثه، نزبه النفس لا يخدعه مطمع ولا يُغريه منصب، شجاع فيما يقول ويفعل مهما جرّت عليه شجاعته من سجن وضياع مال وتشريد، وهو على أنفثته وعزّته وصلفه على الكبراء متواضع للبائسين والفقراء، يقف دائماً بجانب الضعفاء. يشعّ على مَنْ يُجالسه الاتزان، والتفكير الهادئ، وحبّ الحق، ونصرة المبدأ، والتضحية للفضيلة».

وكأنني بالدكتور أحمد أمين، وقد اهتمّ بهذا الأنموذج النفسي الرائع، ليجعله قدوة للقارئ وأيّ قدوة في العصر أفضل من صاحب هذا المسلك النزيه؟ أما دعامة مذهبه الإصلاحية فتأصل في محاربة الاستبداد، وهو وباء عصره، وداء زمانه الضارب بعروقه في جسم الأمة العربية، حتى أورثها الشلل المُميت. وقد أصدر الكواكبي كتابه طبائع الاستبداد ليصيح بأعلى صوته صيحة تقلق المستبدين، وتوقظ المستبدّ بهم من المستضعفين. وإذا كان هؤلاء الظالمون يتكثرون بهتاناً على الدين في استبدادهم الغاشم، فقد سطر المؤلف كتابه^(٢) ليعلن أن الإسلام يحارب الاستبداد، فهو مبني على قواعد كريمة من الحرية السياسية، وهو مؤسّس على أصول ديمقراطية تقتضي المُرعاة التامة للمصلحة العامة، وعلى شورى

(١) المصدر السابق، ص ٢٥٧.

(٢) زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص ٢٤٩.

أرستقراطية، أو شورى الخواصّ وهم أهل الحلّ والعقد. فالقرآن مليء بما يحق الاستبداد، ويدعو إلى العدل والخضوع إلى نظام الشورى من مثل قول الله: ﴿وشاورهم في الأمر﴾، ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾. حتى في القصص من نحو قول الله: ﴿ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾. ثم إن الإسلام لا يعرف سلطة دينية، ولا اعترافاً، ولا بيع غفران ولا منزلة خاصة لرجال الدين، ولكن دخل عليه من الفساد الزائف ما دخل على كل دين، ففترقت كلمة المسلمين، وانقسموا شيعاً، وتحول الحكم من نظام شورى إلى استبداد، فصغرت نفوس المسلمين، وخفّت صوتهم، وأضاعوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فصار أمر المسلمين إلى ما نرى.

والكواكي صاحب الدعوة إلى المؤتمر الإسلامي كل عام، إذ تخيل جمعية من المسلمين تُعقد في مكة، وقد تحدّث كل مواطن عن بلده فوصف أوصابها. وأخذ يطبّ لدائها، وقد أسندت رئاسة الجمعية للعضو المكّي، والسكرتارية للسيد الفراتي - يعني نفسه بذلك - وكان الاجتماع قبيل زمن الحجّ في مكان متطرّف من مكة، وهناك تحدّث كل عضو - بلسان الكواكي في أم القرى - بما خالجه من شجون، حيث أفاض الكواكي إفاضة شافية في تشريح حالة الأمة الإسلامية، بما يُعدّ وصفاً دقيقاً لها في خاتمة القرن التاسع عشر! ولا نستطيع أن نُشير إلى كتاب (أم القرى) في سطور تحيّفه وتُشينه، بل ندعو إلى معاودة قراءته كوثيقة توجيهية فذة، وأثر أدبي ممتاز. ولكننا نلخص ما اهتدى إليه المؤتمر الخيالي من أسباب رئيسية للضعف الإسلامي العام، وهي كما بلورها الدكتور أحمد أمين^(١):

١ - أسباب دينية: ترجع إلى عقيدة الجبر ونشر ما يدعو إلى التزهيد في الدنيا، وترك السعي والعمل، واختلاف المسلمين فرقاً وشيعاً، وإضاعة سماحة الدين، وتشديد الفقهاء المتأخّرين، وإدخالهم في تعاليمه الخرافات والأوهام، وعدم المطابقة بين القول والعمل في الدين، وتهوين غلاة الصّوفيّة شأن الدين،

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص ٢٧٥.

وجعله لهواً ولعباً، والتوسع في تأويل النصوص، والتحايل على التحرر من الواجبات، وإيهام الدجالين أن في الدين أموراً سرّية. وتطرق الشّرك إلى عقيدة التوحيد، وتهاون العلماء في تأييدها، والغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة والحج.

٢ - أسباب سياسية: أهمها عدم المسؤولية، وحرمان الأمة حرية القول والعمل، وفقدانها الأمن والأمل، وفقد العدل والتساوي في الحقوق بين طبقات الأمة، وميل الأمراء للعلماء المدلسين، واعتبار العلم صدقة يُحسِن بها الأمراء على الخاصّة، وإبعادهم للناصحين وتقريبهم للمتملّقين.

٣ - أسباب خلقية: منها الاستغراق في الجهل والارتياح إليه، واستيلاء اليأس على النفوس، والإخلاد إلى الخمول، وفساد التعليم، وفساد النظام المالي، وإهمال الحقوق العامّة جُبْنًا، وتفضيل الوظائف على الصناعات، والتباعد عن المداورات العامّة.

هذه الأسباب هي علّة العلل فيما انتاب العالم الإسلامي إذ ذاك من ضعف مرير. ومؤرّخ هذه الحقبة من التاريخ سيجعلها مدار بحثه وموضع اهتمامه، إذ كانت من الصدق والدقة بحيث وضّحت الغامض، وجمعت المتفرّق، وجهد صاحبها في الاهتداء إليها ومحاولة الطلب لها مما يجعل مكانه واضحاً جهيراً في موكب الإصلاح الديني دون شطط أو إسراف، ولن يكون اهتداء زملائه من المُصلّحين كالأستاذ الإمام محمد عبده إليها داعياً إلى انتقاص الكواكبي، فقد أحسن الإبانة عنها والتحليل الصادق لبواعثها، وهي بعد خواطر صادقة تتوارد في نفوس المُصلّحين ممّن يؤمنون بعقيدة واحدة ويتجهون إلى تعاليم مشتركة كان القرآن الكريم نبراسها الوضيء.

ويختم المؤلّف كتابه بالحديث عن الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله تعالى. فيفيض في تعداد مآثره إفاضة صادقة، ويفسح له من مؤلّفه الحافل أطيب مكان، ومحمد عبده جدير بكل ما يُساق إليه من ثناء، فهو أظهر هؤلاء جميعاً

جهاداً في حومة الفكر الإسلامي، وأبرزهم في حلبة الصراع بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية، إذ ترك من الآراء وخلف من التلاميذ من حمل الراية وسار في طريقه فأكمل الشوط مهتدياً بنبراسه. وقد لاحظت وأنا أتحدث عنّ تلاجيل الرواد من مُصلّحين أن أكثرهم قد انتفع بمحمد عبده، وسار على هديه أكثر مما انتفع بزملائه الذين خصّهم أحمد أمين بالحديث. ومردّ ذلك إلى مقامه الجهير في الإصلاح من ناحية، وكثرة تلاميذه المقتدين به من ناحية ثانية، إذ أُتيح له أن يقود الصفوة من نوابغ عصره قيادة فكرية ساطعة، وكانت دروس تفسيره للقرآن لا تقتصر على طلاب العلم الديني وحدهم، بل ربما كانوا أقلّ من طلاب المدارس المدنية وأرباب الثقافة المعاصرين من رجال الأدب والسياسة والصحافة والقانون والطب، وكلّ من نازعته نفسه إلى الارتقاء العلمي في عهده.

وإذا كان المؤلف قد وفي الأستاذ الإمام حقّه من التاريخ الصادق والنقاش المتّزن، فإن الأستاذ الإمام نفسه قد تحدّث بقلمه الشخصي عن رسالته الإصلاحية حديثاً يحدّد دائرة جهاده، ويعدّد مناحي إصلاحه، ومن الخير لدارس الأستاذ الإمام أن يستمع إلى قوله الصريح مما نقله عن مذكراته الكاتب الكبير^(١):

«لقد ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين، الأمر الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لتردّ من شططه، وتقلّل من خلطه وخبطه... وأنه على هذا الوجه يُعدّ صديقاً للعلم باعثاً على البحث في أسرار الكون، وداعياً إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل، والأمر الثاني: إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كانت المخاطبات الرسمية أو في المراسلات بين الناس، وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في أمرين: كلاهما يمجّه الذوق وتكره لغة العرب، الأول: ما كان مستعملاً في مصالح الحكومة وما

(١) زعماء الإصلاح، ص ٣٢٧.

يشبهها، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات، رثَّ خبيث غير مفهوم، ولا يمكن رده إلى لغة من لغات العالم لا في صورته ولا في مادته، والنوع الثاني: ما كان يستعمله الأدباء والمتخرجون من الجامع الأزهر، وهو ما كان يُراعى فيه السجع وإن كان بارداً، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وإن كان رديئاً في الذوق بعيداً عن الفهم ثقيلًا على السمع، غير مؤدٍّ للمعنى المقصود.

وهناك أمر آخر كنت من دُعائه والناس جميعاً في عُمى عنه، ولكنه الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والضعف والذلّ إلّا بخلوّ مجتمعهم منه، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة، نعم: كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقّها على حاكمها، وهي لم يخطر لها هذا الخاطر على البال من مدّة تزيد على العشرين قرناً، دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم، وأنه لا يردّه عن خطئه ولا يوقف طغيان شهواته إلّا نُصح الأمة له بالقول وبالفعل، وجهرنا بهذا القول والاستبداد في عفوانه، والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد، والناس له عبيد أي عبيد.

ولم أكن في كل ذلك الإمام المتبع، ولا الرئيس المُطاع، غير أنني كنت روح الدعوة وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة. ولا أبرح أدعو إلى عقيدتي في الدين، وأقارب بإتمام الإصلاح في اللغة، وقد قارب. أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره، ولَيْدَ الله بعد ذلك تدبّره، لأنني قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمة من غراس تغرسه، وتقوم على تنميته السّنون الطّوال، فهذا الغراس الذي ينبغي أن يعنى به الآن، والله هو المستعان.

هكذا أنهى الأستاذ أحمد أمين حديثه عن الرواد، وهكذا لم نجد بُدّاً في هذه المقدمة المتواضعة من الطّواف حول ما قُدّم من شخصيات وما أفاد من آراء، ليكون قارئ كتابنا على معرفة من حركة البعث الفكري في الأمة الإسلامية

المعاصرة، وسيرى حين يتصفح هذا الكتاب أننا لم نأل جهداً في الإيجاز المفيد، إذ كان في مكتبتنا أن نُفرد الصفحات الطّوال لكل مُصليح على حِدة! بل كان من الممكن أن نخصّ كل واحد من هؤلاء بكتاب برأسه، ولعلّ الأيام تساعد على ذلك إذا تنفس العمر وجاد الزمن وفرغ البال، ولكننا تركنا ذلك الآن لمن يريد الكتابة المطمئنة عن مُصليح واحد يختاره ويعكف على دراسته، ليُفريده بمؤلف خاص، ومن الحظّ الموافق أن تظهر بعض الكتب الخاصّة بتراجم نفر من هؤلاء، لكنّنا أفاضل قاموا برسالتهم الكتابية أفضل قيام وأوفاه، فوفى كل كاتب حديث من اختاره من هؤلاء المُصليحين، بحيث حفلت المكتبة الإسلامية المعاصرة بتراجم ساطعة لبعض هؤلاء الأعلام، وكتابنا هذا يجمع خلاصات مركّزة لمن يخصّهم بالحديث، أترك مجال تقديرها لمن يعلم كيف قرأت مئات الصّحف وعشرات الكتب لأقدم ما يفيد، وما أبرئ نفسي من قُصور أو تقصير، إذ كان في النية أن أضيف إليهم من يشابهونهم في الجهاد ممّن أدّوا دورهم الحميد كما أدّوه! وهم بحمد الله في الأمة الإسلامية نجوم سواطع وقمم شماء، ولا أقول: إني أقدم منهم السابق والمجلّي وأترك المصلّي واللاحق، بل أقول: إني أقدم من أسعفتني المراجع القويمة بالحديث عنه أملأ أن أبعد النجعة إلى عشرات النظرات متى يسّر الله وأعان. وهو وليّ التوفيق.

وقد ذكر الأستاذ أحمد أمين في مقدمة كتابه: أنه قد نشر أكثر فصوله في بعض المجلّات، ثم أتمّه وجمعه ليسهل تناوله ويكثر تداوله، وأنا أذكر كذلك أنني نشرت أكثر كتابي هذا متفرّقاً في بعض المجلّات كما صنع الأستاذ أحمد أمين.

عبد الرشيد إبراهيم داعية الإسلام في آسيا

- ١ -

من الناس مَنْ تقرأ حياتهم فتخالها أسطورة خرافية، لِمَا حَوَتْ من غرائب الشجاعة وعجائب الجهاد، مما يتعذر في العادة أن يقوم به فرد واحد، فأنت إذا قرأت تاريخ جمال الدين الأفغاني ظننت أن الرجل معجزة خارقة، إذ كيف استطاع وحده أن يبعث أول صيحة مدوية ترحّ العالم الإسلامي في كافة أقطاره رجاً! فتراه وهو الأعزل الفرد، يهزّ أفغان وفارساً ومصر وتركيا، ويتنقل في شتّى ربوع الإسلام، ليوقد جذوة تشتعل وتستطير! حتى استطاع أن يضع معاني جديدة تعتنقها أبناء الأمة الإسلامية، ويطمس معاني أخرى من التواكل والجمود والانعزال، كان المعتقد أنها من لباب الدين وهو منها برّاء؟.

هذا الرجل معجزة حقاً، ولولا أنه رُئيَ بالعين وُسِمَ بالأذن، وألّفَ بالقلم وخطب باللسان لقال القائلون: إن وجوده يستحيل! ولنا أن نضمّ إلى أسطورة جمال الدين أسطورة أخرى شابهت الأساطير في غرائب ما أبدعت وعجائب ما أثمرت! تلك هي أسطورة الداعية الرخالة المجاهد الصابر الدؤوب: عبد الرشيد إبراهيم، فقد ناهز المائة من عمره المبارك مجاهداً في سبيل الله حتى التحق بالرفيق الأعلى في ٣١ أغسطس سنة ١٩٤٤ م.

وكان في جميع أدوار حياته مثال الذأب المتواصل والكفاح النشط، يجاهد روسيا القيصرية بسلاح الإيمان والعزيمة، ويرحل إلى الحجاز ليتعمق في دروس الشريعة واللغة، ويصل إلى تركيا ليوجه جهود الخلفاء إلى نصرة المستضعفين من أبناء الإسلام، ويسافر إلى الهند والصين واليابان ليعلن كلمة الله في ربوع نائية لا تكاد تعرف عن الإسلام غير النزر الضئيل، ثم يستطيع بعد ذلك أن يقنع الآلاف باعتناق الدين الإسلامي لينهض بعد ذلك داعيةً غيوراً يشرح شعائر الوضوء والصلاة والزكاة! وبني المساجد باذلاً الجهد في جمع التبرعات من شتى ربوع الإسلام، ليعلن كلمة الله في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال. ثم يزور مصر ليؤكد صلاته بأقطاب الفكرة الإسلامية، ويشرح أحوال المسلمين في أقاصي آسيا من بلاد الصين واليابان ومنشوريا وكوريا، وكلها قد كانت ميداناً لجولات الشيخ الدعوية، ورحلاته الدينية!.

فإذا ذهب مُصلاً إلى مسجد الإسلام بطوكيو عجب حين يرى الرجل الأسطورة في الخامسة والتسعين من عمره ينهض قبل شروق الفجر فيقيم صلاة التهجد، ثم يؤم الناس في صلاة الصبح، ولا يكاد يفرغ من تسبيحه حتى يتحلق عليه جماعة من حوارتيه ليشرح لهم سور القرآن وأحاديث الرسول، فإذا أشرقت الشمس انتقل إلى حُجرة الدراسة الملحقة بالمسجد ليجد نفراً من صبيان المسلمين يستقبلونه، فيقوم لهم بدور المعلم يكتب لهذا لوجه، ويسمع من ذلك سورته! ثم لا يستنكف أن يكون في هذه السن المتقدمة وبعد هذا الجهاد المتواصل معلّم صبيان تقرأ على يديه مبادئ اللغة العربية، ويحفظ الناشئة قصار السور من جزء عم، وبعض المأثور من حديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وهو من كبار زعماء الإسلام في ثلاثة أجيال ناهزت القرن!! وإذا كنّا في مطلع هذا المقال قد ذكرنا جمال الدين فإنما تعمّداً ذلك لنؤكد ما كان بين الداعيتين من صداقة وطيدة، ونوضح كيف التقيا في جهة وافترقا في جهة، التقيا في ناحية الشعور الحادّ بوجوب نهضة الإسلام ويقظة بلاده، ثم التنقل في شتى الأصقاع الإسلامية لإيقاظ الغافلين وتنبيه النائمين، وافترقا في مسلك الدعوة ومنحاهما.

فقد كان جمال الدين ثائراً مضطرباً يريد أن يغيّر معالم الدنيا في لحظة عين، فهو لا يهدأ له قرار، إذ يرى أمثلة مؤلمة من الخضوع والاستكانة والاحتلال، فيشعل الثورات مختاراً جنودها من تلاميذ بررة أمدهم بروحه، ونفث فيهم من حميته.

أما عبد الرشيد فقد أثر أن يكون جندياً يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، يؤلف في صمت، ويعظ في هدوء، ويرحل في مثابرة، ويترك للأيام أن تنضج بذوره الطيبة دون تعجل، وقد أحسن الله عاقبته فعمر في الإسلام حتى شاهد نوره يمتد على يديه إلى مطارح نائية كانت تغمر في الظلمات، وما مات حتى استطاع في سنة ١٩٣٩ أن يجبر البرلمان الياباني على الاعتراف بالإسلام واحداً من أديان الدولة الرسمية! وبهذا الاعتراف بنى الشيخ مسجدين لا مسجداً. وقد نشرت جريدة البلاغ خلاصة ما تمّ بصدد ذلك، إذ جاء بها ما نصّه في أحد أعداد مارس سنة ١٩٣٩ :

«أرسل الأستاذ عبد الرشيد إبراهيم رئيس الجمعية الإسلامية بطوكيو يقول: إن وزير المعارف فيها عرض في أول يوم من مارس سنة ١٩٣٩ على البرلمان الياباني مشروع قانون يسمى - زيزال أراكي - يقضي باعتبار الدينين البوذي والمسيحي دينين رسميين في اليابان، فاعترض بعض الأعضاء قائلين: وأين الإسلام؟، ثم دوت أصوات المعارضة عن شمال ويمين وطالت المباحثات في ذلك ثلاثة أيام، وانتهت برّد المشروع إلى وزارة المعارف حتى يضمّنه الاعتراف بالدين الإسلامي مع الدينين البوذي والمسيحي، وقد تمّ ذلك وصادق عليه البرلمان. فلما ذاع هذا الخبر، ونشرت الجرائد اليابانية ما دار من المناقشات فيه، أخذ الناس يأتون إلى المسجد أفواجا، ويطلبون من الجمعية الإسلامية في طوكيو كتباً في الإسلام باللغة اليابانية!».

ولقد كنّا نصلي الجمعة ذات يوم في مسجد الأستاذ الدكتور عبد الوهّاب عزّام - رحمه الله - فحدّث المصلّين عن دُعاة الإسلام في العصر الحديث، وتطرّق إلى الشيخ عبد الرشيد، فكان مما قاله آنذاك :

«إن من العجب العاجب أن يصدر الشيخ عبد الرشيد مؤلفه: (عالم إسلام) فلا يذيع وينشر ويُترجم ويعمّ كل مكتبة إسلامية، مع أنه يجمع مشاهداته الشخصية البصيرة في شتى ربوع الإسلام: في آسيا وأوروبا وأفريقيا! ويصف من أدواء المسلمين وعَلَلهم ما لم يتيسّر الإمام به لأحد إلا أن يكون الأمير شكيب أرسلان! ونحن نرى الآن طبقات متكررة لرحلة ابن بطوطة وأمثاله، فأَي شيء تكون رحلة ابن بطوطة إذا قيسَت برحلة أكبر داعية في العصر الحديث؟ لقد كان ابن بطوطة يرحل ليتزوَّج ويرى ويتمتع، دون أن يكون له هدف غير تسطير الخرافات والكرامات وتدوين ما يسمع من الأعاجيب، أما عبد الرشيد: فقد ركب البرّ والبحر والجوّ ليدعو إلى الله، وكم احتمل عنت ذوي الجهالة وسفاهة أولي الضلالة، ثم أصدر الكتب النافعة ودَوّن رحلاته المانعة، فلم تجد من الذّيوغ ما وجدت رحلات الغرائب والخرافات!..»

هذا بعض ما يحضرني من حديث الدكتور عزّام - رحمه الله - وقد كانت صلته وثيقة بالشيخ الكبير، إذ سارع إلى التعرّف عليه حين قَدِمَ إلى مصر، فأُسعده بزيارة بيته بحلوان عدّة مرّات، ثم رثاه بكلمة متواضعة، نشرها بإمضاء مستعار بمجلة الثقافة العدد ٣١٢ جاء فيها بقلم عزّام:

«وكان مجلسه يجمع المختلفين في المآرب والمذاهب على الإعجاب به والعجب منه، من مُصغٍ إلى شيخٍ رَحالة مسلم يتحدث عن جماعات المسلمين ويصف أدواءهم وأدويتهم، ومن مُنصِبٍ إلى عجائب الأسفار وغرائب الأوطان، ومن مُكَبِّرٍ لهذا الشيخ الوقور لا تقعد به السنّ عن الأسفار البعيدة، بل رأيت الصبيان يتطلّعون إلى مجلسه ليروا الرَحالة التركي الهرم، الذي جاب مشارق الأرض ومغاربها، ورأيتهم يسرعون إليه متعجّبين حين طلب ماء ليشرب، إذ علموا أنه لا يشرب الماء مجتزئاً عنه بالشاي. وكانت إحدى أمانيه أن يرى مسجداً في طوكيو، فاستجاب الله له، فأراه في اليابان مسجدين».

وإذا كان الدكتور عزّام أحد كُتّاب العرب المعجبين بعبد الرشيد، فقد كان محمد عاكف شاعر الإسلام في تركيا - وهو أيضاً صديق عزّام - يقاسمه الإعجاب

بالرحالة الدّاعية حتى جعله بطلاً مثالياً لإحدى قصصه الأدبية الهادفة، إذ تخيّل واعظاً وقوراً يقوم بين المسلمين في مسجد سليمان القانوني، فيشرح للناس بالمسجد الجامع أدواء المسلمين وعِلَلهم، ويدعوهم إلى الرشاد بعد الغي، واليقظة بعد النوم. ثم قال عنه فيما نقله الدكتور عزّام من ترجمة منظومة عاكف:

«وأسرعت الجماعة نحو الكرسي، فيا عجباً! مَنْ علّا الكرسي؟ شيخ إلّهي السّيما، كأنما ينبض قلبه في جيّنه، تحيط لحيته الطاهرة الناصعة، وعمامته البيضاء الشاهقة، بجبهته الواسعة، ووجهه الذي يرفّ عليه ضوء الصباح، كما تحيط الهالة بالبدن! ربّ ما هذه الصّباحة؟ وما هذه المهابة، وما هاتان العينان، بل الشّهابان السماويان، اللذان يحرقان الإدراك بشُعاع واحد منهما، واهاً لهذه الحُزمة النورانية الجائشة من عينيك، ولهذه الأرواح المسكينة التي تهفو إليك.

لا تحسبوا أنّي ارتقيت هذا الكرسي لأعظ، لست عالماً، فلا يخدعكم هذا الزّيّ، حسبكم علماؤكم يفقهونكم في دينكم، ويفتونكم فيما يُشكّل من أموركم، ولكن سلّوني عن العالم الإسلامي، فما تركت به بقعة إلّا زرتها وطوّفت في أرجائها، جُنبتُ ما بين أقصى الشرق والمغرب الأقصى، ولم أدع موطناً للمسلمين في آسيا وأوروبا وأفريقية إلّا يَمّمته، وتعرّفت ماضيه وحاضره! وقد حطمتني الأسفار المتبادية، وقتلني الرحلات المتوالية، ولم أصبر على المضيّ في طريقي، لولا نداء لا ينقطع، ينبجس من أعماق نفسي ألّا تقف، تقدّم، امض في سبيلك، نداء غيرتي على ديني، والغيرة التي تضطرم كالبركان بين جوانحي فلا أطيع وقوفاً، ولا أثبت في مكان، لا يقيدني حبّ النفس والوطن والأهل والولد، لا، إنها لا تُشيني عن عزمي، ولا تعدل بي عن مقصدي، ولا أبغي غير هذا... ذلكم كلّ أملي لا أبغي سواه».

ذلك إيجاز بليغ لحياة الدّاعية الكبير!

لقد أردت أن أكتب عنه فتأخّرت، إذ تقدّم إلى ذلك عاكف العظيم، ثم جاء عزّام الغيور، فأصاب في ترجمته وأبدع! وهما بعدُ أولى بالحديث عنه، فقد جالسا وشافها! وليس لي غير أن أستعيد!

على أني بعد هذه الإمامة القصيرة ببعض مناحي هذه الشخصية الكبيرة،
أنتقل إلى الحديث عن تاريخه الشخصي، ليتحدّد الإطار العام لصورة خلافة ذات
بهاء مُشرق وسّمت بديع!!.

- ٢ -

حين كانت القيصرية الروسية في قمة طغيانها العنصري، كان المسلمون في
مجاهل سيبيريا يُعانون أشقّ ضروب العنت والاضطهاد.

وقد وُلِدَ الشيخ عبد الرشيد بمدينة تارا بسيبيريا سنة ١٨٤٦، في أسرة تعزّز
بإسلامها، ولا يزيدُها النكال العنصري إلّا تمسكاً بدينها القويم، فأُتيح له أن يتلقّى
دراسة بصيرة على أيدي أناس يفهمون رسالة الإسلام حقّ الفهم، ثم أُريد له أن
يتزوّد من معين الثقافة الإسلامية بالحجاز، فارتحل في الثانية عشرة إلى مكة،
وأخذ في مدى عشرين عاماً يغذّي نفسه بمصادر العربية الصحيحة، ويُجالس حَمَلَةَ
هذا الدين في مهده الأول، مستعيداً تاريخه الأزهر في مرابعه الوضيئة، وكانت كل
خطاه ما بين مكة والمدينة تذكره بتاريخ السلف، فتوقد في صدره حمية مشتعلة
وغيره متيقظة، وكأنه قد عزّ عليه في مغتربه النائي أن يترك أبناء وطنه في مجاهل
سيبيريا يتعرّضون إلى من يززع عقائدهم بشبّهات باطلة وأراجيف مختلفة، دون أن
يجدوا من يميّز لهم الخبيث من الطيب في منطق واضح وإيمان سديد، فكرّ راجعاً
إلى بلده مزوداً بحصيلة وافية من المعارف الدينية الصحيحة.

ولم تمضِ غير سنوات حتى عقب أريجته، وفاح عرفه، فانتخب قاضياً
بالمحكمة الشرعية، ثم وكيلاً للإفتاء الديني. ولم يكن ممّن تخدّروهم عليا
المناصب، فيؤثرون الراحة على الجهاد، بل جعل منصبه أداة توجيه وإصلاح،
فجاهر القيصرية بوجوب العمل على مساعدة المسلمين ومساواتهم بغيرهم، إذ هم
سواء في الحقوق والواجبات. ولكن كلمة الحق تصمّ الأذان، وتثير الحفائظ لدى
المُغرضين، فدبّروا أمرهم للوقعة به، ولكنه لمح خيوط المكيدة تحاك بليل، ففرّ

إلى إسطنبول مقرّ الخلافة العثمانية، وجهر بمآسي قومه في بلاد القيصرية، ونشر رسالات مدعمة بالوقائع والأسانيد.

حتى إذا هدأت الحال بعض الشيء، لم يرضَ المنصب في دولة الخلافة، وارتحل ثانية إلى مضمار الجهاد في وطنه، وكافح وجالد حتى استطاع أن يستخرج رخصة بإصدار رسائل مؤقتة تقوم مقام الصحافة، وأخذ يوالي رسائله باللغة التركية القازانية تحت عناوين: المرأة، والصيحة، وألفت، وضمّ إليه الطبقة المستنيرة من أبناء دينه، فكانوا يجمعون المسلمين من كل بلاد الروس ليقروا عليهم نشرات عبد الرشيد، وهي دعوات جريئة إلى الإصلاح الديني، والتمسك بمبادئ الإسلام، واليقظة المتنبّهة إلى ما يدبره الصليبيون من مكائد سافرة لا تلتئم بقناع.

ثم شاء أن يجعل للغة العربية نصيباً من دعوته، لتصل رسالته إلى أبناء الإسلام في الشرق العربي، فأصدر بعض رسائله المتتابعة بالعربية تحت عنوان: «التلميذ» وأسمع بها مأساة قومه في كل صقع عربي! وليته وجد سميعاً، فإن قراء العربية من المسلمين كانوا في شغلٍ شاغلٍ بكوارثهم الاستعمارية عن إخوانهم في بلاد الروس.

ثم شاءت الأقدار أن تندحر جيوش روسيا أمام اليابان، فاشتغلت القيصرية بنفسها عن التعصّب قليلاً، ونهض المسلمون بقيادة عبد الرشيد إلى كتابة المقالات الموقظة، ونشر الدعوات التحررية.

ثم رأى الشيخ أن يقوم بجهاذه التبشيري، فتعددت رحلاته منذ سنة ١٩٠٥ إلى تركستان، ومنشوريا، وبلاد المغول، واليابان، وكوريا، والصين، وسنغافورة، وجزائر ما وراء الهند ليعلم الناس أن الإسلام دين المستقبل، وأنه أول دين يهتف بالحرية والإخاء والمساواة، فلاقى من الصعوبات الخطيرة ما يؤود العصبية أولي القوة، فكيف بفرد واحد يسافر بعيداً إلى مطارح مجهولة دون عضد من مال أو رفيق! ولكنه حصر رسالته في التبشير الإسلامي، لا يبالي على أيّ جنب كان في الله مصرعه.

وإذا كان الله لا يضع أجرَ العاملين، فقد لمس المجاهد الكبير من بشائر التوفيق ما زاده إيماناً وحماسةً، حتى دُعرت منه دوائر التبشير المسيحي بآسيا وعدته - وهو الوحيد الفقير الأعزل - خطراً على جمعياتها التبشيرية، ومؤسساتها المالية، ذات المورد الضخم والرعاية الكبرى، من أمم غالبية تتحكّم بالمال والقوة والبطش، في عصرٍ كانت أوروبا فيه صاحبة الأمر، وباعثة الحضار والمدنية والعلم، كما يحلو لأذنانها أن يذيعوا ذلك عنها في كل مكان!.

ولعلّ جهاد عبد الرشيد وحده مما يعطي للعالم أجمع أكبر دليل لا يقبل الشك على أن الإسلام ينتشر بمبادئه وحدها، وأن عوامل بقائه كامنة في تعاليمه. وإلاّ فبأيّ سلاح ضمّ هذا الداعية الغيور إلى الإسلام آلافاً من الناس غير سلاح المنطق والإقناع والدعوة إلى الله بالموعظة ومجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن!.

لقد كان بعض القساوسة من مُبشّري المسيحية في الصين يرى انتصارات عبد الرشيد الرائعة، فيكتب إلى وزارة الخارجية في بلاده ليسرّ إليها بأن المسيحية تعاني كثيراً من جهود عدوّ يزحف عليها بقوّته!.

وقد فهمت وزارة الخارجية الأمر على غير وجهه، فبعثت تساءل عن قوّة هذا العدو ومدى نفوذه الحربي، فإذا الإجابة المُخزّية تعلن أن الشيخ واحد ذو منطق وإيمان.

ولم يضنّ الشيخ على أحد بتجربياته في الدعوة ومعلوماته الحيّة مستمدة مما رأى وشاهد، فنشر رحلاته في مجلدين كبيرين تحت عنوان (عالم إسلام). اشتغل بالتحريّر في أمّهات الصُحف الإسلامية بتركيا، وفي طليعتها مجلّتا: معلومات، والصراط المستقيم!.

ولك أن تدهش حين تجد الرجل يترك مجال المنبر والقلم، ليشارك في ساحة الحرب، حين تدفعه الرغبة المُلحّة في نصر الإسلام، فقد أسهم في حرب

طرابلس ضدَّ العدوان الطلياني سنة ١٩١٢ . وحين قامت الحرب العالمية الأولى أخذ مكانه في الجبهة الإسلامية، فنشط إلى القوقاز مع الجيش العثماني، ثم دلف إلى ألمانيا للاتصال بأسرى المسلمين هناك، وما زال يجوب الأقطار من شرق لغرب حتى انتهت الحرب على غير ما يودّ، فلم ييأس في شيء، بل ترك ميدان الحرب ليعود مُبَشِّراً في اليابان! .

وما زالت جهوده تتوالى حتى أسلم على يديه المئات والآلاف، وحتى أصبح الإسلام مُعْتَرِفاً به في بلاد الشمس المُشْرِقة . وقد ارتفعت في طوكيو مئذنتان عاليتان في مسجدين كبيرين، تردّد كلتا هما في اليوم الواحد خمس مرّات هتاف الإسلام الخالد: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله! .

إنّا لنعلم أن بعض كُتّاب القصص الروائية يبحثون عن بطل جريء تكون له وقائع مُذهِلة تجذب القارئ، فهل ينهض أحدهم إلى كتابة قصة عبد الرشيد، وهي ببطولاتها الرائعة تُغني عن الاختلاق والافتعال؟ أو ليس لهم أسوة في محمّد عاكف حين جعل عبد الرشيد بطل قصته الخالدة، فتحدّث عنه وهو حيّ ليقدم المثل الرائع والأنموذج الفريد .

محمد الخضر حسين في آثاره العلمية

- ١ -

يحلو لكثيرٍ من النقاد أن يصنّفوا المؤلفين طبقتين: طبقة العلماء، وهم أرباب البحوث العلمية في الفقه والتشريع والعلوم اللسانية من نحو وبلاغة وتصريف. وطبقة الأدباء، وهم أصحاب الآثار الفنية من نثر بارع الصّوغ صادق العاطفة، وشعر رائع المعنى دقيق التصوير. فإذا نظم العالم شعراً أو ألف الأديب مصنفاً علمياً، فقد سلك مسلك التكلّف والافتعال.

وربما دَعِمَ هذا التقسيم لديهم ما يشاهدونه كثيراً من ركاسة أشعار العلماء، وضحالة إنتاج الأدباء!

وهذا حقٌّ في أكثر أحواله، ولكنه لا يمنع أن يوجد من الموهوبين مَنْ يبرز في الناحيتين على نحوٍ يدهش ويروع!

أذكر أنني كنت أقرأ كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصومه» للقاضي الشهير علي بن عبد العزيز الجرجاني، فأجد الرائع المبدع من التحليل الأدبي والصّوغ البياني، مع الاستشفاف الملهم لأسرار الروح ونوازع الوجدان، ثم أنتقل إلى ما رواه الثعالبي من شعره فأجد المطرب المرقص مما يملك الوجدان دقة إحساس ولطافة منزع! والرجل بعد قاضٍ فقيه! يؤلف في الفقه والتشريع، ويحذق أساليب

الاستنباط والقياس وقواعد الأصول ذات المنحى العويص!! وتفوّقه في الناحيتين المختلفتين دليل ملموس على أن العلم لا يمنع الأدب، فقد يوجد من ذوي المواهب من يطير بجناحين متعادلين، فيحرز قصب السبق في مضماري العلم والأدب دون نزاع.

ولقد كان السيد محمد الخضر حسين أحد هؤلاء دون جدال!

فالرجل قاصّ فقيه، يكتب في الأصول والتشريع والتاريخ كتابة المتمقّق الدقيق، وقد كان يدرّس لطلاب كلية أصول الدين أبواباً من السياسة الشرعية، يغوص فيها مغاص الأصول الجدلي المتكلّم النظار. ثم هو صاحب رسائل أدبية، ومقالات تحليلية، وديوان شعري، يجعله في طليعة أرباب الفن الرفيع، ولا ندري كيف تأتّى له ذلك، ومنشؤه العلمي بجامع الزيتونة في تونس، إن استطاع أن يلهمه بصر العالم، فلن يستطيع أن يورثه ذوق الأديب دون جهدٍ جهيد!!.

وُلد الأستاذ بقرية من قرى الجزائر على حدود القطر التونسي، في أسرة تعترّ بعراقة النسب، وتفخر بمن أنجبت من العلماء والأدباء، وحين بلغ الثانية عشرة من عمره التحق بجامع الزيتونة طالباً، وأكبّ على التحصيل والتلقّي حتى نال الشهادة العالمية عن جدارة، وتهياً للإفادة العلمية كاتباً ومُدّرّساً وقاضياً.

وتسألني عن طريقة التدريس بجامع الزيتونة إذ ذاك، فلا أجد أحسن مما قاله الأستاذ أحمد أمين في كتابه «زعماء الإصلاح» ص ١٤٨ :

«وعلى رأس هذه الكتابات جامع الزيتونة، وهو صورة مصغّرة من الأزهر في ذلك العهد، تقرأ فيه علوم الدين: من تفسير وحديث وفقه وعقائد، وعلوم اللغة من نحو وصرف وبيان ومعاني، في كتب مقرّرة لها مُتُون وشروح وحواشٍ، ويقضي الوقت في تفهّم تعبيراتها، وإيراد الاعتراضات والإجابة عنها، فالعلم شكل علم لا علم، والنتاج جدل لا حقائق، والناجح في الامتحان الذي يستحقّ أن يكون عالماً أقدرهم على الجدل، وحفظ المصطلحات الشكلية، أما الجميع فسواء في عدم التحصيل إذا مسّوا الحياة الخارجية. فالمناقشة في أن شرب الدخان حلال أو

حرام، والغيبة أشدَّ حرمةً أم سماع الآلات الموسيقية، وخيال الظلّ تجوز رؤيته أو لا تجوز».

ويقصُّ الأستاذ محمد الخضر حسين نفسه طريقة أحد أساتذته في التدريس، فيقول عن شيخه عمر بن الشيخ نقلاً عن مجلة «الهداية الإسلامية» جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥ هـ:

«أما أسلوب الأستاذ في التعليم فمن أنفع الطرق، كان يقرّر عبارة المتن، ويبسطها حتى يتّضح المراد منها، ثم يأخذ في سرد عبارات الشرح، وما تمسّ الحاجة إليه من الحواشي والكتب التي بحثت في الموضوع، لا سيما الكتب التي استمدّ منها شارح الكتاب، ويتبعها بالبيان جملة جملة، ولا يغادر عويصة أو عقدة إلّا فتح مغلقتها، وأوضح مجملها، بحيث يتعلّم الطالب من دروسه كيف تلتقط جواهر المعاني من أفواه المؤلفين زيادة عمّا يستفيده من العلم».

ثم يقول عنه: «تلقيت عن الأستاذ رحمه الله دروساً من تفسير البضاوي، ودروساً من شرح التاودي على العاصمية، ودروساً من شرح الشيخ عبد الباقي على المختصر الخليلي، وكنت بعد أن استقال من منصبي الفتوى ونظارة الجامع أزرره كثيراً حرصاً على الاستفادة من علمه».

هذه الطريقة في الشرح والتلقين هي نفسها الطريقة الأزهرية القديمة التي نادى محمد عبده بوجوب إصلاحها، ودعا إلى نمط آخر من الدراسة يهتم باللباب دون القشور، وأرجح أن بعض أساتذة الزيتونة لم يكونوا من هذا الطراز، لأن الشيخ الخضر في غصون مقالاته الكثيرة يتحدث عن أستاذه سالم أبو حاجب، فيرينا نمطاً من العلماء الأفذاذ يهتمون بالحقائق الخالصة، ويعملون على إحياء الوعي المجدّد الناهض، فهو مثلاً في دروسه كان يستشهد على كل كلمة لغوية بيت من الشعر، مما ينبيء بكثرة محفوظه الأدبي، وزملاؤه إذ ذاك كانوا لا ينظرون إلى دواوين الشعر العربي نظرة تأمل واستيعاب، وأكاد أجزم أن وجود هذا الأستاذ في حياة الخضر العلمية كان ذا أثر بعيد في اتجاهه الفكري، فهو الذي حدّا به

إلى البُعد عن دائرة الحواشي والمتون والتقريرات، وهيمًا لأن يرد التراث العلمي من أصفى موارده في أمّهات الكتب للشافعي وابن حزم والغزالي والفخر والشاطبي، وأمثال هؤلاء من أفذاذ العلماء!.

ولا تجد تعليلًا لنبوغ الخضر في حديثه، وتفوّقه عن أقرانه غير صفاء مورده، ودسامة غذائه الفكري، على حين يظل الزملاء في مصر وتونس مُولعين بكتب المُماحكات، وحواشي المتون!.

تخرّج الأستاذ في الزيتونة صحيح العلم، واسع الأفق، فصيح العبارة، وراعٍ أن يرى الاحتلال الفرنسي يأخذ بمقبضه الحديدي على أعناق المسلمين في أصقاع المغرب بشتى نواحيه التونسية والجزائرية والمراكشية! فطفق يدعو إلى اليقظة والتحرّر، وأنشأ مجلة السعادة العظمى، لتوضح للقارئ مأساتهم الدامية، وتكشف تخلفهم الحضاري والعلمي، وبُعدهم عن تعاليم الإسلام في مجتمع يقول الأستاذ أحمد أمين في وصفه ص ١٤٩ :

«جزء كبير من السكّان بدو لا يعرفون من الإسلام إلاّ الشهادتين، ولا يصل إليهم شيء من علم إلّا في بعض أماكن أنشأ فيها الصوفيّة زوايا تعلّم الناس شيئاً من الدين، وللجاليات الأجنبية من فرنسية وإيطالية وإنجليزية مدارس تعلّم أبناءها وقليلًا من أبناء البلاد؛ اللغات والجغرافية والتاريخ والحساب والجبر والهندسة، فتخرج من هم أقدر على فهم الحياة، فإذا انغمسوا فيها، تحوّلت مالية البلاد إلى أيديهم. وأما إدارة البلاد ففوضى، الحاكم حاكم بأمره، وأحبّ الناس إليه من يجمع له المال من حلّه وحرامه، ولا ضبط في دخل ولا خرج، والعدل والظلم متروكان للمصادفات، فإن تولّى بعض الأمور عادل عدل، وكان العدل موقوفًا بحياته - وقلّما يكون - ونظام القضاء والجيش والإدارة والضرائب وجباية المال وإنفاقه على النمط العتيق البالي، وكثير من الأمور تنفّذ بالأوامر الشفوية، لا مرجع لها ولا يمكن الحساب عليها».

هذه حال تونس! وهي مشابهة لأكثر أحوال الممالك الإسلامية في أواخر القرن الماضي، وأوائل هذا القرن، ولو كان الأستاذ الخضر ممن يفكرون في ذواتهم الخاصة، لقع بما أسند إليه من وظائف القضاء بالمحاكم، والتدريس والخطابة بالزيتونة وغيرها من المدارس، وهي وظائف تضمن العيش الرغيد، وتوفر صعب الرزق، بل إنها كانت عند بعض الوصوليين مدعاة التقرب من المحتلين، إذ يصيرون لعبة هينة في أيديهم، يصدرون عن آرائهم، ويمهدون لتمكين سيطرتهم بما يلقون من تقرب وتمهيد!.

ولكن الرجل حيّ الضمير، شديد الحساسية، فقد رأى الأجنبي يحاول أن يطمس نور الشريعة عن عيون تهيم بالإسلام، كما يبذل قوته الحاشدة لتشويه اللغة العربية والحكم عليها بالجمود والتقهقر، لينصرف الناس عن قرآنهم المجيد وأحاديث نبيهم الكريم، ثم تنقطع صلاتهم بأصحاب الذخائر العلمية الرائعة من ورثة الأنبياء وهداة المصلحين!.

لذلك أنشأ صحيفة السعادة العظمى على نمط العروة الوثقى، لتشر محاسن الإسلام، وتفضح أساليب الاستعمار، وكانت خطة السيد منذ حمل لواء الدعوة في صباه إلى أن لقي الله في شيخوخته واضحة مفهومة، فهو يعتقد أن فساد الأمم الإسلامية يرجع في أصح أسبابه إلى انصراف المسلمين عن هدى الشريعة الإسلامية، ويرى أن السيطرة الأوروبية لم تملك زمام الأمور في الشرق إلا حين اعتصمت بالعلم واستضاءت بالعقل، وأن الشلل العقلي لم تتمهد وسائله المؤسفة وأسبابه الفاتلة في ربوع الدين الحنيف إلا حين استطاع الدخلاء أن يلبسوا الحق بالباطل، فَيَصْمُوا الإسلام بما هو براء منه من الجمود والتزمت والاستسلام، والأخذ بالخرافات والبدع والغيبات المزعومة مما لم يأت به وحي سماوي، أو هدي نبوي!.

ولذلك كانت مهمة السعادة العظمى شاقة خطيرة، إذ أخذت تحارب القوة والمال والنفوذ بعزم واثق، وجهد صابر أمين!!.

والرائع حقاً أن الأستاذ رضي الله عنه، قد ثبت على معتقده ثبات الأبطال في كل مكان رحل إليه، فهو في تركيا ودمشق وألمانيا والقاهرة شاباً وكهلاً وشيخاً، هو هو في تونس، يافعاً غصاً يناهض الباطل بالحق، ويحارب الكفر بالإيمان!.

ومن يطالع روائع قلمه، وبخاصة كتاب رسائل الإصلاح بأجزائه الثلاثة، يدرك يقينه الثابت بماضي الأمة الإسلامية، فهو في كل مقال يخطّه، أو محاضرة يُلقِيها، يلتبس الأدلة اليقينية على مجد السلف، وعزّ الأجداد، وكان ذلك أمراً لا بدّ له أمام مزاعم الاستعمار وأذنبه ممّن يرون في الشرق كل تأخر وانحطاط، وفي الغرب كل تقدّم وازدهار.

ويمكننا أن نستعير بعض ما كتبه السيد في مقدمة كتابه «نقض الشعر الجاهلي» ليري القارئ إجمال دعوة الرجل موجزاً بقلمه البليغ، قال الأستاذ:

«نهضت الأمم الشرقية فيما سلف نهضة اجتماعية، ابتدأت بطلوع كوكب الإسلام، واستوثقت حين سارت هدايته سيرها الحثيث، وفتحت عيون هذه الأمم في طريقة الحياة المثلى، سادت هذه النهضة وكان لها الأثر الأعلى في الأفكار والهيم والآداب. ومن فروعها نهضة أدبية لغوية، جعلت تأخذ مظاهرها العلمية لعهد بني أمية، واستوت على سوقها في أيام بني العباس.

تمتع الشرق بنهضته الاجتماعية والأدبية حقاً، ثم وقف التعليم عند غاية، وأخذ شأناً غير الشأن الذي تسمو به المدارك وتنمو نتائج العقول، فإذا غفوة تدبّ إلى جفون هذه الأمم، ولم تكد تستفيق منها إلّا ويد أجنبية تقبض على زمامها.

التفت الشرق إلى ما كان في يده من حكمة، وإلى ما شاد من مجد، وإلى من شبّ في مهده من أعظم الرجال، أخذ ينظر إلى ماضيه ليميّز أبنائه بين ما هو تراث آبائهم وبين ما يقبسونه من الغرب، ويشعروا بما كان لهم من مجد شامخ، فتأخذهم العزة إلى أن يضمّوا إلى التاليد طريفاً، وليذكروا أنهم ذرية أولئك السّراة، فلا يرضوا أن يكونوا للمستبدّين عبيداً».

هذا هو المجال الذي انطلق فيه يَراع الأستاذ طيلة حياته، مجال التذكير بالأمجاد عن دراسة وتنقيب، وكشف الخداع عن بهارج الغرب في استشفاف ونفاذ، ووضع العلاج لأدواء الشرق في بصر وتشخيص!!.

وقد ألحّ في ذلك إلحاحاً جعل فريقاً من المؤرخين يفهمون رسالته الإصلاحية على غير وجهها الصحيح.

فالأستاذ ولفريد كانتويل سميث أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة مونتريال، يضع كتاباً عن الإسلام في التاريخ الحديث، يتعرّض فيه إلى مجلة الأزهر، موازناً بين رئيسي تحريرها السابقين محمد الخضر حسين ومحمد فريد وجدي، فيجعل الأول ممثلاً للمدرسة السلفية فقط، والثاني مجدداً عصرياً تسير طريقته في التجديد على قواعد المعرفة الحديثة، وهذا شطط بالغ تنبّه إليه الأستاذ عباس العقاد حين تعرّض لنقد الكتاب، فقال نقلاً عن مجلة الأزهر رجب سنة ١٣٨١ هـ:

«ويقول صاحب الكتاب في مقابله بين منهج الشيخ الخضر، ومنهج الأستاذ وجدي، أن أولهما يعتبر الإسلام وحياً تاماً، قد تنزل على صورته الكاملة عند عصر الرسالة الإسلامية، فلا إضافة إليه ولا زيادة عليه، ولا تحوير فيه، وإنما الإيمان بالإسلام هو الذي يحتمل القوة والضعف، كما يحتمل زيادة المعرفة أو النقص فيها، أو يحتمل المراجعة من عصر إلى عصر لتفقّد الآثار العصرية فيه، وليس الأستاذ الخضر كما يرى المؤلف من أنصار الحنين إلى الماضي، بل هو من أنصار الدعوة التي لا زمان لها، لأنها صالحة لكل زمان، ومهما تتجدّد مذاهب المعرفة، فالمسلم يسلم أمره إلى إرادة الله كما هدته معارفه إلى فهم تلك الإرادة الإلهية بالدرس والإلهام، وقد تساوى في نظر الشيخ الخضر كلا الطرفين من المسلمين في الحاجة إلى التصحيح والإصلاح، وهما - على تعبير المؤلف - طرف اليسار من المتعلّمين الذين جاوزوا حدود الإسلام، وطرف اليمين من الجامدين وأتباع الطرق الصوفية الذين ضيّقوا حدوده عليهم وإن لم يجاوزوه».

ولم يسكت المستعمرون الفرنسيون عن صاحب السعادة، وقد أقض مضاجعهم بما ينادي به من استقلال وإصلاح، فأذوه وناوؤوه، وحكموا عليه بالإعدام، حتى اضطر إلى الفرار إلى الأستانة واهماً أن مجال الإصلاح بها أوسع وأرحب، ولكنه فوجيء بانتهيار آماله حين وجد عاصمة الخلافة الإسلامية مسرحاً للدسائس المغرضة والمؤامرات الرخيصة، وأن من يجعلون أنفسهم رجال الدين هناك لا يدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة، بل لا يتناهون عن مُنكر يفعلونه، فهم يحيكون المكائد بالليل، ويفسرون المنامات، ويقرؤون الكفّ بالنهار، على أنهم يضيّقون بكل عالم مُصلح يصدع بالحق، وينادي باليقظة والاستبصار.

فهاجر الرّحالة الصابر المُحتسب إلى دمشق، وحرص على البقاء بها مُدرّساً للعربية في المدرسة السلطانية، ولكن مبادئه تهتف به أن يُسهم بنصيبه في البعث الإسلامي، فيكتب ويخطب ويدعو، ثم يسافر إلى ألمانيا فيلتقي بالأحرار من أنصار الفكرة الإسلامية أمثال محمد فريد، وعبد العزيز جاويز، وعبد الحميد سعيد، ويعملون جميعاً على استقلال الدول الإسلامية أمداً طويلاً في وطأة الحرب العالمية الأولى، وبين طلقات المدافع وأزيز الطائرات، في مسرح جهنمي يشيب له الرؤوس!!.

ثم يعود إلى دمشق ثانية، فيواصل التدريس بالدار السلطانية ويقرأ كتاب مُغني اللبيب، ليكون فيما بعد أساساً لمؤلف نحوي بلاغي شامل، حتى إذا ختمت الحرب، وأسرعت فرنسا باحتلال الشام، رأى نفسه مضطراً إلى الهجرة بنفسه، فراراً من هؤلاء الذين حكموا عليه بالإعدام في تونس، يسابقه جهاده، ورائعة نضاله، فيمّم وجهه شطر الديار المصرية، ليصبح له فيها شأن جديد.

- ٢ -

حضر السيد محمد الخضر حسين إلى مصر في وقت عصيب من تاريخها الفكري، وكانت الحاجة ماسة إلى رجل مثقف من رجال الدين، قد فهم الشريعة

فهماً صحيحاً، يستند إلى الأصول من القواعد والأمهات من المراجع، مع مطاوعة سهلة للبيان النير المُشرق، يوضح به للقرّاء ما التبس عليهم من أوجه الخلاف بين دُعاة الإلحاد وأنصار الفكرة الإسلامية، هؤلاء الذين وُصفوا فيما بعد بأنصار القديم، ووصفت خصومهم بأنصار الجديد، كما حَلَّ للدكتور طه حسين أن يُسهب في ذلك ويزيد!.

نعم كان المخلصون من حُماة الفكرة الإسلامية في غير الدوائر الدينية الرسمية كثيرين، ولكن وجود العالم المحقق الأديب المبين محمد الخضر حسين أمر ضروري، يحتم أن يقوم أحد أصحاب العمائم المستنيرة بالجهر بكلمة الإسلام فيما رَأَى من شكوك، وما أذاعه أذنان الاستشراق من مفتريات! وقد ملئ كتابا الشعر الجاهلي، والإسلام وأصول الحكم بأقسى عبارات التهكم بالمعممين! فحق لأحدهم أن يقول فيجيد!.

كانت سيطرة الثقافة الاستعمارية بعد الحرب العالمية الأولى مدعاة إلى إغراء برّاق بأوروبا، وازدراء ناظم لأمجاد الشرق في رأي من جهلوا الحق فضّلوا عن سبيله، ومن عرفوا الحق مستبصرين ولكنهم مالّوا الباطل ليصلوا إلى الشهرة والجاه والزعامة الفكرية من سفاح دنيء لا يعرف معنى الشرف في القول أو الفعل، وإن تسترّ بخداع زائف من التصايح بالحرية الفكرية، والمنهج العلمي، ويشهد الله أن لا حرية ولا منهج، ولكن الهوى يُعمي ويُصمّ.

ما كاد الأستاذ الخضر ينزل حيّ الحسين بمصر غريباً لا يعرف أحداً من الناس، ومهاجراً في سبيل الله بقلمه المجاهد الشجاع، حتى وُفّق لعمل بدار الكتب بأجر زهيد لا يتفق ومنزلته الكبيرة، ولكنه كان بتوفيق الله صلة حميدة إلى اشتهاره الأدبي، ونبوغه العلمي، ثم إلى اتصاله بأشباهه من الغُير على مقدسات الإسلام من أعلام المفكرين، كأحمد تيمور، ومُحبّ الدين الخطيب، وعبد الحميد سعيد، وعبد الوهاب النجار، ومحمد رشيد رضا، ثم شاءت الأقدار أن تفتضح معركة الشعر الجاهلي، وأن يكون الأستاذ بطلاً معلماً من أبطال المعركة، يصيح بالحق ويندّد بالضلال.

لقد ظهر كتاب الشعر الجاهلي ينادي باحتقار كل قديم دُونَ في صُحف الأدب والشك فيه، ويزعم أن جُلَّ ما قيل منسوباً إلى شعراء الجاهلية اختلاق زائف بغرض، وهذه الآراء مهما صادمت البداءة الواضحة لا تُحدث ضجة بين الناس يسعى إليها الدكتور طه حسين باذلاً جهده الجهيد، فلا بدّ إذن من الهجوم على المقدسات الدينية هجوماً لا هوادة فيه، فليتعرّض الكاتب إلى القرآن المجيد، وليزعم أن حديثه عن إبراهيم وإسماعيل لا يكفي لإثبات وجودهما في التاريخ! وليعلن أن المنهج الديكارتي هو الذي يفرض عليه هذه الجرأة الطاغية، وأنه اتبعاً لهذا المنهج يشكّ في كل شيء يقال في قول قرآني أو أثر محمّدي، أو متواتر ذائع من القصص والشعر والخطب والتاريخ، إذ أن رواية ذلك وتسجيله لا يكفيان لإثباته دون بحث عن العوامل القريبة والبعيدة في الرواية والتدوين.

ونحن لا نريد أن نفيض في دعوى الانتحال الشعري لأنها لبّ الكتاب وفحواه، وهي دراسة أدبية يتبيّن وجه الحق في بطلانها من أيسر طريق.

ولكننا نلخص ما تورّط فيه الكاتب مُلِحاً ليهاجم الإسلام هجوماً يُرضي أساتذته من قساوسة المستشرقين، ويجعل الرجل صاحب دعوة جديدة في الفكر الإسلامي الحديث.

فالدكتور طه يعلن أن محمّداً قد استغلّ المقدّسات الدينية بمكّة وفي مقدمتها البيت الحرام الذي بناه إبراهيم، كيلا يفقد قوّته الروحية مع صراع الشّرك، فالمسألة مسألة استغلال للسيطرة فحسب لا أن بيتاً لله بناه إبراهيم على وجه التحقيق.

والدكتور يعلن أن القرآن لم يكن جديداً على العرب، إذ أن عقائده الجديدة كانت معروفة في شبه الجزيرة بدليل عجيب يرتضيه طه وحده. وهو قبول من قبل ومعارضة من عارض، إذ لو لم يكن مألوفاً ما حفل به أحد.

والدكتور طه يعلن أن دعوة الإسلام دعوة محلية في جماعة خاصّة وفي حياة خاصّة، فهي ليست دعوة عامّة للبشرية كما ينطق بذلك القرآن الصريح.

ومنطق هذا كله كما يقول الأستاذ البهيّ في كتابه: «الفكر الإسلامي الحديث ص ١٩»: إن القرآن ليس وحياً لرسالة الله!!.

وإذا كان المؤلف النابغة قد أثبت اقتراب هذه الأفكار من كتاب المذهب المحمّدي للمستشرق الإنجليزي جب، فإن الأستاذ الخضر قد استطاع أن يجد الأصل الاستشراقي الذي سطا عليه الدكتور سطواً فاحشاً فيما كتبه الدكتور مرغليوث في مجلة الجامعة الآسيوية الملكية سنة ١٩١٦، وفي كتاب محمد المطبوع سنة ١٩٠٥.

وقارئ الردّ المفجّم الذي كتبه الأستاذ يرى عجباً حين يجد الدكتور يضطر للشك في المتواتر من أخبار القرآن بحكم منهج ديكارت، ثم يقبل كل رواية مريضة واهية يذكرها كتاب الأغاني، كحقّ مسلم يستند إليه في قضية الانتحال، حتى اضطر القارئ إلى الاعتقاد بأن المنهج الديكارتّي لا يصلح فقط إلّا حين يجابه الحقائق لا الأراجيف، وإذا كان فريق من الأساتذة الأعلام كالأستاذ الرافعي، والغمراوي، ومحمد لطفي جمعة، ومحمد فريد وجدي، قد مزّقوا كتاب الدكتور تمزيقاً علمياً بما فضحوه من السرقة والتدليس ومُجافاة الحق، فإن الأستاذ الخضر زاد عليهم جميعاً بشيء تفرّد به، وهو غوصه على النصوص العربية من أمّهات كتبنا العلمية التي جهلها الدكتور، فظن أفكاره في الشك والانتحال والاستشهاد بالقرآن ستكون جديدة على القارئ العربي! وأكثرها مدوّن بنزاهة في الكتب الأمانة التي حرّفها الاستشراق عن قصد ثم سَطّا عليها طه بعد التحريف فثرثر وأطال.

فطه مثلاً يقول في (ص ٩): «وينتهي بنا البحث إلى نتيجة غريبة، وهي أنه لا ينبغي أن يستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث، وإنما يستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله».

والأستاذ الخضر يقول - مثلاً - في الردّ على ذلك (ص ٢٢): «لم تكن هذه النتيجة غريبة، إلّا عند مَنْ يتناول البحث خطفاً ولا يمشي فيه على رويّة وأناة. وقد

أنكر بعض أهل العلم فيما سلف على مَنْ يتوقف من النحويين في تقرير ألفاظ القرآن على شاهد عربي، ومن هؤلاء فخر الدين الرازي حيث يقول في تفسيره الكبير: «وإذا جَوَزنا إثبات اللغة بشعر مجهول عن قائل مجهول، فجواز إثباتها بالقرآن العظيم كان أولى، وكثيراً ما أرى النحويين متحيرين في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن، فإذا استشهدوا في تقريرها ببيت مجهول فرحوا به، وأنا شديد التعجب منهم فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وقفه دليلاً على صحته فلأن يجعلوا ورود القرآن على صحته أولى!». .

وأنكر أبو محمد بن حزم على مَنْ لا يمضي في الاحتجاج بظاهر القرآن في كتاب «الفصل»: «ولا عجب أعجب مَن إن وجد لامرئ القيس، أو لزهير، أو لجبرير، أو الطرماح، أو لأعرابي أسدي أو تميمي، أو من سائر أبناء العرب لفظاً في شعر أو نثر جعله في اللغة، وقطع به ولم يعترض فيه، ثم إذا وجد الله تعالى خالق اللغات وأهلها كلاماً، لم يلتفت إليه، ولا جعله حجة، وجعل يصرفه عن وجهه!». .

وهكذا نرى في الكتاب عشرات النصوص القوية التي تسلك مسلكاً جديداً في الفهم، ولو كانت هذه مزية الكتاب الواحدة لكفته فخراً، فكيف إذا لم يدع شبهة تحوم إلا وبددها برأيه ونقله وعقله في بصر وتمكين! .

وكأن المصادفات العلمية الفذة قد هيأت للرجل أن يجول الجولة الثانية بمصر، حين صدر كتاب (الإسلام وأصول الحكم)، لعالم من علماء الأزهر، وقد امتلأ يقيناً بأقوال الاستشراق، فجعلها المنبع الأول لفهم الحكم في الإسلام على ضوء ما يفهم الأوروبيون من المسيحية، إذ أن المعروف المتفق عليه أن المسيحية دين لا دولة، ولكن الإسلام شيء والمسيحية شيء آخر، فالإسلام دين ودولة، والرسول حاكم ومُبلِّغ معاً، ونصوص القرآن مليئة بما يجعل هذه الحقيقة في مرتبة البدهيات، ولكن الأستاذ علي عبد الرزاق يجهر بدعواه وأهماً أنه وحده صاحب القول الفصل! وقد تطرق إلى الردّ عليه في الصُّحف اليومية مَنْ لا يقف معه في مستوى واحد.

كما وجد من تساند الإلحاديين وتكالبهم على تأييده بما يملكون من صُحف وأندية وأقلام، ما يخلع على كلامه بعض الوجاهة لدى الضعفاء .

ولكن السيد محمد الخضر نَصَّر الله وجهه يتصدى لهذا الإفك الصريح، فيأتي على بُنيانه من القواعد، وكان مجاله النقدي هذه المرة في قَمَّة من القوَّة والتمكَّن والإفحام، لأن الجدال ليس في الرواية والقصص والانتحال كما في أكثر فصول الشعر الجاهلي، ولكنه يدور حول قواعد أصولية عميقة في الفقه والحكم والتشريع، ويجد من تاريخ الإسلام الحافل برجاله وحوادثه ومؤلفاته ما يُعين على جلاء الشك وردِّ الزيف، لذلك : كان مؤلَّف الخضر حجة قوية تقود المُنصفين إلى مرأشد اليقين .

وقد ظلَّ الأستاذ علي عبد الرزاق ضائعاً به، حتى بعد ربع قرن من صدوره، وانتهاء المعركة على نحوٍ يُرضي المخلصين، فقد قرأت بالسنة الثامنة على ما أذكر من مجلة «لواء الإسلام» كلمة للأستاذ علي عبد الرزاق تنبئ عن غضبه الموقد على الأستاذ، وتعيب طريقته في نقد الكتاب، ومجمل العيب في رأي الأستاذ علي عبد الرزاق: أن الأستاذ الخضر ينقل كل نص من نصوص الكتاب، على حدة، ثم يفتّنه بالرأي والدليل، وذلك أدعى إلى تمزيق الفصل الواحد وتشتيته .

ونحن نقول للأستاذ علي عبد الرزاق: إنه قد ظلم الحق فيما قال؛ لأن هذه النصوص تأتي متوالية متعاقبة، وقارئ النقد يستطيع أن يجمعها بسهولة، ليكون كلَّ ما جاء بالفصل الواحد من الكتاب، وهي بعد خير وأقوم من مسلك ناقد يلخص الموضوع من عنده ثم يعقّب عليه، إذ ربما فات من التلخيص شيء هام لا يعرفه القارئ المُحايد!! .

ولا ندري كيف يحافظ الخضر على نصوص الكتاب جميعها فلا يُسقط منها شيئاً ذا بال، ثم يكون ذلك مطعناً يوجّه إليه من ناقد نبيه! .

إن الغيظ وحده لم يستطع أن يخمد في نفس المنقود على تطاول الأيام به، حتى وجد المنفذ على صفحات لواء الإسلام .

ولو كان نقد الأستاذ علي عبد الرزاق للأستاذ الخضر علمياً نزيهاً ما تعرّض لأمر شخصي لا تتصل بالبحث في شيء، ولكنه تخيل الموهوم ثم خاله حقيقة فتيقنه!! على طريقة بعض الناس.

لقد كان تمكن الخضر في الدفاع مدعاة للتقدير من ذوي الأحلام، فتقدّم لامتحان العالمية بالأزهر، وكان الشيخ عبد المجيد اللّبان رئيس اللجنة مع نخبة من زملائه المختارين، فأبدى الشيخ من الرسوخ والتمكن ما أدهش، حتى أن الشيخ اللّبان صاح بملء فيه: «هذا بحر لا ساحل له فكيف نقف معه في حجاج؟».

ونال الشهادة العالمية الأزهرية وبها صار أستاذاً في الأزهر فمدرساً بكلية أصول الدين، بل كانت طريقه فيما بعد إلى مشيخة الأزهر ذات القدر الخطير.

وقد اتّجه الأستاذ إلى تأسيس الجماعات الدينية، فكان أحد مؤسسي جمعية الشّبان المسلمين، وقد وضع لائحته الأولى مع صديقه الأستاذ محبّ الدين الخطيب، وقامت هذه الجمعية برسالتها المخلصة في هداية الشباب الإسلامي ومحاربة الإلحاد العلمي والنّزق الخلقي، واستطاعت أن تصدّ هجوم الحضارة المُلحِدة المادية بما تقوم به من ندوات ومحاضرات، وما تنشره من صحف ومؤلفات. وكأني بالخضر وقد شاء أن يُنشئ جماعة الهداية الإسلامية لتساند أختها في الدعوة إلى الله، وقد كان نشاطها علمياً أكثر منه اجتماعياً، إذ أن محاضراتها المتتابة قد وجّهت الأذهان إلى كنوز الثقافة الإسلامية، كما أن مجلتها الشهرية كانت تحمل الروائع من التفسير والتشريع واللغة والتاريخ.

فإذا عرفنا أن مجلة الأزهر ومجلة لواء الإسلام قد ظلّتا سنوات عديدة تصدر عن رأي الشيخ وتوجيهه، أدركنا جهاده الشاقّ في مضمار الصحافة العلمية الراقية، وعرفنا مصادر متنوعة تجمع إنتاجه الدّيسم الفياض. هذا، ولم يفت الأستاذ أن يحارب على صفحات هذه المجلّات جميعها ما ينذ من الأقوال المتطرّفة في الأدب واللغة والدين، حتى اختلف في الرأي مع أناس مخلصين لا ترقى إليهم

الشُّبهة في علم أو خلق أو دين . ولكن العلم الأصيل شيء غير الإخلاص والخلق، فقد يكون المخلص الغيور متسرّعاً ينظر إلى زاوية واحدة، فلا بد أن يناقشه إنسان مطمئن، ثاقب النظر، منفرج الزوايا، واسع الاطلاع كالأستاذ الخضر، والنقاش بعد سديد مفيد .

هذا وقد اختير الرجل عضواً في المجمع اللغوي بمصر، فأبدى من الآراء السديدة في الإصلاح اللغوي ما تشهد به مجلة المجمع ومحاضر جلساته، وهو أول من أعلن بالمجمع صحّة الاحتجاج بالحديث النبوي، وأحد من اشتركوا في معارك النقاش اللغوي حول الوضع الاصطلاحي، وحقّ المحدثين في وضع الكلمات، هذا إلى ما خاضه من بحوث تتعلّق بالاشتقاق والتعريب والفصح والدخيل، وجموع التفسير قياسية وسماعية، مما يشهد بالتخصّص الماهر الفاحص في فنون اللغة والبيان، على أنه تقدّم إلى هيئة كبار العلماء برسالة في القياس يقول الأستاذ محبّ الدين الخطيب عنها بمجلة الأزهر شعبان سنة ١٣٧٧ هـ :

«وفي أثناء إقامته بدمشق شرع في دراسة كتاب مُغني اللبيب في علم العربية لجمال الدين بن هشام، بمحضر جماعة من أذكياء طلاب العلم بدمشق، وكان يرجع في تقرير المسائل المتّصلة بالسّماع والقياس إلى تلك الأصول المقرّرة والمستنبطة، فاقترح عليه أولو الجذّ من الطلبة جمع هذه الأصول المتفرّقة ليكونوا على بيّنة منها ساعة المطالعة، فألّف مقالات تشرح القياس وتفضّل شروطه، وتدلّ على مواقعه وأحكامه، ومن هذه المقالات تألّفت رسالة القياس في اللغة العربية التي أعاد عليها نظره بمصر». وهي كما رأيته تجمع الأصول العالية في أحكام القياس والسّماع، وتضمّ فصولاً عن شروط القياس وأقسامه، وقياس التمثيل والقياس الأصلي مع إيضاح الأمور المشتركة بينهما، هذا إلى أبواب في فضل اللغة العربية ومسايرتها للعلوم المدنية، وحاجتها إلى المجتمع وحاجة المجتمع إليها، وتأثيرها في التفكير وتأثير التفكير فيها، وغير ذلك كثير. فإذا أضفنا إلى رسالته عن القياس رسالته الأدبية في الخيال العربي، عرفنا جهد هذا الأديب كما عرفنا من قبل مقام ذلك الفقيه.

أما مشيخته الكبرى للأزهر فقد كانت دليلاً على أن الله لا يتخلى عن رجاله المناضلين، إذ يأبى عدله الرحيم أن يترك هذه الجهود المُضنية في الدين واللغة والأدب تضيع ببداءٍ دون تقدير مادي ملموس، فرأى الأزهر لعهد حلقه ذهبية من حلقات الكمال والجلال والوقار، وطفق الزائرون من كُتّاب وعلماء وصحفيين يتقاطرون على مكتبه، وكلهم يسأل عن أمور هامة في الإصلاح الديني والتشريع الإسلامي، والتقدم الحضاري، فيجد الإجابة الرصينة السديدة يفوه بها شيخ الإسلام الدارس المستنير، ولكن أعباء السنين تتراكم على كاهله الضعيف، فيترك المشيخة معتكفاً محتسباً حتى يلبي نداء ربّه في ١٣ رجب سنة ١٣٧٧ هـ، وهو التاريخ الهجري الذي كان رضي الله عنه يحرص على تدوينه في كل مكاتبة أو رسالة، ونحن اليوم نسجل به رحيله الطاهر إلى ساحة الرحمة والرضوان، في جنّة عرضها الأرض والسّموات.

عبد العزيز جاويز المجاهد الكاتب البطل

- ١ -

قَصَّر تلاميذ الأستاذ عبد العزيز جاويز في حقه تقصيراً يَشِي بالجمود والعُقوق، فقد كان للرجل من التلاميذ والمُريدين ما ليس لسواه من الأحرار، ومع ذلك فلا نجد أحدهم قد قام بالحديث عنه، ومجال القول ذو سعة.

أذكر أن الدكتور زكي مبارك رحمه الله كان دائم الترحم عليه في جلساته، فإذا رجعت إلى ما كتب عنه لا تجد شيئاً ذا غناء، مع أنه قال لي ذات مرة: إن جاويزاً في رأيي أعظم من محمد عبده وجمال الدين.

لقد تحدّث الدكتور في مقال بمجلة الرسالة العدد (٣٧٥) عن خطباء العصر الحديث، وحين تعرّض للأستاذ جاويز قال:

«كان يلقي خطبته بأسلوب المدرّس المتمكّن، وكان يغلب عليه أن يردّ يده إلى أذنه بصورة من يدعو فكره إلى التجمّع، وكان يهتف بكلمة (وي) حين يرى المعاني تشرد أمام فكره القناص، فترجع إليه وهي أوانس خواضع.

وكان الشيخ جاويز حين يتحدّث في لحظات الصفاء أحيى من الفتاة البتول، وكان لصوته في أوقات اللطف نبرات عذاب، وكانت له ابتسامة حلوة إلى حدٍّ يفوق الوصف، وكان لعينيّه بريق جدّاب، فإذا غضب فحديثه ونظراته رعد

وبرق وصواعق، كنت أدخل عليه في وزارة المعارف بلا استئذان، وكانت الفُرَص كثيرة لمقابلته، لأنه كان يمكث في مكتبه كل يوم نحو عشر ساعات، فيتغدى في الوزارة كما اتفق ويصلي فيها الظهر والعصر والمغرب، وقد يحلوه الأُنس بالواجب فيبقى بالوزارة إلى أن يصلي العشاء.

دخلت عليه مرة فوجدت عنده إنساناً منزوياً في إحدى نواحي المكتب، ورأيت الشيخ غضبان والشرر يتطاير من عينيه فسلمت تسليماً مختصراً وجلست، وما هي إلا لحظات حتى انفجر الشيخ كالبركان في وجه ذلك الجليس، فقد صرخ: «مَن يتزوج بناتنا إذا جاز لكل شاب مأفون ألا يزور أوروبا إلا عاد ومعه زوجة فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية، إن الأتراك لا يتزوجون بناتنا غطرسة منهم وكبرياء، والمغاربة وهم في مثل حالنا لا يتزوجون بناتنا إلا في قليل من الأحوال، فكيف يجوز لشاب أن يترك بنات وطنه للبوار، وهو يعرف في سريرة نفسه أن الفتاة المصرية معدومة النظائر في الجمال وفي أدب النفس، وما الذي يُبهرك في الفتاة الأوروبية حتى تنسى بها بنت وطنك، ومتى يصير أمثالك رجالاً يعتمد عليهم الوطن وقد حرمكم الله نعمة الوطنية؟».

وخرج الشاب وهو آسف، وكانت لحظة صمت توهمت فيها عيني الشيخ جاويز مغرورقتين بالدمع، فطلب فنجان قهوة ثم تكأف الابتسام وقال: «لا تؤاخذني، فذاك فتى كان أبوه من أعز أصدقائي وما كنت أحب أن ينسلخ عن وطنه بالزواج من امرأة أجنبية».

هذا كلام الدكتور مبارك، بنطق أبلغ نطق بإخلاص الرجل وولائه لعمله، فهو يظل في مكتبه عشر ساعات يومياً ليؤدي واجبه كما يطمئن إليه، ولم يكن يفعل ذلك رغبة في الحظوة لدى الرؤساء! فقد كان وهو مراقب التعليم الأولي يتقدم وزير المعارف، ولا يكثرث به ويراها في منطلق الواقع أحد تلاميذه الذين يخطئون ويصيبون.

جاء بعض المستشرقين في زورة إلى القاهرة، فاحتفلت به الدوائر الرسمية احتفالاً رناناً، وأسهب الجرائد في تعداد مآثره وما حقق من كتب، وما نشر من

موسوعات، وأقيمت في إحدى دور العلم الكبيرة حفلة لاستقباله شهدها جمهور من ذوي الثقافة، وفيهم من لا يزالون يسبحون بحمد المستشرقين، ويفرحون بما يرجفون به من مفتريات، ليذيعوها على الناس في مؤلفات تحمل أسماءهم دون حياء. وما حان موعد الاحتفال، حتى نهض وزير المعارف يُكرم المستشرق الزائر ويفتح الكلام عن مزاياه ومباهيه، وكان من المتوقع أن يتوالى الأساتذة الجامعيون ومن يلف لفهم على منصة الخطابة ليصلوا بالثناء إلى منتهاه، ولكن الجمهور فوجيء بالأستاذ جاويز بقامته الممتدة وعمامته العالية، وعباءته الفضفاضة، وعصاه الممتلئة يعتلي المنصة - مُقجماً نفسه - بعد أن انتهى الوزير من كلمته، ثم يرسل عينيه المتلألئتين فتومضان ببريق يمتد إلى ثناياه اللامعة ويدور حول لحيته السوداء ذات المشهد الوقور، ويتبدى الحديث بحمد الله ثم يقول ما معناه: إن كلمة وزير المعارف تدل على أنه لم يقرأ شيئاً عن هذا المستشرق الذي تُكرمونه، إذ أن المؤلفات التي تحدثت عنها الوزير وسيتحدث عنها بالطبع من أعدوا أنفسهم للكلام ليست إلا طعنات مسمومة للفكرة الإسلامية، وقد قرأتها أثناء إقامتي بإنجلترا، وناقشت صاحبها فلم أجده يخطيء إلا عن عمد، فهو يدري الصواب، ويتجنبه، ثم يلتمس أوهى الروايات لبني عليها ما يروق من التدليس والافتراء! ولو كان لدينا وعي ثقافي لكرّمنا الرجل كضيف فقط لا كمؤلف علامة بحاث!.

قال الأستاذ جاويز ذلك، فارتجّ الحفل ارتجاجاً واضطرب الوزير! اضطراب المُخرج المأخوذ، وتساقط عرق الخزي على وجوه من أعدوا أنفسهم للكلام، وزاد الموقف خطورة حين وقف النائب الباسل، والمسلم العربي الشهم: عبد الحميد سعيد رئيس جمعيات الشبان المسلمين - فأعلن إنهاء الحفل، وأشار للمستمعين فتسلّلوا منصرفين، بينما جأر الأستاذ جاويز يصيح! يا للمذلة أوصل الانهيار بالمسلمين إلى حدّ يجعلهم يُقيمون حفلات التكريم لمن يصم دينهم بالتوحش والغلظة والشهوة والاستعباد! ثم يكون رئيس الاحتفال وزير المعارف، ومتكلّموه أساتذة الجامعة في عاصمة الإسلام.

هذا الرجل الجريء، لم يكن بطبيعة الحال يُقيم في مكتبه عشر ساعات زلفى لوزير أو وكيل، ولكن رسالة التربية والتعليم قد أخذت عليه أقطاره، فهو يرسم الخطوة بالرأي، ثم يتابعها بالعمل والتنفيذ!! .

يقول الأستاذ تشارلز آدمس - في كتابه (الإسلام والتجديد في مصر) «وممن حضروا دروس محمد عبده الشيخ عبد العزيز جاويش، ولكنه كان في حياته السياسية العنيفة أقرب إلى جمال الدين الأفغاني منه إلى الشيخ محمد عبده» .

وهذا الكلام حقٌّ لا مِرَّةٍ فيه، فجاءيش السياسي كجمال الدين، وجاويش المربي كمحمد عبده، وإذا كان الدكتور مبارك كما سبق يدّعي أنه يفوق الرجلين معاً، فكلّامه صدقٌ مضادٌّ لما يشهده من جهل الجيل الجديد بجاويش، فالدكتور يحثّ الشباب على معرفة جهاد الرجل، ويقرنه بجمال ومحمد عبده ليجد التأثير لدى المستمعين، وسنعرض الآن طرفاً من جهاده الحفيل .

لقد تعلّم الأستاذ بالأزهر ودار العلوم، ثم سافر إلى إنجلترا طالباً مرة، وأستاذاً للغة العربية بجامعة أكسفورد مرةً أخرى، وقد لمس عن عيان ما بلغته التربية الإنجليزية في مدارس إنجلترا من تفوّق رائع، ساعد على النهوض بالدولة، ومكّن لرجالها أن يكونوا ذوي السيطرة على شتى الممالك في مختلف القارّات، ثم قرن ذلك بما انحدرت إليه التربية في مصر على يد الاحتلال، فأيقن أن إصلاح طرق التعليم، وإعداد مناهج التربية على وجهٍ صحيح مما يدفع البلاد إلى الحرية الصحيحة، والكرامة المثلى، لذلك عاد من أوروبا وفي رأسه منهج واضح المعالم للتربية والتعليم .

لقد أسندت إليه وظيفة التفتيش على المدارس في عهد تمكّن فيه دنلوب الإنجليزي من طمس مشارق الحرية وإطفاء مشاعل التفكير في معاهد التعليم، فالطلاب آلات تحفظ دون أن تفهم، كلّ ما تفعله المدرسة أن تُخرّج جماعات من الموظفين يستّون ثغرات النقص في المصالح الحكومية والإدارات المهنية، أما أن تُخرّج جيلاً يعشق الفكر، ويرسم المنهج ويحدّد الغاية، كما في بلاد الإنجليز

فذلك ما يتحاشاه المستشار الدخيل! لقد كانت مهمة التفتيش في هذا الأفق الأكد ر العابس مما يرهبق المُصلح الغيور، ولكن عبد العزيز تسلّح لها بذخيرة أولي العزم من المُشابرِن، فكانت توجهاته التربوية تعمد إلى اللّباب الخالص من وسائل التقدّم والارتقاء! فشنّ الغارة على التلقين الشفوي دون استبصار وتمحيص، ثم رأى أن يسجّل أفكاره في كتاب تربوي يقود المدرّس إلى مرأشد النور، فوضع مؤلّفه: (غنية المؤدّبين) فكان أول كتاب مصري يفرّق بين معنى التربية ومعنى التعليم، ويدعو إلى الاستنباط والتعليل والحوار في الدرس، ويهاجم الإلقاء الخطابي، والاستظهار اللفظي، كما يدعو إلى القدوة الصالحة حين يريد من المدرّس أن يكون مثلاً حياً بشخصيته، لا كتاباً جامداً بمعلوماته، ثم يقول في صدد ذلك:

«ويهمّنا أن يكون المعلمون في سيرهم وأخلاقهم مثلاً حسناً من جميع الوجوه لتلاميذهم ولَمَن جاورهم من الناس، وعليهم أن لا يقتصرُوا على تعليم تلاميذهم المواد المقرّرة في فهرس مواد التعليم، بل يجتهدوا في تعويدهم المحافظة على الأوقات، وعلى الجدّ والطاعة، والتأمل في الأمور، والدّوق في المعاملة، والشفقة بالناس».

وقد تابع الرجل منهجه التربوي حتى بعد استقالته المُفاجئة من وزارة المعارف، وخوضه معركة الحرية رئيساً لتحرير جريدة اللّواء، وخلفاً للزعيم الوطني الشاب: مصطفى كامل في مضمار الصحافة! فقد كان الحزب الوطني يُقيم الاحتفالات الكبيرة في عواصم البلاد العربية لمحاربة الاحتلال، فيصول المتكلّمون في تعداد رزايا الاستعمار، فإذا جاء دور جاوِش أعلن أنه يكتب كل يوم في افتتاحية اللّواء كلمة سياسية تعبّر عن رأيه، وأنه بعد أن أسهب زملاؤه في مسائل السياسة يخصّ بكلمته معاضل التربية والتعليم، ثم يفيض في الحديث عن مدارس البلاد، ومبلغ تأخّرها الصّارخ عن ركب التقدّم الثقافي، ويستعرض المدارس الأميرية والمدارس الأجنبية والكتاتيب الابتدائية، فيصوّر عيوب هذه

الدُّور ويدعو إلى تغيير أساليبها وتعديل برامجها، مقارناً ما انحدرت إليه التربية في مصر بما ارتفعت إليه في شتى عواصم أوروبا.

وكان جاويش يتحدث في المجتمعات الحافلة لأول مرة عن أقسام التربية وأنواعها من خلقية وعقلية ووجدانية، ثم يدعو إلى إنشاء مدارس (رياض الأطفال) ويضع مناهج التربية بها، وينادي بضرورة إيجاد معاهد خاصة بالتجارة والصناعة والزراعة والتربية النسوية، ويفضّل الكلام على كل معهد، ثم يعدّ المُستمعين بأنه سيفيض في برامج هذه المدارس بصحيفة الهداية التي يديرها. ويظلّ الرجل عاكفاً على الدعوة التربوية كما لو كان متخصصاً في ميدانها، مع أنه زعيم سياسي يواجه القراء يومياً بآرائه الحرة في الاستقلال وحملاته النارية على الاحتلال . . .

وقد نزل إلى الميدان التطبيقي حين أسّس المدرسة الإعدادية لتكون بعيدة عن سلطة المستشار الإنجليزي، فاختار لها أساتذة أجلاء من ذوي الرأي في الأمة، ووضع برامجها التعليمية بحيث تنشئ الوطني الحرّ الغيور، ووكل نظارتها لأستاذ قويم الخلق سديد الرأي، ثم اختار من طلبتها النوابغ فريقاً ممتازاً سافر بهم في بعثة تعليمية إلى باريس، وأشرف على حاجاتهم ومطالبهم هناك بنفسه، حيث هبّ لهم المسكن الطيّب والجامعة النافعة، ثم ودّعهم توديعاً حاراً بعد أن وضع لهم دستوراً خلقياً يعصمهم به من فتنة الشهوات في باريس، ويدفعهم إلى النهم العلمي، ولم ينسَ أن يصف لهم مسؤولياتهم الخطيرة أمام الشعب المضطهد، وقد وضع فيهم آماله وأخذ يراقبهم على البُعد، بنفس مطلّعة ويحلم بمستقبلهم الناضر حين يرجعون مُزوّدين بالنور والعلم والثقافة، فيكونون مشاعِل هادية تُضيء الطريق.

على أن إصلاح المدرسة لم يكن كل جهده في مضمار التربية الشعبية، بل اتجه إلى إصلاح الأسرة باعتبارها نُواة المجتمع. ووالى خطبه في المؤتمرات السياسية متّجهاً وجهة الأسرة، وكانت دعوة التحرير التي قام بها قاسم أمين قد أحدثت بلبلة مضطربة في كثيرٍ من النفوس، فأخذ الأستاذ جاويش على عاتقه أن

يبيّن وضع الأسرة في الإسلام، وأن ينظر إلى واقع مجتمعه نظرة الخبير الذي يلمس الداء، ومع أنه قد أفرد حيزاً كبيراً من جريدة اللواء لمعالجة موضوع المرأة بكل صراحة ووضوح، وسمح للأقلام المتعارضة أن تُبدي وجهات نظرها المختلفة ليظهر الحق بعد التمحيص، فقد كان لا يني عن الخطابة والتحدّث في هذه الناحية ما استطاع، وقد عقدت الحكومة المصرية في سنة ١٣٢٩ هـ مؤتمراً عاماً لمناقشة وسائل التقدّم الاجتماعي، فنهض الأستاذ بعثه الضخم إذ ألقى بحثاً شافياً عن الأسرة في رأي الإسلام، وقد مهّد له بأصول فقهية هامة تجعل رعاية الأصلح واختيار أهون الشرّين، وتقدير درء المفسد على جلب المصالح، وتحمل الضرر الخاصّ لدفع الضرر العام، وأشابه ذلك من قواعد عامة فضفاضة تتسع لما يتطلّبه العلاج الاجتماعي من تقنين.

ثم تحدّث عن الزواج والطلاق، وأبدى الأصول النظرية لوضع الزوجة في التشريع الإسلامي، وأفصح عمّا يجب أن يلتفت إليه المقنّن الحديث من هجر الآراء الحشوية لجامدي الفقهاء، مع النظر الأوسع إلى القضايا الكلية ذات الشمول العام، وكانت كلمة الأستاذ في المؤتمر فصل الخطاب كما وصفها الحاضرون. ولعلنا بعدما بسطناه من جهده الحفيل في ميدان التربية مدرسة وأسرة نلمح تأثره الشديد بأفكار محمد عبده، واحتذائه إياه فكراً وهدفاً وإصلاحاً، في بعث جيل مستنير ينهض بالشرق العربي المسلم، كما أن تفسير جاويز للقرآن في أعداد مجلة الهداية كان قريباً من تفسير الإمام، ونحن نعلم أن ملكة البيان الناصع لدى جاويز الأديب أتمّ وأكمل منها لدى محمد رشيد رضا العالم، فلا عجب أن كان في منحاه التفسيري أقرب إلى محمد عبده من صاحب المنار. وهما بعد غصنان مورقان في دوحة الإمام الأستاذ.

- ٢ -

إذا كان جمال الدين الأفغاني صاحب النظرة الواسعة في المحيط الإسلامي، ينتقل في شتّى ممالكه من عربية وأعجمية ليعلم أن أمة الإسلام واحدة، وأن

المسلمين في شتى بقاع المعمورة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر، إذا كان جمال الدين الأفغاني صاحب هذه النظرة الواسعة، فإن جاويشاً قد أخذ عنه مبدأه، فكان امتداداً له، يتحدث عن آمال المسلمين وآلامهم في كل مكان يرتفع فيه الأذان، ويقوم برحلاته المختلفة إلى تركيا والمغرب والقدس ومكة ليجمع أصحاب التوحيد على قلب رجل واحد. وكان وجود مثله ضرورة هامة في عصره، إذ أن أشباه المثقفين من ذبول الاستعمار أخذوا يرددون جاهدين ما يقوله المغرضون من أن الشعوب الشرقية الضعيفة أصفار هزيلة، إذا اجتمع الصفر إلى الصفر لا يؤدي إلى رقم في نتيجته غير الصفر، وأن على كل أمة تريد النهوض أن تحالف دولة أوروبية ذات سلطان ونفوذ، ثم زادوا فنادوا بالدعوة إلى اللغة المحلية في كل إقليم عربي، لتكون لغة المصري غير لغة العراقي والسوري والتونسي والحجازي واليمني، ولم يعدوا الأدلة الموهومة فلجؤوا إلى مضاهاة العربية باللاتينية وما تفرّع منها من اللغات، يريدون أن يقطعوا ما بقي من الأواصر الوطيدة بين شعوب الضاد، بل يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم حين يدعون مستترين إلى نبذ لغة القرآن.

وقد اتسعت الصُّحفُ المُغرِضة للخوض في أمثال هذه الأراجيف، حتى عنّ لبعض الممخرقين من دُعاة التجديد في مصر أن يكتب مقالاته باللغة العامية، ثم عدل عن ذلك حين رأى الوعي العربي يستيقظ فينحي عليه بالسّفه وينبذ مقالاته نبذ النواة! في هذا الجوّ العَفِنَ الآسن قام الأستاذ جاويش بدعوته إلى الاهتمام بشؤون المسلمين كافة دون تفريق بين قطر وقطر، فأخذ يتحدث عن العالم الإسلامي ويعدّد ما ينتابه من المشكلات، ويحارب الاستعمار في كل أمة تدين بهدى الله، فهو يكتب المقالات الافتتاحية في جريدة اللواء، ومجلة الهداية ناظراً إلى الدائرة الواسعة التي يجب أن تحيط بها عين المسلم البصير، ولم يكتثر بهؤلاء الذين يتهمّون باتجاهه، بل ردّ كيدهم في نحورهم، حين أعلن أن الإسلام وطن المسلم الأول، وأن الدين رابطة أولى دونها رابطة الجنس واللغة والمناخ، وقد عبّر عن مبدئه أحمد شوقي أصدق تعبير حين قال في رثائه :

لقد نسي القوم أمس القريب	فهل لأحاديثه من مُعيد
يقولون ما (لأبي ناصر)	وللترك ما شأنه والهنود
وفيم تحمّل همّ القريب	من المسلمين وهمّ البعيد
فقلت وما ضرّكم أن يقوم	من المسلمين إمام رشيد
أتستكثرون لهم واحداً	وليّ القديم نصير الجديد
يشدّ عُرا الدين في داره	ويدعو إلى الله أهل الجحود
وللقوم حتى وراء القفار	دُعاة تغني ورُسل تشيد

أي، الله، للأوروبيين من مبشّري المسيحية وراء القفار في مجاهل أستراليا وغابات أفريقيا وفيافي آسيا قساوسة يدعون إلى النصرانية فلا يقول أحد غير أنهم رُسل الإنسانية والتسامح والإخاء، فإذا قام الأستاذ جاويز برسالته المحمدية في بلاد الإسلام قيل: إنه متعصّب متشدّد لدود!! مع أنه ينشر تعاليم دينه في أهله وذويه.

لقد كان من عادته نَصْر الله وجهه أن يكتب في مبتدأ كل عام هجري مقالاً الرنّان (العالم الإسلامي في عام) فيتبع أهم ما وقع في السنة المنصرمة من أحداث، ويذكر أسباب المِحْن المتوالية على الشرق المستضعف، ويحذّر مما ينتظر أن تتمخّض عنه الأيام من مِحْن متشابهة تظهر مقدّماتها الهائلة لتعلن قرب النتيجة الكريهة، ثم يسرد آراءه في مواجهة هذه الصعاب. وسنلخص عناصر إحدى مقالاته حتى يرى القارئ كيف كان عبد العزيز ينظر من أفقه الواسع إلى تيّار الأحداث، لقد كتب بالجزء الثاني عشر من مجلة الهداية في مطلع عام ١٣٢٩ هـ يتحدث عن السنة الماضية، فيستعرض هذه الوقائع التي تشير إلى عناصرها فقط تجنباً للإسهاب:

١ - عقد المحالفة البغيضة بين أسبانيا ومراكش بضغط إنجلترا لاحتلال

الريف.

٢ - فرنسا ترسل جيوشها إلى الدار البيضاء بدعوى تأييد السلام.

٣ - معاهدة إنجلترا وفرنسا السرية لاقتسام الأسلاب .

٤ - انقضاء إيطاليا الباغية على طرابلس الغرب واحتلال البلاد الليبية .

٥ - مساعدة إنجلترا لكل دولة صليبية تحتل بعض ديار الإسلام .

٦ - عقد معاهدة بين إنجلترا وروسيا لتقسيم البلاد الفارسية إلى مناطق خاضعة للنفوذ الغربي .

٧ - واجب المسلمين في كل مكان نحو هذه النكبات .

هذا بعض ما كان يفيض فيه من الحديث نحو شجون المسلمين ، أما إسهامه العملي في إعلاء الفكرة الإسلامية فأوسع من أن يحيط به كاتب سريع ، فقد أبعد مرات إلى تركيا منفياً من مصر ، فواصل الدعوة الإسلامية ، وأصدر بالآستانة صحائف (الهداية - الهلال العثماني - الحق يعلو) كما طلبت الحكومة المصرية تسليمه لما شاع عنه من كتابات منشورات دورية لمحاربة الاحتلال .

ومما يُذكر له بالخير أنه أنشأ الجامعة الإسلامية سنة ١٩١٤ بالمدينة المنورة ، ووضع أساسها العملي ، ثم أعاد إصلاح كلية صلاح الدين بالقدس الشريف ، وعُهد إليه بإدارتها ، وسافر إلى إنجلترا لإنشاء أسطول إسلامي بوساطة بعض الأغنياء من مسلمي الهند ، وتزعم الدعوة إلى التبرعات وإرسال الذخائر ، وتهريب القوادر الأتراك لمحاربة الاحتلال الإيطالي في طرابلس ، وبعد قيام الحرب العالمية الأولى : أخذ ينتقل ما بين ألمانيا وتركيا والشام جرياً وراء ما يتغيه من إنقاذ الممالك الإسلامية الرازحة تحت نير الاستعمار ، وقد أنشأ عدة مجلات في استنبول وسويسرا للدفاع عن حقوق العالم الإسلامي ، ثم اشترك في مؤتمر الدفاع عن الأمم المهضومة في استكهولم ، وما زال يتحمل قسوة التشريد ورهق التنقل مع ضيق ذات اليد وجسامة التبعات حتى اضطر إلى الاحتطاب ببرلين في بعض سني الحرب ، ليجد ما يمسك الرّمق من الطعام !! وإني لأتصور هذا المجاهد الفذّ يعضه الجوع في بلاد الغرب ساعياً وراء مبدئه النبيل فتطفر الدموع من عيني حسرة

على أمة كانت تتخم كل انتهازي مأجور، وتُجيع كل حرّ عيوف، بل يطرد ويشرد حتى يلجأ إلى الاحتطاب المُهين! وعزاؤه ما أدخره الله من المثوبة لأولي العزم من المجاهدين!.

وقد انتهى به المطاف إلى تركيا، فعُيِّنَ أيام كمال أتاتورك رئيساً للجنة الشؤون الإسلامية بأنقرة، ولكن ما تورط فيه الزعيم التركي من مهاجمة الخلافة الإسلامية، والقوانين الدينية، جعل عبد العزيز يزأر في وجهه، وينادي بمعارضته ثم يرحل مخفياً إلى مصر، ليستأنف جهاده في حقل التربية والتعليم.

هذا ما كان من جهاده السياسي خارج مصر، أما دوره البارز في قيادة الحركة الوطنية في وادي النيل فسنلمع إليه ببعض الحديث.

حين سافر الأستاذ: إلى إنجلترا للمرة الثانية أستاذاً للغة العربية بجامعة أكسفورد، تبوأ منصبه عن جدارة واستحقاق، فشهد الطلاب منه نموذجاً حياً للمدرّس البَحّاث المستنير، وعزّ عليهم أن يكون هذا النابغة الموهوب مسلماً يدين بدين الخرافات والأساطير كما يتوهمون، فأخذوا يتحلّقون حوله في أوقات الفراغ، ويناقشونه فيما يعتقد من الآراء، فإذا اتجه الحديث إلى الدين الإسلامي أسهبوا فيما يأخذونه عليه من مأخذ، فهو في رأيهم دين الرقّ والحريم والقتال والتوحش وتعدّد الزوجات وعبادة محمّد، والمُنْصِف المُجَامِل منهم مَنْ يرى أنه لا يصلح إلّا للقبائل الصحراوية والأمم البدائية في أزمنة ما قبل العصور الوسطى، دون أن يحمل عناصر الرقيّ للقرن العشرين وما يليه! فإذا سألهم الأستاذ عن مصادرهم الخاصة بالإسلام قدّموا إليه ما كتبه المبشّرون من القساوسة والمتجرون من ذوي الاستشراق، وهؤلاء وأولئك معاً يتبعون قسماً خاصاً في وزارات المستعمرات، إذ يأخذون مرتبات مُغرية ليقوموا بدورهم المنحدر في تشويه الحقائق وتنمويه الآراء فيكونوا أسلحة بآترة تُسلّط على رقاب الغافلين من القراء في الشرق، وأحجبة مظلمة تطمس معالم الحق في عيون المتطلّعين إلى المعرفة في الغرب.

فكان الأستاذ يستمع إلى هذه الأراجيف ثم يُجيب عنها بما يكشف ظلمات الباطل، حتى سطعت شمس الإسلام على يده في عقول الكثيرين من تلاميذه، وحتى صاح أحدهم في أثناء حوارهِ مع الأستاذ يقول: إذا كان الإسلام ما نسمعه منك فهو دين الفطرة لا سواه، وقد راقَت هذه العبارة عبد العزيز جوايش فجمع هذه الشبه في بحث علمي سمّاه (الإسلام دين الفطرة). ثم تلاه في مؤتمر المستشرقين بالجزائر سنة ١٩٠٥، فاستمع إليه إذ ذاك الزعيم المجاهد محمد فريد وأعجب به إعجاباً كبيراً، وحين خلا مكان رئيس التحرير بجريدة اللواء بعد وفاة مصطفى كامل لم يجد محمد فريد من يملؤه غير عبد العزيز جوايش، فأسند إليه رئاسة التحرير، وأصبح منذ ذلك الحين صاحب الرأي الجهير في سياسة مصر ومحاربة الاستعمار.

كان قلم الأستاذ من التأثير والسّطوة بالمكان المهيّب، فما كانت تحلّ غاشية من كوارث الاحتلال في مصر أو تلوح نذرهما في الأفق حتى ينهض جوايش مندداً بمساوئها الأليمة، ومُحارباً أعوان الاحتلال من المستوزرين وأرباب المناصب الخشبية التي يديرها أصبع المعتمد البريطاني كما يريد، وقد ضاق به خصومه أشدّ الضيق، واهتبلوا الفُرص لمحاكمته والإطاحة به ليستريحوا من نضاله المرير، وقد واتهم الفرصة حين كتب الأستاذ مقاله الناري بجريدة اللواء (٢٨ مايو ١٩٠٨) تحت عنوان «دنشواي أخرى في السودان ٧٠ مشنوقاً و١٣ سجيناً» فتحدّث عن جريمة الاستعمار الإنجليزي في إبادة سبعين سودانياً دون جريرة سوى غيره بعض السودانين على شرفهم حين همّ بالاعتداء عليهم ضابطان إنجليزيان، فحالوا دون ما يبتغيان ودارت معركة أسفرت عن قتلها في حومة العدوان! فكان الجزء الرادع أن يقتل بهما سبعون ويسجن ثلاثة عشر من الأبرياء! وظهر مقال الأستاذ ليكون أول صوت يجلجل في صُحف الشرق بالمأساة فاهتزت لها الدنيا، واجتمع مجلس العموم البريطاني ليعلن غيظه من صاحب القلم الصاعق، ورأى المستوزرون في الحكومة المصرية أن يلَبّوا رغبة سادتهم المحتلّين، فقدّموا الرجل للمحاكمة بدعوى نشر أنباء كاذبة لم تتحقّق، ولكن الأستاذ ومعه نخبة من رجال المُحاماة قد

استطاعوا أن يُبرزوا صدق هذه الوقائع ويُعلنوا أن الكاتب الكبير لم يخرج عن أمانة القلم حين يبين للناس ما يفعله المحتلون بإخوانه المسلمين! واضطرت المحكمة إلى إعلان براءته، فخرج من ساحة القضاء مرفوع الرأس، وحملته الجماهير هاتفة مُصَفِّقة إلى دار اللواء.

ثم جاءت ذكرى دنشواي، فكتب الأستاذ في مأساة هذا اليوم مقالة رنانة كان لها وقع الصاعقة على الاحتلال إذ أن جميع أساتذة المعاهد وطلّاب المدارس قد سارعوا إلى حفظها كنشيد وطني تردّده البكر والأصال، وقد أحدثت من التأثير والفرع في نفوس أبطال المأساة ومُجرميها من رؤساء الاحتلال وصنائعهم المرجفين ما جعل النيابة العامة تطلب إدانة الأستاذ بتهمة إثارة الرأي العام، فعقدت جلسة عاجلة لمحاكمته ويّيت الأمر بليل، إذ صدر الحكم قبل المناقشة فقضي على الكاتب الكبير بحبسه ثلاثة أشهر، وأراد الشعب المجاهد أن يردّ على هذا الظلم الصارخ فأعلن اكتتاباً عاماً يشترك فيه العامل والفلاح والموظف والتاجر ليقدموا وساماً ذهبياً إلى الأستاذ، سُمّي إذ ذاك بوسام الشعب. وما حانت ساعة انطلاقه من الحبس حتى أُقيمت له حفلة تكريم كبرى في فندق شبرد، وتقلّد فيها الأستاذ وسام الشعب في مظهر وطني رائع، تحدّث به الركبان، وكان وسامه بين الأوسمة قمة لا تُنال.

لا تسَلْ عن ضيق الاستعمار الإنجليزي بكفاح عبد العزيز، فقد أخذت الصُّحف الإنجليزية تشنّ عليه الحملات الظالمة، وتراه عدوّ الاستعمار الأول في مصر، وخرجت جريدة الأجبشيان غازيت تقول لقراءتها في مرارة: ربما كان من فائدة إلغاء الإعانة وعدم إمداد نظارة المعارف بمدّرسي العربية في جامعات إنجلترا ألا يعود منها رجال شديداً العداء والكراهية، ومن ألذّ خصوم إنجلترا كالشيخ عبد العزيز جاويز الجالس على كرسي مصطفى كامل باشا في دار اللواء.

وقد ردّ الأستاذ جاويز على هذا الهراء بمقال جيد قال فيه: «ونحن نقول للغازيت إنها أخطأت فيما قالته فإن سفر المصريين إلى بلاد الإنجليز لا يجعلهم أعداء للإنجليز ولكن للاحتلال والمحتلين.

نصحني المستر دنلوب أيام سافرت إلى أكسفورد أن أقتدي بما أراه من الأخلاق الفاضلة في هذه الأمة العظيمة، فماذا جرى؟ ذهبت إلى تلك الديار، فوجدت الناس متمسكين بدينهم فزادوني تمسكاً بديني، رأيتهم شديدي الحرص على لغتهم فزادوني حرصاً على لغتي، أبصرتهم يتفانون في الدفاع عن بلادهم، ويحرمون على الأجانب الاستيلاء على بعض شؤونهم أو التصرف في أموالهم ورقابهم، فأخذت أحاكيمهم في هذه البلاد السيئة الحظ بالاحتلال وأشباعه، ورأيتهم يحبون الصراحة ولا يخشون معيبة، ولا يتهيبون متعبة ما دام الحق لهم، فأخذت أحاكيمهم في تلك الفضائل التي نصح بها إليّ عمادهم بنظارة المعارف العمومية. أبصرتهم يحبون العمل، ويكرهون الكسل، ويحضون على الفضيلة، فعدت إلى بلادي، ثم صرت أشتغل بهمة لا تعرف المَلَل ولا الانقطاع».

وما لبث الاحتلال مترتباً بالبطل المكافح حتى قدّمه للمحاكمة مرة ثالثة - وقُضِيَ عليه بالسجن - لأنه كتب مقدّمة أدبية لديوان شعري يدعو إلى الوطنية، وقد قابل هذه المرهقات بعزيمة البطل الباسل، حتى ضاقت به البلاد فغادرها متنقلاً بين عواصم الدول الأوروبية والشرقية، داعياً إلى الحرية والاستقلال، شريداً لا يمسك الرمح من فُتات الطعام أو يستر الجسم من خشن الثياب، وبعد كفاح طال أمده رجع إلى مصر متخفياً في حيلة بارعة ليوالي جهاده المير، وكانت الغربة والضيق والتشرد قد نالت من صحته، فأثر العمل الهادي نوعاً ما في حقل التربية والتعليم، فعُيّن في سنة ١٩٢٥ مراقباً للتعليم الأولى، وأظهر من اليقظة والكفاءة ما تشهد به أعماله الخوالد، وظلّ بمنصبه حتى لُقِيَ ربّه في ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩ ولم يتجاوز الثالثة والخمسين أو الخامسة والخمسين من عمره الشاقّ الجهد! فجزع عليه تلاميذه وقرّأوه، وما زالت مراثي شوقي، والجارم، وشكيب، ومطران، ومحرم، وعبد المطلب تردّد على الألسنة حسرةً عليه وتمجيذاً لذكراه...

عبد الحميد بن باديس الإمام الجزائري المجاهد

- ١ -

حين قامت فرنسا باحتلال مصر كان من خطة داهيتها الكبير نابليون بونابرت، ألا يُظهر عداءه السافر للإسلام، فوزع المنشورات المتلاحقة، تعلن احترامه لنبي الإسلام وشعائره المسلمين، وتدعو إلى المحافظة على المقدسات الإسلامية: من مساجد ومشاعر، كما حاول أن يتألف قلوب الصفوة من علماء الأزهر، فجعلهم أعضاء في مجلس الديوان، ظناً منه أنه يستطيع بهذه المُدارة الخادعة أن يذلل طريق الاستعمار الفرنسي في مصر، ولكن يقظة الشعب الغيور قد فطنت إلى خداع الداهية الأريب، فقامت الثورات المتلاحقة في وجه الحملة الفرنسية، واضطر نابليون إلى أن يغادر القاهرة تحت ستار الظلام، ولقي خليفته الطاغية كليبر مصرعه بيد عربية بأسلة، ثم حملت الجيوش الفرنسية عارها، وجَلَّت عن الديار يائسة فاشلة، بعد كفاح مرير أعقب لها المذلَّة والهوان.

أرادت فرنسا أن تثني الدور البغيض في أرض الجزائر فاستطاعت بعد ثلاثين عاماً من فشلها في مصر أن تعبى قوتها الباغية لاحتلال الجزائر، ولم تشأ أن تُخفي حقدّها على الإسلام كما حاول نابليون في مصر، بل أعلنت في وقاحة لثيمة أنها أرسلت كتابها إلى شعب همجي، ليستضيء بنور الإنجيل، وتوجّه المسيو كليرمون وزير حريبتها آنذاك إلى ملك فرنسا بقوله:

«لقد أرادت العناية الإلهية أن تُثير حمية جلالكم للقضاء على ألد أعداء المسيحية، ولعلّه لم يكن من باب الصدفة أن يدّعي ابن لويس الثّقى لكي ينتقم للدين والإنسانية، وربما يسعدنا الحظ فننشر المدنية بين السكان الأصليين ونُدخلهم في النصرانية».

ثم جاء بعده الكردينال لافيغري ليقول: «يجب أن نجعل من الأمة الجزائرية مهداً لأمة مسيحية كريمة، وأن نُضيء أرجاءها بنور مدنية وحيها الإنجيل، وأن نربط مصير أفريقية بحياة الشعوب المسيحية، تلك هي رسالتنا الأبدية».

وفي ضوء هذين النصّين الخطيرين نستطيع أن نفهم الرسالة الأولى التي اعتنقتها فرنسا، يوم أن سيّرت جيوشها لاحتلال الجزائر، وقد أغراها على العدوان الأثم مع مهمتها الصليبية الفاتكة ما تعرفه من خصب البلاد، وكثرة خيراتها، حيث أن بها أكثر من عشرين مليوناً من الأفدنة الزراعية، تنتج أعظم خيرات الله من ثمار وحاصلات، غير الغابات التي تزدهم بالنخيل والكروم والزيتون، مما يصل بمساحة الأرض المزروعة إلى نحو خمسين مليوناً من الأفدنة لو وجد الاهتمام العلمي الناهض بشؤون الحرث والتمير، هذا إلى الثروة المعدنية الهائلة التي تتراكم في طبقات الأرض: من فحم وحديد ورصاص وزنك ونحاس ومنجنيز وفوسفات وبترول وكبريت.

لقد كانت دواعي الإغراء إذن أكبر من أن تقاوم، فصمّت فرنسا على أن تلتهم البلاد بأيّ ثمن يعظم أو يجلّ، ورسمت لذلك خطة جريئة هي فرنسة البلاد، واعتبارها جزءاً من فرنسا. ولقد قام علماء البيولوجيا بدورهم المُغرِض في تثبيت الخرافة القائلة: بأن الجزائر جزء من فرنسا، فأثبتوا في غشّ مفضوح أن الشمال الأفريقي كان منذ القِدَم متّصلاً بالساحل الجنوبي لفرنسا، في سلسلة جبال واحدة، ثم تصدّعت الأرض ببعض عوامل الزلازل والبراكين في عصور متقدمة، فأحدثت شقوقاً كبيرة، كان من أهمها بוגاز جبل طارق، ومضيق مسينا!.

وإذن فأرض الجزائر امتداد طبيعي للأرض الفرنسية، بل إنها في رأي بعض السياسيين ألزم لفرنسا من الناحية الاجتماعية والعمرانية من سهول نورماندي الفرنسية ذاتها!.

وتحت تأثير هذه الأباطيل قامت الاستعدادات الظالمة لفرنسة البلاد، ومطاردة العربية والإسلام بأقصى ما يتصور من إبادة وتشريد وسحق واستئصال!.

كان الإسلام الهدف الأول للطعن والافتراء، فانتصبت الدعايات المسمومة ترميه بالتأخر والهمجية والجمود، وتعدّه شريعة متخلفة، كانت تصلح للصوص البدو، وذؤبان الصحراء في قديم الأجيال، وأقدمت جيوش الاحتلال على هدم المساجد وإغلاق المدارس والكتاتيب في غلظة وحشية، وحاربت القضاء الشرعي محاربة ضارية حاقدة.

ولا يظن القارئ أننا نسترسل دون تحقيق، فإن الإحصاءات الفرنسية الرسمية نفسها تثبت ذلك بما لا يقبل الريب، وحسبك أن تعلم أن مدينة الجزائر كان بها وحدها مائة واثنان عشر مسجداً، فلم يُبقِ السلطات الفرنسية منها على غير خمسة مساجد! وتحول الباقي إلى كنائس أو دور للإدارة. ومن المساجد التي حوّلت إلى كنائس مسجد كشادة الذي أصبح كاتدرائية، ومسجد علي تبشني الذي أصبح كنيسة تسمى بكنيسة قديسة الانتصار!.

أما اللغة العربية فقد وضعت القوانين الماحقة لإبادة لها، إذ أعلنت فرنسا: أن اللغة الفرنسية هي لغة الدولة الرسمية، وأصدرت قوانين صارمة تحرم أن يقوم مسلم ما بإدارة مكتب للغة العربية إلا بتصريح من قائد المنطقة، فإذا اتجه عربي غيور إلى المطالبة بهذا التصريح اعتقل أو أُعدم، ثم فتحت المدارس الفرنسية، لتضم شذاذ الأفاق، ممن جلبتهم فرنسا من شتى الأقطار الأوروبية لتعمير البلاد!!، وكانت المناهج التعليمية لا تعتبر اللغة العربية مادة تستأهل الدراسة، وكذلك الدين الإسلامي، ولكنها تركّز اهتمامها بتاريخ فرنسا القديم والحديث، والتغني بما تنسبه لنفسها من حرية وحضارة ودعوة إلى المساواة والإخاء!! فإذا أُتيح

نسبة لا تتجاوز ١٠٪ من أبناء الجزائر، أن يلتحقوا بهذه المدارس وجهتهم وجهة مهنية، يستعدّون بها للأعمال الوظيفية بمكاتب الحكومة فحسب!.

كما بُذِلَت المحاولات الدّائبة لإحياء اللغات البربرية والتحدّث بها في المجلس النيابي، وخلق مبررات الصدام بين العرب والبربر، لتصبح اللغة العربية بالجزائر أثراً بعد عين! فهي لغة القرآن، وبها تُقام شعائر العبادة في الإسلام. ولكن تغلغل هذه الشريعة السّميحة في النفوس قد بعثها على المقاومة الدائبة، حتى تمّ لها النصر بعد كفاح طويل أظلم ليله واستطال، وكان أعظم أبطال المقاومة الفكرية في ميدان الثقافة والتوجيه المصليح الكبير عبد الحميد بن باديس، الذي نخّصه بهذه الصفحات.

- ٢ -

نشأ عبد الحميد بن باديس نشأة دينية نيرة، إذ درس اللغة ومبادئ الإسلام على أيدي أناس يفهمون الشريعة فهماً صافياً، ثم التحق بجامع الزيتونة بتونس فأكمل دراسته الدينية، ورحل إلى بلاد المشرق العربي، فزار مصر وسورية ولبنان ومكة والمدينة، واتصل عن كثب بمحاور الإصلاح الديني الذي كانت تمثله مدرسة الأستاذ الإمام في مصر. وكان حنينه دافقاً إلى هذه المدرسة، منذ سمع في نعومة أظفاره بمحمد عبده، ولمس من أساتذته بجامع الزيتونة إجلالاً لذكره وتمسكاً بمبادئه، كما كانت رحلته رضي الله عنه إلى الجزائر في خاتمة حياته مجالاً طيباً للحديث عن آرائه القويمة في نهضة الإسلام وإصلاح المسلمين!.

وقد رزق عبد الحميد هذا القلق الشائر الذي لا يستقر حتى يستقيم الأمر لأهله، وتنجاب حنادس الشكوك، فأخذ على عاتقه القيام بالدعوة إلى الإسلام في وطن مستضعف، يتكالب عليه الباطل بخيله ورجله، ورأى أن الدعوة إلى الإسلام لا تفرق عن الدعوة إلى العربية، فهما قطبا الدائرة في مناواة الاستعمار، وكان ابن باديس خطيباً فصيح العبارة، إذا ارتقى المنبر يوم الجمعة نفخ من روحه العاتية في سامعيه، فأنعش الذابل وأخضر اليابس، وفسح الطريق للأمل العريض. وأما قدرته

القلمية فقد كانت تمهّد له انتصار الفكرة الصادقة إذا اصطدمت بالفكرة المُغرِضة، فيعبّئ شتى جهوده كي يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، لذلك كان تلاميذه يلهبون عواطفهم بأحاديثه المنبرية ومجالسه الدراسية، كما يصقلون تفكيرهم بآثاره القلمية.

وقد تعدّد مجال الإصلاح أمامه، فسلّك طرقاً مختلفة تلتقي جميعاً في الدعوة إلى الله عن بصيرة، وقد كان من قوّة الإرادة بحيث صمد على الاعتقال والاضطهاد دون أن يستكين، وزاد في صلابته القوية أنه كان يقدر هذا العذاب قبل فهو يعلم أنه مُجاهد يُجالد الأعداء في حومة حامية، لا بدّ وأن تنوشه السهام في كل وقت، فمهما تعاورته الجراب فهو بطل يؤدّي دوره في المعركة دون أن ينكص على عقبيه، أو يرتدّ إلى الوراء بضع خطوات، ويمكننا أن نُشير بإيجاز إلى أهم الميادين التي انفسحت لجهاده فأّت النصر الميمون.

لقد أنشأ جمعية العلماء، وفتح لها فروعاً تشعّب في أنحاء الجزائر، فخلق طائفة من الدعاة والمرشدين يحملون أمانة الكلمة، ويؤدّون دوره الإصلاحي في القرى المتناثرة والعواصم النازحة، إذ يصمدون لتبديد كل قرية، وإزالة الحُجُب عن كل خديعة، وكانت طرق المقاومة أمامهم شاقّة مُرهقة، إذ لا يكتفون بمقاومة العدو المستعمر، فيزيّفون أباطيله، ويعارضون اتجاهاته، بل تضطّروهم المعركة إلى مُنازلة فريق من مشايخ الطرق أغواهم الاحتلال الفرنسي، فاتخذهم أداة لتخدير العقول وتسميمها باسم الدين، فهم يقومون بالشعوذة والدّجل، ولا يكادون يفرغون من رقصات الذكر ودقات الطبول، وتأويل الأحلام وكتابة الأحجية والتمائم، كما يسعون لتشويه الإسلام بترديد الإسرائيليات، والدعوة إلى مُسالمة الفرنسيين، مع بثّ التواكل والزّهد، وعرض الإسلام في صورة انعزالية جامدة لا تدعو إلى بعث أو إصلاح!.

كلّ ذلك يتطلّب أناساً من شباب المدرسة الباديسية ليكشفوا عن وجه الحق ما ران عليه من ضباب مُحترّ في الولاية الزائفة، وأنصار الحلقات والطبول، وكان

الاصطدام عنيفاً بين قوم يؤيد الاحتلال مخازيهم الزائفة، ويمهد لهم السبيل لتضليل العامة وتسميم الأفكار، وبين جماعة من الفدائيين الأحرار صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فواصلوا الكفاح تحت راية قائد باسل، يرسم الخطة ويهدي السبيل.

رأى عبد الحميد بن باديس الاستعمار يحارب اللغة العربية في مدارسه، فأنشأ مدارس إسلامية عربية أهلية وأعد لها أبناءها من المعلمين، ووضع برامج الدراسة الإسلامية: إذ تقوم بتفسير كتاب الله، وتعليم اللغة العربية، وتشرح دور المسلمين في اليقظة الفكرية، وأثرهم في ركب الحضارة حين كانوا هداة العالم في عصور الظلمات، مبيّنة أسباب الضعف الطارئ على الدول الإسلامية، ورأسمة وسائل العلاج الصحيح من دعوة إلى الإسلام السلفي كما يترقرق في أصفى المنابع الرائعة قبل أن تكدره شُبُهات الحشوية من ذوي الحكايات اللفظية وتخرّصات الحَقْدَة من ذوي النعرات المذهبية! هذه المنابع الصافية التي تترقرق في آيات الكتاب وأحاديث الرسول وسيرة السلف الصالح ممّن يهدون إلى الحق وبه يعدلون! فهي مدارس تعليمية للمبتدئين، وإرشادية وتوجيهية للمُتَمَتِّين! وإذا كان المبتدئ يترقّى في دوره حتى ينتهي من دراسته فإنه لا يدع المدرسة حتى يخرج مسلحاً بذخيرة لا تفل، ومدججاً بأقوى الحجج والبراهين.

أما الصحافة فقد كانت أحد الجوانب الهامة من كفاح ابن باديس، إذ أنشأ المنتقد والشهاب ليؤدّيا دور المنار في مصر، ويزيدا عليه الدعوة إلى التحرير السياسي.

وإذا كانت فرنسا تزعم أنها تحمل رسالة الحرية والحضارة والإنسانية في العالم وتتوقع بذلك بين قوم يئنون تحت مظالمها الغادرة، إذ تشنّ عليهم حرب الإبادة والاستئصال دون رحمة أو هوادة - إذا كانت فرنسا تزعم ذلك فإن ابن باديس قد جعل من صحيفته ميداناً رحباً لإبادة هذا الزعم واستئصاله، فهو يُذكّر مواطنيه بفظائعها المنكرة في أرض الجزائر، فيعلن كيف هاجمت هذه الدولة المتشدّقة

بالحرية والإنسانية قبيلة العوفية ليلة ١٦/٤/١٨٣٢ وهي نائمة في الخيام قبل الفجر، فذبحت هؤلاء العُزّل الآمنين ذبحاً لا رحمة فيه، حتى قال المؤرخ كريستيان في كتابه أفريقية الفرنسية ما ترجمته :

وهكذا وقع قتل كل نفس حيّة في القبيلة دون تمييز بين جنس وسمّ، وعند الرجوع من هذه الحملة المُخجلة كان الفُرسان الفرنسيون يحملون رؤوس القتلى على أسنة الرّماح دون حياة . . .

كما يبيّن ابن باديس كيف كانت تُساق حيوانات الفلاحين غصباً للبيع، وكان من بين الغنائم أساور النساء في الأيدي المقطوعة، وأقراط فتيات لا يزال تلتصق بها قطع من الأذان! .

أما حرائق الكهوف في الجبال الجزائرية، فمن أفظع حوادثه ما فعله الأفاقون من جنود الاحتلال حين أوقدوا النار ليلة كاملة أمام كهف يضمّ قبيلة بأجمعها، وما جاء الصباح ودخل الجند الكهف حتى وجدوا نحو ثمانمائة من جُثث الضحايا البريئة من نساء وشيوخ وأطفال تحت أقدام الثيران والحيوانات التي انطلقت تلمس النجاة من النار، فداست كل عزيز، ثم لقيت حتفها مع الناس! .

ومن أفظع ما شوهد داخل الكهف، رجل أسلم الروح وهو مُمسك بقرني أحد الثيران وخلفه امرأته وابنه الصبي، كأنه كان يدفع عنهما الثور الهائج من لفح اللهب! .

هذه الفظائع وأمثالها كانت أدلة ابن باديس، وحججه القاطعة على ندالة الطغيان الفرنسي، وهي التي أوحى له العزم في جهاده المستشهد حتى تنوّعت آفاقه الإصلاحية، واستطاع أن يعصف بأسطورة فرّسة الجزائر وتنصير المسلمين، ويردّ على دُعاة الفرّسة المزعومة بمثل قوله في صحيفة الشهاب «إبريل سنة ١٩٣٦» :

«إننا نرى أن الأمة الجزائرية موجودة ومتكوّنة على مثال ما تكونت به سائر أمم الأرض، وهي لا تزال حيّة، ولم تزل، ولهذه الأمة تاريخها اللامع، ووحدتها

الدينية واللغوية، ولها ثقافتها وتقاليدها الحسنة والقيحة كمثل سائر أمم الدنيا، وهذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا، ومن المستحيل أن تصبح هي فرنسا حتى ولو جنسوها».

وإذا كان المصلح العظيم قد انتقل إلى جوار ربّه في سنة ١٩٤٠، فإنه قد خلف من بعده أساتذة يحملون الراية ويؤالون الجهاد، وفي مقدمتهم أستاذنا الوقور الشيخ محمد البشير الإبراهيمي صاحب البصائر، برّد الله بالرحمة ثراه.

كما ترك من تلاميذه الشبان من صاروا قادة الثورة الجزائرية التي أعقبت الاستقلال الحاسم، بعد أن أدّت ضريبة الدم والعرق في وطن المليون من الشهداء، فنجح ابن باديس أكبر نجاح في خلق جيل من الشباب المكافح، يفهم عروبه حقّ الفهم، ويرى العار أشنع العار في بقاء الاحتلال الفرنسي في أرض الجزائر.

وكانت فرنسا من البلاهة بحيث أرادت أن تجبر الجزائر على الاحتفال بانتصارها في الحرب العالمية الثانية، وانتظرت أن تُضاء الشوارع في وهران وقسنطينة والجزائر، وأن ترفرف الرايات في الفضاء، وترفع أقواس النصر في كل مكان.

ولكنها فوجئت بأبناء ابن باديس من شباب الأمة العربية يعملون على مقاطعة الاحتفال، ويهيئون الأذهان إلى ثورة ماحقة تزلزل الطغيان، ثم يندلع لهيبها في كل مكان، فتضطر فرنسا بعد جهاد المستميت إلى فراق لا رجعة له بإذن الله.

على أن خطة جماعة العلماء في العمل السياسي كانت من المِران والسعة بحيث قبلت العمل مع كل معسكر عربي، ووزّعت أبناءها بين طوائف المجاهدين دون التعصّب إلى فريق معيّن، حتى تلاقت الأهداف، وتحقّقت النتائج السارة كما تراءت في أحلام الأساتذة الدعاة، ولقد كان إعداد هذا الجيل المجاهد أنضج ثمار ابن باديس وأعظم أعماله، حيث استمع إلى نصيحة الأستاذ الإمام محمد عبده في العمل على تكوين شباب مستنير، يقوده التعليم تلقائياً إلى إصلاح البلاد، فيضطر

الاستعمار في كل مكان إلى التفهقر إذ ينكشف خداعه لذوي الثقافة من المستنيرين، بعد أن ركب مطايه من الجهلة والرّعاع وأوشاب الوصوليين من ذوي المآرب والأطماع.

ولعلّ خير ما نختم به هذه الصفحة البيضاء من جهاد عبد الحميد بن باديس أن ننقل شهادة الكاتب الفرنسي فرانسيس جانسون، كما سجّلها الأستاذ أنور الجندي في كتابه الكبير «الأدب في معركة التجمّع والمقاومة». ص ٩٣ حيث قال الكاتب الفرنسي في صراحة سافرة:

«إن المعركة الباديسية أحدثت إصلاحاً شاملاً فيما وصل إليه الإسلام بعد تخلّصه من التحريف والشوائب التي علقّت به نتيجة للتفسيرات المشكوك في صحتها، حيث تراكمت خلال قرون عدّة، كما عملت على تعميم الثقافة العربية بإنشاء مدارس تتولّى تدريس اللغة العربية ونشرها في الجزائر، كما نشرت الوعي القومي، مما وقف عقبة في وجه السيطرة الاستعمارية، ومما أقلق سلطات الاستعمار التي كانت تستخدم فئة من رجال الدين المأجورين لتجعل الإسلام وسيلة لتخدير الشعب، كما قاومت خطة القضاء على اللغة العربية، واستخدام كل سلاح لمحاربة تعليمها، ودثر ثقافتها، لتصبح نوعاً من التراث الذي لا يجد مجالاً للبقاء في غير بضع عشرة مدرسة من المدارس العتيقة التي تقرأ القرآن».

هذا ما قاله فرانسيس جانسون، وهو قول موجز جامع قام مقالنا هذا بإيضاحه وتفسيره، وهو بعد شهادة صادقة لابن باديس من فرنسي كان يتمنى في أعماقه ألا تُكَلَّل الحركة الباديسية بالنجاح.

محمد فريد وجدي العلامة الموسوعي الناقد

- ١ -

تمثلت العصامية العلمية في شخص الكاتب الكبير المغفور له الأستاذ محمد فريد وجدي تمثلاً رائعاً، يدعو إلى الالتفات، فقد اتجه بنفسه إلى تحصيل معارف كثيرة تيسرت له دون تلقين وتوجيه، حتى أصبح بها علماً من الأعلام البارزة في دنيا الأدب والثقافة.

وقد نال في حياته شهرة فائقة جعلت مؤلفاته الكثيرة تطير في آفاق العالم الإسلامي، وتُترجم إلى عدّة لغات شرقية وغربية، ثم ذهب إلى ربّه فلم ينهض من تلاميذه الكثيرين من يكتب تاريخه الحافل بالمجد والرّفعة، وكأنه لم يكن ملء البصر والسمع في دنيا تتحيّف المجاهدين وتتناسى العاملين.

كان الأستاذ وجدي صاحب رسالة هامة يكرّس في سبيلها جهده، وي بذل في تبليغها قوته وماله، فلم يكن يتخذ من الكتابة الأدبية مجالاً للتزيّد والمباهاة، ولكنه وضع أمامه هدفاً مرموقاً يجهد في الوصول إليه.

فقد رأى الإسلام في عصره غرضاً تتجه إليه السّهام، ويتناولوه أعداؤه بالافتراء والتشكيك.

أما أنصاره فقد أضافوا إليه من الخرافات والغرائب ما ضاعف محتته وأعان الموتورين عليه من ذوي الأهواء، وتلك محنة أليمة تتطلب النجدة المُسِعفة والكفاح المرير، والعدّة الناجحة فيها: مثابرة على البحث وجَلَد في الدفاع، ويقين ثابت لا تعتوره الشكوك، وإخلاص ملهم يمدّه العقل الثاقب والأطلاع الغزير وقد تهيأ ذلك كله للأستاذ العلامة، فتجرّد لكفاحه النبيل وأصدر الكتب المتتابعة، وأنشأ الصّحف والمجلاّت المتعاقبة، وسارت الأيام بأبحاثه وآرائه حتى أصبحت آثاره العلمية ملاذاً يعتصم به الإسلام في مهبّ الزعازع.

على أن الشك الديني لدى الأستاذ في نشأته الأولى قد هبّ له هذا القدر الهائل من الثقافة، إذ تعرّض في صباه اليافع إلى هواجس عاصفة، زعزعت يقينه وكدّرت أفقه - كما سجّل ذلك على نفسه - وتطلّب الإفادة ممّن حوله من العلماء الرسميين فما وجد شيئاً ذا غناء، فاندفع في قراءاته الشاملة يستوعب ويتعمّق، وينتقل بين المعارف الكونية والاجتماعية والنفسية والتاريخية والدينية حتى انكشفت له حقيقة ناصعة، تسجّل عظمة الإسلام ورفعته، وتؤكد مطابقتها لأرقى الدساتير المنطقية التي يتقيّد بها العقل السليم، فما من فضيلة تدفع إلى رقيّ البشرية وإصلاح الكون إلّا تجد دعامتها الوطيدة في قواعد الإسلام ومبادئه، فكيف يُرمى بالجمود القتاتل بغياً دون علم! لا بدّ من دفاع مقنع يكشف اللثام عن الحق الصريح.

وفي هذا الميدان الشاسع انطلق الكاتب الغيور يُلقي حججه، ويؤكد قضاياها وقد وجد أكثر هذه الشُّبهات الظالمة تَفِد من الغرب، فتسري بين المسلمين سرياناً مدمراً عاصفاً، فألّف بالفرنسية كتابه عن: «المدنية والإسلام» ليُطالع القوم في أوروبا على ما تضمنته الشريعة الإسلامية في مُثل فائقة تدفع إلى الحضارة وال عمران، وتهيّئ للإنسانية وسائل الأمن.

وقد نقل هذا الكتاب في سنّ العشرين، فقد أعجب به كثيرٌ، ووجدوا عكس ما توهموه من أباطيل مُجحفة، لا تجد لها دليلاً في كتاب أو أصلاً من قياس.

وقد نصّ في مبدأ كتابه هذا على : أن الأوروبيين معذورون في تصديق التّهم ضدّ الإسلام والمسلمين ، «ولهم الحق في العمل ضدّها ما داموا لا يرون أمام أعينهم من مظاهر الدين غير البِدْع التي اخترعها صِغار العقول ، وزادوا أشكالاً من الأوهام والأباطيل تنفر منهم الطّباع البشرية وتنافي أصول المدينة» .

وقد نُقِلَ هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، فقرأ المسلمون صحيفة صادقة عن دينهم المُفترى عليه .

ومع أنه ألّف الكتاب في سنّ العشرين فقد أعجب به كثير من مُنصّفي الغرب والشرق ، حتى جعله الدكتور تشارلز آدمز قريناً لكتاب الأستاذ محمد عبده : «رسالة التوحيد» إن لم يزد عليه في الشمول والاستقصاء !! .

وقد كانت مصر في مطلع هذا القرن ذات حاجة ماسّة إلى ذخيرة وفيرة من المعارف الإنسانية في شتّى العلوم الحديثة فليس بها من المؤلّفات العصرية ما يسدّ فراغاً هائلاً يوحى بالجهالة الأميّة ، ويُنذِر بالتقهقر السريع إلى عصور الظلمات ، فعكف الأستاذ وجدي على إصدار «دائرة معارف القرن العشرين» في عشرة مجلدات ضيّخام ، وأعدّ لها مطبعة خاصّة تخرج على الناس بإنتاج الكاتب وحده !! .

وإذا علمنا أن هذا العبء الثقيل لا ينهض به في أمم الغرب غير الجماعات المتنوّعة واللجان المختصّة ، ممّن يقضون أعواماً طويلاً متساندين في البحث الدائم والاطّلاع الجاهد ، حتى يصدروا إحدى دوائر المعارف في ثقافة واحدة عن أمة واحدة ، ثم تُقام لهم حفلات التكريم ، وتتقاطر عليهم أوسمة التقدير ، ويُمنحون على الفور أرفع الدرجات الفخرية في الجامعات العريقة !! .

إذا علمنا ذلك ورأينا الأستاذ وجدي ينهض بالعبء المرهق فيقوم به في مدى عشرة أعوام على أحسن ما يستطيع ، ويقدم للغة العربية وحده مكتبة حافلة ، تضمّ شتّى المعارف الإنسانية من قديمة وحديثة ، فإننا نتساءل كيف وجد من الأعصاب القوية والعزيمة الماضية والاطّلاع المتشعب ما هيأ له النجاح دون أن يطمع في

مأرب مادّي، أو يتعلّق بجاه أدبي، مكتفياً بما يستشعره من سعادة نفسية، إذ يشارك في بناء الثقافة الحديثة ويمهّد لأمته طريق المعرفة والدراية.

ومهما قيل من أن دوائر المعارف تستنفد أغراضها لأجل محدود، فإن بها من التراث الفكري ما يكفل لها البقاء التاريخي وإن غيّرت المكتشفات الحديثة شيئاً من مقرراتها المؤكدة، أو أضافت إليها من الشرح ما يسير بها إلى الكمال المنشود، فذلك من شأن الحياة ولن يُعفى على جهد كادح وإنتاج خصيب!!.

والحق أن نجاح الأستاذ وجدي في أبحاثه يرجع إلى اعتزازه برسالته، وعمله في الحقل الطبيعي الذي كوّنته ميوله واتجاهاته عن عقيدة وإيمان، فهو قد نصّب نفسه مجاهداً عن الحقائق الإسلامية، لا يترك مجالاً للحديث دون أن يُسهم فيه بأوفى نصيب.

وقد ظهرت لعهد طائفة كثيرة من الكتب البرّاقة لأقلام لامعة نشيطة تحارب الفكرة الإسلامية، وتصادف ارتياح الأعمار ممّن لا يفيثون إلى دراسة واسعة أو تفكير مستقيم.

وما أكثر من يصفّق للجديد دون روية أو تبصّر مهما تكشّفت مثالبه واتّضحت سوءاته.

ولكن فريداً يقف بقلمه الجبار أمام ما يخرج هؤلاء جميعاً، فيتلقّى الكتاب الذائع بالنقد الصائب والتفنيد السديد، وطريقته النقدية تدعو إلى الإعجاب والعجب معاً، إذ لم يسمح مرةً لبراعه أن ينال شخوص ضحاياه على كثرتهم الغالبة، بل اتجه إلى الآراء وحدها، يعرضها كما ذكرها أصحابها في أمانة وإحاطة، ثم يدفع بالتي هي أحسن، دَفْع المُحيط الوائق، دون أن تأخذه نشوة الفلج فيكيل لصاحبه ما يندّ عن آداب البحث ومقتضيات اللياقة، بل إنك تراه يؤيّد ما يتفق مع وجهة نظره تأييداً يغمره بالثناء والإطراء، فلا تدري أأنت أمام مُهاجم أم مُدافع!.

ولو سلك الناقدون مسلك فريد في ردوده لضاق نطاق الجدل في أقصر مكان وزمان! وهيهات، فإن التربية الحصرية التي أرضعت الكاتب في مهده الأدبي لا تُتاح لغير القلّة من النبلاء!!.

وقد تواضع كبار الكتاب على أن يُهمّلوا آراء مَنْ لم يبلغوا مكانتهم الأدبية من الشبان، فلا تجد أديباً كبيراً يناقش كاتباً مغموراً يتسّم الدرجات الأولى في سُلّم إنتاجه، ولكن الأستاذ وجدي يشذّ عن هذا الترفّع الأدبي المتداول، فيتناول جميع ما يصدر في ميدانه الإسلامي أيّاً كان كاتبه، ثم يسلك في نقده مسلكه مع ذوي الذبوع والصيت، وتلك إحدى فضائل الرجل النفسية، ولها دلالتها الأكيدة على مقوّمات سلوكه دون نزاع.

وقد لمس حاجة عصره إلى تفسير مناسب يقرب كتاب الله من الأذهان، إذ أنّ التفاسير المتداولة تنبّه بالقارىء في أودية من العلوم: عربية وفقهية ومذهبية، فتناهى به عن الروح الحيّ المتألق في كتاب الله، لذلك نهض بواجبه في التفسير نهوض مَنْ يدرك أهمية عمله، فذاع تفسيره الموجز، وترجم إلى لغات كثيرة، وتناقله جمهور المسلمين في شتى بلادهم النازحة شاكرين.

ولعلّ من السارّ المبهج أن تجد ثلاثة من علماء مصر تُرجم أكثر مؤلفاتهم إلى جميع لغات بني الإسلام، وهم فريد وجدي، وطنطاوي جوهرى، ومحمد رشيد رضا، فاكتسبوا شهرة إسلامية تجعلهم في طليعة علماء كل دولة تعتنق الدين الحنيف!!.

ولم يغفل محمد فريد وجدي حقّ مصر عليه، فقد كافح في مضمار السياسة، إذ أصدر صحيفة «الدستور القومية»، لتكون منبر الوطنية الصادقة في عهد الاحتلال، وقد تعرّض إلى هزّات عنيفة دفع إليها تمسّكه بمبدئه الصريح، فقد وقف الخديوي عباس منه موقفاً قاسياً حين رفض الأستاذ أن يجعل صحيفته مَطِيّة لحزب تركيا الفتاة، إذ رغب إليه صاحب القصر أن يمحو شعارها الرسمي «لسان حال الجامعة الإسلامية»، لتتجه إلى تأييد فكرة إدماج العرب في القومية التركية!!.

ومع ما بذل من عروض سخية في الجاه والمال فقد أصرّ صاحب الجريدة على شعارها الدائم، وحاربت الدولة بمضايقاتها الكثيرة، فاضطر إلى تعطيل صحيفته وهو مستريح الضمير لموقفه الصحيح.

ولا ننسى أنه قبل ذلك أيد السيد توفيق البكري في موقفه من عباس، إذ أصرّ شيخ مشايخ الطرق الصوفية على منع أتباعه من الاحتفال بالمحمل، والسير وراءه كما جرّت به العادة متحدياً رغبة الخديوي في ذلك، ونهض الأستاذ فريد وجدي ليعلم رأي الدين في هذه البدعة، مُعارضاً كل ما قيل في تبريرها من أوهام وملفقات، حتى انتصر الكاتب الجريء في إيضاح الحق، وأبان عن موقف الدين الصحيح دون خشية أو اكتراث.

أما خلافه السياسي مع مصطفى كامل: فقد نشأ حين أصرّ الزعيم الشاب على توجيه خطاب سياسي إلى وزير خارجية بريطانيا في شأن ما من الشؤون الهامة، ورأى الأستاذ وجدي أن يوجّه هذا الخطاب إلى جميع وزراء الخارجية في أوروبا كيلا يكون ذلك اعترافاً من الحزب الوطني لإنجلترا بمركزها السياسي في مصر، وبسط الكاتب وجهة نظره في مقالين كبيرين، فانصرف أتباع الحزب الوطني عن جريدته، ولكنه أعلن رأيه السياسي غير ملتفت إلى ما سيكون من الكساد والبوار مما سنشير إليه بعد حين، ولا نكاد نجد نظيراً لفريد وجدي في حرية الرأي من رجال الصحافة غير الأستاذ أمين الرافعي فكلاهما كان يتمسك دائماً برأيه هازئاً بما يعترضه من الصعاب، رحمهما الله!!

هذا وقد اتجه الأستاذ وجدي إلى الأبحاث الروحية، فأصدر مجلة خاصة بها، وأفرد لها أجزاء متتابعة من مؤلفه القيم «على أطلال المذهب المادي»، وقد اتخذ منها حجة قوية يحارب بها من يُنكرون الحقائق الغيبية في عالم السموات والأرض، وساعدته الاستكشافات الأوروبية في هذا المجال مساعدة ناجعة فتابعها بلذة وشغف، وأخذ يفسّر ظواهرها ويعلّل نتائجها، حتى أصبح - في اللغة العربية - فارسها المعلم وكاتبها الحصيف، وقد أتاحت له ثقافته العميقة في علوم النفس

والاجتماع والفلسفة أيضاً زاحراً من الحجج العقلية والأسانيد الكونية أكسب مقالاته قوةً ومثانةً، كما أورثه تضلّعه العريق في اللغة العربية أسلوباً مُشرقاً واضحاً يصل به إلى أهدافه الفكرية وصولاً أخذاً لا ينقصه البريق والنصوع، حتى قال عنه الأستاذ بول كراوس: إنه مَلِكُ كُتَابِ العرب على الإطلاق.

وقد صاحبت الأستاذ وجدي وجالسته، فرأيت في أخلاقه الرفيعة نبيلاً ملهماً، وما ظنك بإنسان يقوم لخدمته إذا دخل عليه مهما تعددت مرّات دخوله؟!، فإذا سألت في ذلك أجاب متسانلاً عن الفرق بينه وبين الزائرين من الأضياف!!.

ولن يحتاج قارئه إلى معرفة شخصيته، فأسلوبه الجدلي، وطريقة نقاشه، ومذهبه الإصلاحية... كل أولئك ينادي بمثاليته الرفيعة، ويشف عن منازعه، و«الأسلوب الرجل» كما يقال.

وقد كان في سبيله الأخيرة رئيساً لتحرير: «مجلة الأزهر» فرفعها إلى مستوى ثقافي مشرف، وكتب بها فصلاً دسمة تذكّرنا بفصوله الحية التي كان يتابعها في الجرائد اليومية ذات الشهرة الواسعة، «كالدستور، والمؤيد، واللواء، والأهرام والجهاد، والبلاغ»، بل إن صاحب «كوكب الشرق» كان ينشر مقالاته في صفحة «الأخبار المحلية» ليجتذب إليها أنظار القراء!!.

ومع ما نشر من المؤلفات الكثيرة فإنني أعرف له ثلاثة كتب كبيرة لم تُطبع بعد، وإنما نُشرت سلسلة على صفحات مجلة الأزهر تحت عنوان:

- ١ - مهمة الدين الإسلامي.
- ٢ - الروح الإسلامية وتأثيرها.
- ٣ - السيرة المحمدية في ضوء الفلسفة.

وأخشى أن يمضي الزمن دون أن يجمع شتاتها في حيز خاص. فهل يقوم المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بطبعها على نفقته، دعاية مقبولة للإسلام؟ ذلك عمل جليل.

قضى الأستاذ وجدي حياته الخصيبة مجاهداً بقلمه، لم يترك حومة الكفاح يوماً واحداً، إذ كان يقف موقف الذائد عن القيم الإسلامية في عصر هبت فيه زعازع الشكوك من كل ناحية، فلا يرى إلاّ متهجماً ينتقص عن جهل أو ضغن، ولا بدّ من حزم عاجل في إدحاض الباطل، لذلك كان امتشاق القلم رسالة وجدي التي وقف عليها حياته دون سأم أو كلال.

ونحن نعهد لدى الكثير من أبطال المعارك حمية مشتتة تدفعها إلى الجدل بغير التي هي أحسن، وكثيراً ما وجد الأستاذ وجدي من هؤلاء - وفيهم من لا يصل إلى مرتبة تلاميذه - من يركب رأسه معانداً، ثم يظن السباب طريق الفلج، فينضح بما تفيض به نفسه من نقيصة، وكان الرجل يسمع ويرى ما يسوء ويؤلم متغاضياً، متخطئاً كل بذاء ليبحث عن شبهة يدحضها، أو اعوجاج يقومه، بل إنك لتعجب أشدّ العجب حين تجده يقابل بالبشاشة والمحبة خصمه، وكأنهما صديقان في مجلس سمر، لا أن أحدهما ظالم مُسرف ينضح بالسباب.

لقد فكّرت كثيراً في مثالية هذا الصابر المحتسب، إذ كانت في رأيي شذوذاً عبقرياً فيما نعهد من المعارك، ونرى من الجدل، حتى رجعت بها إلى طبيعة هذه النفس الراضية التي جُبلت على السماحة الإنسانية حتى التصقت بها التصاقاً لا انفصام به، ووراء ذلك دراسة وجدي العميقة لعلمي النفس والاجتماع، إذ رأى من أحوال الهبوط ومهاوي السقوط للنفس الإنسانية ما أخذ يبرّر معه كل شطط وجموح، ودارس النفس البشرية إذا كان نقي الفطرة سمح السريرة فإنه يقف موقف الراثي لذوي النزق المتسلط لا موقف الشامت المتربّص، وهكذا كان محمد فريد وجدي في معارضته خصومه، يتلقّى الصخر ليقذف بالزهر وعند الله جزاؤه الأوفى.

على أن طبيعة موقفه النضالي عن دين يشمل تعاليم الحياة، وسيطر عليها في كل اتجاه قد فرضت عليه أن يعمّق اطلاعه، ويوسّع دائرة ثقافته بحيث تشمل علوم العصر ومعارفه الكونية والإنسانية فوق تعمّقها الرصين في أبواب الثقافة

الإسلامية ومناحي التشريع الحكيم، لأن الرجل يحارب في كل ميدان، ويقف أمام كل اتجاه يشدّ فلا بدّ من ذخيرة سريعة الحسْم قوية السلاح.

لقد وقف - في معركة الترجمة لمعاني القرآن - أمام نفر من المتعمّقين في النصوص الفقهية من قارئ الحواشي ودارسي الأصول، وفي أيديهم أسلحتهم المهيّئة من النصوص والقواعد والتفريعات، وكان الظن بهم أن يكونوا في هذا المضمار أطول منه يداً، وأعمق نظراً، لأن الموضوع موضوعهم والميدان ميدانهم، ولكن الرجل المناضل قد أخذ للأمر عدّته، فقرأ وأمعن، وواجه النصوص بالنصوص، وعارض الأقوال بالأقوال، ثم فلج بالحجّة الدامغة، وجهر بالرأي الساطع وسجّل ذلك في كتاب علمي يحمل طابع الاستدلال المتعمّق والنظر البصير! والمسألة بعدُ ليست في حاجة إلى تعداد أوجه الرأي إذا خلصت الضمائر وصدقت النيات، لأن ترجمة المعاني غير ترجمة النصّ، ولم يقل أحد بجواز ترجمة النص حتى يشتعل الخلاف.

كما وقف - في معركة الشعر الجاهلي - أمام التراث الأدبي بأكمله يراجع قصائده، ويدرس أعلامه، ويحلّل نصوصه، ثم يجابه المتخصّصين في هذا الحقل مجابهة النظر وكأن الرجل قد خلص لدراسة الأدب وحده، فهو يميّز الصريح من المنحول، ويحلّل دوافع الانتحال، ويوضح خصائص الأدب الأصيل، ويرسم الصورة الدقيقة للطبيعة الجاهلية بخاصّة والعربية بعامة، في عفة لفظ واستقامة دليل، مع التسليم بما يراه صادقاً من كلام الخصم إذا وضع اتجاهه، وصحّ مرماه.

وفي معركة تحرير المرأة كان كفئاً كريماً لقاسم أمين، فجاء كتابه عن المرأة المسلمة صادق الدلالة على عمق ثقافته الاجتماعية، وبصره باختلاف المنازع بين الشرق والغرب، وإلمامه بما تخوّف منه أساطين المشرّعين في أوروبا من انحطاط مستوى المرأة الإنساني، حين تمتّهن في حمل الأثقال، وإدارة أدوات الوقود في المصانع والمناجم، وقد صحّ ما تنبأ به الأستاذ، وأيدته الشواهد المعاصرة، وكأنه

كان ينظر إلى الغيب من ستر دقيق، والعجيب: أن بعض الذين ضاقوا بكتاب «المرأة المسلمة» قد شوّهوا وجهه السافر، فافتروا على الرجل بأنه ينادي بحرمان المرأة واستعبادها، ويحارب تعليمها وثقافتها، مع أن الكتاب قد طُبِعَ مرّتين، وليس به غير ما يشرف المرأة، ويصون كرامتها، وينمي ملكاتها العقلية والاجتماعية في ظلال التعاليم الإسلامية!.

ولو لم يكن وجدي مثالي النظرة لضاق بهؤلاء الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويتفننون في السباب والشتائم ولكنه يردّ عليهم من جديد ليريههم فقط أنهم لم يقرؤوا الكتاب ولا يصفهم بما يستحقّون إذا افتروا الكذب، وخلقوا الأراجيف.

فإذا تحدّثنا عن معارك وجدي مع الطبيعيين، وأنصار نظرية النشوء في الشرق والغرب، فإننا لا نكاد نجد مثيلاً للرجل في إحاطته بموضوعه، إذ كانت هذه النظرية فتنة العصر في الشرق، بعد أن ظلّت فتنة عصرها في الغرب زمناً طويلاً حتى انجلت الكشوف العلمية والبراهين العقلية عمّا يعصف بها كرماد في مهبّ الريح.

ومن الحظّ الحَسَن: أن وجدي قد جمع أكثر ما كُتِبَ بصدد ذلك في مؤلّفيه: «الإسلام في عصر العلم» و«على أطلال المذهب المادّي»، وكانت مجلة «الحياة» التي أصدرها الأستاذ في شبابه ميداناً لهذه البحوث، ثم واصل الجهد بعد احتجاب مجلته، فأخذ يُولي الصّحف اليومية والمجلاّت الأسبوعية بسيل دافق من نقده، وكم صمد لأناس بهرتهم الزخارف، فأخذوا يترجمون ما لا يعقلون، دون أن يسأم تكرار القول أو تضايقه حماقة الادّعاء.

أما دفاعه عن العقيدة الإسلامية في أصولها المقرّرة: فقد ألجأه مضطراً إلى مناوأة من يناقشونه في مسائل التثليث والصّلب والفداء، والرجل في أعماقه يودّ أن يفرغ لتوضيح النظرات الإسلامية وحدها دون شغب طائفي يعدّد جبهات القول دون مبرّر، ولكنه يرى الهجوم يتوالى على العقيدة الإسلامية، ممّن يزنونها بالعقائد

المخالفة، دون أن يعدلوا في القول، ويزيدون فيفترون على الله كذباً بما يلصقونه بالقرآن من أقوال يتكلف لها التأويل، والسكوت على ذلك كله مما لا يطيقه مجاهد أمين، كالأستاذ فريد وجدي، فأدلى بدلوه في الدلاء متعرضاً لسفاهة السافهين، وكان قصاره مع لجاجتهم الشائنة أن يقول كما قال الله: ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾^(١)!

إن دراسة المعارك الوجدية في شتى اتجاهاتها الفكرية تتطلب من يتخصص لتحليلها من الدارسين، لأن هذه الوقفات الرائعة في تاريخ الفكر المعاصر، جديرة بالاحتذاء من ناحيتين لا من ناحية، إذ أن سموها الخلقي وبراءتها المثالية من شوائب التعريض والغمز، مما تجعل لها قيمة خاصة فوق قيمتها العلمية. وقد كان الأستاذ وجدي من عشاق النزاهة الفكرية، إلى درجة لا مثيل لها فيما نشهد ونسمع، حتى أن هذه النزاهة الرائعة كانت إحدى عوامل خسارته المادية في دنيا الصحافة!، وهي خسارة لا تقع على الرجل وحده، بل تقع على كل من يشرب لحماية المثل الراقية من المتطلعين، ومن حديثها ما نعلمه عن إفلاس جريدة: «الدستور اليومية» التي أنشأها الرجل لتتطرق بمبادئ الحزب الوطني، إذ كان أحد أعضائه البارزين، كما كان موضع التقدير من زعيمه الكبير مصطفى كامل رحمه الله، وبين الرجلين من المراسلات ما ينطق برعاية كل منهما لصاحبه واجتباؤه إياه.

وقد حدث أن عارض وجدي بعض ما ارتآه أعضاء الحزب من اتجاهات في السياسة معارضة نزيهة، وكان يظن أن انتماءه السياسي لهذا الحزب الكبير لا يحول دون نقده حين يتسع مجال النقد، فجهر بما يعتقد في أدب وذوق، ولكن شباب الحزب وأكثرهم من ذوي العجلة المتسرعة قد ناؤوا الرجل، وحرّضوا على إهمال جريدته حتى كسد سوقها، واضطر الأستاذ للدفاع عن رأيه حين قال: «إني لا أنتبذ الدستور مكاناً بعيداً عن الأحزاب إلا ليكون واسطة اتحاد واتفاق بينها،

(١) سورة آل عمران: آية ٧١.

وواقفاً موقف المراقب لأعمالها، حتى لا تحرم الأمة من جريدة غير متحيزة فتضيع الحقائق وتنظمس المعالم، ولا يكون للطرفين وسط أما أنا فواحد من أعضاء الحزب الوطني، أعترف بأن مبادئ هذا الحزب هي المبادئ الصحيحة، التي يجب على كل مصري أن ياتم بها، ويتخذها له دستوراً، ولكن هل يغيب عن حضرة الأخ أن كوني من الحزب الوطني معترفاً بزعامة مصطفى باشا كامل لا يمنع أن أنتقد خطبته، وأن أبين للشبيبة موقع الخطأ والصواب على ما يقتضيه واجب الصحافة! هل تمنع الإنجليزي إنجليزيتة عن الانتقاد على خطبة ملكه أو زعيم حزبه؟. إذن ما فائدة الجرائد؟ وما معنى التناصح والتعاون في الخدمة والمساعدة في تقويم الآراء؟. . وما فائدة إصدار جريدة الدستور؟ وفي مصر جرائد لا تُحصى، وأنا في غنى عن الكسب من جهته إذا كنت لا أملك حرية الانتقاد فيما أعتقد واجباً ضرورياً.

هذه الحرية المثالية لدى الكاتب الكبير كانت تزدان أجمل ازديان بالموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وأذكر أن الزعيم مصطفى كامل رحمه الله كان لا يرى رأي وجدي في هذا الفرق اللين، إذا اتجه به إلى خصوم الإسلام ومناوئيه فقد ردّ فريد رحمه الله على اللورد كرومر ردّاً مهذباً حين هاجم الدين الإسلامي في تقريره الأخير، وشفع نقضه الصريح بالحجج العلمية الحاسمة في أربعة فصول هامة، فسحت لها جريدة «اللواء» موضع الصدر البارز بين المقالات، ودفعت الزعيم الشاب إلى رؤية وجدي ومحدثه، ولا نرى أفضل من أن ننقل عن الأستاذ وجدي ما دار بينه وبين الزعيم الكبير بصدد هذا الموضوع حين قال^(١):

«جلس هو على مكتبه وجلست بجانبه، وانتبذ القوم الذين معنا مكاناً من الحُجرة، وأخذوا في شأنهم، فطفق صاحبي يكلمني في أمر الردّ، ويظهر لي أنه مسرور جداً من مبادرتي بنصرة الدين وكُتبت خصومة الملحدين، وأطنب في ذلك

(١) نشر هذا القول بجريدة الدستور، عدد ١٦، فبراير سنة ١٩٠٨، وقد نقلته عن الكتاب القيم الذي أصدره الدكتور البخانة طه الحاجري عن فريد وجدي، ص ١٤٧، ١٤٨، وهو أول تاريخ دقيق لفترة من حياة الرجل العظيم.

ما شاء، ثم قال لي: هذا كله حسن، ولكني أرى في مقدمتك ليناً في اللهجة، لا يصح أن تكون عليه مقدّمة ردّ مطاعن على الإسلام وجّهها إليه رجل من غير أبنائه لا همّ له إلا جرح عواطف المسلمين وتسويء سمعتهم.

فقلت له أليس إلانة القول مع قوة الحجة خير من الشدة التي ربما نفّرت من قراءة البحث كله فيفوتني الغرض من كتابته، وهذا فرعون موسى الذي افتأت على الله، وادّعى الألوهية قد أمر الله موسى عندما أرسله إليه أن يقول له قولاً ليناً لعلّه يتذكّر أو يخشى، وأمرنا الله بذلك نصّاً فقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١) وما الذي يضيرني لو ألفتُ له المقدمة استدراجاً حتى إذا تورّط معي في البحث وأنست روحه منّي قصد الحقيقة اطمأن إلى الموضوع وأشربه قلبه.

فقال: كلا إنك لم تُلنْ له القول فقط، بل عذرته فيما قال أيضاً، وقلت: إن في المسلمين مَنْ يقول مثل مقالة كرومر افتتاناً بالعلم الأوروبي، وكفى بجملتك هذه مبرئاً في نظر أهل دولته. ولا يبعد عليه أن يقول في تقرير السنة المقبلة في تبرئة نفسه: إنه معذور فيما ذهب إليه، بدليل ما كتبه فلان في جريدة «اللواء» ويسرد عبارتك بالنص، فتكون قد أعطيته أكبر سلاح يدافع به عن نفسه.

فقلت له: كلّ هذا ممكن، ولكني لا أنظر إلى هذه الاحتمالات ما دام موضوعي الذي أبحث فيه ديني، وربّ الدّين يقول: أَلَيْنَا الْقَوْلُ لِلْمُخَالَفِينَ وَلَا تَخَاشَنَّهُمْ عِنْدَ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ.

قال: يا أخي نحن في موضع يجب أن نبثّ في الأمة روح الحميّة، والعبرة بالكتابة المؤثرة، وهذه فرصة من أجمل الفرص لذلك، لا أن نقابلها وهي في هذا الغليان الوجداني بما يكسر نفوسها ويطمئن من إشرافها.

(١) سورة النحل: آية ١٢٥.

أسهبت في نقل هذا الحوار، ليعلم القارئ مُثْلَ الأستاذ وجدي وقيمه التي تسيطر على جهاده القلمي، وهي مُثْلُ كان من المحتمل أن تتعرض لما يزعمها بعض الشيء في نفسه، ولكن إيمانه الراسخ بجودها اليقينية وثمرتها المبتغاة قد مكن لها من نفسه رغم ما ينوشها من الهزات.

وفي ضوء هذه المُثْل كان الكاتب الكبير يقابل السيئة بالحسنة في بشاشة وإقبال، لقد بذل عَصارة فكره، وبدّد هدوء نفسه، وجمع أشتات قوّته، سنوات طوالاً ليُخْرِج «دائرة المعارف» في عشرة أجزاء ضخام، كان يتوقع بعدها أن يجد التقدير المُنصف والتشجيع الهادف، ولكنه وجد الدكتور: محمد حسين هيكَل يكتب في «جريدة السياسة (١٩٢٥/٤/٨) فصلاً طويلاً ينتقص عمل الرجل، ويقلّل من شأنه، ويقول في نهايته: «إن الاضطراب بين الإهمال والإسهاب والإيجاز يرجع إلى أسباب ليس انفراد السيد فريد وجدي بالبحث أهمها، إنما أهمها أن ليس للمؤلف نهج ولا خطة، ولو كانت ثمة خطة، واتّبع لما كانت هذه العيوب واضحة، ونحسب أن هذا يرجع إلى نوع تربية السيد فريد وجدي العلمية، فهو كثير الاطلاع والمراجعة لكنه في اطلاعه ومراجعته لا يصدر عن أساس ذاتي خاص».

أجل، وجد الأستاذ فريد وجدي ذلك، وأكثر من ذلك من الدكتور: محمد حسين هيكَل، فهل منعه هذا التحامل الظالم أن يسكت عن كلمة الحق فيه، حين أصدر كتابه الشهير: (حياة محمد).

لو كان المنقود شخصاً غير فريد لأغضى وتهاون متذكراً ما أسلف هيكَل له من جحود، ولكن الأستاذ المشالي محمد فريد وجدي يكتب مقالاً في تقرير الكتاب الرائع - من وجهة نظر ذاك العصر، وفي الكلام نظر - يقول فيه^(١):

«إذا تصفّح القارئ الكتاب رأى نفسه حيال بحوث مستفيضة تتجلى فيها ألمعية الدكتور هيكَل تجلياً باهراً، تضطره بسحر بيانها أن يقتفي أثرها في أدوار

(١) مجلة الأزهر، المجلد السادس، ص ١٣٦.

هذا التاريخ الحافل بالعظائم، فتمرّ به صفحات أملاها الإيمان الراسخ، والفهم الثاقب والغوص البعيد الغور، مما لا نبالغ إذا قلنا: إن هذه الصفحات من حسنات هذا العصر في البيان والعمق، ولا نشط إذا حكمنا بأنها من الطرائف التي كتب لها الخلود».

إن اصطناع الصخب المفرق والرنين المدوّي في النقد العلمي قد يشفي لاجابة بعض من يحسبون أنفسهم حُماة السّرح وفرسان الميدان، ولكن هذا الصخب في واقع أمره يضائل من أدلتهم المقنعة، ويرسل غيوماً تطمس معالم الحق لدى المنقودين، وإن تجربة الأستاذ في التزام السكينة، واحترام المعارض مهما اتسعت الشقّة بينه وبين مخالفه لتجربة جديرة بالالتزام، إذ عادت بأطيب الثمار على الحقيقة قبل أن تعود بالرضا المُقنع على الناقد والمنقود.

أذكر أن الدكتور إسماعيل أحمد أدهم - وله في الإلحاد وجهه الصريح - قد كتب مؤلفاً تحت عنوان: «لماذا أنا مُلحد» حشاه بما يهرف به الطبيعيون من لفظ حول المادة، ويُطلان السبب الأول، والصدفة والاحتمال الفرضي مما هو معروف لدى أمثاله، إذ أطالوا الخوض فيه إطالة لا تميل إلى اعتدال، وقد ظنّ الدكتور أدهم أنه بكتابه قد ألزم مُخالفيه الحجّة وجاء بأنصع الدليل، ولكن الأستاذ فريد وجدي - والميدان ميدانه - قد نسف الكتاب نسفاً بمنطقه الدقيق في بحث علمي مُركّز نشره بالمجلد الثامن من مجلة الأزهر، حيث أشبع القول إشباعاً تكشف به عوار هؤلاء المندفعين!

وقد قرأت الكتاب والردّ عليه منذ زمن بعيد، ثم أتيح لي أن أصادق الكاتب المجيد الأستاذ صديق شيبوب - رحمه الله - وكان صديقاً لأدهم، فذكر لي أن الدكتور أدهم جاء ذات يوم ومعه مجلة الأزهر وهو يقول: لقد أدهشني الأستاذ وجدي بمسلكه النقدي وأدبه الحوار، حتى أوقعني في حيرة بيني وبين نفسي!، لقد التمس لي العذر حين بحث عن أسباب هذا الإلحاد في تربيتي العائلية، بين

أم مسيحية وأختين تُكذبان الإنجيل ثم كرّ على أدلتي بأسلحة علمية لا تعرف
المهاترة!، فأنا حائر ماذا أقول فيه؟

وإذا صدقتني الذاكرة فإن الأستاذ الشاعر: حسن كامل الصيرفي قد نقل لي
فحوى ما تقدّم عن صديقه أدهم أيضاً؟.

ألا يرى معي القارئ بعد ذلك أن موضوعية وجدي وبُعده عن الإسفاف
النقدي أقوم السُّبُل وأجدرها بالاحتذاء لدى المنصفين!.

إن لصاحب دائرة المعارف فضله الكبير على الثقافة المعاصرة، ومقامه
الجهير في الدّود عن الإسلام، وما أظن أن مقالنا عنه يَفي بصبابة من حقه وإنه
لحق جليل.

لورد هدلي رئيس الجمعية الإسلامية بريطانية

- ١ -

حين قامت في مصر الحركة الاستقلالية بزعامة سعد زغلول التهب الشعور الوطني بمُعَاداة المحتلّين، وسَرَت الكراهية المضطربة للإنجليز في كل نفس، بحيث أصبح البريطانيون موضع السخط الناقم لدى كل مصري، وصارت صداقتهم دليل الخيانة الوطنية لدى المُطالبين بالاستقلال والحرية، حتى خاف قادة الاحتلال على أنفسهم، فما يتقلّون من مكان إلى مكان دون مظاهرة عسكرية مدجّجة بالحِراب والنيران، يظنونها تبعث الرعب في نفوس الهاتفين بالحرية والجلء، في هذه الأعوام الحالكة التي ابتدأت من سنة ١٩١٩، وامتدّت بضع سنوات حارّة كألْسنة اللهب داجية كليّات المحاق، وفد إلى الإسكندرية اللورد الإنجليزي الكبير سيف الرحمن رحمة الله فاروق: المعروف باللورد هيدلي، رئيس الجمعية البريطانية الإسلامية فاستقبل استقبالاً حماسياً تجلّت به مظاهر الإخاء الإسلامي في أبدع صوره الأخّاذة، وأُقيمت الاحتفالات الباهرة مُرحّبة بالزائر المسلم الكبير.

ونسي المصريون أن الزائر إنجليزي ينتمي لدولة تسيطر عليهم بالحديد والنار، لأنّه وهو المسلم النقي قد ارتفع بإسلامه إلى أفق ينكر التسلّط والسيطرة وأصبح أخاً لكل مسلم يلوذ بالقرآن ويقتدي بصاحب الرسالة ﷺ، بل إن الفرحة

بقدمه جعلت كل إسكندري يفتح ذراعيه مُعانقاً، وكأنه ينتظر حبياً طوّحت به النوى إلى أبعد المطارح، ثم تأذنت ساعة اللقاء بعد سنوات طغى بها الحنين وهاج الشجن، وترقرق الدمع، وقد أقيمت له حفلتان كبيرتان في أرقى الفنادق، ولولا أن الوقت قد ضاق بالزائر الكريم لأجاب دعوات الأقاليم المختلفة التي خفّت إلى الترحيب به، إذ أنه كان يمرّ بالإسكندرية مروراً عابراً في طريقه إلى مكة حاجاً بيت الله الحرام، وفق برنامج مرسوم تحدّده الساعات والدقائق، وكان الأمير عمر طوسون أكبر رأس بالثغر إذ ذاك، فجعل الحفلتين الكبيرتين تحت رعاية سموه، وقد أمّهما من الأمراء والوزراء والعلماء والقضاة والأطباء والأعيان والتجار والأهالي، حشد لا تعهده الإسكندرية إلّا في المناسبات الجبيرة ذات المغزى البعيد، ثم افتتح الأمير الكبير الحفلة الأولى بكلمة هادفة قال فيها يحيى اللورد ومرافقيه :

أيّها الضيوف الكرام، مرحباً مرحباً، وأهلاً وسهلاً لقد خفّت مصر إلى استقبالكم، وابتهجت بمقدمكم الكريم، وكان سرورها بذلك عظيماً، حتى لقد تمّنّت كل مدينة أن تسعى بأهلها إليكم، وأن يكون لكم متّسع من الوقت لزيارتها فتقوم بما يجب لكم من الإجلال والإعظام، والترحيب والإكرام، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ . وهذا الإخاء وحده هو الذي دفعنا إلى الاحتفاء بكم، توكيداً لذلك الرباط المتين الذي يجمع بين قلوب المسلمين في أنحاء المعمورة، فنحن إنما اجتمعنا لتناول كؤوس الإخلاص الصافية، التي لا تشوبها شائبة، ولنحيا ساعة حياة روحانية تتناجى فيها القلوب، وتتعانق الأرواح، وليس لنا وراء هذه الغاية غرض آخر. هذا المعنى الذي أكّده الأمير في مفتتح الاحتفال يعلن الحقيقة السافرة، وهي : أن رابطة الإسلام أقوى الروابط جميعاً، لا تعدلها رابطة لغة أو جنس أو وطن، وأن المسلم الإنجليزي أو الألماني أو الروسي أخ للمسلم الشرقي يفديه بروحه ويؤثره على نفسه ولو كانت به خصاصة، أولئك كتب الله في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه . ولعمري لقد أبدع الشاعر الأستاذ؛ أمين سرور العالم الإسكندري حين قال في حفل اللورد مخاطباً إياه :

إذا كَرَّموا الأفراد للدين والفضل فأنت جدير بالكرامة يا هدي
تيممت مصرًا والقلوب حوائم كما حامت الأطيَّار بالماء والظل
فكنت كما زار الحياطيب الثرى فطاب جنى والفرع يعرف بالأصل

وتعريفًا بالرجل الكبير: نذكر أنه وُلِدَ في سنة ١٨٥٤ وتوفي سنة ١٩٣٥ عن إحدى وثمانين سنة، وقد تلقَّى علومه الابتدائية والثانوية بأرقى المدارس الإنجليزية، ثم تخرَّج في جامعة كمبردج، وحصل على أرقى درجاتها العلمية في الرياضيات، واشتغل بالتدريس والصحافة والهندسة، وكان في بداية أمره بروتستانتيًا، ثم درس الكتلثة، فضاق ذرعًا بما بين المذهبين من فروق لا تعقل نتائجها وقد هداه ذلك إلى البحث في الأعيان الأخرى كاليهودية والبوذية والإسلام، فأشرق النور في عقله وقلبه، واعتنق الإسلام عن دراسة فاحصة، وتأمَّل مستنير، ولم يدخر جهداً أو مالاً أو صحةً في التبشير به، حتى قام في سنِّ السبعين برحلات متتابعة إلى مصر والحجاز والهند وجنوب أفريقيا، داعياً إلى الصراط المستقيم، وقد رأس الجمعية البريطانية الإسلامية ولقَّب بسيف الرحمن رحمة الله فاروق، وكتب صحفًا عامَّة في الدعوة إلى دين الله، ولعلَّ أهمها كتابه الرائع (إيقاظ الغرب للإسلام) وقد ترجمه سنة ١٩٢٣ إلى العربية الكاتب الغيور الأستاذ: إسماعيل حلمي البارودي أحد أعضاء الجمعية البريطانية الإسلامية ترجمة دقيقة، أعتمد عليها الآن في أكثر ما أُشير إليه من خواطر الداعية الكبير نحو دينه الكريم.

وقد كان المعروف لدى جمهرة المحتفلين باللورد هدي أنه أول لورد إنجليزي أشرق الإسلام في قلبه، وظلَّ هذا المعنى مشتهراً ذائعاً يتناقله الناس، حتى وفد على مصر بعد عدَّة سنوات، الشيخ عبد الله كوليام: أول مسلم إنجليزي دعا إلى الله، فاحتفلت به جميعة الشبَّان المسلمين بالقاهرة احتفالاً يناسب مكانته، وألقى خطبة هامة تحت عنوان: «نصف قرن على الإسلام في إنجلترا» ولعلَّ من الواجب أن نذكر أن الفقيه الكبير الأستاذ: محبَّ الدين الخطيب - رضي الله عنه - قد عمل على نشر هذه الخطبة في أوسع نطاق، إذ نشرها بمجلة الفتح أولاً، ثم

بمجموعة الحديقة ثانياً، ثم بالجزء الثاني من كتاب المتقى من محاضرات جمعية الشبان نالاً، ولم يكتف بذلك كله بل طبعها في كُتيب صغير وقدمه لجمهرة القراء .

أقول : إنَّ هذا الرائد الأول الكريم أعلن في كلمته الهامة : أن اللورد ستلي أولدرلي قد اعتنق الإسلام قبل هدلي بوقت طويل ، وكان يأتي إلى مسجد المسلمين فيصلي معهم في صفٍّ واحد مع التفاوت الكبير بينهم وبينه في العُرف الإنجليزي لا في الدين الإسلامي الذي يجعل الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا يمكننا أن نقدّر شجاعة كوليام وستلي أو لدرلي وهدي وأضرابهم من كبار المسلمين الأوائل ببريطانيا ، إلا إذا أشرنا إلى بعض ما جاء في خطبة الشيخ عبد الله كوليام عمّا لقي وإخوانه من الأذى في سبيل الله إذ قال مؤرخاً بعض مراحل الدعوة في كلمته :

«ومما أودينا به أن أولئك الأشرار - يريد الحاقدين من القسّس وطغام القوم - كانوا يلقون الأقدار على المصلّين أثناء الصلاة أو وقت خروجهم من بيت الله ، وكانوا يرمون المؤذّن بالحجارة ، وينثرون الزجاج المكسور على سجادات الصلاة ليجرحوا جباهنا وأيدينا وأرجلنا ، وفي ذات مساء انتهزوا فرصة وجودنا في مسجدنا ، فجاءوا إلى درجات السّلم ووضعوا أمامها أسلاكاً لنعثر بها عند خروجنا في الليل ، ومن محاسن الصّدق أن أحد الإخوان أهدى إليّ يومئذ عصاً ، وإن لم يكن من عادتي أن أحمل العصا فحملتها ، وبينما أنا خارج من المسجد أمام إخواني حرّكت العصا فصدمت السلك ، فانتبهت له وللأسلاك الأخرى ، ووقانا الله شرّها وشرّ أصحابها .

ولقد دخلت المسجد مرة أنا وإخواني لألقي عليهم محاضرة في تفسير آية من آيات القرآن الشريف ، فرأيت بالمسجد وجوهاً غريبةً مُريبةً سبقتنا إليه ، فلم أبال بهم وتلوت الآيات الكريمة ، وشرعت أفسرها وأستنبط منها العِظات والعبر ، فلما انتهيت من المحاضرة قام أحد أولئك المُريبين ، وأخرج من جيبه حجارة وألقاها في الأرض ، ثم توجه إلى أصحابه وقال لهم : مَنْ كان منكم يريد أن يرحم

المسلمين بالحجارة التي يحملها معه فقد صرت مسلماً معهم فارجموني ، فألقوا حجارتهم وأعلنوا إسلامهم ، وهذا الرجل الذي كان رئيساً لهم ما لبث أن صار عضدي الأيمن ، وتسمى : بجمال الدين ، ولازماني في كل رحلاتي التي قمت بها للدعوة إلى الإسلام» .

ولعلنا نذكر أن قائد الدعوة الأول محمداً - ﷺ - قد أُوذِيَ في صلاته وأُلقيت بعض القاذورات عليه وهو بين يدي ربّه ، وكان الله - عزّ وجلّ - قادراً على أن يعصمه من هذه القاذورات ، ولكن الحكمة البالغة في ذلك لم تتجلّ لعيني كما اتضحت لي بعد قراءة كلمة الشيخ : عبد الله كوليام ، إذ أن الله - عزّ وجلّ - قد شاء أن يكون نبيّه الكريم قدوة صابرة لكل من يتلى بالإيداء في صلاته ، فيستمدّ العزيمة القوية في كفاحه ، ويرى نفسه يمثل بعض الأدوار الباسلة التي قام بها الداعية الأول في شجاعة واستبسال ، وهذا بعض ما ثبت الداعية الإنجليزي في كفاحه الصابر حين وجد قطع الزجاج الصغيرة تتناثر في خبث ماكر على السجاجيد لتصيب القائمين والرُّكع والسجود فتشوّ معارف الجبهة ، وتؤذي المسلم في صحيفة وجهه على نحو بغيض خبيث .

ولا أشك أن إسلام اللوردين الكبيرين قد قدّم لهؤلاء المستضعفين ما قدّمه إسلام عمر وحمزة من قوّة للداعية الأول ، فأصبح المسلمون ببريطانيا ذوي مهابة وبأس ، واضطر العقلاء إلّا أن يستمعوا حججهم القوية ، وحسبهم أن صدعوا بكلمة الحق في عالم مادي متناحر ، فكانوا شعلاً وضيئةً تحاول أن تخرق الغياهب ، وإنك لا تهدي من أحببت .

لقد كانت ثقافة لورد هدلي الراقية - فضلاً عن مركزه الاجتماعي المرموق - باعناً مُلِحاً على الاستماع إليه ، والنظر في براهينه ، وقد أُوتِيَ من اللقانة والذكاء واللباقة ما جعل خصومه يكرّون أمام حججه ، فقد هالهم أن يعرض اللورد في أحاديثه صفحات مُشرقة عن حياة رسول الله ، وطفقوا يقولون : إن الرجل يعرض الإسلام ونبيّه في صورة لا تمثل الواقع ! كأن الواقع الصريح لديهم هو ما افتراه المتعصّبون من القساوسة وأعداء الإسلام عن غرض سافل دنيء !! فجابهم اللورد

بقوله: «إن الحقائق التاريخية الخاصة بالنبي - ﷺ - من الشهرة والثبوت بحيث لا يتسنى معها اختلاق شيء جديد، فإن لنا معشر المسلمين كتباً ضخمةً مُعترفًا بصحتها تحتوي على أحايث الرسول - ﷺ - التي مَحَصها الرواة تمحيصاً دقيقاً، ومن هذه الكتب نستمدّ كلّ ما نريد أن نكتبه عن الرسول. وقد بلغ من عناية المسلمين بهذا الأمر أنهم يضربون عرض الحائط بكل ما يُقال عنه ﷺ مما لم يرد له ذكر في كتب السُّنة مهما حمل من إشادة وتمجيد^(١)».

وكان الرجل شجاعاً حين واجه رئيس أساقفة كنتر بوري بخطئه؛ إذ قدّم بعض الكتب الطاعنة في الإسلام على غير دليل، فعجب كيف يصدر برعايته مؤلف صارخ الافتراء، تصفه الكنيسة بأنه كُتِبَ جميل، وتدعو الأمة إلى قراءته، وقد قال اللورد في هذا الصدد: إن المبشّر المسيحي يتحمّل وزراً ثقیلاً حين يُحرّف الكلام عن مواضعه، فيزعم أن المسلمين مثلاً يعبدون محمّداً، ويعتقدون أن النساء لا أرواح لهنّ، ولا يُباح لهنّ دخول المساجد، وإن من الخُسة الدنية أن يحاول المرء عامداً ترويج معتقداته الدينية بافتراء الأكاذيب على البراء.

وقد توارد خاطر الشيخ عبد الله كوليام، واللورد هدلي على هدف واحد في لبابه وإن اختلفت العبارة والفكرة اختلافاً يدلّ على طريقة التفكير لدى الرجلين، ولا يدلّ في شيء على اختلاف المنطق الواحد لداعيتين مخلصين يرشدان الضالّين إلى صراط الله القويم، وذلك حين تعرّض كوليام إلى صلة الإسلام بالمسيحية فقال:

«إن الأنبياء سفراء الله إلى الناس، يحملون إليهم قواعد الإصلاح ويدلّونهم على طريق السعادة، وقبل أن يفترق الناس إلى يهود ونصارى ومسلمين كانوا جميعاً على مِلّة واحدة، فجاء المسيح عليه السلام بهداية جديدة أدرك صدقها ونفعها الذين اتّبعوا المسيح، فانفصلوا عن اليهود، وكانوا على حق في هذا الانفصال، لأن المسيحية جاءت مصدّقة لما تقدّمها، ومرشدة إلى الطريق الأقوم،

(١) مقدمة اللورد هدلي لكتاب المثل الأعلى للأنبياء «تأليف الأستاذ: خ. كمال الدين» وتعريب الأستاذ: أمين محمود الشريف.

ثم جاء محمد - ﷺ - مصدقاً لجميع الأنبياء قبله، ومرشداً إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم بالهداية والإصلاح فانفصل المسلمون أيضاً، وكانوا على حق في انفصالهم هذا، كما كان المسيحيون على حق يوم انفصلوا عن اليهود، فكما أن المسيحية أفضل من اليهودية لأنها وحي أقرب عهداً من الوحي الأول، كذلك كان الإسلام أفضل من المسيحية واليهودية معاً لأنه أحدث الوحي وآخر الديانات وأبقاها. . . .».

لقد سلك الشيخ عبد الله جانب الإقناع العقلي، حين وازن بين المسيحية والإسلام من ناحية التطور الهادف إلى حياة أفضل، ووضع مواظبه من المسيحيين أمام منطق صريح يلزمهم بالقول بتفضيل الإسلام على المسيحية ماداموا يعتقدون تفضيل المسيحية على اليهودية: لأسباب تنادي بتفضيل الإسلام على من سبقه لو أذعن كل متأمل إلى الصواب دون عائق من تعصب وتقليد.

أما اللورد هدلي: ففي سبيل الوصول إلى الهدف ذاته لم يعقد الموازنة بين المسيحية والإسلام، بل عقدها بين المسيح ومحمد عليهما الصلاة والسلام فقال في لباقة حصيفة: «من عدة سنين خَلْتُ، كان أحد أفكاري الرئيسية هو كيف يمكن للإسلام أن يتغرب (يصبح غريباً) حتى تمارسه الأمم الأوروبية؟، وبعبارة أخرى كيف يمكننا نحن معشر الغربيين أن نعد أنفسنا لنكتسب ونفقه معنى الإسلام الحقيقي؟ ثم تلا ذلك فكر آخر وهو أننا لا نشك - ولم نشك - في جنسية المسيح الذي نعتقد أنه كان آسيوياً محضاً، كانت أمه العذراء مريم آسيوية، وكان موسى وكل الأنبياء الموحى إليهم شرقيين، وكان النبي الكريم محمد شرقياً مثل الآخرين، وأنزلت عليه الشريعة من الله، فالقرآن من كلام الله عز وجل، كما كان الإنجيل وباقي الكتب الأخرى من كلامه تعالى، والقرآن يثبت الكتب السابقة المقدسة ويضيف تعاليم أخرى تؤكد أهمية تلك التعاليم الماضية، ولكنه يحرم كل نكهاث العباد الوثنية، ويقضي ألا يُقرن اسم الله القوي الرحيم باسم آخر».

لقد عبّر كلا الداعيتين عن التطور العقدي كما تابعت به الكتب السماوية، تعبيراً يجعل الإسلام نهاية المطاف لمن يسترشد بعقله دون حجاب، وينادي بأن

اللاحق ثمرة ناضجة للسابق، وأن الإنسانية لتخسر الشيء الكثير حين تغفل ما أتاحه الإسلام للبشرية من نفع جديد . . .

- ٢ -

يصدر الدعاة الإسلاميون كتباً كثيرة، تشرح مبادئ الإسلام وأهدافه، ولكن أكثرها يحتاج إلى تجديد في الخطّة والأسلوب، إذ أن بعض هؤلاء يتخيّل أنه يوجّه كلامه للمسلمين وحدهم، فهو يخاطبهم بالآيات والأحاديث بعيداً عن المقارنات المذهبية والتفسير الكاشف، وكلّ ذلك لا يُكسِب للإسلام نفراً جديداً يستميله المنطق الصائب، والحجّة الفاصلة، ومن الاعتراف بالحق لأهله أن نقول: إن إخواننا المسلمين في الهند والباكستان قد أبلوا بلاءً حسناً في هذا المضمار، فجاءت كتاباتهم الإسلامية عاقلة مستنيرة، تسطع حججها الفاضلة كضوء الصباح، لذلك كان ما يصدره أمثال اللورد هدلي ممّن يعتنقون الإسلام بعد بحث دائب، وتهذ مُتأدٍ أقدر على إقناع مواطنيهم، وأبصر بمواطن الضعف في معتقداتهم، وأن كتاباتهم الداعية لتُعَدّ النموذج الجيد لكل من يريد أن يواجه خصوم الإسلام بمنطق لا يفل .

وستعرّض في هذا المقال لتلخيص النقاط البارزة في كتاب «إيقاظ الغرب» كما ألفه اللورد هدلي: نقلاً عن الترجمة الأمانة التي خطّها الأستاذ إسماعيل حلمي البارودي، ليدرك القارئ المُنصف أن هدلي لم يعتنق الإسلام في ساعة نزق أهوج كما حاول خصومه أن يصوّروه، كما أنه لم يقع تحت تأثير الداعية الإسلامي الكبير خوجه كمال الدين رئيس جمعية التبشير الإسلامية بوركنج، إذ حاول فريق آخر من الحانقين أن يجعل إسلام اللورد الكبير مجرد مصادفة سريعة هيأت لقاء اللورد بكمال الدين، فتسرّع هدلي بإعلان إسلامه دون اتشاد، وأن ما خطّه اللورد في كتابه يدلّ على أن إسلامه الصادق كان ممتدّ الجذور إلى آماذ ترجع إلى شبابه الأول، حين تفتّح ذهنه على آراء في العقيدة المسيحية صعب عليه أن يصدقها، وبذل جهداً جاهداً في الإقناع بها دون جدوى، ثم رأى في عقيدة الإسلام خلاصاً تاماً من هذه الألغاز التي تحيره، فأقدم على اعتقاده في بصيرة ويقين .

أول هذه الألغاز هي عقيدة الثالوث التي صار بها الابن والاب وروح القدس إلهاً واحداً! كيف تكون هذا الإله من العناصر الثلاثة؟ وأي عقل يتصور سلامة هذا التكوين دون أن تغشاه الشبه في كل مكان؟، وقد صار التصديق بهذا الثالوث عقيدة رئيسية للكنيسة الكاثوليكية، إذا لم يعتقدوها المسيحي صار هالكاً هلاكاً أبدياً لا تنفع معه نجاة، وإذا كان الله رحيماً عطيفاً فكيف يهلك هلاكاً أبدياً إنساناً لا يتصور إلهاً يتركب من ثلاثة عناصر مع عدم إمكان هذا التصور منطقياً! أين عدالة الالتزام؟.

ثم إن الدين المسيحي في صميمه دين الرحمة والتسامح فكيف يجرؤ جماعة من البروتستانت المتعصبين على أن يغشوا بيوت الكاثوليك ليشوهوا لهم كل معتقد كاثوليكي بما يحتالون عليه من افتراءات؟، ثم تنقلب الآية حين نرى الكاثوليك يغشون بيوت البروتستانت للدعاية لمذهبهم بطريق الافتراء عينه فيحترب الجميع لا عن طريق المنطق بل عن طريق الإرهاب والافتراء والتخويف! وإذا استجاز هؤلاء وأولئك لأنفسهم أن يختلقوا الأكاذيب على إخوانهم في المسيحية فقد كان افتراءؤهم على الإسلام أقسى وأبشع وأشنع، وقد اكتشف اللورد أنه باعتناقه الإسلام صار أحسن مسيحية من هؤلاء جميعاً، لأن الإسلام قد ورث ما في المسيحية من خير ورحمة وتسامح، ولم يُجزَ لأتباعه ما تُجزيه الكنائس في المسيحية من إفك واتهام.

هذه الطوائف المحتربة تتطلب من حكومتها كل سلطة قاهرة للتجبر! مع أن الإسلام لا يمنح سلطة كهنوتية لأحد فليس فيه باباوات ولا أساقف ولا رهبان ولا قسس يطلبون هبات أو أرباحاً عن طريق بيع المغفرة وتوزيع المعاشات الدسمة، وقبض المرتبات الدورية حتى صار كثير من الذين يزعمون بأنهم مسيحيون يظنون المسيحية أيام آحاد محترمة، تُعرض فيها أحسن الأزياء والملابس، ثم تُقدّم الهدايا إلى رجال الدين، حيث يتوقف مركز كل مسيحي - في جنة الرهبان - على قدر ما يدفع من مال، وكأنهم يتبعون نظام المسارح التمثيلية، إذ يجلسون الناس بأجرة معينة في الألواح المختلفة، للطابق الأول أجر وللصاله أجر آخر!، إن ذلك كله

لا يزال حقيقة مُعترفًا بها بين رجال الكنائس اليوم، وإن ظن البعيدون عن المسرح أنه أساطير القرون الوسطى والعصور المظلمة، أما القريب فينظر ويلمس ويسمع.

لقد كان مجيء محمد بعد المسيح بستمائة سنة تقريباً كشفاً لفضائح الباباوية، إذ تفكّر المؤمنين وتدعو إلى التوسّط الكهنوتي والتوسّل إلى القديسين، لأن ديانة المسيح الحقيقية ليست ديانة سانت بولس الذي أضاف إليها ما كدّرها، وحطّم مثلها حتى تغيّرت تغييراً فاحشاً، وحتى فضح القرآن هؤلاء الأدعياء بمثل قوله: ﴿ اتخذوا أجبّارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمّروا إلاّ ليعبدوا إلّاهُ واحداً لا إلّهُ إلاّ هو سبحانه عمّا يُشركون، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أن يُتِمّ نوره، ولو كره الكافرون ﴾^(١)، وقوله: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾^(٢).

وإنه لمن المدهش حقاً أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من الغباء، حين يسمحون لجيّل الكهنوت أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء! مع أنّ مفتاح السماء كما يقرّر الإسلام موجود في مكانه دائماً، ويمكن إدارته بيد أيّ مخلوق ضعيف دون مساعدة من نبيّ أو كاهن أو ملك، إنه كالهواء الذي نستنشقّه مجاناً ككل خلق الله! وقد تسبّب هؤلاء الكهنة في حروب كالحروب الصليبية وما مثلها، وفي إجراءات كمحاكم التفتيش لا يُبيحها دين من الأديان، وإن من لوازم الإنسانية أن نبحث عن دين لا يسبّب هذه الفظائع الكارثة، وفي اعتقاد اللورد هدلي - رحمه الله - أنه بعد تفكير طويل - يرى: أنه لو أصبح كل إنجليزي في الإمبراطورية الواسعة محمّدياً حقيقياً بقلبه وروحه لأصبحت إدارة الأحكام أسهل وأيسر، لأن الناس سينقادون بدين حقيقي، ولن تبقى هناك جمعيات كنسية، ولا منشقّون تُبذل الجهود للتوفيق بينهم، ولا ضرائب ثقيلة تُدفع

(١) سورة التوبة: آية ٣١، ٣٢.

(٢) سورة التوبة: آية ٣٤.

للمرور في الطريق المُوصِل إلى الفردوس عن طريق الكَهان، إذ يأكلون أموال
الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله .

ثم يتعرّض اللورد إلى ذكرياته الأولى فيقول:

«عندما كنت أقضي الزمن الطويل من حياتي الأولى في جوّ المسيحية، كنت
أشعر دائماً أن الدين الإسلامي به الحُسنى والسهولة، وثبتني في هذا الاعتقاد
زيارتي للشرق التي أعقبت ذلك، ودراستي للقرآن المجيد، أما من جهة الجزء
الأخروي فقد رأيت مُدرّسي الدين المسيحي يتحدّثون بصورة غير واضحة عن نعيم
الآخرة، على حين جاء الإسلام بصورة مفصّلة واضحة فأخبرنا في جلاء ساطع،
أن الله عزّ وجلّ سيكافئنا بأعظم المسرّات في العالم الأخير، وسنحظى بزوجاتنا
حظوةً سعيدةً وليس المقصود بذلك حالة جنسية يلتذّها المهتّكون، بل تقديم ما
يتمتع الروح والجسم جرياً على السّنن الطبيعي للكائنات وكثير من الكتابات
المسيحية تُشيط عزم المجتهد الباحث عن الحقيقة بإصرارها على إنكار حقّ الإنسان
في التمتع بمباهج الحياة، سواء في الدنيا أم في الآخرة، كما زعم الزاعمون من
مُحتَرِفي المسيحية بأن هذه الملذّات البهيجة ذنوب وآثام، وقد جاء الغيب في
أقوالهم فغطّوا بظلمة غامضة، وبدلاً من أن توضح الكنيسة ألغازه وأسراره زادت
تعقيداً وإبهاماً، فساعدت على الحيرة واليأس، مع أن روح الإسلام تتحدّث عن
نفسها بوضوح وسطوع .

هكذا انتصر اللورد لمباهج الحياة الطيّبة، مستنداً إلى قول الله عزّ وجلّ:
﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْضِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وإن قارئه ليلمس أنه ألحّ كثيراً على تكذيب ما يزعمه القساوسة من إفناء
مُخالفهم والعمل على إبادتهم بأمر الله حتى حرقوا زملاءهم في الإنسانية أحياء

(١) سورة الأعراف: آية ٣٢ .

دون رحمة، فإذا لم يقعوا في قبضتهم حكموا عليهم بالهلاك الأبدي إذا لم يبتلعوا آراءهم المذهبية دون نقاش، وقد استشهد هدلي في هذا المجال بشهادة مُصَيِّفة نطق بها الجنرال السياسي غوردون، توضح الفرق بين طوية قوم وقوم، ولم يكن غوردون داعيةً إسلامياً حتى يحوم الشك المتوجّس على بعض قوله، ولكنه مسيحي صميم عاشر أناساً مسلمين معاشرة الحاكم الإداري المتيقّظ، فرأى ما استحقّ أن يسجّله بقوله: (لم أر طبقة الفريسيين بين المسلمين الذين لا يتخذون كلّ ما يتخيّلونه أو يمرّ ببالهم - كما يفعل فريسيونا - من الحكم على زيد أو عمرو بأن نصيبه النار، إنك لا ترى منهم سوى الأنس والبشر اللذين لا تراهما عند الفريسيين، وليست هناك سلوى تعادل تلك التي يمتلكها مَنْ لا يعرف غير الله مدة بقائه، ولا يؤمن بالأقوال بل يؤمن بالحقائق).

والإيمان بالحقائق هو المطمح الأسمى الذي طفق هدلي يدعوا إليه، وبفقدانه تخطأ أعداء الإسلام في اتّهامه والإرجاف به دون دليل، وقد بسط اللورد أمثلة صارخة لهذا الاتّهام الظالم، وأعقبها بما يدحض باطلها الصريح، ثم دعا إلى الإيمان بالحقائق وحدها عن بحث وتنقيب، فخاطب مواطنيه بقوله: «إنه لمن الجور أن تحكم على رجل لا تعرف عنه شيئاً كما أن من الظلم أن تفعل ما يفعله تسعة وتسعون في المائة من المسيحيين الذين يحكمون على الدين المحمّدي دون أن يبحثوا حتى ولو عن معنى كلمة إسلام، فقاعدة ترك الأمور تأخذ مجراها هي شعار هؤلاء الذين لا يريدون أن تُنار عقولهم، لأن إنارة عقولهم تحمل لهم معنى التعب والانزعاج، فيفضّلون أن يظلّوا متخبطين في ديجور الظلام على أن يمدّوا يدهم ليفتحوا الباب الموصل إلى النور، وكأن كل واحد منهم يقول: لقد حصلت على كفايتي فلا أريد النظر في شيء آخر. ذلك ما يقولونه رافضين أن يبذلوا أيّ مسعى ليتقدّموا في معرفة الله ورسالاته للجنس البشري».

وقد عقد اللورد باب التحريف المعدي في كتابه القيم لينشر بعض الأراجيف الحقيرة التي لفتتها كتابات الإرساليات المسيحية طعناً في الإسلام ونبيّه الكريم،

وهي أراجيف تدرّ إلى وهدة وبیثة من التوقّح المستهزیء بكل قیم الصدق والإخلاص والنّزاهة، وکاتبوها قسّس یأکلون بمزاولة التبشیر المسیحي مُزاولة ضریرة تتخبط فی ظلام الادّعاء، وتغلي بحقوق ناغرة لا ندري کیف تعرف طریقها إلى مَنْ یزعمون أنفسهم دُعاة الله، ومن الخیر أن نُعرض عن تلخیصها الآن، وقد أحسن اللورد فی التعقیب علیها کل الإحسان، وإن كانت من التهافت بحیث یبصق کل سطر علی أخیه، إذ یتناقضان فی بعض المعانی تناقضاً سافراً علی تجاورهما الملتصق، فکیف تتألف الصفحات المتتالية وهي قائمة علی المتناقضات المتداعية؟! کمن أسس بنیانه علی شفا جرف هار فانهار به دون ثبات.

ومن الطریف أن کثیراً ممّن جادلوا اللورد لم یرقوا إلى مستواه العقلي مع تسلّحهم بأرقی الإجازات العلمیة، فقد جاءه - علی سبیل المثال - خطاب من أحد أصدقائه الذکاترة الذین یزاولون الطبّ، یناقشه فی إسلامه علی أساس أنه وُلد مخطئاً جانباً کما تقول الكنيسة، ولو عقل الذکاتور الفاضل لاتجه فی نقاشه وجهة تحمل قیمتها المنطقیة، ولأن اللورد الکبیر بإسلامه المستنیر لا یصدق فی شیء أنه ولد مخطئاً جانباً لذنب ارتکبه آدم وأخذوا أولاده به، ثم صلب المسیح تکفیراً عنه، إذ أن عدالة الله تأبی أن یؤاخذ الأبناء بذنب جدّ قديم! ولعلّ مما یمتّع القاریء أن یطالع ما دار بین الصدیقین، قال الطیب:

سیدي اللورد، إنني أعتقد أن فخامتک ستعفو عن کتابتي إلى مقامک السامي، لأنني رأیت فی الجرائد أنك ارتددت إلى الإسلام، وقد صلیت من أجلك، وأرى نفسي مكرهاً علی أن أسترعي التفاتک إلى نقطة الدین الأصلیة، وهي أنني وإیاك وكل واحد فی الدنیا جانٍ. والله وحده هو المنزّه، فکیف یمکنك وأنت خاطيء جانٍ أن تكون سعیداً مع الله المنزّه فی كل مكان واحد؟... وسأكون سعیداً إن أمکنك مساعدتي علی إجابة هذا السؤال، حتی تعرف کیف تكون سعیداً مع الله المنزّه فی مكانٍ واحد.

صدیقک المخلص آرثر روبرتس - ذکاتور فی الطب. فکتب اللورد إلیه

یقول:

سيدي العزيز، استلمت خطابك، أما قولك إنني خاطيء جانٍ فيجب أن تتكلم عن نفسك فقط إن كنت أحد هؤلاء التعساء، وإنني لأتوسّل إليك أن تسمح لي أن أخبرك أنني على الأخصّ لست بجانٍ، ولا أحبّ أن أكون مع الخاطئين الجُناة في أيّ وقت لأنني أجتنبهم بكلّ عناية، وأن اعتقادي في خالقي الرحمن الرحيم ليس له حدٌّ، حتى وأناي لا أحبّ أن أتكلّم عن ذلك كثيراً إلّا أنني أستطيع أن أؤكد أنني ما خطوت قطّ إلى واجب من واجبات الحياة مهما كان صغيراً دون أن ألتمس منه المساعدة والإرشاد فهو معي دوماً، ثم إنني لم أُولد في الخطيئة، ولست مولود سخط وغضب، ووالدي ووالدتي لم يُجرّما في إيجادي في هذه الدنيا.

صديقك المخلص: هدلي...

ثم قال اللورد تعقيماً على هذا الحوار: «لو علم المستر آرثر روبرتس: ما أشعر به من السعادة منذ خلعت عني نير آخر دعوة للوثنية والخرافات لاشتاق هو نفسه أن يعتنق الدين الإسلامي، ولأدرك سعادة اتصاله مباشرة بالخالق العظيم...».

والفصل الأخير من كتاب «إيقاظ الغرب للإسلام»، من خير ما خطّ اللورد هدلي، لإيضاح لبّ الدعوة الإسلامية في الموعظة الحسنة وعدم الإكراه في الدين، مع مقابلة مذهلة لما يبذله المبشرون بالمسيحية من جيل خادعة لتتصير من يطلقون عليهم وصف (الكفار) من المسلمين، وقد قال اللورد بصدد ذلك: «يجب علينا أن نحترم من يسعون إلى هداية المتوحشين إلى الدين، أولئك الذين لا يعرفون إلهاً مطلقاً، بل يعبدون الأوثان والحجارة والعصي، ولكن عندما نرى المنح والرشوات تقدّم للأفراد على تغيير الدين، يتأكد لنا عدم فائدة طريقة التبشير في أرض نزل بها أحسن الأديان من قبل».

ثم ختم الكاتب مؤلفه بهذه النصيحة المخلصة لمبشري المسيحية إذ قال:

«المرسل المبشر يُعطى أجراً ليردّ المُخالفين في الدين، فيعمل بنشاط في مهمته إن أُعطيَ كثيراً، ويتكاسل ويسوء عمله إن أُعطيَ قليلاً، إلّا أنني أنصحه بقولي له: إنه يجب عليه ألاّ ينحني ويطأطأء الرأس للطرق السافلة الدنيئة، كما أنه يجب عليه قبل كل شيء، ألاّ يتشبّث ويتصلّب في التشويه والتحريف لديانة هؤلاء الذين يسعى جاهداً أن يقودهم إلى طريق آخر» وبإلها من نصيحة مُنصفة لو وجدت السميع التزيه.

أحمد أمين يتحدث عن نفسه

- ١ -

الحديث عن النفس آسن كريه، إذا كان المتحدث دَعِيًّا مغروراً يضحّم نفسه، ويضع مرتبته فوق مكانتها الحقيقية، ولكنه شائق مُمتع إذا صدر من كاتب مُتَزَن حصيف، يعلم أن القارئ أذكى من أن يُخدع، فلا يتزَيّد أمامه بما لا يليق، ولقد تحدّث كثير من المؤلّفين عن أنفسهم في القديم والحديث، وكان أحمد أمين - رحمه الله - ممّن تحدّث عن نفسه، فكان موضع الإعجاب لدى ناقديه، لأنه اجتهد في تصوير الواقع كما استطاع، وما فاتته أو تورّط فيه من الآراء في بعض الأحيان ليس من الإهمال أو الشّطط بحيث يُحسب عليه، بل بحيث تفترق فيه وجهات التقدير بين الناس، وقلّ أن يجمع الناس على شيء. وقد احتاط الأستاذ في مقدمة ترجمته لنفسه حين قال: «ثم إن حديث الإنسان عن نفسه بغيض ثقيل، لأن حبّ الإنسان نفسه كثيراً ما يدعوه أن يشوب حديثه بالمديح ولو عن طريق التواضع أو الإيحاء أو التلويح، وفي هذا المديح دلالة على التسامي والتعالي من القائل، ومُدعاة للاشمئزاز والنفور من السامع والقارئ، ولذلك لا يُستساغ الحديث عن النفس إلّا بضروب من اللباقة وأفانين من اللياقة».

وقد قدّر على الرجل أن يعيش في إحدى فترات الانتقال حين اختلط الشرق بالغرب، وظهر من النظم في التربية والتعليم والثقافة والاجتماع ما كان موضع

الأخذ والردّ حيناً غير قصير حتى استقر الأمر على ما نعهد في أيامنا هذه من مذاهب في التربية والتثقيف والسلوك، وقد عرض الأستاذ تاريخ حياته بحيث أصبح تاريخاً لهذا التطور المتجدّد في عصرنا الراهن، مما يجعل الحديث عنه لا يكاد يقف عند شخص بعينه، بل يمتد إلى تصوير جيل بأكمله، ومن هنا جاءت أهمية ما كتب الأستاذ عن نفسه وعن مجتمعه، إذ عرض من الطرق والمناهج والأحداث ما يرسم بعد صور التدرّج الإنساني في درجات الحياة مما يعني المؤرّخ والمُصلِح والناقد والأديب.

وإذا كانت منزلة الأستاذ في ميزان التاريخ منزلة علمية أدبية، ككاتب مؤلّف قدّر له أن يصحب الدرس تلميذاً ومدرّساً ومؤلفاً، فإن اقتصارنا من الحديث على هذه الناحية الواضحة من جهده مما يعطي الصورة التاريخية الأمانة لتطور النظم التعليمية تدريجاً وتأليفاً وتوجيهاً لا في مصر وحدها، بل في أكثر ربوع الشرق العربي، لأن ميادين الثقافة العربية في هذه الربوع كثيراً ما تلاقت على طرق متشابهة، وإذا تقدّمت بعض الأماكن في اهتدائها العلمي، فهو تقدّم يدفع إلى الاحتذاء والتقليد، لا إلى المعارضة والتعويق، لذلك كانت ترجمة الأستاذ لنفسه في خطوطها الشاملة تكاد تكون ترجمة لأعلام معاصريه من رجال الثقافة العلمية الأدبية في إطارها العام، لا في جزئياتها المختلفة حيث تختلف الملامح والقسمات، وستابع الآن صاحبنا الكبير فيما يقع في الطريق من خطوات لنراه تلميذاً ناشئاً، فشاباً يهدف إلى الرجولة الكاملة، فأستاذاً موجّهاً ذا تأليف وتشديد، سنراه في طفولته التعليمية يؤمّ كُتّاباً ألحق بمسجد حارته، كل أثنائه حصير بال قد انسَلَت بعض عيدانه، وقد وضعت فيه آنية من الفخار، ذات ماء يشرب المريض والسليم والقدر والنظيف بوساطة كوز معلق به، وشيخ الكُتّاب ذو عصا غليظة يؤدّب بها الصغار، فإذا جاء وقت الغداء، اشترك التلاميذ جميعاً في طعام من الفول النبات بعد أن يدفع كل أكل ثمن ما يأكل، على أن يواصلوا الوقت بالقراءة مع الاهتزاز والصياح، فمن لم يهتَز أو يصبح لا يشعر إلا والعصا تنهال عليه، فيصرخ ويصيح بالقراءة والبكاء معاً.

وكان من الطبيعي أن يأتي أولياء الأمور تبعاً إلى الكتاب، ليرجوا شيخ المكتب أن يضرب الطفل ويشدّ عليه، فلا تعجب بعد ذلك إذا رأيت أرواحاً ميتة ونفوساً كسيرة كما يقول الأستاذ، وقد تعرّض الطفل لظلم صارخ حين نادى الشيخ ولدين قويّين من أبناء المكتب، فأدخلا رجله في (الفلقه) وأمسك بعضاً من جريد النخل، وأخذ يهوي بها على قدميه بكل قوّته، حتى تشقّقتا وتفجّر منهما الدم، ثم أسلمه لهذين الولدين يحملانه إلى بيته حيث لا يستطيع أن يسير، يعرض الكاتب هذه اللوحة الماضية ليقرنها بلوحة حاضرة فيقول: أين ذلك مما نحن فيه الآن لأطفال في مثل طبقتي؟ إنهم يذهبون إلى رياض الأطفال، فتعلّمهم سيدات مهابات أو أنسات ظريقات، ويتدرّجن بهم من اللعب إلى القراءة، ويتحايّلن على تشويق الطفل إلى الألف والباء، ويسرقن التعليم عن طريق الصور والأقاصيص في أوقات كلها مرح ودروس كأنها ألعاب وأناشيد وموسيقى، وطبيب يزور المدرسة كل يوم، ومريض لا يحضر إلّا بعد شهادة طبية تثبت براءته من السقم، ثم ينتهي الكاتب إلى الحكم على الحاليتين، كعهده دائماً في بحوثه العلمية فيقول في بساطة: أخشى أن نكون قد أفرطنا أيامي في الخشونة وأفرطنا أيام أبنائي في النعومة، والحياة ليست جدّاً محضاً ولا هزلاً محضاً ولا نعيماً صرفاً، ولا شقاءً صرفاً، وخير أنواع التعليم ما صوّر صنوف الحياة.

وتجاوز حديث الكتاب إلى الحديث عن الأزهر، بعد أن نترك فترة قصيرة تعلّم بها الناشء في إحدى المدارس الابتدائية ثم عَنَ لوالده أن يترك ابنه مدارس الأندنية إلى مساجد الشيوخ فيفاجأ الطالب حين يرى الأزهر امتداداً للكتاب لا للمدرسة، إنه يسمع عند بابه لأول مرة دويّاً كدويّ النحل، يضرب السمع دون أن يستوضح منه لفظاً واحداً، فتأخذه رهبة مخيفة، ثم يسير في الممشى قليلاً ليجد الإيوان متسعاً وقد فرش كله بالحصير، وامتدت أعمدته سقوفاً، وكل عمود وضع بجانبه كرسي عالٍ مجنّح يشدّ إلى العمود بسلسلة من حديد، وجلس على كل كرسي شيخ معتم بيده ملازم صفراء من كتاب، وأمامه حلقة مفرّقة أحياناً وغير مفرّقة أحياناً، يلبس أكثر الطلاب قباء أبيض عليه عباءة سوداء، ويضع كل طالب

ملزمته في يده ليتابع قراءة الشيخ حين يقرأ، ويفسر ملوحاً بإشاراته ذات اليمين وذات الشمال. أما نظام التدريس حينئذٍ، فقد قال عنه المترجم: إن الطالب بعد أن يقيّد في الأزهر يُترك وشأنه، فهو يختار العلوم التي يدرسها والكتب التي يقرؤها، والمدرّسين الذين يدرسونها، فإذا لم يُرزَق بمرشد يرشده غرق في هذا البحر الذي لا ساحل له، وليس يعرف أحد أغاب أم حضر، تقدّم في العلم أم تأخّر، وليس يمتحن آخر العام فيما درس، ولا يسأله أحد ماذا صنع؟ فإذا احتاج لشأن من الشؤون أن يثبت أنه حضر بعض الكتب على بعض الأساتذة كتب ورقة كما يشاء ثم مرّ على المدرّسين فأخذ توقيعهم في سهولة مُفرطة وإن لم يروه قبل ذلك، وبارك الله فيمن نفع، ولعلّ من المفيد أن نذكر هنا بعض ما قال الأستاذ أحمد حسن الزيات في رثاء أحمد أمين لمناسبته القربة:

«نشأ أحمد أمين نشأة أزهريّة، وأعني بهذه النشأة ما يلازمها من نمط خاصّ في الحياة والتربية والدراسة والوجهة، ومن غريب هذه النشأة أنها تساعد على الهبوط كما تساعد على الصعود، فمتخرجو الأزهر في العهد القديم كانوا إما قادة للشعب وإما حميلة عليه، لأن حرية التعليم فيه كانت تهيبّ كل نفس لما خُلقت له، فهذا تعدّه ليكون قارئاً في ضريح أو إماماً في جامع، وهذا تعدّه ليكون مستشاراً في محكمة أو أستاذاً في جامعة، وأحمد أمين كان كمحمد عبده، وسعد زغلول، قد زوّده الأزهر بخير ما فيه من صبر على الدرس، واتكاء على النفس، واستقصاء لأطراف البحث».

وقد عرض الأستاذ لبعض ما عاناه في بدء حياته الأزهريّة، حين قال عن شيخه: إنه بسمل وحمدل، ودعا الله، ثم قرأ المتن والشرح ففهمت، ولكنه سبح بعد ذلك في تعليقات واعتراضات على العبارة، وإجابة على الاعتراض، فلم أفهم شيئاً، حتى بعد أن أحضرت كلّ ذهني، ووجّهت إليه كل انتباهي، فتذكّرت المدرسة التي كنت فيها ذات الشرح الواضح المريح، وأصدقائي هناك، مع مقارنة بزملائي هنا، وليس لي بهم صلة، ثم يعود ذهني إلى ما يلقيه الشيخ فأجده في

نفس الجملة وفي نفس الاعتراضات والإجابات، يسأله الطلبة ويُجيهم دون أن أفهم شيئاً، حتى مضت ساعتان دون أن ينتقل الشيخ من جملة واحدة، فسُرت حين ختم الدرس بقوله: والله أعلم!.

على هذا المنهج سارت دراسته في الأزهر، ثم تركه بعد سنوات إلى وظيفة تعليمية بمدرسة ابتدائية في طنطا، وعاد إليه سريعاً ليجد من والده عوناً على تسهيل الدروس الأزهرية، إذ تدرّج به من السهل إلى الصعب في دروس النحو والبلاغة وفقه اللغة، حتى استطاع أن يشم رائحة العلم، ولكنه ظلّ متحفزاً إلى الخروج من الأزهر، فاهتبل فرصة إعلان للتدريس بمدرسة راتب باشا بالإسكندرية، وتقدّم ليمتحن، ففاز وعُيّن، ثم قُدّر لمدرسة القضاء الشرعي أن تنشأ وأن تأخذ طلابها من نجباء الأزهريين بعد امتحان عسير، فطمحت بالشاب همته إليها وفاز في الامتحان بتفوق.

وكانت الفكرة في مدرسة القضاء أن تثقف الطالب ثقافة دينية من تفسير وحديث وفقه وأصول، مع ثقافة لغوية أدبية من نحو وصرف وأدب، وثقافة قانونية عصرية، ودراسات إنسانية، وقد اختير لها ناظر كفاء، هو: عاطف بركات، ووكل إليه اختيار المدرّسين، فاستعان بالمدينين لتدريس العلوم العصرية، وبالأزهريين ليدرّسوا العلوم الدينية، وقد قال أحمد أمين في ذلك: «كنت ترى مزيجاً عجيباً من الأساتذة، هذا شيخ أزهري تربى تربية أزهريّة بحته ودينه كلها هي الأزهر وما حوله، بجانبه أستاذ للتاريخ على آخر طراز، تخرّج من جامعات إنجلترا، وأستاذ للطبيعة تخرّج من أشهر جامعات فرنسا، وعلى رأسهم ناظر تعلّم في الأزهر وفي دار العلوم وفي إنجلترا، وكلّ من هؤلاء يلوّن الطلبة بلونه ويصبغهم بصبغته.

فكنت إذا أصغيت إلى درس من الدروس فكأنما تصغي إلى درس يليقه مدرّس من القرون الوسطى فيما يقال وكيفما يقال، ثم يليه درس تسمعه فكأنك تسمع درساً في جامعة أجنبية، غير أنه يُلقى باللغة العربية، ثم يليه درس متأرجح موضوعه قديم ومنهجه حديث، والأساتذة يختلفون إلى حدّ التباين ذوقاً وثقافةً

ومنحى، ومن وراء ذلك كله ناظر نشيط يلتزم النظام العادل، ولا يسمح بالخروج عنه قيد أنملة، ونظام المدرسة شاقّ عنيف، فليس هناك ملاحق أو إعادة سنة، فمن يرسب يُرْفَضَ ليحلّ غيره محله، وكل الأمور جدّ صارم حتى أوقات الألعاب الرياضية كنّا نؤدّيها في عنف كأنها أشغال شاقّة، فلو طُبِّقَت هذه النظم في مدرسة عسكرية لاستجارت منها.

وبعد أن أفاض الأستاذ في ابتهاجه بالتدريس العصري، وعدّد مزاياه الملموسة، وذكر أساتذته بالخير والثناء، خلص إلى الامتحان النهائي، فذكر توقيفه البارز في التحرير وفي اللجان الشفوية لمواد القانون والطبيعة والتاريخ، ولكن لجنة العلوم الأزهرية وهي مؤلّفة من: مفتي الديار المصرية وشيخ المالكية وشيخ الحنابلة قد أرهقته بأكثر مما يستطيع، وقد فصل موقفه معها في سطور صارخة، نرى من الخير تسجيلها، لأن نظام التعيين ظلّ قائماً إلى عهد قريب، وقد بلّوناه واكتوينا بناره في السنة النهائية من القسم العالي، فهو يمثل حقبة فسيحة الأمد في التعليم الأزهرى، وقد عرض أحمد أمين صورة منه حين قال: «وأما الامتحان الشفوي في لجنة الأزهر فكان موضوعات معينة في كل علم من العلوم الأزهرية، موضوع في النحو وآخر في البلاغة وثالث في أصول الفقه ورابع في المنطق وهكذا، وكل موضوع عبارة عن جملة أو جملتين من كتاب يتعيّن للطلاب قبل الامتحان بعشرة أيام، فمثلاً في البلاغة جملة «واستغراق المفرد أشمل بدليل صحة (لا رجال في الدار) إذا كان فيها رجل أو رجلان دون لا رجل».

وهكذا في سائر العلوم أخذت هذه الموضوعات وقرأتها وفرغت منها كلها في يومين وليلتين، ولم أدّر ماذا أصنع بالأيام الثمانية بعد، ولكن بعد ثلاثة أيام مرّ عليّ في بيتي شيخ أزهرى من كبار مُدرّسينا كما مرّ عليّ زملائي ليعرف كيف يُحضّرون موضوعاتهم، فسألني أسئلة لا أعرف من أين أتت؟ ولا كيف تتصوّر؟ ولا كيف يُجاب عنها؟ فخاف عليّ الرسوب في الامتحان، وزارني بعد ذلك مرتين أو ثلاثاً يلقي عليّ هذه الأسئلة العجيبة والأجوبة الغريبة ومع ذلك لم أتقدّم كثيراً.

وكان يوماً أيوم يوم أديت الامتحان فقد جلس هؤلاء الأساتذة الستة أو السبعة (لا أدري) على الأرائك متكئين، وفُرِشتْ فروة على الأرض جلست عليها متربعا، وبدأت أقرأ في الكتاب الأول وأشرح جوهر الموضوع شرحاً صحيحاً، وسرعان ما انهالت عليّ الأسئلة من كل جانب فأجيب حيناً وأعرق حيناً.

وأذكر من هذه الأسئلة: لم قال المؤلف (أي) ولم يقل (يعني) فلم أحر جواباً، وهي أسئلة محفوظة مَرِنَ عليها الطلبة والأساتذة المتعمقون في الدراسة الأزهرية، ولم أَمَرَنَ عليها لأنني اعتمدت في دراستي على أبي وجلست هذه الجلسة على الفروة ستّ ساعات متواليات لا تتخللها راحة، ولا شرب كوب ماء، وكلُّ من الممتحنين يخرج من حينٍ إلى آخر يتمشّى ويتروّض، ومن حينٍ إلى آخر تُقدّم لهم القهوة والليمون وما إلى ذلك، ولا يُقدّم لي شيء، وأخيراً أفرج عني وسُمح لي بالخروج، فلما حاولت القيام لم أستطع أن أمدّ رجلي ولا أعدل قامتي، وأخذت في ذلك زمناً طويلاً حتى عرفت كيف أقوم وكيف أمشي، ولم أدِر كيف ذهبت إلى بيتي وكيف قضيت بقية نهاري وليلي، ومهما كان الأمر فقد نجحت ولكن تأخر ترتيبني من الأول إلى السادس».

هكذا انتهت المرحلة التعليمية لأحمد أمين، وقد ظهرت فيها بوادر الكاتب العالم الذي اكتمل فيما بعد، حيث أُقيمت المحاضرات العلمية العامة كل أسبوع بمدرسة القضاء، ودُعِيَ إليها كبار المشهورين من الباحثين، من أمثال: محمد الخضري ورفيق العظم وأحمد فهمي العمروسي، فأوجدوا نشاطاً أدبياً علمياً، تفتّحت له الأذهان، وقد اتسع المجال لنابهي الطلاب كي يعدّوا المحاضرات ويلقوها على سبيل التمرين والتشجيع فتقدّم أحمد أمين بما حاز قبول الناظر الدقيق وأجازته، بل إنه في الشهر الأول من دخوله مدرسة القضاء كتب موضوعاً تحت عنوان «أثر القرآن الكريم في تدوين العلوم» فصادفه التوفيق، وابتهج عاطف بركات بما كتب، وكان كما يقول الأستاذ - لا يعجبه العجب - ولكنه استحسّن الموضوع، وكلما أتى زائر للمدرسة طلب الورقة وقرأها عليه وسمع منه استحسانه، فارتفعت

ثقة الطالب بمقدرته الأدبية إلى حدٍّ كبير. وروي عن ذكرياته في ميدان المحاضرة بمدرسة القضاء، أنه تحدّث ذات ليلة عن «أسباب ضعف المسلمين» فأوعز ذلك إلى أمور شائكة تتعلّق بالحكّام ورجال الدين، ودوّى المكان بالتصفيق، ولكن عاطف استدعاه وقال له في حِدّة: هل جُنّنت؟ أمثل هذا يقال؟ ثم أسرّ للشيخ الخضري كلاماً، فقام يعقّب على المحاضرة بما يفيد أنني أقصد بالحكومة: الحكومة الماضية، وكذلك رجال الدين من الماضين، أما المعاصرون فهم مثال النّزاهة والطّهر والرقّيّ، ثم قال عاطف بعد انتهاء الحفل: إن بقاءك بالمدرسة الآن بيد القدر، فإن ذكرت الجرائد ما قلته واستخدمته في الوقعة بمدرسة القضاء ضحّيت بك حرصاً على المدرسة، وشاء الحظ أن تمرّ المسألة بسلام!

ولم ينسَ الكاتب أن يتحدّث عن مظاهر الخير العامّة في أيام التلمذة لعهد، ومما وقع في نفسي أجمل موقع قوله: «ولم تكن قد سادت النزعة الأوروبية التي لا تقدّر الجوار فيسكن الرجل منهم بجوار صاحبه السنين ولا يعرف من هو؟ بل قد يسكن معه في بيت واحد أو في شقّة بجانب شقّته ولا يكلف نفسه مؤونة التعرّف به والسؤال عن حاله، إنما كانت تسود النزعة الإسلامية التي تعدّ الجار ذا شأن كبير في الحياة، فكان أهل حارتنا كلهم جيراناً، يعرف كلّ منهم شؤون الآخرين وأسماءهم وأعمالهم، ويعود بعضهم بعضاً عند المرض، ويعزّونهم في المآتم ويشاركونهم في الأفراح، ويُقرضونهم عند الحاجة ويتزاوون في المناظر، إذ لكل بيت من طبقة الأوساط حُجرة بالدور الأول أُعدّت لاستقبال الزائرين تسمى (المنظرة) ويتبادل في هذه المناظر أهل الحارة الزيارات والسّمَر».

كم تروقني هذه المقارنة بين النزعة الأوروبية في الانطواء الأناني والانكماش الفردي والنزعة الإسلامية في التواؤم والتراحم والمواساة وإسعاف الملهوف ونجدة الصريح، وإذا امتحنت المدن الكبيرة بهذه النزعة الغربية الوافدة فلا يزال الريف مغرساً لفضائل الإسلام، يرعى الجوار ويحفظ الودّ، وأخشى أن تمتد الحضارة الزائفة إليه، فتغيض بشاشته ويجفّ واديه.

تركنا حديث التلميذ عن نفسه لننتقل إلى حديث الأستاذ في معترك الحياة، وقد كان أحمد أمين قدوة في سلوكه الشخصي، أسوة في اتجاهه الفكري، وقد بلغ من الاتزان والتماسك في ناحيته العملية والعلمية مبلغاً يحتم عليها أن نسأله عن عناصر شخصيته الفذة، وكيف تكامل هذا النمط الرائع من النجاح، لعلنا نهدي الناشئة إلى ما يفيد في طريقهم الطويل فلا يضلّون.

لقد أخلص الأستاذ لعلمه فدأب في تحصيله حتى وصل به إلى أرقى غايات الإبداع، ولو أنه منح العلم وحده دون الرفقة الصالحة ما استطاع أن يأخذ وضعه الخلقي والنفسي بين الناس، وإن استطاع أن يكون عالماً ذا أبحاث، فبيئة أحمد أمين قد هدته إلى اختيار النماذج الصالحة لاحتذائها. كما بعدت به فطرته الطيبة عن النماذج السيئة، فلم تصل به الأسباب إليها في شيء، وإلى القرين الصالح يرجع التوفيق الذي كلّل جهود الرجل، وما أكثر من صاحبهم أو عرفهم الأستاذ من الصلحاء، فوضعوا له النماذج في السلوك.

تعرف الأستاذ في الثامنة عشرة من عمره بالأستاذ عبد الحكيم محمد أستاذ اللغة العربية بمدرسة رأس التين الثانوية، وكان كما يرى أحمد أمين واسع الأفق حرّ الفكر، لا يدين بشيء من الخرافات والأوهام، يؤيد الشيخ محمد عبده في دعوته الإصلاحية، مع إباء في النفس وتودّد إلى طلابه وترفع عن الصغائر، هدى الشاب الناشئ إلى الدنيا التي يجهل أحوالها بما شرح من غوامض وعلل من ظواهر، فهو ينقد المجتمع نقد الخبير البصير، ويتحدّث عن الشؤون الزراعية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية حديث الناقد الفاحص، ويتحدّث عن أعلام عصره في الأدب والتدريس فيزّنهم بميزان مُنصف، لا يميل ولا يتأرجح، ويجمّل الأستاذ فضله عليه في قوله: «كان مُكَمِّلاً لنفصي مُوسِعاً لنفسي مُفَتِّحاً لأفقي، كان أبي وشيوخه يعاملوني على أنني طفل، فعاملني على أنني رجل، فملاً فراغي وأنس وحدتي... ولئن كان أبي هو المعلّم الأول فقد كان المعلم الثاني، انتقلت

بفضله نقلة جديدة، وشعرت أنني كنت خامداً فأيقظني، وأعمى فأبصرني، وعبداً للتقاليد فحررتني، وضيق النفس فوسّعني».

ولكن جهد هذا الفاضل الكريم قد انقطع فجأة بموته، فخلف في نفس تلميذه حسرة وفي عينه دموع، حتى إذا انتقل إلى مدرسة القضاء وجد ناظرها الكبير: عاطف بركات، يملأ قلبه وعقله وعينه بشخصيته الرائعة وسلوكه الحي، فيتخذ مثله المشهود ويحتذي حذوه ما استطاع.

يقول الدكتور إبراهيم مذكور «ثم تتلمذ (أحمد أمين) لعاطف بركات أحد أئمة المُرَّين في نصف القرن الأخير، ولا نظن أن من أبناء القضاء الشرعي من أخذ من عاطف أخذه، أو تأثر به تأثره، تَراًماً زمناً وشغفا بالمعهد الذي التقيا فيه حباً، وأرادا أن يجعلا منه مدرسة مثالية، لا تُخرج علماء وباحثين فحسب بل رجالاً لهم شخصياتهم واستقلالهم، وعلى هذا كان لا بد أن يوكل أمرها إلى أمهر المُرَّين وأكفئهم، وأن يختار لها أحسن الطلاب وأصَحَّهم».

وقد قضى أحمد أمين حياته يلهج بذكرى عاطف، يكتب عنه ويستشهد به، ويروي بعض مواقفه، مما يؤكد أثره القوي في نفسه، وإذا كان أحمد أمين ممن اشتهروا بالعدالة الملتزمة اشتهاً صادف حقيقته، فإن عاطف بركات كان أول الجاذبين الملهمين لهذه الخصلة الرائعة من خصال أحمد أمين، وإليك بعض ما قاله عنه، وما أكثر ما قال:

«يلتزم (عاطف) النظام الدقيق، ولا يسمح بالخروج عنه قيد أنملة، إن دق جرس الصباح أغلق باب المدرسة لا يدخلها طالب، وتحرك الأساتذة فوراً إلى دروسهم، ويذهب الطلبة أول العام الدراسي فيجلس كل في مكانه ويفتح درجه فإذا فيه كتبه وأدواته جميعها لا ينقصها شيء، وعدل في معاملة الطلبة والأساتذة لا ينحرف، فمن ينجح من الطلبة فبالعدل وإن رُقِّي الأستاذ فبالعدل، لا يقبل في ذلك رجاء ولا شفاعاة.

كانت أكبر ميزة له في عقله، قوّة التحليل وسلامة التفكير وحرية الرأي وقوّة الحجة، والإلحاح في الإقناع وسعة الصدر للرأي المخالف، وكانت حرّيته في تفكيره أقوى من حرّيته في عمله، فهو في إصلاحه متحقّق، يقدر الظروف المحيطة ويعمل في حذر، وأكبر ميزة في خلقه أداء الواجب، لأنّه واجب من غير اعتبار آخر، وعدله التامّ ولولقي في ذلك العناء في بلد تسرّه المُجاملة ولو بالظلم، إن عيب عليه شيء فهو قلة مجاملته حتى حيث لا تضرّ المجاملة بالخلق، وصراحته التي قد تجرح في موقف لا يدعو إلى الصراحة فيه دفاع عن حق، ثم نظامه العسكري في غير ترفيه... لقد تسلمني من أبي بعد أن ربّاني التربية الأولى، فربّاني التربية الثانية! ولا أدري لماذا نسي الأستاذ أحمد أمين صديقه عبد الحكيم، حين كتب عبارته هذه؛ إذ سبق أن جعل له التربية الثانية لا لعاطف ربما كان أثر عاطف من السطوة والتمكّن بحيث شغله عمّا قال.

وإذا كان من الطبيعي أن يتأثر التلميذ بالأساتذة، فإن تأثير النابهين من الزملاء في نفس أحمد أمين كان لا يقلّ عن تأثير أساتذته، إذ رزقه الله صفوة مختارة من الأصدقاء هم نابهو العصر في الأدب والثقافة، فأسعدوه وأسعدهم، وتأثروا بهم وتأثروا به، هؤلاء هم أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر، الذين وكلوا رياستهم إليه عن صدق وإعجاب، فاجتمع بهم الشمل حقبة طويلة كانت مفخرة عصر، ونهضة جيل.

ومن قبل أسعدته الزمالة الطيبة بندوة علمية في عهد الطلب، تحدّث عنها الأستاذ فقال: «وأحياناً في ليلة الجمعة كنت أغشى منزل صديقي الشيخ مصطفى عبد الرازق، وكان منزلاً يحتفظ بالتقاليد القديمة لبيوت الأسر الكبيرة، يكثر زوّارها، وتمدّ مواعيدها غداً وعشاءً، ويطيب فيها السمرّ ويطول فيها السهر، فكان أصدقاء الشيخ من الشبان ينفردون بحُجرة في البيت، يتلاقى فيها شبّان الأزهر بشبان الحقوق ببعض من يتعلّمون في أوروبا، فتثار المسائل على اختلاف ألوانها: دينية وفلسفية وسياسية واجتماعية حيثما اتفق، نتبادل فيها الآراء والأفكار، وترى إذ

ذاك آراء المحافظين تناطح آراء الأحرار المتمدين، ومؤيدي السفور ينازعون مؤيدي الحجاب، والوطنيين يثرون على الجامدين... وهكذا من سَمَرٍ لذيذٍ يمتد إلى نصف الليل، فتكون من ذلك متعة عقلية وروحية لطيفة.

أما كيف سعد بزملائه من أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر، فإنه يذكر أن الظروف السعيدة دفعته إلى التعرف سنة ١٩١٤ بشبان ممتازين يتشققون بغير ثقافته، إذ أن ثقافتهم عصرية بحتة، وثقافته شرعية كثيراً وعصرية قليلاً، وقد يُهمهم من تقسيم الأستاذ أنه يعتقد أن الثقافة الشرعية غير عصرية كما يزعم بعض الغافلين، وهذا ما لا أراه إذ أعرف أنه يُراعي العُرف العامي وحده في ذلك، ثم يقول عن أصدقائه: إن منهم من بلغ درجة جيدة في الجغرافيا والتاريخ العام والأدب الإنجليزي، ومنهم من بلغ هذه الدرجة في الرياضة والطبيعة والكيمياء، وكلهم يعرف من الدنيا الجديدة والمدنية الحديثة أكثر مما يعرف، وقد كانوا يجتمعون وإياه في بعض المقاهي بادیء ذي بدء، فتكون من أحاديثهم مادة شهية مختلفة الطعوم متعددة الألوان، فعاشق الأدب الإنجليزي ذو ذوق وتحصيل فهو لا يفتأ يقرأ ويتحدث بحماسة عما قرأ وأعجب به، وكان يتولى تلخيص القصص الإنجليزي الرائعة للأستاذ أكثر من غيره، لأنه في رأيه يُجيد الاستماع ويحرص عليه.

أما قارئ التاريخ - ولعله يقصد الأستاذ العبادي - فيفتن بأسلوب الأوروبيين في كتابتهم التاريخية، ويعجب بقدرتهم على التحليل الدقيق، ورجوع الجزئيات إلى كليّاتها، وحرّيتهم في تقدير الأبطال، والاعتداد بشخصيتهم، فقد يهدم بعضهم بطلاً أجمع الناس على بطولته، أو يشيد بذكرى مغمور أجمع الناس على خموله، ثم ينقد كتابة التاريخ عند العرب، إذ أحسنوا رواية الأحداث ولم يُحسنوا فلسفتها إلا ما كان من ابن خلدون: فقد أحسن في فلسفة التاريخ وقصر في تطبيقها على الأحداث، ثم يحاول هذا الشاب أن يطبق مذهبه، فيعرض علينا نمطاً من بحثه في عمر وعليّ مثلاً على نمط جديد، فيه التقدير وفيه النقد.

وهناك عالم الطبيعة والكيمياء، وقد جعل نفسه وعلمه وكل إمكانياته وثقافته لخدمة دينه - وهو بالتأكيد أستاذنا الدكتور محمد أحمد الغمراوي - أثر في كثير من الطلبة في مدرسة المعلمين العليا، فدينهم وملا المسجد بهم، وقد حفظ القرآن وأطال قراءته وبذل جهداً في فهمه، وهو يفهم كما يقول المفسرون ويزيد عليهم ما يفهمه من نظريات الطبيعيين والكيميائيين، وما يقتبسه من أقوال المتدينين من علماء أوروبا.

يحلّو له الكلام في الدين وهداية الضالّين، ويعزّز عليه أن يسمع إلحاداً أو كلمة يُشتم منها الإلحاد، بل لا يسمح أن ينقد أحد أمراً من أمور الدين ولو كان في التفاصيل، قويّ الحجة طويل النفس في المناظرة، مؤثر إذا قال، جزل الأسلوب إذا كتب، يدرس الكيمياء والطبيعة فتكون ديناً، ويشرح النظرية الكيماوية فتكون من سنن الله الكونية، يتحرّج صحبه أن يذكروا أمامه شيئاً يمسّ شعوره الديني، وعاطفته المسلمة، ويهابونه في طربوشه أكثر ما يهابون عمامة الأستاذ.

وهذا أستاذ رياضي كيميائي - لعلّه يقصد الدكتور أحمد زكي - ولكنه لا يقلّ ثقافة عن المتخصّصين في الأدب، يقرأ الأغاني والعقد الفريد وينقدها ويتذوّقها، ويقرأ الكتب الكثيرة في الثقافة العامّة الإنجليزية في الأخلاق والاجتماع وعلم النفس، ويتأثر بما يقرأ إلى حدّ كبير، ويتحمّس له ويقنع به، ويأتي فيحدّثنا بما يقرأ وما فكّر فيما قرأ، وله أسلوب لطيف ساخر جامح في نقد ما يرى وما يسمع، تطبيقاً لنظرياته التي اعتنقها من قراءته، ولا بأس أن يغلو في الهدم، ولا بأس أن يغلو اليوم في عكس ما غلا فيه بالأمس، ثم يوجز الأستاذ أثر هؤلاء الزملاء البالغ في نفسه إذ يقول:

«كلّ أولئك كانوا مدرسة لطيفة مفيدة لي، مدرسة خلّت من عبوس الجدّ، وثقل الدرس وسماجة تحديد الموضوع والزمان والمكان، ونعمتُ بالبعد عن الامتحان وضداع الجرس. مدرسة فيها الجدّ والفكاهة والعلم والأدب، والدين

والشعر، والتقريب والنقد. مدرسة يكون فيها التلميذ أستاذاً والأستاذ تلميذاً، وإن شئت فقل إن كلَّ مَنْ فيها أستاذ تلميذ. مدرسة فيها حرية القول وحرية السَّماع، وحرية الموضوع، وحرية كلِّ شيء، تقارب فيها سنَّ الأساتذة والتلاميذ فتجانست مشاعرهم، وتشابهت آمالهم ومطامحهم، وتفتحت نفوسهم للاستفادة من تنوع مواهبهم.

وبهذه المدرسة أحسست أنني أقرب من عقلية أصحابها ومزاجهم وثقافتهم شيئاً فشيئاً، وأبتعد عن عقلية زملائي الأقدمين ومزاجهم شيئاً فشيئاً، ورأيتني بفضل ما شوقوني إليه من كتب أكوّن لنفسي نواة الكتب الإنجليزية بجانب الكتب العربية، وأحضّر منها دروسي في الأخلاق والمنطق، وأملأ الفراغ بالمطالعة في هذه وتلك، وإذا العين تفتّحت والأفق يتسع.

ولا شك أن لشخصية أحمد أمين الخلقية والنفسية أكبر الأثر في جذب هؤلاء الغرباء بثقافتهم عن ثقافته إلى قلبه، بل في هيامهم بمحبته حتى اختاروه رئيساً في لجنة التأليف والترجمة والنشر أربعين عاماً متوالية، وقد أفصح زميله في اللجنة الأستاذ محمد فريد أبو حديد عن بعض ذلك حين قال عنه:

«كان أحمد أمين يتوسّط أصدقاءه، وكأنه يجرّد من نفسه لكلّ منهم شخصاً يناسبه ويلائمه، مهما كانوا يختلفون في الطّباع والميول، وقد كان لهذه المقدرة على الألفة والإيحاء بالثقة أكبر الأثر في قوّته الدافعة، التي كانت دائماً تؤثر فيما حوله، وكان دائماً يتعاون ويؤثر فيمن حوله روح التعاون، وكان دائماً مخلصاً، ويثير فيمن حوله روح الصدق والإخلاص، وكان صريحاً عادلاً، يُوسّع صدره دائماً للصراحة والعدالة، وكان يقدّس الحق، ويدّعي له مسرعاً راضياً، حتى كان في بعض الأحيان يرتدّ من طرف في الرأي إلى الطرف الآخر، إذا ما تبدّى له وجه الحق عند المناظرة، ولكنه كان في الوقت عينه يتطلّب الحق فلا يتساهل فيه ما دام قد احترمه مع غيره».

أما تشدد الأستاذ في الحق، فيستدلّ عليه بموقف بارز يدلّ على رجولته المخلصة، حين تحدّث عن عمله في مجلس الجامعة العربية، وهو الحفل بعليّة القوم وصفوة الرؤساء من المفكرين، فأفاض في أثر المجلس ورسالته ثم قال في نفسه :

«وكان من تجاربي - في مجلس الجامعة - أن رأيت أكثر الناس يسرون مع العظماء في آرائهم وأفكارهم، ولو اعتقدوا بطلانها، ولكن إذا تشجّع أحد، ودافع عن الحق، وجهر به وصمّ عليه تبعه هؤلاء وانضمّوا إلى جنبه ضدّ العظماء، فليس عندهم من الشجاعة ما يبدوون به قول الحق، ولكن ليس عندهم من السفالة ما يناهضون به قائل الحق، ولقد شعرت في هذا المجلس بفضل عاطف بركات عليّ، وما علّمني من قول الحق ولو مرّاً، والانتصار له وإن أوديت في سبيله.

وحدثت حادثة في أول انتخابي لمجلس الجامعة، كانت ميّك الاختبار، فإما سير مع التيار حقاً كان أو باطلاً، وإما التزام مهما استتبع من الضرر، فقد أعلن عن كرسي لأستاذ القانون الروماني في كلية الحقوق، فتقدّم إليه بعض العلماء، أفضلهم أستاذ إيطالي وأستاذ فرنسي، فقرأنا المؤهلات ففضلنا الأستاذ الإيطالي لعظم مؤهلاته ومؤلفاته العالمية في الموضوع، وفضلت وزارة المعارف أو بعبارة أدقّ وزير المعارف الأستاذ الفرنسي لاعتبارات نجهلها، ولم يكن معنا وزير المعارف ولكن كان وكيله عضواً في المجلس يتكلم برأيه، ويدافع بقوة وفصاحة عن اتجاهه، فوقفت مع اثنين من زملائي بجانب الأستاذ الإيطالي، وشغل الموضوع مجلس الجامعة عدّة جلسات، وكلما أفحمتهم بالحجج أجّلوا الموضوع لإعداد حجج أخرى.

وأخيراً بعث إليّ وزير المعارف فقابلته، وكلمني في موضوع آخر ليس هو الغرض من الدعوة، فلما استأذنت في الانصراف قال: إنه بلغه أنني أعارض أشدّ المعارضة في تعيين الأستاذ الفرنسي، وأن هناك اعتبارات تجعله أليق وأنسب، فقلت: أظن أن معالي الوزير يسره أن يرى رجاله يدافعون عمّا يعتقدون أنه الحق،

وأنهم يتحدثون بما في ضمائرهم ، وكما يتجلى الحق أمام أعينهم وسلّمت عليه وانصرفت .

وأخيراً تقرّر في مجلس الجامعة تعيين الأستاذ الإيطالي فكان نجاحاً باهراً ، شجّعني على المضي في هذا الطريق ، وأشهد الله أنني التزمت في كل ما عرّض ، وأني اتخذت المسائل المعروضة كالقضايا التي كانت تُعرّض عليّ إذا كنت قاضياً ، أنظر إليها وأدرسها ، وأسمع حجج المتخاصمين فيها ، وأحكم حكماً موضوعياً لا شأن فيه لعواطف ومشاعري ما أمكنني ، وقد استفدت من هذا المجلس تجربة أخرى ، وهي أن كثيراً من الناس يتضايقون من المعارض وقد يحاولون إيذاء والتكيل به ، ولكنهم إذا تيقنوا أنه إنما يدافع عما يعتقد ، وأنه إذا دافع بأدب ، وفي لياقة ولباقة من غير أن يمسّ شعورهم وكرامتهم كان موضع الاحترام والكرامة من مؤيديه وخصومه جميعاً .

لقد أفضت في نقل ما كتبت عن هذا الموقف ، لأشير إلى أن أحمد أمين الرجل قد بلغ من الرجولة منزلة أحمد أمين العالم من العلم ، ونحن في حاجة ماسة إلى الاقتداء برجولته أكثر من احتياجنا إلى الاقتداء بكفاحه العلمي ، مع ما تُوج به من توفيق ونجاح وذبوع ! وقارىء هذا الفصل يذكر أن عناصر هذه الرجولة الكبيرة قد وجدت مكوناتها الذاتية لدى أساتذته الكبار ، من أمثال عاطف بركات ، ولدى زملائه المخلصين ، حين جعلوا حرية الرأي رائدهم في البحث والحكم ، مع ما وجدت من قراءاته الكثيرة في كتب التاريخ ، ولكن هذه الكتب وحدها لا تقوم مقام درس عملي يلقي من عظيم كبير كحسن عاصم باشا : الذي تحدّث الأستاذ عن موقف كريم له فقال عنه :

«لقد اشتهر بمثانة الخلق والحزم والتشدد في الحق والالتزام به ، كان مُشرفاً على مدارس التعليم التابعة للجمعية الخيرية ، وحدث أن تبرّع أحد أثرياء المحلّة الكبرى بأرض واسعة لبناء مدرسة للجمعية ، وقام بنفقات بنائها ووقف عليها بعض أملاكه ، ثم أراد أن يُدخل ابنه في المدرسة وكانت سنّه تزيد شهراً عن السنّ

المقرّرة، فأبى عاصم باشا قبوله قائلاً: لقد تبرّع هذا الرجل للجمعية فيجب أن يُشكر، ولكنه أراد أن نخرق قانون الجمعية فيجب أن يُصدّ، وقد ألحّ عليه الشيخ محمد عبده وحسن باشا عبد الرازق ليقبل الولد تلميذاً فرفض، وصمّ على الاستقالة إن قبل، وهو نمط غريب في الشرق المليء بالمُجاملات وقبول الرجاء مهما خالف العدل والقانون».

- ٣ -

أما أن الدكتور أحمد أمين عالم بحاث، أرخ تطوّر الفكر الإسلامي أوضح تأريخ، وفصله أجمل تفصيل، فذلك ما كان موضع الاتفاق بين نقّاد العصر وباحثيه، وقد كشف الدكتور طه حسين عن وجه الحق فيما صنع الدكتور أحمد أمين حين قال في مقدمة ضحى الإسلام: «لن تكون حياة المسلمين منذ اليوم كما كانت من قبل غامضة مضطربة، يتحدّث عنها مؤرّخو الآداب بالتقريب لا بالتحقيق، ويقولون فيها بالظنّ لا باليقين، وذلك عصر قد انقضى وألقي بينه وبين الذين سيؤرّخون الآداب ستار صفيق، ألقاه أحمد أمين، وأصبح الذين يقصدون إلى تاريخ الأدب قادرين منذ اليوم على أن يحققوا ويستيقنوا ويسيروا في بحثهم على بصيرة وهدى».

كما أجمل الدكتور عبد الرازق السنهوري رأيه في سلسلة الفجر والضحى والظهر حين قال: إنها سلسلة من الكتب هي أقوم وأروع ما وضع عن الحياة العقلية والفكرية للإسلام منذ فجره، إلى أن اشتدّ عوده واكتمل، فأسس صديقي مدرسة في الفكر الإسلامي، لا أعرف أن معاصراً قام بعمل يُدانيها، وستبقى هذه المدرسة راسخة بالأصل باذخة الفروع، تظّل الجيل بعد الجيل وسيكثر تلاميذها، وسيتخذ هؤلاء التلاميذ من صديقي لمدرستهم أستاذاً إماماً وزعيماً فكرياً كبيراً».

وأنا الآن لا أجمع ما قال كبار الباحثين عن الرجل، بل أمهد لحديثه عن نفسه بفقرات كاشفة، مما كتب باحثان خطيران لا يرسلان القول على إطلاقه دون دقّة نظر، وعدالة موازنة، ليعلم القارئ أن أحمد أمين العالم، حين يتحدّث عن

مؤلفاته العلمية وطريقته المنهجية، إنما يتحدث عن ميدان كان من أشهر أبطاله المناضلين، وإذا كانت كتبه العلمية فتحاً جديداً في التأليف المنهجي، فقد سبقه إلى الميدان رجال يؤلفون ويكتبون على غير طريقة السابقين، بحيث كان عمل الدكتور خطوة تالية لمجهودهم الموفق، بل ثمرة ناضجة لشجرة قطعت زمناً مناسباً في النمو والإبراق والإثمار.

لقد حفلت دار العلوم ومدرسة القضاء بنخبة من الكاتبيين، أمثال الشيخ الخضري، والشيخ محمد المهدي، والشيخ محمد زيد، فنقلوا التأليف العلمي خطوة شرحها الأستاذ في قوله: «وهم فئة تعودوا النظام والقدرة على الإيضاح من دار العلوم، ولم يلتزموا عبارات الكتب وإن التزموا موضوعاتها، واتصلوا بالشيخ محمد عبده، وكانوا من خاصّة تلاميذه يعتنقون مبادئه ويستنبطون بآرائه وتوجيهاته، فلم يكونوا يلتزمون الكتب، وإنما يضعون مذكرات من أنفسهم، يعتمدون فيها على الكتب القديمة، ولكنهم يعرضونها عرضاً جديداً، وقليل ما يأتون بالشيء من أنفسهم، ولهم علم بالدنيا أكثر من علم الأزهرين، وتجارب في الحياة استمدوها من أعمالهم ومناصبهم، كانوا يلقنونها إلينا مع دروسهم».

درس لنا أصول الفقه الأستاذ الشيخ محمد الخضري، وكان لبقاً لسنّاً ذكياً واسع الاطلاع حاضر البديهة، يُجيد اللغة العربية وفروعها، والتاريخ الإسلامي، كما ورد في المؤلفات القديمة، والعلوم الإسلامية كما تلقّاها من شيوخه، وله قدرة على استساغة ذلك كله وإخراجه في عبارة عصرية جديدة، أقرب إلى الفهم.

ودرس لنا الشيخ محمد المهدي أدب اللغة العربية وكان هذا الأدب حديث العهد في مصر، فالتاس لم يكونوا يعرفون الأدب إلّا على النحو الذي جاء في مثل كتاب الأغاني والعقد الفريد والأمالى ونحو ذلك، أما تقسيم الأدب إلى عصور وترجمة شعراء كل عصر ونأثريه، وميزة أدب كل عصر وخصائصه، فشيء لم يكن معروفاً في مصر حتى أتى الأستاذ حسن توفيق العدل، وقد تعلّم في ألمانيا، فأدخل هذا العلم على هذا النمط في دار العلوم، إذ كان أستاذاً فيها، مسترشداً

بما كتبه الألمان في تدريس أدبهم، وجاء تلميذه الأستاذ المهدي فبني عليه، وأعدّ لنا مذكرات واسعة فيه، وكانت ميزته الكبرى تذوّقه الأدب وتقويم جيّده من رديئه، وحُسن إلقائه للشعر وجمال نغماته وكان كثيراً ما يخرج من الدرس إلى تعاليم الشيخ محمد عبده من الدعوة إلى عدم زيارة القبور وإنكار الشفاعة بالأنبياء والأولياء ونحو ذلك.

وكان من طائفة دار العلوم أيضاً: الشيخ محمد زيد وهو: رجل وقور جليل المنظر مهيب الطلعة، يحتفظ بكرامته ويعتزّ بشخصيته، درس لنا الفقه، وكان قد مرّن عليه في التدريس بمدرسة الحقوق، فنقل الفقه من كتبه الأزهرية التي تعتمد على الجزئيات إلى وضع قواعد كلية تطبّق عليها الجزئيات، وكان سلس العبارة ميّالاً إلى الإطناب.

هؤلاء بعض أعلام الحركة الأولى للبعث العلمي في مصر: محمد الخضري ومحمد المهدي ومحمد زيد، كلٌّ في موضوعه، ولو اقتصر أحمد أمين على طريقتهم المحدودة ما وصل إلى ما وُفق إليه في الفجر والضحى والظهر، وليست بذلك أضائل من أقدارهم العلمية، فهم إحدى حلقات التطوّر العلمي الذي يتقدّم إلى الإمام دون طفرة واثبة تفجأ الناس بما لا يعهدون فينصرفون عنهم غير نادمين، وإنما أريد أن أقول إن أحمد أمين قد أضاف إليهم انتفاعه بدروس الجامعة المصرية القديمة، وهي ذات طراز مختلف تحدّث عنه الكاتب بقوله عن هذه الجامعة: «لقد أعجبني من دروسها محاضرات يلقّيها الأستاذ نلّينو في تاريخ الفلك عند العرب، ومحاضرات في الفلسفة الإسلامية يلقّيها الأستاذ سانتلانا، ومحاضرات في الجغرافيا العربية يلقّيها الأستاذ جويدي، وكنت أحضر هذه المحاضرات لماماً وفي غير انتظام والتزام لثقل العبء عليّ بمدرسة القضاء، ولكن على كل حال رأيت لوناً من ألوان التعليم لم أعرفه، استقصاء في البحث، وعمق في الدرس، وصبر على الرجوع إلى المراجع المختلفة، ومقارنة هادئة بين ما يقوله العرب وما يقوله الإفرنج، واستنتاج هادئ رزين من كل ذلك، وهكذا أثير

الشرقيون والغربيون معاً في اتجاه الباحث تأثيراً قاده إلى انتهاج خطة جديدة، في تأريخ الفكر الإسلامي، كُتب لها الإمامة والتصدّر في عالم الثقافة المعاصرة، بحيث أصبحت كتبه المرجع الأول في بابها، وقد كتب الكاتبون من بعده في موضوعها، ولكنهم عجزوا عن الوصول إلى ذروتها، مع أنهم لاحقون قد مهّد لهم السابق الطريق».

ولم يفت الأستاذ أن يسجّل طريقته في الكتابة العلمية والأدبية معاً، والإشارة إلى هذه الطريقة مما يفيد الباحث عن القدوة الصحيحة في طريقة التأليف، ويوفّر عليه جهداً كبيراً إذا انتفع بما سنّه الكاتب من منهج، وما استفاد من تجاربه، وقد تطوّرت طريقة الدكتور نفسه بمزاولة التأليف تطوّراً وفّر عليه كثيراً من الجهد والوقت، إذ أنه في فجر الإسلام - وهو أول مؤلفاته - كان يتبدّى برسم المنهج وكتابة الفهرس مرتباً، وفق تقديره.

وها هو ذا يقول عن نفسه: «كنت إذا وصلت إلى موضوع أجمع مظاهره من الكتب، وأقرأ فيها ما كتب عنه وأمعن النظر، ثم أكتب مستدلاً بالنصوص التي عثرت عليها حتى أفرغ منه، وأنتقل إلى الموضوع بعده وهكذا» حتى فرغ من الفجر، ثم انتقل إلى الضحى، فترقى في منهج التأليف مستفيداً من خبراته.

وقال في وصف منهجه الجديد: «لقد ربّيت موضوعاته التي تستغرق ثلاثة أجزاء، وأحضرت ملفّات كتبت على كل ملفّ اسم الموضوع، ملفّ عليه اسم المعتزلة، وملفّ للخوارج، وثالث للجواري، ورابع للثقافة الهندية، إلخ، ثم حصرت أمّهات الكتب التي تبحث في هذه الموضوعات كالأغاني والحيوان للمجاحظ، وكتب ابن قتيبة وابن المقفّع ونحو ذلك، أقرأها كلها، فإذا وصلت إلى نصّ يتعلق بالمعتزلة كتبت في ورقة صغيرة مغزى ورقم الصفحة في الكتاب، ووضعتها في ملفّ الموضوع، وهكذا حتى أفرغ من هذه الكتب كلها، وهذا دور التحضير، فإذا جاء دور الكتابة استخرجت ملفّ الموضوع وأعدت النظر في الجذاذات، وربّتها حسب الترتيب المنطقي، وفكّرت فيها وبدأت أكتب، وكلما

عَنَّت فكرة جديدة رجعت إليها في مظانها، حتى ينتهي الموضوع فأنقل إلى ما بعده، وهكذا حتى فرغت من الصّحى بأجزائه الثلاثة في نحو ست سنوات».

ولم يقتصر الدكتور أحمد أمين على البحث العلمي، بل عالج المقالة الأدبية والاجتماعية، بحيث أصدر مجموعة مقالاته في عدّة أجزاء من فيض الخاطر، ولا بدّ لنا أن ننتفع بتجربته في دنيا الأدب الذاتي، كما انتفعنا بها في التاريخ العلمي، فلنستمع إليه يقول:

«كنت أكتب في كل أسبوع مقالة، وكان هذا عملاً أدبياً يلدّ نفسي بجانب بحثي العلمي، فانا كل أسبوع أفكر في موضوع مقال وأحرّره، ويضطرني ذلك إلى قراءة كثير من الكتب الإنجليزية أستعرض فيها ما يُكتب وكيف يُكتب، وأعتمد أكثر ما أعتمد على وحي قلبي أو أعمال عقلي أو ترجمة مشاعري، وكانت مقالاتي تتوزّعها هذه العوامل الثلاثة، ولقد اطمأنت إلى هذا النوع من الكتابة، إذ كان يفتح عيني للملاحظة والتجربة، ويسرّي عن نفسي بالإفراج عمّا اختزنه من حرارة، فكنت أشعر بعد كتابة المقالة كما يشعر المحزون دمت عينه أو المسرور ضحكته سنّه، وكنت أحسّ كأن نحلة تطنّ في أذني لا تنقطع حتى أكتب ما يجيش في صدري، فإذا استولى موضوع المقالة على ذهني فهو تفكيري إذا أكلت أو شربت، وحلمي إذا نمت، وعمل وعيي الباطن إذا شغلت، ولهذا انقلبت هذه الظاهرة إلى عادة ومن عادة إلى كيف متسلطن.

ولي تجربة في هذا الباب، وهي أنني إذا عمدت إلى إعداد بحث علمي كفصل من فصول فجر الإسلام أو ضحى الإسلام، فأنا كل وقت صالح لهذا العمل ما لم أكن مريضاً، أما في المقالات الأدبية فلست صالحاً في كل وقت، فلا بدّ أن تهيج عواظي بعض الهياج وتهتّر نفسي بعض الاهتزازات، وأنسجم مع الموضوع كل الانسجام، فإذا لم يتيسّر لي كل هذه الظروف، كنت كمّن يمتع من بئر (يريد بئراً بعيد القرار لا يصل إلى مائه إلّا بصعوبة) أو ينحت من صخر، وأحياناً أرى القلم يجري في الموضوع حتى لا أستطيع أن أقفه، وأحياناً يسير في ببطء وعلى

مهمل حتى لا أستطيع أن أستعجله، وأحياناً يتعثر فلا أجد بُدّاً من الإعراض عن الكتابة، ومن الصعب تعليل ذلك، فقد يكون سببه صلاحية المزاج وسوءه، وقد يكون قوة الدواعي وضعفها، وقد يكون الاستعداد للتجلي وعدمه.

وقد اعتدت عند كتابة مقال أن أرسم الموضوع إجمالاً لا تفصيلاً، وإذا رسمته أبحثُ لنفسي أن أُغيّره وأبدّاه إذا جدّ جديد، وكثير من المعاني التفصيلية تأتي وأنا أكتب لا وأنا أفكر قبل أن أكتب، ولهذا حين أُصِبتُ في عيني ونهاني الأطباء عن الكتابة زمناً صُعبَ عليّ الإملاء، ولم أجد من غزارة المعاني ما كنت أجد عند مزاوله الكتابة بنفسِي.

ثم دَعَتِ الكاتبة صراحته البسيطة أن يقول في غير ادّعاء: «واعتدت منذ أول عهدي بالقلم أن أقصد إلى تجويد المعنى أكثر مما أقصد إلى تجويد اللفظ، وإلى توليد المعاني أكثر من تزويق الألفاظ، حتى كثيراً ما تختلّ (ضمائري) فأعيد الضمير على مؤنث مذكراً وعلى مذكر مؤنثاً، لأنني غارق في المعنى غير ملتفت إلى الألفاظ، ولا أتدارك ذلك إلا عند التصحيح، وقد يفوتني ذلك أيضاً، ولتقديري للمعنى أميل إلى تبسيطه حتى لأسرف أحياناً في إيضاحه لشغفي بوصوله إلى القارئ بَيِّناً، ولو ضحيت في ذلك بشيء من البلاغة، ومن حيّ للإيضاح، أفضّل اللفظ ولو عامياً على اللفظ ولو فصيحاً، إذا وجدت العامي أوضح في الدلالة وأدقّ في التعبير، وأفضّل الأسلوب السهل ولو لم يكن جزلاً، إذا وجدت الأسلوب الرصين يغمض المعنى أو يثير الاحتمالات، ويدعو إلى التأويلات، ومن أجل هذا تشكّك في الأدباء، هل يعدّوني أديباً أو عالماً؟، ولم أقم لهذا الشك وزناً فخير لي أن أصدق مع نفسي ومع غرضي ومع ميلي من أن أزوّق أسلوبِي لِيُجمِع الناس على أدبي».

تلك مقتطفات من حديث الدكتور عن أدبه وعلمه، وقد فضّلت أن أكتفي بتقديم حديثه دون الإلحاح على تتبّعه، وإن كان الرجل قد ترك الناس يتخبطون في الحكم عليه، أهو أديب أم عالم دون أن يقيم لتخبّطهم وزناً، فإنني أرى أن

أختم هذه المختارات من قوله برأي أديب كبير في أسلوب أحمد أمين ذلكم هو صديقه المغفور له أحمد حسن الزيات، إذ يقول عنه في مقاله التأبيني: «إنه كان من الكُتّاب العقلين الذين يُزاولون الكتابة عن علم لا عن سليقة، ويتخذون الأدب وسيلة لا غاية. كان همه من الكتابة أن يقرّر ويقنع لا أن يؤثر ويُمتع، ولعلّ منشأ ذلك أن عقله كان أخصب من خياله، وأن علمه كان أكبر من فنه، وأن حبه للحرية والصراحة كان يحبّب إليه إرسال النفس على سجيّتها من غير تقييدها بأسلوب معين، وعرض الفكرة على حقيقتها من غير تمويهها بوشي خاص، ومع ذلك كان لأسلوبه طابعه المميّز وجاذبيته القوية تقرأ فلا تروعك منه الصور البيانية الأخاذة ولا الأصوات الموسيقية الخلّابة، وإنما تروعك المعاني المبتكرة الطريفة، والآراء الصريحة الجريئة، والشخصية القوية المهيمنة، فأنت منه بإزاء عالم يبحث لينتج، أو مُصلح يصف ليعالج، لا بإزاء مصوّر يلوّن ليعجب، أو موسيقار يلحن ليطرب، على أنه كان يتوخّى الجمال أحياناً في الأسلوب بحكم الأثر الذي تركته فيه درايته للقرآن والحديث، وروايته للشعر والنثر، ودراسته للبيان والنقد، فيجمع بين حُسن الفكرة وجمال الصورة، ويلائم بين رزانة المعنى ورصانة اللفظ».

ثم ختم الزيات مقاله الرائع بما نقّبه الآن في ختام حديثنا عنه إذ قال: جعل الله روحه للخلد كما جعل ذكره للخلود، وعوّض الأدب والعرب من فقدته خير العوّض... .

محمد إقبال شاعر الإسلام وداعية الحق

- ١ -

جعل توماس كارليل الشاعر بطلاً، فهو في كتاب «الأبطال» يقرنه بالأنبياء والمُصلحين من قادة المجد وهداة البشرية، وقد اختار شكسبير ودانتي ليمثلاً البطولة الشاعرة في رأيه حين واجها الدنيا بما فيها من مثالب ونقائص، فكشفا النقاب عما يتخللها من شهوات ونزوات، وفضحا النفس الإنسانية إذ تغلغلا إلى الأعماق الدفينة في أطوائها تغلغل الفاحص الدقيق، ثم صوّرا ذلك كله فيما أخرجاه في دنيا الأدب من روائع باهرات، وقد كان توماس كارليل مُنصفاً صادقاً في أكثر آرائه، ولو أنه أدرك شاعرنا الكبير محمد إقبال ما تردّد في اتخاذه نموذجاً للبطولة، إذ لا أعلم في الدنيا شاعراً غيره، صنع بشعره صنيع الأبطال حين أنشأ أمة بقلمه لا بسيفه! وبلسانه لا بجيشه، فأية بطولة حسّية أكثر وضوحاً من بطولة إقبال؟ أما بطولاته النفسية الكثيرة فتظهر بقوة وإعجاز في أقواله وأفعاله على السواء!.

لقد كان إقبال بطلاً لا نظير له حين نادى أول مرة بضرورة قيام دولة إسلامية منفصلة، لها مُثلها الثابتة ودستورها الخاص، ثم سلّط أسلحة براهينه وحججه حتى استطاع أن يجعل الحلم المتخيّل حقيقة ماثلة!!، وأن يقود المشاعر المتطلّعة الحاملة إلى يقين ثابت المعتقد، وهدف واضح المعالم، فإذا «الباكستان» بعد

أعوام تنهض على قدميها حصناً من حصون الإسلام، وأمة عزيزة غالبية تجلجل مآذنها بالأذان، وتدوي مساجدها بالصلوات والدعوات، ولو نادى بهذه الدعوة إنسان محدود الثقافة ضيق النظر لرُمي بالجهل والتعصب والجمود، ولكنه إقبال قائد الطليعة ورجل الثقافة وصاحب الصيت الرنان.

لن ندرك عظمة إقبال وسمو هدفه ومرير كفاحه إلا حين نعلم حقيقة عصره، ومأساة الإسلام الدامية في إبان كفاحه، لنرى أي رجل هيأته الأقدار ليصد الهجوم الأثم، ويرسم الطريق السوي، ثم ليقود السفينة المتأرجحة فوق عباب البغي والعدوان، وبين عواصف التبشير والاحتلال، حتى تصل إلى المرفأ بعد عناء مرير قريرة العين، حميدة السرى، حسنة المآل.

يقول الدكتور يحيى الخشاب موضحاً ملابسات الزمن في جهاد إقبال، ومُجِلاً بعض ما اضطرع في مفتح حياته من نقاش متذبذب حول الغايات والأهداف:

«عاش إقبال الفترة الأولى من حياته في خضمّ الحوادث التي كانت تتلاحق على العالم الإسلامي، الذي كان يدور في مطلع القرن العشرين في فلك الخلافة العثمانية.

وتأثر في شبابه بما ذاع من إثارة النعرة العصبية بين أقوام المسلمين، وعرف ما كان يدور في تركيا من جماعة تدعو إلى التورانية، وترك الفكرة الإسلامية الجامعة إلى التورانية: التي تنظر إلى الشعب التركي على أنه من نسل المغول، وعلى أنه قادر على أن يلمّ الشمل مع بني عمومته في قلب آسيا، ثم في أوروبا، «في بولندا وفنلندا».

وسمع جدال الجماعة التي تدعو إلى الجامعة الإسلامية وتنشد إيقاظ المسلمين، وتحثهم على الرجوع إلى قواعد الإسلام الأولى.

وسمع دُعاة اللاتينية، وهجر الحرف العربي، ودُعاة السُفور وإلغاء الحجاب، ودُعاة فصل الدولة عن الدين، والسير بالدولة قُدماً في ظلّ المبادئ التي نادى بها الثورة الفرنسية.

وقرأ في هذا أشعاراً لتوفيق فكرت، وضيا كوك آلب، قرأها بالألمانية،
فأشعار الرجلين كانت تلقى في الغرب رواجاً وتأيداً.

وقرأ في الوقت نفسه أشعاراً لمحمد عاكف يدافع فيها عن الإسلام، وينهل
فيها من تاريخ الإسلام، ويحث فيها على التمسك بالإسلام كما كان أيام النبي
والراشدين.

وقرأ رسائل جناب شهاب الدين التي يستخدم فيها المنطق السليم في لباقة
وبراعة، ويستشهد فيها بأقوال الفلاسفة في أوروبا وكتّابها وعلمائها، مُحاولاً أن
يصدّ التيار العنيف الذي يتخذ من الشعارات وسيلة لتحطيم فكرة الخلق
الإسلامي.

واستمع إلى سعيد حليم، يناضل في قوة عن حزب الإصلاح الديني،
ويتطلّع إلى الحجاز فإذا به يقرأ عن الرجل الذي قام في نجد ينادي بتقية الدين
مما علق به من شوائب كادت تُودي بأهله، داعياً إلى الاستقامة التي تحلّى بها
النبي وأصحابه أيام الدعوة الإسلامية، ويرى أن دعوة محمد بن عبد الوهاب قد
أثمرت، فهي تجري على كل لسان، وهي تسري في الجزيرة العربية إلى شمال
أفريقية، ممثلة في الحركة السنوسية، وهي سارية في أدب العرب نثرهم وشعرهم،
وإن لم يصرّحوا باسم المُصلح العربي خشيّة الحاكم المستبدّ في إستنبول
والقاهرة.

وينظر إقبال إلى بلده فإذا الاستعمار يحطّ عليها بكلّكله، ويفسد فيها غاية
الإفساد، وبينما الشعارات الزائفة تقوم بمعركتها في تركيا، إذ بالإنجليز يعشّون
بالإسلام عبثهم بسائر الأديان في الهند.

ذلك هو إجمال الواقع كما لخصه الدكتور الخنّاب، وهو واقع يتطلّب في
كل قطر إسلامي رجالاً من طراز ممتاز، يكون لهم تأثيرهم الداخلي واحترامهم
الخارجي، ليقودوا الصفوف ويردّوا الهجوم.

وكان إقبال في الهند أحد هؤلاء المُصلِّحين الذين يستطيعون حمل الراية في ثبات، فهو في قومه أبعد الناس عن المطامع الشخصية، وأنأهم بسيرته النظيفة عن الوصلية المستغلّة، مع ما يزدان به من إيمان واثق، ونفاذ بصير، وطموح هادف، وهو في أوروبا أحد الأفذاذ الأمثال ممّن يعتصمون بفلسفة هادفة مثالية، ويتسلّحون بقوة مُثريّة من الثقافة والاستشفاف والإدراك، وقد شهدت مؤلفاته بعمق الفكرة وسداد النظر، فإذا تصدّر للقيادة في ملته فما أجدره بالنجاح!

وإذا كان للداعية المُصلِّح أسلحته الحاسمة في ميدان الجهاد، فقد شاء الله أن يكون الشعر أبرع أسلحة إقبال نفاذاً وتأثيراً في النفوس، وقد أصبح شاعر الإسلام في العصر الحديث، لا لأنه أكثر من النظم في المناسبات الإسلامية كما تعودنا أن نُضيف هذا اللقب إلى بعض شعرائنا في العربية ممّن يتخذون المواسم التاريخية ميداناً للتذكير بمجد السلف، بل صار إقبال شاعر الإسلام، لأنه أحسّ بهموم المسلمين في شتى ممالكهم إحساس المتألم المتحسّر، وطفق يعبر عنها تعبيراً يقرؤه كل مسلم مترجماً عن الأردية والفارسية إلى لغته، فيلمس فيه آهات صدره ولذعات فؤاده، ويشعر أن إقبال هو الوتر الذي أبدعه الله ليترجم عن عواطف المسلمين ترجمة الشاعر المُرَهَف الرقيق.

وإذا كان الحديث عن شاعر ملهَم كإقبال، فإن آثاره الفريدة، ومقطوعاته الرائعة تُغني عن كل تفسير، وحسبنا أن نذكر أمثلة منها لتوضح التيار العميق الذي يندفع من نفس الشاعر الكبير، وهي كنماذج أدبية تغني غناء الشرح التحليلي في التراجم التاريخية، وماذا عسى أن يقول المؤرّخ مع النصّ الشفاف المجنّح؟ بحسبه أن يسير في ظلّه إن استطاع.

يدرك الشاعر مأساة الإسلام في تأخّره الحضاري وتكالب الاستعمار والإلحاد على بلاده، فيصيح في مُناجاة لربّه، متذكّراً مجد الأسلاف:

«اسمع يا ربّاه شكوى عبادك الأوفياء، إنما نُسمِعك نفثات القلوب المكلومة، لأن نوائب الأيام أجبرتنا على ذلك، كان يسكن هذه المعمورة

السلاجقة، والطورانيون، والصينيون، والفارسيون، واليونان، ولكن قل لي بنفسك: أيهم تناول السيف بيده لإصلاح المجتمع وقطع دابر الفساد من الأرض غير المسلمين.

كلما حانت الصلاة أثناء صليل السيوف، ولّت الأمة الحجازية وجهها شطر القبلة وسجدت لله شاكراً، ووقف (محمود) الأمير (ووايان) المملوك في صفٍّ واحد، فلم يبقَ هناك عبد ولا مولى، ولَمَّا وصلوا إلى حضرتك صاروا وحدة جامعة.

وينظر إلى عصبه الأمم في جنيف وقد أقامت نفسها في الظاهر لرعاية السلم، حين تكالب زعمائها في باطن الأمر على إثارة الحرب، فيتذكّر رسالة الإسلام الخالدة إذ أشرقت من مكة، ويصبح مؤكداً رسالة دينه النبيل في وحدة البشر على السواء:

«لقد عمّت في هذا العصر مجالس الأمم، لكن الوحدة الإنسانية بقيت مختفية عن الأنظار، والهدف الذي ترمي إليه حكمة الأفرنج هو تفريق الأمم.

وغاية الإسلام إنما هي الوحدة الإنسانية، لقد بعثت مكة إلى جنيف بهذه الرسالة، ماذا تريدان؟ عصبه الأمم أم عصبه بني آدم؟».

ويمرّ بباريس فيرى مسجدها الذي بناه الفرنسيون في عاصمتهم ليخدّروا به المخدوعين من جهلة المسلمين، فتدمع عيناه إذ يتذكّر ما جناه هؤلاء الأوغاد على دمشق، حين حطّموها بالقذائف ذات صباح ويقول متأثراً:

«مسجد باريس، إن هذا الحرم الغربي بعيد عن الحق، بل ليس هذا بحرم، وإنما أخفى صنّاع الأفرنج روح الوثنية في جثمانه، وإنما أسّس هذا لمعبد أولئك السفاكون الذي دمّروا دمشق بأيديهم».

ويتألّم مرة ثانية لكوارث سوريا فتدركه اللمحة الشاعرة ويهتف:

«منحت أرض سورية للأفرنج نبيّ العفة والرفق في المعاملة، وجاء من أوروبا مكافأة لسورية: الخمر والمقامرة وكثرة المومسات!!».

ويا لها من مقابلة مريرة تكشف الخبيث من الطيب لذوي العيون، وهي لا تقلّ عن قوله في نكبة فلسطين:

«أدام الله خمارة الأحرار الفرنسيين، حيث نرى كؤوس حليب مملوءة بالصهباء، إن كان لليهود حقّ على فلسطين فلماذا لا يكون للعرب حقّ على أسبانيا؟».

ثم ترعجه نكبات الطليان في طرابلس الغرب، وكارثة الإسلام في أدرنة فلا يستسلم لليأس بل ينادي بالأمل القريب إذ يردّد:

«إنك مسلم، فاجعل قلبك معموراً بالأمانى والآمال، فإن الله لا يخلف الميعاد، هلّمّ ننشر الأزهار والرياحين على قبر الشهيد الذي فعل المسفوح من دمه بأمتنا ففعل الغيث بالشجرة النابتة!».

إن عشية الألم تسفر عن صباح العيد، لقد تبلج فجر الأمل من دياجير اليأس».

فإذا مرّ بصقلية، تذكر ما كان بها من مجد للإسلام، وأرسل زفرته الحارة منظومة في هذه الأبيات:

«ساعديني أيتها العين الثائرة وابكي ما شئت دموعاً ودماءً، فإن تربة المدينة الحجازية ماثلة بين أعيننا».

كانت هذه البلاد يوماً ما مركزاً لهؤلاء العرب إذ كانت البحار ملعباً لسفائهم في سالف الأزمان، هؤلاء الذين زلزلوا عروش الأكاسرة والقيصرة، وكانت سيوفهم مخدعاً للبروق الرواعد!.

اشرحي حالك يا صقلية، فإني بقية من الركب الذين كانوا ينزلونك، وسأذهب بهديتك إلى الهند، وأبكي بها أناساً كما بكيت أمامك الآن».

هذا الشعور العميق بنوايب الفكرة الإسلامية كان يؤرق الشاعر ويضنيه، ومن الناس من يحس إحساسه، ولكنه يقف الموقف السلبي، يطوي الضلوع على لظى الحسرة، ثم يكمل للأيام أن تأتي بالمعجزات الخوارق، كأن قوانين الطبيعة لا تخضع لنظام خاص في التغيير والمحو والتطور من حال إلى حال، أما الشاعر فقد أخذ بعد تشخيص الداء يبحث عن الدواء ويطب لهذه العلل المضنية، مستعيناً بالمعيتة الوقادة، وبصره النافذ، حتى وجد الحل العملي فأعلنه غير هيّاب!.

من لي بمن يبعث في النفوس حرارة إقبال، والتياح إقبال؟!.

لطالما امتلأت عقول الشبيبة الإسلامية بثمار العلوم والفلسفات من شرقية وغربية، وقديمة وحديثة، ولكنها تكدّست بها متراسة متراحمة، حتى أفسد بعضها بعضاً، ولم تتحول في العروق إلى دماء تفور، وفي العيون إلى بريق يوميض ويُنير، فلو كان لهذه الشبيبة الضائعة مع ما أتحمها من المعارف الثقيلة هذه الحرارة الطامئة، وهذا الالتياح المتأجج، لوجدنا أجيال القرن العشرين تتلظى حفاظاً، وتغتلي حمية، وإذا كان من المتعسر أن نرى بيننا أفراداً كإقبال، فليس من المتعسر في شيء أن نرى ملايين المسلمين يردّدون شعر إقبال، ويهتفون به في كل لحظة، إذا تهيئوا لاستقباله، وأدركوا مرماه فاستشعروا تلك اللوعة: وكابدوا هذا الغليل اللواح.

لقد أدرك الشاعر قيمة هذا الظمأ الحنان، فوجّه الأنظار إليه حين قال من قصيدة رائعة:

«انزل أيّها المسلم إلى أعماق نفسك، وادخل في قرارة شخصيتك حتى تكتشف سرّ الحياة، أنصف نفسك يا هذا، وكن لها وفيّاً، إن عالم القلب كله حرارة وسكر وحنان وشوق، أما عالم الجسم فتجارة وزور واحتيال، ثروة القلب لا تفارق صاحبها، أما ثروة الجسم فظل زائل ونعيم راحل، إن عالم القلب لم أر فيه سلطة الأفرنج ولا اختلاف الطبقات».

ويقول أيضاً في عبارة مُشجِّية واتجاه فريد:

«كن مثل فريد العطار في معرفته، وأبي حامد الغزالي في علمه وذكائه، كن مَنْ شئت في الحكمة، ولكنك لا ترجع بطائل حتى تكون لك أنة في السحر.

خذ مِنِّي ما شئت يَا رَبِّي ولكن لا تسلبني العزة بأنة السحر ولا تحرمني نعيمها، اللَّهُمَّ ارزق الشباب أَنِّي في السحر، وَأَنِيت لصقور الإسلام القوادم والخوافي التي تطير بها وتصطاد، ليس لي أُمْنِيَّة يَا مَوْلَايَ غير أَن يعمَّ نور بصيرتي سائر الشباب من المسلمين!». .

هذا حديث الشاعر عن لواعجه وحينه!، وأعنف ما تكون هذه اللواعج استشارة، وأعظم ما يكون هذا الحنان توهجاً في السحر الهادي، حين تهفو النفوس إلى عالم الحق والخير والجمال، وإذ ذاك تتصاعد من القلب أنة الأسحار.

- ٢ -

شغلت آراء الدكتور محمد إقبال في مختلف شؤون الحياة الإسلامية فريقاً من الكُتَّاب المعاصرين، ما بين مؤيِّد ومُعَارِض، وهذا طبيعي جداً بالنسبة لكل رأي مبتكر يصدر عن مفكر مسؤول، إلا أن جميع مَنْ تعرَّضوا لنقده قد أجمعوا إجماعاً مُنْصِفاً على نزاهة ضميره وعمق إيمانه وشدة إخلاصه، إذ أن قوَّة الرجل في صياغة حجَّته، وحرارته في تبيان وجهته، قد أجبرت أشدَّ خصومه على احترامه وتقديره، فمهما امتدَّ بساط النقاش، وتشعبت مناحي الرأي، فشخصيته مجال الإعجاب.

لقد دار النقاش طويلاً حول مذهبه في تقدير الذات وإعلاء مكانتها، ولكي نبسط رأي إقبال في هذا المجال، ينبغي أن نعرف أن التصوِّف الإيراني قد وجد في البيئة الهندية مرعاه الخصب، ففهم بسببه الإسلام فهماً خاطئاً لا يمتُّ إلى منبعه الأصيل: من قرآن سماوي وحديث نبوي، إذ أصبح دُعاة التصوِّف يمجِّدون الانطواء والاعتزال، ويرون السموَّ في الانسحاب عن المجتمع، ثم أضافوا إلى

الدين معاني جديدة لا تهدف إلى القوة، أو تدفع إلى السيطرة والاعتزاز، ولكي لا نَظلم السادة المتصوّفين قيد شعرة فإننا نشير هنا إلى ما جاء في «الرسالة القشيرية»، وهي من أمّهات كتبهم المعتمدة ثم نشفعه بما نادى به إقبال من سمو للنفس وتقدير للذات.

لقد خلص المتصوّفة إلى أن صفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعاني، وأن وفاء منازلهم يوجب لهم الشرب، وأن دوام مواصلاتهم يقتضي لهم الريّ، وبعبارة أخرى يعبر الصوفيّة عن هذه الأحوال وعمّا بينها من فروق، فيقولون: «إن صاحب الذّوق متساكر، وصاحب الشرب سكران، وصاحب الريّ صاحٍ، وإن من قوي حبّه فقد تسرمد شربه»^(١).

ولو ذهبنا نفّسر هذا الكلام على وجهه المراد لديهم لراعنا أن نعرف أن الصحو عندهم هو السكر النهائي عن الوجود الكوني، وأن أقوى المحبّين من دام سكره إلى الأبد حتى يصبح سرمدياً لا يميل إلى يقظة!!، فكلّ مراد المتصوّف أن يغادر الدنيا قبل الموت، فيغدو بمعزل عمّا سوى مواجيدته وأذواقه وتساكيره وسكره!، فإذا بلغ مرحلة الريّ فهو الغائب الذي لا يشهد في نظر الناس، والشاهد الذي لا يغيب في رأيه ورأي زملائه المتصوّفين!، وإذا انتشر هذا الاعتقاد بين المسلمين وصار مثلاً أعلى يهدف إليه خلاصة المتّقين، فإن الخطب عمّ.

وقد لمّح إقبال نذر الكارثة فيما سيطر على الشرق من انحلال، وفيما ران على المسلمين من تخلف، فنهض لمحاربة التصوّف الانسحابي، ونادى بفلسفته القوية في تقدير الذات.

وقد اضطر إلى أن يشرح هدفه في رسائل كثيرة خطّها للمعترضين عليه، ومنها ما كتبه إلى السيد حسن نظامي نقله عن كتاب أستاذنا عبد الوهاب عزّام^(٢):

(١) من كتاب ابن الفارض، ص ١٦٦، نقلاً عن الرسالة القشيرية.

(٢) إقبال، للدكتور عزّام، ط ٢، ص ٨٨.

«إن حالة السكر في اصطلاح الصوفية تنافر الإسلام وقوانين الحياة، وحالة الصحو وهي الإسلام موافقة قانون الحياة، وإنما قصد الرسول - ﷺ - إلى إنشاء أمة صاحبة، وأصل المسألة أن الصوفية أخطأوا خطأ كبيراً في فهم التوحيد. ووحدة الوجود، ليس هذان الاصطلاحان مترادفين كما توهموا، فالأول مفهوم ديني، والثاني فلسفي محض، ليس التوحيد ضد الكثرة كما يظن بعض الصوفية، بل هو ضد الشرك، وأما وحدة الوجود فهي ضد الكثرة، وكانت نتيجة هذا الغلط أن عدد من الموحدين طائفة ذهبوا إلى وحدة الوجود أو التوحيد في اصطلاح فلسفة أوروبا الحاضرة، على حين أن المسألة التي ذهبوا إليها لا تتعلق بالدين بل بحقيقة نظام العالم، إن تعاليم الإسلام واضحة وهي أن ذاتاً واحدة تستحق العبادة، وأن كل الكثرة التي ترى في العالم مخلوقة.

ليست عقيدة وحدة الوجود من تعاليم القرآن، فإن القرآن يبين المغايرة التامة بين الخالق والمخلوق والعابد والمعبود».

هذا أسلوب إقبال في رسالته، وهو أسلوب منطقي يستند إلى البرهان والتعليل، فإذا قرأت أسلوبه الشعري في قصائده التي تنحو هذا النحو وجدت لوناً آخر من ألوان الفن الأدبي يجمع إلى خصوبة الفكرة إمتاع الوجدان كأن يقول:

«احذر حافظاً - الشيرازي - أسير الصهباء، فإن كأسه سمّ الفناء، ليس في سوقه إلّا المدامة، ذلكم فقيه ملّة المدمنين، وإمام أمة المساكين، شاة علمت الغناء، فرّ من كأسه، فإن فيها لأهل الفطن خدراً كحشيش أصحاب الحسن».

ويقول أيضاً: «قال أحد الصوفية: صعد محمد النبي العربي إلى السموات العلّاء، ثم رجع إلى الأرض، فسماً برّبي: لو أني بلغت هذا المقام ما رجعت أبداً، والصوفي لا بدّ عائداً إلى عالما من مقام الشهود، ولكن عودته - ما دام يعتقد أنه حقّ غايته - لن تفيذ المجتمع شيئاً».

وقد حلّ إقبال بذلك مسألة التصوّف نهائياً، فجعله في القوّة لا في الضعف، وفي إنقاذ الحياة لا في الهروب من الحياة، وعلى المتصوّفة أن يبدأوا بأنفسهم

فُعيّدوا النظر إلى ما توهّموه من المعاني، وأمامهم القرآن محكم النصّ، واضح التبيان، ثم إني لا أدري لماذا يقتدي المسلم بغير رسول الله، وهو الأسوة الحسنة، والمثل الأعلى في رأي الإسلام، وفلسفته الحقّ والقوّة تلك التي ينتهجها إقبال؟!.

هذه ناحية شغلت دائرة النقاش وقتاً ما في فلسفة إقبال، وهناك ناحية أخرى لا تقلّ عنها خطراً ونتيجة: فقد جاهر الدكتور الصريح برأيه في الوطنية، وأعلن أنها دخيلة على مبادئ الإسلام إذ أن الإسلام كله وطن واحد، وأن الهندي أخ المغربي والفارسي والعربي والأفريقي والأوروبي، إذا جمعتهم عقيدة واحدة، وهي عقيدة الدين، فهي أقوى العقائد، ولن يقوم مقامها ما يصطنعه الناس من حدود جغرافية تسيطر عليها الجبال والصحاري والأنهار، أو تفرضها السياسة الغاشمة فرضاً، كما مرّقت بلاد الشام إلى أقطار مختلفة تمثّل: لبنان وسوريا وفلسطين!!.

والعجيب أن الذين عارضوا إقبال من دُعاة الغرب في رأيه الواضح، هم أنفسهم الذي حبّذوا قيام إسرائيل، وأجمعوا دون شقاق بينهم على ضرورة قيامها أجنبية دخيلة في موطن عربي متماسك!!.

وفرق بعيد بين قيام باكستان المسلمة، وقيام إسرائيل الصهيونية، يوجب ضرورة الأولى، وإعدام الثانية، فاليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار، ويذكرون من نصوص التلمود ما يؤيد سمّوهم واعتلاءهم على الناس، بل ما يدفعهم إلى إثارة البغضاء والكراهية في نفوس من عداهم من الأنعام، أما المسلمون: فدينهم دين الإخاء الشامل، والحرية التامة، والمساواة العادلة، وإن كتابهم الكريم ليقول في جلاء: ﴿يا أيّها الناس إنّنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾^(١)، وأن نبيهم العظيم يهتف: «الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى»، وقوم يدينون بهذه المبادئ المُنصفة كان الأحرى بالعقلاء أن يذهبوا في تأييدهم إلى الحدّ البعيد.

(١) سورة الحجرات: آية ١٣.

ولكن الاستعمار يخدعنا حين يعلن أن المدنية الحديثة ترى الفصل بين الدين والدولة! على حين أن دول أوروبا المسيحية تقوم على الصليبية ديناً، يظهر في أسماء أحزابها السياسية، فهذا الحزب الديمقراطي المسيحي في بلجيكا، وهذا حزب الأحرار المسيحيين في غيرها، وتستجيب بريطانيا إلى آراء الكنيسة، ثم تسألها الرأي فيما تريد أن تصدر من القانون!، وبعد ذلك كله يقولون للمسلمين: إن الدين شيء والسياسة شيء، ويتوهم من يسمونهم علماء الاجتماع والسياسة أنهم قادرون على تحطيم مبادئ الإسلام، حين يعلنون في خدعة: أن الدولة لا تقوم على أساس من الدين.

ولو كان إقبال رجلاً جبان الرأي لتقهقر أمام هذه السيول الجارفة من الادّعاءات، ولكن عظمته الجريئة دفعته إلى إعلان رأيه، وتفنيد أوهام خصومه، وإليكم بعض ما قال نقله عن كتاب الدكتور عزّام ص ٥٤:

«أنا لا أقبل الوطنية كما تعرفها أوروبا، وليس إنكاري إياها خوفاً من أن تضرّ بمصالح المسلمين في الهند، ولكني أنكرها لأنني أرى فيها بذور المادية الملحدة، وهي عندي أعظم خطراً على الإنسانية في عصرنا، لا ريب أن الوطنية لها مكانها وأثرها في حياة الإنسان الأخلاقية، ولكن العبرة بإيمان الإنسان وثقافته وسُننه التاريخية، هذه هي رأيي الأشياء التي تستحقّ أن يعيش لها الإنسان ويموت من أجلها، لا بقعة الأرض التي اتصلت بها روح الإنسان اتفاقاً».

ويقول في موضع آخر ص ٥٣:

«إن رينان الفيلسوف الفرنسي، يقول: «إن الإنسان ليس أسيراً للجنس والدين، ولا لمجاري الأنهار وسلاسل الجبال، ولكن كل جماعة كبيرة من البشر صحيحة العقل، حيّة القلب ينشأ فيها شعور يجمعها، تسمّى: أمة».

يعني أن الأمة لا تنشأ بالأقوام والأوطان، ولكن بالشعور الذي يربط أحادها».

ثم قال إقبال: «إن الفِرَق الاجتماعية والجماعات الدينية في الهند لا تقبل التفاوضي عن أشخاصها من أجل الوحدة الهندية حتى ينشأ لها هذا الشعور الذي ينشئ الأمة في رأي رينان فينبغي إذن ألا نلتمس اتحاد الهند في محو الفوارق بين الجماعات بل نلتمسه في الاعتراف باختلاف الجماعات، والعمل للتعاون بينها».

هذا منطق الدكتور في نشره، أما إعجازه في شعره: فقد بلغ أقصى مداه حين قال في هذا المجال:

«لَمَّا نزل طارق بالجزيرة الخضراء أمر بالسفن فأحرقت، فجاءه رجال من الجيش ولاموه على فعله، وقالوا له: لقد قطعت بنا الجبال، فكيف نرجع إلى أوطاننا؟ فوضع طارق يده على السيف، وقال: أنا لا أفكر في الرجوع، وسبقني في هذا المكان وتخذله وطناً، فإن كل ما كان لله من أرض وبلاد وطن لنا لا فرق في ذلك بين العجم والعرب والشرق والغرب».

ولكيلا يظن بعض السُدُج أن الدكتور «إقبال» بدع في رأيه، ننقل هنا عن علامة الشرق الأكبر ابن خلدون حديثه في المقدمة حين قرّر:

«إن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها، وإن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد في أهل العصبية، وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساو عندهم، وهم مستميتون عليه، وأهل الدولة التي هم طاليوها، وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل».

وما قرّره ابن خلدون: هو ما قرّره أساطين علم الاجتماع قبل أن يحتال الغرب على استعباد الشرق، وقبل أن تجمع الصليبية على تحطيم الإسلام بالدّهاء الخادع والثقافة المزوّرة، بعد أن عجزت عن تحطيمه بالسيف في الحروب الصليبية الفاشلة، ولولا نفر من أمثال إقبال: لاستطاع هؤلاء الدّهاة أن يقلبوا الحقائق ويشوّهوا الآراء...

لقد كان دفاع الدكتور عن الإسلام والمسلمين مدعاة نقاش ثالث، تطرق إليه من ينتقدونه، إذ يرون أدبه إسلامياً لا إنسانياً!!.

والمدهش حقاً: أن هؤلاء يخلعون سمة الأدب الإنساني على كل روائي متهتك، يتحدث عن الغريزة الهابطة، والنزوات المغرضة حديث المحبذ المبرر، ويزعمونه كشافاً للسرائر فضاحاً للالتواءات، وربما عدوه طبيباً اجتماعياً يشرح الأهواء ويفحص النفوس!، وهو بعد لم يزد عن خليع ماجن يقول ما تعرفه الساقطات، دون أن يجرأ أن يجرأ على التفوه به!! هذا هو الأدب الإنساني في منطق النقدة المُنصفين!.

ولو تجاوزنا هؤلاء قليلاً إلى فريق أقوم وأعقل وأسد وجدناهم أيضاً يضعون دانتى في مقدمة الشعراء الإنسانيين، مع أنه لم يخلد في الأدب إلا برائحته المجيدة: «الكوميديا الإلهية» وهي في لبابها رواية مسيحية كاثوليكية، توضح فكرة الثواب والعقاب لدى فريق معين من المتدينين، حتى لقد قال عنها بعض نقدة الغرب: إن رواية دانتى لا يستطيع أن يفهمها غير كاثوليكي فلورنسي، متعصب!!، ومع أن الشاعر الإيطالي يدور في هذا الفلك المحدود، فقسته إنسانية باعترااف الناقدين! أما إقبال فهو طائفي لا إنساني!!.

ولنا أن نقول من جهة ثانية: هل ما يتضمن الإسلام من هواتف الخير والحق والجمال، وما يدعو إليه من مبادئ الحرية والإنسانية والإخاء يخرج عن نطاق الأدب الإنساني، أم أنه يدعو إليه بأقوى ما تتحمل دعوة سماوية من ساطع الأدلة ورائع البراهين؟ مهما يكن من شيء لقد اضطر الدكتور إقبال أن يشرح وجهة نظره الصائبة حين قال ما نصّه نقلاً عن ترجمة الدكتور عزّام ص ١٧٣:

«حق أن الفلسفة والشعر ينبغي أن تكون لهما مقاصد إنسانية عامة، ولكن هذه المقاصد إذا أُريد تحقيقها في أعمال الحياة، لم يكن بُدّ من تحقيقها أول الأمر في جماعة بعينها لها مسلك معين، ومذهب مستقل، ولكن طرائقها في العمل تتسع بالدعوة والتبليغ إلى غير نهاية، وعندى أن هذه الجماعة هي الأمة

الإسلامية، فالإسلام عدو لعصبيات الألوان والأجناس وهي أصعب العقبات في سبيل اتحاد العالم، وقد خلط رينان حين ذكر أن الإسلام والعلم ضدان، والحقيقة: أن الإسلام وعصبيّة الأقاليم لا يجتمعان.

إن أكبر أعداء الإسلام بل الإنسانية: هذه العصبية فعلى مُجِبِّي الإنسانية أن يجاهدوا جهد طاقتهم هذه العصبية التي اخترعها إبليس، لا أنكر أن عصبيات القبائل والأمم نافعة إلى حين، في نشوء الحياة الاجتماعية وارتقائها، فلست أعترض على الاهتمام بهذه العصبيات من هذه الجهة، ولكن إذا عُدَّت القومية أعلى درجات الرقيّ الإنساني فهي عندي أكبر لعنة على الإنسانية، لا ريب أني أحب الإسلام وأهيم بحبه، ولكن أخطأ المستر دكسن: حين ظن أني خصّصت المسلمين بكلامي عصبية لوطن أو أمة، لم يكن لي وسيلة أخرى لتطبيق هذه الفلسفة، إذ رأيت الجماعة الإسلامية أكثر الجماعات ملاءمة لقصدي.

ثم إن الإسلام ليس من الضيق كما يتوهم دكسن فالتعليم الإسلامي لا يخصّ قبلاً دون قبيل، ولكن يقصد إلى أخوة البشر كافة، فهو يدعو الناس أجمعين إلى التعاون والتآخي، وأن يغفل في هذا السبيل ما بينهم من اختلاف جزئي، ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ (١).

تلك شذرات مما دافع به الدكتور عن رأيه، وقد يرى القارى أنا أسرفنا بعض الشيء في الاستشهاد بأقواله، وهو مما لم يكن منه بُدُّ، وإذا كنت أجهل الأوردية والفارسية فقد رجعت في هذه النصوص إلى ترجمات الأساتذة: مسعود الندوي بمجلة: «الرسالة»، وأبي الحسن الندوي في كتيبه عن «إقبال»، والدكتور عبد الوهاب عزّام في كتابه عن: «الشاعر» وهو المرجع الأول في لغة الضاد عن الرجل العظيم - طيّب الله ثراه - وحيا ذكره.

(١) سورة آل عمران: آية ٦٤.

المؤرّخ المجاهد رفيق العظم

- ١ -

قرأت ما استطعت قراءته من مؤلفات المغفور له الأستاذ: رفيق العظم، كما طالعت أكثر ما كتب عن تاريخ حياته الكريمة فوجدت خاطري يجيش جيشان الإعجاب والتقدير، ولم أشأ أن أتمهل في الحديث عنه حتى أهين العنصر، وأحلل الأحداث والوقائع، بل وجدتهني أندفع لتسجيل خواطري وتدوين آرائي كما تجيء دون ترتيب، وربّ مقالٍ مرتجل أوعى من مقالٍ متّدد.

إني أشبه أعلام الفكرة الإسلامية الذين سطعوا في أخريات القرن الماضي وأوائل هذا القرن، بمصاييح قليلة العدد في ليلٍ دامس الجوانب، آلت على نفسها أن تصارع الغياهب مهما عصفت الأنواء، وهاجت الرياح، حتى استطاعت أن تضيء طريقاً للمسير، متحملة كوارث الأعاصير وهبوب العواصف هكذا كان رفيق العظم وهكذا كان زملاؤه من المجاهدين.

نشأ رفيق العظم تحت سماء سوريا من بيت عريق المحتد، عظيم الجاه والثراء، فرأى النور في دمشق سنة ١٢٨٢ هـ وأحضر له والده من قام بتعليمه في المنزل، دون التحاق بأية مدرسة، حتى إذا عرف المبادئ الأولى، أتحت بكبار علماء عصره، لينهل من مواردهم الصافية، فأخذ عن الأساتذة: طاهر الجزائري،

وسليم البخاري، وتوفيق الأيوبي، ما غرس في نفسه حب الإسلام والإعجاب بمبادئه التشريعية، وتاريخ السلف من صدور الصحابة والتابعين.

وكان توجيهه العلمي على أيدي هؤلاء الثقات من أعلام الشام نائباً بالفتى الثري الواسع الجاه عن طبقة أمثاله من مُتَرْفِي عصور التفقه، مَمَّنَّ يحسبون الحياة لهواً ولعباً في أفياء نعمة وارفة الظلال، فشابر على الاطلاع وأجاد مع العربية لغة أوروبية هي: الفرنسية، كما حذق التركية حذق كتابة ومدارسة، وقد قال صديقه الأستاذ محمد رشيد رضا: إنه لم يقرأ كتاباً واسعاً في النحو أو البلاغة، بل اكتفى بالمبادئ الأولى، ليتصل مباشرة بالمأثور الرائع من أدب العرب في التراث الخالد، فاكسب فصاحة عزت على دارسي القواعد، وقد يكون في ذلك موضع العبرة لدى مَنْ يتخمون النشء بالمتون والشروح فلا يكادون يحصلون على طائل.

وشاب مثقف في مثل علمه وماله، لا بد أن يتصل بسياسة عصره وأحوال زمانه، وقد رأى من تضيق الأتراك على أبناء وطنه في الشام ما بكر به إلى الهجرة لوادي النيل، فأم مصر سنة ١٨٩٤، ليجد المجال فسيحاً لنشر آرائه في جرائدها اللامعة فبرز اسمه مُصلِحاً سياسياً على صفحات الأهرام والمؤيد واللواء، وسطع نجمه كاتباً مؤرخاً ومحققاً عالماً في صفحات الهلال والمقتطف والمنار.

وكان الشيخ: محمد عبده بين مَنْ سعد بمجالسهم من صفوة الأحرار، وعن طريقه تأثلت صداقته بكبار الكُتَّاب والزعماء في عصره، واعتنق الفكرة العثمانية في الدعوة السياسية، فأبلى بلاءً سديداً في رأب الصدع وجمع الكلمة، وبذل في سبيل ذلك ما بذل من الصحة والمال والوقت.

ولا بد من وقفة موجزة أمام جهاده السياسي، لنعرف عن أيّ قوس ينزع.

كان رفيق العظم مَمَّنَّ يرون في الخلافة العثمانية سبيلاً لرفي الإسلام ونهضة المسلمين، إذا تركت مساوئها الأنانية فرجعت عن حكم الفرد واستبداد السلطان، إلى حكم الشورى والخضوع للدستور، وأخذت بوسائل التقدم الحضاري: جيشاً وتعليماً وإصلاحاً، فأسس مع صاحب المنار جماعة الشورى العثمانية، لتقوم

بالدعوة إلى الخلافة المستنيرة المصلحة، وعمل على إنشاء فروع لها بأكثر البلدان الإسلامية ولكن السلطان في تركيا أساء بها الظنون، وعدّ دعوتها إلى الإصلاح السياسي مُناهضة لحكمه.

ثم رأى رفيق العظم أن يُحكّم صلته بجماعة الاتحاد والترقي التركية، منخدعاً بما أعلنوه من مبادئ الحرية والمساواة، حتى إذا كشف الزمن عن شعاراتها الزائفة جاهرها العظم بالنقد اللاذع، وأعلن تأليف الحزب اللامركزي داعياً إلى خدمة الدولة العثمانية والبلاد العربية عن طريق الإصلاح الداخلي لكل قطر، بأيدي نخبة صالحة من أبنائه المخلصين، يعملون على رفعته السياسية، وإدارة شؤونه المصلحية في ظل الخلافة، دون أن يكون الوالي التركي صاحب الأمر والنهي بلا معقّب.

وكان يرى أن مجاهرة الخلافة بالانشقاق عليها والتحرّش بها وهنّ في جسم الأمة الإسلامية، وهي كلها جسد واحد لا صلاح لعضوبه مع فساد عضو آخر، وقد كافح الرجل وجاهد، حتى لمس تغطرس الأتراك عن عناد، فعَلِمَ أنهم في وادٍ وأنه مع آماله وأحلامه في وادٍ بعيد.

ولم يشأ الرجل الغيور أن يتخلّى عن مبادئه دون مُجاهرة علنية تكشف معادن الناس، فوالى رسائله السياسية مُعلّنة خيبة آماله في النهضة عن طريق الكلمة الواحدة والرأي الجميع، ومع كثرة ما كتب في الصّحف اليومية من مقالات توضح وجهة نظره، فقد أصدر كتاباً خاصاً بنزاعه مع الأتراك، جعل عنوانه: (الجامعة العثمانية والعصبية التركية) وقف فيه موقف القاضي المُنصف لا المحامي المتحيّز، فذكر أن أسباب الاضطراب في الجامعة العثمانية يرجع إلى أمرين:

أولهما: الشعوب العثمانية.

وثانيهما: مسلك الاتحاديين بعد إعلان الدستور.

أما الشعوب العثمانية - في رأي الكاتب -: فقد خضعت لسوء الإدارة خضوعاً تفكّكت به عُرى الصلة القانونية بين الأمة والحكومة، لأن الشعوب تطالب

الحكومة بالإصلاح دون جدوى، حتى رأى أكثرها في الانفصال التأم معجزة النجاة وانتهزت الدول الاستعمارية هذا الخلاف المستحّر بين شعوب الخلافة، فأذكت الضّرام وأشعلت الوقود، وقد أدّى صوت الإصلاح المنبعث في كل قطر إلى سوء ظنّ لدى الأتراك، يشمل كلّ من ليس بتركي، فنشطت الجمعيات السريّة في الشرق والغرب!

وكان العرب أكثر الشعوب هدوءاً واعتدالاً، ولكن سوء الظن التركي جعلهم متّهمين بالتناوب والشقاق والدعوة إلى الانفصال.

وقد جاء مسلك الاتحاديين بعد إعلان الدستور مما يثير الدهشة والعجب، إذ كان الظن بهؤلاء وقد أعلنوا الدستور أن يجعلوا المساواة والحرية والإخاء نصيب الشعوب العثمانية جميعاً، ولكنهم قصرُوا هذه الحرية الدستورية على الأتراك وحدهم، وذهبوا يدعون إلى اتحاد العناصر، واتفاق العناصر وهي شعارات لا تجد الواقع العملي، وقد أفصح رفيق العظم عن كل ذلك في أسلوب يمتلئ بالمرارة والحسرة، تفيض به رسالته عن الجامعة العثمانية، ولنا أن نستشهد بمثل قوله ص ١٢٥ من مجموعة رسائله.

«والحقيقة التي لا ريب فيها أن الاتحاديين قد انفصلوا عن الأمة انفصالاً لا يرضاه لهم صديق للحرية، فأصبحوا في شقّ والأمة الإسلامية في شقّ آخر، منذ تظاهروا بالنعرة الجنسية وأعلنوا ما كانوا يضمرونه من الاستمساك بمبدأ سياسة التركي على العناصر العثمانية كلها، فنبهوا بذلك العصب الحساس من الشعوب العثمانية الذي كانت إفاقته نفحات «حرية، أخوة، مساواة» في مبدأ إعلان الدستور، فانفضّت القلوب من حولهم، وعادت روح الجنسية وروح الشّقاق ترفرفان على آفاق البلاد العثمانية من تخوم أوروبا إلى شطوط البحر الأحمر، فعمدوا إلى المناداة باتحاد العناصر، واتفاق العناصر، وكيف يكون الاتحاد وهم لا يريدونه؟، هذا الخطأ مع ما أضيف إليه من الأغلاط التي صدرت عن حزبهم، وأخصّها: استعمال سياسة العنف والشدة مع الشعوب العثمانية الأخرى كان السبب

الثاني لاضطراب حبل الجامعة العثمانية، إذ شعر هؤلاء بتبدل مسلك الاتحاديين تبدلاً غير منتظر من حزب يُعدّ حامي الحرية، ومقرّر سلطة القانون وهادم أركان الاستبداد، فأخذ سوء الظن يعود والثقة تتبدّد.

لا يدرك مرارة هذه الكلمات في حلق رفيق العظم إلّا مَنْ علم أن الرجل يضطر تحت سوط الواقع الأليم أن ينفض يده من قوم سلخ أطيب أوقات شبابه في الدفاع عن دولتهم، وقد كان صوته من أقوى الأصوات الأدبية التي دافعت عن الكيان السياسي للجامعة الإسلامية في مهبط الزعازع الأوروبية، يوم اندفع أعداء الإسلام من المستعمرين يصفون الجامعة الإسلامية ظلماً بالبربرية والوحشية، ويجعلونها أكبر خطر على المدنية لاصطباغها بالصبغة الدينية في زعمهم، متناسين أن أوروبا ظلّت تسوق جيوشها الصليبية إلى الشرق منقادة لصوت الكنيسة دون تعقّل، وأنها بعد انتهاء هذه الحرب آلت على نفسها ألاّ تستريح وللجامعة الإسلامية كيان، فانفقت روسيا وإنجلترا على حربها لا شيء سوى تقرب نابليون منها! كأنها مصدر الخطر لا فرنسا فهاجمتها في البر والبحر، ودمر الأسطول الإنجليزي كل السفن العثمانية في مضيق الدردنيل، بينما كانت روسيا تهاجم الجيوش العثمانية عند نهر الطونة.

وما زال الكفاح الصليبي يتآزر حول إضعاف الخلافة بشتّى أنواع التآزر، غير عابىء بما يصادفه من المناقضات السياسية والخلقية في تآزره، حتى آلت الجامعة العثمانية على يد طغيانه إلى ضعفها المشهود... ويجيء اليوم ليعدها مصدر التعصّب الخطر بعد أن أثخنها بالجراح!

لقد أبلى رفيق أحسن البلاء فيما كتب من دفاع! وترك رسائله لتشهد باليقظة والحذر، ولتعذره بعد أن أمر قومه أمره بمنعرج اللوى، فلم يستبينوا الرشد إلّا على صوت النذير.

قامت الحرب العالمية الأولى، وبدا من أعمال جمال باشا بالشام ما اشتهر وذاع من القتل والتشريد لأحرار العرب، فتأكد العظم أن لا نفع في تركيا، وودّع

اشتغاله بالسياسة العثمانية غضبان أسفاً، ولكنه لم يترك جهاده القلمي الذي صحبه منذ آنس من نفسه القدرة على الكتابة.

وإذا كان قد ترك من المؤلفات الاجتماعية والدينية والتاريخية ما يرجع إليه القارئ في سهولة ويسر، فإن آثاره النقدية المتفرقة في أنهار الصحف اليومية والمجلات الدورية طيلة ثلث قرن لجديرة أن نشير إليها في مجال الحديث عن فضله، لأن رفيق العظم كان من اليقظة الناقدة لكل ما يشم منه انتقاص لوجه الحقيقة، بحيث لم يكذب يسمح لنفسه أن يسكت عن لفظ يُقال.

ولم يكن ممن يتصدرون للنقد العلمي تباهياً بالمعرفة وإثباتاً للأستاذية، شأن من يحملون العصا في كل وقت ليشتهر مكانهم في الناس، ولكنه كان يصدر عن حبٍّ للحقيقة تدفعه غيرة مُفرطة على الحقائق التاريخية، وبخاصة ما يتعلّق منها بتاريخ العرب والإسلام.

فقد طرق سمعه أن محاضرة علمية أُلقيت بنادي المدارس العليا بالقاهرة، تحدّث فيها صاحبها عن التدوين في الإسلام حديث المنتقص، فبادر ليجمع بين السامعين شذوراً متفرقة مما قيل، ثم رأى بعد أن استقامت لديه المادة الكافية أن يُلقي محاضرة في الموضوع نفسه وفي المكان نفسه، لتكون بمثابة ردٍّ هادم لما بلغه من التنقيص المُغرض، فاستأذن أصحاب المكان ليقولها مجلجلة رنانة، وكانت مكانته العلمية والسياسية مما تلزم القوم إجابة مطلبه، فاحتشد السامعون ليعلموا ما يجهلون.

فبدأ العظم حديثه في أدب خلقي متواضع، ولم يشأ أن تكون كلمته تنازلاً وهجوماً، بل جعلها موضوعاً مستقلاً ينتقض آراء سابقة دون أن يذكر حتى اسمه.

وقد نشرت المنار محاضراته التي تفنّد الرأي القائل: «بأن المسلمين لم يدوّنوا العلوم إلّا في القرنين الثاني والثالث، لذلك كانت الرواية الممتدة قرابة قرنين عُرضةً للتحريف والتبديل، مما يجعل تاريخ الحقبة الأولى غير موثق لدى الباحثين».

وقد قال العظم: إن هذا الزعم مردود من وجهين:

أولهما: ما عُرِفَ عن العرب من إتقان الحفظ والرواية.

وثانيهما: ثبوت التدوين وكتابة الأخبار في الإسلام من أول القرن الأول

لعهد صاحب الرسالة.

وإذا كان الوجه الأول يكاد يكون مسلماً، فقد أوجز المُحاضر الحديث عنه ليفيض في الوجه الثاني، فيثبت أن القول بأن العرب أمة أمّية ليس بصحيح على إطلاقه، لأنه إذا انطبق على سكان البادية لا يشمل سكان المدن في اليمن ونجد والحجاز والعراق وأطراف الشام.

فالمناذرة والغساسنة والتدمريين والتبابعة كلهم ذوو كتابة معروفة الآثار، وعرب الحجاز كان لديهم مَنْ يقوم بالكتابة تارة بالخط الحيري وتارةً بالخط العبري، ومَنْ كتب بهما ورقة بن نوفل، وكتابة صحيفة الحقوق في حزب الفضول بالجاهلية تشهد لذلك.

وكان للرسول كتابه، بل إنه أمر بافتداء الأسرى الكاتبين في بدر إذا علّم كل كاتب نفرًا من المسلمين.

ومن يومها والكتابة تتسع وتستفيض حتى استطاع القائمون بها حفظ الأخبار والرسائل والوثائق.

ثم أفاض المحاضر في أمثال ذلك مستعرضاً لحقائق جوهرية ينقصها التحقيق.

وكان في المجال النقدي متسامحاً يميل إلى القول بالتي هي أحسن، وأذكر للتمثيل على ذلك نقده لكتاب تاريخ التمدّن الإسلامي لجورجي زيدان، إذ وفّاه حقّه دون أن يسكت عن مأخذه.

ومما أشار إليه منها اعتماده على الأحاديث الضعيفة دون نظر إلى حقيقة الإسناد. ملتمساً له العذر بأنه بعيد عن كتب الحديث فلا يرجع لغير صحف

التاريخ، وهو عذر لا يكاد ينهض لأن المؤرخ محقق لا جامع أخبار، كما أخذ عليه إكثاره من جمع مثالب الأمويين، وهم في رأي العظم ذوو مآثر جديرة بالتسجيل، وقد رجع الناقد باللائمة على مَنْ أفاضوا في ثلب القوم لاعتبارات سياسية، كما ألم المؤلف وأوجعه حين ذكر أن آراءه الأموية مهّدت للظن بأنه شعوبي، فقد أطرى الدولة العباسية لمنزلة الأعاجم منها، ذاهباً إلى أن رقيها العلمي والمدني يرجع إلى غير العرب.

وما زال العظم يواصل النقد النزيه، حتى في آخر فترة من حياته، حين تكالبت عليه الأسقام والعِلَل، وكان في شدّتها الطاحنة ما يلزمه الهدوء والراحة، ولكنه تحامل على قوّته الواهنة، ليدفع ما يشوب بعض المقالات المغرضة لعهد من ريب.

وآخر ما كتبه في ذلك ما سجّلته جريدة السياسة اليومية من ردّ حاسم على الدكتور طه حسين، في بحوثه الأدبية التي جمعها في الجزء الثاني من حديث الأربعاء، حيث ذهب إلى أن العصر العباسي بأجمعه كان عصر لهو ومجون، متخذاً من وجود أمثال أبي نواس وبشار ومطيع ووالبة، دليلاً على شيوع هذا المجون، ومعتمداً على ما اشتهر في كتاب الأغاني من روايات الخلاعة المنسوبة للخلفاء والشعراء.

فرّد عليه العظم بأن روايات الأغاني لا تقابل بالتسليم، وأنها كأخبار التاريخ تشبه الدرّ المُلقي بين الأشواك، يحتاج مُريد استخراجها إلى أناة ورؤية ونظر في وجه السلامة من أذى الشوك، وقد قابلها أمثال ابن خلدون بالنقد النزيه، كما وضعت القصص الأدبية لبواعث سياسية أو تجارية، ثم غالى بعض الأخباريين في إيراد أخبار المجنون والتهتك والانغماس في الشهوات مُغالاة تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق، وهو ردّ حاسم نقله الدكتور طه حسين في كتابه ليردّ عليه بكلام مسهب مستفيض لا تعرف له رأساً من ذيل.

وأنا لا أدري كيف يكون ما ذكره صاحب الأغاني من شعر الجاهليين متحلاً
لدى الدكتور، ثم تكون أخبار المجالس وطُرف النوادر في العصر العباسي بكتاب
الأغاني صدقاً كل الصدق، ودليلاً على انحلال العصر بجميع من فيه؟

وإذا جاز لظه حسين أن يجعل من أبي نواس وبشار دليلاً على انحلال
العصر، فلماذا لا يجعل من الشافعي وأبي حنيفة وابن حنبل والأوزاعي دليلاً على
أن الحياة العباسية لم تكن كلها مُجَوَّناً، ولم تكن كلها جُداً، وإنما كانت بين
شأن الناس جميعاً في مختلف الأزمان.

- ٢ -

تاريخ الإصلاح الاجتماعي المعاصر في حاجة إلى مؤرخ مُنصف، لأن أكثر
الذين حاولوا الحديث عنه قد صَوَّبوا نظراتهم إلى رجال التيار الغربي من كتاب
الاجتماع، وتحيفوا تلاميذ الإمام محمد عبده ممن نادوا بالإصلاح الاجتماعي عن
طريق التربية الدينية القويمة.

وكان الأستاذ رفيق العظم من أبرز هؤلاء المُصلِّحين مكانة، ومن أكثرهم
حديثاً عن علل المجتمع الإسلامي لعصره، وعمّا يراه من الدواء الحاسم لأدواء
الناس، وقد أصدر في هذا المضمار كتاباً ثلاثة تحفل بناصيح آرائه، وناجع دوائه،
وهي وفق ترتيب صدورها التاريخي:

١ - السوانح الفكرية في المباحث العلمية.

٢ - تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية في الإسلام.

٣ - الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية.

وروح ابن خلدون تسيطر سيطرة تامة على أسلوبها تعبيراً وتفكيراً، ولعل من
حظَّ كتاب الاجتماع الإسلامي في هذه الحقبة أن تسيطر عليهم جميعاً روح
المقدمة الخلدونية، حيث أورشتهم الكثير من دسامة الفكرة، وشمول النظرة،
وهدتهم إلى الانتفاع بما سجّله الباحثون من وسائل علم الاجتماع، فأضحى

الحديث الإصلاحي عند هؤلاء لا يقتصر على النصائح الجافّة والإرشادات المبتورة، والنصوص المقتضبة، بل يسير في نطاق كلي يتآزر فيه العلم السديد، والنظر الثاقب، والتعبير القوي، لينتج عن ذلك كله حديث يقرأه المؤيّد والمُعارض معاً، قراءة من يحترم وجهة النظر المعروضة مهما اختلف مع قائلها في بعض ما يهتدي إليه من آراء!.

بدأ العظم كتاب السوانح الفكرية بحديث عن المدنية ودواعيها، فأكد مدنيّة الإنسان بطبعه، حين تحدّث عن نشأة الحياة الاجتماعية بما لا يخرج عمّا اهتدى إليه علماء الاجتماع، ولسنا نرميه في ذلك بالترديد لما اشتهر، بل ننصّ مغتبطين على سبقه في تدوين هذه الآراء، لأن علم الاجتماع حينئذٍ كان لا يجد من كُتاب العرب من يفسح الصّحف لترجمته، ومناقشته في مختلف أدواره التاريخية منذ خطّ ابن خلدون الصحيفة الأولى في سفره، حتى ازدهر على أيدي المفكّرين في أوروبا.

وقد مهّد العظم بهذا الباب ليتحدّث عن مدنيّة الشرق مكذباً من يدّعي أن الغرب مهد التمدّن، ومتّخذاً من آثار المصريين والفينيقيين والمعنيين والأشوريين ما يثبت قيام مدنيّة مزدهرة عبر الزمن البعيد.

ومن العجيب أن تكون هذه الحضارات التاريخية موضع جدل لدى نفر يزعمون أن الحضارة الإنسانية تبتدىء من اليونان فالرومان.

وكأنني بالعظم حين أفاض في ذلك يريد أن يقول للشرقيين: لا تغتروا بتخلّفكم اليوم، فقد تصلون إلى ماضيكم المزدهر عن قريب.

ثم تحدّث عن الحروب الكونية حديث الناقم الساخط، ردّاً بذلك على ما خطّه بعض الكاتبيين من مزايا الحروب في إنهاض العلوم واتّساع المعارف، وهو هراء يقوله من يعمي عينه عن مشاهد الدمار وسيول الدماء وأنقاض الآلاف من المنازل الخربة، ليدفع الناس إلى جهنم لا تكاد تُبقي ولا تذر.

وإذا كانت الحروب الحاضرة وليدة المدنية الغربية فما أتعس وأبأس.

ثم انتقل إلى الحديث عن التريبتين الحسّية والمعنوية، ليؤكد نصيب العرب من هذه التربية، إذ ماثلوا اليونان في الإعداد الجسمي حين مرّنوا أولادهم على الرماية وركوب الخيل واللعب بالرّماح والسيوف، كما ماثلوا أعرق الأمم على العناية بثقافة العقل، ورقّي المعارف، وقد يكون ما كتبه في ذلك أقرب إلى التاريخ منه إلى الاجتماع.

كما أن حديثه عن الأخلاق يتّجه وجهة تهذيبية فاضلة، فقد تحدّث عن تغيّر الخلق، وانتهى إلى جواز هذا التغيّر، إذ أن طبائع البشر تخضع إلى الصقل والتهذيب، ولولا ذلك ما افرق إنسان الغابة عن إنسان المدنية، مؤكّداً أن المقصود من تغيّر الأخلاق هو ردها إلى حدّ الاعتدال، وهو وسط بين الإفراط والتفريط، عن طريق المجاهدة الخلقية بالتأديب والتهذيب.

وهذا الباب وما يليه يهدفان إلى الارتفاع بالخلق الشرقي إلى المستوى الأمثل، ونمرّ سريعاً على حديثه في السوانح عن الشعر والشعراء والصائب من القول لأنه من الشائع المعروف، وقد ساقه المؤلّف ليدفع أبناء عصره إلى الثقافة الأدبية الخالصة في عهد سيطرت فيه الألاعيب اللفظية والمحسنات المتكلّفة سيطرة جعلت البيان معارض أسجاع، ومسارح طباق وجناس.

وأهم موضوع أخذ على المؤلّف منافذ تفكيره: هو موضوع التّفرنج الذي كان علّة العِلل الوبيّة في صدر هذا القرن، إذ راع المؤلّف أن يجد شباب المسلمين آخذين بالتّفرنج، لا في مظاهره الراقية من الإقبال على الفنون والمعارف، بل بخصاله الذميمة من الخلاعة وإطراح الحياء، والتباهي بالألفاظ الأعجمية، تلكاً لوكاً قبيحاً دون محصول ثقافي، وقد دَوّن المؤلّف ملاحظاته الشخصية في مثل قوله:

«وأشدّ من ذلك جهلاً وغباهة أن أحدهم إذا كان ليس له إمام أصلاً بلغة من اللغات الأفرنجية، يكفي بتعلّم مثل «برضون» «مرسيه» «بريفكس»؛ ويظن أن من ينطق بمثل هذه الألفاظ يكون متمدناً رقيق الطبع، أما إذا كان مُلمّاً بإحدى اللغات

الأوروبية، فإنه لا يكاد ينطق بحرف واحد من لغته، ولا يعاشر أحداً من أبناء جنسه إلا بالتكلف أو الضرورة.

وأعجب من ذلك أنك إذا أردت نصح أحد هؤلاء المتفرنجين، فقلت له: إن التفرنج لا يكون بترديد الألفاظ الأفرنجية فحسب، بل بانصراف الهمم إلى تحصيل العلوم والمعارف والصناعات التي تجلب الثروة، وتحث على الاختراع العلمي والاكتشاف الطبي، قال لك: وكيف نصل إلى ذلك معشر الشرقيين ولسنا من الأوروبيين؟ ناسياً أن أوروبا قد نقلت عنا أصول حضارتها العلمية والمادية!.

وقد طال حديث المؤلف عن وباء هذا التفرنج بما نعدّه اليوم من قبيل تحصيل الحاصل، ولكنه كان لعهد دفاعاً مجيداً وتوجيهاً ذا مهارة وسداد.

أما كتاب «تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية في الإسلام» فصرخة عالية لإيقاظ النائمين في كهوفهم المظلمة، وكان في أصوله الأولى بضع مقالات نشرها رفيق العظم في مجلة الموسوعات عقب انتقاله إلى مصر، ثم أضاف إليها أشباهها وجمعها في كتاب برأسه صدر في سنة ١٩٠٠، مفتتحاً بحديث يقرب من افتتاح «السوانح الفكرية»، إذ تحدث عن أدوار المدنية الإنسانية ليصل إلى أن ترقى الأحوال المعيشية يزيد من تبعات الحياة ومسؤولياتها، حتى أصبح الشقاء الأدمي يزيد لدى الناس بازدياد الرخاء الحضاري. وإذا كان الشرق يشكو من الفقر، فقد ألمّ الكاتب بمذاهب الأوروبيين الاقتصادية ليثبت أن الإسلام قد سبق هذه المذاهب جميعها حين دعا إلى التكافل الاجتماعي، وحين فرض الزكاة ونادى بالبر والمعروف داعياً إلى العمل سعياً وراء الرزق، ومستشهداً بما يشفي الغلة من النصوص الدينية وأحداث التاريخ.

وقد أطال المؤلف تفكيره في واقع عصره، فعجّب أشدّ العجب للفهم الخاطيء للإسلام لدى الكثرة الكاثرة من المسلمين إذ حسبوه زهداً واتكالياً واستكانةً، وما هو بشيء من ذلك، فجعل يشرح النصوص الهادفة، ويأخذ من وقائع الصدر الأول في الإسلام ما يدلّ على حرية المسلم ومدنيته واستقلاله، وكأنه

رأى إعجاب القراء بكل ما هو أوروبي، فنقل سطوراً عن كتاب (تذكارات العالم الإسلامي) للكاتب الفرنسي شارل ميسمر، تثبت أن الإسلام قد أفاد البشرية أكبر فائدة بما أسلف من حضارة وأعلى من قيم لم يصل إليها المجتمع الأوروبي في ذروة حضارته، إذ أن تقدّمه الراهن قد أغفل التربية الروحية، بينما كانت هذه التربية العزيزة في الإسلام درءاً يدفع التسفل ويغلّ الشهوات.

وقد أكد العظم أن أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس ليصبح بقارئه زاجراً عن التكاثر والقنوط من خير الأرض ورزق السماء، مؤكداً أن الرضا بالحرمان تعطيل لوظائف الحياة وشلل لأكبر مظاهر الإنسانية الحيّة ذات السعي والإنتاج، ومتطلّماً كدأبه - في كل كتاباته - إلى ما أحدثه الإسلام من انقلاب عمراني في مدى قرن واحد، بحيث أثمر للإنسانية ما عجزت عن إثماره حضارة اليوم.

وقارئ كتاب التنبيه يقف على حملة واسعة شنها المؤلف على علماء الإسلام منذ أفتوا بحُرمة الاجتهاد، ودفعوا بالعقل إلى التحجّر والتعبد بآثار السلف دون مناقشة ونقد، ثم تسامحوا مع الأمراء، فحبّ كثير منهم في ركاب الأنانية والتسلّط، وخدّروا العامة بما شوّهوه من معاني الشريعة ونصوص الكتاب طمعاً في المنصب والثراء، وكأنه أحسن لائماً يلومه على هذا الغضب الناقم على المتصدّرين من المقلّدين، فذكر أنه يقتدي بالقرآن الكريم في تقرّيع الجاهلين، وأن في بيان هذه النقائص استنهاضاً للهيم ودفعاً للعزائم، حتى يخلع المسلمون عنهم زير الدلّة والاستعباد!

وكلام العظم في ذلك شبيه بما ذكره عبد الرحمن الكواكبي في مقالاته النارية، لأن الفهم الصحيح للإسلام جعل كتاب الفكرة الإسلامية ينزعون عن قوس واحدة فلا يكادون يختلفون.

وقد تابع المؤلف حملاته على الجامدين من العلماء في ثلاثة فصول متتالية، فتارة ينعي عليهم سوء فهمهم للدين، وانتحاءهم طريقة الحشو والاستطراد في

التأليف، حتى تشعبت بقرائهم السُّبل فضلّوا، وتارة يأسى من سكوتهم عن البدع والخرافات، وتعبدهم لأقوال السابقين من أمثالهم دون مناقشة وكأن قُصاراهم الإذعان والتسليم، أما اشتغالهم بمسائل الخلاف دون أبواب الائتلاف فمما طفق به الكيل، إذ جعلوا الناس شيعاً وأقساماً، مُهملين وظيفتهم الأولى وهي الأخذ على أيدي الفَجْرة من الظالمين، وقد أتبع ذلك كله برسم طريقة الإصلاح العلمي، إذ أوجب على أئمة الدين الخروج السريع من دائرة التقليد، وكرّر دعوته إلى الاجتهاد.

وكان متواضعاً في آماله حين ناشد القوم أن يوسعوا دائرة النظر، إذا استراحوا من الاجتهاد واطمأنوا إلى مذهب فقهي لا مَحيد عنه، وشدّد النكير على وُعَاطِ العامة من أرباب القصص الخرافية والأحاديث الموضوعة.

وفي رأيي أن رفيق العظم في نقده الجامدين من علماء الدين كان يتأثر لا شعورياً بما قام به بعض علماء الأزهر، ومَن حذا حذوهم من علماء الشام من هجاء جمال الدين الأفغاني، ومناوأة الأستاذ محمد عبده مناوأة جاهرة متعديّة، حتى توسّع الشيخ يوسف النبهاني - رحمه الله - وكان قاضياً كبيراً ببيروت - فنقل الهجاء من النثر إلى الشعر، ووالى قصائده اللاذعة في تجريح أئمة الإسلام، والله يعفو عن كثير.

وننتقل إلى كتاب «الدروس الحكيمة للناشئة الإسلامية» وقد قال عنه السيد محمد رشيد رضا: إنه حاز إعجاب الأستاذ الإمام، فقرّر تدريسه على الناشئة من تلاميذ المدارس الخيرية الإسلامية التي كانت تحت رعايته العلمية.

والكتاب ذو أسلوب قوي رصين، وقد استطاع الناشئة أن يهضموا أفكاره القوية على طراوة العقل في دور التعليم الابتدائي والإعدادي، مما أعجب له حين أقيس تلاميذ اليوم في هذا العقد بسابقيهم من تلاميذ العقد الأول من هذا القرن، فأرى أن أبناء اليوم لا ينهضون تمام النهوض بقراءة مقرراتهم الدينية مع سهولة المادة، ويُسَرُّ التناول، واستخدام الأسلوب القصصي في تقديم المعاني الدينية

والخلقية، ثم إتباع ذلك بالأسئلة الكاشفة والأجوبة الهادفة، مع شكل الكلمات وتضخيم الحروف! .

أتكون وسائل التربية الحديثة قد ضعفت عن تأدية رسالتها الآن على وجهها المقبول؟ أم نكون نحن قد ركنا إلى التسلية القصصية فراراً من عبء الإرشاد القوي، وهروباً من الدسم المفيد!! .

لقد بدأ رفيق العظم كتابه المدرسي بذكر الهدف من تأليفه فقال فيما قال :

«رأيت أن الدواء لداء المسلمين إنما هو محصور في التربية على أصول الفضائل الإسلامية التي أهمها استقلال العقل والإرادة، وتوحيد الكلمة على مبادئ الشريعة التي تضمّ ما تفرّق من شمل المسلمين، وتحيي ما اندثر من معالم اليقين، وقد اخترت في الحصول على الدواء لداء التفهقر طريق الدين، لأن به قام المجد الإسلامي ومدنيته، وعليه تأسست دعائم الدول العظيمة في الإسلام، وتبسّطت الأمة الإسلامية في مناحي العمران، فضعفها وقوتها يكونان بنسبة ضعف الدين وقوته، بخلاف الأمم الأخرى التي قامت من جهة غير جهة الدين» .

كما ذكر المؤلف أنه بدأ بإلقاء هذه الدروس وأمثالها على طلبة السنة الرابعة من المدرسة العثمانية بمصر حين أنيطت به إدارة شؤونها، وهي ناحية تربوية تمثّل بعض الجوانب العلمية المجهولة من حياة الرجل الكبير، وروح علم الاجتماع تغمر الفصول الأولى من الدروس .

وقد استطاع الكاتب أو المعلم تذليل الحقائق الكبيرة في صيغ هادئة هادفة، فصدر عن براعة قوية حين تحدّث عن قيمة المدنية ومكانة العقل، والإنسان الكامل، ليصل من ذلك إلى حاجة البشر الضرورية إلى الدين، مؤكّداً ما يعتنقه من أن الدين الإسلامي هو الجامعة الكبرى للمسلمين، ودراسته من أوجب الواجبات وألزم الضروريات، وقد اعتاد أن يُتبع كل عنوان من عناوين هذه الدروس بآية قرآنية تحدّد مجرى المعاني في الفصل المكتوب، بحيث يصير هذا الفصل تفسيراً

استشفافياً لما توحىه الآية الكريمة من معانٍ. فهو - مثلاً - يتبع درس «الحكومات والإسلام» بقول الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم﴾^(١)، ويتبع درس «الحرية والمساواة» بقول الله عز وجل: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾^(٢).

ثم يوازن في درس خاص بين الحرية الإسلامية والحرية الغربية، مُستهدياً بقول الله: ﴿هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾^(٣)، ومتخذاً من أمثلة التاريخ الإسلامي والتاريخ الأوروبي ما يعرض للقارئ مباحج النور في تاريخ وحوالك الظلمة في تاريخ، خاتماً حديثه بقوله: «اللهم إن حرية كحرية الغربيين الآن، يفرق فيها بين الشرقي والغربي، والمسلم والنصراني، بل والبروتستانت والكاثوليك، والحق فيها للقوي، يسحق بقوته الضعيف، لحرية حرية بالنبد والاستهجان، لأنها استعباد تأباه الإنسانية والإنسان، ولا ينطبق على قانون الحرية في كل عصر وزمان».

والدروس كلها إيقاظ مجلّل بمعانيه وأهدافه لا بألفاظه وإيقاعه، ومن أجمل ما فيها هذه الموضوعات الإنسانية التي تهدف إلى الإيثار وحبّ الناس، والإخلاص للوطن، والتذكير بأعجاز السلف، والاعتماد على النفس، وهي موضوعات لا تبلى جذتها بتقادم الأجيال، لأنها موضوعات الإنسان في كل زمان ومكان!

- ٣ -

يرى الأستاذ رفيق العظم أن الإسلام قد وجد تطبيقه العملي في الفترة الأولى من حياته، إذ كانت سيرة الرسول الأعظم، وتاريخ الخلفاء الراشدين الأربعة، مما يعطي النموذج الفريد للسياسة الإنسانية حرية رأي، وصلاح معتقد، واعتدال سلوك، لذلك جعل من وكده أن يكتب تاريخ هذه الفترة الحرّة من حياة الإنسانية

(١) سورة النساء: الآية ١٣٥.

(٢) سورة الحجرات: آية ١٣.

(٣) سورة الرعد: آية ١٦.

جمعاء كتابةً تقدّم الدليل الناطق على عظمة الرسالة الإسلامية، وصلاح الشريعة القرآنية.

أما سيرة الرسول فقد أوجزها في كتابه المعروف «تاريخ السياسة الإسلامية» وهو بين مجموعة مؤلفاته ورسائله التي أصدرتها مطبعة المنار عقب انتقاله إلى جوار ربّه في ٣٠ يونية سنة ١٩٢٥ م (٩ من ذي الحجة سنة ١٣٤٣ هـ).

وأما سيرة علي فقد تركت مخطوطة في الصفحات المبعثرة على مكتبه، حيث أعجله الداء العضال في الفترة الأخيرة من حياته عن أن يهيئها للنشر، وبقيت بعد ذلك سيرة الأعلام من أبطال الفترة اللامعة في عهد أبي بكر وعمر وعثمان، وهي التي انتظمت كتابه الدائع الصّيت، الخالد الأثر: «أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة» بأجزائه الأربعة، ذات الأسلوب السّلس السهل والنفع المحقّق الأكيد.

وإذا كانت كتابة التاريخ الإسلامي قد تعرّضت في القديم لخطر الجمع الحاشد لشتى الروايات المختلفة بين صحيحه وزائفه، كما تعرّضت في الحديث لحذقة بعض متكلفي التحليل البعيد ممّن يريدون إبراز مواهبهم العلمية، وملكاتهم التحليلية، فيغرقون القارئ في طوفان من القول يذهب به بعيداً بعيداً عن قطف الثمار الدانية من أقرب طريق، فإن كتابة الأستاذ رفيق العظم التاريخية قد كانت بمنأى عن هذين الخطرين، إذ نخل الأستاذ روايات السابقين نخلاً جيداً، ليختار منها الصواب في منطق العقل، وليقدّمه ناصع العبارة في سلاسة ميسرة، تمضي حلقاتها الذهبية في سلسلة متماسكة تسلم الألف منها إلى الباء، حتى تصل إلى النهاية في دقّة وإيضاح، كما أنه قام بالتحليل الهادف والتعليل الكاشف دون مبالاة بعظمة فكرية، أو موهبة تحليلية.

وإذا كان يكتب تاريخه هذا لهدف واضح في نفسه، ساطع أمام عينه، وهو تقديم النموذج الرائع للحرية الإنسانية في أزهى فتراتها اللامعة، فقد اضطره هذا الهدف إلى الموازنة بين الماضي البعيد السّارّ، والحاضر المشاهد المؤلم في كل

مناسبة تتيح ذلك، حتى بُعد به الاستطراد بعض الشيء، وقد يظن أدعياء التأليف المنهجي أن هذا المسلك التألفي بعض ما يؤخذ عليه، حيث يلتزمون بإطار معين لا يُجيزون لأنفسهم أن يخرجوا عنه، وقد فاتهم مرمى المؤلف من كتابه، إذ أنه رجل إصلاح تمثّل في ذهنه وارسم في نفسه، ووجد تطبيقه المشاهد في إحدى حقب التاريخ، فرأى أن يخدم حركة الإصلاح الإنسانية - ولا أقول الإسلامية فحسب - بتقديم أنموذج فريد لهذا الإصلاح المثالي الذي احتضن الواقع في إحدى الفترات، وكان واقع الشرق العربي من الانحدار والسقوط، بحيث دفع الكاتب إلى إشعال بعض المصاييح التاريخية لتضيء.

لقد أخذ الكاتب على أسلافه من المؤرخين تدوين التاريخ الإسلامي في صورة تهمل الجانب الخلقي من تعاليم الإسلام، وتعرض في سلسلة مواقع حرية تسيل فيها الدماء لا عن هدف، حتى ليظن الجاهل والعدو أن الأمة الإسلامية إنما وُجدت لإزعاج العالم بالحرب والقتال، فشوّشوا الحقائق الخلقية بما أهملوه في أخبار الفتوح الإسلامية من مواقف العدالة والحرية والمساواة، ولو عُني المؤرخون بإيضاح المسلك الخلقي إيضاحاً مكتمل الجوانب متّصل الحلقات، لكان عهد الخلافة الراشدة منوالاً تنسج عليه الحضارة الإنسانية، ومثبهاً يحركنا الآن إلى استرجاع ما فات. وقد قال المؤلف عن نفسه بهذا الصدد ص ٤٠٣:

«أخذت على نفسي ألا أغفل في هذا الكتاب خبراً يمرّ على القارئ من الأخبار التاريخية المهمة ما لم أردفه ببيان مفيد، لا سيما فيما يرجع للأخلاق ويصوّر الفضائل والردائل، ويفرق بين السعادة والشقاء».

كما أنّحي باللائمة على من يحرمون الخوض في تاريخ الصحابة، ويعلّل ذلك تعليلاً سياسياً، كان أول من اهتدى إليه فيما أعلم من كتاب التاريخ الإسلامي، إذ يقول في حرارة وإيمان ص ٧٧٢:

«اعلم أن أخبار الصحابة إنما حرم بعضهم الخوض فيها لأنها أخبار قوم ملئت صدورهم بالحياة، ونفوسهم بالعزة، وهم بالضرورة قدوة الأمة، والمُنادون

منذ نشأت الدولة بصوت العدل والحرية والحق، فوقوف الناس على أخبارهم والأخذ والردّ فيما حدث بينهم يُحيي في القلوب روح الحرية، ويبعث على استظهار عامة الناس للحجة التي يصادمون بها آلات الاستبداد من الخلفاء والملوك الذين حوّلوا الخلافة إلى الملك العضوض، وأمعنوا في التمكن من رقاب الناس لهذا، ولمّا كثر خوض الناس في أخبار الصحابة أرادوا إلهاءهم عنها بحجة حُرمة الخوض فيها، فأوعزوا إلى الوُضّاع والقصاصين بوضع أخبار المغازي وقصة عترة وأشباهها، ليتلّهي بها العامة عن التاريخ الصحيح الذي يبعث في النفوس روح الجرأة على قول الحق، والتشبه بسلف الأمة ورجالها، ورافعي دعامة دولتها في مناهضة أرباب العتو والجبروت، ومحبي الاستبداد وآلهة الملك، وهذا ما أراه في هذا الباب والله أعلم بالصواب».

وإذا كانت كتابة التاريخ تسير اليوم في ظلال المناهج الاقتصادية أو الاجتماعية أو الجغرافية، فلماذا لا يكتب التاريخ الإسلامي في ضوء المنهج الخلقي للإسلام؟ وكيف يُعاب على العظم التزام وجهة نظر معينة يفسّر بها أحداث التاريخ في عصر كثرت فيه المناهج التفسيرية في تأريخ الماضي وتعليقه، وفق ما يتّجه إليه الباحث من نظريات؟

أ يكون التزام الكاتب الإسلامي بوجهة نظر واضحة موضع نقد لدى مَنْ يقدّسون التزام المناهج الخاصّة إذا التزم بها كاتب أوروبي يُجحف، لا مؤرّخ عربي ينصف كصاحب أشهر مشاهير الإسلام؟

وسيلنا الآن أن نعرض بعض النماذج الخلقية التي اهتمّ بها الأستاذ، وسلط عليها مزيداً من الضوء، لتكون حافز الأمة الإسلامية إلى النهوض والتوّب، والمناداة بكرامة الإنسان وحرية الإخاء.

١ - كان جند الأعاجم من الفرس والروم إذا انتصروا على عدوّ، أو استباحوا حمى ملك أو أمير، يحملون رؤوس البشر إلى سُدّة ملوكهم كبشائر للنصر، فرأى بعض أمراء المسلمين أن يفعل ذلك، فبعث عمرو بن العاص برأس بنان أحد

بطارقة الشام مع عقبة بن عامر، فلما قَدِمَ بهما أنكر ذلك أبو بكر فقال له عقبة: يا خليفة رسول الله: فإنهم يصنعون ذلك بنا فقال أبو بكر: أفتسلكان سبيل الروم وفارس؟ لا يحمل إليَّ رأس بعد الآن.

قال العظم تعقياً على هذا الخبر ص ٨٣:

«اللَّهُمَّ ليست المدنية بالزخارف التي يتحلَّى بها الغربيون، ومن ورائها الشهوات تهدم ما يبنون، وتضع ما يرفعون، يحشرون إلى العُزَلِ مِثَاتٍ من البشر، ويسدّون عليهم فوهة الطريق بالحطب، ثم يُوقِدُونَ النار لِيُؤْمِتُوهُمْ خَنْقاً بدخانها، كما صنع الفرنسيون بمسلمي الجزائر، أو يصفّون الناس صفّاً، ثم ينسفونهم بقذائف البارود نسفاً، كما صنع الإنجليز بشوّار الهند، وإنما ما سنتت لعبادك في كتابك - يريد القرآن - وما فطرت عليه من الرحمة نفوس أوليائك - يريد أمثال أبي بكر -.

٢ - حين فرغ أبو سبرة من السوس، ونزل بمن معه بجندي سابور، وحاصر القوم مدة، وجد الأبواب تفتح فجأة، والناس يخرجون إلى الأسواق، فحارّ المسلمون في ذلك وسألوهم فقالوا: رميتم لنا بالأمان فقبلناه، وأقررنا لكم بالجزاء على أن تمنعونا، فقال المسلمون: ما فعلنا، فقال القوم: ونحن ما كذبنا، فسأل المسلمون فيما بينهم، فإذا عبد اسمه (مكنف) هو الذي كتبه لهم، فقالوا: إنما هو عبد، فقال القوم: لا نعرف حُرّكم من عبدكم، فرجع أبو سبرة إلى عمر، فردّ عليهم باحترام ما كتبه (مكنف) وأمرهم بالوفاء.

قال العظم تعقياً على ذلك ص ٣٣٢:

«ولو لم يعلم هذا العبد من أخلاق هؤلاء الفاتحين السامية أنهم يجيزون أمانه، وأن أخلاقهم الكريمة ونفوسهم الشريفة فوق كل فاتح محارب، لَمَا رمى للقوم بالأمان واستنزلهم من المعازل، ولو أنصف جَهْلَةَ المتعصّبين من المؤرّخين، وتبّعوا أخبار هذا الفتح، وبحثوا عن سير الفاتحين وأخلاقهم البارة بالإنسانية، لكفّوا أنفسهم مؤنة التهجّم على المسلمين».

- لما تمّ الصلح بين (أبي عبيد) وبين (فروخ) (وفردنداذ) جاءه بآنية فيها أنواع لذیذة، من أطعمة فارس وقالوا: هذه كرامة أكرمناك بها، فسأل أبو عبيد أكرمتم الجند وقریتموهم مثله، فقالوا: لم يتيسر ونحن فاعلون، فقال: أبو عبيد فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند فردّوه، وخرج حتى نزل باروسما، فأتاه الوالي الفارسي بمثل ما جاء به سابقه فقال له: أأكرمت الجند بمثله؟ فقال كلا، فردّ الطعام قائلاً: بشئ المرء أبو عبيد أن صَحِبَ قومًا من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أو لم يهرقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه، لا والله لا يأكل أبو عبيد مما أفاء الله عليهم إلّا ما يأكل أوساطهم». ثم يعقب العظم على ذلك بقوله ص ٢٨٩ :

«وهذا المبدأ الذي تأسس عليه الاجتماع الإسلامي منذ نبت الإسلام في أرض العرب، هو مبدأ الاشتراك المعقول الذي يخطط للوصول إليه زعماء هذا المذهب لهذا العهد، خبط عشواء لضلالهم عن طريقه المستقيم وغلّوهم فيه، غلّو الجاهل بخوافيه.

٤ - كان خالد بن الوليد قد خصّ بعض الأشراف بشيء من غنائم الحرب، فجمع عمر بن الخطاب الناس وقال فيهم: «إني أعتذر إليكم من خالد بن الوليد، فإنني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين، فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان، فترعته وأمرت أبا عبيدة، فقام أبو عمر بن حفص بن المغيرة (ابن عمّ خالد) وصاح متحدّياً: «والله ما اعتذرت يا عمر، ولقد نزعت عاملاً استعمله رسول الله ﷺ، وأعمدت سيفاً سلّه النبي، وقطعت رحماً، وحسدت ابن العمّ».

فقال عمر هادئاً: إنك قريب القرابة حديث السنّ مغضب في ابن عمّك. ثم نزل ولم يزد على أن ردّ عليه ردّاً جميلاً.

يقول العظم تعليقاً على ذلك ص ٤٠٨: «هذا نهاية ما يقال في إطلاق الحرية للرعيّة، يناقشون بها عن أنفسهم، ويكفّون الأيدي عن حقوقهم، ومع وصول العرب إلى هذا الحدّ من الجرأة في الردّ على أمثال عمر بن الخطاب

ومناقشته الحساب، فإنهم كانوا أطوع له من بنانه، ولو كانت الحكومة ثمة حكومة عسكرية، لكان خالد أول مَنْ لجأ إلى القوة، وضرب بجيوشه وجه الدولة، وناصب خليفة المسلمين العداوة، وتوثب على الخلافة، ومعاذ الله أن يحدث خالد نفسه بشيء من ذلك، ما دام لا أمر يومئذٍ للقوة، وإنما كان الشرع هو الأمر الناهي عند المسلمين».

هذه فقرات ساطعة من الحديث الحافز عن عظمة الماضي وكرامته، ولها عشرات الأمثال ومئات النظائر، بما يجدر بالشبيبة الإسلامية استظهاره، إذا أُريد للشراء أن ينمو على العزة المحمدية والكرامة الإسلامية، وإلى هذا يهدف الكاتب في كل ما يقول، ملتفتاً التفات المقابلة إلى الوجه المظلم من الحاضر حين يستعرض مقابح الاستعمار، وفظائع الاستعباد، وجمود المتأخرين، وتزلف المنافقين، استعراض من يلتبس العبرة من مساق الأحداث التاريخية، ويأخذ الشاهد من روائع الأبطال، فهو مثلاً:

١ - حين يتحدث عن يقظة عمر، وانتظاره البريد كل يوم لمراقبة عماله يقول في تحسّر ص ٣٨٠: هكذا حال الدولة عندما تبدأ في سُلَم الصعود، ومتى انقلبت إلى الهبوط جعل الأمراء العيون على الرعية لا على العمال، ليكونوا عوناً للولاء على الرعية، بحيث لا يستطيع أحد أن يشكو ظلم العمال وسوء الأحوال، ويا ويح من تبدو منه بادرة شكوى من هذا الخطب، إذ يُزَجّ به في ظلمات السجون أو يُنفى من الأرض، وهذا ما جعل الأوروبيين يتسلطون على الممالك الإسلامية، ويلصقون عار الانحطاط بالمسلمين، واستسلامهم لعقيدة القدر والقضاء.

٢ - وهو حين يتحدث عن عدالة الإسلام مع أهل الذمة ويُسهب في رافة عمر وأمثاله بأهل الكتاب، يقارن بين المسيحية في الغرب والإسلام في الشرق فيقول في مرارة ص ٢٠٨:

هذا شأن الحكم الإسلامي مع أهل الذمة أوردناه مؤيداً بالشواهد التاريخية، ونحن ندرك ببداهة الحس أن اليهود والنصارى لا يزالون يتمتعون في الممالك

الإسلامية - مدى ثلاثة عشر قرناً - بكل ما يتمتع به المسلمون من الحقوق، فلم تُنزع منهم أرض، ولم يُطرَدوا ولم يُشردوا، ولم يُفتَنوا عن دينهم ولو أُصيبوا بما يُصاب به المسلمون في ممالك النصرانية لما بقي منهم في هذه القرون الطويلة باقية، مع أن الإسبان ما لبثوا أن دَوَّخوا بلاد الأندلس، واكتسحوا ذلك المُلْك الإسلامي العريض، حتى فتنوا المسلمين عن دينهم، وطردوهم عن مُلكهم واغتصبوا تراثهم، وسفكوا دماءهم، وشردوهم عن بلاد الأندلس تشريداً لم يبقَ لهم هناك من باقية، ومحو كل ما تركوه من آثار العلم والمدنية في بلاد كانت جنة العصر.

وحين يتعرَّض إلى خُطْب الخلفاء الراشدين على المنابر أيام الجُمع يقول عمّا يشاهد اليوم من شلل الخُطْب الدينية ص ١١٧ :

«أصبحت خُطْب الجُمع من قبيل الرسوم التي تؤدَّى على أيِّ حال، وتنوسي مع الزمان ما قصد إليه من خطرها، فانقلب نفعها ضرراً بمن انتهت إليهم هذه الوظيفة السامية، من جُهلاء المسلمين الذين أصبحوا واحزناء ينفثون من أعلى المنابر سُموماً الجهل والأذى في العقول، بعد أن كانت تشرق منها شمس الحكمة، فكم فرج ذلك الموقف من كُرُوب! وكم أزال من خطوب، وكم أشرف من أعلاه رجال كانت صدورهم ينابيع للحكم يفيضونها على الناس فيضاً، ورؤوسهم بما تحمله من العقول أشبه بأوعية البخار، ترسل قوَّته على الناس من أنابيب الأفواه، فتحرَّكهم حركة من دبَّت فيه الحياة. وقد اختصَّ بهذه الفضيلة الآن خطباء السياسة الغربيون».

ولنا أن نسأل الذين ينقدون مساق هذه الخطرات الإصلاحية في كتابة التاريخ : هل قصَّر الأستاذ في عرض مشهد تاريخي مما ندب نفسه إلى الحديث عنه، أو أغفل جانباً تحليلياً يلقي الضوء على ظلمته في غوامض البحث الذي تعرَّض لمعالجته؟، فإذا اعترفوا له باستيفاء النظر وشمول العرض فمما يضاف إلى قدره أن يكون مؤرخاً ذا رسالة إصلاحية لا أن يكون مؤرخاً فحسب، كما يودَّ هؤلاء ناسين طبيعة العصر وحتمية الإصلاح.

شكيب أرسلان لسان العرب ومدرسة الإسلام

- ١ -

كنت أقرأ عن كثرة مؤلفات محمد بن جرير الطبري، وأبي الفرج الجوزي، وجلال الدين السيوطي، ما يدهش ويروع حتى عَنَّ لي أن أتهم الراوين بالتزويد والإغراق، ثم طالعت حياة الأمير شكيب، فوجدته في مدى ستين عاماً لم يترك يوماً واحداً دون تحرير مقالة ضافية في جريدة، أو كتابة بحث علمي في مؤلف، أو صياغة مذكرة سياسية في شأن هام أو إجابة رسالة أخوية أو علمية، تفصل بعض المشاهد، حتى اكتمل له من ذلك كله ما يزيد عن خمسمائة مجلد! ضاع أكثرها في أنهار الصحف، وسجلات السياسة، ومكاتب الأصدقاء، ومتفرق المجلات!

ولو تفرغت لجنة علمية مخصصة لجمع آثار الرجل ما استطاعت بعد طول الكد اللأغب أن تبلغ شيئاً ذا بال في طريقها البعيد، لأن الأمير - كافأه الله أحسن المكافأة - كان يُراسل أمهات الجرائد في مصر وسوريا وتونس والعراق ومراكش والمهجر، ويكتب أفذاذ الأعلام من ذوي الرأي السياسي والأدبي في شتى ديار الإسلام، ثم يصدر مجلة باللغة الفرنسية تكون لسان العرب في دوائر الاستعمار! . وقد ذكر أحد أصدقائه أن الرسالة الواحدة من رسائله كانت تتجاوز العشرين صحيفة، يكشف فيها الرجل عن دقائق خافية لا يلم بها سواه! وهي بعد رسالة فردية يكتبها الأمير ليقنع صاحبه وحده بوجهة نظره الخاصة في مسألة عامة!، فماذا

نقول في مقالاته المُسَهبة التي كانت تحتل الصفحات الأولى دائماً من أمّهات الصّحف الذائعة في الشرق الإسلامي؟!، ثم ماذا نقول في مذكراته الضافية عن استعمار إيطاليا في طرابلس، وفظائع فرنسا في سورية ولبنان، ومأساة اليهود في فلسطين! ومحاولة الظهير البربري في الغرب، ودور الخلافة العثمانية في الأحداث العربية، ثم تراجمه الضافية لأصدقائه الأعلام ممّن فاجئوه بوفاتهم؟، ووجد من الوفاء لهم أن يشيد بتاريخهم في الذكريات المناسبة، حيث تفسح الصّحف صدورها لجميع ما يخطّه الأمير!.

هذا غير مؤلفاته المتداولة، وهي على كثرتها المشرفة ليست غير صباية من كأس تمتلئ وتفيض! إن من يقف على آثار الأمير القلمية وحدها لا يدهشه أن يسمع عن ابن جرير والسيوطي وابن الجوزي ما سمع!! بل إن القياس مع الفارق الكبير لأن هؤلاء الأعلام كانوا يلقون العلم في حلقات الدرس فينقله الطلاب معزّواً إليهم دون أن يتكلّفوا مشقة التحرير في بعض ما ينسب إليهم من تصانيف! أما شكيب فيكتب ويُملي كلّ ما يصدر عنه دون أن يجعل من حديثه الدائر مجالاً للرصد والتسجيل، كما جعل طلاب الحلقات أحاديث أساتذتهم مؤلفات!!.

وطبيعي أن مجاهدًا خطيراً كشكيب أرسلان لم تكن أكثر أحاديثه كأحاديث الناس تسلية تزجي الفراغ، ولكنها بطبيعة رسالته الكبيرة كانت مجال نقد وتوجيه، وموضع تعليق وتبرير، وعرض لما يضطلع به من شؤون! فما أحرّاه أن يتحدّث فيجيد!.

كتب شكيب ذات مرة إلى صديقه الأستاذ محمد الفاسي يقول في رسالة خاصّة: «وفي يوم عيد رأس السنة علمنا أنا وكاتبتي حساب ما صدر عن قلّمي من المكتوبات سنة ١٩٣٥ من أول يناير إلى ٣١ ديسمبر، نقلاً عن دفتر قيود المكاتيب فبلغ عدد الرسائل الخصوصية ١٧٨١، وعدد المقالات ١٧٦، وقصيدتين ومقطوعة، وعدا ذلك حرّرت كتاباً عن شوقي في ٣٥٠ صفحة، وحواشي ابن خلدون في ٥٦٠ صفحة، وطبعت روض الشقيق ديوان أخي وذيلته بتفسير،

وأودعته ترجمة أخي، ونسب العائلة ملخصاً، لأن الأصل أطول مما قرأتموه في روض الشقيق.

وفي سنة ١٩٣٥ كتبت قسماً غير قليل من الجزء الأول من كتاب الأندلس (يريد كتاب الحُلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية) لكنني سأجعل ذلك عند تمام هذا الجزء من محصول سنة ١٩٣٦ إن شاء الله.

وفي سنة ١٩٣٥ قدّمت ديواني للطبع، وعلّقت عليه تفسير بعض الألفاظ، وقريباً يتم طبعه وأهديكه، وكتاب ليفي بروفنسال لخصته في هذه السنة، فأنت ترى أن همّتي همّة شباب لا همّة شيوخ.

هذه بعض اعترافات صادقة تنبئ عن السيل الزاخر الذي تدفق به يراع الأمير في مدى ستين من الأعوام! ومن المسلم به أن كثيراً من مقالاته كان يعالج مسائل سياسية موقوتة بزمانها، دون أن يكون لها عند الأجيال المقبلة فائدتها في العصر الذي نشرت به، وهي في هذه الدائرة لا تفتقد من يحرص على جمعها في نطاق خاص، أما الأكثر الأغلب من آثاره فيتطلب عزيمة العصبية أولي القوة في حصره وتصنيفه، وقد يرى بعض النقاد أن أسلوب الأمير كثيراً ما يميل إلى السرعة العاجلة، فهو يدون أفكاره دون اهتمام بنصاعة اللفظ وخلابة التعبير، ولم يكن في وسعه غير ذلك، وأحداث الزمن تُفاجئه كل ساعة بالجديد الملم، مما يتطلب سرعة الرأي، وتشخيص العلاج دون التفات إلى براعة الصّنع وجمال التركيب.

ولعلّ هذا هو الفرق الواضح بين الكاتب المصلح الدّاعية، والأديب المترصّن الفنّان، فالأول يقف على منبر جهير لا ينقطع سامعوه فهو لا يفتأ يفيض عليهم بعاجل توجيهه، ويخصّهم بنصائحه ونقدهات غير متمهل أو متباطيء، والآخر يترك لنفسه من الفراغ المتأنّي ما يسمح باصطياد خاطر البعيد، وتعليل الحداث المبهم، وتنسيق العبارة الأنيقة! ومن العبث أن نقارن بين الرجلين دون أن نلاحظ بواعث الكتابة عندهما، أو نقدّر ما تفرق فيه من ظروفهما وطبائعهما ومشاربهما من أمور! على أن روح الكتابة في جوهرها الخالص هو الصدق!، فمتى كان الأديب

صادقاً مخلصاً في رسالته! فإن ما وراء ذلك من جمال الصّقل، وبهاء الرواء لن يكون صاحب الكفّة الراجحة في ميزان التفاضل والتميز، ونصيب الأمير في صدقه المخلص غزير وفير! .

وأجمل ما في إنتاج الأمير، أنه لم يُرد بالكتابة المتواصلة أن يكون مؤلفاً كبيراً يُشار إليه بالبنان، فهو كما تنطق آثاره الشاهدة، لا يهتم بإبراز إنتاجه إبرازاً متميزاً يُحسب له في سجل المشاهير، بل يجعل كثيراً من آرائه القوية حواشي وتعليقات، تكون زيادات مضافة لا أصلاً قائماً بذاته، وفي مكتبته كأديب مرموق جهير المكانة، أن يجعل كلامه أصلاً قائماً بذاته، لو كان يميل إلى ادعاء، أو يدلف إلى علو مكانة أو خلود صيت! وأماننا تعليقاته الضافية على كتاب حاضر العالم الإسلامي، وكتاب ابن خلدون في التاريخ، فإنها تحتاج إلى مزيد في البسط يكشف عن تواضع الأمير وسكينة نفسه، فوق ما يكشف عن سداد بصره وعمق اطلاعه، وتمكّنه الركين في عالم الرأي والبيان! .

لقد ألف الكاتب الأمريكي لوثرروب ستودار، كتاباً قيماً عن حاضر العالم الإسلامي، قام بترجمته إلى اللغة العربية كاتب فلسطيني قدير هو: الأستاذ عجاج نويهض، وشاء إخلاص المترجم أن يعرض على الأمير ليقول كلمة موجزة تكتب في مقدمته، ولكن الرجل المكافح وجد الكتاب المحدود يتحدث عن العالم الإسلامي كله في القارّات المختلفة، حديثاً يتطلّب الإشباع والتفصيل وقد غفل عن أمور كثيرة ما كان لمثل مؤلفه أن يدركها مهما واصل البحث وأحسن التعليل، فدفعته همّته إلى التعليق على كل صفحة من صفحات الكتاب بما يجلو الغامض في زاوية مبهمه، أو يردّ الحق في خطأ ناشز، حتى صار الجزء الواحد بعد تعليقات الأمير أربعة أجزاء ضخمة لا نظير لها فيما كتب يومئذ عن حاضر الإسلام! وقد نسي الناس كلام الكاتب الأمريكي إذ صار دون التعليقات الضافية، بحيث لا يُشفي غلّة القارئ في شيء!، واشتهر الكتاب اشتهاً ذائعاً بما أبدع فيه الأمير من تعليقات نابهاة.

والحق أن شكيب كان نسيج وحده في موضوعه، إذ لا يوجد سواه من يلم بتاريخ الدول الإسلامية في مصر، والعراق، والشام، والحجاز، والصين، وأندونيسيا، وأوروبا، وتركيا، والهند، وفارس، وبلاد القوقاز، وليبيا، وتونس، والمغرب، والجزائر إمام اليقظ المتربص لكل ما يلم بهذه الأماكن من دواهي الاستعمار ونوازلها، وصار الكتاب بعد تعليقات الأمير المرجع الأوحده لمن يتطلع إلى معرفة أمور المسلمين.

وقد ظهرت في أيامنا هذه كتب مختلفة، تخص كل إقليم من الأقاليم الإسلامية النائية ببعض الحديث، وإنني لأقرؤها فأجدها تعتمد اعتماداً كلياً على ما كتبه الأمير في تعليقاته! مما جعلها دائرة معارف في الشؤون الإسلامية بكل مكان! ولو كان الأمير ممن يتباهون بكثرة التأليف لجمع تعليقاته تلك في كتب متتابعة بعد إضافات يتطلبها المقام، ثم خرج بها مستقلة على الناس دون أن يأتي بها تابعة لما قاله سواه! ولكن الرجل صاحب رسالة وقد وجد مجال القول فقال!.

وقد تعرض الناقد الدكتور زكي نجيب محمود بمجلة الرسالة (٣٠ سنة ١٩٣٤) إلى نقد هذا الكتاب القيم فقال عنه: «وبين يدي الآن مجلدات أربعة كتبت في حاضر العالم الإسلامي، ألفها الكاتب الأميركي لوثرروب ستودارد، ثم نقلها إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض، وفيها فصول وتعليقات وحواشٍ مستفيضة، عن دقائق أحوال الأمم الإسلامية وتطورها الحديث، بقلم الأستاذ الكبير والمجاهد العظيم الأمير شكيب أرسلان، وقد يظن القارئ - وله عذره في هذا الظن - أن الكتاب المترجم هو الأصل، وأن ما كتبه الأمير حواشٍ متناثرة هنا وهناك، ولكن الواقع نقيض ذلك، فالفصول المترجمة لا تتجاوز خمس المقدار، وأربعة الأخماس الباقية هي حواشٍ للأمير، وإنه ليخيل إلي أن كتاب لوثرروب اتخذ تكأةً لنشر هذه الفصول الكثيرة القيمة، التي دبتجتها يراعة الأمير شكيب أرسلان في شؤون المسلمين والإسلام».

ثم يقول الدكتور ناقداً منهج الأمير: أما حواشي الأمير فليس إلى حصرها من سبيل، وكلها شيق ممتع، ولكنها - عندي - قد خرجت بالكتاب عما ينبغي أن

تكون عليه الكتب من تركيز في موضوع بعينه، وأدنته من دوائر المعارف، التي من شأنها أن تجمع بين دفتيها شتيّاً من ضروب العلم والمعرفة، وهو يعترف بذلك في المقدمة إذ يقول عن هذا الكتاب: إنه لم يصل بعد إلى الدرجة المنشودة من السعة والشمول، وإنه ليرجو أن تتسع يوماً حتى يصحّ أن يُقال إن في اللغة العربية إنسيكلوبيديا إسلامية، أشبه بموسوعات العلوم التي عند الأمم الراقية».

هذا النقد المنهجي يصحّ أن يوجّه إلى كتاب جامعي، يؤلّف في مدىّ متطاوّل يتّسع للتبويب والتنسيق، ولكنه لا يوجّه إلى كاتب كالأمير، ينتهز كل مناسبة ليأتي بالجديد، وحسبه أن يكون أول من أحاط بهذه الروائع والخبرات.

أما تعليقاته على تاريخ ابن خلدون فتتحوّ هذا المنحى، من التوضيح والبسط والاستطراد، فقد وصل الحديث عمّا انقطع من أحوال العرب والبربر وسائر من تعرّض لهم الفيلسوف الكبير، كما أسهب في الحديث عن الصقالبة والدولة العثمانية حتى خصّ تاريخ الأتراك وحدهم بثلاثمائة صحيفة من ذات الحجم الكبير! وأترك للقارئ أن يتصوّر تعليقاً عن أمة من الأمم يصل إلى ثلاثمائة! ولو أن الأمير أفرد مؤلفاً خاصّاً بالأتراك وخرج مستقلاً في هذا العدد من الصفحات! لكان عملاً قائماً برأسه، يحرص عليه المتباهون بأصالة الإنتاج، ولكن الرجل يرسل تعليقاته الضافية كما تجيء عفو الخاطر، وحسبه أن يلمّ بها القراء في ظلال كتاب آخر قد يسيطر على القارئ بقوة مؤلفه العلامة الاجتماعي، فينسى في بهرة الضوء ما سطره الأمير شكيب!! إنه الإخلاص للرسالة دون اهتمام بالتفرد والأصالة والتجديد! وجميعها في مقدور الكاتب لو أراد.

وما دام الحديث قد تطرّق بنا إلى مؤلّفات الأمير، فإننا نذكر منها: ديوانه الشعري وترجمته لرواية شاتوبريان، عن بني سراج، مع مقدمته الضافية في تاريخ الأندلس قبيل المغيب، كما نذكر كتبه التاريخية الرائعة: عن شوقي، والسيد محمد رشيد رضا، وأناطول فرانس، ورحلته إلى الحجاز، وتاريخه المبتكر لغزوات العرب في فرنسا، وسويسرا، وإيطاليا، وجزائر البحر الأبيض المتوسط، وبحشه التحليلي

عن أسباب تأخر المسلمين وتقدّم غيرهم من الناس، أما ما نشره من الكتب القديمة فمن بينه كتاب اليتيمة لابن المقفّع، وكتاب محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، ورسائل أبي إسحاق الصايي وديوان شقيقه نسيب أرسلان، عدا المخطوطات المهيّئة للطبع مما تحدّث عنه أصدقاء الأمير.

وقد أخرت الحديث عن كتابه «الحلّل السندسية في الأخبار الأندلسية» لأقول عنه رأياً. فقد ذكر الأمير أنه يحرص على النصوص القديمة لتكون عمدة البحث في صياغة الفصول، ثم انتقد من يقرؤون المراجع، ثم يصوغون الأبواب العلمية بأساليبهم الخاصّة، فتخفى بعض الحقائق في ظلال ما يتركون ويأخذون مما يقوم ببنائه على منهجهم الخاصّ! ولست مع الأمير في تقيّده بالنصوص إلى حدّ ملحوظ، يجعل الكتاب معرضاً للنقول فقط دون أن تظهر شخصية الكاتب في الصياغة والتحليل والاستنتاج! ولست أعني بذلك أن كتاب الحلّل مجرد نقول تاريخية، فلشكيب شخصيته الملموسة، وبخاصّة في تصحيح الأخطاء مما زلت به أقلام ذوي الاستشراق وبعض مؤلّفي العرب، ولكنّي أردّ على ما أشار إليه في مقدمة كتابه، ثم التزمه في أكثر صفحاته! وكلّ أديب وما يراه.

هذا ومع هيام الأمير بالاستطراد لأدنى مناسبة، فقد هام بالسّجع في كثير من آثاره، هياماً لم تخلص منه عناوين الكتب أيضاً، وكان الأستاذ محمد كرد علي قد أخذ عليه إفراطه في هذه السّجعات، حين قرّظ مقدمته لديوان الأمير نسيب بالسّنة الثالثة من مجلة الرسالة سنة ١٩٣٥، فردّ عليه الأمير مبيناً أن الشر قسمان مُرسَل ومسجوع، وأن السّجع مما اختاره بلغاء القرن الرابع الهجري، فجاءت رسائلهم معرضاً من معارض الفصاحة لذلك مال إليه الأمير وارتضاه، ولا نعلّق على هذا الرأي بأكثر من أن لكل عصر ذوقه، فإذا قبل العصر المتقدّم أساليب البلغاء، ممّن راقهم التزام السّجع كأبي إسحاق وابن العميد والصاحب، فإن عصرنا الراهن يرى جمال الأسلوب في شيء غير المحسّنات البديعية، والمسألة أوضح من أن تخصّ بالحديث! لقد كان الأمير كاتباً ذا خصائص ومميزات، وحسبنا أن نسجلها له هنا دون انتقاص.

نشرت مجلة الضياء الهندية خبراً مطوّلاً عن مجمع انعقد في سنة ١٩٣٥ لبحث أيّ الرجال من المسلمين يستحقّ أن يُوصَف بأنه أعظم رجل في العالم الإسلامي اليوم، وقد حضر الاجتماع عدد كبير من الأدباء والمفكرين، وخطب كل واحد منهم يؤيّد رأيه فيمن يكون أرجح ميزاناً بين رجال الإسلام المعاصرين، وتردّت أسماء محمد إقبال، وشكيب أرسلان، ومحمد رشيد رضا، وأبو المكارم الدهلوي، وسليمان الندوي، وعبد الكريم الخطابي، والسيد أحمد الشريف السنوسي، ومولانا محمد علي، وحسين أحمد المهدي، وغيرهم، ولكن الأمير شكيب أرسلان فاز بأكثرية الأصوات في هذا الاجتماع^(١).

هذا الخبر على صغره عظيم الدلالة على مكانة شكيب لدى المسلمين في قطرٍ ناءٍ، يقرأ أهلوه عنه دون أن يسعدوا برؤيته، وأنا لا أسجّله هنا لأرجح بالأمير عن زملائه المجاهدين، فهذا ما لا نجد ضرورة للخوض فيه، ولكن لأخذ منه أن الرجل في مرأى العالم الإسلامي كان يجلس في الصف الأول من مجاهديه، وإذا كان الإنسان يُعرَف بأصدقائه، فإن جميع قرناء شكيب كانوا في الذؤابة من جبهة الأحرار، ومراسلاته المنشورة بين أيدينا إليهم، ومراثيه الباكية على من تقدّموه منهم إلى رضوان الله! وتراجمه الحافلة لمواقفهم المؤازرة للقضية الإسلامية، كلّ أولئك مما ينبىء على أن شبيه الشيء منجذب إليه، وأن الطيور على أشكالها تقع لا محالة.

وحين يلتبس الدّارس مفتاحاً صائباً لشخصية شكيب، لن يبعد عن إسلاميته المخلصة، وإسلامية الأمير قد خطّت له في الحياة طريقاً يقنع ذوي الخبرة ممّن يحرصون على كرامة الإسلام، وكلّ عمل قام به الرجل، وكل كلمة خطّها قلمه، إنما يسيران به في محيط الإسلامية الطاهرة، فعن قوسها ينزع وفي محيطها يدور.

(١) شكيب أرسلان، داعية العروبة والإسلام، للأستاذ أحمد الشرباصي، ص ٢٣٢.

فقد أُنِجَ للأمير أن يشهد نهاية القرن التاسع عشر، وقريباً من نصف القرن العشرين، فهو يبلغ سنَّ الرشد، فيلتفت ليرى الشعوب الإسلامية تغطّ في نومها العميق، ثم يلمح تحرّش المستعمرين بديار الإسلام في كل صقع من الأصقاع، وقد أخذت أعراض المرض تفتك بالدولة العثمانية، فهي تتخلف وتتضاءل أمام أعدائها من الأوروبيين، بينما تستأسد على أتباعها من العرب بخاصّة، والمسلمين بعامة، حتى إذا مرّت الأعوام دراكاً ظهر في الميدان مُستعمر ثالث يزحف إلى ليبيا فيعاون قراصنة الاستعمار المحنكين من أبناء لندن وباريس، ثم تقع الحرب العالمية بأهوالها المبيدة، فتفسح عن أهوال دامية تحيق ببلاد الإسلام، حتى إذا انجلت غواشيها الداهمة، رأينا بلاد العرب نهياً مُقسماً للمتصرين.

ثم تندأب الصهيونية على فلسطين، ويواجه العرب بإزائها شراً مستطيئاً، تجثم خلفه دول الغرب مجتمعة لتدفع الصهيونية إلى بغيتها الأثيم، وتظهر في محيط السياسة العربية أسماء يستترّ بها اللصوص الغاصبون، فلا نفتأ نقرأ في الصّحف كلمات الاستعمار، والوصاية والانتداب والتعاهد، ثم يصبح الشام أجزاء متفرقة تدعى: بلبنان وسوريا والقدس والأردن.

أما ليبيا على صغرها فقد قُسمت إلى ثلاث ولايات، وعلى مقربة منها يبذل الفرنسيون جهدهم ببلاد المغرب لتنصير المسلمين! ظلمات بعضها فوق بعض يراها الأمير تتكاثف فيما حوله فلا يئس من رحمة الله، بل يعلن جهاده المرير.

لقد كان من حظّه السعيد، أن يرى جمال الدين الأفغاني ويسمع عنه، كما تتأكد صلته بالإمام محمد عبده، فيتشرّب مبادئهما في الحرية والإصلاح، ويشبّ على الأيام عوده، لتحوّل هذه المبادئ نفساً يتردّد بين رثيته، ويدعوه داعي الواجب إلى الكفاح اللاّغِب، ففي أيّ الطرق يسير؟.

لقد كانت الدولة العثمانية إذ ذاك معقد آمال المسلمين ومهما استبدّ عبد الحميد بالحكم الفردي، فلدى المثقفين من عشاق الفكرة الإسلامية آمال واسعة، في مقدرتها على القيادة وخلوصها من الاستبداد، لذلك نجد أرباب الفكر

- ولا سيما الشعراء - يحرصون على تهنئة الخلافة والإشادة بنفوذها الروحي، راجين أن تتقدم الركب إلى التحرر لتعيد إلى الإسلام مجده الغارب!! وشكيب في مقدمة هؤلاء يرحل بين الفينة والفينة إلى عاصمة الخلافة ويؤكد صلته برجالها، ويُنَافَح في سياستها ويُنتخب عضواً في مجلس المبعوثان عن بلده، ويكتب المقالات الضافية في الاستمساك بعروة الخلافة، حتى أن جريدة المؤيد كانت تُفرد صفحتها الأولى لمقالته، وتصف كاتبها «بسعادة الكاتب العثماني الكبير»!

وفي سنة ١٩١١ حَلَّت كارثة العدوان الطلياني على طرابلس فكان الأمير في طليعة مَنْ دعوا إلى صدّ هذا العدوان، فقد اتّصل بناظر الحربية في الأستانة وفتح باب التطوُّع للجهاد في شتّى ديار الإسلام، ثم سافر متخفياً إلى طرابلس ليشترك مع القائد العثماني في الدفاع، وأخذ يرسل الخطابات المتوالية إلى أصدقائه المسلمين، يدعوهم إلى مساعدة القطر البائس وانتشاله من مخالب المحتلّين، حتى إذا عيّل صبره سافر من طرابلس إلى تركيا، فأشرف على بعثات الهلال الأحمر، ثم سافر إلى المدينة المنورة، وكان في هذه الأزمة حركة لا تهدأ من الثورة. وقد تقدّم باقتراحات إلى الحكومة العثمانية، كانت موضع التقدير من ذوي الخبرة المطلعين، حتى قال الزعيم الطرابلسي سليمان الباروني فيما بعد:

«لو أخذت الحكومة العثمانية بتفاصيل الخطة التي رسمها الأمير شكيب، ونفذتها بحذافيرها، لَمَا ضاع الأمل في إنقاذ طرابلس وبرقة، أو لاستطعنا على الأقل إطالة الحرب ثلاث سنوات أو أربع».

وقد قلنا إن إسلامية شكيب تسيطر على كل عمل يقوم به، وقد أخطأ بعض الناس فهم موقفه من تركيا أثناء الحرب العالمية الأولى، فذهبوا في تأويله مذاهب لا تُرضي الحق في قليل أو كثير لأن الحركة العربية التي انبثقت تناوى تركيا إذ ذاك، واتخذت من إنجلترا وفرنسا وأمريكا ظهيراً تعتصم به أمام العثمانيين!

هذه الحركة لم تكن لتُرضي باحثاً سياسياً عميق النظر كالأمير لأنه لم يكن يعتقد صدور خيرٍ ما من المستعمرين، فمهما أ جلب الأتراك بخيلهم ورجلهم على

العرب، فهم في رأي الرجل أقرب إلى نفعهم من أعدائهم المُستعمرين، وكلّ ما يزعمه الحلفاء إذ ذاك من نصرة العرب تمويه زائف، يدلّ على ما يسترون به نيّاتهم من طمع شره، واستكلاب جائع على أسلاب الرجل المريض!! فإذا اندفع فريق من العرب بزعامة الحسين بن علي وولده فيصل إلى مناوأة الأتراك ومعاوضة الحلفاء، فهو اندفاع المتسرّع العجول الذي تغرّه المطامع، وتخدعه الظواهر عمّا يوشك أن ينفجر تحت قدمه من براكين، لذلك أثر الأمير أن يقف مع الأتراك بإزاء المستعمرين!. وقد كان من سوء حظّه أن يصبح أحمد جمال باشا السفّاح دكتاتور الشام أثناء الحرب العالمية، فقد كان في طغيان الظالم وتعسّفه الغاشم ما عصّف بآمال شكيب في مسألة الأتراك، وقوّى وجهة مُخالفه في الارتماء بين أحضان المستعمرين!!.

ومن هنا وُجّهت سهام النقد المরিّر إلى الأمير شكيب، إذ نظر إليه كنصير للطاغية السفّاح، يؤيّد سياسته ويسير في طريقه والحقّ أن شكيباً كان سداً منيعاً يدفع الطوفان في كثيرٍ من الأحيان يفيض بجبروته الأثم على الأحرار من المخلصين، فكم أنقذ من أرواح بريئة كانت تنتظر مصيرها الأليم على يد المتجبر الطائش، وكم استطاعت لباقة المِرنة أن تهديء من غضب الدكتاتور على فريق من العرب سواء كانوا من المسيحيين أم من المسلمين فأنقذهم من هول المصير بشّى أساليبه!! وحين عجز في النهاية أن يكفّ من غرب جمال باشا واجهه بالثورة، وأخذ يُراسل الأستانة بشأن جبروته وطغيانه، ويقول أقرب الناس إليه من أعضاء أسرته: إنه مكث ليالي طوالاً لا يذوق النوم بعد أن نفّذ الطاغية أحكامه الباغية فشنق ثلاثين زعيماً من أئمة الفكر والرأي والنضال، في ديار العروبة بالشام!.

وكان شكيب في ثورته على الطاغية لا يجد كثيراً من القبول لدى الرأي العامّ العربي إذ ذاك، لأن الناس يعلمون ميله إلى التّرك دون المستعمرين، ولكن الحق قد حصّص في معترك الشكوك، فعرف الناس جميعاً دوافع شكيب ونواذعه، وبأنّ لهم صدق حدسه حين انتهت الحرب الأولى، وتنمّر الحلفاء بالعرب فجعلوا ديارهم مناطق حماية ونفوذ، وتنكّروا لما أبرموا من مواعيد، ثم داهموا العواصم

العربية بالقذائف المحرقة، والمدافع المكتسحة، وصرح الشرّ عن نابه في ساحة حمراء، ارتفعت بها مئات الأرواح تشكو إلى الله طغيان الأثمين، وتجمهر المستعمرين في حرب صليبية مقنعة تتخذ لها وجوهاً كاذبةً من أسماء الحماية والانتداب والوصاية والاحتلال.

وقد أسفرت هذه الوقائع المُفرّعة عن التثام الشمل العربي في صفٍّ واحد - إلّا مَنْ شذَّ من العملاء - بجاهد الاستعمار الغربي، ويسعى إلى الخلاص من نيره بعد أن خلص من الأتراك، ويا لها من متعاقبات كلييات المحاق تتوالى متتابعات!!.

وقد شاءت له حماسته أن يهاجر إلى أوروبا، باسطاً قضايا العرب والمسلمين على منابرها الجهرية، كما فعل أمثاله الأحرار من قبل ومن بعد، أمثال: مصطفى كامل، ومحمد فريد، وعبد العزيز جاویش، فحضر المؤتمر السوري الفلسطيني الذي انعقد بجنيف سنة ١٩٢١ مُطالباً باستقلال سوريا ولبنان وفلسطين، مع الاعتراف بحقّها في الاتحاد، ثم رأى أن ينتقل نهائياً إلى سويسرة ليكون على مقربة من مقرّ عصبة الأمم، واتخذ لنفسه بيتاً خاصاً يقرب من بحيرة ليمان، ولم تكن مساعيه مقصورة على سورية وحدها، بل كانت كما قال الأستاذ روفائيل بطي بمجلّة الكتاب فبراير سنة ١٩٤٧ تتناول كل قطر عربي في آسيا أو أفريقيا، ولهذا نجد أهل المغرب العربي شأن بقية أبناء العروبة يتعلقون بشكيب تعلقاً شديداً.

وظلّ الرجل يتابع جهاده الدائب في عاصمة عصبة الأمم، حتى قَدِمَ مع الوفد العربي إلى مكتب العصبة من الوثائق والمذكرات ما يقرب من عشرين مجلداً أُهديت في سنة ١٩٣٧ إلى وزارة الخارجية السورية، ويستطيع مَنْ يزور مكتبها في دمشق أن يتعجّب كثيراً لما يلمس من صبر الأمير، ويرى من نضاله في حومة لا يتطلّب أجراً من أحد إلّا أن يقوم بواجب الزعيم الأمين!.

لقد عقد الأستاذ أحمد الشرباصي في كتابه (شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام) فصلاً هاماً عن كفاح الأمير في سبيل الإسلام، ونقل من خلال مقالاته

الكثيرة نصوصاً هامّة، تُفصّح عن آرائه في التّقاء العروبة مع الإسلام في دعوة واحدة دون تعارض، كما أبرز آراءه الحاسمة في العلاقة بين الدين والدولة أو بين العقيدة والحكم، على نحوٍ يُوجب التزام النّاحيتين دون انفصال، وهو يردّ بذلك على ما تورّط فيه بعض الناس من دعوة إلى عزّل الدين عن المجتمع، وانحجازه في حدود الصلاة والحجّ والصيام، منخدعين بما مَوَّه به أعداء الإسلام حين جعلوا فصل الدين عن الدولة باب الخلاص، ومعجزة الإنقاذ ثم يردّ عليهم بما يراه قائماً في أوروبا بالفعل من تأكيد العلاقة بين المسيحية والدولة، فهناك معاهدة بين الدولة الإيطالية والكرسي البابوي تفصل حقوق الفريقين على نحوٍ يهدف إلى الوفاق والسلام، ثم يضرب المثل بما يجري قريباً من ذلك في بلجيكا وغيرها، ويقول بصدد ذلك بتصرّف يسير:

«إذن فالمدينة تجتمع مع الدين، والحكومات الشرقية التي تزعم أنها تقطع صلتها بالدين الإسلامي اقتداءً بحكومات أوروبا التي تزعم عنها قطع الصلة بالدين المسيحي، إنما هي حكومات تضلّل أفكار السُّذُج من رعيّتها، وتموّه عليهم، وتقصد حرباً وتُوري بغيرها، وناشرو دعايتها في مصر والبلاد العربية كاذبون».

أما ما كتبه في صلة العروبة بالإسلام، فأكثر من أن يُحصَر، لأن بلاد الشام بالذات قد تعرّضت إلى دعايات عريضة تلبس معنى القومية العربية بما يناقض الفكرة الإسلامية، وتخصّص لهذه الناحية أناس يحرفون الكَلِم عن مواضعه، بما يموّه غُلّة المستشرقين وسماسرة الإعلام، وفيهم مخلصون خُدعوا بظاهر من القول، دون أن يلتفتوا إلى ما خلف الستار من مؤامرات سوداء تتضح بالمكيدة والغُلّ، وشكيب يجاذب أولئك وهؤلاء جبال الرأْي والجدل، فيلين تارةً ويقسو تارات دون أن ينحرف عن رأيه الأصيل قيد شعرة، وهو أن العروبة طريق الإسلام فلا تناقض بين مَنْ يدعو إلى الفكرة الإسلامية ومَنْ يدعو إلى القومية العربية، حين يُراد بها خدمة العرب الحقيقية، والارتقاء بهم إلى أوج السعادة والحرية والعزّة، مما تؤكّده تعاليم الإسلام وإنه ليقول في هذه الناحية من مقالات طوال:

«وإذا كان المُعْتَرِض يقول: إذا كانت الوحدة الإسلامية هي المقدمة على كل وحدة أخرى من النسب والجوار والمصالح المشتركة فأَيُّ فائدة إذن في أن يتحد نصارى العرب مع المسلمين منهم؟، والجواب عن ذلك سهل للغاية، وذلك من وجوه:

الأول: أنه إذا كان القرآن قد جعل الرابطة الإسلامية فوق كل شيء، فإنه جعل الحق في المعاملات فوق الرابطة الإسلامية حتى أنه سَوَّى في الحق بين المسلمين وغير المسلمين، ونهى أن تكون العداوة الدينية سبباً لحرمان الأعداء من حقوقهم، فقال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وقال تعالى في السورة نفسها: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

فإذا كان الشرع الإسلامي لا يُبيح لمسلم أن يجور على مسيحي، أو على أي كائن من غير المسلمين، ولو كان عدوًّا له وللإسلام عموماً، فهو يُوجِب أن يوفر لهذا العدو حقه غير منقوص فأَيُّ مكان بعد هذا للخوف من الاجتماع مع المسلم في حكومة واحدة، وأَيُّ محذور من جَعَلَ القرآن رابطة الدين فوق كل رابطة؟، وهي لا تقدر أن تبطل حقاً، ولا أن تحقَّ باطلاً في مُعاملات المسلمين مع غير المسلمين».

هذه لمحة يسيرة إلى بعض القضايا الهامة التي عالجهها الأمير في حومة الدفاع عن الفكرة الإسلامية، وقد يرى القارئ أننا أغفلنا الحديث عن نشأته الفكرية، وعوامل تكوينه الثقافي، ونضوجه الأدبي، وعُذرنا أننا كتبنا كثيراً عن الأمير قبل ذلك، وحديثنا اليوم يتجه إلى جهاده المكافح سياسياً ودينياً، فإذا أردنا التاريخ المستوعب فلدينا مجال آخر غير هذا المجال.

محمود أبو العيون المُصلِح الديني والكاتب الاجتماعي

- ١ -

تمرّ مواسم الذكرى لرحيل النابهين من العلماء والمخلصين من رجال الدين، دون أن تجد لها صدئاً فيما تقرأ من صُحف وما تسمع من الإذاعات، فإذا سألت عن ذلك قيل لك: إن هؤلاء الراحلين من الأعلام نفر من الخاصة لا يعني الجمهور العام أن يتبع آراءهم العلمية ومؤلفاتهم المنهجية، وإنما يرجع واجب التاريخ لجهودهم إلى تلاميذهم فيما يصدر من كتب وبحوث، وهو ردّ متكلف واهن لا يحتمل النقد، وإذا سلّمت به جدلاً فقط فلك أن تسأل هؤلاء عن مُصلِح كبير مثل الأستاذ محمود أبي العيون، يعرف العامة قبل الخاصة جهاده الحافل في شتى ميادين السياسة والاجتماع والأدب والخلق، إذ قاد من معارك الإصلاح ما رنّ صدهاء في كل أذن، وسطر من رائع المقالات الاجتماعية والأدبية والدينية في مدى أربعين عاماً من حياته ما جعل اسمه يتلأل في كل أفق باهر الضياء، جذاب الالتماع، بحيث لو اهتم ناشر بجمع ما كُتِبَ في الأهرام فقط من المقالات المتتابعة في كل مجال، لوجد من آثار الرجل في صحيفة الأهرام وحدها ما يملأ بضعة مجلدات.

ولو كان الرجل ممّن يهتمون بالخلود الأدبي لفكر في جمع هذه الآثار في كتب خاصّة، كما فعل زملاء له من الكاتبين، ولوجد من الناشرين من يرحّب بإخراج هذه الآثار في مظهر ممتاز يليق بمكانة عالم جهير، ومُصلِح كبير، ولكن

الرجل نسي نفسه، فكاد أن ينساه الناس في زمن لا يقدر المخلصين من ذوي الحِمِّية الثائرة تقديره لذوي الطبول الهائِفة ممَّن يصطنعون صغار الكاتِبين من رجال الصحافة، ليُوالوا الحديث عنهم في مناسبة وغير مناسبة! وممَّا يحزُّ في النفس أن الرأي الأدبي العام مع انتشار التعليم وازدهار الجامعات لا يكاد يفرِّق بين الأصل والدخيل، ولعلَّ في إنصاف السماء لهؤلاء العاملين في ملئهم الأعلى ما يهون إجحاف الأرض، حيث يتناسى الخلف مآثر السلف عن جحود وإهمال.

لقد قاد الأستاذ أبو العيون معارك كثيرة تكلَّلت بنصره وأبرزت عن معدنه الثمين حين احترق بنار الكيد والوقِعة والدسّ، ولن يستطيع مقال أو مقالان أن يلمَّ بأبناء هذه المعارك الرائعة، لذلك نجتزئ بالإشارة إلى معاركه الظافرة مع البغاء الرسمي والاختلاط الجنسي في الشاطيء، وإهمال التعليم الديني في المدارس الحكومية، فوق قيادته السياسية لشباب الأزهر في ثورة سنة ١٩١٩، وهي معارك فاصلة ذهب الرجل العظيم بفخرها الخالد، إذ رسم صورة صاحب الفضيلة النموذجي بين الناس حين دعا إلى الخلق الحيّ، والإسلام النقي، والحقّ الصريح.

إن مما يُذكر للكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور بالخير والتقدير أنه كتب فصلاً تحليلياً رائعاً عن أبي العيون في كتابه «ملاح وعضون» فجلاً شخصيته الرائعة أبرع جلاء، واستطاعت ريشة الفنّان المصوِّر لدى القصّاص الكبير أن تُبرز صورة الرجل الخالد، في ملامحه القوية وقسماته الباهرة إبرازاً دلَّ على مهارة واقتدار.

فكان تيمور وحده الأديب الكبير الذي التفت إلى تقدير مصلح عامل غمط حقّه بين مُعاصريه.

وقد ذكر الأستاذ تيمور: أن السبب في محاربته البغاء أنه قرأ في بعض الصُّحف بعد هدوء ثورة سنة ١٩١٩ عن قسٍّ أوروبي قام بمناهضة البغاء في دولته، فاننفض الشيخ انتفاضة صارخة إذ هاله أن يسبقه قسٌّ إلى محاربة منكر لا

يعترف به دين، وجمع عزيمته للقيام بدور القسّ الأوروبي، وأعتقد أن مثل أبي العيون لم يكن في حاجة إلى أن ينبّه قسّ أوروبي إلى واجب ديني يؤمن به عن يقين.

فقد كان الشيخ منذ نشأته يذكر لائحة سنة ١٨٩٦ التي أباحت البغاء في عهد اللورد كرومر، ويراه سبة شنعاء وفضيحة يندى لها الجبين، ثم اشتعلت ثورته الغاضبة فتركته كالبركان الملتهب حين قرأ بعض ما ذكرته اللجنة الدولية التابعة لعصبة الأمم المتحدة في تقريرها الخاصّ بتجارة الرقيق، وقد جاء فيه: «وقد أصبحت مصر ميداناً محبوباً، ومركزاً هاماً من المراكز الدولية التي يَفِد إليها حُمَاة البغايا، يجلبوهنّ من سائر الأقطار، ويمكننّ في مصر ريشما يؤهلنّ، ثم تبقى بها من تُمارس البغاء إذا رضيت بالإقامة في مصر، فإذا زاد العدد ذهبت البقية إلى مختلف الجهات».

ولا أدلّ على تصوير نفسية أبي العيون من قوله تعقياً على ذلك: «استر وجهك يا صاحِ فَحَسْبُكَ من شرّ سماعه فلعمري لا يسمع ذلك القول كريم إلّا استغشى ثوبه، وغطّى وجهه، وتمنّى لو انفرجت الأرض تحت قدميه فابتلعه، أو مادت به فأهلكته، وراحمته، لقد فقدنا كثيراً من معاني الحياة أحوج ما نكون إليها في مركزنا المضطرب، والتي لا غنىّ لأمة ناهضة عنها، فقدنا استقلالنا السياسي، أو هو على الأكثر في الميزان فقدنا استقلالنا الاقتصادي، فقدنا استقلالنا الخلقي، وحتى الشرف في المَزَاد!! فماذا بقي لنا؟».

لقد رأى أبو العيون أن محاربة البغاء جهاد لا يقلّ عن جهاده الثوري، حين تعرّض إلى الرصاص في مظاهرات الحرية فشمر العزم لاستئصاله، وبدأ الحملة بنشر مقال بجريدة الأهرام، ثم تابعها بجولات يَقْظَة في أحياء البغاء بالعاصمة فعرف الأماكن الموبوءة وأحصى ضحاياها، وأصحاب المنفعة في إدارتها، واستكتب الأطباء ليتحدّثوا عن مآسي البغاء وأمراضه والاجتماعيين ليعالجوا الوضع بعد الإلغاء، ثم أصدر كتابه (مذابح الأعراض) حافلاً بما يُسيء ويُخجل من فضائح البغاء مشفوعاً بالإحصائيات الدقيقة، والأرقام الكاشفة.

ولعلّ من الاعتراف بالحق لأهله أن نذكر أن الأستاذ داود بركات رئيس تحرير جريدة الأهرام قد أيّد الأستاذ أبا العيون تأييداً منقطع النظير، ففتح له أبواب الجريدة الذائعة ليقول كل يوم ما يشاء، إذ أن داود بركات كان ممّن شغلوا أنفسهم كثيراً بمحاربة هذا الداء قبل صحيحة أبي العيون، وقد ترجم سنة ١٩١٣ كتاباً خاصاً بذلك نقله عن طبيب إنجليزي كبير، ثم أسهم في تأييد الشيخ بمقالات واعية ذات حجج عقلية لا يتطرق إليها التّوهين كما صدر كتاب الشيخ «صفحة ذهبية» بمقدمة رنانة تهدم دعاوي الخصوم وتعصف بها كالهباء.

وكان الأستاذ أبو العيون يتصوّر في بادئ الأمر أن دعوته لن تجد معارضاً من الناس، فهي دعوة الحق والإنسانية والكرامة ولكنه فوجيء بأكثر الجرائد اليومية والمجلاّت الأسبوعية تشنّ عليه حملة ظالمة، تتهمه بالادّعاء والنفاق وحبّ الظهور، بل توقّحت بعض المجلاّت الساقطة فرسمت لأبي العيون صوراً كاريكاتورية مع بعض البغايا في مواقف خليعة دون أن يعصمها خلق أو حياء، ولو كان معارضو أبي العيون من الأغرار الأدعياء لهان الأمر، ولكنهم أعلام الأدب والصحافة في دنيا الناس فجريدة «السياسة» توالي حملاتها الظالمة على الرجل فتقول فيما قالت: «الشيخ أبو العيون يعرف قبل غيره أن ضجّته الكبيرة غير نزيهة، وأن ليس من حكومة رشيدة تأخذ بما يدعوا إليه من رفع الرقابة الصحيّة عن فئة تعسّة من الناس، رمى بها الشقاء إلى بؤرة البغاء، وهو يعلم أنه لا يقصد إلّا الدعاية لنفسه والإعلان عنها.

أما الغيرة على الدين والبكاء على الفضيلة فكلمات جوفاء لم يقصد بها الشيخ لأكثر من خداع الجمهور، وجرّه وراءه مصفّقاً، أما الدعوة إلى إلغاء البغاء الرسمي مع انتشار البغاء غير الرسمي فلا معنى لها، إن مهمته أن يقول: إن البغاء حرام، وقد قالها، أما أن يلبس ثوب الطبيب فتطفّل من الشيخ غير معقول، وإن ما بُني في أجيال لا يمكن هدمه في يوم، وليس أبو العيون بمنّ يستطيع أن يجد العلاج، فهو أصغر من ذلك جدّاً، ومن الإجماع أن يتخذ الرجل اسم الدين لإثارة موضوع خطّره!!».

والعقّاد العظيم يندفع لمهاجمة الرجل أيضاً في (البلاغ) ومجلة «روزاليوسف» تتحدّث بأسلوب ساقط مختلّ، وسلامة موسى يهاجم الإلغاء بتمحّلات زائفة!، وكلّ ما قيل يدور في فلك جريدة السياسة، ويمطّ في عبارتها إذ هي صاحبة المَعول الكبير.

ولم يسكت أبو العيون عن مُناوئيه، فجادلهم بالتي هي أحسن، إذ أخذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين، وقال لمن يزعمون أنه افتات على حقوق الأطباء والمشرّعين في موضوع هم أولى الناس بالحديث عنه: إنه رجع في مقالاته إلى آراء الأطباء الموثوق بهم، والإداريين والمشرّعين، فلم ينفرد في ذلك برأي، ثم إن المسألة تتصل بالدين، فما يجوز للأستاذ فكري أباطة - مثلاً - أن يقول: إن إلغاء البغاء جريمة، وأن يدفع دفعاً فرعياً قانونياً بعدم اختصاص أبي العيون، لأنه عالم دين ومن صميم عمله أن يحارب ما نهى الله عنه، وإن النظر إلى الأمر الواقع باعتباره مسألة لا غنى عنها، مسألة تمنع كل إصلاح وتُعيد قول الذين قال عنهم القرآن الكريم: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مُقتدون﴾، ثم واجه هؤلاء جميعاً بصيحته الرائعة التي يفتتح بها كتابه (صفحة ذهبية) وقد صار غبّ المعارك الطاحنة سنة ١٩٢٨ فقال عن نفسه:

«يميناً لا تقبض تلك اليد بعد أن بسطانها ولو صافحتها السيوف البواتر، لقد التزمنا أن ندافع عن أعراض هذه الأمة المسكينة، وأن نذود عن عفافها ذباداً حقاً، مستهدفين في ذلك لكل خطر حتى جدع الأنف ودقّ العنق. لقد صرخنا في صحيفة «الأهرام» صرخة مدوّية لبّاه أهل الحق، فنهّدوا إلى قلب الباطل نهدة صادقة كان لها الأثر الظاهر، إذ تسابقت مجالس المديریات في هدم دُور الدّعارة، وإلغاء مواخير الفسق، ولولا أن وقفت إدارة الأمن العامّ حجر عشرة في طريق الحق لما بقي لتلك البُور عين ولا أثر، وسيستمع ذلك الصوت الصارخ رجال مصر في برلمانها، وسيكون الفصل في المسألة على أيديهم:

فإما إلى صداحة تطرب الورى وإما إلى نواحة في المآتم

وإذا كان مُعارضو الشيخ من زعماء الفكر في الوطن ولهم أقلامهم القوية وصُحفهم اليومية الذائعة، فقد كان الشيخ كفيلاً بصدد تيارهم الزّاحف، إذ استنهض أنصار الفضيلة من أمراء ووزراء وعلماء ليقفوا معه، وبدأ المسعى بالاتصال برئيس الوزراء وأعضاء وزارته مسجلاً كل ما يقولونه، فناشراً إياه على صفحات «الأهرام»، وكان ذا أسلوب مُقنّع في النقاش لا مجال به للخطابة السطحية والشّقشقة اللسانية، ونقل مثلاً عليه من حديث لرئيس الوزراء إذ ذاك دولة «عدلي يكن باشا» وهو قوله :

«الدّعارة يا دولة الوزير نُظِمَت لأمرين :

١ - مراقبة المريضات بالكشف، وعزلهنّ عن الاختلاط .

٢ - حصر دائرة الفسق في نطاق خاصّ .

وقد ظهر بالاستقصاء أن الكشف لم يؤدّ إلى نتيجة مرغوبة بل بالعكس كان ناشراً للأمراض السريّة، وكذلك لم يحصر الفسق في دائرة، فإن الدوائر الرسمية في العاصمة مثلاً هي : عرب المحمدي، والوسعة، وسيدي زينهم، وهناك دوائر يضيق عنها الحصر كالذهبيات، والعوامات، والأكشاك على شواطئ النيل، والجارسنيرات، والبانسيونات، ومحالّ التدليك، والخياطة، والبيوت السريّة «الجهريّة» وهي ذائعة في كل شارع ومضيق فلم يسع رئيس الوزراء إلّا أن وافق وحبّد.

كما نقل محاجّته «لفتح الله بركات باشا» وزير الزراعة حين قال معاليه : «علينا أن نبحث هل هناك قوانين تقف أمام الإلغاء ونحتاج إلى تدليلها، أو أن هناك عوامل سياسية تمنع تنفيذ هذه الرغبة الشريفة فنأخذ في معالجتها» .

فردّ أبو العيون سريعاً بقوله : «إن لائحة العاهرات صدرت بقرار من وزارة الداخلية، فهي ليست بقانون، بل بقرار، ولا يحتاج إلغاؤها إلّا لقرار وزاري مثله» .

فوافق فتح الله باشا، وقال: سأعدّ نفسي سعيداً موفّقاً إذا كنت من العاملين على إزالة هذا المُنكر الفظيع.

وقد حاول «نجيب الهلالي بك» بمحضر وزير المعارف «علي الشمسي باشا» أن يعترض أبا العيون بقوله:

«إن الزنا ليس بتشريع عندنا، ولكن الحكومة تنظّمه فقط».

فقال الشيخ صريحاً: إن الحكومة تحميه وتشجّع الناس على ارتكاب الفاحشة، وتسمح للغلّمان بغشيان المواخير والمفاسق، فيكون مصيرهم مصير الباغيات، وعندي إحصائية رقمية بذلك، وأخجل من التصريح بأكثر مما ذكرت.

كما كان الأستاذ لَبِقاً سياسياً حين قال عقب هجوم بعض مُعترضيه: إنه لا يستقلّ بمشروع خاصّ في مُحاربة البغاء، بل يَكِل الأمر إلى لجنة ذات كفاءات متنوّعة تشمل القانون والطب والاجتماع والسياسة.

كما صرّح جريئاً بأن بوليس الآداب الذي يتذرّعون بكفائته، قد أصبح مروجاً للفساد بدل أن يكون مانعاً له، وقد استعصى على الطبّ أن يستأصل غوائل البغاء، فلم يبقَ غير استئصال الأساس! ثم استشهد برأي زعيم خطير قال فيه:

«وقد رأينا بعض الكُتّاب يسألون ماذا تكون حالة هؤلاء النسوة بعد غلق مواخيرهنّ، وهذا سؤال بعينه يصحّ أن يقال عن كل فرقة ترتزق من السبل المحرّمة، إذا ما أغلقت في وجوههم هذه السبل: كالمتجرين في المواد المخدّرة وغيرهم، وبعضهم يخاف من انتشار الأمراض السريّة إذا حرّم البغاء الرسمي ورفعت الرقابة الطّبيّة، وهذا منطق معكوس، فإن الإباحة أشدّ نشراً لهذه الأمراض من التحريم، وهذا هو المشاهد الملموس، وواجب الحكومة يقضي بمنع المحرّمات والأمراض الاجتماعية الناشئة عن منعها لا أن تبيحها، ثم تزعم أنها تقاوم ما ينشأ عنها من أخطار».

مهما يكن من شيء فقد طالت المعركة بين الشيخ وخصومه ولكنها انتهت أخيراً بانتصار رأيه، إذ أعلنت الحكومة فيما بعد إلغاء البغاء نهائياً من البلاد، ولم تصادف من العقبات ما توهمه المعارضون، ووضح بجلاء أن أبا العيون لم يكن أصغر من الموضوع الذي تعرّض له، بل كان كفئاً لكل نازلة يقف منها موقف الشجاع الأبيّ حتى يذوق حلاوة الانتصار.

وقد فتح له موضوع البغاء الحديث عن موضوع آخر لا يقل أهمية وخطراً إذا ترك دون علاج، ذلك هو موضوع التعليم الديني ووجوب تقريره بالمدارس المدنية دون إبطاء، إذ أن أحد الشباب الثائر على محاربة الشيخ للبغاء قد كتب في بعض الجرائد يقول: «ماذا يصنع المراهقون إذا ألغِيَ البغاء الرسمي وهم ما بين سنّ الرابعة عشرة والثلاثين، ولا تسمح ظروفهم الاقتصادية بالزواج العاجل، وهم عاجزون عن النفقة على أنفسهم، فكيف بزوجاتهم ومن يجد من أولادهم؟».

ثم اندفع الكاتب إلى حديث سقيم يتحدّث عن حرية المرأة، ووجوب خلاصها من تبعّة رجل معين، وعن نكاح المتعة وقُرب الصلة بينه وبين البغاء، إلى ما لا طائل تحته من الهراء الذي يعتمد على القشور دون اللباب، ظاناً بذلك أنه يضع في طريق أبي العيون حجراً ثقيلاً لا طاقة له بإزاحته!.

ولكن المصلح الذائب قد أدرك مكنم العلة في كل ما ينحدر إليه الشباب من انحراف، وهو الجهل المطلق بالتربية الإسلامية، والاغتراب الشائن عن رعاية الدين ووقايته، فرأى أن المناداة بتدريس الدين الإسلامي باعتباره مادة أساسية في المدارس المصرية، مما يدفع خطر الانحراف عن المراهقين إذا تقيشوا ظلال القرآن، وأشربت نفوسهم تعاليم الإسلام!.

وسارع بالإجابة على اعتراض هذا الشاب المندفع فقال في حديث بصير: «لو أن هؤلاء درسوا منذ طفولتهم تعاليم دينهم الأدبية لشبّوا على كثير من الأخلاق الفاضلة التي فطرهم الله عليها، واعتصموا من جموح النفس ونزواتها بترسم الآثار الصالحة والقُدوة الحسنة، وكانوا يرون في ضوء الدين ونوره صور الرذيلة واضحة

فيما ترميهم به المدنية الغربية من تهتك، ولكانوا يعلمون عن حق أن تلك المدنيات التي يخالونها ضوءاً مزدهراً إنما تنبثق عن فجر كاذب لا يلبث أن يعقبه ظلام حالك.

ثم أتبع القول بالعمل، فدعا إلى مؤتمر لمناقشة الموضوع في ضوء ما يلزم من انحلال الشباب، وطفق يقابل المسؤولين من وزراء المعارف ووكلائهم، مقدماً المذكرات الخاصة بوجوب تدريس الدين الإسلامي في المدارس المصرية على جميع المستويات!.

- ٢ -

وإذا كانت دعوة أبي العيون إلى إلغاء البغاء مع وضوحها الساطع الصريح قد وجدت من أفاض الكتاب من يقف منها موقف المعارض اللجوج، فإن الدعوة إلى تدريس الدين الإسلامي بالمدارس المصرية لم تعد من هؤلاء من يتربص بها السبيل مُحاولاً أن يذهب بها إلى الضياع، ولكن الكثرة العاقلة من ذوي النزاهة قد أزرروا الأستاذ أحسن مؤازرة، ومن ورائهم النابهون من أولياء الأمور، وكانت الصحافة بعض ميادين المجاذبة الفكرية في توضيح الهدف البارز من تدريس الدين الإسلامي، إذ دأب الأستاذ أبو العيون أن يتحدث في مطلع كل عام دراسي عما يوجهه المعترضون على تدريس الدين من شبهات.

وإذا كان بعض هؤلاء المعترضين من كبار رجال التربية، وممن يزعمون لأنفسهم دراية واعية بأساليب التدريس المعاصر، فإن أبا العيون قد واجههم بدراسات مستأنية تنهض في وجوههم دون أن ينال منها المتباصر المتشدق بدراسات علوم التربية والنفس والاجتماع، ولعل أقوى حجة يتدرع بها هؤلاء هي «أن تلاميذ المدارس المدنية يكونون عناصر دينية مختلفة فتقرير الدين في امتحانهم يُنافي وحدة الامتحان، ويُسيء إلى نظم الدرجات، ويدعو إلى تغيير نظام الامتحان تغييراً لا يتفق ومصلحة التعليم»!.

وقد واجه أبو العيون هذا الاعتراض بمناقشة فاحصة تحمل أحد حلّين مُقترَحَين يتلافى بأحدهما ما قد ينجم من خطر في رأي المعارضين، ويسرّنا أن نقول: إن وزارة المعارف فيما بعد قد أخذت بأحد هذين الاقتراحين مع بعض التعديل حين رجع المتباصرون بأساليب التربية إلى صواب أبي العيون بعد أن أقنعهم بما لا مزيد عليه من البرهان!، وقد قال الأستاذ يفنّد حجّة القائلين بأنّ التعليم الديني الذي يُنافي وحدة الامتحان ويُسِيء إلى نظام الدرجات بما خلاصته:

«أما أنه ينافي وحدة الامتحان فصحيح، ولكن هذه الوحدة لم تكن نظاماً جوهرياً في امتحانات الوزارة، لأنها لا تراعي في القسم الثاني من التعليم الثانوي (إذ ذاك) بشطريه: العلمي والأدبي، مع أن شهادتهما واحدة، وقد تؤهلّهما لدخول كلية واحدة، وأما أنه يسيء إلى نظام الدرجات: فمن الممكن تجنّب هذه الإساءة بآلّا تحسب درجات التعليم الديني ضمن درجات الترتيب في حالة نجاح التلميذ، على أن يعتبر راسباً إذا نقص عن النهاية الصغرى المحددة لمادة التعليم الديني، كما يمكن أن نجعل مادة الدين ومادة الأخلاق مادتين اختياريّتين يدرسان معاً للطلبة، كلّ منهما في حصص مستقلة، وعند الامتحان يلزم الطالب المسلم بالإجابة عن أسئلة الدين، ويخيّر غير المسلم بين الإجابة على أسئلة الدين والإجابة على أسئلة الأخلاق، وتُحسب درجات كلّ منهما في النجاح والترتيب أسوة بالمواد الأخرى، وهذا النظام الذي نؤثره على غيره ليس غريباً في نظم الوزارة، إذ عمل به في مادّتي التاريخ والجغرافيا، إذ يكتفي التلميذ بالمدارس الابتدائية (إذ ذاك) على الإجابة عن إحدهما...».

وقد انتهت الوزارة بعد نقاش طويل صبر عليه الأستاذ أبو العيون عدّة سنوات إلى الأخذ باقتراحه الأول مع بعض التعديل، وكان ذلك نصراً أدبياً يُحسب له في سجلّ الكادحين من ذوي الغيرة على الخلق والدين.

وفي خلال هذه الحومة التربوية انفرجت الحلبة عن جهة ثانية نهض لها أبو العيون بشجاعة، حين أنشأ معهد التمثيل في عهد الوزارة الصديقية الأولى، وكان

الرقص التوقيعي بين برامجه، فاعترض الأستاذ بشجاعة على «مراد سيد أحمد» وزير المعارف إذ ذلك، واتخذ من الأهرام منبراً لتأييد نظراته حتى ضجَّ خصومه، واقترح مغرور منهم إحالته إلى مجلس تأديب إذ هاج الرأي العام على معالي الوزير، ثم جاء «حلمي عيسى باشا» فاستجاب لأبي العيون عن اقتناع، وقام الدكتور «طه حسين» وقعد مندداً بالوزير.

وظلَّت الرّحى دائرة حول الرقص التوقيعي حتى استجاب بعض المتسرّعين إلى إعادته، فواصل الأستاذ هجومه وآزره «أحمد مرسي بدر» وزير المعارف في سنة ١٩٤٩ حين قرّر إلغاء الرقص، ومَن يقرأ مقالات الأستاذ المتابعة في هذا المضمّار يعرف أنه ما قصّر في الدعوة إلى السنن القويم لحظة عين وقد جاءت الرياح في هذا الموضوع بالذات بما لا يشتهي، إذ تعاون المفتونون ببرامج أوروبا على تزوير الحقائق، فضّلوا وأضلّوا كثيراً.

ولن ينسى أحد صبيحة أبي العيون شيخ علماء الإسكندرية بالدعوة إلى تنظيم الشواطئ ومنع التبرّج السافر والاختلاط الفاضح، وقد تكالبت عليه الكثرة المفتونة بشهواتها، فملأت الصحف شهيراً بالرجل، وتوالى الصّحف الهازلة ترسم صورتها «الكاريكاتورية» تنديداً بعالم غيور، جاء بالحق من ربّه، وأفك المتخرّصون، فزعموا أنه يدعو إلى إلغاء المصايف المصرية خدمة للمصايف الأوروبية وفق اتفاق سرّي عقده الشيخ مع دُعاة الانحلال!، وهي كذبة مفضوحة ردّت على أصحابها خاسئة ذليلة، بل أن الصحف الجادة قد شاركت الهازلة في بعض الحملة على أبي العيون.

فربّما مثل الدكتور زكي مبارك يكتب في مجلة الرسالة الرصينة ليقول في عناد نقلاً عن العدد (٥٢٩): «ماذا أصنع وأنا أعتقد أن الشواطئ المصرية من أجمل ما خلق الله، وأن زيارتها تزيد في قوة العقل والفكر والدّوق؟، ولن يرضيني أن أفعل ما يفعل الشيخ أبو العيون وهو يتوهّم أن زيارة الشواطئ تفسد الأخلاق، إن أبا العيون يغرق في كوز ماء، فكيف نسمع كلامه في البحر المحيط؟، لقد آن

الوقت لأن نُسمعه كلمة الحق، أن الوقت لأن ننهاء عن الغضب من حياة الشواطىء، وهي نعمة عظيمة من الله بها المنعم الوهاب على أهل هذه البلاد، إن أبا العيون الواعظ يحتاج إلى واعظ، وأنا أخشى أن يغضب الله عليه إن استمر على هذا الأسلوب من الوعظ المقلوب». إلى آخر ما قال.

وقارىء كلام الدكتور الحضيف يظن أن أبا العيون يحارب المصايف المصرية، ويدعو إلى إبادتها كما أرجف عليه سفهاء الصحف المبتذلة، مع أن الشيخ يدعو إلى تطهيرها من الموبقات وقد لخص دعوته الهادفة في اقتراحات موجزة، رفعها إلى نفر من المسؤولين، ودعا إليها بالأهرام، حيث أجزها في هذه النقاط التي نقلها عن ص ٣٨٨ بالمجلد العاشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٨ إنصافاً للتاريخ! وها هي ذي:

١ - تخصيص حمامات للسيدات مجاناً في المناطق القريبة كالشاطبي والإبراهيمية وجليمو، أو تخصيص زمن للسيدات صباحاً كما هو متبع في بعض المصايف الأخرى، مع وضع رقابة على هذه الحمامات لوقايتها من عبث الشبان بوساطة البوليس فتوجد فرص للأسر الحريصة على صيانة كرامتها وشرف آدابها من اختلاط الجنسين وعبث المستهترين.

٢ - إيجاد نقطة دائمة من البوليس في كل بلاجات الثغر بشرط أن تكون النقطة ثابتة لا تنتقل من مكانها، ويكفي في كل بلاج كونستابل وجنديان لمعاونته.

٣ - تعديل لائحة الآداب الخاصة بالشواطىء بما يمنع أي منظر مخالف للآداب العامة سواء في الماء أو على الشاطىء ويترك هذا لتقدير رجل البوليس الذي يختار من ذوي السيرة الشريفة، والسّمة الحسنة.

٤ - ينص في اللائحة على أن يخول للبوليس سلطة إزالة أي كايينة استحمام أهلية تحدث فيها أمور مخالفة للآداب ويكون ذلك عقب إنذار يوجه إلى ساكن الكايينة كما تكون الإزالة على نفقة صاحبها.

٥ - تقفل الشواطئ جميعها، وتُخلّى من جميع ساكنيها وقت الغروب مباشرة.

٦ - يؤلف بوليس نسائي لحماية هذه المقترحات مع التعاون بين بوليسي آداب المدينة والبلدية!

ولا تزال هذه المقترحات العادلة تتطلب التنفيذ السريع وإن ذهب صاحبها إلى رضوان ربّه، تاركاً آراءه الصالحة نبراساً للعاملين، بعد أن أسهم في كل نهضة اجتماعية مخلصه وحارب كل رذيلة فردية أو جماعية، مُستهيئاً بما يهدّد منصبه وحرّيته، ونمّثل لذلك بحملته على الحفلات الماجنة التي أقامتها شويكار ودعت إليها فاروق، إذ كتب مقاله الشهير مفتتحاً بقول الراجز:

إحدى لياليك فهسي هسي لن تنعمي الليلة بالتعريس

فترك من الأثر ما جلجل صده في الضمائر والأسماع! وما بنا أن نفصل فحسبنا أن نشير.

أما نشاطه السياسي، فقد بدأ به كاتباً في جريدتي «المؤيد» و«اللواء» أيام كان طالباً بالأزهر، فمدرّساً ناشئاً يخطّ طريقه العلمي، وقد أمدّته مدرسة «مصطفى كامل» السياسية بجذوة مشتعلة تلهب صدره ضدّ الغاصبين، وكان على يده وأيدي رفقائه من خطباء الأزهر اندلاع الثورة المصرية في البلاد عقب اصطدام الإنجليز «بسعد زغلول»، إذ خطب أبو العيون منذداً بالاحتلال في جمع حاشد لم يترك مكاناً لقدم بالجامع الأزهر، ثم انطلق الشائرون في أول مظاهرة كبرى أزعجت الإنجليز، وفوجيء بها «سعد زغلول» نفسه كما ذكر «العقاد» في تأريخه عنه، إذ أن الزعيم الكبير لم يكن يتصوّر أن تنتفض البلاد انتفاضة رنانة ما بين عشية وضحاها، ولكن خطباء الجامع الأزهر: من علماء ومُحامين وطلاب ومدرّسين قد أعلنوا صرختهم المدوّية، فدفعوا بالجمهور إلى مظاهرات عاصفة قادها أبو العيون، ومصطفى القاياتي، وعبد ربه مفتاح، وعبد اللطيف دراز على نحو ما ذكرناه في مقال لنا بمجلة الأزهر من قبل.

وإذا كان الحديث هنا مقصوراً على أبي العيون فإننا نذكر أنه تعرّض إلى رصاص الاحتلال أكثر من مرة، وحكم عليه بالسجن الجائر، فانتقل به الإنجليز إلى معتقل نازح على حدود رفح، فما لانت له قناة.

وقد رأى المحتلون أن العاصمة الكبرى فوق منالهم بما ألهب خطباء الأزهريين من حمية ثائرة يندلع لهيبها في كل صدر، فأرادوا أن يتقمموا من الإسكندرية انتقاماً يكون موضع العبرة للقهريين، فقاموا بمذبحة حمراء ذهب ضحيتها عشرات الأبرياء من الشهداء وطار النبا إلى القاهرة، فكان أبو العيون أول خطيب ثائر ندّد بالمذبحة الحمراء في ألفاظ غاضبة تقتلع الأطواد، فأجج النار في صدور المصلّين يوم الجمعة بحيث خرجت الأفواج الغاضبة في مظاهرة مدوية قاومها الإنجليز بالرصاص فسقط عشرات الشهداء، واعتقل الخطباء مرة ثانية، وعلى رأسهم أبو العيون.

والعجيب: أن الرجل قد واصل جهاده القومي في ظلام السجن، فأخذ يرسل المقالات الملتهبة إلى الصحف الوطنية، وحُرّض السجن البريء على مقاطعة ملنر^(١) في مقال وقّعه بإمضاء محمود أبو العيون السجين رقم ٤ برفح، فكان لتوقيعه مغزى كبير لدى الوطنيين والمحتلين معاً.

ثم خرج من السجن ليكتب مقالاته السياسية تحت عنوان (الصحيفة السوداء) وقد بدأها في ٦ يناير سنة ١٩٢٢ وختمها في ١١ فبراير من العام نفسه، فانتظمت سبع عشرة حلقة تتكلم عن جرائم بريطانيا منذ دُنست أرض مصر، وتفصح مآسيها في كل مرفق من مرافق الحياة بوادي النيل متحدثة عن تدهور الجيش والخزانة والتعليم والصحة والمستوى الاجتماعي على أيدي الدخلاء، ومؤيدة بالإحصاءات المدعمة بالأرقام، وكان الأستاذ قد أعدّ نفسه لهذه الحلقات من سنوات.

(١) من بحث جيد عن أبي العيون، للأستاذ أنور الجندي في كتابه، «أعلام وأصحاب أعلام»، ص ٤٠٦ وما بعدها.

وكان طبيعياً أن يغضب أعداء البلاد لجرأته الصارخة فحققوا معه، ولم يجدوا ما يتهمونه به في التحقيق، إذ بهر وكيل النائب العام بصدقه وإخلاصه، فاكتفوا بنقله من القاهرة وحرّم على جريدة «الأهرام» أن تنشر مقالات له تحت عنوان (الصحيفة السوداء)، وما زال المجاهد يدافع بلسانه خطيباً ومتحدثاً وبعيداً وقريباً، بعد أن جيل بينه وبين الصحف حتى قرّت الثورة وهذا الناس!

وإذا كان الفارس الأصيل لا يترك ميدان الكفاح في أية مناسبة تتاح، فإن أبا العيون قد خرج من نشاطه السياسي ليفتح جبهة اجتماعية يندّد فيها بما لمس من تدهور خلقي ساعد عليه الاحتلال، وروجّ له الملوّثون بأقذار أهوائهم، والمنخدعون بقشور الحضارة الأوروبية الوبيثة، دون الالتفات إلى لبابها الجادّ العامل، فتصدّر «الأهرام» ليخطّ مقالاته الرنانة تحت عنوان (يا ضيعة الأخلاق في عهد الحرية) في عشر مقالات حافلة بالتنديد والتوجيه معاً، وذلك بعد أن نجح نجاحاً ملموساً في محاربة البغاء بمعركة دامت بضع سنوات، فهيّ الأذهان إلى استفظاع هذا المنكر.

ثم انتقل إلى الحديث عن الأخلاق بعامة في مقالاته العشر، فأعلن أن ثورة سنة ١٩١٩ قد تمخّضت من الناحية الاجتماعية عن شرور خلقية مبيدة، لأن بعض الكاتبين من عملاء أوروبا قد خدشوا الكرامة الخلقيّة بما ترجموا من اعترافات ساقطة، وما وضعوا من مسرحيات جنسية هابطة ولم يروا غير الإباحية مجالاً لإسفافهم الشائن، فتأثر بهم القارئون من الشباب، واندفعوا إلى التخلّص من آداب الشرف والكرامة تحت ستار الحرية والتقدّم الحضاري، وقال الأستاذ في نخوة نائرة:

لقد كانت النفوس قبل هذا العهد بعيدة عن الأغراض والأهواء، وكانت أحكام الدين والأخلاق تدرك وتحترم، ولكن القحط الخلقي أصاب اليوم جماعة الشباب فأوهى فيهم الروابط الاجتماعية، ومكّن للزيلة من نفوسهم، فانغمسوا في حمايتها، وأصبح الكثير منهم يحذق الملق، والكذب والنفاق، ويألف الذلّة والهوان، وأصبحت الكفاءات والأهواء بمقدار ما يبذله الشاب لرئيسه من التخصّص

والمداهنة والرشوة، حتى صرت لا تجد من الشباب المتعلّم - إلا قليلاً - من لا تنازعه نفسه إلى فجور، ولا تفتح له عين لريبة، فلا يلحقه في ذلك ذم، ولا تناله وُصمة.

ولقد نظم كثير من أولئك الشباب للمآثم والمشايين دوراً ونوادي يختلف إليها الجنسان، وفي ساعة يغفل فيها الزمان تستباح كرامات، وتُمْتَهَن أعراض، ومن البليّة أن تجد نفوس أولئك الشباب قد مرضت مرضاً خلقياً لا أرى علاجه هيناً، فهم لا يرون عيباً في اقرار أيّ شائنة تكون بعيداً عن العمل الرسمي، لأن تلك في نظرهم الخاطيء مسائل شخصية، لا تُسيء إلى العمل ولا إلى المجتمع في شيء، وأعجب أن تكون حالهم على ما وصفنا، ثم يؤمنوا في وظائفهم على دائق أو سحتوت، كأن الذم تجزأ والضمائر تنقسم!

ولن نستطيع أن ننقل أكثر من هذه السطور، ولكننا ندعو القارىء إلى مطالعة مجموعة جريدة «الأهرام» سنة ١٩٣٤ ليرى نصوص هذه المقالات النارية كما خطّها كاتبها الغيور، كما يلمس صداها لدى القراء والكاتبين فيما حاولوه بإزائها من تعقيب.

والحقيقة أن أبا العيون كاتب اجتماعي غفل عنه المُنصِفون وكأنه - رحمه الله - ساعد على هذا الإهمال، حين ترك آثاره الكثيرة بدءاً في الصّحف، دون أن يجمع مختارات منها في بضعة كتب تُسَعِفُ القراء، ونحن في زمن كثرت فيه الدراسات الأدبية والاجتماعية، ونهض طلبة «الدكتوراه والماجستير» في كليات الجامعات للحديث عن أصحاب الأقلام: من الأدباء والباحثين في رسائل جامعية تُعَدُّ وتُنَاقَش وتُمنَح عليها الدرجات العلمية، أفلا يقوم طالب من هؤلاء بالبحث عن خصائص أبي العيون الكتابية أو اتجاهاته الإصلاحية، أو نشاطه القومي في الثورة المصرية، أو يجمع ذلك كله في ترجمة تحليلية تمده بالطيب المُفيد من التفكير والتحليل والتدليل.

نأمل أن نرى مثل هذه الدراسة الجامعية قريباً، فنعلم أن أمثال أبي العيون من حُماة الفضيلة وأبابة الضيم، وأئمة البيان المذكورون مقدّرون، لا أنهم كما نلمس الآن محفون مهملون.

عبد الحليم محمود الإمام النوراني

- ١ -

لا يفارقك - وأنت في مجلس الإمام: عبد الحليم محمود - إحساسك أنك مع إنسان يعرف ربّه، وأنه بهذه المعرفة الحقيقية قد ارتفع إلى مستوى وضيء، فأنت معه في مكان واحد، ولكن شعورك يدعوك إلى أن ترى أنه في السماء وأنك في الأرض، والإمام - رضي الله عنه - متواضع نبيل، لا يأتي بما يوحي بأنه من طراز نادر، ولكن هيئته تملأ مشاعرك، وتواضعه الذي يكاد يكون مسكنة مطمئنة يزيده لآلاء، ويزيدك إجلالاً للعارفين بالله، فتحاول أن تسمع منه ليعطيك، مفضلاً ماثرة السكوت الناطق أمام وجهه وضيء الملامح، طاهر القسّمات، تنطق أساريه المؤمنة بمعانٍ لا تعرفها الأرض، لأن بوارقها الفاتنة تلوح في الأفق الأعلى كما تلوك أشعة الشمس، وضياء القمر.

والإنسان - وإن كان بشراً حياً - فمن أنواعه: ما يأتلق ويشعّ ويضيء، مثل: محمد عبده وعبد الحليم محمود!!.

طلبني الأستاذ: عبد الحليم محمود هاتفياً من كلية اللغة العربية ذات صباح، فسارعت إلى تلبية دعوته، وكان حينئذ أميناً عاماً لمجمع البحوث، فأنسني بمقدمات مشجعة، ثم سألتني في هدوء: ماذا تعرف عن ابن عطاء الله السكندري؟ وكان السؤال مفاجأة لي، ولكن الله أمدني بما يرفعني في عينه، فقلت وقلت،

فابتسم الشيخ، ثم قال ملاطفاً: تذكر، فأنت تعلم أكثر من ذلك، فتذكرت، وفتح الله عليّ بما أتم وأكمل، فقال الشيخ: حدثني عن رأيك في حكم ابن عطاء السكندري، فكأنه مهّد لي طريقاً جديداً للقول، فأفضت، وحين انتهيت من الحديث، قال الشيخ في هدوء: اجمع كل ما قلته لي في مقال جيّد، واكتبه سريعاً، ليكون فاتحة لفتح باب تبرّع خيري كي أبنّي ضريح ابن عطاء بسدفن الإمام: الليث بن سعد في جُمى الشافعي، لأنني زرتّه من أسبوع، فعزّ عليّ أن يكون مثواه هكذا، وهو الإمام العارف الحكيم.

اكتب المقال وادعُ أهل الخير إلى الخير فهم كثيرون، وسيحجز مكانه في مجلّة الأزهر من الآن، ليكون في مقدمة العدد القادم، فشكرت للإمام ثقته بي، وبادرت بتسطير المقال، فعلمت من إدارة المجلّة أن الأستاذ عبد الحليم هو الذي فتح باب التبرّع بجزء كبير من راتبه الشهري، وأنه يتعجّل النشر ليدفع أهل الإحسان إلى الإحسان، وقد تمّ للشيخ ما أراد، فهيّا الضريح اللائق وحفظ لابن عطاء حرّمته لدى الزائرين!!.

هذا موقف عادي، ولكنه ملأني تقديراً للرجل، فأخذت أحرص على قراءة آثاره، وأرصد مناحي توجيهه، إذ كان في سلوكه المتصوّف نمطاً فريداً بين زملائه المماثلين. فالرجل ضليع كلّ الضلاعة في ثقافته المتشعبة العريقة، درس الفلسفة بفروعها المختلفة، على أساتذتها الكبار في فرنسا، وكتب وترجم فصولاً كثيرة تمتّ إلى علم النفس، وعلم الاجتماع والأدب المقارن، والفلسفة الحديثة بفروعها المختلفة ثم نال رسالة الدكتوراة في فرع من فروع الفلسفة كان مهوى فؤاده.

وكان المُتَظَر من مثله أن يعود إلى الوطن مُبَاهِياً بما درس من أعلام الفكر الحديث في أعرق بلاد الفكر الحديث، ولكن الرجل الفرد عاد ليكون فرداً في اتجاهه المثالي، فليت شعري ماذا كان؟!

إن النفوس البشرية في شتّى مراحل الزمن منذ خلق الله آدم، إلى أن يرث الأرض ومن عليها تشابه وتتماثل، فقد يوجد في عصر بعيد مُفكّر تدعوه مُلابساته

الشخصية إلى وجهة ذاتية يؤمن بها كل الإيمان، ثم تمرّ القرون وراء القرون ويأتي مفكر آخر يقع في مثل هذه الملاحظات، ويتميز بما يتميز به سابقه من قوة النفاذ، ويُبعد الاستشفاف، فيعيد كثرته في الحياة، لا عن تقليد يُحتذى ويُتابع، بل عن اتفاق مطابق في طريق واحد متعارف الخطوات، محدّد الاتجاه.

وهذا ما كان من أمر عبد الحليم محمود، حين اتفق في طريق سلوكه مع أبي حامد الغزالي، إذ بدأ كما بدأ دارساً فاحصاً، متعطشاً متطلعاً، ناقباً منقراً، ثم انتهى إلى ما انتهى إليه: صوفياً ذوّاقاً، لقلبه عين بصيرة ترى ما لا يراه الناظرون، ولعلّ الإمام عبد الحليم محمود قد فطن إلى ذلك، حين أثر أن يشرح كتاب: (المنقذ من الضلال للغزالي) وأن يفسّر اتجاهاته، وأن يقرّره على طلابه، في كلية أصول الدين، حيث كان يعتقد: أن الغزالي يعبر عن نفسه وينطق عن وجدانه، ولست أقول ذلك استتاجاً عقلياً فحسب، ولكنني قرأت ما كتبه عبد الحليم عن الفلسفة الغربية الحديثة، فاعتقدت اعتقاداً جازماً: أنه يؤلف نسخة جديدة من: (تهافت الفلاسفة) التي ألفها الغزالي من قبل، مع فارق واضح هو: أن الغزالي كان يهدم الفلسفة كما تراءت مقرراتها في زمانه البعيد، أما عبد الحليم: فيهدم الفلسفة كما تلوح الآن في صُحف المحدثين، وأخال القارئ متعطشاً إلى بعض الحقائق المجملّة في هذا النطاق، فإليه ما يريد:

تحدّث الأستاذ عن أرسطو باعتباره ممثلاً للفلسفة القديمة، فرأى أن منطق لا يحسم خلافاً، ولا يفصل حقاً عن باطل، إذ أنه يقوم على الاستقراء وعلى القياس، والاستقراء يُبنى على الحسّ، لأنه استقراء مُجسّات، فهو يتبع جزئيات تتصل بالواقع المُشاهد، ولا تطفن إلى الغيب المستور، وليس الكون جميعه في مكنة الحواس فيه ما استتر واحتجب، وبه ما كان مستتراً أيام أرسطو، ثم استطاعت المَجاهر العلمية أن تقف عليه، فكيف يحكم أرسطو عن طريق الاستقراء بما لا يستطيع استقراءه؟ إذ ليس من قدرته الاستقصاء المتبّع، الاستقراء بنوعيه: الناقص والتام لا يُفضي إلى يقين، فإذا وصل إلى مثل هذه القضية: (كل معدن يتمدّد بالحرارة) ويعدها صحيحة عن طريق الاستقراء، فليس من المُحال أن

يكشف الغد القريب معدناً لا يتمدد بهذه الحرارة، وإذن فقضايا الاستقراء ناقصة لا تستند إلى يقين.

أما طريق القياس فمرکب من مقدمات، لا يشترط أرسطو ومن تبعه أن تكون هذه المقدمات صحيحة في ذاتها، بل يشترطون أن يسلم بها الخصم فحسب، لأن التسليم الجدلي مُعترف به لديهم، وإذا كانت تلك منزلة المقدمات لديهم، فما قيمتها إذا كان لا يعول على صحتها الدقيقة؟ هذا إلى ما يتضمن القياس من استقلال دوري فاسد: لأن قولك «زيد إنسان، وكل إنسان ناطق، فزيد ناطق» يتوقف على العلم بأن كل إنسان ناطق، ولا يستطيع أحد في الحياة أن يستقرىء النوع الإنساني بأجمعه ليتأكد مما يقول، وإذن: فالتعميم مفسدة، والفضية الكبرى باطلة بيقين.

فإذا تركنا الفلسفة القديمة إلى الفلسفة الحديثة لدى ديكارت: فإننا نجدها قائمة على الشك، فقصاراها: أن تترك في مهابّ الريح وإذا استندت إلى يقين جازم ساعة من زمن فإن الساعة التالية ستعصف بيقينك.

ومن هنا: تتابع فلاسفة العصر الحديث لا ليشد بعضهم أزر بعض، بل لينكر بعضهم بعضاً، بل وصل الأمر بالفيلسوف الواحد أنه ينكر ما قال، وهذا جائز، لأن البحث قد يهدي إلى الحق، ولكن المأساة في هذا الفيلسوف بعينه أنه في يوم قابل ينكر غده القريب، ليعود إلى رأيه الأول، ثم يعصف به الشك، فينقل إلى الثاني! فأَيّ فلسفة تلك التي لا تستقر على حال؟.

يقول الأستاذ: «عبد الحليم»^(١) بعد استعراض طويل لهذه المسائل:

«فكرت إذن في اختلاف الآراء، وفي هدم بعضها بعضاً في مواجهة كل ما يقوله الأستاذة، وكنت أقول في نفسي لأستاذ فيلسوف: سيهدمك المعاصرون لك، وسيهدمك الذين يأتون بعدك! وكنت أقول في نفسي: إذا كانت الأخلاق نسبية،

(١) مجلة الأزهر، ربيع الآخر ١٣٩٨ هـ، ص ٣٠٦.

فهل سيأتي الزمن الذي نعتقد فيه أن الصدق رذيلة، وأن الخيانة فضيلة، وأن العفة جريمة، وأن الشجاعة شطط؟ بل هل يأتي الوقت الذي لا نقول فيه بوحداية الله؟ ثم أدقق وأدقق فأقول: كلا.

هذا هو الجوّ الذي سيطر على الدكتور في أوروبا، وقد يش من فلسفة القوم، فاتجه إلى يقين المعرفة عن طريق القلب، كما اتجه الغزالي من قبل: أليس التوافق تاماً بين الرجلين؟.

لنترك الدكتور: «عبد الحليم» يتابع حديثه عن اتجاهه الصوفي إذ يقول^(١): «بعد تردّد بين هذا الموضوع أو ذاك هداني الله - وله الحمد والمِنَّة - إلى موضوع التصوّف الإسلامي، فأعددت رسالة عن (الحارث بن أسد المحاسبي) فوجدت في جوّ «الحارث بن أسد المحاسبي» الهدوء النفسي، والطمأنينة الروحية، هدوء اليقين، وطمأنينة الثقة، لقد ألقى بنفسه في معترك المشاكل، التي يثيرها المبتدعون والمنحرفون، وأخذ يصارع مناقشاً مُجادلاً، وهادياً مرشداً، وانتهت من دراسة الدكتوراة، وأنا أشعر شعوراً واضحاً بمنهج المسلم في الحياة، وهو منهج الاتّباع. لقد كفانا الله ورسوله كل ما أهتمنا من أمر الدين، وبعد أن قرّ هذا المنهج في شعوري، واستيقنته نفسي، أخذت أدعو إليه كاتباً ومُحاضراً، ومدرّساً، ثم أخرجت فيه كتاب (التوحيد الخالص) وما فرحت بظهور كتاب من كتيبي، مثل فرحي يوم ظهر هذا الكتاب، لأنه خلاصة تجربتي في الحياة الفكرية».

لقد كان التصوّف منقذ الإمامين معاً، وهو تصوّف عاقل فعّال، لم يكن هروباً من الحياة، بل كان علاجاً لمعضلاتها، لقد كان عبد الحليم لا يفارق الناس إلّا عند نومه، ولكنه يزور ويرحل ويجتمع ويناقش، ويدفع إلى الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر. والفرق بينه وبين سواه من النظريين، أنه يصدر عن يقين، وينفعل عن عقيدة، وينصح عن إدراك، وقد فهم رسالة المسلم في الحياة، فهم أنه خليفة في الأرض.

(١) مجلة الأزهر، ربيع الآخر ١٣٩٨ هـ، ص ٣١٨.

ومن هنا كان التصميم التام أقوى دعائمه الإصلاحية، وكان النجاح المُثمر نتيجة هذا التصميم، لأنه تصميم الموقن الجازم، تصميم المتصوّف، الذي اعتقد أن عمره في هذه الحياة مرحلة محدودة، تُعدّ ابتداءً لمرحلة مقبلة غير محدودة، حين يقرأ كتابه عند ربّه، فيجد سجلّه الواعي الدقيق، لا يغادر من كبيرة أو صغيرة إلّا أحصاها! هذا الإيمان الجازم الموقن، هو مفتاح شخصية «عبد الحليم» وبه حالفه التوفيق وآزره النجاح.

- ٢ -

حين انتقل - إلى رحمة الله - عبد الحليم محمود، تحدّثت عنه بعض الصّحف الأوروبية، بما يخالف الواقع، فقد عدّته متعصباً شديداً التعصّب ضدّ المسيحية، لأنّه أبى أن يشترك في ندوات تدعو إلى تعاون المسيحية والإسلام، والغرض يعمي ويصمّ، لأن الدين كتبوا هذا الهراء يعلمون من هو: عبد الحليم محمود في صدق تسامحه، وطهارة ضميره المؤمن، وشفافية تصوّفه، وقد كانوا يظنّونه درويشاً ساذجاً ينخدع بالثناء الكاذب، والمؤتمرات الظاهرية التي تُبدي السطح الساكن، وتحجب الغور الثائر الممتلئ بشعابين البحار ووحوش الأمواج.

لقد درس الدكتور: عبد الحليم مأساة التبشير ظاهرة ومقنعة، ولمس جهود السابقين من شيوخ الأزهر في مجال التسامح الديني، وعرف أن الأستاذ الإمام محمد مصطفى المراغي حبّد فكرة مؤتمر الأديان، وأرسل كلمة ضافية تدعو إلى السلام الروحي، وتمنع أن يتشاجر رجال الدين كما يتشاجر سماسرة البورصة في سوق الرّبا، فكانت النتيجة أن واصل المبشّرون اعتداءاتهم الصارخة على الإسلام، بمحاولة تنصير أبنائه في أفريقيا، ودسّ الشُّبهات المسمومة في تعاليمه بأيدي قساوسة المستشرقين، تحت ستار البحث العلمي النزيه!

وقد تطلّع الدكتور عبد الحليم إلى عوامل هذه البغضاء الكامنة في أوروبا وأمريكا نحو الإسلام، فلمس أن الكنيسة تُقيم جهازاً دقيقاً للتبشير بين المسلمين في أفريقيا وآسيا، وأنها تبني المستشفيات والمدارس لا للعلاج والثقافة بل لتشويه

مكانة الإسلام، وتخالف الوقائع حين تعلن على لسان مبعوثيها أن الإسلام دين وثني! وهو دين التوحيد الخالص، والمسيحية بإزائه لا تصل إلى أصلته العريقة في التوحيد!.

ماذا كان ينتظر من عبد الحليم محمود: أمين المجمع، ثم وزير الأوقاف، ثم شيخ الأزهر، وزعيم المسلمين الروحي في كل بلد يعتنق الإسلام وهو يشاهد العمل المنظم المؤبد بالمال والذخيرة لاستئصال الإسلام من مواطن انتشاره في أفريقيا وآسيا؟.

ماذا كان ينتظر من شيخ المسلمين، وهو يرى البحوث التبشيرية تقلب الحقائق رأساً على عقب، مُحاولَةً أن تجعل الإسلام دين الصور والتماثيل والأصنام بغياً على الحق، وافتراء على الله؟.

لقد رأى الإمام المراغي يُبدي تعاونه المخلص، وشاهد الدكتور محمد عبد الله دراز ينطق بسلام الإسلام وتسامحه في مؤتمر الأديان، ليؤكد ما قال: المراغي من قبل، ثم شاهد ما أعقب ذلك من شذوذ مُنافِق لثيم، حين خرج المؤتمرون من رجال المسيحية على ما قرّروه، فأخذوا يطبّقون تعاليم الكنيسة في هدم الإسلام!.

أَيكون الرجل متعصباً لأنه جهر بالحق، وكشف خداع مَنْ يظنون إمام المسلمين درويشاً متصوّفاً لا يُبصر ما حوله وجاؤوا يُنافقونه بتقديم صورة زيتية مكبرة له في إطارٍ مُذهّب جميل، ليوافق على حضور المؤتمرات؟!.

لقد كان الإمام حاسماً حازماً حين واجه الحقائق بلسان الصراحة، وحين ردّ هذه الدعوات المسمومة ردّاً صريحاً لا تعوزه شجاعة الحق، وجهارة الإيمان، فكتم أفواهاً تعودت القول المعسول والفعل المردول، حين قرأت ردّه الصريح الذي نسعد بتسجيله، ليكون عبرة ناطقة لمن ألقى السمع وهو شهيد قال الإمام - رضي الله عنه - في خطاب وجهه إلى الدكتور: ميجيل دي ايبالثا - سكرتير عام جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية بمدير - إذ دعاه للاشتراك في مؤتمر تعاوني للمسيحية والإسلام، قال بعد الديباجة:

«إن الإسلام منذ بدأ خالف الجوّ العالمي اليهودي والوثني في أمر عيسى - عليه السلام - وأمه، فهو وجيه في الدنيا والآخرة، وأمه صديقة طاهرة، فماذا لقي المسلمون من المسيحيين مقابل ذلك؟»

إن المسلمين والمسيحيين يعملون على مقاومة الانحراف والانحلال والمادية والإلحاد، وكان يجب أن يسيروا في خطّ متعاون متساند ضدّ التيارات المنحرفة، ولكن - للأسف - يسير المسيحيون في طريق تنصير المسلمين بالقوة، فهم يعملون ليل نهار على أن ينصّروا المسلمين في كل مكان في العالم، وكل الدول الغربية وأمريكا ترسل الإرساليات لتنصير المسلمين بأسلوب مكشوف واضح، أو بأسلوب خفيّ مستور، ويضيق المسلمون بذلك ضيقاً شديداً، ورغم ذلك فإن ملايين الجنيهاً تُنفق في سعة للتنصير بكل الطرق.

ومما هو مُلاحظ: أن الدول الإسلامية ليس لها إرساليات تبشيرية، وقد أرسل المسيح لهداية خراف بني إسرائيل الضالّة ومع ذلك فإن المسيحيين تركوا خراف بني إسرائيل الضالّة وأخذوا يعملون على تنصير المسلمين، تساعدهم الثروة، وتساعدهم وسائل الحضارة الحديثة، ولو حصروا نشاطهم في تنصير الوثنيين لمّا أثار ذلك ضيق المسلمين الشديد، وكراهيتهم للأسلوب، ولموضوع التنصير نفسه!

والمسلمون أقليّات في بعض الأقطار المسيحية، مثل: الفلبين وهذه الأقليات ينكّل بها باسم المسيحية، تؤخذ أرضها ويؤمّ أطفالها، وترمّل نساؤها، ولا تجد إلّا ارتياحاً في نفوس الأغلبية المسيحية!.

وفي المؤتمرات التي تُعقد في إسبانيا وغيرها، هناك أسلوبان للحديث:

أ - التزام العقل: وفيه يتحلّل المسلمون من مبادئ دينهم فيتناولون المسيح - عليه السلام - وأمه بالأسلوب العقلي، فيكون موقفهم منهما موقف اليهود، إذ يقولون عن مريم وابنها ما يضيق به المسيحيون ضيقاً شديداً، ولكن المسلمين في

هذه المؤتمرات يتبعون مبادئ دينهم فيحترمون المسيح وأمه، على حين تجد بعض المتحدثين من المسيحيين عن الإسلام يتناوله بما يضيق به المسلمون!.

ب - أما الأسلوب الثاني: فهو التزام بما تُمليه روح التفاهم، فلا يُساء إلى المسلمين في مقدّساتهم، ونحن من جانبنا قد قدّمنا أسس التفاهم واضحة سافرة في احترام المسيح وأمه فماذا قدّم المسيحيون؟ لقد هاجموا رسول الإسلام، وما زالوا يهاجمون مبادئه!، أفيمكن مع ذلك التفاهم؟.

إن الإسلام هو العامل الأكبر في تثبيت المسيحية حين اعترف بوجود المسيح، وحين برأ أمه، ومع ذلك فقد قوبل بجحود لا مثيل له، وما زال يقابل بهذا الجحود من المسيحيين وقد أدى أكبر خدمة أدّيت للمسيحية^(١).

هذا ما قاله الإمام! وهو كلام يردّ الهجوم، ولا يوحى بالتعصّب في شيء! . وكيف يكون متعصباً مَنْ يندفع إلى تأييدك، ويتعاون في سبيل سلام عادل بينك وبينه، ثم يراك تحاربه ظاهراً وباطناً فيما يعتقد، وترميه بدائك وتنسّل حين تزعمه متعصباً وقد غرقت في طوفان التعصّب وحدك؟

لقد كان على اللاّثمين أن يرجعوا إلى أعمالهم قبل أن يُخدعوا بأقوالهم، فالحقّ أبلج صريح، والباطل يذهب جفاءً دون نفع.

لقد كان الإمام منطقياً في سلوكه، وقد أورد الأدلة الصريحة دون صخب أو ضجيج، وهو في مؤلفاته الكثيرة التي بلغت حدّ المائة لم يكن يتكلّف القول ليُظهر مقدرة عقلية، ولكنه كان يهتدي بهدي الداعية في غير مؤلفاته الجامعية، فيلجأ إلى مخاطبة القلوب، وترطيب المشاعر!! .

كنت تستمع إلى الرجل في أحاديث وعظه - وما أكثرها - إذ كان لا يخلو مجلس له من عِظة دينية في مسجد أو توجيه إسلامي في محاضرة، أو دعوة إلى

(١) مجلة الأزهر، السنة الخمسون، رجب ١٣٩٨ هـ، ص ٦٧٧.

مشروع خيرى في محفل، كنت تستمع إلى دارس السربون، وأستاذ الفلسفة، وعالم النفس، ومترجم الروائع العالمية في الشرق والغرب، فتخيّل إذا لم تكن سمعته من قبل، أنك أمام بحّاة، مَكِين، يجادل بعلمه، ويصاوم بعقله، ويقنع ببراهينه، ويُدهش بتعبيره شأنه في ذلك شأن مَنْ جعلوا الكلام صناعة رائجة، وحيلة لافنة ولكنك لا تجد شيئاً من ذلك كله بل تجد بساطة التعبير، ويُسر الهدف!!.

فما سرّ ذلك كله؟.

لقد اهتدى الإمام بعد عناء طويل في رحلته الفكرية إلى أن القلب موضع إقناع المؤمن، فالؤمن لا يتطلب تغلغل العقل كي يقتنع، ولكنه يلتبس ماء الهداية كي يرتوي!.

المؤمن: مؤمن، قام يقينه على صخرة ثابتة لا تعصف بها الأعاصير، ولا تنال منها الزلازل، وقد آمن بكتاب ربّه وسُنّة نبيّه، وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وفي ذلك كله ما يقدّم الغذاء الهنيء والطعام المريء.

يصعد الإمام المنبر في مناسبة عامّة، فلا يجعل هذه المناسبة تأخذ عليه أقطار تفكيره، لأن المناسبات تتكرّر كل عام، وقد ألّم المجتمعون بما قيل في موضوعها سنة وراء سنة: فالهجرة والميلاد النبوي، والإسراء، وصوم رمضان، وذكرى بدر وفتح مكة، ورحلة الحجّ والعمرة، مما تُقام له الحفلات العامّة وقد شبع المجتمعون حديثاً عنها، فإذا وقف الرجل في أمثال هذه المجتمعات فإنه يمرّ بالمناسبة مروراً سريعاً، ويختار آية من كتاب الله، أو حديثاً من حديث الرسول، ليجعل منهما مجال الشرح والتوجيه.

لقد وقر في ذهنه أن القرآن كتاب المسلم الأول، وأن الحديث مورده الثاني، ولن يسأم مؤمن ترداد ما بهما من الكنوز، فجعل يتجه إلى الشرح الهادئ المبسّط وقد يعلو المنبر مرتين في اليوم الواحد، ثم يجد المدد المتجدّد المستفيض لأنه يرشف من معين الكتاب والسُنّة.

وقد يأخذ عليه بعض المتسرّعين ولُوعه بسير المتصوّفة من الأولياء! وترداده لما تركوه من خوارق!.

ولست مع هؤلاء المؤاخذين! أليس الرجل متصوّفاً حقيقياً يرى في التصفّو راحة الضمير، وأمان العاقبة، وحُسن الخاتمة فلماذا لا يجعل من المتصوّفة الصادقين مثلاً يُحتذى؟!.

ثم من هو المتصوّف في رأي الإمام؟.

هو الذي التزم بتعاليم الإسلام سيرةً وسلوكاً وقولاً وعملاً، وهو الذي يستحضر ذكر ربّه في كل وقت! فإذا وصل المؤمن إلى إسلام حقيقي يجعله مستحضراً ربّه في كل وقت فلن يهتم بمعصيته ولن يأمر بمكر، ولن ينهى عن معروف.

وإذا أفلح الشيخ في تكوين مجتمع يستشعر وجود الله في كل وقت فهو المجتمع البريء من الذنب، المتطلّع إلى الخير البعيد عن التنازع والتضاد. وإذا جاهد الشيخ في سبيل إنشاء هذا المجتمع فما أعظم ما جاهد في سبيل الإصلاح!.

إن للكتب المنهجية طبيعتها التأليفية في الدراسة والتحليل، ولكن كتب الهداية والإرشاد ذات طابع رقيق تستميل العواطف وكذلك عظات المجالس في المساجد وجمعيات البرّ، تحمل هذا الطابع الرقيق المؤثّر، وأنا أدعو من يواجهون الناس في محافل الكلام ألا يصعدوا بالعقول إلى آفاق غائمة، فالدين يُسر لا عُسر، والهداية سلوك وقدوة قبل أن تكون براعة حجج ودقّة براهين.

- ٣ -

هذه الأحاديث الواضحة اليسيرة جعلت نفوس المسلمين تتطلّع إلى الشيخ في كل محفل، وقد مهّدت له في مصر الطريق إلى شعبية متسعة الامتداد، فاحتلّ من النفوس مكانة جعلته يقوم بأعباء كثيرة، تطلّب أموالاً وفيرة يجمعها من مُريديه، فيسارعون إلى تلبيةه عن كرم واستبشار، وفي أنس وسماح.

لقد كان من قدر الشيخ أن يتولّى الإمامة الكبرى للأزهر، في وقتٍ اشتدّت فيه الحاجة إلى إقامة قاعدة عريضة من المعاهد الدينية التي تقلّصت دون مُوجب، لأن جامعة الأزهر التي تضمّ أكثر من عشرين كليّة تتطلّب طلاباً يملؤون فراغ الكليّات، ومعاهد الأقاليم في تضاؤلها الشاحب لا تنهض بمن يقتعدون أماكن الدراسة في كليّات الأزهر، ولهذا اضطرت الجامعة أن تأخذ كثيراً من طلابها وطالباتها من حَمَلَة الثانوية العامّة بالمدارس، وهم لا يتزوّدون بثقافة دينية وعربية تؤهلهم أن يكونوا حُمّة الإسلام، إذ سيتعلّمون في جامعة الإسلام، ولن تفيد السنة التأهيلية شيئاً غير نسيان ما أخذوه في مادة التخصّص بالمدرسة الثانوية، إذ انقطع اتصالهم بها عاماً ذا شهور وأسابيع وأيام.

أدرك الشيخ عقبي ما ينتظر الأزهر من قضاء على صميم رسالته الدينية، فجعل يجوب القرى والمراكز والمدن ليدعو الناس إلى التبرّع الحتمي كي ينشئوا المعاهد الدينية في كل مكان وكان الرجل من قوّة العزيمة ومُضاء الهمة، بحيث هانت عليه أعباء الطريق من أقصى الصعيد إلى أقصى الدلتا، فلم يترك محافظة ما دون أن يتصل بذوي أمرها، ودون أن يدعو الناس إلى استماع موعظته بالمسجد الجامع ليعلن رغبته في إنشاء معهد ديني في الإقليم.

ثم امتدّ بنظره إلى مكاتب تحفيظ القرآن لتكون المدد الأولى للمعاهد، حيث تسلّح الطالب الأزهري بحفظ قدر كبير من كتاب الله، وبذل ما بذل حتى ضمّ أكثر هذه المكاتب إلى إدارة الأزهر.

وليت المتسرّعين تركوه في جهاده الشاق، كي يجني جميع الثمار المُرتجاة، ولكن فريقاً يعارض لوجه المعارضة حيناً، أو ينسى الهدف الأساسي من ذبوع المعاهد على هذا النطاق الشامل حيناً آخر، أو يحاول إحباط مساعي الإمام لحاجة خاصّة في نفسه، هذا الفريق يدّعي الحرص على الكيف، ويلوم من يسعى إلى انتشار المعاهد بدعوى أنها لا تجد ما تتطلّب من أساتذة ومقاعد وأبنية وغذاء، حتى رجفت الراجفة في صحيفة يومية دأبت على استنكار ما يقوم به هذا المجاهد

المكافح من نضال ولكن الرجل لا يسكت عن لجاج فشرع يردّ، وأخذ يقنع بالحجّة الداحضة، ليدمغ الشبهة الواهية، وكان من حججه الصريحة ما حكاه عنه الأستاذ نصر عبد الغفور في رثائه المنشور بمجلة الأزهر، حيث قال عن الراحل الفقيه^(١) رضي الله عنه:

«آمن بالتوسّع في المدارس والمعاهد الدينية، وعارضه كثيرون في الأزهر وخارج الأزهر، بدعوى التجديد قبل التوسّع وضيق ذات اليد، يد الأزهر، ونقص الموارد المتّاحة، وقلة الأساتذة، وهبوط المستوى، وكانت آخر كلماته في (منشأة سلطان) مركز منوف في افتتاح معهدا ديني: «إن الذين يدعون إلى عدم التوسّع مخطئون، فأنا مع التوسّع بلا قيود وحدود، وإذا قصرت الميزانية في تدبير الموارد فلديّ بحمد الله الكثير من إعانات أهل البرّ والخير، وهم بحمد الله كثيرون، فلا تشييط للهيم، بل دفع لها، وأردّ عليهم فأقول: إن عدد الذين يتعلّمون في المعاهد الأزهرية كلها في جمهورية مصر بما فيها جامعة الأزهر خمسون ألفاً، وفي وزارة التربية والتعليم سبعة ملايين، فأين التوسّع؟ ولماذا التخوف؟»

ولم يقف الشيخ لدى أغنياء البلاد في الداخل، فوطّد علاقته بأبناء الإسلام في كل قطر، وجعل يأخذ من ذوي الهيم العالية ما يدّخره لمباني الأزهر وأدواته ومتطلباته، وكانت مكانة الرجل في البلاد الإسلامية ذات حسد أكمل في نفوس الأعداء، إذ كان يقابل في كل مكان مقابلة الملوك والرؤساء، بل أكثر من مقابلة الملوك والرؤساء، لأن الجموع المحتشدة التي هرعت لاستقباله في الهند وباكستان وماليزيا وأندونيسيا والمغرب وإيران ومكة في موسم الحج، كانت تتدافع للقاءه عن طوع راغب لم يدعُ إليه نظام حكومي، أو يسع في تدبيره مُناشد يحرص على شكل مظهري، وذلك هو الحبّ الصريح.

(١) مجلة الأزهر، السنة الحادية والخمسون، محرّم ١٣٩٩ هـ، ص ٢٣٣.

لا بد من أن نتحدث عما نعرفه من جهاد الإمام عبد الحليم محمود في أثناء مشيخته للأزهر، وهو جهاد شاهده الناس وعرفوه، ولمسوه بما يُغني عن القول إذا لم يكن مشفوعاً بالتحليل، وموقف الكاتب في سرد الأمور المُشاهدة في العصر الحاضر مما يسبب له الضيق، إذ يشعر أنه يردّد ما يعرفه كافة الناس، وقد يضطرّ للإيجاز فيظنّ به التقصير أو القصور، وقد يستمرىء الإطناب فيؤاخذ بأنه يردّد ولا يجدّد، على أنه مما يهون الأمر أن يعتقد الكاتب أنه يسجل الحقائق للمستقبل لا للحاضر، فصنّعه من قبيل صنيع المؤرّخ الذي يُدوّن ما يشهده ليُطالع به أجيالاً لا يزال كثيرها في بطون الغيب، وهم في حاجة إلى معرفة ما كان ليواصلوا ما ينبغي أن يكون.

حارب الإمام الأكبر في عدّة جهات، حارب الوجودية حين هبّت فئة تدعو لها كمذهب حرّ يجب أن يسود الناس، فأخذ الإمام يتساءل عن مكمن الحرية في المذهب الوجودي؟ أم هي حرية مطلقة بحيث تصبح اعتداء على حقوق الآخرين، لينال الإنسان امتداده في أيّ مكان وإن كان يحتله سواء؟ وإذن فهي حرية فرد تنال بظلم فرد آخر، أم هي حرية مقيّدة تراعي الوضع العامّ ليعيش الناس جميعاً في سلام؟، وإذن ما الفرق بينها وبين الحرية في منطق الإسلام؟ ثم إذا كانت هذه الحرية في مرآة الوجوديين داعية إلى قضاء كل رغبة يتعشّقها المرء، فماذا يصنع هذا الوجودي إذا اصطدم بوجودي آخر يريد أن يقطف الثمرة من يده!

وإذا كانت الاستجابة إلى الغرائز بعض مظاهر هذه الحرية فما نصنع إذا كان ضحية هذه الغريزة فتاة في أسرة تحافظ على مكانتها، وترى في تهوّر بعض أعضائها انحطاطاً لمستواها الخلقي؟.

أيّ عطاء تقدّمه الوجودية يُسعد الناس جميعاً حتى يعتنقها الأفراد والجماعات؟.

وإذا استحال هذا العطاء المجرد من الظلم فلم ندعو إليه ولدينا عطاؤنا العادل في منهج الإسلام؟.

والشيوعية التي صادفت موقعها من زُمر تجمع لها الأعوان في مصر ، وتسَلط أنواع الإرهاب الباطش على مَنْ يناوئها، وقد مَكَّن لها في الحكم والصحافة والإذاعة بما جعل أنصارها نافِذي الكلمة في وقت مظلم كان امتحاناً لمصر جميعاً عسفاً وبطشاً وانتقاماً! .

لقد صمد الإمام عبد الحليم محمود أمامها صمود الفارس الصنديد، فأخذ يُزيل الغشاء الخادع عن الماركسية الحاقدة، ليراها الناس في وجهها الكالـح البغيض، وقد كُشِرت عن أنيابها لتلتهم لحوم الضحايا، وليرقص دُعائها على أنين المعذَّبين من الشهداء .

كم كان الإمام رائعاً حين شَهِرَ قلمه ولسانه كاتباً وخطيباً ليناوئ الشُرذمة المتغطرسـة دون تقهقر، فظهرت كتبه ومقالاته وأحاديثه فاضحة عوار الشيوعيين، وقام في وجهه مَنْ يزعمون كالعادة أنهم تقدميون، وأن الشيخ رجعي متأخر! فتعادوا بالسَّباب، وجأروا بالبهتان، وأدَّعوا أن الشيخ يُعيد عهد الكهنوت الكَنسي، وقد نسوا أنه لا كهنوت في الإسلام .

وكان من أعجب العجب أن يزعم بوق من أبواقهم أن الشيوعية لا تحارب الإسلام، وأنه صَلَّى الجمعة في مسجد طشقند حين زارها، يزعم هذا البوق ذلك، ومساجد القاهرة تشهد عليه أنه لم يصل الجمعة بها ذات أسبوع، أفتراه يعتقد أن صلاة الجمعة لا تَجِبُ إلّا في مسجد طشقند!! وقد كَذَّبَه أبناء البلاد أنفسهم حين كتب مسلم منهم في صحيفة رابطة العالم الإسلامي؛ ليعلن أن الصلاة لا تُقام في مسجد طشقند، وأن هذا المسجد المظلوم لا يفتح إلّا إذا زار المدينة زائر أجنبي ينتسب إلى الإسلام، فيرى أن بالمدينة مسجداً خالياً لا يؤمّه أحد إلّا بحيلة مسرحية تُمثَّل على رؤوس الأشهاد دون حياء! .

هذا الكاتب وأمثاله قد تعادوا على الإمام الأكبر مُتَّفِخي الأوداج مُصَعَّرِي الوجوه، وكأنهم أصحاب فكر حرّ، وما دروا أنهم عملاء! وقد أدَّى الإمام واجبه فعصف يَراعـه بما يَأفكون وحين اعترفت الدولة بحزب اليسار أصدر الإمام الجريء

فتواه مُعلنة: «أن الشيوعية كفر، وأن الماركسية هي المادية، وأن المادية تنكر عالم الغيب فلا إله، وختَم الشيخ فتواه بأن المسلمة لا تحلّ لشيوعي، وأنه إذا مات الشيوعي فلا يُصلّى عليه، ولا يُدفن في مقابر المسلمين، وأن باب التوبة مفتوح، فإذا تاب الشيوعي تاب الله عليه» وهي فتوى صريحة لا تعرف خداع الكلمات، ولا نفاق الدبلوماسية، وقد ضاقت بها الصحف اليومية، حتى ظهرت في صُحف الدعوة الإسلامية وحدها!! .

أما المطالبة بالشرعية الإسلامية تطبيقاً والتزاماً، فما نعرف أن الإمام قد كَلَّ عنها ذات يوم، فقد كتب عشرات المقالات ليُعلن أن مصر لم تعرف الأحكام المدنية إلّا بعد الاحتلال الإنجليزي سنة ١٩٨٢، وأن الشريعة بعد هذا التاريخ بقيت في مسائل الأسرة وما يعرف بالأحوال الشخصية، كما بقيت في أكثر مواد القانون المدني، وعلمنا أن نطالب بتعميمها في كل المواد، جنائية ومدنية ودستورية ودولية!! .

وقد سارع رحمه الله فألّف لجنة علمية لصياغة قوانين الشريعة، في مواد محدّدة لتسهّل مهمة التطبيق، وراجع ما كتب من المواد، ونشره في الصّحف، ثم اتصل بأعضاء مجلس الشعب فرداً وراء فرد، ليجمع تكتلاً إسلامياً ينادي بتطبيق الشريعة، وأخذ يتعجّل التطبيق مُليحاً، ولم ييأس ذات مرة، وكان يطالع آراء المسؤولين في وجوب تطبيق الشريعة فيتساءل متعجباً: إذا كانوا صادقين في إصدار هذه الآراء، فما الذي يقعد بهم إلى الآن؟ وجاءه اليقين وهو يحشد جاهداً الآراء خلفه، ليظفر بموافقة مجلس الشعب، فليت الذين أعطوه الكلمة الواحدة يحترموا ذكره فيعملون على تنفيذ ما تعاهدوا عليه، والله من ورائهم محيط .

وبعد، فهل ينسى أحد موقف الإمام العظيم من قضية التكفير الديني، حين شاء رئيس المحكمة أن يندّد بالأزهر، لأنه لم يوافق على أحكامه؟، وقد ظنّ أنه طعن الأزهر في مقتل صائب لأن الشعور العام كان معبّأ ضدّ من اغتالوا الشهيد الدكتور «محمد حسين الذهبي» - رضي الله عنه وأرضاه - والأزهر لا وراء - أول

مفجوع هزته اللوعة في مصرع الشهيد، ولكن فجیعة الأزهر رئيساً ومرووساً لم تمنع أن يهتف الشيخ الأكبر بالحق فيقول في بيان حاسم:

«وموقف علماء الأزهر من هذه القضية يتلخص في أمور:

أولاً: أنه إذا كان المطلوب منهم إبداء الحكم الإسلامي في آراء غير معروضة عليهم عرضاً محدداً دقيقاً كاملاً، فإنه يكفي في ذلك الرجوع إلى مؤلفاتهم العديدة التي تملأ الأسواق وإلى مصنفات العلماء السابقين عليهم التي يزخر بها التراث.

ثانياً: أما إذا كان المطلوب من علماء الأزهر إبداء الحكم الإسلامي، في آراء هذه الجماعة بالذات، فقد كان الأمر يقتضي «باسم العلم وباسم العدالة وباسم الإسلام»:

- ١ - أن تُعرض عليهم آراؤها في مصادرها الأصلية، وأن يَمَكَّنوا من الاستماع إلى شرح أصحابها لهم، وتوضيح غامضها، وتفصيل مجملها.
- ٢ - أن يطلعوا على كافة الظروف التي أدت بهم إليها.

وهذا للأسف الشديد هو الأمر الذي لم تشأ المحكمة أن تمكّن منه علماء الأزهر، واكتفت بأن عرضت عليهم المحضر الذي سجّله النيابة، من أقوال ومناقشة المسؤولين في هذه الجماعة، ومع شدة احترامنا لجهود النيابة في تسجيل هذا المحضر، فإنه لا يخفى على أحد أنه لا يمكن أن يكون، مصدراً كافياً يقوم عليه بحث العلماء، أو أساساً متكاملأ تصدر عليه أحكامهم.

ثالثاً: إن علماء الأزهر وجدوا في قضية الفكر تباعداً بينهم وبين موقف المحكمة، فبينما تتصدى المحكمة للحكم بتجريم هذا الفكر أو عدم تجريمه، يرى علماء الأزهر من وجهة نظرهم: أنها قضية رأي لا تحتل غير الحكم بالصواب أو الخطأ، وبخاصة إذا لاحظنا أن ذلك يجري في مجتمع يتمتع بحرية الرأي والاعتقاد، وأن هذه الحرية تصل - خلافاً لما يراه علماء الأزهر - إلى حدّ

السّماح للفكر الإلحادي، وعلى قَمَتِه الماركسية من أن يكون له فلاسفته ودولته وناشروه، ومن هنا فقد رأى علماء الأزهر أن ما يُطلَب منهم بتجريم هذا الرأي أو عدم تجريمه، أو مساعدة على ذلك، ليس مما يدخل في دائرة اختصاصهم بحالٍ من الأحوال، وإنما الذي يدخل بيان الرأي^(١).

تلك خلاصة ما ردّ به الدكتور الإمام على ما أثارته المحكمة العسكرية، وهو ردٌّ يحمل من الشجاعة الصريحة ما نفتقده لدى أدعياء الحرية من هُواة الإلحاد.

وكنت حريصاً على أن أعرض بالتفصيل لجانبٍ من أخلاق الدكتور عبد الحلیم محمود قد اشتهر به وذاع عنه، وهو جانب الإحسان الشامل للضعفاء بإعداد مرتبات شهرية تقتطع اقتطاعاً من ماله، لولا أن فضيلة - العارف بالله - الأستاذ الشيخ: «محمود أحمد هاشم» رئيس مديرية التعليم الأزهرية بالزقازيق قد اشترط على ألا أذيع شيئاً مما سمعته منه في هذا المجال، إرضاءً لروح الإمام العزيز، وإن كنت أرى: أن الإذاعة لعمل الخير، تفتح مجال الأسوة والاقتداء، فلاكتفٍ بالإشارة عن صريح العبارة، راجياً للإمام - رضي الله عنه - حُسن المثوبة، وواسع الرحمة، وهو بهما جدير جدير!!.

﴿يا أَيَّتَها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربِّك راضيةً مرضيةً﴾.

(١) مجلة الاعتصام، سنة ١٣٩٨، ربيع الثاني، ص ١٨.

محمد رشيد رضا صاحب المنار

- ١ -

لا يتهيأ لكاتب أن يتحدث عن الأستاذ الإمام: «محمد عبده» دون أن يتحدث بإسهاب عن أستاذه: «جمال الدين الأفغاني» وتلميذه: «محمد رشيد رضا»، فقد تضافر هؤلاء الثلاثة الأعلام على أداء رسالة الإصلاح في العالم الإسلامي، وحملوا مصباح التجديد بآهر الشعلة، ساطع النور، ليتقدم القافلة الناهضة مبدداً دياجير شبه المظلمة، وباعثاً للأمل الحي في نفوس أنهكها اليأس، وكادت تقنط من رحمة الله بالمسلمين.

أجل: لقد حمل هؤلاء الأعلام الثلاثة لواء التجديد في دنيا الشريعة الإسلامية، وأصبح الحديث عنهم حديث الحرية في القول، والاستقلال في الرأي، واليقظة في الفكر، ومحاربة الشائعات المغرضة، والأراجيف المسمومة، حول حقيقة هذا الدين الخالد، ومبلغ قيادته للشعوب!

وأذكر: أن المستشرق الكبير تشارلس آدمس حين أراد أن يكتب رسالته الجامعية عن: «الإسلام والتجديد»، جعل محورها يدور حول الأستاذ الإمام: محمد عبده، ولكنه فسح المجال لبابين كبيرين من أبواب الرسالة، يتحدث في أحدهما عن جمال الدين وفي الآخر عن محمد رشيد، معتقداً أن حديث التجديد

والنهوض لا يتم على وجهه الصحيح دون الإحاطة بأعمال هذا المثلث الرائع في مضمار اليقظة والتجديد!.

ولئن ذكر الأستاذ الدكتور أسماء الكثيرين من تلاميذ الأستاذ الإمام ومُريديه غير الأستاذ: رشيد رضا فهو ذكر المُستعرض السريع.

أما حديثه المُسهب عن صاحب المنار فهو حديث المتأمل الدارس، المُحلل الشارح، وذلك بعض ما يستحق الرجل دون نزاع!.

وقد توالى الكتب الكثيرة في هذه الحقبة الأخيرة عن «محمد عبده» وتعاليمه، وكلها تقريباً ترجع إلى مؤلفات «رشيد رضا» وبحوثه، وتعدّه المرجع الأوفى لأستاذه والامتداد الطبيعي لتيّاره، وإذا وُجد من المُعرضين من يتجاهل مكانة السيد في مضمار التجديد فهو تجاهل المُعرض المُجحف، بدليل: أنه لا يكاد يتعرّض لقول من أقواله إلّا بالتشكيك والإيهان مما يكشف ميوله المُغرِضة.

ولن يضير صاحب المنار أن يتجاهله متجاهل ما مهما علّت منزلته في دنيا الناس، وحسبه أن يجد مثات المُنصّفين في الشرق والغرب يلهجون بذكره، ويقدّرون نضاله، ويعدّونه صاحب الإمام الأول، ومفسّر مذهبه، وشارح تعاليمه، وفيهم عالمان بارزان تبوّأ مشيخة الأزهر الشريف، وكتبا عن «محمد عبده» كتابة التلميذ المتشبع بأرائه المهندي بنبراسه، وهما بعد من المكانة والإجلال بالمنزلة التي لا تزاحم وماذا عسى أن نقول في «مصطفى عبد الرزاق»، «ومحمد مصطفى المراغي»، ومكانتهما من الإمام والأمة والدين لا تحوج إلى إعلام!!.

يقول الأستاذ الأكبر «مصطفى عبد الرزاق» نقلاً عن مجلة الرسالة (٦٢٧) ٩ يولييه سنة ١٩٤٥:

«أول من ترجم للشيخ محمد عبده، وعني بنشر آثاره هو السيد محمد رشيد رضا، والسيد محمد رشيد رضا هو أول من لقّب الشيخ محمد عبده بالأستاذ الإمام، وهذا اللقب نفسه يُنبىء عن الصورة التي أراد أن يرسمها السيد رشيد لشيخه فيما كتب عنه، وينبىء بالفكرة السائدة في وجهة نظر التلميذ إلى أستاذه».

«الشيخ محمد عبده عند السيد رشيد رضا: إمام من أئمة الإسلام، وله في الدين مذهب يقوم أصحابه على روايته وتدوينه، كما قام أصحاب أبي حنيفة والشافعي وغيرهما على ما لأولئك الأئمة من مذاهب.

وإذا كان الشيخ محمد عبده إماماً في الدين، فالسيد رشيد رضا لا شك صاحبه ومفسر مذهب، ومكمل، وقد بذل مُنشئ المنار - رحمة الله عليه - في هذه الناحية مجهوداً ضخماً حافلاً بالمباحث الدينية، والمناقشات الفقهية، وكان لهذا المجهود العظيم أثر غير ضئيل في طلاب العلوم الدينية ومن إليهم وفي توجيه الدراسات الشرعية في بلاد الإسلام المختلفة» اهـ.

ويقول الأستاذ الأكبر: محمد مصطفى المراغي، في حفلة تأبين السيد محمد رشيد رضا - رضي الله عنه -:

«كان فقيد الإسلام السيد: محمد رشيد رضا محيطاً بعلوم القرآن، وقد رزقه الله عقلاً راجحاً في فهمه، ومعرفة أسرار وحكمه، واسع الاطلاع على السُّنة وأقضية الصحابة وآراء العلماء، عارفاً بأحوال المسلمين في الأقطار الإسلامية مُلمّاً بما في العالم من بحوث جديدة، وبما يحدث من المعارك بين العلماء وأهل الأديان، فهو ممن أوتي الحكمة، ورزق الخير الكثير.

وقد كان - بلا شبهة - أكبر المدافعين عن قواعد الإسلام وأشدّهم غيرَةً عليها، فَنِيَ في خدمة دينه، وجاهد في الله حقَّ جهاده، وأُوذِيَ في سبيل مبادئه، وصبر وصابر إلى أن توفي - رحمة الله عليه -.

كان مبدؤه مبدأ جميع علماء السلف في كل ما يتعلّق بذات الإله - سبحانه وتعالى - وصفاته، وكلّ ما يتعلّق باليوم الآخر، فهو رجل سَنِيَ سَلْفِي يكره التقليد، وينادي بالاجتهاد ويراه فرضاً على نفسه وعلى كل من قدر عليه.

وكان مبدؤه مبدأ علماء السلف أيضاً في تخيير الأحكام المناسبة للزمن، والنافعة للأمم في مواضع الاجتهاد.

وكان مبدؤه مبدأ جميع علماء السلف في التحاكم إلى الله ورسوله، عملاً بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(١).

من الحق أن نعدّ السيد رشيد من المجتهدين، وأن نعدّه من المجاهدين في إحياء السُّنة، ومن الحق أن نعتبر بما كان للسيد رشيد من أناة وصبر في البحث والقراءة، والتأليف والفتوى والمناظرة، ومن الحق أن نذكر: أن هذه الأعمال الصالحة قام بها احتساباً وأداها في سبيل الله.

هاتان شهادتان مخلصتان، تسجّل الأولى: وراثته السيد لأستاذه وحمله لمذهبه، وتسجّل الثانية: أنه أكبر المدافعين عن الإسلام في عصره، وبإله من عصر مُجحف، حُورِبَ فيه الدين بأوجع المُفترّيات وأقفل التخرّصات، فكان السيد رشيد بطل الدفاع وأسدّ العرين!

وبعد: فكيف أذى صاحب المنار رسالته؟ وكيف تهياً له أن يقطع طريقه الشاهق في ثبات وإيمان؟.

لقد نشأ السيد في أسرة شريفة بقرية: (القلمون) ١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٥ وهي إحدى قرى جبل لبنان على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وترعرع في بيئة دينية تحترم التقاليد الإسلامية، إذ كان نسب أسرته ينتهي في بعض أصوله إلى الحسين رضي الله عنه فيورثه عزّة في نفسه، وتفانياً في الدّود عن عقيدته، واهتماماً بسيرة نبيّه وآل بيته، وقد حفظ القرآن في سنٍّ مبكرة، وتلقّى مددًا من الحديث النبوي، وفضلاً من السّيرة النبوية، فاجتمع له من ذلك ما حبّب إليه الدراسة الدينية، وبعث في نفسه الرغبة في التّضلّع، في الثقافة الإسلامية، والدعوة إلى كتاب الله، وهدى الرسول.

وقد شاءت ظروفه السّارة أن يلتحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية بطرابلس الشام، فيجد في أساتذتها الأمثال عالمًا جديداً، يفهم طبيعة عصره، ويهضم

(١) سورة النساء: آية ٥٩.

تعاليم دينه، ويميّز بين الخبيث والطيب من أقوال المؤلفين ونصوص الفقهاء، ثم يوجّه طلبته وجهة صحيحة هادفة، ذلكم هو: الشيخ حسين الجسر الأزهرى، صاحب الرسالة الحميدية!!.

وقد امتاز هذا الأستاذ بالدعوة المخلصة إلى التزوّد من العلوم الكونية ومُسايرة الحضارة المزدهرة في أوروبا، دون جمود على القديم الرث في عصر تخلف فيه المسلمون، كما امتازت رسالته الحميدية بمناقشة آراء الغربيين في الإسلام، والردّ على مُفتريات الخصوم وظنونهم المتربّصة بالمسلمين، وهذا شيء جديد حقاً، لأن أكثر العلماء لعهد لم يكونوا يعثّون بما يقال عنهم في الغرب من آراء، فإذا اتّجه الأستاذ الجسر هذه الوجهة الناقدة فإنه يفتح عيون تلاميذه على مواجهة الخصوم، ويدفعهم إلى الدّود عن حقيقة الإسلام.

ولا ينكر أحد أثر هذا الاتجاه في نفس السيد رشيد، فقد حبّب إليه دراسة معارف عصره، وهيّا له لأن يكون واسع الأفق، مستنير العقل. يرهف سمعه وإحساسه لكل جديد طارئ فيتقبّل الصحيح وينفي الزائف المريب!.

والشّابّ الناشئ يتطلّع في دور مراقبته إلى مثل أعلى يحتذيه، ويشعر بالظّمأ إلى الحقيقة الناصعة شعوراً يدفعه إلى البحث والتّطلّع، وقد غمرت رشيداً في عنفوان صباه روح من تصوّف الشّفاف، دفعته إلى التأمل المستغرق، وحبّبت إليه أن يقرأ كتاب «الإحياء للغزالي» فيجد به أسلوباً جديداً في التهذيب، ويلمس من تحقيقه العلمي وتشريحه النفسي ما يفتح على روحه منافذ من الإحساس، وعلى عقله روافد من التفكير المستقلّ الواثق.

وكادت روح تصوّف أن تنزع به منزعاً متطرّفاً يميل به إلى الانزواء، لولا أن وقعت في يده إحدى صحائف: «العروة الوثقى» فرجّت شعوره النفسي رجاً عنيفاً، ووجّهت تفكيره العقلي وجهة جديدة، إذ أطلّعته على حقيقة العالم الإسلامي المتخلف عن ركب الحضارة، الغريق في ظلام الجمود والتقهقر والاحتلال، وأرّته

ما يبيته أعداء الإسلام من نيات غادرة بهذا الدين وأشياعه، وما يحاولون أن يلصقوه من مُفتريات!! .

فثارت نائرة الناشئ المتطلع، وأخذ يبحث عن أعداد «العروة» جميعها، ثم جعل ينسخ بيده ما يستعيره من الأعداد لفترة ضيقة، ليُحرز النص لما يسجله جمال الدين، ومحمد عبده من الأفكار، وقد انتزعته هذه الصحيفة القويّة من أحلام انزوائه وانطوائه، وصاحت به في هدوئه، فهبّ ثائراً يبحث عن المنفذ لنفسه، ويرى الدفاع عن الإسلام فرضاً محتوماً على مَنْ كان في مثل إيمانه وثقافته وإخلاصه، وصمّم على أن يأتي بالجديد.

لقد تخرّج الطالب من مدرسته ونال الشهادة العالمية فأصبح أستاذاً رسمياً للدين بلبنان، وكان الظن به أن يسلك مسلك التدريس في معاهد وطنه الصغير، لو لم تفعل به أعداد العروة الوثقى ما فعلت من تغيير، فرأى أن رسالته لا تنحصر في التدريس بمعهد إقليمي صغير، ولكن رسالته الحقيقية أن يدرس الحقائق الإسلامية للعالم الإسلامي بأجمعه، وما من سبيل إلى ذلك دون الالتحاق بركب الإصلاح، حيث يقود جمال الدين القافلة، ويحمل وراه محمد عبده مشعل الإرشاد فلا بدّ إذن من مهاجرة لبنان والالتحاق برائدي البعث وقائدي الإيقاظ!! .

لقد فرض عليه أن يكتب في صحيفة شاميّة تدعى: «ثمرات الفنون» وأن يرأس تحريرها بمرتّب معقول، ولكنه رأى الرقابة العثمانية تحرّم عليه أن يحدو حدو العروة الوثقى فيما يقول، فهو إذن سيصبح هتافاً مأجوراً، يردّد كلمات الثناء ويسكت عن بغى الطغيان!! .

ثم تغيّثه الأنباء بوفاة جمال الدين، فلا تفتّ من عضده بل تدفعه إلى الإسراع بالهجرة، ليرى محمد عبده في مصر فيأخذ مكانه جواره، ويكون منه كما كان الأستاذ الإمام من جمال الدين.

والحقّ: أن إخلاص السيد رشيد قد هوّن لديه كل صعب، فقضى على شكوك اليأس في نفسه، ووجد من إرادته الحازمة ما يدفعه إلى السفر العاجل،

مهما جاءت العاقبة بغير ما يحب، وهناك ساعات حاسمة في كل فرد تدفعه دفعاً مُلِحاً إلى أن يحققَ رغبته، معقولة أو غير معقولة، وقليلون هم الذين يستجيبون إلى هواتفهم الهادفة، فيلبّون النداء مُسرّعين تاركين كل تفكير مُجهّد في الإخفاق والخيبة، وكأنهم يستمعون إلى داعٍ مجهول يبشّرهم بالنجاح، ويعرض على عيونهم صور الانتصار باسمه مُشرقاً، فيقبلون على مجازفتهم الجديدة آملين واثقين! .

وقد كان السيد في رحيله العاجل إلى بلد لا يعرفه، وأستاذ يفوقه قدرة ومكانة ونفاذاً، وجهاد لا تتضح معالمه في جلاء، كان السيد في ذلك كله يستمع إلى داعٍ مجهول يبشّره بالنجاح، فتزل وادي النيل قوي الثقة عامر الإيمان .

وتمّ اللقاء سريعاً بين الرجلين، فتلقّى الأستاذ الإمام ضيفه اللبناني هاشماً مسروراً، وفتح له منافذ القول، فاستمع إلى عقل راجح ونفس طموح، ولمح الإمام بفراسته النافذة ما يعتلج في نفس الطاريء الوافد من آمال في الإصلاح، وأدرك غيْرته المخلصة، وكلفه الهائم بنصرة الإسلام، وإعادة مجد المسلمين، فتشعب الحديث في شتى الأنحاء دون حذر أو احتياط، وقد حرص السيد: محمد رشيد أن يسجّل في مذكراته مجلس الإمام لأول مرة معه، فكتب إلى صديقه الأستاذ: عبد القادر المغربي^(١) موجزاً أميناً لما دار من نقاش، وقارئ هذا الموجز على تشعبه وإحاطته يقف على شيئين هامّين: على الثقة السريعة التي اتصلت عاجلة بين الزائر والمضيف، وعلى الهموم النفسية التي كانت تزدهم في صدر الإمام وتشغله، حتى بادر بإذاعتها في أول لقاء .

لقد تحدّث عن إصلاح الأزهر، وأظهر للسيد رشيد ما يتكأده من العقبات في تنظيمه، وكشف نيّات المُعرضين حين يقفون باعتراضاتهم أمام كل إصلاح، ووصف الحالة العلمية للطلاب بالضعف والجمود، وقد قال في مرارة: «كنت في الامتحان أسأل أحد الطلبة عن عبارة، فيحلّ ألفاظها بإرجاع ضمائرها، وبيان

(١) نشرت رسالة السيد رشيد إلى الأستاذ المغربي بمجلة الرسالة، العدد ١١٤، ١٩٣٥/٩/٩ .

متعلّق ظروفها - هذا إذا أحسن الجواب - فأسأله: عن المراد من هذه العبارة فلا يحير جواباً!

ثم سأله السيد رشيد: عن الكتاب الذي يعتزم تأليفه عن سيرة الرسول، فصارحه الإمام بأنه يحتاج إلى مساعد أمين، يفحص له عن النصوص، لأن أصحاب التأليف الكثيرة كالغزالي وغيره كانوا كذلك، وإلا فأين الوقت؟، فانتهاز السيد رشيد هذه الفرصة، وأعلن استعدادَه للقيام بمثل ذلك، وقال في ثقة: ستجندني - إن شاء الله - من الصالحين.

ثم تعرّضاً معاً إلى صعوبة التأليف الهامة في اللغة العربية، وقال الأستاذ الإمام ما نصّه: «إذا أردنا أن نكتب في تاريخ علم الكلام مثلاً فمن أين نستفيد؟. كيف كان هذا العلم في عصر الصحابة ومن بعدهم؟، وكيف اعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري؟، ومن أين جاء ذلك الفكر في المخالفة؟، وهل غيره على رأيه؟، وما الذي حمل أبا الحسن الأشعري إلى القول: بأن الوجود عين الموجود مثلاً؟، وما غرضه من ذلك؟»^(١).

مهما يكن من شيء فقد تفرّع الحديث تفرّعاً أدى إلى ارتباط الرجلين، وانتهى بتعلّق التلميذ بأستاذه، وثقة الإمام في صاحبه، وكان من نتيجة الهامة: هذه الأبوّة الروحية، التي دفعت الإسلام خطوات إلى التقدّم، بما هيأت من أذهان وصحّحت من أخطاء.

- ٢ -

كان الشباب القوي المضطرم يدفع السيد محمد رشيد إلى العمل الجاهد، ويسيطر أمامه من الأمل ما يتسع لإنقاذ أمة تستبدّ بها المخاوف والشكوك، وقد رأى: أن الصحافة المستنيرة أوسع مجال للإرشاد والإيقاظ، فصنّم على إصدار

(١) كان هذا على عهد الإمام رضي الله عن. أما الآن فقد كثرت الكتب الخاصة بتاريخ علم الكلام، ولعلّ أوجزها وأدقّها كتاباً فجر الإسلام وضحاها للأستاذ أحمد أمين.

مجلة «المنار» لتسد الفراغ الذي تركته «العروة الوثقى» منذ سنوات!، وإصدار مجلة متحررة في أمة محتلة عمل شجاع يعوزه الصبر والعزيمة والإيمان.

فالقارئ العربي إذ ذاك من الندرة بحيث لا تستطيع الصحيفة أن تقوم على تعضيده وحده، والمحتل المستبد يترصد كل شعاع من ضياء الحق ليقتطف به في ظلمات العدم إلى الأبد، والمتخلفون من ذوي الدراسات الحشوية يتعصبون للقديم، ويقفون بتزمتهم أمام كل جديد!! فصاحب الصحيفة الحرة حينئذ يقاتل وحده في ميدان عنيد.

ولكن خيال «العروة الوثقى» يراوح رشيداً ويغاديه، فيقوي من عزمه ويهون من صعبه، ويرى في الأستاذ الإمام رصيذاً معنوياً يشد أزره، ويعاضد رأيه، فيصدر العدد الأول من: «المنار» ويحصر أهدافها في:

«الحث على تربية البنات والبنين، والترغيب في تحصيل العلوم والفنون، وإصلاح كتب العلم وطريقة التعليم، والتنشيط على مجاراة الأمم المتمدنة في الأعمال النافعة، وطرق أبواب الكسب والاقتصاد، وشرح الدخائل التي مازجت العقائد للأمة والأخلاق الرديئة التي أفسدت الكثير من عوائدها والتعاليم الخادعة التي لبست الغي بالرشاد، والتأويلات الباطلة التي شبهت الحق بالباطل، حتى صار الجبر توحيداً، وإنكار الأسباب إيماناً، وترك الأعمال المفيدة توكلأً، ومعرفة الحقائق كفراً وإلحاداً، وإيذاء المخالف في المذاهب ديناً والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحاً، واختبار العقل وسفاهة الرأي ولايةً وعرفاناً، والذلة والمهانة تواضعاً والخشوع للظلم والاستسلام للضيم رضاً وتسليماً، والتقليد الأعمى لكل متقدم علماً وإيقاناً».

وتلك لعمري أغراض شاقة، تتطلب من الجهاد ما يبلغه أولو العزم من المثابرين، وقد لاقت المجلة بادئ أمرها صعوبات مُرهقة في التوزيع والذيوغ، ولكن قوة الإخلاص وسمو الهدف وعظم الاحتمال مما يهون كل وعر عسير، وكان انتساب المنار للإمام - رضي الله عنه - مدعاة قبول لدى الصفوة المختارة من

المثقفين، حتى أصبح منبر الشيخ: محمد عبده، ولسانه في الآفاق يدوي بحديثه، ويسير بتعاليمه!.

ونظر الإمام فإذا رشيد على حدائته يؤدي معه دور جمال الدين على أستاذيته، فيفخر به ويعتز، وتشتعل نار الضغينة في صدور أعداء الإمام، ويرون في تلميذه خير معوان على إذاعة مثله وأمانيه، فيتعاضدهم الأمر تعاضداً يجعل خديوي مصر: عباس الثاني يخطب في مجتمع حافل، فيعرض بصاحب المنار، ثم يبلغ به الضيق أقصاه، فيرسل الأستاذ محمد شاكراً إلى الأستاذ الإمام ليرجوه أن يقصيه عنه ما استطاع!.

ولكن الرجل القوي لا يكثر بأحد، ويقول مُباهياً:

«إن الله بعث لي بهذا الشاب ليكون مدداً لحياتي ومزيداً في عمري، إن في نفسي أموراً كثيرة أريد أن أقولها أو أكتبها للأمة، وقد ابتليت بما شغلني عنها، وهو يقوم ببيانها كما أعتقد وأريد، وقد رأيت في سفري من آثار عمله، وتأثيره مناره ما لم أكن أظن ولا أحسب، فهو قد أنشأ لي أجباباً وأوجد لي تلاميذ وأصحاباً».

ثم يقول للشيخ شاكراً:

«كيف أرضى بإبعاد صاحب المنار عني، وهو ترجمان أفكاري؟!».

لم يكن عامة المسلمين وحدهم في مَسيس الحاجة إلى المنار، بل إن خاصتهم من العلماء كانوا يشاركونهم الحاجة الملحة إلى هذه الصحيفة المُرشدة، فأكثر علماء الأزهر كانوا يرون التقليد في المذهب طريقاً لا منأى عنه ولا محيداً، ويعتدون آراء الفقهاء من المتأخرين أقوى من أحاديث الكتب الصحاح! وفيهم من يجادل الأستاذ الإمام في ذلك، ويعلن أن دراسة السنة المطهرة لا تُثمر شيئاً إذا قيسَت بكتب الفقه ومسائل الفروع! ثم يزيدون، فيتمسكون بالخرافات الشائعة من تقديس القبور وزيارتها، وانتحال الكرامات لأصحابها، والاستشفاع بهم في قضاء المآرب!، ويمثلون دروس الوعظ بالمساجد بأمثال هذه الأباطيل، فإذا حادوا

عنها قليلاً فإلى الزَّهد في الحياة الدُّنيا، والانزواء خارج معترك الحياة، والتخوف الميئس من النار، والحساب والحشر والقبر! أما النهوض بالأمّة الإسلامية إلى المستوى اللائق: فمما لا يفكر فيه ذوو الهداية من العلماء.

والحق أن السيد رشيد رضا قد استطاع بمناره المجاهد أن يهدم هذه الأباطيل، وأن يعرض الإسلام قشياً طريفاً، كما نسجه محمد - ﷺ - من هدى القرآن، وضياء العقل!، وإذا بلغ كاتب إسلامي هذا المبلغ في بيئته الجامدة وعصره المظلم، فقد فاز بتوفيق الله.

يقول الكاتب الكبير الأستاذ العلامة: محمد فريد وجدي عن زميله النّابه وصنوه العظيم، نقلاً عن مجلة الأزهر (رجب ١٣٥٤ هـ):

«إن ثورة المرحوم السيد رشيد على البدع لا يوجد لها نظير، إلا في أفراد من السلف الصالح، فقد صمد لها صموداً أشفق عليه منه حتى الذين كانوا يُشاطرونه رأيه من العارفين، ولكنهم لم يؤتوا الشجاعة التي أُوتِيها، فباتوا يتوقعون له الشرّ المستطير، وقد لقي منه ما لو لقيه سواه لصدّه عن السبيل، ولكنه ثبت للمعارضين، واستبسل في الكفاح أيما استبسال، حتى استطاع بفضل إخلاصه وصبره أن يحدث في الصفوف المتراصة حياله ثغرة، اقتحمها على مُناوئيه، وفي أثره جمهور غفير ممّن كانوا لا يجزؤون على مواجهتها مجتمعين، وأصبحنا وللُسنة الصحيحة أنصار مُجاهرون، وحيال البدع خصوم مجاهدون.

فلو لم يكن لفقيد العلم والدين السيد: رشيد رضا غير هذا الموقف لخلّد ذكره في تاريخ المسلمين، فما ظنك به وقد أسقط دولة التقليد، تلك الدولة التي قضت على المسلمين أن ينقسموا شطرين: شطراً جَمدوا على ما هم عليه من التقاليد المنافية لروح الدين، وقوماً مرقوا من الإسلام واتخذوا لهم غير طريق المؤمنين، فكان السيد رشيد البطل المعلم في هذا الموطن الشريف تلقى بصدرة كلّ ما يتلقاه المُصلحون من الجامدين، وكان لجهاده أثر بعيد في تبصير المسلمين بسماحة دينهم وبقاء باب الاجتهاد فيه مفتوحاً إلى يوم يُعْثون».

وإذا كانت الأعمال بالنيّات، ولكلّ امرئ ما نوى، كما يقول رسول الله، فقد كُوفِيَء المنار مكافأة ممتازة بنيته الطيبة النبيلة، ورنّ في العالم الإسلامي دويّه الرنّان، فأصبح ذا كلمة مقبولة في الشرق العربي وفي الهند وإيران وأندونيسيا، وبعض بلاد الصين واليابان، ومهدّ لصاحبه بعد وفاة الإمام أن يحتلّ مكانته الدينية فيصبح إماماً من طرازه، يصدر كلمة الإسلام في كل طارئ، ويتعرّض إلى الخصومة العنيفة من صحف قوية ذات سيطرة ونفوذ، «كالمقطم والمؤيد واللواء» فما تنهه من عزمته!

وإذا كانت خصومته للمقطم الاستعمارية طبيعية فإن عجيبي لا ينتهي لخصومته للواء والمؤيد، وهما معاً صوت العروبة ومنار الإسلام في عصرهما الحفيل، ولو شاء الله لجعل الناس أمةً واحدة ولكن لكل وجهة هو مواليها!.

وإذا كان الأستاذ الإمام: محمد عبده قد تبوأ في خاتمة حياته منصب الإفتاء للديار المصرية، فإن تلميذه الناضج قد تبوأ هذا المنصب من الناحية العلمية لا من الناحية الرسمية الحكومية، إذ تصدّر للفتوى عن جدارة في مجلة المنار: فكانت تأتيه الأسئلة العويصة في معضلات الحياة من شتى بقاع الإسلام ليقول فيها كلمة الحق، وقد رزق تبخره الواسع في فروع الشريعة الإسلامية توفيقاً كبيراً في الردّ وإقناعاً شافياً في الدليل. ولئن جمعت سلسلة فتاويه ليكوننّ منها خير كثير^(١)، على أنه قد هاجم المارقين من ذوي التفكير المنحرف مهاجمة عنيفة ذات لدد وإفحام، وصاح برأي الإسلام في وجوه هؤلاء صيحات زلزلت إيمانهم من القواعد فأبوا فزعين، وقد عمي موقفه الصريح على الأستاذ «تشارلز آدمس» فعذّ ذلك منه نكوصاً عن مذهبه التقدّمي في الدين وسيراً مع مَنْ سمّاهم بالمحافظين من المنكرين.

وهو يقول في ذلك ما نصّه: من كتاب «الإسلام والتجديد» ص ١٧٧ عن ترجمة الأستاذ عباس محمود:

«إن الوقائع تنطق أحياناً بأن صاحب المنار محافظ من المحافظين، فهو في

(١) وقد جمع فتاويه في (المنار) الدكتور صلاح الدين المنجد ونشرها في خمس مجلدات بعنوان: فتاوى محمد رشيد رضا.

تفكيره كله يعتمد العسر في اتباع القرآن والسنة وسائر أحكام الشرع، والأخذ بأضيق المعاني والوجوه، وهو يرى أن النزعة الحرة في هذه الأمور كالتسامح في اعتبار الشرع هو القانون الأساسي لجميع البلاد الإسلامية هذه النزعة ربما أضعفت كيان الدين كله، وعرضته للخطر ولهذا نجد المنار يؤثر الوقوف إلى جانب المحافظين».

ثم يفصح الكاتب عن غرضه فيقول:

«لقد تكلمنا فيما سبق عن الوطنيين في مصر وفي تركيا ورأينا: أن المنار يرميهم جميعاً بالإلحاد والمروق، لأن الدين ليس من مقومات آرائهم في الوطنية، وهو يصف عالمين من شباب العلماء والكتّاب في مصر هذا الوصف نفسه، ويكفيها هنا أن نشير إلى أن موقف «المنار» من هذين الكاتبين لم يكن أقلّ تطرفاً أو أخفّ حدة من موقف المُعْرِقِينَ في المحافظة!».

والحق الذي لا مِرْيَةَ فيه: أن الأستاذ - رحمه الله - لم يعتمد العُسر في رأي ما في اتباع القرآن والسنة وأحكام الشرع، والأخذ بأضيق المعاني والوجوه، كما ذكر صاحب «الإسلام والتجديد»، ولكنه من ناحية أخرى لا يستطيع أن يسكت عن عالمين شائين يقول أحدهما: إن القرآن يتحدث عن إبراهيم حديثاً لا يكفي لإثبات حقيقة وجوده!، ويقول الآخر: إن الإسلام دين فقط، ولا صلة له بالحكم والدولة على الإطلاق ولو كان الأستاذ «أدمس» متشرباً لحقائق الإسلام الأصيلة لَمَا تورّط في الحكم على الأستاذ رشيد باتباع العُسر والأخذ بأضيق المعاني والوجوه، وكأنني به وقد فهم أن التسامح هو الإباحة المُفضّية إلى الإلحاد والمروق!.

ولن يفوت متحدثاً عن المنار أن يشيد بتفسير القرآن الكريم على صفحاته ثم جمعه في مجلّدات ذات أجزاء، إذ إن السيد رشيد رضا - رضي الله عنه - قد ألحّ إلحاحاً مُفرطاً على الأستاذ الإمام أن يكتب تفسيراً عصرياً للقرآن الكريم، والرجل لا يجد في زحمة أعماله وخصومه ما يُيسّر له الوقت الهادئ للتفسير والتحليل، فكان يكتفي بإلقاء دروس في التفسير، يتّجه بها وجهة الإصلاح، بعيداً عن

مشكلات اللغة ومنازع القواعد والاصطلاحات، وكان السيد يسجل ما يقول، ثم يضيف إليه ما يستلزمه البحث من نقاط، ويبادر بعرضه على الأستاذ فيأذن بنشره بالمنار، حتى إذا لحق بربه تصدّر السيد لإكمال تفسيره، فجلى معجزة الإسلام في عصر المدنية والضياء!

وبمقارنة ما وصل إلينا من تفسير الأستاذ الإمام بما كتب من بعده الأستاذ محمد رشيد نجد أن صاحب «المنار» قد وُفق أكثر من أستاذه، لأن الشيخ محمد عبده كان ذا عقل مستنير وذهن مفكر، وروح شفاف، ولكنه مع ذلك لم يتبحر تبخر السيد رشيد في دراسة الحديث النبوي وكتب الفقه والتشريع، فجاء تفسيره مرآة لعقله اللامع وذوقه البصير وأسلوبه الرائق، وجاء تفسير رشيد بحراً خضماً يموج بمختلف الحقائق الإسلامية، ويستند إلى شتى النصوص الدينية، مما يشفي غلة الصدور ويروي ظمأ الباحثين، وكانت العقول المعاصرة في حاجة ماسة إليه، لأن كتاب الله هو: كتاب الزمن، ولا بد أن يفسر في كل عصر بما يكشف إعجازه ويُنبئ عن أسرارهِ.

والاقتصار على التفسيرات القديمة معرة ومعجزة، لأنها تسد مسدّ زمنها، ولا تتعرض لما ينجم من أحداث تتطلب التعليل على ضوء القرآن، هذا إذا عرف القارئ أن أكثر هذه التفسيرات السابقة لم يعمد إلى اللباب الخالص على ضوء القرآن، يكشف هديه ويفصل منحاه، فبعضها ينحو المنحى الإعرابي والبلاغي كالكشفاف، وبعضها يهتم بالحكم الفقهي كالقرطبي، وبعضها يموج بالإنشائيات كالخازن، وبعضها ينوء بمشكلات الفلسفة والمنطق كالفخر الرازي، وبعضها يجمع من كل فرع ما يتيسر لصاحبه، ثم يغفل عن إيضاح الهدي الرباني في بيان يشفي الصدور.

فجاء تفسير المنار ليكون الحجة القاطعة على أن الإسلام دين الفطرة، وليتحدث عن حكمة الله في كل مسألة من المسائل العمرانية والآيات القرآنية، وليكشف الملجدين وأرباب الشبهة من الماديين، بما يظهر صوت الإسلام، مع الحجة البيضاء، والبلاغة المفيحة، والرأي السديد!

وقد انتهى به القول إلى ما قبل سورة الرعد بآيات، وفي هذا القدر على قلته بالنسبة لكتاب الله ما يأخذ بيد الباحث المستفيد. ولو فسح في أجله لوالى التفسير بآطراد، ولكن أجل الله لا يؤخر إذا جاء.

وقد أخرج السيد رشيد للناس كتباً كثيرةً تعالج شتى الموضوعات الثقافية والاجتماعية والأدبية والبلاغية، وكلها تنجّه وجهة الدين، وتنفّر عن معارف الثقافة الإسلامية مهما اختلفت عناوينها وتنوّعت أسماؤها، فهو في كتاب: «المنار والأزهر» أو «كتاب السيرة المحمدية» أو في تحقيق «دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة» أو في التعليق على جميع مؤلفات الشيخ محمد عبده، أو فيما ألفه من «عقائد النصارى» و«مشكلة الخلافة الإسلامية» و«قضية المرأة المسلمة».

أقول: هو في جميع هذه الكتب وغيرها هو السيد: محمد رشيد البطل المجتهد المكافح، والداعية الإسلامي الغيور، وقد خاض عباب السياسة لعصره فجاهر برأيه في الخلافة وآل عثمان والاستعمار الإنجليزي والاحتلال الفرنسي، وكتب مئات الفصول في أحداث جيله، وآراؤه السياسية تحتاج إلى مؤلف خاص ينزع بها منزع التحليل والتحقيق، ويكفي أن يقرأ المتعجل المتسرع رسائله إلى الأمير: شكيب أرسلان ورسائل الأمير إليه، وقد جمع أكثرها في كتاب خاص، أصدره أمير البيان بعد وفاة المجاهد الكبير.

يكفي أن يقرأ المتعجل المتسرع هذا الكتاب ليعرف مقام الرجل من أحداث زمانه، ونظرة الإسلامية إلى مفاجآت العالم الإسلامي، ثم ليرى تشعب الميادين التي كافح بها الرجل بمفرده دون ناصر أو معين.

على أن كتابه الرائع: «الوحي المحمدي» قد احتلّ بين جميع المؤلفات الدينية في العصر الحاضر مكان النباهة الجهيرة وطُبع عدّة مرات في سنة واحدة، ثم تُرجم إلى عدّة لغات شرقية وغربية، لأنه يدعو الناس كافة في شتى بقاع العالم إلى الدين الإسلامي، بالدليل العقلي والبرهان المنطقي، ويؤيد بأقوى الأسانيد ثبوت الوحي المحمدي، ونهوضه على دعائم راسخة من التفكير الصحيح، ويقارن

بين رسالات من سبق محمداً من الأنبياء ورسالة خاتم المرسلين، معتمداً على أحدث قوانين العلم ومكتشفاته في دنيا الاجتماع والتاريخ والعمران، وعامداً إلى أقوى دلائل الملّحين، وأعنف شبه المغرضين من ذوي الاستشراق، مفنداً مبّداً ما يحوكون في مجال الوحي المحمّدي والرسالة النبوية من اعتراض وافتراض.

ولا أذكر أن كتاباً إسلامياً تهافت على تأييده كبار المفكرين في الإسلام والمُنصّفين في أوروبا ككتاب: «الوحي المحمّدي» فهو وحده معجزة رشيد ومفخرة بنبوغه، وهو وحده لسان صدق للإسلام وصيحة حقّ في آذان الغافلين.

لم يفتّر السيد لحظة عن الكفاح، حتى لقيَ ربّه، بعد أن فرغ من تفسير قول الله في سورة يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُؤَفَّقُنِي مُسْلِماً وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(١)، فكان وقوفه النهائي عند هذا الادّعاء الربّاني دليل القبول، وإرهاص النّجاة، ومسك الختم... رضي الله عنه وأرضاه.

(١) سورة يوسف: آية ١٠١.

محمد البشير الإبراهيمي داعية الجزائر

- ١ -

كانت الدوائر الأدبية في الجمهورية العربية المتحدة قد احتفلت بمرور ثلاثين عاماً على وفاة: «أحمد شوقي» شاعر مصر الكبير، وقد ضمّ الاحتفال صفوة القائلين والسامعين من أنصار البيان، وحين كانت كلمات الإطراء تتوالى على السنة المتكلمين، وقف شيخ وقور يتلأأ وجهه بنور الإيمان وجلال الشيب، فشارك المحتفلين بتكريم الشاعر مشاركة ذات طابع ناقد، إذ ترك عبارات الثناء المألوفة، ليقول: إن من الخير أن نذكر أن شوقي قد مدح باريس وأشاد بالحرية الفرنسية كثيراً، وكان عليه أن يذكر مآسي فرنسا في بلاد الإسلام، وما لقيته آفاق المغرب العربي من أهوال دامية على يد الفرنسيين، وأنا أعلم أن الشاعر إنسان عالمي في أرقى مجاليه، لا رجل قومي يهتف بأمال ذويه، ولكن ما أقدمت عليه فرنسا يُغضب كل إنسان حرّ، عربياً كان أو أوروبياً، فمبالغة شوقي بالإشادة بفرنسا مما يؤخذ عليه أفذح المؤاخذه، مهما شفع مدائحها بما يشبه العتاب الضارح في مثل قوله:

دم الأحرار تعرفه فرنسا وتعرف أنه نور وحق
وحرّرت الشعوب على قناها فكيف على قناها تسترق

وأفاض الشيخ الكبير في أمثال هذه المعاني إفاضة مفاجئة شطرت السامعين إلى فريقين: فريق يجهل شخصية المتكلم، ويرى أن جمال الدين الأفغاني قد

بعث فجأة في ثيابه، ثم يذهب في التساؤل عن اسمه وبلده، وفريق يعلم: أن المتكلم الكبير هو كبير علماء الجزائر، وشيخ المجاهدين بها: محمد الإبراهيمي، فيعرف له مكانه ويقابل كلماته بالإطراء والتصفيق.

أما بعض الرعاع من مُحَرَّرِي الصَّحَف: فقد لجأ إلى نقد الشيخ فيما يكتب من هراء، مُدَّعياً أن شيوخ اللغة والدين لا يحكمون على الشعر والشعراء، ولو كان هذا القزم الدَّعي يعرف شيئاً عن تاريخ الشعر والشعراء لعلم أن الشعر العربي لم يحفظ على مدَّ عصوره إلا برواية شيوخ اللغة والدين، من أمثال أبي عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، والمبرّد، وابن قتيبة في القديم، وأمثال، المرصفي، والشنقيطي، والإسكندري، ووالي، والألوسي، في الحديث.

وإذا كان لا بدّ لأمثال هذا الكاتب من الاستشهاد برأي غربي، فليعلم: أن المستشرق الكبير تشارلز آدمس في كتابه عن الإسلام والتجديد في مصر قد جعل محمد عبده وهو شيخ الدين، زعيم الحركة الأدبية في هذا العصر وعلى يديه تخرّج أمثال: المنفلوطي وجاويش وشكيب أرسلان وحافظ إبراهيم.

إن الإبراهيمي حين تحدّث عن شوقي لم يكن دخليلاً على الأدب والأدباء، فهو أديب كبير صرفه الجهاد الإسلامي لا عن تأليف الكتب - فقد ألف الرجل وكتب على وفرة أشغاله وعظيم نضاله - ولكن صرفه الجهاد عن طبع ما كتب وألف، فقد كان يجمع آلاف الجنيهات ليُنشئ المدارس، ويبنى المساجد ويعلم الناشئين، ولو كان ملتفتاً إلى شخصه بعض الالتفات لطبع بعض مؤلفاته، وجعلها مما يتقرّر تدريسه على طلابه الكثيرين، وما أجزل ما سينالون من نفع أدبي علمي، وما أحسن ما سيوجّهون به من تسديد وتحصيل.

ولكن الرجل قد نَدَرَ نفسه للكفاح الخالص من كل غرض ذاتي، فلم يلتفت إلى نفسه في شيء، وترك كتبه العلمية رهينة مخطوطاته، غير مجموعة: (عيون البصائر) التي تضمّ الافتتاحيات الملهمة لجريدته، وقد كتب فهرساً لمخطوطاته، كان من بينه هذه المؤلفات:

- ١ - بقايا فصيح العربية في لهجة الجزائر.
- ٢ - النقايات والنقايات. وهو أثر لغوي يجمع كل ما جاء على فعاله من مأثور الشيء أو مرذوله.
- ٣ - أسرار الضمائر في العربية.
- ٤ - التسمية بالمصدر.
- ٥ - الصفات التي جاءت على وزن فعل.
- ٦ - الاطراد والشذوذ في العربية.
- ٧ - ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة.
- ٨ - قصة كاهنة أوراس.
- ٩ - حكمة مشروعة الزكاة في الإسلام.
- ١٠ - شعب الإيمان.
- ١١ - مخارج الحروف.
- ١٢ - الملحمة الرجزية في التاريخ.
- ١٣ - فتاوي متناثرة.

وبمراجعة هذا الفهرس الحافل نرى: المؤلف الكبير كان منشعب المعارف، شأن السلف الأول من حَمَلَة الثقافة الإسلامية فقد كتب في الأصول والتشريع الإسلامي حين أفرد ثلاثة كتب للحديث عن مشروعية الزكاة، وعن شعب الإيمان، وأصدر من الفتاوي ما يعالج حاجة الناس بروح العصر ومنازعه، كما كان في أكثر مباحثه متجهاً إلى أصول اللغة ومتنها، إذ تحدّث عن أسرار الضمائر في العربية، وعن التسمية بالمصدر، وعن الصفات الآتية على وزن فعل، والاطراد والشذوذ في العربية، وبقايا العربية في لهجة الجزائر، وهي بحوث دقيقة لا تُتاح لغير متخصص يصل الليل بالنهار في خفاياها الغامضة، واتجاه البشير إليها مع عبث الضخم في الكفاح يُبرز تعدّد المواهب الإنسانية لدى بعض الكبار من الموهوبين.

أما الأدب الخالص: فقد هتف به نثراً ورجزاً وقصّةً فعيون البصائر مقالات نارية تحمل نفحات جمال الدين ومحمد عبده والزهرراوي والكواكبي وجاويش، ولها مكانها الجهير في الأدب السياسي المناضل.

وقصة كاهنة أوراس قد قال البشير عنها: إنها أسلوب روائي مبتكر، يجمع بين الحقيقة والخيال، ولبابها الصميم تصوير المآسي الاستعمارية في الجزائر، وتسجيل عهود المجد الإسلامي فيما قبل الاحتلال.

أما الملحمة الرجزية: فعمل ضخم في الأدب العربي أترك للبشير أن يتحدث بنفسه عنه فيقول^(١):

«ولكن أعظم ما دوّنت: ملحمة رجزية نظمته في السنين التي كنت فيها مُبعداً في الصحراء الوهرانية، وهي تبلغ ستّة وثلاثين ألف بيت من الرجز السُّلس اللزومي في كل بيت منه وقد تضمنت من فنون المواضيع: تاريخ الإسلام، ووصفاً لكثير من الفرق التي حدثت في عصرنا هذا، وللمجتمع الجزائري بجميع فرقته ونحله، ولأفانين من الهزل للمذاهب الاجتماعية والفكرية والسياسية المستجدة، والإنحاء على الابتداع في الدين، وتصويراً لأولياء الشيطان، ومُحاورات أدبية رائعة بينهم وبين الشيطان، ووصفاً للاستعمار ومكائده ودسائسه وحيله وتخديراته للشعوب للقضاء على مقوماتها».

ثم يقول: ولم أقرأ للرجّاز رجزاً سليماً يلتحق بالشعر الفني مثل هذه الملحمة، إلا لابن الخطيب: في نظم الدول ولشوقي في رجز العرب وعظماء الإسلام، ولبعض الشناقطة وكأن الرجز موقوف على نظم المُتون العلمية، وأنا اعتبره بحراً كبقية بحور الشعر العربي، يرتفع فيه أقوام وينخفض آخرون، وقد قال فيه شوقي:

يرون رأياً وأرى خلافه الكأس لا تقوم السلافه

(١) مجلة مجمع اللغة العربية، ج ٢١، سنة ١٣٨٦ هـ، ص ١٥٢.

فإذا انتقلنا من حديث مؤلفاته إلى حديث جهاده، فلن نحتاج إلى عناءٍ ما، لنذكر أن باعث هذا الجهاد الحافل هو: عقيدته الإسلامية، ودراسته الدينية، ذات الثقافة المجيدة التي تهتف بالحرية والعزة والإخاء، فلولا أن البشير الإبراهيمي كان أحد الدارسين المؤمنين، والفاقيين المتمكنين، ما أورثته عقيدته المؤمنة هذه الصلابة في العزم، وتلك الشجاعة في مواجهة المخاطر، وتحدي الصعاب.

وقد دأب بعض الذين يؤرخون الحركات التحررية في بلاد الإسلام أن يُغفلوا دور الدين عن عمد، وأن يرجعوا الهتاف بالحرية إلى انتشار الثقافة الأوروبية في بلاد الاحتلال، وهذا زيف صارخ متعمد، إذ أن الحقيقة أن كل دعوة إلى الاستقلال والحرية كان وراءها علماء الدين الإسلامي المستنيرون، يصدعون بتحدي الظلم، ويستمدون من عقيدتهم الإسلامية وتاريخهم الممتد عبر القرون وقوداً لا تهدأ ناره ولا يخمد ضرامه، فهم قادة المشاعل في كل صقع من الأصقاع.

وقد رأينا من يكتب تاريخ الاستقلال في مصر فيغفل دور علماء الدين في المُنادة بمناوأة المحتل، حتى فزع فضيلة أستاذنا الكبير: محمد الغزالي لذلك، فأهاب بالكاتبين أن يُراعوا الله فيما يؤرخون، وصادفت دعوته أثراً في نفسي، فتحدثت بإسهاب في مجلة الأزهر عن دور الأزهر في الحركة التحريرية بمصر، وجئت أتحدث الآن عن دور علماء الجزائر بقيادة: ابن باديس والبشير والطيب، في تبديد الاحتلال بما أثاروا من همم وأحيوا من حمية، وبنوا من مدارس، وأنشؤا من صُحف مُستمدّين من كتاب الله غذاءهم الدسم، وضياءهم الهادي في اسوداد المآزم، وتلاحم الخطوب.

لقد أقام مجمع اللغة الغربية حفلاً تأبينياً للبشير الإبراهيمي، افتتحه الأستاذ: زكي المهندس - نائب رئيس المجمع - بكلمة أشار فيها إلى بعض ما أعنيه الآن، حيث لخص للحاضرين بعض أحاديث البشير عن جهاده.

وكان مما قال الفقيه الكبير من حديث أوجزه الأستاذ المهندس في يُسر جميل: «إن فرنسا قد جهلت أو تجاهلت أن أبناء الجزائر كغيرهم من أبناء العروبة، قد انحدروا من أصلاب قوم كرام يأنفون الذلّ، ولا يصبرون على الضيم، بل كانوا يؤثرون الموت في عزة وكرامة على الحياة في ذلة ومهانة، وإني أومن إيماناً صادقاً أن لا بقاء للاستعمار في أمة مسلمة لأن مبادئ هذا الدين وتعاليمه وتوجيهاته خير دعامة للحرية، وأقوى حافز إلى الثورة ضدّ الذلّ والعسف.

إن الدين يأمرنا بالاتحاد والتعاون والتآزر، ويفرض علينا القتال والنضال كلما خيفَ على حريتنا أن تُسلب، وعلى كرامتنا أن تُهدر، فكيف يتفق أن يكون للاستعمار بقاء مع هذه المبادئ العظيمة التي قررها الدين».

ذلك بعض ما قاله الرجل الكبير، وهو قول نحرص على تسجيله في مقدمة هذه الخطوط البارزة في ترجمة البشير.

وُلِدَ الفقيه في عام ١٨٨٩ من أسرة كريمة، ترتفع بنسبها إلى الأدارسة العلويين من أمراء المغرب في أزهى عصوره وقد ظلت الرياسة العلمية لأسرة البشير بعد أن فقدت رئاسة الحكم، فظهر بها من رجال الإسلام من نشروا الدين بالجزائر وعظاً وتديساً وتأليفاً، وقد فتح البشير عينه ليرى عمه الشيخ: محمد المكي الإبراهيمي عالم الجزائر لوقته، تنتهي إليه الأستاذية في علوم النحو والصرف واللغة والفقه، بحيث لا تكون للإجازات العلمية قيمتها الحقيقية إلا إذا مهت بتوقيعه، وكان طلابه يؤمنون مسجده الحافل لينهلوا من علمه المتشعب لغةً ونحواً وأصولاً، ثم يقوم بإطعامهم وإيوائهم جرياً على سنة آبائه في الكرم والتشجيع.

وما بلغ البشير السابعة من عمره: حتى تسلمه العم الكبير، ووضع له نظام التعليم محدداً ساعات الراحة والنوم.

ويقول البشير عن هذه الفترة: إنه حفظ بعد القرآن مباشرة ألفية ابن مالك، وألفية ابن معطي، وألفيتي الحافظ العراقي في السير والأثر، مع جمع الجوامع في

الأصول وتلخيص المفتاح للقزويني، ورقم الحُلل لابن الخطيب، ومعظم رسائل بلغاء الأندلس أمثال: ابن شهيد، وابن بُرد، وابن الخطيب، مع دواوين المشاركة كالمتني، والبحري، والطائي، وديوان الحماسة، وأكثر كتب الفصيح لثعلب، وإصلاح المنطق لابن السكيت، وكفاية المتحفظ للطرابلسي وغيرها.

وبمراجعة هذه الكتب التي حفظها الطالب الناشئ نجد: أنه قفز إلى أمهات المصادر العربية دون تمهيد، وكأنني بعمه الكبير وقد بذل جهد الجبارة في تذليل صِعب هذه المؤلفات.

وكان البشير صادقاً حين قال عنه: إنه لم يكن يخليني من التلقين العلمي، حتى حين كنت أخرج معه في طريق الفسحة والراحة.

وإذا كان الرجل قد أضاف كتب الأدب ودواوين الشعر إلى المواد الدراسية للتلميذ الناشئ - على غير المعهود في عصره من الاكتفاء بمقررات العلوم اللسانية والشرعية - فإنه قد هباً بذلك فتاة للزعامة العلمية، في جيل يعتمد على الكتابة والخطابة والصحافة، وعدة ذلك كله: أدب شامل ولسان مبين!

بل إن هذا المحصول الضخم من الثقافة العلمية المتنوعة قد هبّاه للتدريس العلمي لزملائه عقب وفاة عمه، وهو في الرابعة عشرة من عمره، وكان والد البشير قد سرّ لأستاذية ولده المبكرة فتبرّع بإيواء الطلاب وإطعامهم، جارباً على سنة الأخ الراحل ومُشجعاً ولده على التصدّر العلمي، فبذل الجهد الجاهد في ذلك حتى بلغ العشرين من عمره، ثم أثر الرحلة إلى مراكز الثقافة الإسلامية في مصر والمدينة، فلعله يرى لدى علماء عصره في أمصارهم البعيدة ما يمدّه بزادٍ جديد، ولو كانت الوجاهة العلمية وحدها هي مقنعه المجزىء، لاكتفى بتصدّره العلمي في بلده، ولكنه طامح أمل، يودّ أن يرد كل مورد دون أن يقتصر على ما أصاب من توفيق.

على أن المتأمل في سيرة البشير - رضي الله عنه - يرى المسجد صاحب الفضل في تعليمه وثقيفه أينما توجه، فإذا كان المسجد في الجزائر معهده

الدراسي متعلماً ومعلماً، فإن الجامع الأزهر بالقاهرة، والمسجد النبوي بالمدينة المنورة، كانا موضع درسه وتحصيله الثقافي، وهو بذلك لم يكد يشعر بفارق ما بين معاهد درسه المختلفة، فبيوت العبادة شرقاً وغرباً ذات نفح روحي خالب، ولها معارج معنوية تسمو بنفوس روادها إلى الأفق الطاهر، ثم هي من وراء ذلك رمز للوحدة الإسلامية بين أبناء الدين الواحد، إذ ينتقل المسلم من مكان إلى مكان فيجد في اختلاف الحواضر ما قد يُشعره ببعض الغربة، ولكنه حين يلج ساحة المسجد في أيّ مكان يجد إحساسه بالغربة قد تبدّد في أقلّ من لمح البصر.

فها هم أولاء إخوانه المسلمون يتجهون وجهته، ويلهجون بدعائه، ويستقبلون سحائب الطمأنينة في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وما ارتدّ المسلمون على أعقابهم خاسرين إلّا حين أغفلوا المعنى الروحي للمسجد، واكتفوا بالزركشة في بنائه، والهندسة في تصميمه ورفع أعمدته، ونقش سقوفه دون أن يبلغوا من معانيه الروحية ما يشدّ العزم ويبعث اليقين!

وهكذا صارت لدينا مساجد هندسية تفقد مضمونها الروحي، وتحول سقوفها السمكية دون رحمة السماء.

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحيّ غير نساءها

لقد تعلّم البشير وعلم في مهده الأول، ثم رحل إلى القاهرة فأقام بها ثلاثة أشهر فقط، إذ أعجله الشوق لأبيه، فأثر أن يؤمّ المدينة المنورة كي يلقاه هناك، وكنت أظنّ أن ثلاثة أشهر بالقاهرة لا تُغني الطالب المتعلّم في شيء، ولكنني وجدت البشير في ترجمته لحياته يذكر: أنه حضر الدروس بالأزهر ولاقى كبار علمائه. إذ استمع إلى الشيخ: سليم البشري وحضر دروس الشيخ: بخيت المطيعي في الحديث بالرواق العباسي، ودروس الشيخ: يوسف الدجوي في البلاغة بصحن الجامع الأزهر، ودروس الشيخ: السمالوطي بالمسجد الحسيني، وحلقة الشيخ: سعيد الموجي بجامع الفكّهاني، ثم انتقل إلى دار الدعوة والإرشاد

التي أسسها الشيخ : محمد رشيد رضا بمنيل الروضة فأصاب من كل ذلك ما صادف موقعه في نفسه .

وقد دفعه ظمؤه الأدبي إلى لقاء شوقي وحافظ، فرحبا به وأسمعهما بعض ما يحفظ من قصائدهما الجياد، فتهلل شوقي واهتز، وفرح حافظ واختال.

ويخيل إليّ : أن البشير كان يكتفي بالفكرة العامة فقط عن كل أستاذ في حلقاته، لأنه كان مُعجلاً ينشد لقاء أبيه .

ومع قصر المدة بالقاهرة، فقد توجه إلى المدينة ليستأنف العلم في حلقات الحرم النبوي سنة ١٩١١، وقد سعد هناك بعالمين كبيرين هما : الشيخ عبد العزيز الوزير التونسي، والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي .

يقول البشير عن الأول : إنه أخذ عنه الموطأ دراية، ولزم دروسه في الفقه المالكي، وشرح التوضيح لابن هشام . وعن الثاني : أنه أخذ عنه شرح صحيح مسلم .

ثم يعقب على ذلك بقوله عنهما :

وأشهد أنني لم أرَ لهذين الشيخين نظيراً من علماء الإسلام لآن، وقد علّا سني، واستحكمت التجربة، وتكاملت الملكة في بعض العلوم، ولقيت من المشايخ ما شاء الله أن ألقى، ولكنني لم أرَ مثل هذين الشيخين من فصاحة التعبير، ودقة الملاحظة والغوص على المعاني، واستنارة الفكر، إلى آخر ما قال في تقريريهما الرائع .

وهو تقرير لم يسقه البشير جزافاً دون تحقيق، ولكنه صدر من عقل مقتنع، وقلب مطمئن، وعزاء الأساتذة الكبار الذين لم يجدوا من يترجم لهم كهذين الأستاذين الكبيرين، أن يتركوا تلميذاً جهير الصوت كالبشير الإبراهيمي، يسطر عنهم من الحكم ما يرسم لهم صورة تشرق كالشمس، فتقنع قارئها بما كانوا عليه من جلال وكمال ! .

وأيّ جلال أوفى وأيّ كمال أتمّ، من أن يتابع البشير حديثه عن أستاذه فيقول:

«ولقد كوّنت لكثرة مطالعاتي لكتب التراجم والطبقات صورة للعالم المبرز في العلوم الإسلامية متزعزعة مما يقوله كتاب التراجم، وكنت أعتقد أن تلك الصورة الذهنية لم تتحقّق في الوجود الخارجي منذ أزمان، ولكنّي وجدتها محقّقة في هذين العالمين الجليلين».

- ٢ -

كان مقام البشير في المدينة المنورة نقطة تحوّل خطير في اتجاهه العلمي والسياسي معاً، وهكذا يشاء الله أن يكون مهبط الوحي باعث حيوية دافقة لمن يؤمّن ساحته من شتى بقاع الإسلام، وكأنّ النور الذي بزغ في هذه الأفاق الوضيئة في عهد صاحب الرسالة الأولى لا يزال يُومض الأفق ببريق يتّصل بمصدره الأول، فيُوحى للمخلصين من الهداية والعزيمة ما يشدّ آمالهم ويقوّي نفوسهم.

هكذا أشرقت نفس البشير في هذه الرّحاب المُشرّقة، فتحدّد اتجاهه العلمي والسياسي معاً تحت سقوف المدينة حين يأوي إلى بيته في الظلام، وتحت سمائها الضاحية حين يجلس مع أصدقائه متّجهاً بعينه إلى الصفاء اللامع في الأفاق، لقد وجد في دار الهجرة مكتبات مليئة بكنوز العلم فأخذ ينهل منها ما استطاع، لقد زار مكتبة شيخ الإسلام «عارف حكمت»، ومكتبة «السلطان محمود»، ومكتبة «آل المدني»، ومكتبة «آل الصافي»، ومكتبة رباط «سيدنا عثمان»، ومكتبة «عبد الجليل برادة»، ليجد في مخطوطاتها الكثيرة ما لم يكن يسمع به من قبل من روائع الآثار.

وقد سبقه إلى ارتياد هذه المنازل العلمية جماعة من إخوانه الشناقطة، كانوا له خير أدلاء، فجاذبوه الحديث تقرّظاً لبعض المخطوطات، وحثّاً على قراءتها، ونقداً لبعضها الآخر، ودعوة إلى مجافاتها، وكانت عناية الشناقطة بكتب الأدب واللعنة لا تقف عند حدّ، فقرأ مع شيوخهم «الكامل للمبرّد» و«البيان والتبيين

للجاحظ»، كما حفظ كثيراً من دواوين الشعراء، فضمّ إلى تضلّعه الفقهي تضلّعاً أدبياً أمده بالطلاقة والفصاحة، حيث تصدر حلقات التدريس كعهده بالجزائر.

ثم قامت الحرب الكونية الأولى، فانتقل مضطراً إلى دمشق ليواصل التدريس بالمسجد الأموي، ولئزامل الشيخ «بدر الدين الحسني» و«الشيخ جمال الدين القاسمي» والشيخ «الخضر حسين» فيما يلقون من دروس ثمينة أعادت بهاء الشريعة وجمال العربية في ديار الشام، وما زال أبناء هذه الدروس من الطلاب يذكرون نوافحها العاطرة كل حين، وأكثرهم ممّن تولّى الزعامة الروحية والسياسية في دمشق، وهم بعد غرس هذا السلف الكريم!.

هذا عن الاتجاه العلمي للبشير بالمدينة، أما الاتجاه السياسي: فقد تحدّد في دار الهجرة عندما زارها عالم الشمال الأفريقي بأجمعه، وزعيم الإصلاح الديني بالجزائر «عبد الحميد بن باديس»، فقابل البشير لأول مرة في المسجد النبوي الطاهر، وامتد الحديث إلى نكبة الجزائر بالاستعمار، فأخذ الرجلان الكبيران يضعان الخطة لبعث الأمة الإسلامية بالجزائر.

وقد كان الأستاذ «الإمام محمد عبده» - رضي الله عنه - قد زار هذه الديار قبل وفاته بعامين، واجتمع بنفر من علمائها، فذكر لهم أن البعث الإسلامي بالجزائر لن يتمّ إلّا بتربية جيل مؤمن يعتنق مبادئ الإسلام عن حميّة وإخلاص، وأن كل معركة سياسية تسبق هذه التربية الإسلامية لن تعقب أطيب الثمار المبتغاة، ولأمر أراحه الله قد وصلت كلمة الإمام إلى آذان ابن باديس بعد سنوات، فأضاءت له طريق الكفاح، وحين اجتمع بالبشير كانت الخطة العامة معروفة مؤكّدة، إنما يدور البحث حول طريقة التنفيذ، وهي التي تتطلب العقل البصير في الرسم والتخطيط.

يقول الشيخ البشير عن أيامه بالمدينة المنورة عقب زيادة ابن باديس: «كنا نوذّي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي، ونخرج إلى منزلي، فأسمر مع الشيخ: ابن باديس منفردين إلى آخر الليل، حين يفتح المسجد،

فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح ، ثم نفترق إلى الليلة الثانية إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها الشيخ بالمدينة المنورة ، وكانت هذه الأسفار المتواصلة كلها تديراً للوسائل التي تنهض بها الجزائر ، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضة الشاملة التي كانت كلها صوراً ذهنية تترأى في مخيلتنا ، وصحبها من حُسن النية وتوفيق الله ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة ، وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة ١٩١٣ ميلادية هي التي وُضِعَتْ فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، التي لم تبرز للوجود إلّا في سنة ١٩٣١ م .

وقبل أن نتحدّث عن نشاط جمعية العلماء بالجزائر نُشير إلى رقاعة صفيقة يتّصف بها بعض المُعْرِضين من الكتّاب ، حين يوهمون الناس أنهم يؤرّخون لحركة التحرير الجزائرية ، فيعقدون موازنة ظالمة بين البشير وابن باديس ، ليرجعوا بانتقاص هذا مرة وانتقاص ذلك مرة أخرى ، وكان الرجلين متنافسان خصيمان ، لا زميلاً كفاح ورفيقاً نضال .

إن البشير - رضي الله عنه - يعترف لصاحبه بالسبق ، وبأنه رجع إلى الجزائر قبل عودة البشير بسبع سنوات ، فوضع اللّبنات الأولى في بناء الجهاد ، وبادر باحتكار المسجد الجامع بقسنطينة ، ليكون موضع دعوته العلمية والسياسية ، فالتفّ حوله جمع غفير من الطلاب ، حتى ضاقت بهم المدينة ، وأعلنه على إطعامهم وإيوائهم جماعة من ذوي السّعة والبرّ ، يؤيّدون حركة الإصلاح . وكان لوالد ابن باديس من الاحترام والهيبة ما منع أيّ تعرّض لنجله من سلطات الاحتلال ، وقد دفع المسلمون بأفلاذهم إلى ابن باديس دون المدارس الرسمية للحكومة الفرنسية ، مع ما تتضمّن من مُغرّيات في الوظائف والأمال ، حتى بلغ مجموع الطلاب أكثر من ألف ، يمثلون بقاع الجزائر المختلفة من الجنوب إلى الشمال ، وقد عاد البشير ليرى الأساس قد وُضِعَ بالفعل ، فصافح ابن باديس مهتئاً ، وانقلب إلى وهران ليصنع ما صنع رفيقه في قسنطينة ، وهكذا وضعوا الخطّة معاً ، وبادر ابن باديس بالتنفيذ فوضع الأساس وقَدّم ثمرة التجربة ، ثم عاد البشير ليشدّ أزره ، وليحتذي صنيعه ، ففيمّ المفاضلة الرقيقة بين أخوين مخلصين ؟ تقدّم أحدهما للعمل فمهّد

الأرض ووضع الثمرة، وجاء الأخ الثاني فبارك وأيد ثم مضى يمهد ويغرس في غبطة وارتياح.

اتجه البشير إلى وهران فعقد الندوات العلمية للطلاب، وأعدّ الدروس الدينية الموسمية لكافة المسلمين من صغير وكبير، حتى إذا التفتّ حوله نفر ذو العدد، انتقل إلى الدروس النظامية ذات المنهج المحدّد، وبعث بطلابه إلى البلاد المجاورة في الإقليم الوهراني ييسّرون بحركة الشيخ، ويهيّثون النفوس للقاءه في أيام الجمع إذ كان يعدّد زيارته للقرى والمدن ليخطب الناس في احتفال الجمعة المشهود.

وقد صادف حماسة الإسلام تتقدّ مشتعلة في النفوس، على حين ظنّ المُستعمِرون أنهم بما زيّفوا من قول، وبما خدعوا من حضارة وبهرج قد عملوا على إطفاء هذه الجذى المتأجّجة، وما دروا أن الإيمان الأصيل لا يخدع بإغراء، أو يقاوم ببرامج ودراسات لا تتركز على عماد ركين، وقد فوجئوا دهشين بحركة البشير في وهران تؤازر دعوة ابن باديس في قسنطينة، فعملوا على تعويقهِ تعويقاً صارخاً، دعا المجاهد إلى غشيان الأسواق التجارية متظاهراً بالسّعي في طلب الرزق، ليصدّ عنه مَنْ يلاحقه بكتابة التقارير، وتدبير المكائد.

وكانت الصلة حينئذٍ بين ابن باديس والبشير في غاية الصلابة والقوة، وفي المذكرات التي تركها البشير ما يشير إلى ذلك بصراحة واضحة حيث قال: في هذه الفترة (ما بين ستي ١٩٢٠ - ١٩٣٠) كانت الصلة بيني وبين ابن باديس قوية، وكُنّا نتلاقى كلّ أسبوعين أو في كل شهر على الأكثر، يزورني في بلدي: (أصطيف) أو أزوره في «قسنطينة»، فنزّن أعمالنا بالقسط، ونزّن آثارها في الشعب بالعدل ونبني على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامجاً للمستقبل بميزان لا يختلّ أبداً، وكُنّا نعمل للمفاجآت حسابها، فكانت هذه السنوات العشر كلها إرهاباً لتأسيس (جمعية العلماء الجزائريين).

كان ظهور جماعة العلماء عملاً فجائياً لَمَن يرى البذرة قد انشقت فجأة عن عودها الأخضر الصغير، ولكنه لم يكن مفاجأة لَمَن شقوا الأرض وأزاحوا الأشواك والصخور، وردموا المستنقعات، ثم وضعوا البذرة في مدى عشرٍ من السنوات الكاملة، نشأ فيها آلاف التلاميذ، وقامت عشرات المدارس والمساجد حافلةً بالتذكير والتوجيه .

وقد ظنَّ المستعمرون أن جماعة العلماء بالجزائر ليست إلا نمطاً من مشيخة الطرق الصوفية، أنشأها العلماء لإقامة حفلات الذكر وتلاوة الأدعية والطواف بالأضرحة، وجمع الزكاة لإشباع بطون المتواكلين من أدعياء الطريق، إذ لم يكونوا يعتقدون أن مرور مائة عام على الاحتلال الفرنسي بالجزائر يبقِي في النفوس معنىً كريماً من معاني الإسلام، بل إنهم في هذا العام نفسه - عام إنشاء جماعة العلماء بالجزائر - قد رسموا خطة كبرى للاحتفال بمرور مائة عام على احتلال الجزائر، وقد قَدَّروا أن تستمر المهرجانات البراقة ستة أشهر حافلةً بالمراقص والملاهي، وعارضة ألوان الحضارة بتبرجها وخمرها ونسائها واستهتارها .

وقد استدعوا من أعلام الفن الباريسي رجالاً ونساءً مَمَّن توهَّم المحتلون أنهم سيأخذون على الجزائريين أسماعهم وأبصارهم بما يعرضون من فنون، ولكن أبناء ابن باديس وطلاب البشير قد تفرَّقوا في بقاع الجزائر يعلنون المقاطعة التامة لمظاهر العدوان الفرنسي المستترة ببراقع المهرجانات والتمثيلات والألعاب الرياضية، فلم تكد تحين أيام الاحتفال حتى وجد الفرنسيون أنفسهم وكأنهم يحتفلون بأنفسهم، فلم يَفِدْ إلى مهارجهم الزائفة غير صنائعهم المأجورين، وحتى هؤلاء: قد ثارت عليهم ضمائرهم في بعض لحظات اليقظة فأخذوا يتخلفون، وظهرت مقاعد المسارح ومجالس المهرجانات خاوية مُقفرة، تصدم ذوي الأمر في أمانهم الخوادم، وقد رجعوا بالبحث عن مدعاة هذه المقاطعة الصاعقة، فعرفوا أن الجمعية التي أُنشئت منذ أيام قد تركت هذا الدويَّ الرنان، فكروا باحثين عن لائحتها الداخلية، فأخذوا يدرسونها متفحصين .

وكان ابن باديس وزملاؤه من الصحافة بحيث أبدوا شيئاً وأضمرُوا أشياء، فقد اكتفوا في نصوص اللائحة الرسمية بإعلان الدعوة إلى الإصلاح الديني والتعليم تقيّةً وحذراً، بينما تَوَاصَى المجتمعون في أول انعقاد رسمي لجماعة العلماء بمحاربة المحتلّين، وتقويض دعائم السيطرة الفرنسية على البلاد، وبثّ الروح الإسلامية عقيدةً ولغةً وتشريعاً.

هذا ما تَوَاصَى به القوم عن يقين لا تحرّكه الزعازع أمّا ما أعلنوه رسمياً من نصوص اللائحة فيُوجز فيما يلي:

١ - تنظيم حملة جارِفة على البدع والخرافات والضلال في الدين بوساطة الخطب والمحاضرات ودروس الوعظ والإرشاد في المساجد والأندية والأماكن العامة والخاصّة، حتى في الأسواق والمقالات في الجرائد الخاصّة التي تخدم الفكرة الإصلاحية.

٢ - الشروع العاجل في التعليم العربي للصغار فيما تصل إليه الأيدي من الأماكن، ربحاً للوقت قبل بناء المدارس.

٣ - تجنيد المئات من التلاميذ المتخرّجين في الحقبة الماضية للجهاد، مع دعوة الشبّان المتخرّجين من جامع الزيتونة للعمل في تعليم أبناء الشعب.

٤ - العمل على تعميم التعليم العربي للشبّان على النمط الذي بدأ به ابن باديس.

٥ - مُطالبة الحكومة برفع يدها عن مساجد المسلمين ومعاهدهم التي استولت عليها، لتكون أماكن للدراسة والتوجيه.

٦ - مطالبة الحكومة بتسليم أوقاف الإسلام التي احتجبتها وورّعتها كما تشاء، لتصرف في أبوابها الإسلامية وهي من الكثرة بحيث تساوي ميزانية كاملة لدولة متوسطة.

٧ - مطالبة الحكومة باستقلال القضاء الإسلامي في الأحوال الشخصية مبدئياً، وبعدم تدخلها في تعيين الموظفين الدينيين.

تلك هي الخطوط البارزة في اللائحة، وقد وزّعت نصوصها بكميات ضخمة في القرى والمدن، وبدأ أنصار الجماعة يشرحون كل نصّ بإظهار ما يحمل في أطوائه من معاني، وتفرّق أعضاء الجماعة في زيارات متوالية لجميع البلاد، ليرشدوا الجزائريين إلى ضرورة التعليم الديني وإحياء التراث الإسلامي، والدعوة إلى الاكتساب العام لإنشاء المدارس الدينية في كل مكان بعيداً عن سيطرة مناهج الاحتلال.

وقد اختصّ ابن باديس بالإشراف على مقاطعة: «قسنطينة» بما تضمّ من القرى والمدن، واختصّ البشير بالإشراف على مقاطعة: «وهران»، كما اختصّ الشيخ الطيب العقبي بالإشراف على مقاطعة «الجزائر»، ولكل مُشرف دُعائه وتلاميذه وحواريّوه، فسرعان ما أُقيمت عشرات المدارس والمساجد، وطُبعت الكتب الإسلامية القديمة لتقدّم الزاد الحيّ للنشء الجديد، أما المُشرفون الثلاثة: فما أكثر ما بذلوا من مجهود.

لقد قال البشير عن نفسه: إنه كان يلقي عشرة دروس في اليوم الواحد يبتدئها بدرس الحديث بعد صلاة الصبح، ويختتمها بدرس التفسير بين المغرب والعشاء، ثم ينصرف بعد الصلاة الأخيرة إلى بعض النوادي الجامعة ليُلقي مُحاضرات في التاريخ الإسلامي على نهج محاضرات الشيخ: «الخضري في مصر»، أما أيام العطلة الدراسية فكانت جولات سياحية في القرى، تنشّط العزائم وتبعث الهمم، وكانت أعياداً للأمة الإسلامية في الجزائر، إذ ينهض أبناء القرى في تكبير وتهليل لاستقبال رسول الإسلام ممثلاً في ابن باديس، أو الطيب أو البشير.

وقد نتج من ذلك كله: بناء أربعمائة مدرسة إسلامية، تضمّ مئات الآلاف من البنات والبنين، وإنشاء أكثر من مائتي مسجد للصلوات والمحاضرات مما أفزع

المستعمرين فَعَجَّلُوا باعتقال البشير ونفيه إلى صحراء «وهران»، ثم فوجيء العالم الإسلامي بوفاة ابن باديس فارتجت الجزائر المسلمة لرحيله، ونعتة صُحُف الإسلام في شتى ديار الدين الحنيف أبلغ معنى وأحره وأوجعه، وتجاوز مشيعو جنازته عشرات الألوف، إذ نهضوا من كل مكان في أقصى الجزائر وأدناها لتوديعه إلى مشواه باكين مُسْتَرْحِمِينَ، وقد اجتمعت جمعية العلماء يوم وفاته، وانتخبت بالإجماع الشيخ: البشير لرياسة الجمعية من بعده، وقد أبلغ إليه هذا الاختيار في منفاه بصحراء وهران، فتحمل التبعة الكبرى بعزيمة شماء وعمل على إرسال تلاميذه إلى الأمكنة النائية، ليواصلوا الجهد في محاربة الاحتلال، حتى إذا فكَّ قيده عاد إلى عمله، يَعْظُ وَيُرْشِدُ وَيُحَاضِرُ وَيُنْشِئُ المدارس ويضع المناهج، ويرأس تحرير جريدة البصائر، ويدير جمعية العلماء، ويقوم بالصَّلح بين الجماعات المتخاصمة في ربوع البلاد، حتى كان يصل الليل بالنهار دون نوم في بعض ليالات الأسبوع.

ثم طمحت هِمَّتُهُ إلى إنشاء المدارس الثانوية بعد الابتدائية فبدأ بإنشاء معهد ثانوي كبير «بقسنطينة» أسماه: معهد ابن باديس تخليداً لذكرى الرائد الأول في ميدان الكفاح، وكان تلاميذ السنة الأولى به أكثر من ألف طالب مُخْتَارِينَ!، ومن تلاميذ هذا المعهد كان دُعاة الحركة التحريرية بالجزائر، حيث تقدّمت الوفود المؤمنة إلى معركة الاستقلال بِحِمِيَّةٍ مشتعلة!.

وهكذا: كانت التربية الدينية في مئات المدارس والمساجد والمعاهد ثكنات حربية مؤمنة، قدّمت الجنود إلى ساحة الحرية فاستأصلوا الاحتلال الفرنسي في معارك رهيبة، صدق القوم فيها صدق المناضلين فما وهنوا لِمَا أصابهم في سبيل الله، بل تَمَّت كلمة الله باستقلالهم الباهر، ونكوص المستعمرين!.

فليت الذين يتجاهلون دور الإسلام في تحرير الجزائر يفطنون إلى الحقِّ الصريح حين يتساءلون عن جنود معارك التحرير مَنْ أَلْهَمَهُمُ الْحِمِيَّةَ الباسلة، وَمَنْ أَعَدَّهُمُ لِلْمَأْرَقِ المتلاحم، وَمَنْ وَعَدَهُمُ بنصر الله عند اللقاء، بل مَنْ حَطَّم غرور

الاحتلال الفرنسي، وقضى على أوهامه التي تجسدت في عبارات وِقْحة هتف بها الحاكم الفرنسي في قسنطينة سنة ١٩٣٠ حين قال في افتتاح ما أسماه بمهرجانات الحرية بعد مائة عام من الاحتلال؟: «لا تظنوا أن هذه المهرجانات لبلوغنا مائة عام في الجزائر فحسب، فقد أقام الرومان من قبلنا ثلاثمائة عام وخرجوا كارهين، ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو: تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار»، وهو قول متوقّع فاجر كدت أن أكذبه، إذ لا أستطيع أن أفهم كيف تُسفر الدبلوماسية جهاراً عن مثل هذا الحقد، لولا أن الذي رواه هو: محمد البشير الإبراهيمي في مذكراته الشخصية التي نشرتها مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢١ ص ١٤٧، وما البشير غير صادق أمين!.

كنت أفهم أن يقال ذلك في اجتماع سرّي بمقرّ الحاكم المتغطرس، أما أن يقال في خطبة علنية بمهرجان ذائع يحضره ممثلو الأمم الكونية، فذلك ما يوحى بغرور تعدّي طوره، فصار هذياناً ينحدر على لسان محموم!، وكان له أثره الحسن إذ بعث ابن باديس ورفاقه إلى الجهاد، حتى انبلج صُبْح النصر في أمدٍ قريب، وتنفس العمر بالبشير حتى هنيء بتحقيق أمله، فاقتطف ثمرة الجهاد ناضرة زاهية، وعاش مُبَجَّلاً مُكْرَماً في ربوع الإسلام، يعرف له كل بلد مكانه الصريح من الزعامة والتوجيه، إلى أن لحق برّبّه في مايو سنة ١٩٦٥، فشيعته الجموع باكية مسترحمة، وغاب جسده الطاهر في باطن الأرض لتبقى سيرته العطرة رمز كفاح باهر، ودليل نجاح شريف.

سيد بن علي المرصفي شيخ أعلام النهضة الثقافية

يحسب بعض الواهمين: أن الحديث عن دائرة الثقافة العربية يبعد بقارئه عن نواحي النهضة الإسلامية، وهو ظن مُخطيء، لأن الثقافة العربية في صميمها الأصل ثقافة إسلامية وكتاب الله وسُنّة رسوله - عليه السلام - هما لباب هذه الثقافة عند أئمتها الأصلاء، ممّن ينظرون للأدب نظرةً واسعةً، لا تقصره على الشعر المنحدر والقصص المجوني، بل تمتدّ به إلى شعاب الفكر العربي على تراميها البعيد، وقد كانت كتب التراث العربي أحد روافد النهضة الإسلامية العامّة في هذا العصر، وبالأدب العربي المُشرق كتبت صحائف الدعوة المعاصرة للحرية والاستقلال في أكثر بقاع الإسلام، فإذا تحدّثنا عن عالم أديب كالسيد بن علي المرصفي، أو بحأثة موسوعي كأحمد تيمور في هذا الكتاب، فإننا نمثّل بهما دور التراث العربي في إذكاء النهضة، وأبدأ بالمرصفي - رحمه الله - فأقول:

«ما أظن أستاذاً من أساتذة الأزهر رزق الخطوة في تلاميذه، والنجابة في أشباله، كما رزقها الأستاذان: محمد عبده، وسيد بن علي المرصفي، فقد كانت دروس الأستاذ الإمام في تفسير كتاب الله حقلاً خصيباً، أنتج في ميدان الإصلاح والتشريع أساتذة أعلاماً، حملوا الراية وتقدّموا الركب وحسبك أن يكون منهم على سبيل المثال: محمد مصطفى المراغي، وعبد المجيد سليم، ومحمد رشيد رضا، ومصطفى عبد الرازق.

كما كانت دروس السيد المرصفي روضاً يانعاً أتى أكله الشهى، فأنج رباحين، وأزاهر ذات عقب شذي ومنظر موق، وحسبك أن يذكر من أبنائه في مجال الزعامة الفكرية، والقيادة الأدبية: مصطفى لطفى المنفلوطي، وأحمد حسن الزيات، وطه حسين، وعبد العزيز البشري، وعلي عبد الرازق، وزكي مبارك، وأن يذكر منهم في مضمار التحقيق العلمي ونشر آثار السلف في اللغة والدين: محمود حسن الزناتي، وأحمد محمد شاكر، وحسن السندوي، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، وأن يذكر منهم في دنيا الصحافة والتحرير: محمد الهياوي، وعبد الرحمن البرقوقي، ومحمد إبراهيم هلال، وفهيم قنديل.

أما الشعراء المجيدون من طلابه: فأنت تعدّ منهم ولا تعدّهم، إذ تستطيع أن تختار على سبيل المثال: حسن القاياتي، وأحمد الزين، وعلي الجارم، وأحمد شفيع السيد، وإبراهيم الدباغ، ورمزي نظيم، وأستاذ كالمرصفي يترك هذه المؤلفات الحية من الأفضاذ تنشر معارفه، وتذيع هديده، حقيق أن يكتب له في سجلّ التاريخ الأدبي المعاصر صحيفة وضاء تتألق سطورها بالزهو والاعتزاز.

لقد استطاع سيّد بن علي أن يُعيد إلى القاهرة في مطلع هذا القرن مجالس بغداد في أسطع عصورها الزاهية، فكنت تتخيله وقد عكف وحده بين زملائه الشيوخ على دراسة الأدب واللغة إماماً كبيراً من صدور السلف، كأبي عمرو، وأبي عبيدة، والأصمعي، والخليل، والمبرد فهو يروي الشعر الجزل، ويناقش التركيب الناشز، ويعالج اللفظ الغريب، ويردّ النسبة المخطئة إلى وضعها الصحيح، ويناقش بعض ما اتفق عليه من قواعد اللغة والتصريف في ثقة خارقة، وعن بصر نفاذ.

ولعلّه كان أشبه أسلافه بأبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، فقد كانا يؤثران أدب العصر الجاهلي ويفضّلاه، وكذلك كان للمرصفي بهذا الأدب ولّع شغوف، وصباية حنّانة، وإن كان تأخّره الزمني قد أتاح له من استيعاب المعارف المتشعبة في مختلف فنون اللغة وأبواب العلوم ما لم يتيسّر لهما من قبل، فأبنع

درسه بكل شهّي من ثمار المعرفة، ورأى فيه طلاب اللغة والأدب مورداً عذب المشرب صافي النмир.

على أن ناحية العجب في تاريخ الرجل: أنه كان فذاً غريباً بين لداته، فقد كانت حلقات الشيوخ من حوله تبدىء وتُعيد في دراسة حواشي مستفيضة، في الشريعة وعلوم اللسان، فلا تزيد على أن تُعيد المكرّر المألوف وتلوكه، وأكثره قد تاه في بحر من المؤاخذات اللفظية والاعتراضات السطحية، وتكلف الاحتمال البعيد، وتعسف الردّ الناشز، أما دروس الأدب والشعر: فلم يلمّ بهما غير الشيخ في درسه، وكان ينظر إلى زملائه فيدهشه هذا التكالب المزدهم على دراسة الخلاف اللفظي، والتشقيق الفرضي، ويروعه أن ينصرف العلماء عن أدب اللغة وآثار المتقدمين من الإخباريين والرواة، وأنه ليعبر عن ذلك فيقول في مقدمة كتابه: «أسرار الحماسة»:

«وقد رأيت نفوس القوم مصروفة إلى تحقيق المسائل العلمية، والمباحث العقلية، والعليم عندهم من نظر إلى الاستدلال، وأكثر طرق الاحتمال، وولّد ما لا يُولّد، وأوجد من الأفهام ما لا يوجد، ولو علموا - هداهم الله - ما علمناه من خصائص اللغة وأساليبها، وما أودعت من لطائف الأسرار في تراكيبها، لهجروا تلك الكتب ذوات التنافر والتعقيد، وغنموا لغة القرآن المجيد والحديث الحميد».

وإن رائداً بطلاً يناهض هذا التيار القوي، فيقف فريداً يدرس الأدب واللغة موقف المُزاجم المُنافس، حتى يجذب الأنظار إلى حلقاته، ويجمع الصفوة من الطلاب على مذهبه، إن رائداً بطلاً يفعل ذلك لجدير أن يطلق اسمه على إحدى قاعات المحاضرات بكلّيات الأزهر، وأن ينشأ كرسي في كلية اللغة العربية لدراسة آثاره ومَنحاه وشروحه، وأن تطبع مؤلفاته المخطوطة، ليعلم الناس أيّ أديب فذّ كان المرصفي!! رحمه الله.

لقد كانت كتب الأدب لعهد المرصفي أول هذا القرن مجفوة مهملة، وكان أكثرها مخطوطاً منسياً، لا يجد النور في الحياة، وبعض المطبوع منها على قلته

رديء الطبع سييء التحريف، كثير التصحيف، فعمد المرصفي إلى أكثرها صعوبةً، وأوعرها مركباً، فأخذ نفسه بدراستها دراسة نافذة فاحصة، فكان الكامل بين يديه يتم قصائده، ويشرح عويصه، ويتعرض لنسبة الأبيات، ويترجم لصاحب الأثر، ويشرح ما تركه المبرد دون إيضاح.

وكانت أمالي أبي علي القالي كذلك موضع اجتباؤه، يناقش لغوياتها المعماة، ويعارض نصوصها المختلفة، ويبحث في المخطوطات المتأكلة عمّا غاب من القصائد، فيكمل ما نقص، وقل مثل ذلك في حماسة أبي تمام، وعقد ابن عبد ربّه، وأراجيز رؤية والعجاج، مما ترك أكثره مخطوطاً في ظلمات النسيان!!، حتى جعل للأدب في الأزهر ركناً متين الدعائم، وكانت حالته به إذ ذاك مذهلة مذهلة، يصفها الأستاذ البشري بالرسالة فيقول^(١):

«والأدب في ذلك الوقت: أن تقول شعراً مقفىً مسوزوناً، فإذا أعوزك العروض، وعميت عليك أوزان الشعر، فحسبك أن يكون المصراع في طول المصراع، على شرط أن تتغزل: فتغزل كلما طلبت مديحاً أو رثاءً أو هجاءً، وكان الأدب يحمد من (المجاور) عند أشياخه، إلّا أن يسرف فيه، ويجرد له صدرًا من وقته، فإنهم كانوا يكرهون ذلك منه، لأنه في الواقع يشغله بقدر ما عن توفير الذهن على الدرس والاستذكار، ويرون هذا منه آية على (عدم الفتوح)، وحسه في العام قصيدة يمدح بها شيخه يوم يختم الكتاب، وقصيدة أو اثنتين يرثي بهما من يموت من عليّة العلماء، فإذا أمكن الأستاذ: المرصفي في هذا الوسط المعرض أن يجعل مؤلفات المبرد، وأبي علي، وأبي تمام، وابن عبد ربّه، تجد مكانها بين حواشي الأسنوي والصّبّان والباجوري والسيوطي والعطار، فذلك فضل كبير».

وأنت حين تحاول أن تدرس الخطوط الأولى لحياة الشيخ لا تجد ما تطمئن إليه مما كتب عنه أو تناقله تلاميذه، فجميع من حدّثهم عن نشأته العلمية يذكرون أنه تتلمذ في الأدب على السيد عبد الهادي نجا الأبياري، أحد علماء الأزهر

(١) الرسالة، عدد ٦٩، سنة ١٩٣٤.

وأدبائه، وأنه تأثر به تأثراً دفعه إلى الإكباب على دراسة آثار السلف المتقدّم في اللغة والشعر، وأنا شخصياً - وقد أكون مخطئاً - لا أستطيع أن أقرّ ذلك، إذ أن ما لدينا من إنتاج الأستاذ الأبياري شعراً ونثراً وتأليفاً، يخالف منهج المرصفي ومنحاه، بل يقف منه موقف النقيض من النقيض، فنثره مثقل بالبديع المستكره، وشعره نمط من الطراز المملوكي في سطحته وتكلفه، وتأليفه ضرب من الثقافة الغابرة التي تفضّل القشور على اللباب.

ويكفي أن تعرف أنه أصدر كتاباً في مجلدين كبيرين، جعله يدور على لغز ذهني في اسم الخديوي إسماعيل، ثم استطرد فذكر فنوناً من القول لا يجمعها في نطاق واحد غير التكلّف والإرهاق، وقد يكون الرجل معذوراً فيما يصنع، لأنه يمثّل ثقافة عهده واتجاه معاصريه، ولكنه مع ذلك لا يمكن أن يتخرّج على يديه أديب فحل مطبوع كالمرصفي العظيم، وربما أكبّ الطالب على حلقات أستاذه في طفولته الأدبية، ثم بدا له أن يتحوّل عنها دون أن يترك أثراً ما في اتجاهه ومشربه، وكم من تلاميذ شافهوا بعض الأساتذة دون أن يتفجعوا بمذهبهم في الرأي، ونظرتهم للعلم.

وقد هداني الرأي المنشد إلى أن أميل إلى أن الأستاذ: حسين المرصفي الأول صاحب (الوسيلة الأدبية) هو: أستاذ المرصفي الثاني وملهمه، فصاحب الوسيلة قد شدّ على متعارف جيله، ورجع بالشعر إلى أخصب عصوره في الأدب العباسي، وعلى يديه تخرّج البارودي شاعراً فحل التركيب ناصع العبارة، رائع البيان، والرجلان بعد من قرية واحدة، ولل كبير مكانة لدى الصغير، فلا بد أن تكون «الوسيلة الأدبية» قد هدت صاحب «رغبة الأمل» إلى مَعِين لا ينضب من البيان، فبحث عن الأدب اللباب مما حوته بادئاً، ثم تخطّى العصر العباسي إلى عصريّ الجاهلية وصدر الإسلام، فذهبا بإعجابه كل مذهب، وطفق يبحث عما ضمّ أدبهما من الكتب، فقرأ القديم من آثار الجاحظ والمبرد، وابن قتيبة، وأبي الفرج، وتخرّج وحده على الآثار السلفية، أديباً فحلاً، وناقداً لا يُشَقّ له غبار، على أن

هذا الهيام الكَلَف بكتب اللغة والأدب لم يمنعه أن يدرس حواشي الشريعة والأصول، ويلمَّ بالنحو والصَّرف إلمام مَن يدرك القاعدة العامَّة، إدراك الناقد المتفرَّس ونظرة مُنصِّفة إلى شرح الكامل تدلُّ على ثقافة الرجل وإحاطته.

فهو يناقش سيبويه، والمبرد، وابن جنِّي، والمازني، والخليل، في دقائق غامضة، من قواعد النحو والصرف، فيناهض دليلاً بدليل، وقاعدة بقاعدة، حتى ليخيَّل إلى القارئ أن الرجل صاحب نحو فقط، وليس أديباً جامعاً يأخذ من كل فن بجوهره الأصيل.

وإذا كنت لم أقف على ترجمة دقيقة لتاريخ الأستاذ، تأخذ بيدنا في تحديد مركزه الأدبي في تاريخ الثقافة المعاصرة، فإن ما ذكره تلاميذه الكثيرون عنه، في بُدْ سريعة، وشذرات موجزة، تكفي لأن تصوِّر ملامحه إذا جمع بعضها إلى بعض، وهي بعدُ أقوال مخلصة، لم تدفع بها رغبة مغرضة في تملُّق إنسان، إذ كتب أكثرها بعد وفاة الشيخ من ناحية، وبعد أن أصبح المتحدث في منزلة أدبية تجعله فوق المَلَّتِ الرخيص من ناحية ثانية.

على أننا لا نستطيع أن نسرد جميع ما قيل، وإنما نكتفي ببعض عن الجميع... فالدكتور: طه حسين يحدّد مكانة أستاذه بين نقّاد اللغة وأساتذة الأدب في عصره فيقول في كتابه: «تجديد ذكرى أبي العلاء»:

«أستاذنا الجليل سيّد بن علي المرصفي أصحَّ مَن عرفت بمصرفتها في اللغة، وأسلمهم ذوقاً في النقد، وأصدقهم رأياً في الأدب، وأكثرهم روايةً للشعر، ولا سيما شعر الجاهلية وصدر الإسلام.

كان يدرس الأدب في الأزهر الشريف، وبدأت أختلف إليه، ولَمّا أَعُدَّ السادسة عشرة، فلزمته أربع سنين، ما أذكر أنني انقطعت عن درسه، أو تخلفت عن مجلسه، ولم يقف الأمر بيني وبينه على ما يكون بين الأستاذ والتلميذ من صلة، بل نشأ بيننا نوع من المحبة يشوبها في نفسي الإجلال والإكبار، وفي نفسه

العطف والحنان، وتبعث كلينا على أن يتعصب لصاحبه، ويناضل عنه، على نحو ما يكون بين الأبناء البررة والآباء المثقفين.

سعدت بهذا الحب قديماً، وسأظل سعيداً به طول الدهر، لأنه صادف قلبي في غضارة الطفولة، ونضارة الصبا، ولأنه حبٌ مصدره العلم، لم تفسد عنصره المادة، ولم تكدر جوهره مآثم هذه الحياة. حبُّ الأستاذ ودرسه قد أثرا في نفسي تأثيراً شديداً، فصاغاها على مثاله، وكوّن لها في الأدب والنقد ذوقاً على مثال ذوقه.

إشارٌ للبديوي الجزل على الحضري السهل، وكلف بمناحي الإعراب في فنون القول، ونبو عن تكلف المولدين لأنواع البديع وانتحالهم لألوان الفلسفة والمنطق، وبُغض شديد لحكم الضرورة في الشعر، واللفظ السهل المهلهل يقع بين الألفاظ الجزلة الفخمة، إلى غير ذلك مما هو إلى مذهب القدماء من أئمة اللغة ورؤاة الشعر أدنى منه إلى مذهب المحدثين من الأدباء والنقاد.

كلّ قديم في هذا المذهب جيّد خليق بالإعجاب لرصانته ومتانته، وكلّ جديد فيه رديء سفاسف لحضارته وهلهلته، فإن كان من المحدثين من أخذ نفسه بمذاهب القدماء، فسلك مسالكهم، وتأثر خطاهم فهو حقيق أن نقرأه وننظر فيه، وإلا فدرسه لأستتنا فساد، ولملكاتنا كساد، وعلينا أن نلقي بيننا وبينه من الصد والإعراض حجاباً صفيقاً.

ويعود الدكتور إلى الحديث عن منهجه الأدبي في مقدمة كتابه: «الأدب الجاهلي» فيقول: «ومذهب القدماء ما كان يمثل الأستاذ الشيخ: سيّد الرصافي حين كان يفسّر لتلاميذه في الأزهر ديوان الحماسة لأبي تمام، أو كتاب الكامل للمبرّد، أو كتاب الأمالي لأبي علي القالي، ينحو في هذا التفسير مذهب اللغويين النقاد، من قدماء المسلمين بالبصرة والكوفة وبغداد، مع ميل شديد عن النحو والصرف، وما ألف الأزهريون من علوم البلاغة».

وكلام الدكتور عن أستاذه يتفق مع حديث الأستاذ: أحمد حسن الزيات عنه
إذ يقول^(١):

«كان أستاذنا المرصفي يطبعنا في النظم: على غرار الحماسة، وفي النشر
على غرار الكامل، ويزين لنا أن ننظم مُعلّقة كطرفة، أو نُنشىء خبراً كأبي عبيدة».
فشهادة هذين الأديبين الكبيرين تؤكد: أن الرجل كان مُولعاً بالشعر الجاهلي
وشعر صدر الإسلام، كَلِفاً بالغريب من القول، والعويص من التراكيب، متجهاً إلى
الذخائر السلفية العريقة في شرحه وتفسيره، وإن كنا نقف قليلاً عند ما قاله
الدكتور: طه حسين بصدد انصرافه الشديد عن مباحث النحو والصرف، لأن ما
لدينا من شرحه للكامل - وهو في مجموعته صورة أمينة لما ألقى في حلقات
دراسته - لا يؤكد هذا الانصراف الشديد.

فللمرصفي مع أعلام النحاة والصرفيين مواقف كثيرة، تدلّ على الميل
المقتصد لا على الانصراف العازف، ولكنه لم يتخذ الحديث النحوي مجالاً
للمُماحكة اللفظية والغرض الجدلي، مما امتلأت به حواشي المتأخرين، واتجه
إليه زملاؤه من الأزهرين، بل نهج منهج الكسائي، وسيبويه، والمبرّد في التصدي
إلى الجوهر دون العرض، أما طريقته البارة في إنشاء الشعر، وشرح الغريب:
فقد ألمح إليها تلميذه الأستاذ محمود محمد شاكر حين قال عن أستاذه^(٢):

«وكان الشيخ حسن التقسيم للشعر حين يقرؤه، فيقف حين ينبغي الوقوف،
ويمضي حيث تتصل المعاني، فإذا سمعت الشعر وهو يقرؤه فهمته، على ما فيه
من غريب أو غموض أو تقديم أو تأخير أو اعتراض فكأنه يمثل لك تمثيلاً لا تحتاج
بعده إلى شرح أو توقيف، وكان في صوت الشيخ معنى عجيب من الثقة والافتدار،
وفي نبراته حين ينشد الشعر معنى الفهم للذي يتلوه عليك، فلا تكاد تخطيء
المعاني التي ينطوي عليها، لأنها عندئذٍ ممثلة لك في صوته».

(١) الرسالة، العدد ٤٠، سنة ١٩٣٤.

(٢) الرسالة، العدد ٦٩٦.

فإذا أردت بعد ذلك أن تعرف كَلَفَ طلابه بدرسه، فيإليك ما حَدَّثنا به عنه أستاذنا الكبير: أحمد شفيع السيد في إحدى محاضراته بكلية اللغة العربية، حين جاء ذكر المرصفي، فأفاض في تعداد مواهبه، وكان مما قال - معنيًا لا لفظًا -:

«إن درس الشيخ كان لا ينتهي بالأزهر حتى يتبدىء في منزله، لأن أفواج الطلاب كانوا يتزاحمون على السير معه في الطريق إذا نهض إلى بيته، فإذا أتاه دخل معه نجباء أبنائه، فأخذوا تحيتهم العاجلة، وظلّوا وإياه في سَمَرٍ أدبي مُشَبَّعٍ بالحب والاعتزاز، وكانت الكتب الأدبية تتراءى في حُجرة الشيخ مركومةً متراصّةً عن يمين وشمال، يقرأ فيها الطلاب كما يشاؤون، ويستعيرون ما يريدون في شغفٍ ونَهَمٍ وإقبالٍ ودودٍ».

هذه نصوص مختلفة للأجلاء من تلاميذه المُختارين، وأظنها ترسم صورة واضحة عن منهجه وخلقه، وقد أبدع الدكتور: زكي مبارك إبداعاً موفّقاً، حين لَخَصَ ريادة الأدبية، وقيادته العلمية، في مواقف محدودة، فجاءت كلمته الصائبة في إيجازها الشامل، لسان صدق وميزان تقويم، فهو يقول عن أستاذه في اعتزاز^(١):

«كان الشيخ المرصفي أول رجل تسامى إلى نقد مؤلفات الأكابر من القدماء، وكان أول رجل أقرّ كرسىّ الأدب بالأزهر الشريف، وكان أول رجل جعل للأديب مكانة بين جماعة كبار العلماء، فكان بتلك الصفات أوجد عصره بلا جدال».

وتسامى الأستاذ - رحمه الله - إلى نقد مؤلفات الأكابر من القدماء كان حَدَثًا غريباً في بابهِ، إذ أن زملاءه حينئذ كانوا يتعبّدون بأقوال السلف من أولي العلم، فإذا اضطّر أحدهم إلى مخالفة مؤلف سابق جعل يتلمّس له المعاذير، في وجَلٍ وهيبةٍ، وكأنه يركب مَطيّة ناشِزة، لا تؤمّن مع حياة، فجاء السيد المرصفي ليحاسب المبرّد، وأبا تمام، وأبا علي، وابن عبد ربّه، محاسبةً قويّةً مُفجّمةً، فهو في

(١) الرسالة، العدد ٣٩٨.

شروحه المتتابعة للكامل والحماسة والأمالى والعقد^(١)، كان صلب المراس، قويّ المؤاخذه، شديد العناد، مما دفع بعض المسترّعين من الأساتذة إلى وصف الرجل بالغرور والآداء!!.

وإذا كان أكثر هذه الشروح الرائعة لا يزال مطموراً في دفائنه الخطيّة، فإننا نأمل أن يرى النور إذا فطنت إليه لجنة إحياء التراث القديم، في وزارة الثقافة والإرشاد، وحسبنا اليوم، أن نحكم على صنيعه بالمبرّد في الكامل، فهو الوثيقة الميسّرة للباحثين، وبه يتضح الحكم عن حيدة وإنصاف.

لقد اعترف السيد المرفصي في مقدمة الجزء الأول من شرحه الكبير: «أنه لم يجعل من رغبة الأمل شرحاً تفسيرياً لنصوص الكامل فقط، بل اهتمّ ببيان ما حادّ فيه أبو العباس عن سنن الصواب من خطأ في الرواية، وخطأ في الدراية، إذ كان المبرّد يعتمد كثيراً في لفظه على جودة حفظه، وربما نزع في غير منزع عن القصد سهمه، أو صعد في الأدب مرتقى زلّت به إلى الحضيض قدمه»^(٢).

فهو إذن يجعل من همّه الأصيل بادئ ذي بدء، أن يكشف عن أخطاء المبرّد، معتقداً أن صنيعه هذا أمر محتوم، تُوجبه الدراسة الناقدة والنظرة الفاحصة، ولو كان الشارح قد سجّل على المبرّد سقطاته، وستر محاسنه، لقلنا: إنه متحيّز مُمالي!!، ولكن المرفصي يُنصفه من خصومه تارةً، ويُنصف الحق منه تارةً أخرى، وإذا كان لنا أن نميل عليه في شيء، فإننا نؤاخذه على قسوة العبارة في كثيرٍ من التعليقات، فقد كان من اللائق أن يطرد النقاش في هدوء العالم، وسماحة الحليم!!.

على أن المسألة نفسية قبل كل شيء، فقد يكون المرفصي إذ يكتب بعد التعليقات هادئ الخاطر مستريح البال من بعض هواجسه، فيقابل الخطأ الكبير من

(١) كان المرفصي يسمّيه: «العقد» بضم العين وفتح القاف.

(٢) رغبة الأمل، ج ١، ص ٣٨.

المبرّد بكثيرٍ من التسامح، فلا يزيد عن أن يقول: غلط أبو العباس أو سَهَا أبو العباس، وقد يكون ضائق الصدر لبعض المحرجات من شؤون الحياة، فيضيق صدره لأدنى سهو، ويهاجم الخطأ اليسير مهاجمةً قاسيةً، فإذا نسب المبرّد بيتاً من الشعر لغير قائله، قال المرصفي في غلظة: كذب المبرّد^(١)، وإذا بدّل سهواً كلمة مكان كلمة قال المرصفي في قسوة: هذا خلط وجهالة^(٢)، وإذا رأى الناقد قولاً في اللغة ينفرد به صاحب الكامل ردّه وقال: هذا مما انفرد به!!.

ولست مع المرصفي في ذلك إذ أن مَنْ حَفَظَ حَجّةً على مَنْ لم يحفظ، وقد يكون أبو العباس مطلعاً على ما لم نطلع عليه مما غابت دفائنه، وانقطعت روايته، وأولى بالناقد أن ينظر إليه كراوية صدوق، على أن نقد الناقد في أكثر مناحيه يرجع إلى ذوق شخصي، قبل أن يرجع إلى وضع منهجي.

وقد أدركنا من قراءة الكامل وشرحه سعة علم المبرّد وكثرة محفوظه، كما لمسنا دقة فهم المرصفي، ورقة ذوقه، ومن هنا: اتسع المجال أمام الشارح للردّ والمؤاخذه، فقد جعل يُوازَن بين الروایتين، ويُفاضل بين النصّين، فيهديه ذوقه إلى ما يرفض به رواية صاحبه عن ثقة واطمئنان، فإذا روى المبرّد - مثلاً - قول الشاعر في هجاء الحجاج^(٣):

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر

قال المرصفي: هذا خطأ، والصواب: رواية ياقوت في معجم البلدان، وتعليمه صبية الكوثر، والكوثر قرية بالطائف كان الحجاج معلّم صبيانها، والحقّ مع المرصفي، لأن معلّم القرآن الكريم لا يعلم سورة الكوثر فقط بل يعلم غيرها، فلا وجه لتخصيصها بالذكر دون حادثة معينة يظن أن الشاعر قد اطلع عليها، أما رواية صبية الكوثر: فمتزّهة عن الاعتراض.

(١) رغبة الأمل، ج ٣، ص ١١٦ وغيرها.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٥ وغيرها.

(٣) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٨.

وإذا روى المبرّد - ثانياً - قول القائل^(١):

فيا بعل سلمى كم وكم بأذاتها عدمتك من بعل تطيل أذاتي
بنفسي حبيب حال بابك دونه تقطّع نفسي دونه حسراتي
ووالله لولا أن يساء لرعتها بما ليس بالمأمون من فتكاتي

قال المرصفي مهتدياً بذوقه السليم: الرواية لولا أن تساء لرعته، وهذا حق، لأنه يقصد ترويع الزوج وإفزاعه، ويحرص على سلمى وهذوئها الأمين.

وقد يكون للفظ اللغوي معانٍ مختلفة، فيفهمه المبرّد في سياق خاصّ على غير وجهه، ولكن ذوق المرصفي من ورائه يشير إلى الخطأ في بصيرة نفاذة وفهم عميق، فقد ذكر المبرّد مثلاً قول الشاعر^(٢):

منعمة بيضاء لودب محول على جلدها بضت مدارجه دماً

فجعله شاهداً على أن بضت مأخوذة من بضّ يبضّ بضاضة بالفتح والكسر في المضارع إذا رقّ لونه وصفاً، ورآه المرصفي من بضّ يبضّ بالكسر فقط إذا ترشّح من صخر أو حجر، والمصدر البضّ والبضيض لا البضاضة بمعناها الأول، كما فهم المبرّد. وتلك لعمرى دقة بالغة في الفهم تدعو إلى الاحترام التّزيه ولها نظائر وأشباه^(٣).

أما إنصافه المبرّد وردّه على خصومه، فقد تكرر كثيراً في صفحات الكتاب^(٤)، وهو برهاننا الذي لا يدفع على أن الرجل لا يريد انتقاص صاحبه، ولا يتكلّف الادّعاء مغترّاً بما علم، كما وهم الواهمون، ولكنها جمحات القلم في ظروف خاصّة، تدفع صاحبها إلى بعض الشّطط، ثم يُعاوده الهدوء المتّزن، فيميل

(١) رغبة الأمل، ج ٢، ص ٥١.

(٢) رغبة الأمل، ج ٢، ص ٤٢.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٨٧ وغيرها.

(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٨، وص ٢١٧.

إلى النصفة والاعتدال، ولو كان المرصفي يرى المبرّد غير ثقة فيما يقول، ما عكف على شرح الكامل وتدريسه، فقطع زهرة شبابه في تفهّم أسرارهِ، واكتناه مراميه، وجاء شرحه الفخّم في أجزاءه الثمانية دليلاً ملموساً، على أن المبرّد قد عاد إلى الحياة مرةً أخرى بالأزهر، واستبدل القاهرة بحاضرة العباسيين.

وقد عاش الرجل العظيم مُقدّراً مهيباً بين تلاميذه ورؤسائه مرموق المكانة في محيطه وأمته، فكان في شبابه موضع احترام الأستاذ الإمام وتقديره، ثم اختير في كهولته عضواً بارزاً في جماعة كبار العلماء ليحفظ بها للأدب مكانته، ولم يفارق الحياة سنة ١٩٣١ حتى رأى بعينه أبناءه في حلقات الدرس، يقودون زمام الرأي في مضمار الصحافة والتأليف، ويتسّمون زعامة الفكر في أقطار العروبة، فقرّ عيناً بما غرس، وأدرك أن دوحته الوارفة قد آتت من كل زوج بهيج.

محمد الخضري المؤرخ، البحاثة، الأديب

- ١ -

قال الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه: «رجال عرفتهم» ص ١٧٩ :

«من بعد جمال الدين، ومحمد عبده، أصبح من همّ كل ناشئ أن يصبح أستاذاً إماماً، أو نمطاً آخر من جمال الدين، ومن هنا: نشأت مدرسة رشيد رضا، ومصطفى المراغي، وطنطاوي جوهري، وعبد الحميد الزهراوي، ومحمد الخضري، ومحمد المهدي، والنجار».

وكلام العقاد مع ما يتضمن من التهكم المستتر، يعبر عن واقع صريح، فإن أثر جمال الدين ومحمد عبده قد انتقل إلى كل دارس يهتم بالثقافة الإسلامية من بني الإسلام، وفي هؤلاء الدارسين من مثّل دوراً كبيراً كان مما يسرّ هذين المصلحين الكبيرين أن يمثل، بل إن جهود هؤلاء التلاميذ كانت باعثاً قوياً على ذبوع آراء الإمامين الخطيرين! ولو قدر لهما أن يفقدا هذه النخبة المختارة من هؤلاء الحواريين الأعلام، لذهبت تعاليمهما الخالدة أدراج الريح، وذلك شيء معروف في تاريخ العلم، ولعلّ من شواهد أن أكثر أئمة المذاهب الفقهية، قد تركوا من التلاميذ أضعاف ما تركوا من المصنّفات، وبتلاميذهم المختارين أصبح لكل إمام منهم مذهب معتمد الأصول، ممتدّ الفروع والأحكام.

وقد صاحب الأستاذ: محمد الخضري شيخه الأستاذ الإمام: محمد عبده مصاحبة علمية مُثمرة، فقرأ كثيراً من الكتب بإشارته، وألّف بعض البحوث بتوجيهه، وحَدَا حذوه في الأخذ من العلوم النافعة باللباب المتخير، وقد عبّر فقيده البيان الإسلامي الأستاذ: مصطفى صادق الرافعي عن ذلك أصدق تعبير، حين قال بالجزء الثالث من وحي القلم ص ٤٠١ ص ٧:

«إن الذي يريد أن يقول قولاً صحيحاً في هذا الفقيه العالم المؤرخ الأديب، يجب أن يرجع بتيّاره إلى منبعه، ليعرف مبلغ انبعاثه وقوة جريته ومدّ عبابه، فما كان الخضري شيئاً قبل أن يتعلّق بمدار ذلك النجم الإنساني العظيم، الذي أهدته السماء إلى الأرض، وسَمَى في أسمائها: «محمد عبده».

لقد أخرجته دار العلوم كما أخرجت الكثيرين، ولكن دار علومه الكبرى كانت أخلاق الأستاذ الإمام وشمائله وآراءه وبلاغته وهمة نفسه، إلّا أنه لا بدّ من رجل واحد يكون هو الواحد الذي يبدأ منه العدد في كل عصر، وأنت إذا تأملت الخضري فاعلم أنك بإزاء معنى من معاني الشيخ: محمد عبده، على فرق ما بين النفسين، بل أنت من الخضري كأنك ترى الشيخ سارياً في مظهر من مظاهر الزمن».

ولقد كان الأستاذ الإمام في بعض نواحي تجديده داعية إلى تذليل الكتب المعقّدة، وإعادة تدوين العلوم الإسلامية والعربية بلغة العصر، وقد بدأ من ذلك برسالة التوحيد، فجَدّد أعوص مسائل علم الكلام، بأسلوب شفاف مُبين، ينضح بعبير القرآن، فجذب بذلك تلميذه الأستاذ: محمد الخضري إلى تذليل علم الأصول في مذكرات واضحة شارحة، وكتب الأصول كما يعلم جمهرة المثقفين بالعلوم الإسلامية من أعقد الكتب وأعوصها فهماً واستشكالاً، وأشدّها مجاذبة للفكر في تيارات غامضة عسيرة، لأن الأئمة الذين دَوّنوا مسائل هذا الفن، سواء على طريقة المتكلمين من البحث على مذهب علم التوحيد في الاستدلال، من غير التفات إلى موافقة فروع المذهب لها أو مخالفتها إياه، أو على طريقة الحنفية

التي تُراعي تطبيق الفروع المذهبية على قواعد العلم، إذ تدور به دوراً لا يترتب عليه مخالفة حكم فرعي للأحناف!! .

هؤلاء الأئمة الأوائل قد خلف من بعدهم خلف سلكوا في التأليف الأصولي مسلك الاختصار والإيجاز والألغاز، حتى صارت كتاباتهم الأصولية أحاجي تتطلب التفسير، وكأنهم لم يكونوا يكتبون للفهم، بل للتحدي، فاحتاجت كتبهم إلى شروح وحواشٍ وتقارير!، ومصيبة هذه الشروح: أنها كانت تُثير الغبار ولا تُنير الطريق، فهي تستشكل، وتجيب قبل أن توضح وتشرح، ويدور النقاش شجون ملتوية لا يهتدي في ظلامها غير الأقل الأندر من ذوي الجلد البصير! .

وكان من محاسن الصُدف السَّارة لطلاب هذا العلم: أن يقوم الأستاذ الخضري بتدريسه ابتداءً في كلية غوردون بالسودان، ثم في مدرسة القضاء الشرعي نالاً فيخطو الخطوة العلمية في إزاحة الدياجير المتركمة حول هذا العلم، ويجد من الأستاذ الإمام مرشداً وهادياً، وإن الشيخ ليتحدث في مقدمة كتابه: أصول الفقه عما يشير إلى ذلك فيقول ص ١٠ ط ٣: «وفي سنة ١٩٠٥ كُلفتُ أن أُملي دروساً في أصول الفقه على طلبة كلية غوردون، الذين يُربّون ليكونوا قضاة بمحاكم السودان الشرعية، فبذلت الجهد في أن أجعل ما أُمليه عليهم سهل العبارة واضح المعنى، ورأيت أن لا فائدة من إكثار الموضوعات مع استغلاق الألفاظ، فكنت أختار لهم المسائل معتمداً على أصول البزدوي، وشروح ابن الحاجب، وتنقيح الأصول، وشرح الأسنوي للمنهاج.

وصادف بعد ذلك أن زارنا الأستاذ الإمام الشيخ: محمد عبده - عليه رحمة الله -، فأجبت أن أعرض عليه ما كتبه ليكون عندي شيء من الاطمئنان، فعرضته عليه، فقرأ كثيراً منه، وناقش الطلاب في بعض مسائله، وأثنى على ما كتبه خيراً، ولكنه أشار عليّ أن أطلع كتاب الموافقات للشاطبي، وأمزج ما أُملي بشيء منه، ليكون في ذلك لفت نظر لطلاب هذا العلم إلى معرفة أسرار التشريع الإسلامي، فاستحضرت هذا الكتاب، وأخذت أطلعه مرّات، حتى ثبتت في نفسي طريقة

الرجل، وجعلت آخذ منه الفكرة بعد الفكرة، لأضعها بين ما آخذه من كتب الأصول، حتى جاء بحمد الله ما أملتته وفق مرامي، وعلى قدر حاجة الطلاب في تلك البلاد النائية... إلخ».

وكتاب الخضري - فيما بعد -: مشهور متداول، وقد حذا حذوه من كتبوا حديثاً في الأصول من أساتذة كليتي الحقوق والشرعية الإسلامية بمصر، وكان سابقة هادية في هذا الأصل القوي من أصول العلم.

ولعلّ القارئ بعد ما ذكرناه من أثر الأستاذ الإمام في تلميذه الخضري يعجب لشارلز آدمس صاحب كتاب الإسلام والتجديد في مصر: إذ يغفل الشيخ الخضري فلا يعدّه من تلاميذ الإمام، في حين يذكر أناساً لم ينتفعوا بخبره، بل ناوؤوه مناوأة العدو الحاقد، فيعدّهم من مدرسة التجديد، ثم يمرّ كتابه دون نقد لافت!، وهو في حاجة ماسّة إلى التصويب!.

- ٢ -

لقد ولد الأستاذ: محمد الخضري في بيئة دينية صالحة سنة ١٨٧٢، فأبوه: الشيخ عفيفي الباجوري من علماء الأزهر كان خطيباً وإماماً لمسجد قاهري بالحلمية، وكان من أنصار بعض الطرق الصوفية، وله شيخ يسمّى الخضري، فسَمّى ابنه: (محمد الخضري) تيمناً به، وكان يُظنّ أن الخضري لقب عائلته، وليس الأمر كذلك، فنحن نعرف أن الأستاذ عبد الله عفيفي الأديب المصري، صاحب كتاب «المرأة العربية» هو شقيق الشيخ الخضري، ولكنه حمل اسم أبيه دون أخيه وليس معنى ذلك: أن الشيخ دُعِيَ إلى غير والده، ولكنه سُمِّيَ باسم شيخ أبيه، واقتصر في التوقيع على اسمه المركّب، إذ به اشتهر!!.

وقد أشرنا إلى هذه الحقيقة لنذكر البيئة الصوفية التي نشأ في رحابها الشيخ، فهي بيئة تقوى وعبادة، وطبيعي أن يشبّ وليدها متجهاً إلى حفظ القرآن في الأزهر الشريف، ثم التحق بدار العلوم سنة ١٨٩١، وتخرّج منها سنة ١٨٩٥ وعُيِّن مُدَرِّساً للعربية بمدارس المنصورة وشبين الكوم والناصرية، ثم اختير قاضياً بالسودان سنة

١٩٠٢، فأستاذًا بكلية غوردون سنة ١٩٠٤، فأستاذًا بمدرسة القضاء الشرعي بمصر سنة ١٩٠٧ وظلّ بها إلى سنة ١٩٢٠، مع اشتراكه في تدريس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية، حتى انتقل إلى التفتيش بوزارة المعارف، وما زال مفتشاً إلى أن لقيَ ربّه سنة ١٩٢٧، عن خمسة وخمسين عاماً، كما يُنبىء بذلك ملفّ خدمته، ولكن صورته الشمسية ذات اللّحية الكثيرة البياض تُعطي أكثر من هذه السنّ، فربما تأخر تدوين ميلاده بضعة أعوام، كما كان ذلك ذائعاً في أواخر القرن الماضي، إذ أن الحرص على تدوين كل مولود لم يأخذ طابعه الجدّي إلّا بعد مفتتح القرن العشرين!.

وقد يكون تعجيل الشيب وتكاثر الغضون من آثار الجهد العلمي لكاتب متوّب لم يُرخ نفسه يوماً واحداً من القراءة والتأليف وقديماً قيل:

وما شاب رأسي سنين تسابعت عليّ ولكن شيبني الوقائع

كان أول كتاب ألفه الأستاذ الخضري هو: «نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين»، وعنوانه مسجوع كما يرى القارىء إذ يمثّل تفكير مُدرّس مبتدئ تخرّج حديثاً من دار العلوم، ثم عُيّن بالمدرسة الصناعية بالمنصورة، فلم يتفوق في مدرسته، بل اتصل بالجمهور الثقافي في المدينة، وحاضر وناظر، ودارت له شهرة بين المثقفين، جعلت قاضي المحكمة الأهلية يقترح عليه: أن يؤلّف في سيرة الرسول كتاباً يقرّبها من الناشئة وذوي التعليم المدني، ممّن لا يصبرون على قراءة صُحف القدامى من المؤرّخين!.

ويخيّل إليّ أن فكرة تذليل الكتب القديمة بمحاولة تأليف عصري يقدّم خلاصتها السهلة، قد نجمت لدى الشيخ منذ عزم على تأليف نور اليقين، فأكبّ على وضع ملخّص سهل لسيرة الرسول، ولم يكن من همّه أن يناقش الحوادث، ويعلّل النتائج، ويصحّح المرويات، بل إن شعور المؤمن بضرورة تقريب حياة الرسول كما روتها كتب الثقات قد صرفه عمّا سوى السرد المتتابع في سهولة وإيمان.

وقد أخذ بروايات الكتب القديمة كما جاءت، وأفاض فيما نسب إلى الرسول من معجزات دون أن يحاول دعمها بحجج العلم والمنطق، وكأنه يرى: أن المعجزة في معناها الأول عمل خارق يعجز العقل أن يقف على سره، فمحاولة تعليله بتفسير منطقي مما يخرج به عن معنى المعجزة الخارقة إلى حدث معقول تلتبس له المبررات، وقد رزق كتاب: «نور اليقين» حظوة بالغة، حيث تعددت طبعاته في حياة صاحبه، وبعد وفاته إلى الآن، حتى قاربت العشرين ونحن نحمد له أن نأى عن مبالغات سابقه، ممن يسجلون كل غريبة، كما تخفف من حذقة بعض المحللين، ممن يهتمهم أن يبرزوا شخصياتهم بالتعليل المتمحل، والتفسير المغتصب، وكأنهم لا يعنون بتوضيح الحقائق قدر ما يعنون بإظهار براعاتهم الكتابية، !!.

ثم أعقب الخضري كتاب: نور اليقين بمؤلف عن الخلفاء الراشدين دعاه: «إتمام الوفاء في تاريخ الخلفاء»، سلك فيه مسلكه السلفي من عرض المرويات الماثورة!، دون أن يتخَرَّص في نقد لبعض الحوادث والأشخاص، بل أثر ألا يحكم بشيء في نحو الخلاف بين معاوية والإمام عليّ - كرم الله وجهه -، وهو مسلك نعرفه لدى المحافظين ممن يعزّ عليهم أن تكون سير صحابة رسول الله موضع النقد والتجريح!، ولكنه مع ذلك شيء وكتابة التاريخ شيء آخر وقد تخلى الأستاذ عن خطته المُسالمة نوعاً ما فيما كتبه بعد ذلك من صحائف التاريخ.

لقد كان «نور اليقين» و«إتمام الوفاء» فجرًا صادقاً لبحوث تاريخية هامة، اضطلع بها الأستاذ عن جدارة واستحقاق إذ أسند إليه منصب أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية فعكف على تمحيص الكتب القديمة عكوف المخلص الدؤوب وكانت مهمته من المشقة والعُسْر بحيث تتطلب الجَلْد المستميت والسَّعي الحثيث، إذ أن آثار القدامى من أمثال الطبري وابن الأثير وأصراهما من رجال التاريخ، قد كتبت أحداثها وفق السنوات لا الوقائع والأشخاص.

فأنت مُطالب بقراءة مؤلف كامل لتتبع حادثة، أو تتعقب سيرة، كما كانت طريقة الحشد والجمع ورواية الصحيح والخطأ، مما يُثقل كاهل الباحث لأن أمثال

الطبري كانوا يسجلون كل ما يقعون عليه، وفيه ما تظهر لديهم دلائل تكذيبه، إذ همهم الأوفى: يتجه إلى الرصد لا التحقيق، فمهمة المؤرخ كما فهمها أكثر هؤلاء، هي الإحاطة بكل ما قيل، كما يحرص وكيل النائب العام أن يدون جميع ما يسمع من الشهود صواباً أو خطأً في محضر التحقيق، ثم يأتي بعد ذلك دور الترجيح والتخطة، إذا قدمت للقارئ جميع الوثائق والأسانيد!

هكذا فهم مؤرخو العرب الأول كتابة التاريخ، فحشدوا من المرويات الصادقة والزائفة ما تتطلب من المؤرخ المعاصر يقظة البصيرة، وسلامة الإدراك، ودقة التخيل الصائب للوقائع، كما يعقل أن تكون!، وقد أدرك الأستاذ: الخضري دقة مهمته، فتحدث في مقدمة الجزء الأول من تاريخ المحاضرات الإسلامية عن واجب المؤرخ حيث قال:

«وكثير ممن اشتغلوا بالتاريخ كانت عواطفهم تتحكم في حوادثه تحكماً تضع به الفائدة من دراسة التاريخ، فإن عاطفة الحب تجعل كل ما ليس بحسن حسناً، وتجتهد في تأويل الحوادث بوجه ليس فيه غضاظة، حتى ما أدى منها إلى سقوط فاعله وخيبته، وعاطفة الكراهة تدعو إلى ضد ذلك، فتجعل الحسن قبيحاً، وتستبطن من الخير شراً، ولم يخلص من هذا الشر العظيم الذي يطمس معالم التاريخ، ويضيع الفائدة من تجارب الأمم إلا نفر قليل جداً...»

فلا بد أن نجعل أمام أعيننا أننا ندرس تاريخ أمم، إن كانت أخطأت في بعض تصرفاتها فليس علينا من تبعه ذلك الخطأ شيء، وليس لنا إلا أن نعرفه ونستفيد منه، وإن كانت أصابت المحجة فإن ذلك لا ينفعنا إذا لم يكن لنا مثل أعمالهم، لذلك: يحتاج دارس التاريخ إلى سعة صدر تحتمل كل ما يرد على تاريخ قومه من نقد، حتى لا تبقى حقائق الأشياء محجوبة بسحب عاطفتي الحب والبغض.

وبهذه من هذا القول سار المؤلف في حديثه الجيد عن عصر النبوة وعهد الخلافة الراشدة، وزمان الدولة الأموية ووقائع الدولة العباسية!، ولا بد لمن

يتحدّث عن هذا المدى الحافل من الزمان والوقائع والشخصيات أن يلمّ بما تختلف حوله الآراء، وتتضارب النظرات، فقد كان للرجل من الأحكام الصائبة ما ضمن لآثاره الذّيوغ والسّيرة، بحيث أصبحت مصدراً هاماً من مصادر التاريخ الإسلامي، وقد كثرت بعدها مؤلّفات الأساتذة الجامعيين في كليات الشرق العربي، دون أن تُراجحها على التقدّم والصدارة، بل إن أكثر من خاضوا مخاض الأستاذ الخضري يحرصون في معظم صحائفهم على الائتناس برأي الشيخ الكبير.

ولكن الناقد البصير يجد روح الشيخ المُسالمة تستجيز من الحوادث أحياناً ما يقع لديه الخلاف الشديد، ومن أمثلة ذلك: حديثه عن اختيار يزيد للخلافة وتصويبه، وقسوته على أهل المدينة يوم الحرّة وقوله: إن ثورة الحسين - عليه السلام -، لم تكن ذات أسباب حقيقية لمصلحة الأمة، وتهوينه مصرع أبي مسلم الخراساني، وموافقته قول من حكى عن الرشيد المُتَرَف: أنه كان يصلّي في اليوم الواحد مائة ركعة، وعدم نفاذه إلى حقيقة مأساة الأفشين!.

ولعلّ لنشأة الخضري الدينية أثراً كبيراً في تسامحه لدى بعض الأحكام، ومحاولة تجنّبه كثيراً من المسائل الشائكة، حول رجال الصّدر الأوّل من البعثة المحمدية بالذات، على نحو لا نعرفه الآن، بعد أن أخذ البحث التاريخي عدّته من الاستيعاب والتدقيق والجرأة والتفنيدي، ويخيّل إليّ: أن طبيعة الزمن الذي أملى فيه الشيخ محاضراته كانت تلزم المؤرّخ بشغف مُفْرِط بمواقف السّالفين من رجال العرب والإسلام إذ أن معاول الناقدين من باحثي الغرب قد أحدثت اتجاهاً عكسياً لدى أمثال الشيخ: الخضري، فتجنّبوا إثارة الغبار حول بعض الأحداث!.

ولم يكن الأستاذ فذاً في ذلك، بل كان زميله المؤرّخ الأستاذ: رفيق العظم ممّن يصدرون عن هذا الاتجاه في مؤلّفه: أشهر مشاهير رجال الإسلام، وقد قال في مقدمته ما نصّه ص ٧: «وإني وإن كنت عزمت على اجتناب الخوض في الفتن التي ثار ثائرها بين المسلمين في عهد الخلفاء: عليّ، وعثمان، ومعاوية - رضي الله تعالى عنهم أجمعين - ولم أرُ بُدّاً من إيراد ذكرهم مع الخليفتين السابقين: أبي

بكر، وعمر - رضي الله تعالى عنهما -، لأنهم جميعاً من دعائم الإسلام التي قامت عليها صُروحُه، وأعضاء الدين الذين بَانَ بهم صريحه، فقد اكتفيت من سيرة هؤلاء الثلاثة بما لا يعلق بذكره من هذه الفتن أثر في النفس، إلّا ما كان فيه حجة بالغة يجري بها القلم، أو حكمة زاجرة يحتاج إليها العاقل، ويتعظ بها الجاهل، لهذا لا يؤخذ عليّ ما يرى من الاختصار في تراجمهم، والاختصار على ذكر بعض سيرتهم».

وهذا حديث مَنْ يريد أن يكون كتابه مجال عبرة واقتداء ومُفاخرة بالسلف بعضاً للهِمَم وإيقاداً للعزَمات.

- ٣ -

ونحن لو تجاوزنا عصر الصحابة ومشیخة التابعين نجد للأستاذ شخصيته القوية فيما تحدّث به عن عصر الفتوح الإسلامية، أيام الدولة المروانية، كما نلمس استشفافه البصير إذ يتصدّى لتعليل الهزات الثورية، وما أعقبتها من سقوط دولة بني أمية، مُفصّلاً بواعث هذا الانهيار تفصيلاً كاشفاً، هذا إلى حديثه المُلمّ بالخراج، والقضاء، والجيش، والإدارة، مما يعتبر بالنسبة للشيخ الخضري مجال سبقي وتجديد، إذ أنه كان كثيراً ما يتكئ على نفسه، دون استشارة شاملة لمراجع الاستشراق، ولا كذلك زميله المؤرّخ المعاصر الأستاذ: جرجي زيدان، حيث أشبع الحديث عن مظاهر الحضارة الإسلامية في كتابه عن التمدّن الإسلامي إشباعاً يجد روافده الكثيرة من فصول ذوي الاستشراق!، ولكل وجهة هو موليها.

وأذكر بهذه المناسبة: أنني في سنة ١٩٤٩ كتبت فصلاً تاريخياً عن الأستاذ: جرجي زيدان بمجلة الثقافة المصرية، وقد اقتضت الضرورة أن أرجع ببعض الموازنة المنهجية بين زيدان والخضري، فتحدّثت عن الرجلين في سطور ظننتها صائبة حاسمة، وكان من المصادفات السارة: أن يقرأ مقالي المؤرّخ الكبير الأستاذ: عبد المجيد العبادي - رحمه الله - فتفضّل بتشجيعي ببعض الثناء المُعين، ثم قال لي ما معناه: إنه لا مجال للموازنة إطلاقاً بين الخضري وزيدان، لأن

الشيخ الكبير كان يكتب متأثراً بمصادره العربية التي لا يرى غيرها تؤدي مؤداها في الصدق والإخلاص، وهو فوق ذلك: يكتب محاضراته التاريخية مقيداً بمنهج دراسي معلوم، فرضته الجامعة المصرية فرضاً على التلاميذ، ولم تترك له أن يفيض فيما تعذر عليه استيفاءه من بحوث، فجاءت محاضراته التاريخية محصورة في نطاق لا تتعداه، أما الأستاذ زيدان: فكتب كما أراد!

وتلك حقيقة هامة لم تفتني الإشارة إليها في مقالي عن زيدان، ولكن تأكيداً وتبسيطاً من أستاذ كبير كالمرحوم: العبادي، قد ضاعف أهميتها لديّ!، فإذا تركنا المحاضرات الأموية إلى المحاضرات العباسية فإننا نجد من السعة والعمق والنفاذ شيئاً كثيراً، إذ لا مرأى في أن كل مؤلف ينتفع بتجاربه الشخصية.

وقد كان تاريخ الخصري للأمويين تمريناً دقيقاً للبحث التاريخي الكاشف، فجاءت محاضراته العباسية أصلب عوداً على النقد، وأكثر إشعاعاً على الحقائق والعصر العباسي بزمه الطويل مجال للكلام المتشعب عن دول وممالك كثيرة، قد أنبتت عن الدولة، وأسست حضارات مستقلة أو تابعة تبعاً اسماً مظهرياً، ولكن الشيخ قد اكتفى من ذلك بما يتحتم الإلمام به على كل متطلع إلى معرفة هذا العهد.

ولا أدري كيف استطاع الشيخ أن يقدم خلاصات موجزة دقيقة لحركات العلويين، والقرامطة، والروم، والبويهيين، والصلبيين، والسلجوقيين، والتتار، والمغول! وكل حركة واحدة من هذه العواصف تتطلب كتاباً ذا أجزاء!

وإذا كانت طبعات المحاضرات قد تعددت على ممر السنين، فإن ذلك يدل على أن القارئ العربي كان في حاجة ماسة إلى كتاب تاريخي، يقدم الخلاصة الوافية لعصور العهود الماضية، فحين قام الشيخ بذلك أشبع جوعاً ونقع غلة!

وقد ظهرت كتب منافسة لمحاضرات الخصري، وقد تمتاز عنها بتعدد الزوايا المختلفة للبحوث، ولكنها لم تستطع مُزاحمتها مُزاحمة جدية، وأشير إلى مثال لهذه الكتب: فيما كتبه الدكتور: فيليب حتى بمؤلفه: (موجز تاريخ العرب) إذ قام

بنصيبٍ جادٍ مُخلصٍ في تصوير التاريخ العربي، وقد تُرجمَ أكثر من مرة في مصر ولبنان، ولكنه مع ذلك يؤكد ضرورة الرجوع إلى المحاضرات دون أن يضائل من بريقها.

وقد كان الشيخ الخضري دقيقاً في مسلكه حين قصر الحديث على الناحية السياسية، وأعلن في مقدمة المحاضرات العباسية قوله: «وقد تركت تاريخها العلمي لما رأيت من جعل ذلك في محاضرات خاصة، تنظم تاريخ الإسلام العلمي لارتباط بعضه ببعض، ولعدم اتباع الحركة العلمية لقوة بني العباس السياسية، فقد كانت الدولة العباسية في عهد آل سلجوق في حال ضعف سياسي شديد، لأن الخلفاء لم يكن لهم إذ ذاك إلا الاسم، ومع ذلك: فقد كانت الحركة العلمية قوية، وإني أعدُّ قُرَاءَ كتابي هذا بمجموعة محاضرات الحركة العلمية في البلاد الإسلامية، وأرجو من الله التوفيق اهـ».

أجل: كان الشيخ دقيقاً في فصل الناحية السياسية عن الناحية العلمية، لأن محاولة الحديث عنهما في كتاب واحد مما يتحيّف القول في أكثر جوانبه، وأذكر: أن الدكتور: حسن إبراهيم حسن في كتابه: تاريخ الإسلام السياسي، قد خالف نهج الخضري، فجعل كتابه شبه موسوعة للحديث عن السياسة والعلم والتاريخ والاجتماع، ولكنه لم يفلح في إعطاء قارئه شيئاً ذا بال عن الأدب والعلم والثقافة، وكلّ ما ذكره في ذلك مقررات مدرسية لا يريدّها المتخصّص، إذ يعرف أكثر منها، ولا يحتاج إليها غير المتخصّص لأنها موجودة في كتبه الدراسية، وبذلك: تضخمت أجزاء الكتاب تضخماً لم يكن القارئ في حاجة إليه، هذا إلى أن تخصّص الدكتور: حسن إبراهيم حسن تاريخي، فإذا ألمّ بالدراسات العلمية للجوانب الأدبية والعقلية فقد سار في غير ميدانه!، وهل كان يتصوّر من الباحث العربي أن يجعل كتابه مرجعاً للبحثري، وابن الرومي، وأضرابهما، حتى يتحدّث عن كل شيء دون تحديد؟!.

وإذا كان الأستاذ الخضري قد عاجلته المنيّة دون أن يؤلّف كتابه عن الحياة العلمية، فإن تلميذه الكبير الأستاذ: أحمد أمين قد سدّ مسدّه في كتبه القيّمة، عن

فجر الإسلام وضحاها، وظهره، ولئن كان منهج صاحب فجر الإسلام أوفى وأدق، فذلك ما يحتمه تطوّر البحث بمرور الزمن، حيث نضجت لدى المؤلفين من العرب طريقة التحليل والاستقراء!! وما زالت كتب الأستاذ: أحمد أمين حجة أولى لدى المنصفين!! وقد جرى الكثيرون في أثرها فلم يلحقوا لها بغبار، والرجل بعد ثمرة طيبة من ثمار الشيخ الخضري، إذ كان تلميذه بمدرسة القضاء!!.

ولن يفوتنا في هذا المجال الحديث عن تاريخ التشريع الإسلامي للشيخ، فقد كان تجربة رائدة أقدم عليها الأستاذ دون سابقة في هذا المضمار، إذ أن ما تركه السابقون في ذلك لا يخرج عن تراجم تاريخية، تزدحم بها كتب الطبقات، فهناك تراجم الشافعية، وتراجم الحنفية، وتراجم المالكية، والحنابلة وغيرهم تحشد حشداً دون ترتيب، وتهتم في أكثرها بظواهر الحياة دون لبابها!!.

أما تاريخ التشريع في كتاب متسلسل يوضح أدواره ويرسم تياراته، فذلك ما فتح الله به على الأستاذ دون سابقة، وقد رتب حديثه وفق العصور التاريخية، فتحدث عن التشريع في عصر النبوة، ثم في عصر الصحابة، ثم في العصور المتتالية حتى مطلع القرن العشرين!!.

وقد قال الشيخ عن منهجه ما نصّه: «يتردّد الكاتب لتاريخ الفقه والفقهاء بين أن يجعله مبنياً على العصور المتميزة، وأن يبنيه على أشخاص المجتهدين تبعاً لاختلاف طوابعهم النفسية، ولكن نظرة واحدة جعلتنا نرجح الوجه الأول، وهو بناء ذلك التاريخ على العصور المتميزة، لأنها أقوى وأعم أثراً، وأما نفسيات الفقهاء، فسيُتضح أنها لم تكن على اختلاف حقيقي، ولا سيما من كانوا منهم في عصر واحد».

ونظام التاريخ العلمي أو الأدبي وفق العصور السياسية كان موضع المناقشة لدى كثير من الناقدين، لأن التطوّر الأدبي أو الثقافي لا يسير مُحاذياً للعصر العباسي، حتى يحدّد به، وقد وُجّهت إلى كتب تاريخ الأدب في ذلك ملاحظات

هامة!، أما كتاب تاريخ التشريع للخضري: فقد تعرّض لمثل هذه الملاحظات حيث قال عنه الأستاذ: أمين الخولي في كتابه عن مالك جـ ٣ ص ٥٩٥: «وهكذا: سلك تاريخ التشريع الإسلامي في أدوار ستّة، كانت أول ما صدر به المكتوب في تاريخ التشريع بمدرسة القضاء، ودارت الأقسام على ظهور الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين، وانتهاء زمن الأموية وهلمّ جرّاً، وكان سقوط بغداد حدّاً فاصلاً في حياة الفقه، كما هو في حياة الأدب، كما كان بعد سقوط بغداد إلى الآن دوراً واحداً، مثال ما هو في الأدب دون نظرٍ ما إلى الاختلاف في الأقاليم المختلفة، وقيام دول مسلمة فتية في أرجاء المشرق والمغرب، كالبيدية، والغزنوية، وغيرها، ولا يضيرها ضعف السياسة ولا يقف نشاطها بجمود بغداد أو اجتياحها، بل حاكى أصحاب الفقه وتاريخه أصحاب الأدب وتاريخه مُحاكاة تكاد تكون تامة منذ العهد الأول في درس تاريخ التشريع إلى اليوم».

وقد أفاض الأستاذ: أمين في مثل ذلك، وكأنه يقرّر أمراً يجهله الأستاذ الخضري، والحقيقة: أن الشيخ - رحمه الله - كان يدرك اختلاف الفقه باختلاف البيئة والإقليم، وقد اتضح ذلك في فصول كتابه عندما تحدّث عمّا بين مكة والمدينة، وبين العراق ومصر، من فروق فقهية هامة، كما بدأ من حديثه في مقدمة كتابه التي نقلنا بعض سطورها فيما سبق، أنه فكّر في طريقة التأليف أتبنى على العصور أم الأشخاص؟ هذا التفكير وحده يفيد أن اعتراضات الأستاذ: أمين الخولي كانت قائمة في ذهنه كشيء واضح معروف، ولكنه سلك طريقة العصور لشيء واحد، هي: أنها - رغم ما يتوجّه إليها من اعتراضات البيئة والعقلية والإقليم - أقرب الطرق إلى صواب التاريخ!! وبخاصّة في كتاب موجز يتقدّم به المؤلف إلى طلاب مدرسة القضاء!!، وقد ترجم الأستاذ الخولي لحقبة من عصور الفقه الإسلامي حين تحدّث عن مالك في ثلاثة أجزاء!! فهل يظن أن انتحاء منحى الشخصيات في تاريخ الفقه لا يخلو من اعتراض؟!.

إن كتابه على سعة لم يتقدّم كل شيء عن عصر مالك وحده، فليبحث لنا الأستاذ عن طريقة عملية لتاريخ التشريع، ثم يقوم بتنفيذها ليقدم الدليل الملموس

على نشوز كتابة التاريخ الفقهي وفق العصور نشوزاً يفوق نشوز غيره، أما النقد والاقتراح وحدهما فلا يزالان بقصورهما الحقيقي يثبتان: أن طريقة العصور السياسية أقل خطأ من غيرها! وأن الطريقة المرموقة لم توجد بعد، وبكفي أن ينجح الأستاذ الخضري في تقريب كثير من حقائق التاريخ التشريعي في كتابه الرائد على نحو لم يتح من بعد لطريقة مخالفيه!، وأين ما كتبه؟.

وأرجح أن قوة الأستاذ الخضري في فهم روح التشريع الإسلامي لم تنفعه في دروسه الأصولية، وفي تحليله التاريخي لأدوار الفقه فحسب، بل نفعته نفعاً جزيلاً في كتابة التاريخ الإسلامي، حتى صرت أرى أن من تمام الكتابة لمؤرخ الإسلام أن يكون متمكناً من روح التشريع، وقد ظهر ذلك بجلاء في كثير من صفحات المحاضرات التاريخية، إذ تحدّث الشيخ بإتقان عن التشريع المكي والتشريع المدني، والإسراء والمعراج، وعن مشروعية القتال في الإسلام، وعن النظم الاجتماعية والدينية كما سنّها القرآن، ثم عن المعاملات والحدود والأسرة والخلافة والبيعة ونظام الحكم... كل ذلك بالجزء الأول، وهي أمور هامة لا بد أن تكون مهضومة للمؤرخ الإسلامي الذي يتصدّر لكتابة التاريخ عن خبرة واستعداد.

وكذلك حديث الخلافة والقضاء والخراج والصدقات والعُشور والانتخاب وولاية العهد والبيعة بالجزء الثاني. ثم ما ينحو هذا النحو في تاريخ بني العباس مما يرجع فيه المؤلف إلى أقيسة شرعية وأصول فقهية، قد ألم بها عن دراسة شاملة مستوفاة، بل إن روح الشريعة غلبت عليه حين نقل في المحاضرات العباسية رسالة أبي يوسف في الخراج جميعها، واحتلت أكثر من عشرين صحيفة، ولعل مكانها الحقيقي في هذا الكتاب من مؤلفات الأستاذ إذ أن مؤرخ الخراج العباسي لا يبحث عن الأحكام الدينية قدر بحثه عما كان من التطبيق والإلزام، ولكنها روح الفقيه تمتزج بروح المؤرخ امتزاجاً دعاً إلى مبالغة يسيرة في هذا المجال...

أقول: إن الأستاذ الخضري قد أثبت عملياً فشل الذين يدرسون تاريخ الإسلام دون إلمام بأصول الشريعة، وليسوا جميعاً من ذوي الاستشراف

الاستعماري، بل إن فيهم مسلمين فهموا التاريخ الإسلامي على أنه حروب وأحداث، وسقوط وارتفاع بحيث يصعب عليك أن تلمس لدى كثيرٍ منهم وعياً بصيراً بالإسلام.

ولعلَّ أحدهم حين يترجم الآية القرآنية من مصادرها الأجنبية يُكابِد رَهَقاً في الرجوع إلى النص القرآني من كتاب الله! . وقد رأينا من هؤلاء مَنْ نَسأل الله لهم التوفيق في مهمتهم الشاقة، وقد أصبحوا أساتذة التاريخ في أرقى الكليات! .

على أن روح الفقيه الأصولي لم تترك الشيخ في بحوثه الأدبية، ومقالاته الصحفية، فأنت إذا قرأت شيئاً من ذلك للشيخ في أمّهات الصحف والمجلات، وجدت عقل العالم يملك زمام الأديب، فأنت منه أمام كاتب عالم، مهما جرى الحديث عن الأدب والاجتماع!، وقد كان الرجل معترساً بموهبة الإقناع البياني لديه، فحاضرَ وناظرَ وملاً الصحف كتاباً وبحثاً، بحيث لم تكن تدور مشكلة دينية، أو أدبية أو اجتماعية، إلّا كان في طليعة المتحدثين في المحافل والكاتبين في الجرائد، فاشترأت إليه الأعناق في ترحيب وإكبار.

وأذكر: أنه كان صاحب المقال الفَصْل في مسألة التعريب في اللغة، أو الوقوف لدى الكلمات المتوارثة، حين ثارت عجاجتها في الصحف سنة ١٩١٠، فاحتدم النقاش بينه وبين زميله الأستاذ: أحمد السكندري، ونشرت مجلة المنار آنذاك كلام المُتناظرين، وقد مال الجمهور إلى الأخذ بضرورة التعريب دون الوقوف عند المتوارث، وفق ما اتجه إليه الشيخ الخضري في مبحثه!!، وعندما صدر كتاب الشعر الجاهلي: كان الخضري أسبق ناقدٍ، وقد دَعَا إلى محاضرة عامة بالجامعة المصرية، حيث أُلقيت فصول الكتاب على الطلاب ولكن القائمين على الجامعة قد هالهم أن تندحر بحوث الأساتذة بصولات أناس تُعَدُّهم غرباء عن حرمها الأمين، فمنعوا المُحاضر عن الإلقاء، واضطر الشيخ أن يُصدِر نقده في مؤلَّف لطيف خاص!! .

وقد حكى الأستاذ الرافعي في مقاله عن الشيخ بالجزء الثالث من وحي القلم ص ٤٠٣ : أن للخضري كتاباً في جزئين كبيرين عن الأدب المصري ، لم يُقدّر له أن يرى الضياء!! ولو بُدِلَت الهِمَمُ المخلصة في البحث عن أصوله لاستفاد الناس بخيره الجزيل، ولكن المخطوطات المُعاصرة تلحق بأخواتها العتيقة دون اهتمام!، وإلا فأين شرح السيد المرصفي لكتاب العقد الفريد وقد فعل به ما فعل بالكامل، فجاء خزانة أدب ولغة وعلم؟! وأين تاريخ الشيخ السكندري للأدب العربي؟ وقد تركه مخطوطاً في ألفين من الصفحات!، أين ذلك كله لأساتذتنا المُعاصرين، وتلاميذهم الآن ملء الأبصار والأسماع!؟.

هذا ولا بدّ أن نلّم بصنيع الشيخ الهائل بكتاب الأغاني فقد رأى أن يقوم على تهذيبه وتوضيحه، فقصي خمسة عشر عاماً في إخراج المَهْدَبِ بريئاً من مآخذ أصله، إذ إن مؤلفه لم يرتّب شعراءه ومُغَنّيه، بل كتبه كما اتفق، كما بَنَرَ كثيراً من القصائد الرائعة فلم تُستكْمَل، ثم ترك الضبط والتفسير، فمُنِيَ الكتاب بتحريف كثير، وزاد، فترخّص في ذكّر ألوان من المجون لا تُربّي خلقاً أو تُحيي عاطفة، فبادر الشيخ إلى تلافي ذلك كله، وتقدّم بأجزاء المَهْدَبِ وقد بلغت تسعة كاملة إلى القراء، تشهد بما عانى من بحث، وتكبّد من مشاق.

ولكن الدكتور: طه حسين قد انتقد تهذيب الأغاني بجريدة السياسة، ورآه تشويهاً لصنيع مؤلّف قديم، وقد كان على الشيخ - في رأي طه - أن يترك أبا الفرج وما صنع، ثم يؤلّف كتاباً أدبياً يحمل اسمه وينجو من سَقَطات صاحبه، وأفاض الدكتور في نحو ذلك بما يجده القارئ في الجزء الثالث من حديث الأربعاء من ص ٦٨ إلى ٧٣، وقد ردّ عليه الأستاذ ردّاً حاسماً نُشِرَ بحديث الأربعاء أيضاً ص ٧٦ وفيه يقول مخاطباً الدكتور:

«أَلِفْتُ الأدبَ العربي مبدّد الشمْلَ فرتّبته، ووضعتُ كل درّة بجانب أختها، وكلّ إلفٍ بجانب أليفه، فإذا أراد القارئ أن يقرأ ما تقرّ به نفسه من شعرٍ عصر، أو شعرٍ قبيلة بعينها كان ذلك ميسوراً، وهذه ضالّة تشدها أنت بما تُتّحف الجمهور به

في صحيفتك الأدبية، وجدتُ تحريفاً كثيراً يُضِلُّ الشَّادي ويُتعب العالم، وقد أحسستُ أنتَ بآثره، فبدلت من الجهد ما الله به عليم في إصلاح ذلك الفساد.

وجدتُ نقصاً في فاخر الشعر وجيِّده، كما يصفه أبو الفرج فأنتمت ذلك النقص لما توقَّعت من جدوى ذلك على طلاب الآداب.

وجدتُ نقصاً في ضبط الغريب وتفسيره، فاحتملت عبء ذلك كله، وأزلتُ عناءً كان يشعر به أمثالي من قُرَّاء الأغاني وقد تلقَّيتُ كتباً كثيرةً تزيد من هذا الضبط وهذا التفسير وسأكون عند هذه الرغبة فيما أستقبل من الأجزاء إن شاء الله.

أما ما نقصته منه: فلم يعد إحدى اثنتين، إما فُحشٌ صدَّ عن الأغاني وجوه كثيرٍ من أهل الأدب، كانوا يشكون ذلك منه، ومن أكثر كتب الأدب العربي وإني معهم في ذلك. . . وإما أشياء قلت عنها: إنها لا تُفيد أدباً ولا تُرقي فكراً.

ولكن الدكتور قد أصرَّ على رأيه وإيماً أن هذا العمل تشويه للأغاني، ومقطع الردَّ على ذلك أن كتاب الأغاني لم يفقد من الوجود، حتى يشوِّهه الخضري في مهذبه، ولكن كتاب أبي الفرج موجود لمن يرغب قراءته، وكتاب المهذب انتقاء سديد لرجل يقدر مهمته!، فهل مَحَقَّ الشيخ نُسخ الكتاب محققاً وبذلها تبديلاً آخر بكتابه، ثم أطلق عليه كتاب الأغاني ليُوهِم الناس أنه يقدم نتاج أبي الفرج؟ لم يفعل الشيخ سوى أن هذَّب ما وجدته في حاجة إلى تهذيب، ثم ترك للقراء أن يختاروا ما يشاؤون!

وإذا كان الدكتور قد لَخَّص قصصاً فرنسيةً في كتابه: (لحظات)، وارتضى ذلك لنفسه عالمياً أن تلخيص قصَّة ما يَحُلُّ بينائها الفنِّي كعمل متكامل أفيضنَّ على أستاذ كبير أن يلخِّص أبواباً من تراجم أدبية تُساق سَوْقاً دون ترابط فنِّي وأين هذا البُتر الصارم في الفن، من ذلك الرِّفق الرفيق في تكميل خطوات السابقين؟! على أن الدكتور قد رجع عن رأيه فيما أعتقد حين سمح لنفسه أن يقوم على تحقيق كتاب: تجريد الأغاني لابن واصل الحموي، فهو اختصار آخر لكتاب أبي الفرج،

والدكتور حين يُقبل على تقديمه وتحقيقه لا يعتقد أنه تشويه!، لكنه عدلَ عملياً .
بذلك عن رأيه في المذهب، بعد تأمل وتحقيق .

أما بعد: فقد أردت أن أتحدث عن جهاد الخضرى في اليقظة الفكرية
الإسلامية فتحدثت عن مؤلفاته أبلغ الحديث وهي بُعدُ شاهد عدل لا يقبل
التجريح .

أحمد غلوش رئيس جماعة منع المُسكِرات وداعية الإسلام

- ١ -

في صمت هادئ انتقل إلى جوار ربّه البطل المجاهد الدؤوب الدكتور «أحمد غلوش» رئيس جمعية منع المُسكِرات بمصر، وداعية الإسلام بأوروبا، وقد قرأت نَعْيَه بالصَّحف في سطور محدودة نشرتها أسرته، ودفعت ثمن النشر كما تعلن وفاة كلِّ مَنْ يقدر أهله على نفقات مُنْعاه في صفحة الوفيات.

وانتظرت أن تفيض الأقلام عقب ذلك في وصف كفاحه الدؤوب في ميادين العمل النافع ابتغاء مرضاة الله حقّاً طوالاً جاوزت السّتين، إذ أن الفقيه الجليل قد شارف التسعين من عمره المبارك السعيد، فما قرأت شيئاً قلّ أو كُثُر!

أفلو كان الراحل ممثلاً عصرياً شارك في إفساد النشء بما قدّم من أباطيل، أفلو كان الراحل مطرباً فنياً ساعد على الهدم الخلقي بانتشار الأغاني الماجنة والتخريب الإنساني، أو لو كان الراحل قصّاصاً يلتقط فضائح الجنس، وينسج حيل الإثم! لو كان الراحل شيئاً من ذلك، لرأينا الصور الحزينة والمراثي الحارة والأعمدة الطوال، والكلمات الإذاعية تحتشد لذكره احتشاداً وتضجر الأسماع والعيون بما تهرف من أراجيف!.

ولكن الرّاحل بعضٌ من أسلم وجهه إلى الله وهو مؤمن، واستمسك بالعروة الوثقى، وقد كَرَّمته الدولة حين منحتَه جائزة التقدير في بعض أعياد العلم، ولكن الذين يكتبون في الصّحف ويتحدّثون في الإذاعة لا يهتمّون بأمثال هؤلاء الأبطال، إذ حيل بينهم وبين ما يعملون!.

كان الدكتور غلوش في أوائل هذا القرن شاباً موظفاً بالإسكندرية، وهي حينئذٍ تعجّ بالأجانب، إذ تضمّ أكبر مجموعة من الجاليات الأوروبية، ولكلّ جالية حاناتها المنتشرة في ربوع الثغر، فصارت الخمر تُشرب علناً في الطرقات، وأصبح شاربوها المُعربدون لا يجدون من يمنعهم حين يتوقّحون مخمورين، ويتمايلون عابثين، إذ أن قانون الامتيازات الأجنبية كان في عهد الاحتلال يحمي هؤلاء المُفسدين أن يُؤاخذوا بما يصنعون!.

وزاد الأمر سوءاً أن الذين في قلوبهم ضعف، وفي إيمانهم فتور من المواطنين، اندفعوا يقلّدون هؤلاء الفجّرة فيما يَأثُمون إذ رأوا في مُحاكاتهم الوقحة مدعاة مدنية وحضارة، ودليل تقدّم وحرية، فكثرت الحانات بالإسكندرية كثرةً لم تلبث أن امتدّت وبأوها إلى أكثر عواصم القطر المصري وحواضره، وكان مما يؤسف المؤمنين أن تُقام الحانات في بعض أحوالها قريباً من دُور العلم وأماكن العبادة، دون أن يستشعر أصحابها خجلاً من أنفسهم!.

وقد كان الموقف يتطلّب داعيةً جريئاً للفضيلة يشنّ الحرب على هذا الوباء الفاتك، داعية لا يكتفي بالنصوص الدينية والأقوال المأثورة في زمان تدجّت آفاقه، وغاب هاديه! بل يعمد إلى التحليل العلمي والتشريح الطّبي، فيعلن للملأ ما أثبتته الطّب المعاصر من أوبئة المُسكرات، وينقل أقوال الأعلام في دنيا الطّب الأوروبي عن مآسي الخمر، وأدوائها الفاتكة بالأجسام! ثم تُثمر جهوده في اجتذاب نفر من ذوي الهمم البصيرة ليؤلّف معهم منذ ستّين عاماً جمعية منع المُسكرات والخمور بالإسكندرية ويتخذ لها مكاناً جليلاً بأحد الشوارع الرئيسية، ثم يوالي الاجتماعات بالشباب من الموظفين والطلاب ليجعلهم ألسنته الناطقة بين أسرهم وذويهم.

واستيقظ أصحاب الحانات فجأة ليجدوا أنفسهم أمام حرب لافحة يقودها الدكتور «غلوش»، فلجئوا إلى الحرب الباردة، إذ أذاعوا أن الدكتور غلوش يتاجر سراً في الحشيش والأفيون، فهو يحارب الخمر بضراوة كيلا تقف دون رواج تجارته!، وانتشرت الأكذوبة في الناس، فما كان من المجاهد الذكي إلا أن أعلن أنه غير اسم جماعته من (جمعية منع الخمر) إلى (جمعية منع المُسكرات) كيلا تقف عند الخمر وحدها، بل تناول كل مُسكر أو مخدر، ثم أخذ في اجتماعاته يحلل ما تتضمنه المُسكرات بعامة من شروا، وكان تغيير الاسم مفاجأة مُفجئة جعلت أصحاب الشائعات يرتدّون خائبين! وإذا كان بعضهم من ذوي الصّلات الوثيقة بالحاكمين في القاهرة فقد سعوا إلى نقله من الإسكندرية وأجبيوا إلى ما يطلبون.

فاتّجه الدكتور «غلوش» إلى القاهرة ليسيّر بنشاطه في ميدان أوسع وأشمل. فاتّخذ مقراً رئيسياً لجمعيته في حيّ السيدة «زينب»! ووجد أنباء جهاده تسبقه وتشقّ له الطريق فارتاح إلى ما قدّر له من هجرة الثغر، لأن الصّحف اليومية والأسبوعية باتت على مقربة منه، فجعل يمدّها بشتى الأبحاث الخاصّة بأضرار المُسكرات.

وحين رأى خصومه يواجهونه بانتشار الخمر في جمهرة البلاد الأوروبية دون أن تحدث لذويها ما يشير إليه من الأدواء عمل جاهداً على أن يتصل بجمعيات منع الخمر في إنجلترا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا، وسائر العواصم العربية، ليأخذ عنها ما تقول، كي يُقنع بعض من لا يعجبهم غير المنطق الأوروبي ممّن هانت نفوسهم، ففقدوا الثقة في عقولهم، وصاروا هباءً تبدّده أعاصير المستعمرين، وقد لبّت هذه الجماعات رغبته فأرسلت إليه إحصائيات كثيرة بما اتّاب طوائف المُدمنين من إنهاك الجسم، وجنون العقل، وانحطاط قوى النّسل، مؤيّدّة ذلك بتقريرات المجامع الطبية، والهيئات العلمية.

وكان الدكتور «غلوش» لم يكتفِ بما سبق إليه، فرأى أن يرحل بنفسه إلى أوروبا، ليستمع إلى رؤساء الجمعيات من أمثاله، ويناقشهم الرأي في أمضى

الأسلحة، وقد كانت رحلته الأولى إلى الغرب بركةً وخيراً على الإسلام، إذ ناقش القوم وحادثهم فوجد الكثرة الكاثرة لا يفهمون الإسلام على وجهه بل يتصورونه ديناً وثنياً خرافياً لا يلائم حاجة المدنية، ولا يقوم برغبات العصر!، فهالهُ أن يعرف ذلك، وانطلق يكتب بالإنجليزية مؤلفاً وافياً بأصول الإسلام وتعاليمه، ثم يطبعه على نفقته، ويقوم بإهدائه إلى مَنْ يتوسَّم فيهم الإنصاف من صفوة المفكرين، ثم علم أن قُرَّاءه في حاجة إلى نصوص قرآنية ونبوية، فبادر بترجمة معانٍ شافية لآيات القرآن ونصوص الحديث!.

وهكذا اتَّسع ميدان الجهاد الإسلامي أمام الدكتور «غلوش» فأصبح من دُعاة الإسلام في أوروبا! وصارت كتابته الإسلامية موضع النظر والمراجعة. ولا يجب أن نغفل في هذا الصدد زميله الداعية المصلح الدكتور «زكي علي»، فقد أقام في جنيف ليضع مؤلفاً قيماً أسماه «الإسلام والعالم» سالكاً سبيل المكافحين البررة من أمثال «غلوش» ومولاي: «محمد علي» و«فريد وجدي» وغيرهم ممَّن أصدرُوا الطلائع الأولى للمكتبة الإسلامية المستنيرة في الغرب!.

وأذكر أن مجلة الأزهر بدأت في السنة الحادية عشرة من مجلداتها سنة ١٣٥٩ هـ تنشر كتاب الدكتور غلوش (دين الإسلام كما يحفظه المسلمون) في ملحقاتها الإنجليزية ليشمل نفعه الجزيل مدى أوسع ويعمَّ قُرَّاء أكثر، وقد مهَّد رئيس تحريرها العلامة: «محمد فريد وجدي» لذلك بقوله في ص ٢٤١ من المجلد الحادي عشر:

«يرى حضرات قرائنا أننا ألحقنا اليوم بمجلة الأزهر ملزمة إنجليزية من كتاب (دين الإسلام كما يحفظه المسلمون) وهي الملزمة الأولى من كتاب قيم، وضعه حضرة الأستاذ الألمعي الجليل «أحمد غلوش» رئيس جمعية منع المُسكرات في القطر المصري، وضعه خصيصاً للتعريف بالإسلام للأمم التي تتكلَّم الإنجليزية، وقد سبق لنا الاطلاع على هذا الكتاب الذي أطلع عليه عدد كبير من رجال العلم من إنجليز وعرب فوجدناه جديراً بأن ينشر ملحقاً لمجلة الأزهر تبعاً حتى يتمَّ.

والذي يجعل لهذا الكتاب قيمة كبيرة أن واضعه الفاضل توخى فيه بيان مزايا الدين الإسلامي وصلحياته لكل زمان ومكان، وتوفيقه لجميع حاجات القلوب والعقول، بعبارات بليغة تؤثر في قارئيه من أهل تلك اللغة أبلغ التأثير، وقد جلى فيه المسائل الإسلامية الكبرى تجلية جديدة بباحث واسع الاطلاع نير البصيرة!.

هذا ما قاله الأستاذ «فريد وجدي» عن كتاب «غلوش»! وهو قول يزيد في قيمته ما أعرف شخصياً عن الأستاذ «وجدي» رحمه الله، حين طلب منه أن ينشر كتاب «المدنية في الإسلام» تباعاً في ملحقات مجلة الأزهر، وكان قد أصدره بالفرنسية، فذاع في أوروبا ذيوماً صادف التوفيق والقبول فاعتذر اعتذاراً يُبنى عن خلق مثالي يتعذر أن نراه بين من نعهد الآن من المُحتَرِفِين، إذ قال في تواضع نبيل:

«كتاب الدكتور غلوش أوفى وأولى!».

وهي شهادة رائعة يزيد بها لألاء في دنيا المثل الرفيعة أن قائلها العظيم مؤلف «دائرة معارف القرن العشرين» وحده.

والجدير بالذكر أن كتاب الدكتور غلوش كان سفيراً طيباً لدى الكثيرين من قرائه، فبنوره اعتنق الإسلام نَفَرٌ من الناس، وبهديه أنشئت بعض المراكز الإسلامية في عواصم الغرب، وإذا كنا نعرف أن الدكتور «غلوش» كان يمثل الحكومة المصرية كثيراً فيما يعقد من المؤتمرات الدولية خاصاً، بمكافحة الخمر، فإنه كان ينتهز هذه الرحلات المباركة للدعوة إلى الإسلام، حيث يقيم أسابيع متوالية بعد انتهاء المؤتمرات ليعقد الصّلات بين رجال الفكر من المثقفين، وليعرض عليهم تعاليم الإسلام في صيغ محببة له، منتهزاً ما يعن من المناسبات!.

وكان يتهيأ للموقف في القاهرة قبل أن يبدأ الرحلة فيختار نصوصاً دينية تتصل بما يشغل الرأي العالمي من شؤون المجتمع والقانون والسياسة، ثم يترجم معانيها ترجمة تسهل طريقها إلى العقول، فيُدلي بها عند الحاجة.

ولعلّ مما أكسبه كثيراً من التأثير العميق ما كان يرتسم على مُحيّاه الأسمر من براءة، وما تُوحيه لحيته المُرسّلة من غيرّة وما تشعّ به ابتسامته من تسامح، هذا غير نظرتة الحانية العُطوف التي تنفّرج عن صفاء هادئ يُوحى بسلامة السّريرة ونقاء الطّويّة، والصبر على مشاقّ الكفاح!

وكم تعرّض بسبب هذه الرحلات إلى مضايق كارية قابلها بتؤدة الحازم، وتفاؤل المؤمن. وأذكر أنه توجّه إلى فنلندا سنة ١٩٣٩ ممثلاً لمصر في أحد المؤتمرات، وكان قد قرأ أن بعض المسلمين الأتراك يعيشون في فنلندا متمسكين بعقيدتهم في عزلة هادئة، فصمّم على أن يتصل بهم، وأبطأ به الوقت في البحث عنهم دون يأس، ثم قامت الحرب العالمية الثانية فجأة، فاشتبه في أمره ووقع في الأسر أياماً طالعته بالعذاب والمرارة، وحيلَ بينه وبين العودة إلى وطنه، ولم يجد من يبعث برسالة واحدة إلى المسؤولين في مصر ليبدّلوا مسعاهم في إنقاذ رجل سافر ليحضر مؤتمراً طبيّاً خلقياً لا ليأتمر بدولة لحساب دولة كما توهم مُعتقلوه.

وإذا كان الله عزّ وجلّ لا يترك أوليائه، فقد استطاع الدكتور غلوش أن يجد بعد لأيٍ، من يستمع إليه فيعلم أن إبطاءه بعض الوقت في فنلندا لم يكن مكيدة سياسية، وإنما كان إشباعاً لرغبة دينية يحسّها المؤمن إزاء ذوي ملّته وأبناء عقيدته!، فسُمِح له بالعودة إلى مصر، على سفينة مُسالمة كانت تحلّق فوقها الطائرات متربّصة بقذائفها في الجوّ وتسربّ تحتها الغوّصات ممثلة بصواعقها في البحر، ففي كل أفق منطاد، وفي كل مسرب لغم! بحيث كان الخطر قابّ قوسين أو أدنى من الراكبين، وقد اعتصم الدّاعية المسلم بالقرآن في رحلته يتلوه ملتمساً ثبات إيمانه، وهدوء قلبه حتى انجلّت الغمّة، باقتراب السفينة من الشاطئ، ورؤية البصيص الضئيل يلوح من منار الإسكندرية في ظلام الغارات وأحاديث المخابىء وصفّارات الإنذار!

لم يفتر لغلوش نشاط في مقاومة المُسكّرات، بل كانت تزيده السنوات الطّوال كفاحاً واستماتةً في ميدانه، وقد أراد أن يتّخذ من أحكام الدين الإسلامي

سلاحاً باتراً في معركته فأخذ يوجّه الأسئلة التحريرية على صفحات المجلات الدينية والجرائد اليومية إلى كبار علماء الأزهر يستفسر فيها - ليعلم العامة - عن حكم المسكرات في الإسلام، وعن النصوص القاطعة في التحريم، وعن إهداء الخمر والاتجار بها، وغشيان مجالسها وتأجير حاناتها، ثم عما استحدث من الكوكابين والبيرة وكلّ مسكر مائع أو جامد، فإذا صدرت الإجابة في الصحف والمجلات لم يكتف بذلك، بل يطبع المنشورات المتضمنة لها، عاملاً على توزيعها بالمدارس والمساجد والأندية العامة في نشاط لا يبالي بتقدّم السن أو ضيق اليد، أو وقوف المعترض.

ومن روائعه في ذلك أنه تقدّم إلى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ «عبد المجيد سليم» - رحمه الله - وكان حينئذٍ مفتياً للديار المصرية - يسأله عن حكم الخمر وعن عقوبتها المقررة في الشريعة، وعن مسألة التجارة فيها ثم يستوضح رأي الشرع في حدّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حين يقوم مسلم غيور فيدعو المسلمين إلى إغلاق الحانات، وقصّر الخمر على أحياء أهل الذمة وحدهم!

وهو استيضاح دقيق أجاب عنه الفقيه الكبير إجابة منطقية تحسّط للظروف والملايسات فقال ما نصّه^(١)، بعد أن ذكر نصوص الكتاب والسنة، وأحال إلى الغزالي في الجزء الثاني من «الإحياء»، وإلى ابن القيم في الجزء الثالث من «إعلام الموقعين»:

«ومن هذا يعلم أنه إذا كان المسلم الذي ساءه الاستهتار بالدين حين رأى الحانات تفتح أمام المساجد، دعا المسلمين إلى العمل على إغلاق هذه الحانات بطريقة لا يترتب عليها شرٌ أعظم ولا فتنة أكبر بأن دعاهم إلى مطالبة ذوي الأمر بمنع هذه الحانات والاتجار بالخمّر، ومنع سائر المنكرات التي فشت في الأمة فأما القلوب وأفسدت على العقول إدراكها فأصبح كثير من الناس يستحسنون

(١) مجلة الأزهر، السنة العاشرة ١٣٥٨ هـ، ص ٢٤٠.

القيح، ويستقبحون الحسن، وفقدت منهم قوّة التمييز بين الخير والشرّ، والنافع والضارّ، والحسن والقيح، كان هذا المسلم ومن يقوم معه قد أدّوا ما هو واجب على حسب استطاعتهم.

أما إذا قاموا بأنفسهم بإزالة هذا المنكر، وتغييره بأيديهم، وكان هذا مما يترتب عليه فتنه وشرّ بالأمة أعظم من الاتجار بالخمر فذلك ما لا يجوز فعله، بل هو محظور لما يترتب عليه من المفساد والمضارّ كما قدّمنا.

وما قدّمه الفقيه الكبير هو ما ذكره عن ابن القيم حين قال في «إعلام الموقعين»:

«إن إنكار المنكر أربع درجات، الأولى: أن يزول ويخلفه ضده، والثانية: أن يقلّ وإن لم يزل بجملته، والثالثة: أن يخلفه ما هو مثله، والرابعة: أن يخلفه ما شرّ منه، فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة: موضع اجتهاد، والرابعة: محرمة».

هذه خلاصة الفتوى الدقيقة! وقد يضيق بها بعض المتحمسين عن قُصور! ولكنها في منطقتها الصائب ذات نظر وسداد.

- ٢ -

تعتبر المذكرات الشخصية إحدى الأسانيد الهامة التي يرجع إليها في تسجيل الأحداث، إذ أنها تمثّل وجهة كاتبها، وتكشف عن أسرار مستترة تُضيء سبيل الحقيقة، وبخاصّة إذا كان صاحب المذكرات ممّن سلّموا من الغرور الشخصي، ونجوا من روايب البشرية الأنانية، فاندفعوا يسجلون ما يعلمون في صدق وحيدة، بل إن ذوي الغرض المريض من كتاب المذكرات لا تخلو آثارهم من نفع، لأنها تقدّم ما يصلح للمناقشة والتحليل والتفسير، وستعارض لا محالة بكتابات أخرى في معرض الدراسة الناقدة، حتى يتميّز الخبيث من الطيب، ووراء ذلك كله تتكشف معميات التاريخ.

وقد ترك الدكتور غلوش مذكرات متواضعة تتحدّث عن بعض مواقفه العملية في ميدان الإصلاح الاجتماعي، ونحن في حاجة إلى إذاعتها، إذ أن أكثرها لا يزال مخطوطاً في أدراج مكتبه، وأصابع صناديقه، وليست الحاجة إلى إذاعتها تنحصر في اكتناه ما تثبت من الأضرار الجسيمة للمُسكِرات، فذلك ما نجد أمثاله في مؤلفات الأطباء والباحثين، ولم تكن لدى الرجل أسرار طبيّة يجهلها الناس عن الخمر حتى نسعى إلى اكتشافها بين أوراق الأصابع، ولكن الحاجة الماسّة إليها ترجع إلى ضرورة الإلمام بخطى داعية عملي واجهته الصّعاب الواقعية في كثير من مواقفه ورحلاته واجتماعياته، وقد تغلّب عليها بجهود مُضنيّة دائبة! ونحن إلى الوقوف على مناحي صراعه، ومطايي أزماته، وخطوات نجاحه أحوج ما نكون، لنجد العبرة، وننتفع بخير ما تكشف عنه الكفاح.

لقد كان من حظّي الحَسَن أن أجلس إلى الرجل بعض الساعات، وأن أقرأ نُبذاً من هذه المذكرات النافعة، وقد تفضّل وأهداني منها مقالة جيدة كتبها عن رحلته إلى المؤتمر التاسع عشر لمكافحة الخمر سنة ١٩٢٨، وكان قد نشرها بإحدى المجلّات العلمية، واحتفظ - رحمه الله - بنسخ منها منتزعة من العدد بحيث لم أستطع تحديد اسم المجلّة أو تاريخها! وكلّ ما لديّ من ذلك ثلاث ورقات ذات صفحات ستّ مطبوعة، تسجّل جهاداً محموداً، هو في واقعه العلمي تاريخ لموقف خالد من مواقف الرجل الكبير، كلّته العناية بنصر عالمي ساحق، يحسب له أجره عن الله، وتقديره لدى المخلصين، وقد يكون من المفيد أن أَلِمّ بخلاصة هذا الموقف الرائع مستنداً إلى ما لديّ من الصفحات!.

- ٣ -

عُقد المؤتمر الدولي التاسع عشر لمكافحة المُسكِرات سنة ١٩٢٨ بمدينة «أنفرس» البلجيكية، وقد توزّع أعضاؤه العلماء على لجان مختلفة، لكل لجنة عملها العلمي وقراراتها المقترحة، وأدلتها المبسوطة للنقاش، فهناك اللجنة الدينية التي تذكر النصوص المقدسة في ذمّ المُسكِرات، وتُوجِب البُعد عمّا نسيه من

الموبقات، وأكثر أعضائها من أساقفة الدين المسيحي وهناك اللجنة الطبية التي تحلل عناصر المُسكِرات، وتشرح موادّها التركيبية، ثم تشفع تحليلها بما تراه من أضرار هذه المواد في الأجسام، ضاربة الأمثلة على ذلك بما انتشر من أمراض المُسكِرات في العالم الغربي، وأكثر أعضائها من أعلام الطبّ وأفذاذه في جامعات أوروبا، وهناك اللجنة الاجتماعية التي تناقش مسألة الحرية الشخصية للإنسان وصلتها بتحريم المُسكِرات قانونياً عليه، كما تتحدّث عن أضرار الخمر في المجتمع البشري شافعةً ذلك بأدقّ الإحصائيات وأرجح الشواهد، وأكثر أعضائها من أساتذة الاجتماع وأئمة الدراسات النفسية في العالم المتحضّر.

وقد تكلم أعضاء اللجنة الدينية في الجلسة الأولى للمؤتمر ولم يشأ الدكتور «غلوش» أن يعقب على أحاديثهم بشيء إذ أنهم اتّجهوا في بحوثهم الدينية إلى أن المسيحية الحقيقية تحرّم الخمر، وأن ما يراه عامة المسيحيين من إباحتها لا يستند إلى أصول المسيحية الأولى في شيء، ثم أفاضوا في هذه الناحية إفاضةً مُشَبَّعةً، وإذا كان الدين الإسلامي قد اشتهر بتحريم المُسكِرات تحريماً قاطعاً لا خلاف معه في مذاهبه الفقهية المختلفة فلم يكن أعضاء المؤتمر بحاجة إلى مَنْ يتحدّث عن ذلك، وهم في اجتماعهم البلجيكي إنما يصدرون قطعاً عن روح الإسلام في تحريم المُسكِرات، أذعنوا لذلك أم جادلوا فيه، ولذلك تريث الدكتور «غلوش» فلم يهم بالتعقيب بشيء عند النقاش المتبادل بعد محاضرات اللجنة الدينية، وتحين فرصة الكلام عند مناسبات قريبة.

وجاء دور اللجنة الطبية فأعلن كبير الأطباء في مستشفى «فيينا» حاضرة الدولة النمساوية: «أن رجال الطبّ كانوا على شَطَطٍ عظيم حين كانوا يوصون بتعاطي جرعات من المشروبات الكحولية للاستعانة بها على مقاومة البرد، لما كان يبدو من تأثيرها الظاهر في تدفئة الجسم عقب تناولها، حتى لا يكاد شاربها يتصبّب عرقاً من شِدّة الحرارة في الجسم إبان البرد، وذكر المُحاضر أن هذا الشعور بالدفء إنما هو شعور كاذب، إذ يعقبه انخفاض في درجة حرارة الجسم يحدث نكسة من الصعب تلافيها.

ثم قام طبيب آخر - عند مناقشة المحاضرة - فأعلن أن جزيرة «إسلندا» من أشدّ البلدان برداً، وقد كان أهلها يستعينون على مكافحة البرد بتعاطي المشروبات المُسكِرة، فكثر بينهم الوفيات إلى حدّ مُذهِل، وقد أَلَفُوا لجنة طبيّة أثبتت أن كثرة الوفيات ترجع إلى أن القوم يستنفذون حرارة أجسامهم بما يتعاطون من الخمر، فيصعد الدم بتأثير الكحول من داخل الجسم إلى سطح الجلد فتبيده برودة الجوّ تدريجياً حتى تأتي على آخره، وتنتهي الحياة بانتهاء الحرارة من الجسم ومن ثمّ فقد أصدر البرلمان «بأيسلندا» قانوناً بتحريم المُسكِرات على أهل البلاد».

وقام ثالث فتحدّث بأن الرّحالة الدكتور «سكوت» أدرك تأثير الخمر في الأجواء الباردة بالقطب الجنوبي، فأوصى أصحابه بعدم شربها، وقد نسي بعض أصحابه نصيحته فكانت النتيجة كما دوّنها الدكتور «سكوت» في مذكراته تنطق بأن النجاة قد كُتِبَتْ لِمَن امتنع عن الخمر دون سواهم!

قال الدكتور غلوش: وهنا رأيت المقام مناسباً لأن أعلن بعد مقدمة مناسبة أن رسول الله ﷺ قد أخبر منذ أربعة عشر قرناً: أن الخمر لا تصلح لمقاومة البرد، فقد جاء في كتاب السنّة الصحيحة ما نصّه:

«عن ديلم الحميري قال: سألت النبي فقلت: يا رسول الله إنا بأرض باردة نعالج فيها عملاً شديداً، وإنا نتخذ شراباً من هذا القمح نتقوّى به على أعمالنا، وعلى برد بلادنا فقال: «هل يُسكّر؟» قلت: نعم، قال: «فاجتنبوه»، قلت: إن الناس غير تاركيه، قال: «فإن لم يتركوه فقاتلوهم» رواه أبو داود وصحّحه.

فكانت دهشة الحاضرين عظيمة، وقوبلت أقوالي بعاصفة من الهتاف، وجاء الكثيرون منهم عقب رفع الجلسة يريدون النصّ النبوي لكتابته.

ثم قال الدكتور غلوش ما ملخصه: «وفي اليوم التالي تكلم المُحاضرون فأثبتوا أن (جرعة سود) المُسكِرة لا تفيد في التداوي، إذ أن فكرة العلاج بالمُسكِرات لا تقوم على أساس صحيح، فهناك آلاف المرضى كُنّا - معشر

الأطباء - نَصِفُ لَهُمْ أَنْوَاعاً مِنَ الْخَمْرِ تَعَجَّلاً لشفائهم، فَكُنَّا - دُونَ قَصْدٍ - نَعَجِّلُ بِالْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ، فَانْتَهَزْتُ - الْقَائِلَ غُلُوشٍ - هَذِهِ الْفُرْصَةَ وَقُلْتُ فِي مَعْرِضِ النَّقَاشِ: هَذِهِ مَعْجَزَةٌ أُخْرَى لِنَبِيِّ الْمُسْلِمِينَ ﷺ حَيْثُ لَمْ يَقْضَ فِي التَّجَارِبِ الطَّبِيبَةُ يَوْماً وَاحِداً بَلْ عَشْرَاتِ السِّنِينَ الَّتِي لَا بَدْءَ مِنْ قَضَائِهَا لِمَعْرِفَةِ أَثَرِ أَيِّ نَبَاتٍ أَوْ عِقَارٍ أَوْ شَرَابٍ فِي الْجِسْمِ، وَإِنَّمَا عَرَفَ بِطَرِيقِ الْوَحْيِ أَنَّ الْخَمْرَ لَا تَنْفَعُ لِلتَّدَاوِيِّ.

فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ طَارِقِ الْجَلْفِيِّ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَمْرِ فَنَهَاها عَنْهَا فَقَالَ: إِنَّمَا أَصْنَعُهَا لِلدَّوَاءِ، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِدَوَاءٍ وَلَكِنَّهُ دَاءٌ».

وَهَذَا الْإِرْشَادُ النَّبَوِيُّ جَعَلَنَا - نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ - نَتَمَسَّكُ بِهِ حَتَّى لِيَفْضَلَ أَحَدُنَا أَنْ يَقْضِيَ نَحْبَهُ عَلَى أَنْ يَشْرَبَ دَوَاءً فِي مُسْكِرٍ حَذْراً مِنْ مَخَالَفَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا أَنْتَهَيْتُ مِنْ كَلَامِي حَتَّى بَدَتْ عَلَامَاتُ الْاسْتِحْسَانِ فِي الْوُجُوهِ، وَنَقَلَ الْكَثِيرُونَ نَصَّ الْحَدِيثِ عَنِّي.

ثُمَّ جَاءَ دَوْرُ اللِّجْنَةِ الْاجْتِمَاعِيَةِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَكَانَ مَوْضُوعُ الْحَدِيثِ عَنْ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ وَالْحَرِيَةِ الشَّخْصِيَّةِ، فَأَثْبَتَ الْمُحَاضِرُ خَطَأَ الرَّأْيِ الْقَائِلِ: بِأَنْ فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ مَصَادِرَةٌ لِلْحَرِيَةِ الشَّخْصِيَّةِ، إِذْ بَدَأَ لِلْعَيَانِ مَا بَدَأَ مِنْ مَسَاوِيءِ الْخَمْرِ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ حِينَ تَتْرَكَ مِنَ الضَّحَايَا مَا لَا يُقَاسُ بِهِ ضَحَايَا الْأَوْبَةِ وَالْحُرُوبِ، وَلَا مَنَاصٍ حِينَئِذٍ مِنَ اللُّجُوءِ إِلَى الْقُوَّةِ وَالْإِكْرَاهِ فِي مَنَعَ الْجُهْلَاءِ عَمَّا يَحِقُّ بِهِمْ مِنَ الشَّرِّ الْخَبِيثِ.

وَقَدْ طَلَبَ الدُّكْتُورُ غُلُوشَ الْكَلِمَةِ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْمَحَاضِرَةِ لِيَقُولَ فِي شَجَاعَةٍ: «لَعَلَّكُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ وَالْحَالَةُ هَذِهِ لَا تَنْفَرُونَ عَنِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ حِينَ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ يُوجِبُ حَدَّ شَارِبِ الْخَمْرِ بِأَنْ يُجْلَدَ ثَمَانِينَ جَلْدَةً، وَهَذَا الدِّينُ لَمْ يَكْتَفِ بِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ: شُرْبِهَا وَبَيْعِهَا وَصُنْعِهَا وَحَمْلِهَا وَتَقْدِيمِهَا وَأَكْلَ ثَمَنِهَا، بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَتْرِكِ النَّاسَ وَشَأْنَهُمْ فِيهَا، فَانْزَلَ بِشَارِبِ الْخَمْرِ عَقُوبَةً بَدْنِيَّةً رَجْراً لَهُ وَصَوْناً لِلْحَرِيَةِ الْعَامَّةِ مِنْ أَنْ

تكون عُرْضَةً لاعتداء مُدْمِنِي الخمر» فعَلَّا هِتَافُ الْمُؤْتَمِّرِينَ وارتفع صدى تصفيقهم الطويل!! .

بعد هذه المواقف المتكررة في سبيل الله! قال الدكتور «غلوش»: وكان بين المؤتمرين قسيس إرلندي فأقبل يحيني في بِشْرٍ ويشدُّ على يدي، ثم قال: أراك يا عزيزي قد أفلحت تماماً في توجيه الأنظار نحو ديانتك المحمّدية فأهنتك على هذا النجاح، فتبسّمت وقلت: أما أنا فأشكر المؤتمر ورجاله أن كشفت أبحاثهم عن معجزتين علميتين لرسول الإسلام، فقال قائل: وهل لنيّكم هذا أقوال مأثورة في شؤون الحياة العامّة؟ فقلت: إنه لم يدع شيئاً من شؤون الحياة ولا أمراً من أمور الناس إلّا فاضّ في تفصيله، فسُئِلْتُ: وهل توجد هذه الأقوال في كتاب إنجليزي مثلاً؟ فأشرتُ: إلى بعض الكتب المترجمة في هذا الموضوع ذات القرابة من الأصل العربي ومن أهمها: «كتاب مشكاة المصابيح»!

وحدث قبل رفع جلسات المؤتمر واختتامها أنّي دُعيتُ إلى تناول الشاي والحلوى في منزل بعض وجهاء البلجيكيين فلبّيت الدعوة، وهناك لقيت جمعاً كبيراً من مختلف الأجناس حضروا ليستزيدوني إيضاحاً وبياناً عن دين الإسلام وتاريخ صاحب الشريعة عليه أفضل السلام، فذكرت لهم طرفاً من ذلك حسبما اتّسع الوقت المحدود، وكنت أحرص على أن أذكر جميع الأنبياء بالتبجيل والتعظيم، مُعَلِّناً أننا معشر المسلمين لا نفرّق بين أحدٍ من رُسُلِ الله، وأقسم أنه لو كانت الظروف مواتية وأقمت بين ظهرائي أولئك القوم عامّاً أو عامين لأمكن هداية الكثيرين منهم إلى نور الإسلام وطريقه المستقيم».

- ٤ -

نجد بعد الإلمام بموقف الدكتور «غلوش» في المؤتمر البلجيكي أنه كان سفيراً لدينه بين أكثرية لا تكاد تفهمه، إذ أن الدّاعية الحضيف لم يشأ أن يتقدّم بمحاضرة طنانة يقولها بين أعضاء اللجنة الدينية، فتمتلىء بالنقول دون أن تجد مناسبتها اللَّافَتَةَ، ولكنه استعمل أدقَّ أسلوبٍ للحصافة البارعة حين جعل آراءه تأتي

خلال المناقشات باعتبارها تعقيبات ضرورية قد هُيئت مكانها ومناسبتها، لذلك وجدت الانتباه القوي، وشدّت الأبصار والأسماع إلى صاحبها حتى سعى إليه الأسقف الإيرلندي متعجباً من يقظته الباهرة في توجيه جميع الأنظار إلى مبادئ الإسلام.

وهكذا كان الرجل خير سفير مسلم في جماعات مثقفة لا تؤيد الآراء الصائبة دون أن تجد لها أدلة حاسمة تحوطها بسياج متين، وإذا كان هذا موقفه بين الغرباء فإن حصافته الباهرة لا تخلّذه في كفاحه الداخلي بين جدران وطنه العربي المسلم، بل تدفعه إلى أن يعود من رحلاته المتكررة حاملاً خلاصة الآراء الطيبة الجديدة في تأثير الكحول والمخدرات ومُقَدِّماً رَسْماً بيانياً يثبت مدى انتشار مكافحة الخمر في بلاد لا تكاد تدين بتحريمها سماوياً، وإنما يتجه المخلصون إلى ذلك وراء ما يشاهدونه من أسوأ آثار المُسكِرات - وأذكر مثلاً لذلك - ما طبعه الدكتور «غلوش» بعد عودته من المؤتمر الفنلندي في أعقاب سنة ١٩٤١ من منشورات هادفة تثبت اتّساع النطاق الأوروبي لمكافحة الخمر، وقد تضمّنت وقائع هامة عن مكافحة المُسكِرات في بلاد النرويج والدانمارك والسويد وسويسرة وفنلندا وأستراليا وغيرها، ومن أهم ما جاء بها نداء وجهه إلى شباب سويسرة الجنرال (جوزان) القائد العام للجيش السويسري إذ ذاك جاء فيه :

«إن أرض الوطن وديعة في يد شبابه، ولن تسلم هذه الوديعة المقدسة من يد الغاصب المستبدّ إلا إذا سلّم الشباب من غائلة الخمر، فاتّق الله أيّها الحندي في وطنك ونفسك واعلم يقيناً أن في يدك وحدك الخاتم الذي ستطبع به بلادك فلا تلتطخ جبهة الوطن، ولا تطبعه بطابع المذلة والعار، ولن يكفل لك ذلك إلا مُجانبة الخمر، فاغنم هذا الشرف بقوة عزمك».

وقد نُشر هذا النداء بمجلة الأزهر المصرية بالمجلد الحادي عشر (١٣٥٩) ص (٤٣٢) بين وقائع إصلاحية أرسلها المكتب الدولي لمكافحة المُسكِرات «بلوزان»، وكان المرحوم الدكتور «غلوش» قد بادر إلى طبعه وتوزيعه تلقائياً قبل أن

يهتم به مكتب لوزان، مما يؤكد أن عينه كانت تشع دائماً بإبصار نافذ يحيط بكل ما يصلح من الأسلحة الباترة في كفاح المُسكِرَات فيستخدمه دون إهمال.

هذه بعض أعمال الرجل الكبير، وقد اتجه في خاتمة حياته إلى كتابة دراسة مستوفاة عن التصوّف الإسلامي في شتّى عصوره، ولا تزال مخطوطة في مسودّاتها كأكثر مذكّراته الشخصية عن جهاد المُسكِرَات!

ولعلّ من حقّه على أسرته أولاً، وعلى الدولة ثانياً أن تطبع هذه الآثار الرائعة لأن جدواها الثمينة ليست مجال الخلاف.

عبد الوهاب النجار المؤرخ، البحاثة، المُجاهد

- ١ -

الثقافة الإسلامية ذات أصول متشابكة متجاورة، ولا بدّ لعالم الإسلام أن يمتدّ نظره إلى أعماق هذه الأصول المتجاورة ليُجعل من روافدها المختلفة تياراً ينحدر إلى ذهنه، فيفيض بمختلف المعارف عن ضلّاعة وأصالة، ولكن الأخذ بالنظم الجامعية الحديثة قد ساعد على فُصم هذه الأصول مساعدة ضاءلت من حصيلة رجل الثقافة، حتى أصبحنا نرى المتخصّص في الأدب بكلّية اللغة أو الآداب لا يلمّ بشيء مما يعرفه أخوه في كلّية أصول الدين أو في كلية الشريعة! مع أن رجال الإسلام في القديم والحديث كانوا لا يقيمون هذه الحواجز الفاصلة بين المعارف الإسلامية.

فالشافعي مثلاً كان راوية شعر ولغة وعنه أخذ بعض الرواة شعر الهذليين مع إمامته في التشريع، والأستاذ «محمد عبده» كان يحلّل دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة في الأزهر، كما كان يفسّر القرآن في الرّواق العباسي ويشرح مقدمة ابن خلدون لطلّاب دار العلوم، ويقرأ رسالة التوحيد ببيروت!.

ولسنا ننكر بذلك أهمية التخصّص العلمي ولكنّا نحذّر من الالتزام به على هذا النحو المُفرط، التزاماً جعل الواقع المُشاهد بين أبناء الكليات لا يوحي بخير كثير.

ولعلّ في سيرة الأستاذ «عبد الوهاب النجار» ما يتخذ برهاناً على ضرورة الإلمام بأصول الثقافة الإسلامية مهما تشعبت أطرافها وامتدت جذورها، وما ظنّك بعالم مُستنير، تقلّب في المدارس العالية والكليات الجامعية ليدرس علوماً مختلفة، كان أستاذاً البارز ومحقّقها الشهير؟! فإذا كان قد بدأ حياته مُدرّساً للغة العربية ببعض المدارس الأميرية، فإن مواهبه الذائعة قد رشّحته بعد ذلك إلى تدريس الأدب العربي في كلية الخرطوم بالسودان، فأنشأ جيلاً يهيم بالأدب والثقافة، ثم عاد إلى مصر ليكون أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية البوليس، فأبدى من المهارة ما جعل طلابه يعتقدون أن قوانين أوروبا التي يدرسونها على المتخصّصين مما لا ينهض لأصول الشريعة الإسلامية في شيء.

وزاول مع ذلك المُحاماة الشرعية فأبدى أصولاً حيّة في فروع الأحوال الشخصية: من مواريث وطلاق وزواج وحضانة ونفقة! ثم اتّفق له أن يكون أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية القديمة، فكان هو والشيخ «محمد الخضري» فرسيّ رهان، وفي مضمار التاريخ كُتِبَ له الخلود العلمي بما كتب ودرس وحلّل، ثم انتقل إلى تدريس المنطق بدار العلوم، فكان سامعه يظن أنه لا يعرف غير المنطق لدقّة جدله، وصحّة تطبيقه!.

ثم رأت مشيخة الأزهر أن تختاره أستاذاً للدعوة الإسلامية بكلية أصول الدين، فدرس تاريخ الدّعاة من الأنبياء والقادة دراسة وضعت الأساس الثابت في صرح هذه المادة المستحدثة! ولقي الله عزّ وجلّ بعد جهاد حافل متعّدّ المناحي متنوّع الأفنان.

وإذا كان الظمأ إلى المعرفة إحساساً يتطلّب الريّ فإن النجار قد تعدّى الثقافة الإسلامية القديمة إلى العلوم العصرية المستحدثة، فاتخذ من ثقافة عصره سلاحاً يدافع به عن اتجاهاته الروحية والعلمية، وكان بذلك السلاح قريباً إلى نفوس تلاميذه أثيراً لدى قلوبهم، قال عنه الأستاذ «عبد المنعم خلاف» بالعدد (٤٣٩) من مجلة الرسالة:

«قد ساعده على الاقتراب من قلوبهم اتصاله بنصيب وافر من العلوم العصرية التي كان يعلم منها ما جعله ابن زمانه وريب عصره، لا رجلاً متخلفاً عن ملاحقة سير الحياة بالأحياء، وسرعة نمو هذه المدنية العجيبة التي تفتّح فيها أسرار الطبيعة للعقول تفتّحاً متلاحقاً يُحَيِّرُ الألباب ويثير الدهشة، ويكشف عن كلمات الله ليس لها نهاية ولا نفاذ، فكان عليه رحمة الله يعلم من مباحث علوم الطبيعة والكيمياء والكهرباء وفنون الصناعات والآليات ما كان يثير الإعجاب ممّن يسمعون، وهو شيخ مُعَمَّم تقدّمت به السنّ، وتوجّه فكره من قديم إلى الأدبيات وعلوم اللغة والشريعة والجدليات، وما إليها من الميراث الشرقي النظري».

وُلِدَ الأستاذ النجار بالقرشية في منتصف مارس سنة ١٨٦٢، وكان والده ممّن يميلون إلى التصوّف، وحدث أنه كان يقرأ في كتاب الطبقات للشعراني ساعة بُشِّرَ بمولده، فسَمِيَ وليده عبد الوهّاب تيمناً بمؤلف الطبقات، وكأنه أراد بذلك أن يكن الوليد من رجال العلم الصّوفي، وقد سار في تربيته على نحو يؤهّله لما يريد، فعمل على أن يحفظ القرآن في طفولته، ثم أرسله إلى الجامع الأحمدي في طنطا، ليتلقّى الدراسة الأزهرية في يفاعته.

وكانت للطالب نفس تهيم بالأدب على حدّاته، فتناقل الطلاب حديثاً عن شاعر ناشئ يعمل كاتباً لدى أحد المُحاميين بطنطا، ورووا بعض شعره الذي أعجب النجار، فسارع إلى التّعرف بالشاعر الذي أصبح فيما بعد شاعر النيل: «حافظ إبراهيم»، وقد أفاض الأستاذ في تسجيل ذكريات ذلك العهد بمجلة أبولو (يوليو سنة ١٩٣٣) فقال إنه أحسّ إليه بجاذب من الأدب، فشاهد مجلسه الحافل بالظُرف ولطف المحاضرة وسُرعة البديهة وحضور النّادرة، وكان يصلّ المغرب والعشاء معه، ثم يلبثان الليل في سَمَر ممتع، ومُطارحة لذيدة حتى صار مجلس حافظ ندوة ليلية في طنطا، وصار النجار أحد فرسان هذا المُتدى مع فريقٍ من نابهي طلبة المعهد الأحمدي.

لقد تَأَصَّلَ حبّ الأدب في نفس الطالب الناشئ، فأكبّ على كتبه رواية وحفظاً واستيعاباً، ثم جدّ من الأحداث ما دفعه إذ ذاك إلى دراسة المسائل الدينية

في أصول الإسلام والمسيحية وهو يَعدُّ في سنواته الدراسية الأولى، إذ إن أحد القسس الإنجليز من البروتستانت قد تزياً بزَيِّ الأقباط، ووفد إلى طنطا في بعثة تبشيرية سرّية، وكان أكبر همّه أن يَحُوكَ الاعتراضات المُغرِضة ويذيعها بين الناس، ثم أخذ يجتمع بطلبة المعهد الديني لِيُلقي إليهم سُمومه في ثوب أسئلة دينية تتطلّب الإجابة، فلم يطق الفتى الناشئ صبراً على هذا التبشير المقصود، وأخذ يحاصر القسّ مع نفر من زملائه سائلاً، مُساجِلاً، متهمّاً، حتى تحوّلت طنطا إلى ساحة سِجال ديني.

وانتقل صدى هذا النقاش إلى القاهرة، ثم أبرق القسّ عنه إلى الجهة التي أرسلته في إنجلترا فضجّت التيمس واتّهمت المصريين بالتعصّب الديني!، وتدخل اللورد كرومر المعتمد البريطاني حين رأى من الحكمة إبعاد القسيس عن طنطا كيلا يؤجّج حرباً دينية، ولولا ثبات النجار ورفاقه لتمادى المبشّر في غيّه مشمولاً بعناية الحاكمين من المحتلّين.

ثم انتقل النجار إلى القاهرة والتحق بدار العلوم، فكان نجماً لامعاً، وزميلاً عظيماً «لعبد العزيز جاويز» و«أحمد إبراهيم» و«حسن منصور» من أبناء فرقته الدراسية، ولم يكد يقوم بتدريس اللغة العربية في مدرسة عابدين الأميرية حتى وجد المدرسة الإنجليزية بباب الخلق تقوم بالتبشير العلني للمسيحية، مشمولة برعاية كرومر السافرة! وقد ضمّت إليها نفراً من القسس يدعون المسلمين صراحةً إلى الدين المسيحي فتذكّر جهاده السّالف في طنطا، واختار نفراً من رفاقه المدرّسين وتوجّه إلى مقرّ التبشير ليناقد القسس فيما يدعون! ثم وإلى ذهابه يومياً إلى المدرسة مع رفاقه، إلى أن فُوجيء ذات مساء بكوكبة من الجند تخفّ للقبض عليه مع زملائه، وتحرمّ عليهم دخول هذا المكان! فاتّجه من الفور إلى الأستاذ محمد زكي الدين سند وكان من خيرة الدّعاة للإسلام، حيث اتّفقا على تأسيس جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية، لتجمع الشباب الإسلامي كل مساء في متنهاها العلمي مفنّدة مزاعم التبشير، وهاتفه بمجد الإسلام! وكانت أول جمعية تُؤلّف

للدعوة الإسلامية في مصر وقد اتسع نشاطها، فضمت الكبار من الوزراء والعلماء والقضاة وصار لها مجلة تسجل محاضراتها وتذيعها على الناس.

ثم رأى الأستاذ أن يغذي الصحف اليومية بأرائه الدينية والاجتماعية، فظهرت مقالاته المتتابعة تعالج شؤون الإصلاح حتى سار له ذكر طائر في قومه، فانتدب إلى التدريس بالمدارس العالية، ورحل إلى الخرطوم في سفارة علمية، ثم رجع ليكون أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية القديمة، فأتيح له أن يشرف على تهيئة جيل جديد يفتح للبحث العلمي في شتى فروع.

وكان عجباً أن يشرف الأستاذ على إعداد رسائل الدكتوراه في فروع مختلفة، وأن يناقش اليوم رسالة في الفلسفة ليناقش في الغد رسالة في الأدب، وليناقش بعد الغد رسالة في التاريخ بمشهد من النظارة، وبمحضر من جموع المثقفين، وقد اعتاد أن يكتب تقريراً مفصلاً مُسهباً في كل رسالة يناقشها فيضمّنه آراءه النقدية في الرسالة باباً باباً على وجه التفصيل.

وقد اضطر الدكتور زكي مبارك إلى أن يقيد آراء النجار في هوامش رسالته المطبوعة عن أخلاق الغزالي، وقد نال بها جائزة الدكتوراه في الفلسفة، وكان الأستاذ من أبرز المناقشين دقةً وتحديداً واعتذاراً! أما الدكتور «أحمد البيلي» فقد افتتح الطبعة الثانية من رسالته التاريخية عن صلاح الدين بمذكرة الأستاذ النجار، وهي تقرير مُدوّن في صفحاتٍ عشر، تتضمن نظرات الناقد في الرسالة منهجاً وموضوعاً وأسلوباً، ذاكراً أرقام الصفحات التي يتسع المجال فيها للنقاش النظري.

وكان جميلاً من الشيخ أن يقول في تقريره عن مراجع الرسالة: «إن الكاتب قد جمع طائفة من الكتب يستأنس بها ويسترشد فيما عساه أن يقوله، ثم نقد الكتب العربية التي اطلع عليها وإني لا أعارض فيما قال عنها، وأما عن الكتب الأوروبية فمما يدعو إلى أسفي واغتياب صاحب الرسالة أنني لا أعرف لغة أجنبية، ولو عرفت لاستدركت عليه في اختياره بعض الكتب ولدلتته على غيرها وأمسها بموضوعه».

وبمناسبة الحديث عن اللغة الأجنبية أذكر أن الأستاذ قد اضطر إلى أن يجلس مجلس التلميذ من تلميذه الدكتور «علي العناني» ليتعلم على يديه اللغة العبرية، حيث كان في حاجة إلى قراءة التوراة بلغتها الأصلية، لتمدّه بما يريد من الحجاج في دراساته المقارنة للأديان! وقد كان الشيخ وحيداً في طريقته الفذة حين يقارن آيات القرآن بما ورد في موضوعها من كتب العهد القديم والعهد الجديد.

ولعلّ أبرز مجال انفسح أمام الشيخ في مضمار الدعوة الإسلامية هو مجال جمعية الشبان المسلمين، منذ سعى مع الأستاذ «عبد العزيز جاورش» والدكتور «عبد الحميد سعيد» إلى تأليفها لتقوم برسالة الإسلام الثقافية والاجتماعية، فتصدّ التيار الغربي المناوئ، وتدعو إلى إحياء أمجاد السلف، وتردّ الثقة بحضارة العرب وعظمة الإسلام.

وفي قاعة هذه الجمعية جلجل صوت النجار عالياً في كل مناسبة تحين، بحيث صارت مُتدبّر ربيعاً لكبار المخلصين من رجال الشرق والإسلام وأصبحت مَنبر الداعين إلى الله، فاجتذبت أفواج الشباب وكشفت خداع المروجين لمادية الغرب وبهارجه، وأقامت حصناً واقياً للفكرة الإسلامية، وظهرت مجلّتها الرسمية تذكر المسلمين بسلفهم الصالح، وقد يكون غريباً أن يصبح الشيخ النجار محرّر باب الإفتاء الفقهي في المجلة، ليصدر عن ثقافة أصيلة تمدها خبرة وافية بأحوال العصر، ومُلبّسات العُرف وتطوّر التشريع!.

وإذا كان من رسالة جمعية الشبان المسلمين أن تؤكد علائق المحبة بين الدول العربية والإسلامية، فقد أرسلت سفراءها إلى عواصم هذه الدول تدعياً للأخوة، وتذكيراً بالآمال المشتركة، وكان النجار أصلح وافد يرحل إلى سوريا وتركيا والعراق وفلسطين، مؤدياً رسالة الجمعية، ومتحدثاً في الأنديّة، وكتائباً في الصّحف، وله مذكرات مخطوطة عن رحلاته المتتابة، نرجو أن يكون أولاده الكرام قد حفظوا لها مكانتها دون أن تعبت بها أيدي الضياع!.

ولعلَّ رحلته الأخيرة إلى الهند سنة ١٩٢٧ كانت أعظم هذه الرحلات أثراً، إذ تناقلت الصحف إذ ذاك أنباء تُشير إلى اتجاه نفر كبير من المنبذين في الهند إلى اعتناق الإسلام فاهتَم الأستاذ الأكبر «محمد مصطفى المراغي» شيخ الأزهر بما أُذيع، وكتب أعيان المسلمين هناك ملتصاً تأكيد ما يقال فجاءت الردود متضاربة متناقضة، فرأى أن يُوفد بعثة أزهريّة إلى الهند لترقب الأمر عن عَيان، واختار الأستاذ عبد الوهاب النجار مع اثنين من كبار علماء الأزهر ليكونوا ألسنة صادقة للأزهر، وليشدوا أزر المسلمين في الهند حين يعلمون أن إخوانهم في مصر يحرصون على أن تكون كلمة الله هي العليا في الهند!.

وقد سافرت البعثة لتؤدّي دورها الإرشادي نصحاً وتوجيهاً ولترجع إلى شيخ الأزهر بمذكرة ضافية تصف شتى التيارات المتعارضة، وتنقل آراء ذوي الكلمة المسموعة في الهند، أمثال محمد إقبال، ومحمد علي جناح، والكلونيل مقبول توشي.

وقد احتفظ النجار بمذكرات خاصّة كتبها لنفسه، ونشر بعضها في صحيفة دار العلوم عقب وفاة السيد محمد إقبال، إذ تعرّض إلى تفصيل ما دار بين الشاعر الفيلسوف وأعضاء البعثة الأزهريّة من حديث مُسهب، أوضح صِلة المسلمين بالهنداكة، وبَيَّن تحامل الإنجليز على المسلمين بالذات، ثم ردّ على المُفتريات الظالمة التي تشوّه عن عمد بطولة المسلمين من الهنود، وتوضح بالأدلة المُقنعة كيف كان المسلمون في الهند الأعداء الحقيقيين للإنجليز، وكيف فهم الإنجليز ذلك فعملوا على مساندة الهنداكة وحاولوا أن يهدوهم بعض المساجد الإسلامية لولا ما اشتعل في صدور المسلمين من الحَمِيّة الثائرة فواجهوا الإنجليز والهنداكة معاً ببطولة منقطعة النظير.

وهكذا تفيض مذكرات الرجل في شؤون هامة يجب أن تكون موضع دراسة مستأنية بصيرة، لدى أبناء الإسلام في كل مكان، لأن تاريخ المسلمين كُلُّ لا يتجزأ، ومحاولة اقتصار كل دولة على تاريخها المحدود فُصْم للعلائق الوطيدة التي

أكدها الإسلام، وتوهين لحبل الله الذي أمر المسلمين جميعاً أن يعتصموا به بعد أن أصبحوا بنعمته إخواناً، فمن مبلغ إخواننا المسلمين في الهند والباكستان، أن تاريخ جهادهم الرائع حلقة ذهبية في سلسلة ثمينة الحلقات عامرة البطولات.

- ٢ -

كان المظنون أن التصوّر الزمني يُتيح للعرب والمسلمين تقدماً ملموساً في ميادين البحث العلمي، بمعنى أن كل باحث جديد يضيف إلى ما تقدّمه أثراً ذا بال، وربما تحقّق ذلك في بعض مناحي الثقافة المعاصرة، ولكن دراسة التاريخ الإسلامي بالذات لم تظفر بمن يمدّها بأسباب الجذّة المخلصة على نحو يُظهر أصالة هذا اللون العريق من ألوان الدراسات الإنسانية، ولن أكون مُغالياً حين أقول: إن رجال التاريخ الإسلامي في الجيل الماضي من مثال «محمد الخضري ورفيق العظم وعبد الوهاب النجار ومحمد حسين هيكل» كانوا أكثر توفيقاً، وأخلص نفاذاً من مؤرّخي الجيل الحاضر مع ما أُتيح لهؤلاء من وفرة المصادر المطبوعة وكثرة الفهارس الدّالة! وتلك قضية هامّة يجب أن نقف لديها متأمّلين!

إن كثيراً من مؤرّخي اليوم قد تخرّجوا في كليّات الجامعات العربية عن طريق المدارس الثانوية المدنية، بمعنى أن دراستهم الإسلامية في الصفوف الابتدائية والثانوية كانت بضع آيات قرآنية، تُشير إلى مناحي الأخلاق دون أن يُتاح لهم بعض الإلمام بحقائق التشريع الإسلامي، حتى إذا انتقلوا إلى الجامعات رأوا أعلام الاستشراق وتلاميذ المستشرقين، يسيطرون على عقولهم بما لَفَّقوا من تاريخ! فكان قُصاراهم أن يجروا خلفهم في كل طريق!

والتاريخ الإسلامي بالذات في حاجة إلى مَنْ يفهم أدواره المتعاقبة على ضوء الشريعة الإسلامية، فكيف يُتاح إذن لطالب جامعي لم يقرأ جميع القرآن، ولم يطالع كتب المفسّرين ولم ينفذ إلى لباب الحديث النبوي، أن يتحدّث عن مسائل الحرب والقتال، وعن القضاء والخراج والوزارة والحكم وشئى مناحي الإدارة الإسلامية في عهدها الزّاهرة؟!.

إنَّ جَلَّ اهتمامه أن يرجع إلى أقوال أساتذته، وأكثر هؤلاء لا يسعفونه بغير اتجاهات المُغْرِضين ممَّن كتبوا التاريخ الإسلامي بأهوائهم المريضة، لذلك يحقُّ لنا أن نقول إن طراز عبد الوهَّاب النجَّار، ومحمد الخضري، ورفيق العظم كان أقرب إلى الصواب ممَّن خلف! لأن هذا الطراز قد درس الشريعة الإسلامية دراسة تمكَّنه من تفسير الأحداث واستكناه الأسرار، وقد خَلَا من التحامل المُغْرِض الذي سيطر على نفر من باحثي اليوم، وكان ثمرة عَفْنَةٍ لتوجيه ديني كشفت عن مثالبه السُّتور!.

ثم إنَّ كتب التاريخ القديمة - في أكثرها - لدينا كتب رواية وإسناد، بمعنى أن المؤرِّخ القديم كان يتتبع شتَّى الروايات ليسردها في كتابه وفي بعضها من التضارب ما يقف به موقف النقيض من بعضها الآخر! لأن أمثال الطبري والمسعودي وابن الأثير كانوا لا يكتفون بتسجيل ما صحَّ لديهم وقوي، بل وجدوا من الأمانة العلمية أن ينقلوا كل رواية معزَّوة إلى مصدرها. وعلى القارئ أن يستعرض كل خبر ليقوم تلقائياً بالترجيح والتعليل.

وقد عَفَى الزمن على طريقة الرواية والإسناد، فسلك المؤرِّخون مسلك البحث المتناسك ذي المقدمات والنتائج! وهنا يكمن الخطر في كتابة التاريخ، إذ إن أساتذة الاستشراق يعمدون كثيراً إلى روايات ضعيفة، يمهِّدون لها بالمقدمات الخادعة ليصلوا إلى نتائج مُغْرِضة تجعل تاريخ السلف مظنة الانحدار والهبوط، ثم يغفلون عن عمد ما يناقضها من الروايات الصحيحة ليستقيم لهم القول على نحو ما يبتغون! ويجيء الطالب الجامعي فيجد هذه الكتب تحشوا ذهنه، وتميل به إلى فهم خاطيء خادع، إذ يجد مصدر الرواية معزَّوًّا إلى الطبري أو المسعودي أو ابن الأثير فيحسب أن الأمر جدّ، وأن كلَّ ما لَفَّقَه الكاتبون أصيل صحيح! لذلك كانت الحاجة ماسة إلى طراز مسلم أصيل يكتب التاريخ.

هذا من ناحية التَّأليف الجامعي في الكتب، أما الإلقاء التوجيهي في حُجرات الدرس فأعجب وأغرب، لأن بعض الأساتذة المستغربين يسردون تاريخ

محمد ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ كما يسردون تاريخ جنكيزخان، والإسكندر، وتيمورلنك، وهتلر، وستالين! بمعنى أنهم يُشعرون الطالب المسلم حين يتحدثون عن أعلام الإسلام أنهم يتحدثون عن أناس غُرباء أدّوا دورهم الزماني ومضوا، لذلك كانت كارثة الإلقاء الجامعي لا تقلّ عن كارثة التأليف! مع أن الأستاذ الحقيقي هو الذي ينفث روحه في تلاميذه، فيعيد الوقائع والأحداث حيّة متحرّكة كأنه يعرضها في شريط سينمائي يشاهده النظارة.

ولست أريد أن أجعل المؤرّخ داعية! كلا وألف كلا، ولكني أقول: إن تاريخنا الإسلامي حيّ بمشاهده الرائعة، رائع بمواقفه الصادقة، فلا أقلّ من أن نتحدّث عنه كما كان، لا كما حتمّ ذوو الغرض أن يكون.

إن أثر الإلقاء البارِع في المحاضرات الجامعية ليُعظم ويمتدّ حتى يخلق رجالاً يهيّمون بمبادئ الكرامة والحرية والإخاء التي سنّها الإسلام، وإذا كان لنا أن نضرب المثل على ذلك فلنستمع إلى الأستاذ الكبير أحمد رمزي سفير مصر السابق في روما حين يتحدّث في كتابه «مناداة الحروب» ص ٢٤٥ عن الأستاذ عبد الوهاب النجار، فيقول:

«أما الأثر الذي توطّد في نفسي، فجاء عن التاريخ الإسلامي نتيجة للمحاضرات التي ألقاها علينا رجل من نوادر رجال مصر، ومن أشجعهم وأشدّهم تمسّكاً بتعاليم هذا التاريخ الإسلامي الذي طالما أهملناه، أعني به المرحوم الشيخ «عبد الوهاب النجار».

كنّا في السنوات الأولى بمدرسة الحقوق وكانت الدراسة في الصباح، فأخذنا نتلقّى دروساً بكلية الآداب بالجامعة المصرية القديمة، وتتلّمذنا جميعاً على هذا الأستاذ الكبير الذي عرفنا منه رجال المراجع، مثل الطبري وابن الأثير والبلاذري وغيرهم، وكان إلقاؤه رحمة الله عليه وقت الدرس يحرك مشاعر الطالب، فهو إذا تحدّث عن الدولة العباسية جاء بالأسانيد، وقرن التاريخ بالأدب، وتحدّث حديث المؤرّخ الواعي الذي يعيش في الفترة التي يتكلّم عنها، فهو لا يسرد لك الحوادث

فحسب، بل يعلّق عليها ويتنقل بك إلى تلك الفترة فكأنك عشت فيها، وعرفت رجالها وسمعت خطبهم.

وكان رنين كلامه قوياً يتغلغل في النفس، فكنت أخرج من الدرس وفي مخيلتي الألفاظ والكلمات التي استعملها، وأبيات الشعر التي رتلها فتلازمني، وأجد نفسي مدفوعاً إلى مراجعة هذ النصوص واستكمالها، لكي تلصق في ذاكرتي لأتكلم بها وأستشهد بما فيها.

ومن فيض هذا الأستاذ العظيم عرفت التاريخ الإسلامي واطّلت على كنوزه، وكتبت فيه، فأليه يرجع الفضل الأول وإني لأعده في الطليعة الأولى من خدام هذه النهضة الإسلامية المباركة».

وهذا ما خطّه الأستاذ السفير بعد وفاة الإسكندر النجار بضع سنوات! والذين يقرؤون آثار النجار يدهشون لسعة حرّيته وأصاله نقده وعمق تحليله، إذ كان يعمد إلى كثير من المسلّمات فيضعها تحت مجهره، وما يزال بها تقيلاً وتنقياً حتى يصل إلى حقائق جديدة، مع حميّة مخلصّة، وغيرّة ملتزمة في النظر والاستدلال. وقد ورث هذا النظر المنقّب عن الأستاذ الإمام «محمد عبده» حين كان يدرس مقدمة ابن خلدون لطلبة دار العلوم، ومن بينهم الأستاذ النجار!

وإذا كان ابن خلدون أستاذ التاريخ التحليلي، والدراسة المنهجية دون منازع، فإن اصطفاء القدر للأستاذ الإمام محمد عبده ليشرح مقدمته ويفسّر مراميه مع بُعد في الغور وسعة في الأفق، كان توفيقاً كبيراً وجّه الأستاذ النجار إلى الطريقة المثلى في دراسة التاريخ وقد تحدّث عن ذلك في بعض مذكراته حين قال:

«لقد عشقت كتابة ابن خلدون، فأصلح ذلك العشق من كتابتي وقوم أسلوبه حين أغرمت بمحاكاته، ذلك في حين الحداثة وعنفوان الشباب، وجلبت كتابته في التاريخ قراءة التاريخ حتى صار نهمة النفس، وغذاء الروح، وسلوتي في خلوتي، فقد حبّ إليّ نقد عبارات المؤرّخين، ووزن الحوادث بالبصيرة، فكل حسنة عندي

من التاريخ من عنده، كان أستاذنا محمد عبده قبل نفيه إلى بلدة محلة روح مدرّساً بدار العلوم، وكان يكلف الطلبة بدراسة المقدمة، وكان يكتب هو معهم مع مراعاة تغيّر الأزمان واختلاف الأحوال والمُلابسات بين الزمنين، فتكوّن في كتابة أستاذنا جزء عظيم من الموضوعات التي تناولها ابن خلدون في مقدمته».

على أن الأستاذ النجار كان نسيج وحده في معالجة التاريخ! إذ هدته بصيرته إلى مناقشة الافتراءات الزائفة شبهة شُبّهة في كل مناسبة تعنّ، وقد ساعده على ذلك ذاكرة نيرة تستوعب الأحداث المختلفة استيعاباً شافياً، ومن ورائها عقل مُدرك ينظّم ويرتّب، وينفي ويثبت! وما زال الباحثون يتناقلون آراءه الصائبة في بيعة أبي بكر ومقتل عمر، وحادث التحكيم وخرافة إحراق مكتبة الإسكندرية، وما خبّ فيه المغرّضون مما استطاع المؤرّخ البصير أن يجلوه أنصع جلاء! ولن نستطيع في هذه المقالات السريعة أن نلخص قضايا التاريخ التي حكم فيها ببراعة وإتقان، ولكننا نكتفي بنموذج واحد يدلّ على عشرات من أمثاله، ويرشد عن طريقة الأستاذ في البحث والتحليل.

لقد كانت موقعة الحرّة بالمدينة مما خبط فيه المستشرقون خبط عشواء، حتى قال قائلهم تعقياً على حادثها المشؤوم: «هكذا شاء القدر أن تنتصر الوثنية ولو مرة ضدّ الإسلام، تلك الوثنية التي كان ثأرها وردّ فعلها في موقعة الحرّة بالمدينة قاسياً مؤلماً» وهو كلام لا يؤيده التاريخ في شيء، وحين همّ الشيخ النجار بمناقشته ساءل نفسه عن أمور ثلاثة:

١ - هل جاءت موقعة الحرّة ارتجالاً دون تخطيط؟

٢ - هل ساق يزيد بن معاوية جنوده إلى المدينة كوثنى ينتقم من الإسلام؟

٣ - هل كان ليزيد في أعناق أهل المدينة بيعة آذنه بخلعها وطردها عامِلَه فساق إليهم الجيوش ليردّهم إلى الطاعة؟

وللإجابة على هذه الأسئلة استعرض الباحث موقعة الحرّة من ابتدائها، فذكر بيعة يزيد بالخلافة وتعدّر عامله على المدينة أن يأخذها له يشرب، ومناوأة ابن

الزبير بمكة، وتسَلَّل بالحديث - وكأنه يقصّ حكاية شائقة - فذكر عَزَلَ عمر بن سعيد بن العاص وتَوَلَّى الوليد بن عتبة ثم عزله وتَوَلَّى سواه، وما سَبَّب ذلك من أحداث تتابعت في سَرْدٍ أمين، حتى استقدم الخليفة وجوه المدينة فأرضاهم، وأخذوا ماله، ثم رجعوا ناقمين ثائرين، وبلغ النجار صميم المسألة حين يقول في براعة عن وفد المدينة:

«وهل من النُّبْلِ وكرامة النفس أن يمدّوا أيديهم إلى يزيد يتسلّمون منه العطاء وتطول ألسنتهم بالثناء عليه والدعاء له، على ما طوّقهم من مَنَّةٍ وألبسهم من كرامة، حتى إذا ولّوا مُدِيرين التَّوَت ألسنتهم عن مدحه إلى ذمّه بأبشع ما يُذَمُّ به شخص، ولم يَكْفِهِمْ ذلك حتى طاروا في حربه بأجنحة قد أنبت فيها ريشها ورموه بسهام من ماله صاغوها! وأنا أَسَلَمُ تسليماً جدلياً أن يزيد كان على الوصف الذي وصفوا، ولكني أقول إن مسألة خلع خليفة تَمَّت له البيعة في أعناق أهل الآفاق، وصار في قبضته ولايات الشام ومصر وبرقة وطرابلس والعراق، ومملكة إيران وأرمينية واليمن والحجاز، لا بدّ لَمَن يقوم عليها أن يحسب لها ألف حساب، ومن سوء التقدير أن يظنّ ظانٌّ أن الخليفة يتغاضى عن عملهم، وقد رأوا عمّاله بالأمس يحاربون الحسين بن علي سبط رسول الله، فإذا كانوا قد علموا بذلك وأرادوه فقد ألقوا بأنفسهم إلى التهلكة».

ثم يتابع الحديث التاريخي في تسلسل مطرد، فيذكر أثر انقلاب الوفد في نفس يزيد وقيام النعمان بن بشير بالسفارة وخلع الوالي وتولية عبد الله بن حنظلة، ومحاصرة الأمويين في دورهم بالمدينة، ثم زحف الجيش الشامي من دمشق، وحيلة عبد الملك بن مروان في دخول المدينة، وما كان من حرب ضروس انتهت باستباحة المدينة استباحة ظالمة قال عنها الأستاذ:

«ألم يكن حقاً ليزيد أن يجهّز جيشاً يردهم للطاعة، وقد أحسن حين أمر جيشه بالتربّص بهم ثلاثة أيام، يدعوهم إلى إظهار العافية والإقلاع عن الفرقة، ولكنه خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً إذ أمر مسلمة بن عقبة أن يقاتلهم إذا أبوا إلّا

الحرب، فإذا انتصر عليهم أباح المدينة لجنده ثلاثاً يَنْهَوْنَ ما عندهم من ذهب أو فضة أو طعام أو سلاح، ونحن نعلم أن الجندي إذا أُرخي له الحبل تَمَادَى في الطغيان، وأمعن في الظلم ومثل هذا الأمر لم يصدر من خليفة حتى في حروب الردة، فهي زَلَّةٌ كبيرة زَلَّها يزيد وليست المسألة مسألة انتقام الوثنية من الإسلام، بل مسألة ملك يريد صاحبه أن يرتق الفُتُوق، ويظهر لَمَن تحدّثه نفسه بالثورة قُوَّة بطشه وفتكه بالمخالفين».

إن محاولة تلخيص أقوال الأستاذ في معركة الحرّة تطفئ كثيراً من لآلائها الواضح، إذ أن الدفاع المحكم لا يقنع إلا بقراءته لا بتخليصه، ولكني أحاول فقط أن أشير إلى اتجاه المؤرّخ في البحث، ذاكراً أنه لم يترك القلم حتى ذكر فتويين متعارضتين عن يزيد أصدرهما الغزالي والكيّا الهراس نقلاً عن الإحياء ووفيات الأعيان! مما يؤكد سعة اطلاعه، ويدلّ على أن تصدّره لمباحث التاريخ قد اكتمل بدراسة الروافد الأخرى للثقافة الإسلامية، مما ينبغي أن يردّ مورده المؤرّخ الأمين.

فإذا تركنا التاريخ الإسلامي السالف إلى تاريخنا المعاصر فإننا نجد الأستاذ النجار قد اختطّ منهجاً سديداً في تأريخ الثورة المصرية لسنة ١٩١٩، حين كتب يومياته المعروفة بالأيام الحمراء، وقد نشرها تباعاً بجريدة البلاغ، فكان يذكر حوادث المدن والأقاليم كما يتناقلها المراسلون، سارداً ما يراه من التعقيب الكاشف والملاحظة الموجهة! والذي يقرأ ما دونه الجامعيون عن ثورة سنة ١٩١٩، يرى أكثر الكاتبيين يُسهبون في نقل الوثائق السياسية بين وزارة الخارجية الإنجليزية وزعماء الأمة من أمثال سعد وعديلي وثروت! فإذا تعرّضوا لانتفاضات القاهرة وعواصم المديرية اقتضبوا القول اقتضاباً، فهو تاريخ رسمي لا شعبي.

وقد كان اتجاه النجار مُعارضاً لهذه الرسمية الأرستقراطية في التاريخ، حيث جعل أنباء المُكافحين تسيطر على الموضوع وتوجّهه! وهي الطريقة الإسلامية التي اختطّها الجبرتي في تاريخ الحملة الفرنسية، مُقتدياً بكتب الأسلاف من

المؤرخين، وكأن الشيخ رأى بالمعيته النافذة أن ما سيكتبه الرسميون لن يتعدى السطح البارز، فحفظ كرامة التاريخ حين أعطى كل ذي حق حقه، وحفظ لكل مناضل جهاده، وقد قال قي مقدمة اليوميات: «لقد لاح لي الأمل عندما أريق أول دم في سبيل المطالبة بحرية البلد، وكنت أرى المظاهرات تفرق من قبل برش الماء على المتظاهرين، ولكن معارضة السلطة الإنجليزية لذلك الشعور الفياض قد أكسب القضية المصرية عطفاً عاماً.

- ٣ -

ألف الأستاذ النجار كتابه تاريخ الإسلام في عدة أجزاء وكتب الأيام الحمراء في مخطوط كبير نُشر تبعاً بالبلاغ، وترك مئات المقالات في صحائف اللواء والأهرام والجهاد وكوكب الشرق، وفي مجلات الرسالة والإسلام ومكارم الأخلاق والشبان المسلمين والهلال ودار العلوم والجامعة المصرية، ولكن كتاب قصص الأنبياء هو الكتاب الأول بين مؤلفاته، إذ كان فتحاً جديداً في تاريخ النبوة على مدى أجيالها منذ آدم، وقد أحيط بجدل حادّ عنيف قامت له الدوائر الرسمية بالأزهر، وامتد أثره إلى الجرائد والمجلات، ولا بدّ لمن يؤرخ الحركة العلمية في جيلنا الراهن أن يخصّ الأمر بمزيدٍ من التفصيل. ابتليت قصص الأنبياء في بحوث السابقين من المؤرخين والمفسرين بمفتريات ظالمة، ألصقتها الرواة من الروايات الإسرائيلية عن عمد، وتقبلها المؤلفون عن حسن نية، وقد استغلها الوعاظ من القصاص قديماً وحديثاً في الاستثارة والتشويق، فأضيف إليها ركام أسود، يخفي وجه الحقيقة عن العيون، ثم جاء من المؤلفين من جمع هذه الخرافات عن كعب ووهب ومن لا أدري من الرواة، فشحنها شحناً في كتاب خرافي متداول سمّاه «عرائس المجالس» وقد انتدب الأستاذ النجار لتدريس قصص الأنبياء على طلبة التخصص في الوعظ والإرشاد بكلية أصول الدين، فتصدى لأول مرة في تاريخ التحقيق العلمي التزيه إلى كشف الزيف المختلط بسير الأنبياء، وقد وضع أمامه قواعد علمية تحدّد اتجاه البحث، ولأهميتها الدقيقة في مجال التحقيق التاريخي نسردها فيما يلي نقلاً عن مقدمة الطبعة الثانية لقصص الأنبياء:

١ - إن العقل ركن المعتقدات الأول، فما أوجبه كان واجباً وما أحاله كان مُحالاً، وما أجازه كان جائزاً.

٢ - إن الخبر الوارد عن المعصوم إذا كان قطعي الثبوت والدلالة فهو حجة قاطعة على ما تضمنه، وذلك يشمل شيئين : الكتاب الكريم، والخبر المتواتر.

٣ - إذا عارض الخبر العقل وجب تأويل الخبر بما يُزيل هذا التعارض.

٤ - الخبر إذا كان رُواته أحاداً، فلا يصلح أن يكون دليلاً على ثبوت الأمور الاعتقادية، لأن الأمور الاعتقادية الغرض منها القطع، والخبر الظني الثبوت أو الدلالة لا يفيد القطع.

٥ - ما نقل عن الأنبياء مما يُشعر بكذب أو معصية، فما كان منقولاً بطريق الأحاد سواء بلغ حد الشهرة أو لا فمردود لأن نسبة الخطأ للرواة أهون من نسبة المعاصي للأنبياء.

٦ - ما نقل مما يُشعر بكذب أحد الأنبياء أو معصيته وكان النقل متواتراً فما يمكن صرفه عن ظاهره صُرف إن أمكن، وإلا فيُحمل على أنه ترك الأولى أو قبل البعثة.

٧ - المعجزات لا تثبت بخبر الأحاد، لأن المطلوب فيها اليقين، وخبر الأحاد لا يقين فيه.

٨ - إنكار المعجزة الثابتة بنص قطعي الثبوت والدلالة كفر.

٩ - الإسرائيليات لا حرج في مخالفتها، ولا في إنكارها جملةً وتفصيلاً.

١٠ - كتب العهد القديم والجديد ما كان منها موافقاً للقرآن فهو حق، وما كان منها مخالفاً للقرآن فهو باطل، وما كان القرآن ساكتاً عنه فلا نقطع بصدقه أو كذبه، ويجوز نقله والاستئناس به.

١١ - أقوال المفسرين ليست حجة قاطعة فيما نصّت عليه بل هي أوجه، كما يجوز حمل القرآن عليها يجوز مخالفتها، وحمل عبارته على غيرها، ولا مؤاخدة على من خالفها.

١٢ - القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، ولا تنفذ غرائبه فلكل امرئ أن يتدبره بعقله، ويفهمه على الوجه الذي يستقرّ في اعتقاده، بشرط أن يكون ذلك جارياً على مقتضى العربية غير مُجَلّ بفصاحته، ولا مُجَلّ بشيء من مقاصد الدين. ثم ختم هذه القواعد بروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل وعن شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال الأول: «ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي». وعنه أيضاً أنه متى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض. وحيث قال الثاني: «ما نقل عن الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين».

هذه هي الأصول التي ارتكز الأستاذ عليها في تحقيقه ولا بدّ لمن يضع هذه القواعد المتزنة أن يخالف بعض المُشتهر من روايات كعب ووهب، أو أن يُوهن خبر آحاد لم تثبت صحته، أو أن يجد من الأسباب الوجيهة ما يُثبت به حدّثاً لم يشتهر ثبوته، وكلّ ذلك حقّ لا مريّة فيه، ولكن الكتاب يدرس في إحدى كليات الأزهر، ولمؤلفه الكبير نفّذة لا ينحون منحا فآقاموا الضجيج الصاخب، ورفعوا الأمر إلى شيخ كلية أصول الدين الأستاذ «عبد المجيد اللبّان» فبادر بتشكيل لجنتين علميتين لقراءة الكتاب ونقده، فقامت اللجنتان بمجهود كبير حيث نشرتا تقريرين يتضمنان بعض المآخذ! وكان جميلاً من الأستاذ النجار أن يثبت التقريرين في الطبعة الثانية وما وليّها من كتابه، ثم يعقب على كل مأخذ بما يدحضه دحضاً لا شُبّهة فيه، وقد كان الأساس المقرّر لدى الناقلين أن آراء السلف لا تقبل التعديل، وأن ما ذكره النجار يبعد في بعض اتجاهاته عمّا دُوّن في كتب الأقدمين!.

وإذا كان النقد قد تشعب فشمّل أكثر من ستّ عشرة نقطة علمية فإن محاولة تلخيصها نقداً وردّاً مما لا يتسع له هذا المقال وكيلا نحرم القارئ من الوقوف

على منهجين متعارضين في التفكير العلمي ، فإننا سنجتزئ بمثال واحد يشير إلى المنحى الذي يتجه إليه كلا المتناظرين ، ومن شاء أن يستزيد فلديه كتاب «قصص الأنبياء» في طبعاته الثانية والثالثة والرابعة ، حيث اتسعت هوامشه لتسجيل النقد ونقضه ، وإنها لمتعة فكرية رائعة يحرص عليها من يعشقون تصاول الآراء وتصارع العقول .

حين ألمّ الأستاذ النجار بقصة إبراهيم عليه السلام تعرّض إلى ما نقله الرواة عن انتقاله إلى مصر في عهد ملوك الرعاة المعروفين بالهكسوس ، وما كان من طمع الملك في زوجته سارة ، وادّعاء إبراهيم عليه السلام أنها أخته ، كي يسلم من أذاه ، ثم نقل المؤلف رواية التوراة ليتولّى تنفيذها بوجوه عقلية استقامت من منطق ، ولم يشأ أن يذكر ما لم يثبت لديه من الأحاديث النبوية المُشيرة إلى ذلك ، ليكون التنفيذ لقول التوراة وهو صنيع يتمشى مع خطة المؤلف في عدم الركون إلى أحاديث الأحاد .

ولكن اللجنة الناقدة رأت في تجاهل هذه الأحاديث زللاً خطيراً ، فأفاضت في تسطيرها برواياتها المختلفة كما تناثرت في كتب الحديث ، وكان أول ما بدأت به رواية أبي هريرة عن رسول الله أنه قال : «لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قطّ إلا ثلاث كذبات ، ثنتين في ذات الله ، قوله إني سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وواحدة في شأن سارة ، فإنه قدّم أرض جبار ومعه سارة ، وكان أحسن الناس ، فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام ، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيرك وغيري .

فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه ، فقال له : لقد قدّم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك ، فأرسل إليها فأتي بها ، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة ، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده عليها ، فقبضت يده قبضة شديدة ، فقال لها : ادعي الله أن يُطلق يدي ولا أضرك ، ففعلت ، فعاد

فَقُبِضْتُ، فقال: ادعي الله أن يُطْلَقَ يدي فلك الله ألا أضرك ففعلت فأطْلَقَتْ يده، ودعا الذي جاء بها، فقال: لقد أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي وأعطتها هاجر».

وأفاضت اللجنة في ذكر روايات مُشابهة لرواية أبي هريرة مُنْكَرَة أن يغفلها الأستاذ، ويعمد إلى رواية التوراة (مع أنه عمد إليها ليفندها) ثم شاءت أن تلمس لذلك بعض التعليل فرأت الأمر لا يخرج عن أربعة احتمالات:

١ - أن يكون المؤلف لم يقف على هذه الأحاديث، مع أن ذلك - في رأي اللجنة - مُسْتَبْعَد من أستاذ فاضل يدرس في كلية أصول الدين لَطَلَبَة الوعظ والإرشاد.

٢ - أن يكون قد وقف عليها ورأى فيها مطعناً يخرج بها عن دائرة الاحتجاج، ولو صحَّ ذلك لوجب - في رأي اللجنة - أن يذكر مطعنه الناقد بأدلته.

٣ - أن يكون قد وقف عليها ولم يعلم فيها مطعناً غير أنه لا يراها مما يتخذ مصدراً للأحداث التاريخية.

٤ - أن يكون قد وقف عليها ولم يعلم فيها مطعناً غير أنه قد سَهَا عن ذكرها.

وقد استعرض المؤلف هذه الاحتمالات، وذكر في الإجابة عليها أنه يعرف هذه الأحاديث، ويعلم أنها تسند الكذب إلى نبيِّ كريم، وهو أمر يمسُّ العقيدة، وقد قال صاحب الفتح ج ٨ ص ٤٣١: إن الأحاديث إذا كانت في مسائل علمية يكفي في الأخذ بها بعد صحتها إفادتها الظنَّ، أما إذا كانت في العقائد فلا يكفي فيها إلّا ما يفيد القطع متناً وسنداً.

وعلى ذلك فلا تصلح تلك الأحاديث أداة لتقرير اعتقاد كذب إبراهيم لوجوه كثيرة استطرد في ذكرها المؤلف، ناقلاً ما يدلّ على صدق إبراهيم من مثل قول الله: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً﴾ [سورة مريم: ٤١]، ومثل قوله: ﴿إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه

اجتباؤه وهذاه إلى صراطٍ مستقيم ﴿ [سورة النحل : ١٢٠] ، ومعقِّباً عليها بآراء الثقات من المفسرين .

وانتقل إلى القاعدة العلمية التي تُوجب ردّ الحديث إذا كانت روايته آحاداً وفيه نسبة المعاصي أو الكذب إلى الأنبياء مسجلاً ما ذكره العصام في شرح العقائد النسفية ، بعد أن ذكر وجوب اتّصاف الأنبياء بالصدق حيث قال : «إذا تقرّر هذا فما نُقلَ عن الأنبياء مما يُشعرُ بكذب أو معصية ، فما كان منقولاً بطريق الآحاد فمردود ، وما كان بطريق التواتر فمصروف عن ظاهره إن أمكن ، وإلاّ فمحمول على ترك الأولى ، أو كونه قبل البعثة» .

وبعد أن نقل ما يُشير إلى ذلك عن بعض حواشي العصام آيد رأيه بما ذكره العلامة السبائكوتي في شرحه على العقائد العضدية ص ٢٠٣ بما لا يخرج عمّا ذكره العصام في المعنى ، وإن اختلفت الألفاظ ، ثم رأى أن يأتي بالقاصمة لقوم يتمسكون بالنقل ، ويعدّونه الحجّة الأولى في مناقشة الرأي فذكر ما سجّله الفخر الرازي في تفسيره الشهير ، حيث قال عن إبراهيم : «أما قوله لسارة أنها أختي فالمراد أنها أخته في الدين ، وإذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء عليهم السلام فحينئذٍ لا يحكم بنسبة الكذب إليهم إلاّ زنديق ، ثم جهر الفخر برّد الحديث ونسبه إلى بعض الحشوية ممّن يخطّون في الرواية خبط عشواء ، وكأن الأستاذ النجار قد اغتبط بمظاهرة الفخر إياه ، فقال تعقيباً على ردّه الحديث ص ٩٢ ط ٤ ما نصّه :

«إن لي سلفاً في ردّ الأحاديث الناطقة بكذب إبراهيم - نزّهه الله عن ذلك - وهو الفخر الرازي وقد حاول حضراتهم أعضاء اللجنة - الحطّ من هذا القول ، لأنهم متى زيّفوا الفخر الرازي فقد زيّفوا قولي ، وأكبر ظنيّ أنهم لو لم يجدوا كلام الفخر الرازي مُطابقاً لما أوردته لَمَا خطر ببالهم هذا الخاطر وآية ذلك أنهم يعلمون أن الفخر الرازي قد قال ذلك قبل أن يصدر كتابي ، ومع ذلك فلم تنشط بأحدٍ منهم همّة إلى الردّ عليه كيلا تضلّ الأمة بقوله» ! .

هذا مثال موجز لنقاش علمي شمل نقاطاً هامة تدور حول سير النبيين، ولعل من بركة هذا النقاش أن مضى بالكتاب إلى آلاف القراء من غير المتخصصين، فتعددت طبعاته، وظهر تأثيره فيما كُتب بعد ذلك عن قصص الأنبياء، إذ كان أول كتاب يركل الإسرائيليات الكاذبة بقدمه، ويقدر نعمة العقل البصير فيجعله صاحب القول الفصل فيما سكت عنه النص القرآني والحديث المتواتر، وإذا كان كل أثر علمي متحرر لا يعدم المعارض والمؤيد فقد سجل المؤلف في مقدمة الطبعة الثانية موقف القراء من كتابه فجعلهم فريقين: فريقاً مستثيراً قرأ فاقنع وبارك وقرظ، وفريقاً مغرضاً قرأ فتجهم وثار وأزبد، وتلك سنة الله في خلقه، إذ لو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ثم ختم كتابه بقوله عن أعضاء اللجنة الناقدة:

«إني لا أنكر أن لهم فضلاً عليّ في توجيه أنظار العالم إلى الوقوف على كتابي، ولهم الفضل عليّ لأنهم بتقريرهم هذا قد حفّزوني إلى المطالعة والدرس، فازددت رسوخاً في كل المعاني التي أوردتها في كتابي، ووثوقاً بما ضمّنته ذلك الكتاب».

ولنا أن نختم الحديث عن الأستاذ النجار بما يطبع أسلوبه الكتابي من ميزة قل أن توجد في أسلوب غيره، ونعني بها كثرة استشهاده بالأمثلة السائرة والآيات الذائعة، والحوادث التاريخية مما يدل على سعة اطلاع وحضور ذهن، وذلك بعض ما قرّب حديثه ومقاله من النفوس.

وأذكر أن الأستاذ «محمد خلف الله» كان قد خصّ «أبا الفرج الجوزي» بحديث تحليلي أثبت فيه براعته الفائقة في تصيّد النوادر وجمال الاستشهاد، وحسن المحاضرة وامتلاء الذاكرة بأطياب المفاكهات، وروائع القصص، وشوارد الآيات، ثم قرنه في ذلك بالأستاذ «عبد الوهاب النجار» الذي يجمع خصائص ابن الجوزي جمعاً جذب إليه كثيراً من المريدين وجعل حديثه فاكهة المجلس، ومحاضراته ريحانة الأندية! ونحن نحمد الله أن جعل الزمن لا يضيّن بأمثال هذه

النواذر الرائعة مهما باعدَ ما بينها كثيراً في حقبه المتطاولة ولكنه يسمح بها من جيل إلى جيل لتكون روحاً ورحمةً للعالمين . . .

أحمد حسن الزيّات فقيه البيان العربي والأدب التوجيهي

- ١ -

تعتبر السنوات المباركة التي ازدهرت بها «مجلة الرسالة المصرية» من أقوى فترات النهوض في أدبنا المعاصر، حيث استطاع صاحب الرسالة أن ينبّه العيون المتطلّعة إلى مشرق ساطع من مشارق البيان العربي، وقد جمع حوله من أعلام الفكر العربي في مصر والأقطار الشقيقة من بلغوا الاتفاق الكامل والقدرة الضليعة على إرسال القول صائباً سديداً، هادفاً حياً ملهماً موحياً بحيث أصبح مشتهى النفوس، ومطمأن الأرواح وبحيث صارت الرسالة دوحة الأدب الزاهر، ومورد العقول الصافي، وهي بذلك كله كانت رسول النهضة، ورائد الإصلاح!

كان الأستاذ الزيّات في إدارة مجلته كالمعلّم في حُجرة دراسته فهو يفترض نفسه أستاذاً يقوم بتصحيح ما يقدّمه للقرّاء، وكان له مع زملائه الكبار مناقشات كثيرة حول ما يبعثون به إليه، إذ لم يكن يعتمد على الصّيت المدوّي، والشُّهرة الذائعة في تيسير النّشر، وتقبّل ما يكتب على غير وجهه، وقد اشتكى «زكي مبارك» في حديثه ذي الشجون من رقابة الزيّات، وأعلن أن صنيعه معه يذكره بعهد التلمذة في الصفوف الابتدائية والثانوية غير أن سلوك الزيّات، وطريقته في الاسترضاء، وابتسامه الهادي لدى النقاش، مع وضوح الحقّ في جانبه؛ كلّ ذلك مما كان يهون من رقابته.

وقد شاهدته ذات مساء بدار الرسالة يقدّم مقالة إلى كاتبها، وهو أديب مرموق، قائلاً في ابتسام وديع: يا أخي أنت تكتب مقالك للرسالة في الظهيرة بعد إجهاد العمل اليومي، وأنا أريد أن تُعيد كتابته في هدأة الليل، أو في مشرق الصباح! وقد تسلّم الأديب المرموق رسالته راضياً غير غاضب ثم انبرى الزيات ليقول لنا جميعاً: إنه ينقد مقالاتي بأسلوبه الناري، فأنا أعبثه يا قوم! وكأنه بذلك في سياسة الأدباء يسلك مسلك الدبلوماسي الرقيق.

كانت الفترة التي ازدهرت بها الرسالة من أقوى فترات النهوض في أدبنا المعاصر، لأن الزيات ممّن يعرفون حدود المقالة الناجحة، والبحث العلمي الموفق، والقصة الكاشفة، والقصيدة الملهمة، والنقد الهادف، يعرف حدود هذه الأجناس الأدبية ليطبّقها على ما يقد إليه من الأدباء، فهو لا يرحّب بالمقالة التي تتسع مقدمتها، ويضيق عرضها، وتُخفى خاتمها، فإذا سأله عن رأيه فيما أهمل أجاب بكل ذوق ورفق.

وهو لا يرضى بالبحث المبسر، الذي يقتصر على الجمع الحاشد دون أن يضيف الجديد أو يجنح إلى التحليل والموازنة، أو يغفل الأهم من المراجع والأسانيد، ثم هو لا يهشّ إلى كلّ من القصة أو القصيدة أو النقد إذا انخفضت نماذجها إلى مستوى الشادين، إذ يصرّح في كل مناسبة أنه لم يجعل صحيفته ميداناً للتمرين، وإذا كان لا يستطيع أن يشجّع الضعيف، فهو في الوقت ذاته لا يُجامل القوي.

أذكر أنه قرأ ذات صباح بحثاً أدبياً حمّله البريد، فكان ضائقاً برماً بمستواه، ثم رماه جواره في فتور، وقد زاد عجبني حين تقدّم به إلى المطبعة لينشر، فسألته: عن ضيقه وبرمه، فقال في هدوء: الموضوع ركيك العبارة قليل التماسك، ولكنه يُحيي ذكرى أديب مغمور، ويرشد إلى بعض المراجع عنه، وفي نشرة - على ما به - إشارة بإنسان منسي، ولعل قارئاً ناضجاً، يتبّع مراجعه ويقوم بدراسة أخرى لصاحبه، وذلك ما يصادفني كثيراً، ثم مضت الأيام، فتلقّى الأستاذ بحثاً جيداً في

الموضوع ذاته، فلم ينسَ أن يذكرني بما كان، وأن يشفع ذلك بقوله الهاديء: ألم أقل!.

وثانيةً أذكرها عن نفسي، فقد بدأت أنشر مقالاتي بمجلة الرسالة، وأنا طالب، وكان الأستاذ يفسح في وقت سريع لي مكاناً طيباً قبل أن أشرف بمعرفته الشخصية، ثم دفعني الشوق إلى زيارته، فتلقاني لقاءً كريماً، وحادثني مؤناً مُلاطفاً، ولكنني حين أرسلت إليه بعض المقالات عقب هذا التعارف رأيته يتباطأ في نشرها - على غير ما كان - بحيث لا يظهر المقال إلا بعد أربعة أسابيع أو ثلاثة، فأرسلت له خطاباً عاتياً، أصرّح فيه أن تعارفنا كان وبالأعلى، وما كاد الخطاب يصل إلى يده، حتى طلبني من الكلية بالهاتف، وقال في مُلاطفة: يا أخي أنت من الآن صديقي فأنا أرجئك واثقاً من رضاك، أما غيرك ممّن لا أعرف فلا يتحمّل الإرجاء، وقد فرحت بمحادثته فرحاً لا يحدّ، لأنه تنازل فمنح الطالب الصغير صداقته، وهي ما هي!.

وإذا كانت الرسالة قد رزقت حظوة واسعة في الذبوع والانتشار، فذلك لم يكن محض المصادفة ولكن صيحتها العالية قد جذبت إليها الأنظار، إذ كانت لساناً قوياً من ألسنة الحق في دنيا الباطل، حيث ظهرت في فترة شائثة، تبلبلت الأفكار واختلطت معايير القيم، فانطلق المستغربون يشوهون لغتهم وتاريخهم ودينهم ببعض ما ينقلونه عن أوروبا من المُفترّيات، وصار التنكّر للعروبة والإسلام حلية يدّعيها المغرورون من ذبول الغرب وأتباعه، حتى أصبح الإلحاد في مصر إذ ذاك دليل التحرّر واليقظة، وصار الإعجاب بالتراث العربي آية التأخر والجمود.

وكم برزت الصّحف المُرية لتشر قصص الخلاعة، ولتنصّر نزوات الإسفاف، ولتشيد «بيرون وإسكار وايلد وبودلير وفلوير وجيد ولورنس»، كأعلام للفكر، وكقِمَم عالية ترصد على بُعد ولتجعل من التراث العربي القديم مهزأة العابث، ومتهكّم اللاعظ، وتلك ظلمة طال ليلها، واشتدت حوالكها حتى كادت تطمس العيون! لولا أن أذن الله فظهرت الرسالة.

لا ننكر أن الحق لا يعدم أنصاره في كل زمان ومكان، فقد ثابر - من قبل الرسالة - الصفوة المختارة من أعلام العقيدة في الدين، وأرباب البلاغة في الأدب، وأصحاب الأدلة في الحجاج «كمصطفى الرافعي ومحمد لطفي جمعة ومُجَبِّ الدين الخطيب وشكيب أرسلان وفريد وجدي ومحمد أحمد الغمراوي ومحمد الخضر حسين» على مُنازلة هؤلاء المغرورين المخدوعين، وكانت الصّحف اليومية الطاهرة والمجلّات المؤمنة الهادفة ميدان جهادهم الشريف، ولكن ذلك كله كان في حاجة إلى صحيفة قوية ممتازة تضيف عناصر جديدة إلى الصفوة القديمة من المُدافعين، وتؤلّف بين ذوي البصائر المُنيرة، لتدفع بهم إلى الميدان في قوّة وإيمان، وقد شاء القدر أن يكون «أحمد حسن الزيّات» صاحب هذه الرؤية المنتظرة التي وُحّدت الكتاب، وجمعت الصفوف وشقّت طريقها إلى الميدان.

نشأت الرسالة - في تقدير صاحبها ومَن حوله من جماعة التّأليف والترجمة والنشر - لتقاوم طغيان السياسة بصقل الطبع، وبهرج الأدب بتثقيف الذوق، وحيرة الأمة بتوضيح الطريق، وجعلت مبدأها ربط القديم بالحديث، ووصل الشرق بالغرب، كما ذكر ذلك «الزيّات» في افتتاحية العدد الأول منها، ومَن يتأمّل هذه الأغراض، يجد أن الإسلام لم يُشر إليه صراحة في منهج العدد الأول، فكيف صارت الرسالة لسانه الناطق في أكثر ما عالجت من أبحاث، ونشرت من نقود، وأقامت من معارك؟.

هنا يتحمّ الإفاضة الصريحة في علاقة الأدب العربي بالإسلام كما صوّرتها الرسالة تصويراً حقيقياً، تنطق به التجربة الملموسة في مجلداتها الأربعين، لا كما حاول بعض المخدوعين أن يلووا ألسنتهم بالقول المُنحرف، إذ يزعمون أن الأدب العربي شيء لا يتّصل برسالة الإسلام! وأن الأدب أدب، والدين دين.

لقد كان القرآن بلغته العربية العالية، كتاب البيان الأول في أدب العرب، فرسم للصياغة الراقية في بلاغتنا العريقة أعظم أسلوب وأرقاه، وصار متأدّبوا العرب منذ أشرقت شمسهم يرجعون إليه دارسين مستفهمين، يرون طريقته في الأداء

والتصوير والحوار والإقناع أعلى ما يتطلّع إليه عيون المتأملين، ولم يقتصر أثره على النشر بل انتقل إلى الشعر، فجملته بالنصاعة والروعة والتماسك والإيحاء، ودارت الأيام بعد الأيام، وأسلوب القرآن يعطي النمط الأمثل للتعبير في الأدب العربي، حتى اضطر أدباء العربية ممّن لا يدينون بالإسلام إلى الوقوف عند روائعه، واستظهار كثير من آياته، وما نبغ أديب في القديم والحديث إلّا كان القرآن أعظم روافده، وأشهر موارده.

هذه حقيقة جليّة، ظلّت معتقد الناس في سالف العصور، حتى نبتت في مطلع هذا القرن نابتة خاسئة، نهلت من كتب الغرب ولقنت أراجيف الاستشراق، فأخذت تنتكر للبلاد والبيان، وترى الديباجة الناصعة والأسر القوي آثاراً متحفية تعرض ولا تشتري وتقرأ ولا تحتذى، ثم فاض بها الضغن الكريه فأعلنت أن الأدب العربي شيء والقرآن شيء! ورأت من ذبول الأدعياء من ناصرها بالباطل، فألّف الكتب المغرضة، وأنشأ المقالات الزائفة، ليرجع بالعربية إلى لغة الحديث المتساهل، وليحيلها ترجمة شوهاء لا شرقية ولا غربية!.

ظهرت الرسالة وكان هدفها الأدب وحده كما سبق القول، ولكن استقامة صاحبها على النهج السوي كانت ردّاً عملياً، وتجربة دافعة تقول لهؤلاء الأغرار: إن لغة الأدب لدى الأصلاء هي لغة الدين، وأن أهداف البيان الحق هي أهداف الإسلام، وأن الرسالة لسان الإسلام، لأن أدبها صريح النسبة إلى العرب، وأهدافها قوية الصلة بالحق، وهكذا يتحتم أن يتعانق الأدب العربي الحي مع الإسلام الصريح لغةً وهدفاً وتوجيهاً، فإذا وُجِدَت مجلّات أدبية - كالتّي تظهر وتغيب غير مأسوف عليها - تنتكر للقوة والرصانة والبلاغة فهي برّاء من الفن، خواء من التأثير، وقصارى أمرها أن تكون ترجمة عن إحساس مزور، تُساق إلى من لا يشعر به فيرمي بها إلى المهوى السحيق!.

يقول نابغة البيان العربي الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في مقاله «الجملة القرآنية» في كتابه «تحت راية القرآن» ص ٢٤ ط ٤:

«وإذا أنا تركت الجملة القرآنية وعربيتها وفصاحتها وسُمُوها، وقيامها في تربية الملكة، وإرهاف المنطق، وصقل الذوق مقام نشأة خالصة في أفصح قبائل العرب، وردّها تاريخنا القديم إلينا حتى كأننا فيه، وصلتنا به حتى كأنه فينا، وحفظها لنا منطق رسول الله ﷺ ومنطق الفصحاء من قومه، حتى لكان ألسنتهم عند التلاوة هي تدور في أفواهنا، وسلانقهم هي تقيمنا على أوزاننا، إذا أنا فعلت ذلك ورضيته، أفتراني أتبع أسلوب الترجمة في الجملة الإنجيلية، وأسِفُ إلى هذه الرطانة الأعجمية المعربة، وأرتضخ تلك اللكنة المعوجة، وأعين بنفسي على لغتي وقوميتي، وأكتب كتابة تُميت أجدادي في الإسلام ميتة جديدة، فتقلب كلماتي على تاريخهم كالذود يخرج من الميت ولا يأكل إلّا الميت، وأنشئ على سُنتي المريضة نشأة من الناس يكون أبغض الأشياء عندها هو الصحيح الذي كان يجب أن يكون أحبّ الأشياء إليها».

وما عناه الرافي في قوله، وما جاهد في سبيله طول عمره، هو ما قام به الزيات منذ أصدر «الرسالة» فجاءت مجلة البيان الرفيع، تشعّ بنور الإسلام، وتهتف بأمجاد الشرق، وتُحيي آثار السلف الصالح من الآباء والأجداد...

نشأ الأستاذ الزيات نشأة دينية خالصة، فحفظ القرآن والحديث، وتعلّم في الأزهر على كبار شيوخه، وقد لا يعلم بعض قرائه أنه كان يحفظ القرآن بقرآته المختلفة، ويُطيل النظر فيما بينها من اختلاف في اللهجات والإعراب والوقوف، وكان مجلسه في بعض مناحيه مجلس لغة ونحو وصرف وفقه لغة!، حتى أنك لتعجب من تعمّقه العميق في هذه الدراسات العلمية، وهو الكاتب الفنّان ذو الأسلوب الموسيقي والتصوير الشعري!.

هذه الدراسة الجادة المستأنية لأساليب اللغة قرآناً وحديثاً ونظماً ونثراً، ولقواعدها نحواً وصرفاً وبلاغةً وتجويداً وقراءات، قد طبعت «الزيات» بطابع جزل أصبح به أمير البلاغة العربية في عصره غير مدافع. وأن كتابه الشهير «دفاع عن البلاغة» قد صوّر مذهبه في البيان تصويراً رائعاً ملك إعجاب دارسيه!.

ولعلّ مصدر هذا الإعجاب أن المؤلف كان يمتاح من خاطره، ويرجع إلى نفسه فلم يكن يُطيل الاستشهاد ويُسرف في النقول، ليقول قد قرأت وقد درست، إنما كان يدعم النمط البياني الذي يتخلّله في نفسه ويصوّره في تأليفه، ويدعو إليه في رسالته! وأن حديثه عن الصدق والذوق والتعبير والتصوير والإقناع ليجبر قارئه على استعادته وتلخيصه، ومحاولة تطبيقه إن كان ممّن يعشقون الأنماط العالية في دنيا البيان، وهكذا تربّى الزيّات في مهاد الدين ثم نهل من ينابيع البيان الأصيل، وتسلّح بثقافة العصر، وآلم بأدوائه وعِلّله فأشرق قلمه بما ألهم، وفاض خاطره بما استوحى فكان ذلك كله وحي الرسالة في معرضه البديع!

طلعت الرسالة على القراء بما يعشقون من أدب، ويؤثرون من اتجاه، وقد جذب طابعها الإسلامي إليها آلاف القراء فكانت ردّاً حاسماً على الذين يُسيئون الظن بتراث السلف، وأدب الأقدمين، وقد عملت على إحياء الذكريات الإسلامية في كل موسم فهي تتحدّث في محرّم عن الهجرة في عدد خاصّ يجلجل في دنيا العروبة جلجلة رنانة، إذ يجمع أعيان البيان على طريق الدعوة الإسلامية!!

وقد نظر القراء فوجدوا للإسلام أدباً حياً يقدّمه «المراغي والعقّاد والمازني وشكري وشلّتوت والمغربي والزيّات والرافعي وعبد الوهّاب عزّام والعبادي وأحمد أمين والغمراوي والبشري والخولي ومصطفى عبد الرزاق» وأمثال هؤلاء الأفاضل في عدد ممتاز يصدر في مطلع كل عام هجري، متحدّثاً عن مباحج الماضي ومآسي الحاضر، وأحلام المستقبل، حتى اضطر بعض الكُتّاب إلى الجري في ميدان الرسالة الديني ليكونوا مع الرّكب، ويكفي أن تعلم أن الفصول الأولى من كتاب: «على هامش السيرة» للدكتور «طه حسين» قد ظهرت في الرسالة قبل أن تجمع في كتاب!

هذا الاتجاه الرائع إلى تصوير أمجادنا الزاهرة قد كان بعض مذاهب الرسالة، إن لم يكن أفضل مذاهبها، وبه أصبحت مجلة «الزيّات» مهوى النفوس، ومشتهى القلوب في ربوع العربية وديار الإسلام، وكان «الزيّات» ربّانها الماهر يسير بها وسط الأعاصير الهوج إلى المرفأ الأمين في بقطة وإيمان.

رفع الزيات النثر العربي في عصرنا الحاضر إلى مستوى الشعر الراقص المصوّر لأدقّ العواطف، وأرقّ الخواالج، فكانت افتتاحيات الرسالة مسرحاً من مسارح الفن الرفيع، ونمطاً من أنماط البيان المصنّى، فهي تُقرأ وتُستعاد مثني وثلاث، لأن القارئ يجد في استعادتها من ألوان البهجة وأفنان المتعة، ما يجده في اللحن الموسيقي إذا تكرر، والصوت الملائكي إذا تردّد فأنت تصغي لما تكرر دون سام، وأنت تقرأ ما قرىء دون ملال.

كان قرّاء الأدب العربي في شتى أقطاره الشقيقة في حاجة إلى شاعر إسلامي عربي، يهتف بالآلام والأمال، وكان «أحمد محرم» هو ذلك الشاعر، لولا أن قصائده البديعة كانت تنحصر في الصحف اليومية، فتكاد تكون وقفاً على مصر، ولكن الرسالة الأسبوعية ديوان العرب المشترك، وسجلّ الأدب الحديث في الشرق، فهي تشرق مع الشمس في كل مكان، وقد حمل «الزيات» رسالة الشاعر في إلهاب العواطف وإمتاع المشاعر فتحذّر على قيثارته أعذب نغم، ورنّت أوتاره بأشجى غناء!

لقد كان «أنطون الجميل» رئيس تحرير «الأهرام» يحرص على قراءة الافتتاحيات بالرسالة كل أسبوع، ويعقب ذلك - دائماً - بمحادثة تلفونية للزيات تحبذ وتقرب، وقد قال ذات مرة لجمع من الشعراء في ندوة الأهرام: لقد عهدنا الشعر مما يتناول في المحافل والأوراق، فجاء الزيات ليخفض رأس الشعر في حضرة النثر البليغ، ومهما تكن المبالغة قد وجدت سبيلها في قول «الجميل» فإنه يُعبّر عن إعجاب صادق بنمط من النثر الرائع زاحم الشعر وعارضه، إذ قام برسائله في التصوير والتأثير فوق ما يتضمن من جلال الفكرة وسموّ الاتجاه.

كان الزيات ناقدًا دارسًا كما كان كاتبًا بارعًا، وقد ذكر في دفاعه عن البلاغة: أن الفكرة والصورة في الأسلوب كُلٌّ لا يتجزأ ووحدة لا تتعدّد، وليس أدلّ على اتحادهما من أنك إذا غيّرت في الصورة تغيّرت الفكرة، فقولك: أعنيك غير قولك

إياك أعني، كما ذكر أن الأسلوب خلق مستمر ليس هو المعنى وحده أو اللفظ وحده، وإنما هو مركّب فني من عناصر مختلفة يستمدّها الفنّان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه، تلك العناصر هي الأفكار والصور والعواطف، ثم الألفاظ المركّبة والمحسّسات المختلفة.

وخلص من ذلك كله إلى أن الأسلوب الفني يتكوّن من الصورة والفكرة، كما يتكوّن الماء القراح من الهيدروجين والأكسجين وكما استحال في فنّ الطبيعة أن يتكوّن الماء من إحدى عنصريه فقد استحال في فنّ الإنسان أن يتكوّن من الأسلوب إحدى جزئيه.

وفي ضوء ما قرّر «الزيّات» في أحكامه، تجلّى أدبه الرائع يطير بجناحين من الفكرة والصورة، وقد خدع بعض الأغرار فعّدوه من أرباب الصناعة اللفظية لاشتهاره بجودة الصقل وتنوع الموسيقى وبشاشة اللفظ. وقارئ الزيّات الناضج يلمس اعتساف ذلك الرأي وخطأه، فمكان الفكرة في أدبه ممهّد مبسوط، ولكنه يعرضها في ثوب رائق شفاف! أفيكون ذلك الرونق الزاهي، مدعاة نقد ظالم يحيد عن الإنصاف؟!.

لقد تميّز الزيّات بطابعه لا فيما ألّف ناقلاً عن إحساسه الخاص، بل تعدّى ذلك إلى ما تُرجمَ مُصوّراً أحاسيس سواه فأنت تقرأ مترجمات الزيّات في قصة «رفائيل وفي آلام فرتر» وفي مجموعته الخاصّة بالأدب الفرنسي، فتجد روح الزيّات بارزة واضحة دون أن يخيس ذلك بصدق الأصل، ودقّة أدائه إذ لا يكتفي بالترجمة الحرفية حين يُعرب، بل ينقل الروح الأدبية في النص الأوروبي إلى روح تماثلها في النص العربي، ونستطيع أن نختر من ترجمته «لشاتوبريان» عن كتابه «عبقريّة المسيحية»، ما يقدّم المثل المنشود، فقد تحدّث الكاتب الفرنسي عن عظمة خالق الكون فحلّق، ثم نقل الزيّات حديثه الرائع إلى اللغة العربية، فشاركه الروعة والتحليق، وإذا كان مؤلّف «عبقريّة المسيحية» عند نقاد فرنسا أمير الشر هناك، فمترجمه العربي لدى المُنصّفين من النقاد أمير الشر هنا، وإليك ما قال «شاتوبريان» مترجماً عن الزيّات:

«إن ذي الكون إلهاً تقدّسه أعشاب الوادي، وتمجّده أدواح الجبل، وتسبح بحمده الحشرة، ويُحيّيه في الصباح الفيل، ويغرّد به على الغصون الطير، وتبرق بقوّته الصاعقة ويدلّ على سعته البحر، والإنسان وحده يزعم أن ليس في الكون إله، كأنه لم يرفع بصره إلى السماء في بلائه، أو لم يخفض نظره إلى الأرض في رخائه، وكأن الطبيعة بعيدة عن تناوله، وخارجة عن تأمله.

لعله يعتقد أنها أثر من فعل المصادفة، ولكن آية مصادفة استطاعت أن تُرغم مادّة نافرة عصيّة على هذا النظام الكامل المحكم؟.

إن في أمكانك أن تقول إن الإنسان فكرة الله المُعلّنة، وأن العالم مخيلته المُحمّسة، وأن الذين قبلوا أن يكون جمال الكون دليلاً على قوّة الإدراك وسموّ البصيرة كان يجب عليهم أن يلاحظوا شيئاً تعظم له كرة العجائب، وتزيد به بدائع الخلق ذلك أن ما ينوّع زخرف الدنيا، وجمال الوجود، من الحركة والسكون، والظلام والنور، وتوالي الفصول، وسبوح الكواكب ليس تعاقبه إلّا في الظاهر، أما في الواقع فكلّ شيء ثابت فالمشهد الذي يُمحي من عيوننا، يشرق في نظر قوم غير قومنا إنما يتغيّر الناظر، أما المنظر فهو باقٍ على حاله، وهكذا يجمع الله في صنعه بين البقاء المطلق والدوام المتجدّد، فوضع الأول في الزمان والثاني في المكان، وجعل بالدوام المكاني جمال الكون ثابتاً غير محدود، وجعله بالدوام الزماني متكاملاً غير مُتناهٍ، وبدون هذا لا يكون تنوّع الطبيعة، وبغير ذلك لا تتمّ عظمة الخليفة».

هذا بعض ما نقله صاحب الرسالة عن «عبقريّة المسيحية» «لشاتوبريان»! وقد عارض الكتاب الفرنسي بكتاب عربي أتمّه الأستاذ «الزيّات» قبل وفاته بأيام أسماء «عبقريّة الإسلام» وأخاله سيظهر للقراء عن قريب، ونحن لا نملك منه الآن غير افتتاحيته التي نشرها بالجزء الثاني من «وحي الرسالة ص ٣٩٣» وهي تحمل طابع الزيّات في إثارة الإيجاز البليغ إذ كان يرى أن عبقرية اللغة العربية من حيث طريقة الأداء تستكنّ في الإيجاز، ويعلن أن الوجازة في بلاغة العربية أصل وروح وطبع،

وأن الإيجاز - وهو تأدية المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة - قوّة في التعبير، وامتلاء في اللفظ وشدة في التماسك لذلك جاء بيان محمد - ﷺ - موجزاً دقيقاً وشاعت جوامع الكلم في خطبه تلك التي تعتمد إلى الإيجاز الدقيق، وإذا كانت مقدمة «عقريّة الإسلام» من أصلق المثل على أسلوب الزيات في وجازته وتنسيقه وتصويره وازدواجه فنحن ننقل منها الآن عبيراً يفوح فينبش، ونقتبس شعاعاً يأتلق فيضيء، قال الزيات:

«عقريّة الإسلام هي ذلك الإشراق الإلهي الذي انبثق من غار حراء، فكشف للرسول - ﷺ - عن أطوار النفس البشرية في طوايا الغيب، فدعا دعوته الخالدة إلى تكريم الإنسان، وتنظيم العمران، وتعميم الخير، وتحقيق السعادة، من طريق التوحيد والمؤاخاة والمساواة والحرية والسلام، فالتوحيد سبيل الكرامة، والمؤاخاة سبيل التعاون، والمساواة سبيل العدل، والحرية سبيل الكرامة، والسلام سبيل الرخاء، وتلك الغايات هي التي ترجو الإنسانية بلوغها عن طريق العلم والمدنية، فلا تنكشف أمانيتها بعد طول السرى وفرط اللغوب إلا عن سحاب خلج، وسراب خادع.

وفكرة الوحدة الإنسانية هي مزية الدعوة المحمدية على كل دعوة، وفي سبيلها صدق الإسلام بكل دين أنزل، وبكل نبي أرسل، ودعا الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً إلى خطة واحدة وكلمة سواء، ثم وصل الدين بالدنيا، وكانت اليهودية والنصرانية تفصل بينهما، فالأولى كان همتها الصفق والاجترار، والأخرى كان سبيلها الرهبانية والتنسك، ولكن الإسلام جعل الدين للدنيا كالروح للجسد فلا تعمل إلا بوحيه، ولا تسير إلا بهديه، ثم آخى بين المؤمنين، ليجتمعوا على صدق المودة ويتعاونوا على لأواء العيش، فلا يبغي قوي، ولا ييخل غني، ولا يظلم متسلط.

بدأ ذلك بالتأليف بين الأوس والخزرج والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، ثم توثقت عرى الإخاء بين المجاهدين في سبيل الله، حتى صار المؤمن للمؤمن كالبنان يشدّ بعضه بعضاً، وأصبح هؤلاء الإخوان القلال الضعاف في بضع سنين أئمة للناس وورثة لكسرى وقيصر.

هذه فقرة يسير من مقدمة الكتاب، ومكان الفكرة فيها من الوضوح بحيث لا ينكر، وإذا كانت روح الشعر المعهودة في نثر الكاتب لا تواصل رفيفها المتأرجح في نشوة، فلأن الكتاب كتاب علمي، والبحث بحث منهجي، وسنرى فيما نقدّم من النماذج ما يمثل العاطفة والشعور، ولكن آية نماذج نختار، و«وحي الرسالة» بأجزائه الأربعة يقوم عثرة دون هذا الاقتطاف المختار، إذ لا يفضل موضوع موضوعاً فالإبداع قاسم مشترك، يزهد المتخير! ويجرّه إلى مأزق!.

وإذا كان الزيات قد عزف على وتر الألم تارة، وعلى وتر الأمل تارة، فلنستمع إلى وتره الأول يصوّر مآسي العروبة في بعض ما قال:

١ - «إن مُسْلِمِي هذا الزمن الأخير صاروا من جهلهم بالدين وعجزهم في الدنيا على أخلاق العبيد، يطأطء أشرافهم فلا يندى لهم جبين، وتنقص أطرافهم فلا يُحمى لهم أنف وتنزّل بهم الشدة فيتخاذلون تخاذل القطيع عاث فيه الذئب، ويغير عليهم العدو فيتواكلون تواكل الأخوة دبّ فيهم الحسد، وتجمعهم الخطوب فيُغْرِقهم الطمع والهوى، ويلجؤون إلى جماعة الدول المتحدة، فيخذلهم العدو والصديق.

كأن الإسلام الذي كان عامل قوّة وائتلاف، قد انقلب اليوم علّة ضعف واختلاف، وكأن الذين كنّا نقول لهم بلسان الجهاد: أسلموا تسلموا، يقولون لنا بلسان الاضطهاد: تنصّروا تنصّروا، ولكن الإسلام دين الله لا يغيّره الزمن، ولا تُجافيه الطبيعة، ولا يُعاديّه العلم، ولا تنسخه المذاهب، وإنما المسلمون اليوم هم أعقاب أمم، وعكارة أجناس، وبقايا نظم، ورواسب حضارات، وربائب جهالات، وطرائد ذلّ، ففسدت مبادئ الإسلام في نفوسهم المشوبة، كما يفسد الشراب الخالص في الإناء القذر.

٢ - هذه هي الأرض كلها أمامك، تستطيع أن تنفضها قطعة قطعة، فهل تجد العيون تتشوّف والأفواه تتحلّب والأطماع تتصارع، إلّا على ديار الإسلام وأقطار العروبة؟ فأَيّ ذنب دفع حُمس البشرية في هذه العبودية المهلكة، وهو الخمس

الذي انبثق منه النور، وعرف به الله، وكَرَّمَ فيه الإنسان، ليس للثلاثمائة مليون من العرب والمسلمين من ذنب يستوجبون به هذا الاستعمار المتسلط إلا الضعف، وما الضعف إلا جريرة الاستعمار نفسه، فلو كان المستعير الأوروبي صادق الحجة حين قال: إننا نتولّى شؤون الشرق لنقوِّي الضعيف ونعلِّم الجاهل ونُدفع المتخلف، لَوَجَد من العرب سنداً قوياً لحضارته، ومن الإسلام نوراً هادياً لعقله، ولكنه ورث الخوف من الإسلام عن القرون الوسطى، فهو يسايره من بعد، ويعامله على حذر، وإذا عذرنا قسوس العصور المظلمة فيما افترخوا من جهالة، فما عذر الذين كشفوا الطاقة الذريّة إذا جمدوا على الضلال القديم؟ وكتاب الله مقروء ودستور الإسلام قائم.

٣ - إن الشرق الإسلامي منذ غفا غفوته الثقيلة الطويلة لم يرد أن يبصر بعينه، ويسير على قدميه، ويعلم أن له تاريخاً ممتازاً، ووجوداً مستقلاً، وطابعاً خاصاً، ووحدة كاملة ومدنيّة أصيلة، وإنما ذهب يتحسّس من طريقه على نداء الصائد، ويتوكأ في سيره على عمود الشرك، ويطمس على شخصه بالفناء في الغرب، كأن أهله لم يكفهم أن يكونوا عبيداً لأوروبا بالجسم عن قوّة وقهر، فرضوا أن يكونوا عبيداً لها بالروح عن رضا وطواعية، فهم يتكلمون بلغتها، ويتأدّبون بأدبها، ويتسمون بسمتها، ويتخلّقون بخلفها، ويطبّعون أذواقهم بالكُرّه على غرار ذوقها، ويغالبون طباعهم في أصل الفكرة، فيزعمون لعقولهم أن النفس المتمدّنة لا يلائمها إلا ما يلائم الأوروبي من أدبه، ورقصه، وغنائه، وموسيقاه، كأن المسافة بين الشرق والغرب، لا تُحدّث فرقاً، ولا تُغيّر خلقاً، ولا تبدّل طبيعة!

إن الاستعباد المادي دهمنا أمس على يد الآباء، والاستعباد الأدبي يدهمنا اليوم على يد الأبناء، وشتان بين استعباد كان عن إجبار وجهل، واستعباد يكون عن اختيار وعلم، والعبودية العقليّة أشدّ خطراً، وأسوأ أثراً من العبودية الجسمية، لأن هذه لا تتعدّى الأجسام الجطام والعرض، ومثلها مثل الجسم يُرجى شفاؤه متى عُرف دواؤه، أما تلك: فحكمها حكم العقل إذا ذهب، والروح إذا زهق، وهل يُرجى لمجندل شفاء، أو ينتظر لمقتول رجعة؟.

هذه أنغام حزينة ترنّ بالألم، وليس بيانها في حاجة إلى تحليل وضّاح، فهو سحر يأخذك ويستبيك، ومن دلائل سحره أنه يغزو الإحساس قبل أن يملك العقل، ويشيع في أطوائك لتمتلىء به نفسه مرةً واحدةً، لا أن يتناثر رذاذه قطرات، فإذا أردت بعض ما عزف به «الزيّات» على وتر الأمل فدونك فاسمع:

١ - تنتظر الأمة العربية رجلاً عظيماً له آيات تمهد له وتدلّ عليه، فمن الآيات المُمهّدة لظهوره: انحلال الأخلاق، فلا تماسك في قول ولا فعل، وتقاطع القلوب، فلا تواصل في وطن ولا دين، واستئثار النفوس، فلا تتعفّف في صداقة ولا نسب، وجموح الشهوات، فلا تنقذ^(١) بليين ولا شدة، واستبهام المذاهب فلا تستبين بنجم ولا شمس، وانقطاع الأمة عن ركب الحياة فلا تتحرّك قبله ولا دبره.

ومن آياته المُنبئة بوجوده: أن يكون لغيره لا لنفسه ولأمته قبل أسرته، ولإنسانيته بعد وطنيته، ومصدق تلك الآيات: أن تموت «أنا» في لسانه، وتحيا في ضميره، ويتّحد في ذهنه وجود ذاته بوجود شعبه، فهو يحسّ ألمه لأنه مجتمع شعوره ويدرك نقصه لأنه مجتلى عقله، ويملك قياده لأنه مظهر إرادته وهو في سمو نفسه، ونزاهة هواه قد ارتفع عن أقذار الأرض وأوزار الناس، فلا يطمع لأن غرضه أبعد من الدنيا، ولا يحقد لأن همّه أرفع من العداوة، ولا يقول قولاً ولا يعمل عملاً إلا إذا وافق الدين الذي يعتقده، والمبدأ الذي يؤيّده، والشعب الذي يقوده.

ربّاه: لقد امتدّ بنا التّيه في مجاهل الأرض إلى قرون، وفسد في نفوسنا الإيمان بالحياة حتى تحوّل إلى ظنون، فمتى نخرج من التّيه خروج موسى؟ ونتبوأ من صور الحياة العاملة مكان محمّد؟.

٢ - الإسلام: قوّة في الرأس، وقوّة في اللسان، وقوّة في اليد، وقوّة في الروح.

قوّة في الرأس: لأنه يفرض على العقل توحيد الله بالحجّة وتصحيح الشرع بالدليل، وتوسيع النصّ بالرأي، وتعميق الإيمان بالتفكير.

(١) فلا تكف ولا تمتنع.

وقوة في اللسان : لأن البلاغة هي معجزته وأداته والبلاغة : قوة في الفكره،
وقوة في العاطفة، وقوة في العبارة .

وهو قوة في اليد : لأن توجيه الحكيم الخبير قد علم أن العقل بسلطانه،
واللسان ببيانه، لا يُغنيان عن الحق شيئاً إذا ما أظلم الحسّ، وتحكّمت النفس،
وعمت البصيرة، فجعل من قوة العضل ذائداً عن كلمته، وداعياً إلى حقه، ومنفذاً
لحكمه، ومؤيداً لشرعه، كتب على المسلمين القتال في سبيل دينهم ودينه، وفرض
عليهم إعداد القوة والخيّل إرهاباً لعدوهم وعدوه .

والإسلام بعد ذلك : قوة في الروح، لأنه يمحّص جوهرها بالصيام والقيام
والاعتكاف والتأمل ! .

وإذا كان الإسلام قوة جبّارة، فالأمل في بنية أن يهتدوا بهديه، فيكون لهم
منه في حاضرهم ما كان لأسلافهم الماضين منه، من دولة تقيمها الفضيلة، وعدّة
يرهبها الطغيان ! .

وما أفاض الزيّات في تعداد مناحي القوة الصلبة في هذا الدين إلا ليزغ
شُعاع الأمل في ضباب اليأس، وينشق فجر العزة في ظلام الهوان :

عليك سلام الله أحمد هامداً وأستغفر المولى فما الفضل يهمد

- ٣ -

للأزهر مكانته العالية في ديار الإسلام، ومجلة «الرسالة» وقد أنشأها صاحبها
لإيقاظ الوعي الأدبي، وبعث الروح الإسلامي وإحياء المجد العربي - كانت ترى
«الأزهر» حقلاً خصيباً لتنمية ما ترمي إليه من غايات، فهو أفسح ميدان لتربية
الشباب المسلم المعتزّ بأرومته العريقة، وتقاليده الكريمة، ودينه الأصيل، وهو عدوّ
الاحتلال الذي كان جائماً على ربوع الشرق الإسلامي، يُناوئه بسلاح الدين،
ويغزوه بتاريخ السلف، ويهدمه بمعاول الأدب، فلا بدّ للمُصلّحين أن يدعموا بناءه
الراسخ ليستكمل أداة التعليم، ويُسائر حاجة العصر، وإذ ذاك ينهض بالشرق نهضة
أصيلة تنشأ من قواه، وتقوم على مزاياه وتتغلغل في أصوله .

وثمة صلة قوية ثابتة بين «الرسالة» و«الأزهر» فالرسالة: وهي في جوهرها صحيفة الأدب العربي الأصيل ترى: «أن الدين الإسلامي ينفرد عن سائر الأديان باعتماد دعوته على الأدب، وقيام معجزته على البلاغة، والدين الإسلامي والأدب العربي متلازمان تلازم المعنى واللفظ، والفكر والأداء، ولا يتسنى لرجل الهداية والإصلاح أن يبلغ دعوة محمد إلا إذا تمكّن منهما تمكّن «الجاحظ ومحمد عبده»، وغيرهما من أئمة الأدب والدين».

وإذا كان الأزهر داعية الإسلام فقد التقى بالرسالة في أقرب ميدان. وتسجيلاً لإحدى حلقات التاريخ التجديدي للجهاد الثقافي نذكر: أن الرسالة قد قدّمت في سنواتها العشرين مختلف الآراء المتشعبة عن طريقة الإصلاح لكُتّاب كثيرين، ما بين مُؤيّد ومُعَارِض، وإذا كانت طبيعة الإصلاح المنشود مما يحتمّ هذا الاختلاف، فإن صاحب الرسالة قد كان عند رأيه الخاصّ في طريقة التجديد المرتقب، فهو يعرف أن مجلته ليست وفقاً عليه فإذا نشرت غير ما يذهب مذهبه، فذلك حقّ القراء في التعرّف إلى شتى الوجّهات المتعارضة، وعليه: أن يواصل دعوته نقاشاً وجدلاً ونقداً، وعلى الأيام أن تنفي الزّبد عن الصحيح.

لقد بدأ الأستاذ الزّيّات، فحدّد رسالة الأزهر، ووجّهها إلى ثلاثة مناحٍ:

١ - تنقية الإسلام من العقائد الواغلة، والمذاهب الباطلة، والعادات الدخيلة، وسبيل ذلك ما يأتي:

أ - تفسير القرآن على هدى الرواية الصحيحة، وفي ضوء العلم الصحيح، تفسيراً يجمع ما صحّ من أقوال السّلف وما صلح من أقوال الخلف.

ب - تأليف كتاب يجمع ما لا ريب فيه من أحاديث الرسول ويُسْتَعان على شرحه وتبويبه بعلوم التاريخ والفلسفة والاجتماع.

ج - تصنيف كتاب شامل للمذاهب الفقهية الصحيحة فيوضع متنه مواد كالقانون، ثم يشرح شرحاً يستوعب الأصول والفروع، على أن تكون هذه الكتب الثلاثة مادة الدراسة ومصدر الفتوى ومرجع القضاء.

٢ - إعداد الوُعَاظ والدَّعَاة في الشرق الإسلامي من أهل اللُّسُن والخلق والعلم، وسبيل ذلك ما يأتي :

أ - إمدادهم بالثقافة الحديثة، واللغات الحيّة فوق التكوين الأزهري .
ب - إيفادهم إلى الأمم الإسلامية البعيدة عن مواطن العروبة، ومهبط الوحي .

ج - العناية اليقظة بالبعثات الإسلامية في الأزهر فأصحابها أقدر على إرشاد قومهم باللغة والقُدوة والنفوذ .

٣ - جعل اللغة العربية لغة المسلمين كافّة، فليكون لكل مسلم في الأرض لغتان : لغة لوطنه الأصغر، ولغة لوطنه الأكبر، وسبيل ذلك ما يأتي :

أ - أن تحمل مشيخة الأزهر أقطاب الرأي في البلاد الإسلامية بالمفاوضة والائتمار، على أن يجعلوا تعلّم اللغة العربية إجبارياً في مراحل التعليم المختلفة .
ب - أن تتكفّل بإرسال المعلمين من المتخصّصين بالأزهر ليضطلعوا بهذه الرسالة .

هذه رسالة الأزهر كما حدّدها الأستاذ في مقالته الافتتاحية بالرسالة الصادرة بتاريخ ١٩٣٩/٣/٢٧، ولم تكن مقالته هذه غير حلقة متوسطة تقدّمتها حلقات، وتبعتها حلقات، ولا بد لنا أن نتابع حديث الرسالة مع الأزهر، آخذين بخيوطه الأولى في إيجاز يغني عن التفصيل .

لقد صدر العدد الأول من الرسالة، والشيخ : «الظواهري» يتولّى مشيخة الأزهر، وقد هبّت عليه من داخل الأزهر نفسه حركات تُناوئ تزمّته ووقوفه، وتدعو إلى الوثوب للإصلاح وَثَباً لا يعرف التباطؤ، فكان «الزيّات» مع مُعارضيه، يبارك جهودهم، حتى أقصى شيخ الأزهر ليأخذ مكانه الأستاذ : «محمد مصطفى المراغي»، فاستقبلته الرسالة فرحةً مسرورة، ونشرت صورته مع ترجمة موجزة

لحياته فور توليته المشيخة الكبرى وما زالت تُؤليه المودة والتقدير، وتخصّه بكتابة افتتاحيات الأعداد الهجرية الممتازة، واثقة بتواصل جهوده في معركة الإصلاح.

إذ أن الشيخ المراغي في رأي الزيات إذ ذاك: «إمام هذا العصر بإعداد من الله تجلّى في فهمه الدقيق لرسالة دينه وإدراكه الصحيح لحاجة عصره، وعلمه الراسخ بطبيعة قومه وملّكته السليمة في أدب لغته، وأفقه الرحيب لاقتران المشكلات الاجتماعية فيه، تحت ضوء من الفكر الثاقب، يدّد عنها ظلام الإشكال، فترجع إلى طريقها الواضح من الدنيا والدين» الرسالة (٣٥٦).

وقد دافعت الرسالة عن الشيخ حين قدّم معارضوه عريضة تشكو وتولول، وكتب الزيات بالعدد: (٢٩٥) كلمة تؤيّد الأستاذ الأكبر في مهبّ العاصفة، وكان المظنون بالشيخ أن يمضي بالإصلاح المرتقب إلى وجهته، ولكن أموراً شائكة اعترضته وقد أشار إليها الزيات في منعه حين كتب رثاءه فقال:

«وكان الظن بالفقيد الكريم وقد ورث خصائص الأستاذ الإمام أن يؤدي رسالة الإصلاح على الوجه الذي يرتضيه العلم، ويقتضيه العصر، ويرتجيه الناس، ولكن الأسباب المعوقة من مهادنة السياسة حالت بين الشيخ وبين ما يريد: «الرسالة» (٦٣٤)».

لذلك كله نرى الرسالة، تتّجه إلى الأستاذ: «محمود شلتوت» وتدفع به مع جماعة الشيخ: «عبد المجيد سليم»^(١) إلى أداء دوره الفاصل في معركة الإصلاح، وأن الأستاذ الزيات ليعلن ذلك صريحاً حين يقول بالرسالة: (٤٠٦) ما نصّه:

«تعتقد الرسالة: أن الأستاذ شلتوت لسان صادق من السنة الإصلاح الديني في هذا العصر، فإذا أيدّ الرسالة في دعوتها الإصلاحية بقلمه ولسانه كسبت منه ما كسبته الدعوة الكبرى من عمر».

(١) لنا عن هذا الفقيه الكبير ترجمة منصفة في كتابنا: «علماء في وجه الطغيان».

ومنذ هذه الكلمة: والأستاذ: محمود شلتوت يتسّم مكانه في أوج الرسالة، والزّيّات يتابع جهوده الإصلاحية بالتزكية والتعزيب، وكان يمهد لمقالاته الأولى بالرسالة تمهيد الصديق المؤيد على قلة احتفاء الزّيّات بتقديم الكاتبين، مما ربط بين شلتوت وصاحبه بأقوى رباط في معركة الإصلاح والتجديد.

ومن السهل الميسور لمن يريد أن يؤرّخ كفاح «شلتوت» في نهضة الأزهر: أن يرجع إلى أعداد الرسالة، فقد سائرته في دعوته مُسائرة نشيطة، وقَدّمت صفحاتها لمن يحلّلون مواقفهم ويشاركون حركته، والحق: أن أستاذنا المرحوم الشيخ: «محمد محمد المدني» كان في طبيعة هؤلاء توقّد حماسة، وإذكاء غيرة، إذ كان العضد الأول للشيخ في دعوته الإصلاحية يبسطها على صفحات الرسالة شارحاً، ويهاجم خصومها ناقداً.

ولا أدلّ على التقارب بين وجهتي النظر لدى الزّيّات وشلتوت في الحركة التجديدية مما تقدّم به الأستاذ: «شلتوت» إلى هيئة كبار العلماء من اقتراحات إصلاحية، لا تخرج عمّا دعت إليه الرسالة بالحاح، وكان من أهمها هذا الاقتراح القوي الذي سجّله الرسالة بالعدد: (٤٣٧) وهو يدعو إلى أن تُنشئ جماعة كبار العلماء مكتباً علمياً تكون مهمته:

أ - معرفة ما تهاجم به الأديان بعامة والدين الإسلامي بخاصة في عصرنا الراهن والردّ عليه.

ب - بحث ما يحصل فيه الاختلاف بين علماء العصر من جهة أنه بدعة يجب تركها، أو ليس كذلك، ووضع الأصول الكفيلة بتمييز السُنّة من البدعة.

ج - العمل على وضع مؤلف يحتوي على بيان ما في كتب التفسير المتداولة من الإسرائيليات التي دسّت على التفسير، وأخذها الناس على أنها من معاني القرآن.

د - بحث المعاملات التي جدّت وتجدّ في العصر الحاضر من جهة حُكم الشريعة فيها.

هـ - تنظيم طرق الوعظ والإرشاد، والاتصال بالهيئات المُعدّة لذلك.

و - إحياء الكتب النافعة في مختلف العلوم، والإشراف على مجلة (الأزهر) وإصدار الفتاوى فيما يطلب من الاستفتاء.

مضت الرسالة في دعوتها المخلصة للإصلاح الديني، ونعت على الجامدين تفهقهم عن ركب التطور، «من شيوخ غاية أمرهم أن يتزَيَّوا بالورع، ويتفقهوا في العلوم بتشقيق الجُمَل، وتوليد الألفاظ، وتعدد الفروض».

ثم رأى الزيات أن يتقدّم باقتراح حاسم لحلّ مشكلة الأزهر كان لبابه:

١ - أن يُلغى التعليم الابتدائي من جميع المعاهد الدينية، ليُلقي بمقاليده إلى وزارة المعارف، فتُقيمه على الوجه الذي تراه، وذلك بدء الوحدة الثقافية.

٢ - أن تتحوّل المعاهد الثانوية الدينية إلى مدارس ثانوية لحاملي الشهادات الابتدائية العامة، وتعلّم فيها الرياضيات والعلوم وفق منهج الوزارة، وفي أول السنة الثالثة يتّجه طلابها اتجاهين مختلفين: إما إلى الدين وعلومه أو إلى اللغة وفنونها، فإذا انقضت السنوات الخمس تقدّم طلاب الشعبتين إلى امتحان الشهادة الثانوية مع سائر إخوانهم بالمدارس، يمتحنون معهم فيما يتفقون فيه، ويفردون انفراد شعب التوجيهية فيما اختصّوا به.

٣ - أن يقتصر في التعليم الجامعي بالأزهر على كليتين اثنتين: كلية الدين، وتشمل كليتي الشريعة والأصول، وكلية اللغة وتشمل كلية اللغة العربية ودار العلوم.

هذا هو الاقتراح الحاسم كما تصوّره الزيات، وقد أثار جدلاً عاصفاً بين الأعلام ما بين مؤيد ومعارض، وهاجمه من كبار كتّاب الأزهر شيوخ أعلام، وأدلى الأستاذ: «العقاد» برأيه فيه على صفحات الرسالة.

وكانت اعتراضات الناقدین متعدّدة مختلفة، فهناك من يقول:

إن المواد المدنية على نهجها الوزاري ستطغى على المواد الدينية.

وهناك ثانٍ يقول: إن تحفيظ القرآن لا يتم على وجهه الأكمل إذا كان القسم الابتدائي عامّاً للجميع.

وهناك ثالث يقول: إن هذا الاقتراح سيحرم الطالب ست سنوات، كان يقضيها في دراسة اللغة والدين.

ورابع يرى: أن الاعتماد على الشهادة الابتدائية العامة في تغذية الأقسام الثانوية يعرضها للهزال والجذب، لانصراف التلاميذ عنها إلى المدارس الأخرى.

هذه خلاصة الاعتراضات الناهضة بإزاء الاقتراح المعروض، وقد أجاب عنها الأستاذ: «الزيّات»، فبيّن: أنه لا خوف من طغيان المواد المدنية على غيرها، ما دام الوقت متسعاً والأستاذ كفوّاً، والكتاب مهذباً.

وبيّن ثانياً: أن القرآن الكريم يمكن حفظه بسهولة إذا فرضته إدارة الأزهر على كل طالب في كل سنة من سني الدراسة في المدارس الثانوية الأزهرية.

وأوضح ثالثاً: أن المعاهد المدنية التي ستصير مدارس ثانوية، ستظلّ تابعة للأزهر، خاضعة لإدارته فله أن يفرض عليها ما يشاء من الدراسات الدينية.

كما بيّن أخيراً: أن الاقتراح يقصر وظائف تدريس اللغة العربية والدين والأدب في جميع مدارس الأمة على الأزهر، فكلّ من يرغب في ممارسة أمر من هذه الأمور يجب أن يدخل الأقسام الثانوية الأزهرية، ليحقّق رغبته، ولن يتعرّض بعد ذلك إلى الهزال والجذب.

وما زالت الأيام تتقلّب بالأزهر، حتى انبعث قانون الإصلاح الجديد في عهد الأستاذ: «محمود شلتوت» فأزال كثيراً من العقبات، ومهّد الطريق إلى سير أقوم، وحقّق كثيراً مما عناه الزيّات!.

على أن صلة الأستاذ بالأزهر قد تأكّدت متيناً حين أسند إليه تحرير مجلة: «الأزهر»، فقام بعبئها أكثر من عشر سنوات واستطاع أن ينهض بها نهوضاً لا يُنكره غير ذوي الغرض ممّن يظنون مجلّات الإسلام تحفاً أثرية، تبتدىء بتفسير آية،

وتُثني بشرح حديث، وتعقّب بتلخيص غزوة، ثم تأتي بترجمة مهلهلة لشخصية إسلامية معروفة، وتُقَيِّب بعض الفتاوى المكرّرة، كلّ ذلك في نسق منبّري، يعمد إلى التضخيم اللفظي المصطنع والاستشهاد القلق المُفتعل، وهو بذلك: يُهمِل تحديد الموضوع وإصابة الهدف، كما نرى في كثيرٍ مما نطالع من المجلّات!.

أما الذين يعرفون أن مجلة الأزهر كما يراها الزيّات تجدد ولا تقلّد، وتسمو ولا تسفّ، وتعالج ما تمسّ إليه الحاجة الدينية والثقافية والأدبية من بحوث تقارب الجودة وتسعى إلى الكمال فهؤلاء من يقدّرون رئيس التحرير حقّ قدره، ويعرفون بُعد هدفه وجوّد اختياره، وعمق فراسته في الكاتبين، والأستاذ بُعد عريق أعماق العراقة في دنيا الصحافة والدين، والأدب والنقد والتوجيه، فهو ابن بجدتها، وفارس ميدانها، فلا يقعقع له بالسنان.

ثم شاء الله، فرحل الزيّات إلى أوج خلوده، وخلاً مكانه في مجمع اللغة، وفي مجلس الفنون، وفي مجلّة الأزهر، وصار حديثه ذكرى تردّد لدى عارفيه، وحَمَداً يُسجّل عند مؤرّخيه، وصُحُفاً تُتلى على الأجيال! وشرفاً يعزّ على الأمثال.

طنطاوي جوهري الباحث المفسر المصلح

- ١ -

حين قام (جاجارين): رائد الفضاء الأول برحلته المثيرة أخذ يتحدث عما شاهده في الكواكب النازحة من غرائب وأعاجيب وقد طلعت بعض الصحف الإنجليزية على الناس ببعض أحاديثه مشفوعة بما تنبأ به الكاتب الشهير: (هـ.ج. ويلز) عن العوالم البعيدة. ثم فسحت مجال المقارنة بين ما تخيله الكاتب الإنجليزي وما شاهده الرائد الروسي، ومن الطريف: أنها ذكرت في نهاية الموازنة: أن عالماً عربياً كبيراً هو الشيخ: «طنطاوي جوهري» قد رحل إلى الكواكب رحلة خيالية كرحلة هـ.ج. ويلز. وقد سجلها بدوره في كتابه العظيم: «أين الإنسان»؟.

وقد غمرني شعور الفرح والزهو لتوفيق عالم إسلامي إلى إبراز حقائق طبيعية وفلكية تضارع ما سجله أعلام الفكر الحديث في الغرب، وهَرَعَت من فوري إلى كتاب: «أين الإنسان» وأخذت أطلع روائعه المدهشة، وأعجب لتساوق الأسلوب الأدبي مع الحقائق العلمية في نسق فني جميل، وأستمع مأخوذاً للكاتب حين يقول منذ نصف قرن أو تزيد:

«الأرض تجري أمامي جرياً حثيثاً، وهي تتلألاً جمالاً وحُسناً لِمَا يسطع عليها من نور الشمس، وحجمها كبير ممتد. الأرض تجري مُسرعة في الفضاء، كأنه قلة

المدفع، إن قلة المدفع تجري عشرة أميال في الدقيقة، والأرض تجري قدرها مائة مرة حول الشمس لتتم حركتها السنوية! . لعمرك لقد هألني المنظر! حركات الأرض الثلاث تدور حول نفسها كهيئة النحلة في لعبة الأطفال، وهي بنفسها وهيئتها مُندفِعة تجري حول الشمس أسرع من القلة مائة مرة، وهذا المجموع الشمسي مُسَخَّر مسكين كأنه أرض تجري حول كوكب مجهول، أدهشتني الأنوار، وغطت على عقلي عجائب الحركات، نظرت أسفل فإذا زُحَل تُحيط به حلقاته الساطعة الجميلة، وهو يجري حول الشمس كأرضنا.

ولقد تعجبت من الأنوار الساطعة البديعة البهية الدائرة حول المريخ، فهناك قمران جميلان طالعان، عجيبٌ أمرهما وبهيٌّ نورهما، ولَمَّا رأيت أقمار المُستري الأربعة زاد تعجبي، وما كنت أظن في العالم أقماراً غير قمرنا! .

وتمضي الرحلة على هذا النسق البديع، فتحدث عن زُحَل، وأورانوس، ونبتون، وأكثروس وغيرها مما لا يحيط به غير المتخصصين من الأفاذا.

قرأت هذا في كتاب: «أين الإنسان» وتعجبت! لأنني أعلم أن هذا الكتاب الخالد تُرجم إلى عدة لغات شرقية وغربية، وقد تقدّم به مؤلفه إلى جائزة نوبل للسلام! ولكنني قلت في نفسي: إن الصفحات الأولى من الكتاب حديث بديع عن المشاهد الطبيعية والفلكية في الكواكب البعيدة، فكيف يخدم هذا الحديث قضية السلام حتى يتقدّم به الفيلسوف لجائزة نوبل للسلام!!؟ .

ولم يطل بي مدى السؤال، فقد اهتديت إلى فلسفة الأستاذ حين ينظر إلى العالم نظرة واحدة، فيرى أن نظام الكون يخضع إلى قانون عادل دقيق، لا يشذّ عنه كوكب من الكواكب والإنسان بعض هذا الكون، فلا بدّ أن يخضع لمثل هذا القانون فلا ينحرف عن سننه العادلة إلى طريق جائرة تفضي إلى الحروب والدمار.

والكاتب يوضح ذلك بجلاء إذ يقول في رحلته المثيرة: «لم أر كوكباً حادّ عن كوكب، ولا شمساً غادرت فلكها، ولم تختلّ حركة الأرض اليومية، ولا حركة المجموعة الشمسية، إن هذا لعدل! إن هذا لهو الميزان، ما لي أرى أكابر الأمم

وسواسهم يقوّضون معالم الإنسانية! أليس النظام واحداً؟ أليس عالم الإنسان تابعاً لهذا الجمال البديع؟ وكيف يقولون ما لا يعملون ويُبطنون ما لا يُظهرون؟ وهل يعمّ العالم والنظام هذه العوالم البديعة، ويدرنا نتخبّط ويقتل بعضنا بعضاً، ونحن في الحياة ظالمون معذبون جاهلون!!».

ثم يُطيل الكاتب المتعمّق في مثل هذه الحقائق والأقيسة حتى تُفضي به إلى نتيجة محتومة هي: صيانة نظام الكون، وإطراد سُبل العدالة في جميع الكوائن، ومن بينها: الإنسان! ذلك الكائن المتمرّد الذي شذّ عن طريقه فجلب على نفسه الدمار.

يا لله! هذا كتاب علم وفلسفة وسياسة، وهو جدير بما ناله من ذبوع في الشرق والغرب، وإذا كانت بعض الأقلام العربية لا تهتدي إلى تقديره، فإن المُخلصين من عشاق الفكر الخالد في أوروبا قد عرفوا له مكانته، وفسحوا مجال النقد والتفريط لحقائقه - وفي طليعتهم العالم الطلياني الكبير: «سانتيلانه»! والبارون: «كرادي فو» الذي يقول في كتابه: (مفكرو الإسلام) بعد حديث طويل عن الشيخ:

وكتاب: «أين الإنسان» وضعه المؤلف بطريقة روائية فلسفية وهو في هذا يشابه الفارابي من حيث الفكرة، وابن طفيل من حيث الأسلوب والمنهج، فجمع بين دقة الفكر وجمال الأسلوب والأستاذ في منحاه يذكّرنا بأساليب عُلمائنا وأدبائنا في أوروبا مثل: «توماس موروس»، و«كامبانيا» ومعاصرنا: «هانير بينز».

ثم عرج «كرادي فو» على وصف الأستاذ للجمعية الإنسانية بما لا يشرفها، وأنه يتمنى أن تكون الدول جميعها مؤسسة على الحب العام وتبادل المنافع، ثم وازن بين فكرة الأستاذ طنطاوي وفكرة دارون الإنجليزي، ونبّشه الألماني وهي إبادة الضعفاء وغلبة الأقوياء وقال ما نصّه:

«فمثل هذا الكتاب المملوء حكمةً وعلماً، الغزير المادة السامي الفكرة، الناتج عن تفكير عميق، وبحث يقلّ نظيره يدعو دعوة حارة إلى سعادة الأمم

أجمعين، ويدعو أيضاً بالحماسة الشديدة إلى التجديد العام، وهو مفخرة لمصر والإسلام».

يا ليت قومي يعلمون أنسى الشيخ طنطاوي في الأمة العربية ويذكره أعلام الغرب مُقارناً بالفارابي وابن طفيل ونيثشة وداروين وموروس؟! وهكذا نَظَلَ غافلين عن أفذاذنا، حتى يقدّمهم إلينا المُنصِفون من مكان بعيد! أَيْكون العود العاطر في أرضه نوعاً من الحطب كما يقال؟! .

على أن الدعوة إلى الإسلام العالمي لم تكن مجرد فكرة قوية لدى الأستاذ، سيطرت عليه بالحاحها زمناً ما فسجّلها في كتاب «أين الإنسان» وفرغ منها لغيرها، كما يفعل كبار الكُتّاب بل كانت هذه الدعوة العظيمة دماً يسري في عروقه، وعصباً يمتدّ في رأسه، فأخذ يقلبها على شتى الوجوه ويُدعّمها بما يزيد رسوخها من الأدلة والبراهين، ورأى أن ينشرها في أفق عالمي فسيح فكتب كتابه: (أحلام السياسة) باللغة الإنجليزية، ونشره في أوروبا، ثم ترجمه في خريف حياته إلى اللغة العربية ليستفيد منه مَنْ يأنس إلى النظر الثاقب من صفوة قراء العرب - وقليل ما هم - ونحن بعد قراءة «أحلام السياسة» وموازنته «بأين الإنسان» نجد الروح الطنطاوي واحداً لا يختلف، وإن كنّا نلمس من البراهين والحجج الكونية كلها طريف جديد.

لقد نظر الأستاذ إلى أبعاد الكواكب السّيّارة عن الشمس فوجدها جارية على سُنن هندسية مضبوطة محدّدة، فهي كما كشفها العلامة يود:

٣ - ٦ - ١٢ - ٢٤ - ٤٨ - ٩٦ وهكذا.

والنسبة بين هذه الأعداد لا تشدّ، فكلّ عدد يسلم إلى ضعفه دون زيادة أو نقصان.

ثم نظر إلى أشكال المادة وتنوعها فوجد الأحجار الساقطة تتبع نظاماً حسابياً يرجع إلى الجذر والتربيع والمتواليات العددية ثم يجد هذا الجذر مسيطراً على

حساب البنادل وحركات الضوء والصوت والحرارة والكهرباء، بنظام لا يشدّ بزيادة أو نقصان، كما وجد العناصر المشهورة المبدوءة بالأيدروجين المختومة بالأورانيوم تتبع جدولاً يضمّ متفرّقاتها، ويجعل بينها نسباً أفقية وأخرى رأسية بحيث لو وُضع في غير موضعه لاختلّ النظام!.

وتابع النظر في عشرات الأشياء حتى وصل إلى هذه النتيجة التي لخصّها في آخر مقال نشره في حياته بمجلّة الرسالة ٣٩/٣/٢٠ فقال مستنداً إلى (أحلام السياسة):

«كيف يكون لهذه العوالم هذا الجدول المنظّم، وتكون بينها هذه النّسب البديعة، ولا يكون للإنسان هذا النظام؟! كلا العقل ينكر هذا!، هاهنا تحلّ مشكلة العالم، هاهنا عرفنا سبب النزاع المقام بين الأسرات والممالك، هأنذا عرفت سبب الجمال في الحقول والسموات ليلاً ونهاراً، فأما أسباب الشقاء والنزاع بين الإنسان: فالبحث جارٍ فيه.

وكما رأينا نظام العناصر المختلفة في جدولها تماماً، رأينا لأوراق النبات على الأشجار المختلفة جداول منظّمة ذوات نسب في الصفوف الرأسية والأفقية، فهل في شرعة الإنصاف أن نعتبر أفراد الإنسان في هذا العالم كمية مهملة لا نظام يجمعهم ولا قانون يكبحهم، وقد رأينا النسب والقوانين لم تدرّ ذرّات الأيدروجين مع ذرّات الصوديوم، ولا ورقات التفاح من ورقات الأعشاب ولا حركات سقوط الأحجار: كلا، كلا، إن قوى نوع الإنسان وعقوله لها نسب خفية، وكل امرئ في الأرض له نسب إلى غيره في أمته وفي غيرها، ولما خفي ذلك على الناس حاروا في أمرهم فلم يجدوا مناصاً من الحرب، لأنهم لم يهتدوا إلى نظامهم، فكلّ يزعم أن له عند الآخر حقاً يريد أخذه بالقوة».

وتمضي «أحلام السياسة» في هذا النسق فتعرض صفحات مُثيرة عن نظام الحشرات والجوارح والضّواري، وممالك النحل والنمل والهوام، وتحدّث عن المعادن والأحجار بما يؤيد قضية السلام في منطق جري.

ولم يكذب يظهر هذا الكتاب في أوروبا، حتى قام له المفكرون وقعدوا، وتحدث عنه العلامة الشهير «مارغيلوس» بمجلة الجمعية الآسيوية الملكية فيمن تحدثوا من مشاهير النقّاد، وقد وازن موازنة دقيقة بين الفيلسوف: «كانت» الألماني والأستاذ «طنطاوي جوهرى المصري» فقال:

«إن عنوان هذا الكتاب يذكرنا بكتابين نشرهما العلامة «كانت» الألماني في السلام العام، فإنه وإن كان عالماً بالرياضة والفلك، لم يستعملهما في السلام العام، أما الشيخ: «طنطاوي جوهرى» فإنه أدخل فيه هذين العلمين، وأضاف إليهما علم النبات والكيمياء والتشريح وعلم النفس، فهذه العلوم كلها قد جعلها المؤلف وسيلة توصل إلى حلّ مشكلة السلام العام»^(١).

أما العلامة «كريستان جوب» فقد حضر من لكسمبرج إلى مصر سنة ١٩٣٨ ليلقى العالم الفيلسوف الشيخ «طنطاوي جوهرى»! وقد نقلت جريدة المقطم حديثاً عنه بتاريخ ٨ يناير سنة ١٩٣٨ يعلن فيه:

«أنه حضر إلى مصر هذه المرة مخصوصاً للتشرف بمعرفته شخصياً، بعدما عرفه عن بُعد، وترجم كتابيه: «أحلام السياسة» و«أين الإنسان»!!

ولم يكتف بهذا الحديث الصحفي بل ألقى محاضرة في جمعية الشبان المسلمين، كلها شرح مستفيض لابتكارات الأستاذ وتفكيره الهادف الأصيل!

هذا قليل من كثير مما يقال عن الفيلسوف خارج بلاده، أما داخلها: فلم تكن جميع الأذهان مهيأة لفهم أهدافه الإصلاحية ومرامييه العلمية، فأعجب قوم بآثاره، واقتنوا أبحاثه، وأسرعوا إلى دروسه ومحاضراته، وحجب الضباب عقولاً كثيرة عن نوره فناوذه وصاؤلوه، وانتقلوا من الجدل العلمي إلى الوقعة السياسية، حتى اضطر إلى أن يردّد الشكوى المريرة من هؤلاء وأن يقول في أحد مؤلفاته:

(١) أخذت هذه النقول من صحيفة دار العلوم (إبريل سنة ١٩٣٩).

«إليك اللهم أشكو جور الحساد وغيظهم، يقولون إذا خلوا مع الموظفين من أمة الإنجليز: إن هذا إلا متعصب للدين فإذا تركتموه وشأنه أثار الثائرات، وشن الغارات، ويقولون للموظفين المصريين: ألا إنما هو خارج مؤول في الدين، وإذا لقوا فريقاً آخر، قالوا: إنه خلط العلم مع الدين، ومزجهما معاً خبط ضائع، اللهم إني سأعمل بما قلت لنبيك ﷺ: «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين، إنا كفييناك المستهزئين».

وقد أثمرت هذه الدسائس ثمرها المرير، فحُورِبَ الرجل في وظيفته ردحاً ما، وانتقل من التدريس الجامعي إلى التدريس الثانوي، وترك القاهرة إلى العواصم النائية، وحُوصِرَت داره مرّات، وصُوِدِرَت مُسَوّداته ومخطوطاته، ولكن الليل لم يمتدّ به فقد أشرق عليه الصباح، فواصل الكفاح في استبسال.

وقد كان السرور النفسي يغمره حين يجسد التقدير الصائب من ذوي الإنصاف، ويهون عليه ما يكابد من غصص الحاقدين ومكايد الجاهلين، فهو يعرف لنفسه قدرها، ويقرأ ما يكتبه أعلام الفكر في أوروبا عنه، فيشعر بالارتياح.

لقد كانت الصحف الغربية تقرنه بالأستاذ الإمام «محمد عبده» إذا تعرّضت لبعض مؤلفاته بالنقد والتحليل، ويوازن الدكتور «هارتمان» بين المصلحين الكبارين، فيجدهما يعملان على التوفيق بين المدنية الغربية والعلم الغربي، وبين الحياة الاجتماعية والدينية في مصر، ويقول: إن الشيخ «الطنطاوي» كان يردّد تعاليم الأستاذ الإمام مثل قوله:

«إن الإسلام دين العقل لا دين التقليد، وإن العلم إذا أحسن فهمه يصبح أداة صالحة لفهم الدين، ومثل مناهضته للمغالاة في تقديس الأولياء، ومثل قوله: إن الاقتصار على مذهب واحد من مذاهب الفقه سبب للجمود والتأخر في الإسلام، وإن الاجتهاد هو خير حلّ لجميع العلل»^(١).

(١) الإسلام والتجديد في مصر، ص ٢٣٩.

والحق أن الرجلين كانا يلتقيان في أمور كثيرة، ولكن الإحاطة الشاملة بدقائق الطبيعة والفلك والرياضيات كانت من نصيب «الجوهري»، وليس هنا مجال التفضيل والترجيح بين إمام وإمام.

- ٢ -

وتسألني لماذا اتَّجه الفيلسوف الديني إلى دراسة العلوم الطبيعية والكونية، هذه الدراسة المتخصصة، مع أن نشأته التعليمية لا تُفضي به إلى التعمق في غير فروع اللغة والتشريع؟ والإجابة عن ذلك تحوجني إلى الإلمام بنشأته الريفية والمدنية لنعرف كيف هبَّت الريح على زورقه، فحوَّلته إلى اتجاهٍ كان هو الأصلح في رأيه دون سواه.

وُلِدَ الفيلسوف بإحدى قرى مديرية المنوفية في سنة ١٨٦٢ فتطلَّع إلى الريف الجميل الأخضر، ورأى من مشاهد الكون ما خلَّبه وجذبه، حتى كان يخرج إلى الحقول ساعات ليتأمل هندسة الأشجار، ومجاري الماء في القنوات، ويرى ألوان السماء وهي تتبدَّل في الشروق والظهيرة والأصيل، فتشَفَّ عن لوحات بديعة رائعة، وكان استعدادُه الخاصُّ لإدراك مجالي الطبيعة يغمره بنشوة هائلة، فيسأل مَنْ حوله عن مصدر ما يرى ويلمس من هذه المُشاهدة الفاتنة، فيصدم بالسخرية والاستهزاء، ويصبح به الصائجون: نحن نعيش في القرية كما نعيش، ونرى الدنيا بأعين كعينيك، فلا نحسُّ هذه الخلافة التي تزعمها في نواضر الحقول وألوان السماء!!.

ثم أذن الله فالتحق بالأزهر الشريف، ونهض مُشوقاً إلى حلقاته وهو يُحسِّن الظنَّ في دروسه، ويتخيَّل أن بها إرواء لظمئه وإطفاء لأشواقه، ولكنه صُدِمَ مرةً ثانيةً بحفظ المتون واستظهار القواعد دون تبسيط، بل إن القاهرة قد حجبت عن عينه مباحج الزروع، وسوانح الطيور، وجعل يشعر بأنه في بيئة لا تشبع رغبته - وكابد من الضيق والمَلَل ما أجبره على الرجوع حزيناً إلى القرية، ليشغل بالزراعة! كما فعل من قبل الأستاذ «محمد عبده».

وَمَضَتْ الأيام وجواذب المعرفة تدفعه إلى البحث، وتبسط له صحيفة الأمل، حتى عاد ثانيةً إلى الأزهر، وعكف على تحصيل علومه، ثم سنحت الفرصة المواتية فالتحق بدار العلوم!، ورأى العلوم الحديثة من طبيعة وكيمياء وهندسة وحساب تُقدَّم إليه في تبسيط، فأحسَّ أن الله قد أذنَّ له بالفلاح، وأكبَّ على دراسة هذه المعارف بفكره وإحساسه، وبدأ ينتشي ويتذوق ويلتذُّ.

وحان ميعاد التخرج فعُيِّن مُدَرِّساً بإحدى مدارس الوزارة، وانطلق إلى العالم الفسيح، وقد كان «الغزالي» في هذه الفترة رفيق اطلاعه، فتصفح آراءه، ورآه يتحدث عن النمل والعنكبوت وسائر الحيوانات، ويتخذ من مشاهد الكائنات دليلاً على قدرة الله، فصادف ذلك موضع هواه، وعلم أن معرفة الله تتوقف على دراسة الكون، وأخذ يحصي آيات القرآن التي تدفع إلى طلب المعرفة فوجدها كما ذكر في كتابه «التاج المرصع» أكثر من سبعمائة آية كريمة! فقال في نفسه:

«هنا الدليل على وجود الله إن كتب الأزهر تقتصر في أدلتها على أمثال قولها، «العالم متغير وكل متغير حادث إذن فالعالم حادث» أما كيف يتغير العالم بمشاهده ومجاليه فهذا ما لا تُجيب عليه هذه القضايا، ولا بدَّ من دراسة حية لما نرى ونشاهد، ومن ثمَّ فقد أكبَّ على اللغة الإنجليزية، فدرسها في أمدٍ وجيز ليستطيع أن يصل عن طريقها إلى كتب العلوم والمشاهد فيطفيء ما يعتلج لديه من أوار، هذه ناحية أولى.

أما الناحية الثانية: فقد نظر فيما حوله، فوجد العالم الإسلامي بممالكه ودوله يبرز تحت نير الاستعمار، والمسلمون في حالة يائسة من الجمود والجهل والتزمت تدفع إلى الرثاء بينما انطلقت أوروبا تفتح ميادين الحضارة، وتقود مواكب المعرفة وتسيطر على الشرق فتمتصَّ خيراته وكنوزه، وترمي الدين الإسلامي بالجمود والبربرية، وتراه العلة الأولى في تأخر المسلمين، لأنه كما زعم «رينان» الفرنسي وأشياعه يحارب العلم والتقدم، ولم يعد صالحاً لقيادة الشعوب في القرون الزاهرة، وقد انتهت رسالته بانتهاء العصور البدوية في القرون المتخلِّفة،

هذا قليل من كثير ضالّ يلوّكه المُغرِضون، ويحاولون أن يقنعوا به المسلمين في كل عاصمة من عواصم الإسلام: في مصر والشام والهند وفارس والصين والمغرب، وهو في حقيقته افتراء زائف، وتدليس أليم!!.

فكّر الأستاذ وتدبّر، فلمس أن عِلّة التأخّر والجمود لا تنبع من طبيعة الإسلام كما يزعم أعداؤه الحاقدون، فقرّأه ينادي بالعلم والتفكير، ولكنها ترجع إلى انحراف المسلمين عن تعاليم الإسلام، وأولها الحرص على المعرفة، ودراسة الكون وما خلق الله في السماوات والأرض، وتصريف الليل والنهار فصاح صيحاته الجهرية، وأعلن أن دراسة هذه العلوم فرض عين في الإسلام من جهة، وتفسير لكتاب الله من جهة ثانية!!.

ثم أخذ يُصدِر مؤلفاته المتتابعة في الدعوة إلى التقدّم العلمي، وتجلية حقائق الطبيعة وما تزخر به في عوالم الحيوان والأكوان والكواكب والأجرام، وأصدر كتاب «نظام العالم والأمم» فكان دعوة فذّة إلى الجهاد العلمي، ووجد فيه أساتذة أوروبا نعمة عالية غير مألوفة، فعُدّوه ظاهرة خطيرة تستحقّ التسجيل.

وتحدّثت عنه صحيفة «الجمعية الآسيوية الفرنسية» فقالت من مقال طويل بعدد فبراير سنة ١٩٠٨:

«إن كتاب «نظام العلم والأمم» وهو أحد كتب ألفت للنشأة الحديثة الإسلامية، بناها المؤلف على نظريتين اثنتين أولاهما: أن الدين الإسلامي دين الفطرة، أي مُلائم للعقول الإنسانية والطّباع البشرية، وثانيتهما: أن هذا الدين على مقتضى ما قرّره المؤلف يسوق إلى استكناه جميع النواميس وسائر القوانين الطبيعية.

ثم أشادت بالفصل الخامس الذي تضمّن باباً مُسهّباً عن الحيوان وسلسلة ارتقائه مقارناً بين مذهبي اليونان والعرب، وبين مذهب «داروين» وشرح فيه ترتيب الحيوان شرحاً مُسهّباً، حتى أنه لم يألُ جهداً في إيضاح ما يسمّيه «داروين» بقاء الأصلح، ويسمّيه العرب دائرة الوجود وترتيب المواليد، وقد ذكر المؤلف أن

مذهب «داروين» كان معروفاً عند علماء اليونان والعرب، وأنه كان يسمّى دائرة الوجود وأنهم كانوا يقولون : العالم مُرتَّب هكذا (المادة الأثيرية - العناصر - المعدن - النبات - الحيوان - الإنسان - الملك - الله فوق الدائرة) وكانوا يربطون الإنسان بالحيوان في مثل القرد والقبيل والبُلْبُل والحصان . . .

إن مذهب «داروين» محصور في الإنسان والحيوان فقط، فهو لذلك قوس من الدائرة التي شرحها العرب، وأن «داروين» ربط ما بين الإنسان والحيوان بالقرد وحده، ويستنتج من ذلك ضعف الرابطة لديه وقُصُور البحث على قوس من الدائرة!! .

هذا الهيام بالحقائق العلمية قد دفعه إلى تفسير القرآن تفسيراً علمياً، فتحدّث في ستّة وعشرين جزءاً من كتابه «الجواهر» في تفسير القرآن الكريم عن كل ما حصّله من العلم في عصره، وربطه ربطاً قوياً بآيات الكتاب الحكيم، وقد ترجم هذا التفسير إلى عدّة لغات شرقية، وانتفع به المسلمون في الهند والتركستان والصين واليابان وتركيا، حيث قامت اللجان المختلفة بترجمته إلى شتى اللغات، فدفع قارئيه إلى حبّ المعرفة وجعلهم يعتقدون أن العلوم الحديثة من صميم ما يدعو إليه كتاب الله! .

ولن نترك هذا المقام، دون أن نذكر رأينا في التفسير العلمي للقرآن، فنعلن أن تفسير الجواهر قد تعرض لحملات كثيرة من كبار المفسّرين في العصر الحديث، وعلى رأسهم صاحب تفسير المنار إذ يقول نقلاً عن مجلة المنار شعبان سنة ١٣٤٨ هـ:

«ثم توسّع المؤلف - يعني الشيخ طنطاوي - بوضع هذا التفسير الذي يرجو أن يجذب طلاب فهم القرآن إلى العلم، ومُجَبّي العلم إلى هدى القرآن في الجملة والإقناع بأنه يحثّ على العلم لا كما يدّعي الجامدون من تحريمه له، أو صدّه عنه فهو لم يُعَنّ ببيان معاني الآيات كلها، وما فيها من الهدى والأحكام بقدر ما عُني من سرد المسائل العلمية وأسرار الكون وعجائبه، ولا يمكن أن يُقال: إن

كل ما أورده فيه يصح أن يسمّى تفسيراً له، ولا أنه مراد الله تعالى من آياته، وما أظن أنه هو يعتقد هذا.

هذا الكلام المهدّب الذي ساقه السيد رشيد يعتبر أرقّ ما قيل في نقد الكتاب وأخلصه، وقد اخترناه لموضوعيته أولاً ولمكان صاحبه ثانياً، ولعلّ مما يُقرّب شقّة الخلاف بين صاحبي الجواهر والمنار، وهما أكبر مُفسّري العصر الحاضر دون منازع أنهما تلاقيا على معنى واحد هو: أن الحقائق العلمية المسرودة في الجواهر ليست تفسيراً لروح القرآن، ولكنها كما يقول الشيخ «طنطاوي» في مقدمة تفسيره:

«لقد رأيت أن يشرح الله به قلوباً ويهدي به أُمماً فتنتشع الغشاوة عن أعين عمّة المسلمين، فيفهمون العلوم الكونية وليكون هذا الكتاب داعياً إلى درس العوالم العلوية والسفلية، كيف لا وفي القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية، ولقد وضعت في هذا التفسير ما يحتاجه المسلم من الأحكام والأخلاق، وعجائب الكون، وأثبت فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق».

على أننا مع ذلك لا نمنع التفسير العلمي بشروطه، وقد أوضحت ذلك بمقال مُسَهَّب نشرته بمجلة الأزهر جمادى الأولى سنة ١٣٨٠ هـ وكان فيه:

«ونحن نجد أن الذين ينادون بابتعاد القرآن عن التفسير العلمي مُصيبون كلّ الإصابة، إذا كان هذا التفسير قائماً على الظن الوهمي، والتعسف التأويلي، أما إذا كان مستنداً إلى الصريح من القول، معتمداً على اليقين الثابت من العلم، فلا نمنع إطلاقاً أن نستضيء بشعاع العلم في إيضاح حقائق الذّكر الحكيم، وإذا كان القرآن كتاب هداية وإرشاد فإن آياته العلمية لا تحوّل دون هذه الهداية المُبتغاة، بل تؤكّدها، وتدعو إليها الجاحدين، أما من يقول: إنه نزل في أمة أُمّية لا تعرف النظر العلمي فنحن نردّ عليه بأنه لم ينزل لأمة واحدة، أو قرن واحد، بل نزل لجميع الأمم في شتّى القرون المتعاقبة، ليأخذ كل جيل من هديه ما يناسب استعداداته الذّهني النفسي» إلى آخر ما سمح به الحديث.

وإذا لم يكن في تفسير الجواهر العلمي من نفع سوى أنه دفع آلاف القراء إلى استكناه حقائقه العلمية الحافلة في مدى ستة وعشرين مجلداً من المجلدات، فآلموا بغرائب الكون ومُسْتَحْدَثَات الطبيعة وعجائب الضوء والصوت، والحرارة وصور الجبال والأنهار والثلوج والبراكين، ونواضر النباتات من: أشجار ونخيل وثمر وأزهار، كل ذلك في سياق رائع شفاف، يدعو إلى التبصّر ويؤكد قول الله: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١). أقول: إذا لم يكن هذا التفسير الذائع في شتى بلاد الإسلام غير هذه المعارف فقد نجح وأفاد.

وإذا كانت الأعمال بالنيّات، فقد كافأ الله - عزّ وجلّ - فيلسوفنا الكبير على نيّته، ورزق مؤلفاته من الذّيع والشّهرة ما جعل لها صليلاً يجلجل في كل مكان، ولن أتحدّث عن مدى هذا الذّيع، بل أترك لعالم كبير هو الأستاذ «محمد حسن الأعظمي» عميد كلية اللغة العربية بالباكستان يقول ما لمسه ورآه عن مؤلّفات الأستاذ، فقد نشر مقالاً طيّباً في جريدة فتى النيل المؤرّخة بتاريخ ٢١ محرّم سنة ١٣٥٨ هـ، ١٢ مارس سنة ١٩٣٩ م وفيه يقول:

«لم تشتهر في الشرق شخصية من المصريين كما اشتهر شيخنا العلامة الشيخ «طنطاوي جوهرى»، ومن يشكّ في هذا فليدر في أقطار الهند والفرس والصين، والتركستان وأندونيسيا والعرب وغيرها من الشرق، وسيجده إن شاء الله علماً مرفوعاً فيها، وأني لست بمبالغ إن قلت: إنه كما أحسن إلى مصر بتعريفه إيّاها للشرقيين ولم تحسّن مصر إليه فإنك تجد في الشرق من عرف مصر بعد معرفة شيخنا، والشرقيون يعتقدون فيه أنه المصري الوحيد الذي عرف الثقافة الدينية الحديثة أتمّ المعرفة، والرجل الذي ليس هكذا خطر على رُقيّ المسلمين في عصرنا هذا، فالناس لا يعتمدون على رجل ديني محض، ولا على رجل عصري

(١) سورة البقرة: آية ١٦٤.

محض، لأن الأول يقود الناس إلى وادي الجمود، والثاني يجرهم إلى بحر الجمود.

ولعلكم تدهشون لو سمعتم أن التركستان لما استقلوا استقلالاً تاماً، وأقاموا جمهورية إسلامية برياسة مسلم «الحاج تياز» وابتدعوا في إقامة المدارس والجامعات، اتفقوا على أن يسموها باسم شيخنا «طنطاوي جوهرى»، وفعلاً سموها حسب اتفاقهم جامعة طنطاوية ومدارس جوهرية وهكذا.

وألف زعمائهم وعلمائهم كتباً في لغتهم للتدريس بهذه الجامعات والمدارس باسم شيخنا مثل (كتاب العقائد الجوهرية) وغيره لأنه في عقيدتهم حجة الشرق وفيلسوف الإسلام، وتصانيفه منتشرة في الشرق، وهو نجم لامع يستضيئون به، ويحترمونه ولكنه مع الأسف الشديد مفقود في إخواننا المصريين لأنه بين أيديهم، وكل شيء يستحسن في غيابه».

والعجيب: أن الأستاذ مع هذه الفتوح العلمية الباهرة قد ألف في الأدب والبلاغة، وترجم شعراً عن كبار شعراء الإنجليز، أفرده في ديوان خاص مُقَفَّى وموزون، وتناول بعض حقائق التاريخ بالبحث: كالبرامكة والعباسة والرشيد فمن قال: إنه - وقد ترك هذه المؤلفات الحافلة - دائرة معارف متنوعة لم يبعد عن الحق في قليل، على أن مؤلفات الرجل نفسها تتحدث عن حياته، إذ أنه لا يسوق الحقائق جافة، ولكنه يمزجها بوجدانه وينظر إليها من داخله، فيتحدث عن شعوره بالمعرفة والطبيعة، ويوازن بين عهود حياته الحافلة، وقد امتدت إلى ما يقرب من الثمانين، فيوضح همومه العلمية ومعضلاته الفكرية، ويُفصِّح عن تيارات نفسه وخلجات وجدانه.

ويحدثك كيف كان طبيب نفسه، يرى خواص الطعام فيبتعد عن التغذية المعقدة، ويفطر في رمضان على الطماطم النيئة، ويشرب اللبن من الضرع ساعة الحلب، ويتجنب الأملاح والسكريات، كل ذلك في عرض مشوق تقرأه فلا تدري أنتصت إلى أديب أم فيلسوف أم فقيه أم طبيب! ولكنك بعد ذلك تفهم أنك مع فيلسوف الشرق وحكيم الإسلام... رحمه الله.

محمد عاكف شاعر الإسلام في تركيا

- ١ -

حين ألغيت الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال، فرّ أنصارها إلى بعض المدن الإسلامية في الشرق، وكان ممن قَدِموا إلى مصر شيخ الإسلام «مصطفى صبري» ووكيل المشيخة العثمانية «محمد زاهد الكوثري» وشاعر الوحدة الإسلامية «محمد عاكف» فنفسوا عن صدورهم في صُحُف وادي النيل ببعض ما يريدون أن يقولوه، وكان لكلّ منهم طريقه في الجهاد.

وقد كان شيخ الإسلام مصطفى صبري متطرفاً في تشدّده على نحو لا يرضاه المُنصفون، فقد أخذ رحمه الله يُسيء الظن بكل مجدّد مُخلص، وطفق يصدر الكتب والمقالات تجريحاً صارخاً لأعلام الفكر الإسلامي المعاصر، من أمثال «محمد عبده» و«محمد مصطفى المراغي» و«محمد رشيد رضا» و«محمد فريد وجدي» و«محمود شلتوت»، وأذكر على سبيل الفكاهة أنه رمانى بالكفر الصريح في كتابه الأخير «موقف العقل والعلم والعالم» لأني مدحت معروف الرصافي في إحدى مقالاتي بالرسالة! وقد تعاضمني ذلك حين بلغني قبل أن أقرأ الكتاب، فلما تصفّحت المؤلف الضخم بأجزائه الأربعة، وجدت ما قيل عني لا يساوي شيئاً جوار ما قيل عن محمد عبده! فقلت: إن الرجل في غُربته نائر الأعصاب، ويحتاج إلى أن يُعذّر لا إلى أن يُلام!.

أما الأستاذ الكبير محمد زاهد الكوثري، فقد انتقل نشاطه إلى دراسة المؤلفات السلفية لرجال الفكر الإسلامي في قرونة الزاهرة، فكتب من المقدمات والدراسات والبحوث ما دلّ على عمق اطلاعه، وكانت الفرق الإسلامية ذات الجدل الكلامي موضع اهتمامه، فجلاً كثيراً من آراء علماء التوحيد، واستعان بالتاريخ على فهم التيارات الفكرية المتصارعة، فأبلى بلاءً حميداً، كما أنه اتجه إلى تعريف المشاركة بعلماء الإسلام في تركيا ممن تعاقبوا بمؤلفاتهم وفتاواهم على مدّ الخلافة العثمانية دون أن تصل أنباؤهم إلى إخوانهم في مصر والدول العربية! فكشف عن الجديد الطريف.

أما تواضعه العلمي فقد كان مضرب المثل، إذ أنه وهو وكيل المشيخة العثمانية في دار الخلافة لبث يسعى إلى منزل الشيخ يوسف الدجوي ليقرأ عليه موطأ مالك بإسناده المتصل من الشيخ الدجوي إلى المؤلف رحمه الله! وما كان الكوثري في رأيي ذا حاجة ماسة إلى ذلك، ولكنه يحيي سنة السلف ويُعيد سيرة المتقدمين!.

بعد ذلك نتحدث عن شاعر الوحدة الإسلامية محمد عاكف فنعلن أنه قدِمَ إلى مصر فأقام بحلولاً زمنياً شغل فيه وقته بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة التركية، وقد أتمّ الترجمة بعد جهد شاقّ متحرّز، وأخذ يراجعها حذراً متشككاً ثم تعاضمه أن يقع في خطأ غير مقصود فيحمل على القرآن الكريم ما لا يريد، وتجسّد شكّه أمامه فطوى الترجمة عن الناس وذهب جهده الشاقّ أدراج الرياح، وقد تعرّف به الدكتور عبد الوهّاب عزّام، فرشحه لتدريس التركية بكلية الآداب المصرية، فقبل أن يكون أستاذاً بالجامعة، ولكن حنينه إلى موطنه لم يهدأ، فسافر بعد اثني عشر عاماً إلى أنقرة، ليودّع أصدقاءه وعارفيه قبل أن ينتقل إلى رضوان الله، حيث لم يلبث غير أشهر معدودات! وفارق الحياة!.

- ٢ -

كان اتجاه أنصار الخلافة الإسلامية إلى الفرار من تركيا بعد إعلان الجمهورية متمشياً مع ما يعتقدونه في مصطفى كمال، فهم يرونه عدواً مُبيناً للفكرة

الدينية، ولكي ننصف هذا الرجل، نعلن أنه من وجهة نظره الخاصة كان معذوراً في ضيقه بالخلافة الإسلامية، لأنه لم يدرس شيئاً عن رأي الإسلام في الخليفة كيف يختار؟ وعلى أي نهج يسير؟ فظن أن الخلافة لا تكون إلا كما تراءى في صورة هؤلاء! فالخليفة منهم لا يهتم بغير شخصه، يحرص على أن يُذكر متوجاً بالألقاب الشاهانية، فهو السلطان الأعظم إمام الحرمين، سلطان البحرين والبرّين، والخاقان الأفخم، ظلّ الله في الأرض، وله عشرة آلاف جندي يقفون للمحافظة على حياته وإظهار أبهته وجلاله، يجتمع بالمُرائين من الممخرقين، ويستنبيء المشعوذين والعُرافين عن مستقبل حياته، ويدعو العلماء ليفسّروا له حلماً رآه في منامه، ويُنفق ببذخ مُترف على مئات الجوّاري وعشرات القصور دون أن يكون له معقّب، يسأل عن مال الدولة، فيم أنفق؟ وكيف يُجيب؟.

أما الجاسوسية فقد اتسعت على أسوأ نطاق، فكلّ من أراد حظوة لدى خاقان البرّين والبحرين، أو عند الصدر الأعظم، تكهن بمؤامرة موهومة، وتقدّم بعشرات الأسماء من أعدائه ليكونوا طعام السمك في السفور! أما الجهل، وأما الفقر، وأما المرض المنتشر في ربوع الدولة فلا يلتفت إليه والٍ أو وزير! فكلّ والٍ يصل إلى منصبه عن طريق الرشوة، فإذا أخذ ولاية نائية أو دانية اجتهد في أن يستردّ أضعاف رشوته من عرق العمّال وكّد الكادحين دون رقيب!.

دع عنك السياسة الخارجية، فلقد تكالبت الدول الأوروبية على استقطاع الدولة جزءاً جزءاً، فهي تشجّع الثوّار في البلقان، وتزيد التوتر بين الروس والأتراك، والرجل المريض يلفظ أنفاسه في بطن، أما الخليفة فلا يزال يسأل عن الجواسيس عن أعداء وهميين! تاركاً بلاده على حافة البركان! وإنها لنكبة فادحة، جعلت أتانورك يركب رأسه دون أن يدرس تاريخ السلف الراشد، أو يستمع إلى وظيفة الحاكم كما حدّدها الإسلام!.

والحق أن الغازي مصطفى - كما كان يُوصف في شتّى ربوع الإسلام - قد أحرز صيناً رناناً بانتصاره على أعداء بلاده، وبتصميمه على طرد اليونان من أزمير

رغم مساعدة الدول الأوروبية فلما تمّ له ذلك قامت الأعراس في شتّى ربوع الوطن الإسلامي، وأصبح مناسبات النفوس ومعقد الرجاء! وكان أخرى به أن يستغلّ هذا الحبّ الخالص، فلا يأتي بعد ذلك من الأعمال، ما يقلب نهاره إلى ظلام! فقد أخذ يتنمّر للتقاليد الإسلامية تنمراً حقّق إرهاص عاكف وزملائه النازحين حتى فيما يمسّ الشعور المسلم في صميمه، إذ جعل العطلة الأسبوعية يوم الأحد! وهو عمل يُنبئ وحده عن اتجاه واضح لا يحتاج إلى تفسير! فعصّت الكارثة وندّد به الأحرار في كل مكان! وصدّق ما قاله عنه شوقي رحمه الله:

إن الغرور سقى الرئيس بكأسه كيف احتياك في صريع الرّاح

ولن نستعرض بقية أعماله المجترئة، فيطول بنا المقال، ولكننا نُشير إلى ذلك لندلّ على أن عاكفاً رحمه الله كان على حق حين ضاق بالبلاد وآثر الرحيل.

- ٣ -

كان والد عاكف مُدرّساً في مدرسة الفاتح بإستنبول، وذا نزعة دينية حميدة، فحين وُلِدَ نجله الشاعر سنة ١٨٧٣ اهتمّ بتربيته وألحقه بالمدارس النظامية، فنال قدراً من التعليم المدني أهله إلى الالتحاق بكلية الطب البيطري، فتخرّج منها ظافراً بشهادتها النهائية، وفي الوقت نفسه زاول تعليمه، فحفظ القرآن وروى الحديث، ودرس اللغة العربية، والفارسية، والفرنسية مع التركية، فكانت دراساته الشخصية ذات أثر بالغ في حياته لأنه حين دعا إلى الوحدة الإسلامية كان يغتفر من قراءاته الخاصّة.

وكان هناك رجلان طغيا على تفكيره في صدر شبابه، فأثر كلاهما بشخصيته تأثيراً قوياً في نفس الشاعر، أما الرجل الأول: «فجمال الدين الأفغاني» وجمال الدين الأفغاني دائماً أستاذاً المصلحين في ربوع الإسلام، فتح عيونهم على الهوة العميقة التي تنحدر إليها ممالك الإسلام بتكالِب أوروبا، ومكايد أحقادها الثائرة، ورسم الطريق إلى الخلاص بإيضاح حقوق الحاكم وواجباته، وتحقيق سعادة الرعية ورفاهتها، والانصواء تحت ألوية المعرفة والحضارة، بعيداً عن الجمود

والقنوط والاستسلام، ثم الدعوة إلى وحدة شاملة عزيزة تجمع ممالك الإسلام نحو هدف واحد!!.

هذه الآراء قد لمست من قلب عاكف وترأ حساساً، فهامَ بها واعتنفها، وأصدر جريدتين كبيرتين للدعاية لها، ورسم طريقه في الإصلاح على نهجها، منجذباً إلى تلاميذ جمال الدين ممن يجتمعون معه في الرأي والاتجاه، فترجم كثيراً من آراء محمد عبده إلى اللغة التركية، لا سيما ردّه المُفجّم على «هانوتو» وبعض تفسيراته العصرية لآيات من كتاب الله، كما كان معجباً أكثر الإعجاب بالمُدافعين عن الإسلام في العربية من أمثال «محمد فريد وجدي» إذ أفرد لمقالاته الداعية جانباً في جريدته، يترجم منها ما يفيد حركة الثقافة والإصلاح، وأذكر أنه ترجم كتابه: «المرأة المسلمة» إذ لمس الحاجة الماسة إلى إيقاف الرأي العام التركي على منزلة المرأة في الإسلام، وموقفها من الثقافة والمعرفة والمنصب والحدود الفاصلة بين السّفور والحجاب والتبرّج والاحتشام.

أما الرجل الثاني صاحب التأثير البعيد في نفس عاكف، فقد كان «أبا الهدى الصيادي» ذا النفوذ البعيد لدى عبد الحميد، فقد تزوّى بزَيّ رجال الدين، ونصّب نفسه حامياً للشرع والخليفة، وهو في أطواء نفسه أفاق محتال يعمل لرغبات شخصية، لا يبالي أن تتجاوز حدود الله، ناصباً شتى المؤامرات لإبادة من يجبهه بكلمة الحق.

يقول عنه الدكتور أحمد أمين في كتابه: «زعماء الإصلاح» ص ٢٤٣: «سوري من حلب، فقير المال والحسب، دفعته المقادير إلى الآستانة وكان ماهراً ذكياً، وسيم المحيّا، ماضي العزيمة قادراً على معرفة النفوس ومن أين تؤتى، فتغلب على عقل السلطان بأحلامه وتفسيراته، والطرق ومشيعتها، فربط نفسه بأعلى نسب، فهو قرشي هاشمي علوي، وهو في الطريقة رفاعي له الأتباع الكثيرون، لا يعبأ بالمال يأتيه على كثرته فينفقه ويستدين لأن عزّ الجاه والسلطة عنده أقوى من عزّ المال.

له أعين تأتي له بكل الأخبار فيستغلها أمهر الاستغلال، يحلم فلا حد لحلمه، ويبطش، فلا حد لبطشه، سمي: مستشار الملك، وحاوي العثمانيين وسيد العرب، استمال كثيراً من الأمراء والعلماء، فكانوا عوناً له يبطش بهم حين يريد البطش، ويؤلف بهم الكتب حين يريد شهرة العلم، والدنيا كلها يجب أن تُسخر لشخصه، وأن تخضع لأمره، والحق ما أتى عن طريقه، والباطل ما جاء عن طريق غيره، عدو كل إصلاح، وخصم كل حرّ، كم له من ضحايا في السجون وفي أعماق البحار، وفي ذلّ الفقر، وفي بؤس النفي، وكم أنفذ أمره وبطل أمر السلطان، وكم تدلّل على «عبد الحميد» فاسترضاه وبالع في الطلب فأوفاه».

هذا الداهية الوصولي قد أثر في نفس عاكف تأثيراً لا يقلّ عن أثر جمال الدين، وإن اختلف اتجاه التأثيرين إلى درجة التناقض، حيث أن محمد عاكف قد عزّ عليه أن يكون الإسلام السّمح بعدله وإنسانيته ستاراً يحتمي به الممخرقون، من أدعياء الولاية والتصوّف! وهاله أن يعدّ هذا الأفاق المحترف مع أشياعه من كبار حُماته وأساطين أعلامه، ثم يقترفون الأوزار فترجع في نظر الناس إلى دينهم البريء لا إلى فسوقهم الشائن، فصمّ على أن يقوم بدعوة الإصلاح الديني، ليفضح هؤلاء الفجّرة المارقين.

وكان طريقه في مُفتتح حياته شاقاً تهبّ به الأعاصير في كل اتجاه ولكنه استطاع أن يكون ذا أنصار وأتباع بجهاذه الصابر ودفاعه المستميت! وقد كان إلى ذلك كله أستاذاً في الجامعة التركية وعضواً في المجلس الوطني، وصاحب مجلتي الصراط المستقيم وسبيل الرشاد، وكلّ ذلك يجعله ممّن يقولون فيسمعون، بل إنه ما وصل إلى مكان القيادة في الجامعة والمجلس الوطني إلّا بما عُرف عنه من سداد وإخلاص!!.

ولم يخدم الفكرة الإسلامية بقلمه النائر وحده، بل بدواوينه الخمسة التي توالى حارة قوية نفاذة، تحت عنوان واحد هو «الصفحات»، وإذا كان الشعر أخذ من النثر لكثرة روايته، وعظيم تأثيره، فإن الكاتب المصلح «محمد عاكف» قد شاء

له القدر أن يدخل حرم التاريخ من باب الشعر على أن يذكر جهاده الإصلاحية الدائب، وكفاحه العلمي التأثير من بين معارجه الرفيعة، التي حملته إلى ذروة الوحي فتلقى أشعة الإلهام ليرتّم بها أبناء اللغة التركية في فخر وإكبار.

وقد كان ادّعاء أبي الهدى الصيادي سمت التصوّف، دافعاً للشاعر أن يبحث عن أصول التصوّف الحقيقي في الإسلام، فدرس فطاحل المتصوّفين في العربية والفارسية والتركية، واشتدّ إعجابه بآبن الفارض في العربية وبسعدي الشيرازي في الفارسية، حتى ترجم عنه أكثر أشعاره في صدر شبابه (بمجلّة ثروت فنون) ففتح عيون القارئ على بحر عميق الغور، ووصل بين الفارسية والتركية بأسباب أكيدة فوق ما عرف عن اللغتين من الامتزاج المتقارب في بعض الوجوه والسّمات!.

على أن أكبر أديب احتلّ شعوره وملك عليه منافذ تفكيره كان الشاعر المعاصر محمد إقبال، إذ أن صيحات إقبال العظيم في إيقاظ الشعور الإسلامي قد وجدت صّداها الرنان في نفس عاكف، فكانت دواوينه الرائعة سلوى نفسه ومثار عواطفه، يتحدّث عنه صديقه الكبير الدكتور عبد الوهّاب عزّام حين ودّع الحياة في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٦ فيقول بالعدد (١٨٧) من مجلّة الرسالة الغراء:

«وكم تحدّثنا وقرأنا في سيرنا وجلوسنا في الآداب الثلاثة العربية والفارسية والتركية، وكنت أحبّ أن أقرأ عليه شعره، وكان يسره أن يستمع إليه، وكانت كل أحاديثنا وقراءتنا متعة نجتمع فيها على الفكر والدّوق والأمل والألم، وكان أطيّب المجالس مجلساً نفرغ فيه إلى شعر محمد إقبال، فقد عرفني رحمه الله بإقبال يوم أعارني ديوانه (بيام مشرق) فإذا صَفَا الوقت عمدت إلى أحد كتب إقبال فقرأت، واستمع مُقبِلاً مستغرقاً، يقطع إنشادي في الحين بعد الحين بالاستعادة أو الاستحسان أو التعجّب أو التأوّه، وشدّ ما كان يثير إقبال نفسه أو يثلج صدره وشدّ ما كان يُحزّنه أو يُفرّحه، وأذكر أننا بدأنا كتاب إقبال «أسرار خودي» فولينا الجلسات حتى أنهينا إنشاداً، ثم أتبعنا به أخاه «رموز بي خودي» فختمناه على شوق إلى الإعادة.

تطرق بعض الباحثين إلى الموازنة بين شعر إقبال وشعر عاكف، وما قرأته في هذا الصدد يشير إلى أن إقبال كان إنشائياً! إيجابياً في شعره، فهو متفائل يلتبس القوة في ذات المسلم ويرى روحه الوثابة طاقة كبيرة، تستطيع القيام بعمل ضخم كبير، لو فطن إلى ذخائرها النفيسة، واكتشف عناصرها الفتية، مع أن الشاعر المتفائل ليست له أمة متماسكة، بل مُسلمو الهند لعهد أباديد هائمة في جماعات متنازعة متناحرة، مما كان يدعو إلى التشاؤم، لولا أن إقبال قد آلى على نفسه أن ينفخ في الصور ليستيقظ النائمون من أجدانهم إلى بعث جديد.

أما عاكف فقد أمضه تقلص الظل الإسلامي واقتطاع أجزائه وسوء الواقع في تركيا وما ترعاه من ممالك، فاكتفى بالنواح والبكاء، ونظم زفراته الحارة أبياتاً باكية ذات شجن ملتان! مع أنه يعيش في وطن متماسك ذي حيز، يدعو إلى التفاضل لو كانت له روح إقبال وعزيمته! وفي رأينا أن البكاء الناتج نفخ في الصور من لون آخر فهو يدعو القارئ إلى تفهم المأساة، ويصبر عينيه بالكارثة الحاقة، ليهب هبة عاتية، ينتقم من أعدائه ويثار من غاصبيه! وإذن فليعاكف أثره الملموس في إيقاظ الهمم، وبعث العزائم! وإن كان لا يُقاس بأثر إقبال إذا قيس به! لأن كل شاعر يخط مجراه وفق مزرعه الوجداني، واستعداده النفسي، ولا يعقل أن يكون شعراء الإسلام جميعاً على جادة واحدة! وإن كانوا جميعاً على طريق سواء!.

لنا أن نستمع إلى بعض زفرات الشاعر كما ترجمها صديقه عزّام، فقد صدر الجزء الأول من صفحات ديوانه بقوله:

«سَلْنِي أَيُّهَا الْقَارِئُ الْحَبِيبُ أَنْبُثْكَ، سَلْنِي مَا هَذِهِ الْأَشْعَارُ الْمَائِلَةُ أَمَامَكَ؟
إنها أكداس من الكلام لا براعة فيها إلا الإخلاص، لست أعرف التصنع لأنني لست صانعاً، يقال إن الشعر دمع العين لا علم لي بهذا، ولكنني أرى أن كل ما أسطر هو بكاء العجز، أنا أبكي فلا أستطيع أن أبكي، وأشعر فلا أستطيع أن أبين، وإن الشقاء أن يُحرّم القلب الشاعر لساناً، اقرأ إن كنت تنشّد قلباً حسّاساً، اقرأ فما كتبت كلمتين إلا سَطَرَت هذا القلب».

كما قال في ديوانه الأخير - والترجمة لعزام أيضاً :-

«ما كنت لأقف معقول اللسان أقلب الطرف فيما حولي، لم يكن لي بُدُّ أن أنوح لأوقف الإسلام، إنما أريد أن تفور القلوب المرهفة الحس، السراخنة الإيمان، وأما التفكير الطويل فقد هجرته منذ أمد بعيد، إني أنوح، ولكن لمن؟ أين أهل الدار؟ أقلب طرفي فلا أظفر إلا بأمم نائمة.

لقد خنقت صرخاتي، وحملت نعشها، ثم مزقتها تمزيقاً، ودفنتها في شعري المنهمر، أسيله في غير هدير كالدموع الخفية لا أجد في هذه القبة الصماء لآلامي أثراً، فليش الخسران الذي في صفحتي دون حس ولا ركز».

ونحن حين نعرض نماذج من شعره لا نريد أن نحدد مكانه الأدبي، ونصف سماته الأسلوبية بقدر ما نريد أن نحدد اتجاهه الإسلامي، والجزء من شعره في هذا المجال يُنبئ عن كنهه، إذ أنه جمرات ملتبهة تشب في أتون مسجور! هو قلبه اللهيف!.

لقد قَدِمَ القاهرة في سنة ١٩١٢ زائراً المشتى الجميل بالأقصر، وواصل الخطو في ديار الإسلام، فوجد نفسه غريباً بين أهله وذويه، عن يمينه وشماله أوروبيون من إنجليز وفرنسيين وألمان يملؤون الكؤوس ثُمَلين، ويُواصلون السمر ضاحكين، وأمامه معابد الفراعنة تُشير إلى مجد عفا وسلطان أدبر، وواقع العالم الإسلامي من حوله يشير إلى ظلمات تتراكم وتمتد حتى يسود الأفق، وتهمد الأنفاس، كل ذلك قد هاج لواعه، فنظم قصيدة طويلة جعل عنوانها (في الأقصر) بدأها بوصف الطبيعة الهادئة ساعة الأصيل بالصعيد الأعلى عند غروب الشمس، فرسم مناظر بديعة للنيل بزوارقه ومجاديفه. ولللنخل السامق الباسق، وللفلّاح الكادح اللأغب، ثم انفجر يقول نقلاً عن ترجمة الأستاذ «أكمل الدين إحسان» بالعدد الرابع من مجلة الشعر: «ورأيت أمامي نحو ثلاثة عشر نفرًا من السائحين، ما بين فرنسيين وإنجليز وألمان، مجتمعين زُرافات ووحداناً، وللکؤوس بينهم رنين.

فالفرنسيون يضحكون لأن كيسهم المملوء يهز الدنيا المدينة لهم هزاً عنيفاً،
وليس في الدنيا ما يُحزنهم إلا هزيمة «سيدان» ومع ذلك فإن الرّغد والرفاهية
يُنسيان الإنسان أنكى الجروح.

والإنجليز يضحكون وما أجدرهم بالضحك، لأن الدنيا كلها رهن إشارتهم،
إن قالوا لها موتي فستموت، يؤلّبون شعوب الأرض بعضها على بعض، وينظرون
عن بُعد فَرحين، فبينما يصطدم الحجر والفولاذ يُشعلون غليونهم.

والألمان يضحكون لأن قوّة عضدهم كفيّلة بأن يصدق العالم جميع ما
يقولون، وما دام البشر لا يعطي الحقّ إلا للقوّة، فما الحيلة في الوصول إلى الحق
بغير القوّة؟!

أضعيف أنت إذن؟ فالنحيب أولى بك!.

نعم في هذه الساحة من الصخب، صخب الحبور، وجَلَبَة السرور، أنا
وحدي اليأس الذي لا يتسم! قد أخذت أبكي وما أجدرني بالبكاء! فأنا كالغريب
من ديار ديني! لا من تراب هذه الديار ولا من نهرها.

هذه السهول لا ترجع حديثي! أيها الشرق العظيم، أيها العالم المترامي
الأطراف! ليت شعري في أي بقعة من بقاعك نجد أبناءك السعداء! إن رأسك
ترزخ تحت الشدائد وعضدك واه! وذراعيك مغلولتان! ولما يهب نسيم الاستقلال
على قلبك بعد! قد طفت في أرجائك كلها، لأرى أمامي داراً للإسلام فكّلت
قدمي.

وكلما تناهت إليّ من سيّلي أصوات الأجانب، لم تفض روحي الباكية إلا
بخيبة الأمل! فهل كان نصيبي أن أكون غريباً في قلب الإسلام! إن هذه العاقبة
لأقصى انتقام للأيام! والآن وقد تقدّمت بي السنون، ووَهت قدمي فعلى بُنيّ أن
يجاهدوا ويأخذوا بثأري!.

تلك جذوات ملتبهة مما اشتعل في صدر هذا الأتون المسجور وهي على ضآلتها القليلة كمأ فقط تشير إلى معدن أخواتها، وتدلل على درجات حرارتها، وفي الاقتصاد عليها نفع وعزاء.

- ٥ -

ولنا أن نوضح الآن نصيب محمد عاكف في معركة الإصلاح الديني، فنذكر أنه كان زعيم الحركة الإصلاحية التي ترى قيام الإصلاح السياسي والاجتماعي على سنن من هدي الدين الخالص بعيداً عما أضافته الأجيال المتعاقبة من قيود مذهبية تكبل حركة التطور الفقهي، وتقفل باب الاجتهاد، استناداً إلى ما عُرف بالإجماع دون نظر إلى ما في أصول الشرع من مرونة واتساع، تجعل دين الإسلام صالحاً للزمان والمكان على تناسل الأحقاب والإجماع بمدلولة المتحجر عند الجامدين يلزم الناس بالوقوف لدى ما انتهى إليه أصحاب المذاهب دون أن يتعدى القرن الثالث الهجري، ولكنه بمعناه الأصيل يشمل كل إجماع للعلماء في كل عصر، لأن لكل وقت ظروفه وملابساته التي تدعو إلى أحكام خاصة، يجتهد في أمرها، ويصدر إجماع بشأنها.

وقد كان مذهب عاكف يعارض مذهبين مختلفين في تركيا: مذهب الرجعيين من رجال القصر، والمتنفعين بغنائم الحكم ممن يرون في استبداد الحاكم مغنماً شخصياً تتحقق رغائبهم في ظلّه، فهم يتمسكون بالأوسمة والألقاب والرتب والنياشين، وقد جعلوا وظائف الدولة مقصورة على المسلمين، فكلّ مثقف من أبناء هؤلاء يبحث عن الوظيفة ويجعلها هدفه الأخير والأول، مُشغلاً عن ميادين النشاط في البلاد: من تجارة وصناعة وزراعة! حتى وقر في الأذهان أن المسلم كسول متواكل لا يُغامر في معاش أو يهدف إلى جديد!.

أما المذهب الثاني: فمذهب الإصلاح القومي، وقد تزعمه المفكر الكبير ضياء جاك ألب - وصاحبه أديب شاعر ممتاز - نشأ في ظروف متشابهة لنشأة عاكف، وكان ذا غيرة وطنية، وحماسة قومية، نادى بالإصلاح عن صدق وغيره،

ولكنه تطرّف تطرّفًا كبيراً، حين دعا إلى القومية الطورانية مُعارضاً بها فكرة الوحدة الإسلامية .

ومن سوء حظّه أن دعوته فُهِمَت على غير وجهها حتى حسبته بعض الباحثين عنصرياً طائفيّاً، مع أن الذي يتعمّق أفكاره ويدرس آراءه يراه يعدّ الدين عاملاً هاماً من عوامل القومية، إذ أن الشعب في رأيه ليس مجموعة تربطها أواصر الجنسية، أو المناخ أو الإدارة، ولكنه مجموعة من الأفراد تجمع بينهم روابط الدين واللغة والأدب والأخلاق المشتركة! وقد صرّح أنه لا يؤمن بالقومية ما لم تكن قائمة على أساس ديني قويم، فاليهود الأتراك في رأيه ليسوا قوميين وإن سكنوا تركيا سنين كثيرة، وتجنّسوا بالجنسية التركية، وإنما هم (وطنداشي) أي بنو الوطن .

وإنما يرجع خطأ ضياء جاك آلب، إلى أنه نسي أن الدين الإسلامي الذي يعتبره عاملاً هاماً في القومية لا يعترف بالجنسية والدم، حتى يجوز له أن يدعو إلى القومية الطورانية في ظلاله، كما أنه تزعم الدعوة إلى لغة شعبية لا تحترم تقاليد الشر والشعر، بل ترفض قواعد التأليف منحدرّة إلى مستوى الحديث العلمي أسلوباً وتركيباً! .

وزاد الطين بلة حين فهم مدلول كلمة (علماني) بمعنى (لاديني) وإهما أن العلم في الإسلام لا يتفق مع الدين في كل وجوهه، ومن أجل هذا التطرّف في آراء ضياء جاك آلب كانت حركة مذهب الإصلاح الديني التي تزعمها محمد عاكف ذات صدى رنان في توضيح مبادئ الإسلام ومُثله! فلولا أنه ترأّس جماعة تقوم بهذه الرسالة الخطيرة وتضمّ أمثال «جناب شهاب الدين» «وتوفيق فكرت» لشاغت معاني الإسلام في أذهان الجيل الصاعد ممّن تربّوا بعد صدور الدستور سنة ١٩٠٦، وشهدوا الصراع بين الشرق والغرب في معركته الساخنة ذات المدد الحفيل .

لقد كتب الأستاذ الألماني «ريشارد هرتمان» رسالة موجزة عمّا سمّاه أزمة إسلامية تشمل عرضاً لدعوات التجديد في الحجاز والهند ومصر وتركيا، فكان من

الطبيعي أن يبرز دور عاكف ويتعرّض للموازنة بينه وبين أنصار المذهب القومي، فيما ترجمه الدكتور علي حسن عبد القادر بقوله :

«ومن الممكن على احتمال قليل أن نَمَيّر المذهب القومي بأنه سياسي ثقافي، والمذهب الإصلاحى بأنه دينى إصلاحى والمهم هنا: هو أن كليهما قد وضع لمسألة الدين طريقاً واحداً للسّير فيه، فكلُّ منهما يرفض الإسلام التاريخي ويطلب الرجوع إلى الإسلام الأول، وكلُّ منهما يرفض اعتبار الشريعة للوقت الحاضر ويطلب حرية الاجتهاد».

وفي هذا الكلام غموض يستدعي الإيضاح، فالمراد بالإسلام التاريخي هو قول هرتمان، هو ما أضيف إلى الإسلام على مدّ العصور من آراء وفتاوي لا تحمل عناصر بقائها، بحيث حُمِلَت عليه وظن أنها من تعاليمه، وهي أحكام جزئية لعلماء يُصَيِّبون ويُخطئون! أما رفض اعتبار الشريعة للوقت الحاضر فمعناه أن أقوال الفقهاء التي كَوْنَت ما ورثناه من كتب الفقه، لا تُقْبَل على علّاتها كقانون جازم لا مَحِيد عنه، بل لا بدّ من النظر في هذه الأقوال من ناحية، والاجتهاد المطلق في إصدار أحكام أخرى تناسب أصول الإسلام، وتصلح لأبناء هذا الزمن.

وقد فصل «هرتمان» ذلك بقوله عن مذهب «عاكف» فيما بعد: (فهو مع إحاطته على العموم بالحياة الثقافية والسياسية بتعمّق من الوجهة الإصلاحية في الدين، وما يعنيه من الرجوع إلى الإسلام يعني به الرجوع إلى الإسلام القديم، لا بإبعاد الأمور التي غيّرت منه أثناء تطوّره التاريخي فحسب، بل أيضاً وقبل كل شيء يريد الوقوف ضدّ هؤلاء العصريين المندفعين في تيار الغرب، وضدّ دُعاة المذهب القومي، فهي حركة دينية تريد أن يكون الدين قوّة تخضع لها كل الحياة المدنية في غير إضرار بحركة الفرد).

هذا هو عاكف العظيم! وتلك أضواء تشير إلى بعض مواقفه! طيّب الله ذكراه، ونصّر بالرحمة مثواه...

عبد الوهاب عزّام الأديب المجاهد الغيور

- ١ -

تحتاج الأمة الإسلامية في حاضرها الراهن إلى أقلام مجاهدة، تدفع بالباطل عن طريق الحق في إيمان راسخ لا يتزعزع فهي تتطلّع ذات اليمين وذات الشمال باحثة عن كماء باسليين تركوا أمكتهم دون أن يخلفهم من يسدّ الفراغ، ويحسّن البلاء، وإن في طليعة هؤلاء الذين يفتقدهم الخابطون في حنادس الليل «عبد الوهاب عزّام» إذ أن مكانه من القضية الإسلامية والأمة العربية، والبيان المحمدي، ينادي تلاميذه بلسان صارخ، أن هبوا من رقاكم، لتحسينوا القدوة بمن سلف فتحملوا الراية، وتواصلوا الكفاح!

لقد كان عبد الوهاب عزّام مكافحاً أيّ مكافح، لم يتشدّق بالثقافة والمنصب وأعلى الدرجات العلمية، وأخصب المؤلفات الفكرية التي توجت نضاله! ولكن خلق الإسلام قد أكسبه تواضع الزاهدين، وهذوء الباحثين، ولو شاء لضجّ وصخب، ولأعانت ثقافته الرفيعة على أن يجهر بنوغيه، فيعلن عن نفسه في تكبر واستعلاء، ولكن عزّاماً قد درس وتعلّم، لتكون دراسته الخصيصة المتعددة الأفنان تربية سلوكية، تدعو إلى الخطة المثلى في دنيا الخلق، كما كانت منارة مُشعّة تمرّق الحوالك في دنيا الظلمات!

لقد كان الرجل الكبير ذا هدف بارز حيّ يتضح بجلاء في جميع ما كتب من مقالات، وناقش من أبحاث، وسطر من مؤلفات، وعالج من قضايا، ونظم من شعر، وترجم من آداب، فقد نشأ بالأزهر، وتعلّم في مدرسة القضاء، ثم رحل إلى أوروبا متزوّداً من ثقافة العصر، ورجع ليأخذ مكانه في قيادة الشبيبة من أبناء الجامعة، وهو في مختلف أدواره، وتقلّب أطواره المسلم الغيور الذي تزيده الثقافة المطمئنة إيماناً بدينه، وهياماً بمثله، وبصراً بمزالق الريب في مسلك الثقافة المعاصرة، وخصوصاً إلى اللباب المستكنّ من الحقائق بعد أن تنكشف عنها قشور الخداع، وأغطية التمويه، وأنت تتابع بحوثه ومعاركه فتشهد نعمة الله السابعة تتجلى في عمق النظرة، ونصاعة القول وعِفّة القلم، ثم تأسى على رحيله المُباغت دون خلف.

لقد رسم «عزّام» صورة المسلم المثالي حين درس لغات أبناء الإسلام من فارسية وأردية وتركية وعربية، دراسة تعاطف وتواؤ وإيمان، قبل أن تكون دراسة ليسانس وماجستير ودكتوراه، فقد شعر في أطوائه العميقة بدافع قوي يجذبه إلى أن يلمّ بمعضلات المسلمين في كل مكان، وأن يكون سفيرهم الفاحص عن أدوائهم المستعصية عن طريق مباشر لا تغيم فيه كدورة الناقلين، أو خداع المُضِلّين، وقد رأى الأخوة الإسلامية لا تتمّ بحقيقتها الرائعة إلّا إذا خاطب كل مسلم بلغته، وشافه كل مؤمن بلسانه، فالتمّ بقضاياهم ومعاصلهم، ثم اندفع ينادي بالإلفة والتحابّ، ويدعو إلى التواؤ والتراحم في أمة «كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر» وصدق رسول الله ﷺ.

لقد سمعت من يتحدث عن «عزّام» فيقول: إنه كان عصبه أُمم إسلامية، مُشيراً بذلك إلى تضلّعه الموسوعي في شؤون المسلمين بكل مكان! ولئن صدق هذا المتحدث في مضمون قوله فقد أعوزه التعبير الدقيق في توضيح مُرادِهِ، إذ أن عبارة «أُمم إسلامية» كاذبة خادعة، فالإسلام أمة واحدة لا تعرف التعدّد وقد قال الله عزّ وجلّ في كتابه ﴿إِنْ هَذِهِ أُمَمٌ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾، ووضع كلمتي أُمم إسلامية مكان دول إسلامية خديعة نكراء بدأ بها كهنة الاستشراق عن

غرض، ثم فعلت السياسة أفاعيلها في تضليل المسلمين، فأصبحوا يرون أنفسهم أمماً مختلفة، وقد قال الله عنهم إنهم أمة واحدة.

وقد كانت حياة «عزام» الخصيبة العريضة بعض الأمثلة الحية لأحد أفراد هذه الأمة العريقة، إذ كان يصدر في أحاديثه ومؤلفاته عن روح الأمة الواحدة، ولتضرب الأمثلة على ذلك ببعض ما أثير عنه، وهو مما تشتد الحاجة إليه في زمان تصدّر فيه للحديث عن المسلمين من لم يقرؤوا شيئاً من كتبهم وتاريخهم وإنما وجدوا شذرات مبتورة بنوا عليها الأحكام الجائرة، فطفقوا يتخرّصون.

يتزايد كثير من المتحدثين عن الشعبوية في الأدب والقومية تزيّداً ترفضه حقائق التاريخ الصحيح، فهم يتصيّدون بيتاً أو أبياتاً قالها بشار أو أبو نواس أو مهيار، وكتاباً ألفه أبو عبيدة أو الكلبي، ليجعلوا من ذلك دليلاً على اضطغان الفرس على العرب في الدولة العباسية، وهي شئنة نعرفها من دُعاة المستشرقين، ولكن الاندفاع في تضخيمها وتجسيمها مما يُنافي الحقائق الصارخة، فإن جمهرة القائمين على الدولة العباسية من الفارسيين كانوا من حصونها الواقية وأسلحتها المدافعة، ومحاولة الانتقاص على الحكم العباسي قد وجدت من العرب في بعض أحوالها كما وجدت من الفارسيين، وليس معنى ذلك أن مؤامرة شعوبية تدبّر من فارس للعرب كما يحاول بعض المغرضين أن يجوّفوا الحقائق ليمزّقوا أعضاء الجسد الواحد.

فالدولة العباسية وجدت أنصارها سياسةً وعلماً وأدباً من الفارسيين، ولم تكن لتقوم بغير تكاتف أبناء الإسلام جميعاً على صيانتها والدّود عنها، وإن انتفاضة ثائر أو ثائرين استثناءً من القاعدة المطردة يلحق بالشواذ، ولا يمكن أن يكون أصلاً ترسو عليه الأحكام.

وأنت إذا أحصيت الثائرين على الدولة العباسية من العلويين والخوارج وهم من العرب الأقحاح، وجدتهم أكثر من ثائري الفرس والديلم، فلم تكن الثورة إذن شعوبية تهدف إلى كيد دولة لدولة ولكنها مما تضطر إليه طبائع البشر، وفي الأسرة

الواحدة ذات الجدّ الواحد أبناء يتخاصمون ويتنازعون دون أن يفسّر ذلك ببعض ما نصّيدّه من بذور التفرقة والشقاق لأُمور يعلمها الله، وبهذه الروح الصادقة يكتب الأثبات من دارسي التاريخ، وفي هذا المجال يتحدّث «عزّام» عن علاقة العرب بفارس فيقول عن مجلة الرسالة ٦ شوال سنة ١٣٥١ أول فبراير سنة ١٩٣٣ ص ١٧ :

«فتح العرب الأقطار باسم الدين، فلم يكن إلّا أن يسلم الفارسي فإذا هو واحد من المسلمين الفاتحين، ثم كان حكمهم على رغم مصائب الحروب وفظائعها عدلاً لا عنف فيه، وكان في الفرس على هذا من وجدوا في الفتح الإسلامي مخلصاً من اضطهاد ديني، فالديلم من جند الفرس انحازوا للمسلمين بعد القادسية وأسلموا، وعاونوا في واقعة جلولاء، ثم استوطنوا الكوفة، ونجد من الفرس مثل (أبي الفرخان) الذي عاون العرب في فتح الريّ فوُلّي عليها، ونجد «مرزبان مرو» يخذل يزيدجر ويرسل أمواله بعد أن قُتل إلى أمير العرب هناك، وقد أعطى العرب الفرس الذين قاتلوا معهم حظهم من الغنائم، وفرض عمر في العطاء لمثل المرزبان في المدينة، وأحسن «عمر» إلى الفلاحين الذين لم يقاتلوا.

ويقول الطبري عن أهل فارس : «وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا في زمن الأكاسرة، فكانوا كأنما هم في ملكهم، إلّا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل عليهم فاغبتطوا وغبطوا، وقد بقي الفرس أحراراً في دينهم وبقيت معابد النار في الجهات كلها ولا سيما فارس، فقد حكى المؤرّخون «كالاصطخري» و«ابن حوقل» أنه لا توجد قرية في فارس بغير معبد نار، وأن جمهور أهلها من عبدة النار، وأنهم في شيراز لا يمتازون عن المسلمين في مظاهرهم، وكانت معابد النار تُحمى ويُعاقب مُخرّبوها.

وإنما تناقص عدد الزرادشتيين بدخول كثير منهم في الإسلام وقد دخلوا فيه أفواجا حتى شكّا عامل خراسان إلى «عمر بن عبد العزيز» قلّة الجزية فأرسل إليه «أن الله بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً»، على أنهم بقوا كثيرين إلى عصر قريب.

إنما أفيض في هذا لأبين أن العرب والفرس بعد الفتح لم يكونوا في نضال مستمر، وأن العرب لم يستعبدوا الفرس كما يحسب بعض الناس. لم يفعل العرب إلا أن حطّموا الحدود الوطنية فشاركوا الفرس في جماعة أوسع، ونالوا من العلوم والآداب التي تعاونت عليها الأمم الإسلامية، ونالوا عليا المناصب، فالبرامكة مثلاً كانوا يديرون للعباسيين مُلكاً أعظم وأوسع ممّا كان يديره بزرجمهر لأنوشروان».

هذا نمط من اتجاه عزّام في موضوع كثر فيه التخرّص المقيت، ونحن نحبّده لا لأنه يُرضي عواطف المخلصين من أبناء الإسلام، بل لأنه ينحو منحى الحقّ الصريح، فيعلن أن كثيراً ممّن اعتنقوا الحنيفية السّميحة في فارس قد أسلموا طواعية دون إكراه، وفيه من وجد في الدين الجديد مُخلّصاً من الاضطهاد الطبقي الكريه، ولم يكن المُسارعون إلى الإسلام من صغار الكادحين، بل شاركهم السّبق نفر من ذوي السلطان والجاه، ومن بقي على دينه تُركت له معابده وطقوسه وصلواته ليُزاوّل أمور ديانته دون تحرّش أو انتقاص.

وظلّت معابد النار تؤدّي دورها في كنف الإسلام، فإذا هاجمها متسرّع من ذوي الطيش لقي جزاءه الصّارم من العقاب، أما ذوو السياسة منهم في الدولة العباسية فلم يحملوا للإسلام أو العرب ضغنّاً يدفعهم للثورة الحاقدة، وما كان من ذلك فمذهبه مذهب الحياة المُشاهدة في الدولة الواحدة والجنس الواحد والدين الواحد، فكيف مع هذه الحقائق الصريحة تُقام الدعاوي العريضة مستندة إلى شعر يقوله بشار أو عبّث ينظّمه أبو نواس، فإذا قال الأول:

أحين كُسيّت بعد العُري خِزراً ونادمت الكِرام على العقار
تفاخر بابن راعية وراعٍ بني الأشراف يالك من خسار

وإذا قال الثاني:

يبكي على طلل الماضين من أسد لا در درك قل لي من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ولفهما ليس الأعراب عند الله من أحد

وإذا قال غيرهما نظير ما قالاه، فذلك دليل الحقد العارم على العروبة! وعنوان الشعوبية التي تفيض بالثورة والحفيظة والانتقام، وكأن الناس لا يعلمون أن عَلم العروبة ودين الحنيفة لم يخدما بأكثر مما كتبه علماء وأدباء وفقهاء ومحدّثون، منهم: «البيهقي والنيسابوري والخوارزمي والجرجاني والتفتازاني والزمخشري والرازي والشيرازي والبيضاوي والبخاري والنسائي والفارابي والقزويني والطوسي والسمرقندي والترمذي والسجستاني والنسفي والهمذاني» ومَن لا نستطيع أن نحصي من أسماء هؤلاء! فيا ليت قومي يعلمون فيقصرون.

وتُتبع هذا المثال بمثال آخر لعزّام، تحدّث فيه عن علاقة التّرك بالعرب والمسلمين حديث المؤمن الذي يرأب الصّدع، ويضمّد الجرح، وذلك حين حاول الكماليّون أن ينتقصوا العروبة والإسلام، فيرجعوا إليهما وإلى الخلافة الإسلامية ما نزل بتركيّا من التفهقر والخذلان، ووجدوا من أعداء الدين مَن يظاهرونهم على الباطل فيشيدون بهرائهم الزائف مُسرّفين، وكادت نفوس الضعفاء تتزعزع في مهبّ العاصفة لولا أن صمد للباغين نفر من ذوي العزم الصادق كان في طليعتهم عبد الوهّاب عزّام، حين انبرى يسلسل المقالات المتتابعة في مجلة الرسالة المجلد الثالث ص ٩٤١ وما بعدها، تحت عنوان النهضة التركية الأخيرة ويتحدّث عن مشاعر المسلمين إزاء الأتراك فيقول:

«التّرك العثمانيون إخوان لنا، نشأنا على حبّهم ومنحناهم قلوبنا فتمكّن بها ولاؤهم، وشببنا نعدّهم عَلم المسلمين الخفّاق في زمن تنكّست فيه أعلامهم، وجيشهم المُجاهد على حين تفرّقت الأجناد، وتخاذلت الأعضاد، كنّا نعدّ مفاخرهم مفاخرنا، ومثالبهم مثالبنا، ونرى صلاحهم صلاحنا، وفسادهم فسادنا، نفرح كلما فرحوا ونبتسّ كلما ابتسّوا، وكلما نزلت بهم نازلة نصرناهم جهد العاجز بالسّتنا وأموالنا وأيدينا، وسع الأيدي المغلولة والأعضاء المغلوبة، ولَمّا قذف جنود التّرك الأنجاد بجيش اليونان في البحر كاد الناس في مصر وفي غير مصر يجنّ جنونهم فرحاً وزهواً... ثم قال:

«مهما يقل القائلون في صحّة الخلافة العثمانية وفسادها وجدواها وضررها، ومهما يفتن المجادلون في تبيان ما جلبت على الدولة من المصائب، ورمتها به من عداوة أوروبا، فلا ريب عندي أن الخلافة ما أضرت بالدولة العثمانية قط، بل نفعتها أحياناً.

ما حاربت أوروبا العثمانيين بما كانوا دولة الخلافة بل بأنهم دولة مسلمة شرقية، وقد ثارت الحروب منذ نشأت الدولة، وقبل أن يلقب السلطان بأمير المؤمنين، ولم يكن مكان الترك في الخلافة الإسلامية واضحاً في معظم أطوار حروبهم، بل استقرت لهم الخلافة عند المسلمين ودول أوروبا أثناء هذا الجراد المديد والحروب المتوالية، إذ اعترف المسلمون أن رأسهم هو هذه الدولة القوية المجاهدة، واعترف الأوروبيون في العصور الأخيرة أن للترك أن يتكلموا عن المسلمين، كما يتكلم الروس عن المسيحيين، فلم تكن الحروب نتيجة الخلافة، بل كانت الخلافة نتيجة الحروب، وهي على هذا لم تكن واضحة، ولا ادّعاها العثمانيون صراحةً إلا في العصور الأخيرة، ولو أن أوروبا شنت على الدولة العثمانية غاراتها من أجل الخلافة، فلماذا قضت على الدولة التيمورية في الهند، ودولة الأشراف السعديين في المغرب وغيرهما؟.

الحق أن انتحال الخلافة نفع الدولة العثمانية حين ضعفها، وكساها هيبةً وجلالاً في الشرق والغرب، وقد أدرك ذلك السلطان «عبد الحميد» فاجتهد أن يمكن هذه الخلافة في نفوس المسلمين كافة ليرهب بهم أوروبا». أقرأت هذا المنطق المتزن في تعمق الأمور، واكتناه الأسباب؟! ألمست هذا الشعور الحارّ بعواطف المحبة والإشفاق نحو أناس نابذوا العرب العداء وتنكروا للإسلام في أكثر ما يشرعون؟! لقد كان الدكتور عزّام يعلم أنه يخاصم الحكومة التركية لا الشعب التركي، ففاض بمقالاته المتتابعة ونفسه تتقطع ألماً، دون أن يسمح لبوادر الغضب أن تعصف بهدوئه، ومثله في اتزان الحكيم، جدير أن يقول فيسمع.

فإذا تركنا الفرس والترك إلى العرب أنفسهم، فإنك واجد لدى «عزّام» من مشاعر الحب العميق ما تحسه في أطوائك وتبنيه في عواطفك، وتريد أن تعبر عنه

فلا تبلغ مبلغ الكاتب الأصيل حين يقول نقلاً عن الأوابد ص ٢١٩٧ من الطبعة الثانية: «يذهب المصري إلى أحد الأقطار العربية، فكأنما برح بقعة في مصر إلى أخرى، يرى وجوهاً يعرفها ولا تنكره، ويسمع من أحاديث الماضي والحاضر ما يسمعه في بلاده، ويحدث عن الهموم والمطامح التي تنطوي عليها نفسه ويخفق بها قلبه، حيثما توجه وجد أهلاً بأهل وإخواناً بإخوان، وأبصر من ذكر التاريخ ومشاهد الحاضر وخطط المستقبل، ما يُوحى إليه أنه في وطنه وبين قومه، وأنه لا يذهب إلى هذه البلاد، إلّا ليرى بعينه ما حدث به التاريخ، وأحكمته في نفسه النشأة والتعليم.

ذهبت مرّات إلى فلسطين والشام والعراق، فكان يخيل إليّ أينما سرت أنني لا أخطو إلّا على صفحات من التاريخ المجيد ولا أرفع بصري إلّا على عنوان من عناوينه في صورة مسجد أو مدرسة أو قبة وُضعت على عظيم من أسلافنا أبطال الإسلام والعربية، وطوّفت في العراق مدنه وقراه وحضره وباديته فكانت بغداد عندي القاهرة بل أجلّ ذكراً، وكانت الكوفة والبصرة والموصل أعظم أثراً في نفسي من طنطا والمنصورة وأسيوط، وكانت مضارب شمر وبنو تميم أذهب بي في التاريخ من مضارب القبائل المصرية، وأما دمشق الجميلة الجليلة فما دخلتها إلّا ازدحمت عليّ أحداث التاريخ، ودفعتني مواكبه فسارعت إلى المسجد الأموي أنشد قول شوقي:

هذا الأديم كتاب لا كفاء له رثّ الصوائف باقٍ منه عنوان
ولست بدعاً في هذا، فما أحسب مصرياً ذهب إلى هذه البلاد إلّا شعر بما
أشعر به».

- ٢ -

خاض الدكتور «عبد الوهاب عزّام» معارك قلمية كثيرة وعالج شؤوناً أدبية متشعبة، فصدر عن فكر حيّ، وعاطفة بصيرة، ومثل عزّام من أصحاب الرسائل الهادفة يعرفون بسيماهم فيما يصدر من أحكام، ويعالجون من قضايا، فقد ظهر

من كُتّابنا الأحرار في هذا القرن أناس يلتزمون المنهج الإسلامي في كل ما يكتبون، فإذا حُمِيَ الجدل في أمر من أمور الثقافة أو الاجتماع أو السياسة تدافعوا يركضون في الحلبة ونورهم يسعى بين أيديهم، فأنت قبل أن تقرأ مقالاتهم تعرف اتجاهها ومَرمَها، لأنك تعرف رأي الإسلام الذي يصدر عنك، وليس معنى ذلك أنهم لا يأتون بالجديد، فكل حججهم دأمة، وجُل أفكارهم جديدة يطرد نسقها الطريف في تسلسل مُقنِع وإحكام شافٍ، وإنما معناه أنهم جنود في معركة ذات أهداف، وأن إيمانهم بقوة الهدف، وسلامة الاتجاه، يحدّد لهم معاني القول الكلية، ويرسم إطار الحديث رسماً واضحاً، فهم في أمان يعصم من الزلل، وفي استواء على الجادة يمنع السقوط.

ولعلّ من مزايا الإسلام الواضحة أنه يهيمن على أحاسيس أبنائه هيمنة تُبرز تأثيره في جميع ما يصدر عن المسلم الصادق من قول أو فعل، لذلك كان الأديب المسلم لا ينسى دينه لحظة في جميع ما يُبدع، فهو إذا تكلم في الأدب أو التاريخ أو الاجتماع أو الفلسفة فإن شعاع القرآن يتألق في حديثه اثلاقاً باهر الضوء، فيُكسبه إشراقاً يتضح في نضاعة اللفظ، ووضوح الفكرة، وسطوع البرهان.

وإذا كان الإسلام لا يُعادي العقل بل يؤازره في اتجاهه ويستعين به في استدلاله، فإن الكاتب الإسلامي الملتزم لن يقدّم لقرائه أفناً غير معقول، أو هذراً غير مقبول، بل إنه يجلي الحقائق الكاشفة لأولي الألباب مخاطباً إياهم بقول الله عز وجل: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾.

لقد عاش الدكتور في عصر امتلأ بفوضى المذاهب والأعمال والأخلاق، وقد تقدّم فيه العلم التجريبي تقدماً شاسعاً دون أن يتقدّم معه الوعي الخلقي، فانفجرت مسافة الخلف بين الحضارة الصناعية القائمة على قوانين الطبيعة، والنفس الإنسانية التي غرقت في شهوات العصر، دون أن ترتفع إلى منازل الكمال وترتّب على ذلك فساد المجتمع بما افتنّ فيه تجار المآثم من إغراء، حتى سُميت الأشياء بغير أسمائها، فصار التبدّل حرية والسقوط تحرراً، والرّبا تجارة، والأتزان جموداً، والدين رجعية.

وتلك حال دفعت الكاتب الغيور إلى أن يتحدث عن أدواء العصر في مقالات متتابعة، سجّلتها افتتاحيات الرسالة في سبتها السابعة عشرة، فنطق بحكم الإسلام فيما يشهد من انحراف، وإذا كان العلماء الرسميون قد أكثروا من الوعظ الكتابي والخطابي في هذا الحقل الخطير، فإن مثقفاً ضليعاً كالدكتور «عزام» لا بدّ أن يأتي بجديد القول والبرهان فيما يسنّ من علاج ويشخص من داء، وإن مكانته العلمية والأدبية في العالم المتحضّر لتجعل حديثه ذا بال، وسنلّم بلوامع بارقة من حديثه، ليقف القارئ على نمط رائع من الأدب الإسلامي يعزّ علينا أن نفتقده الآن فتراه قليل الحول ضعيف النصير.

تحدّث الدكتور عن الحضارة الأوروبية فأوضح أنها حضارة قوم ناصبونا العداء في القديم والحديث، ثم انتصروا علينا بما أتاح لهم العلم الصناعي من أسلحة الفتك والدمار، وأدوات الترف والمدينة والتقدّم، فبهروا النفوس بما أبدعوا من رقيّ وفتنت الأغرار منّا أضواء المسارح والمعارض والأزياء فاندفعوا إلى اقتباسها، وقعد بهم عجزهم عن اقتباس وسائل العلم الحضاري، فأقعدهم مركّب النقص عن التسابق مع الأوروبيين في ميدان العمل المُثْمِر، وقد نتج من ذلك أن أنكرنا أنفسنا وحقّرنا ما عندنا، وكم زرينا على أشياء ورثناها وعرفناها حتى إذا أخذها أهل أوروبا وأعجبوا بها سارعنا إليها ورضينا بها لأنها حازت قبولهم المرجح.

ثم أتبع ذلك الدكتور بقوله المريع: «ليتنا حين أخذنا عن غيرنا أخذنا الجليل والحقير، وحاكينا في الجدّ والهزل، وكم في الغربيين من قدوة صالحة، وأُسوة نافعة، وخطّة حميدة، ولكن عظام الأعمال لها وسائل من الكدّ والدأب واحتمال المشاق والصبر عليها، وللمجد مصاعد شاقّة وتكاليف مرهقة، وسفاسف الأعمال هيئة قريبة، لذيدة يستطيعها كلّ مَنْ شاءها ويهبط إليها كلّ مَنْ لم يكلف نفسه الصعود، فقد أسرعنا في هزل الغربيين ولهوهم وشقّ علينا أن نضطلع بكثير مما اضطلعوا به، وعملوا له في نظام مُحكّم وخطّة شاقّة ودأب لا يكلّ».

ونظر الدكتور في محيط حياتنا العملية، فرأى أننا نسير على غير منهج، فليست لنا رقابة هادية إلى الفلاح، وقد ترك الأمر - في انحدار هذه الآفات إلى حياتنا الإسلامية - لطوائف من أصحاب الهوى المغرض آفة، ولمعشر من التجار الساعين وراء الكسب الرخيص بما يجلبون من سلع ضارة، ولنفر من أصحاب الملاهي يقومون على مرافق هامة من المسارح والأندية والصحف، فيوجهون الناس إلى ما يسوء! وضرر الصحافة الخادعة، أشر وأفدح إذ أنها تلج كل مجتمع، وتتسور كل منزل، وتقدم من الأفكار ما يعظم فيه حظ الخطأ، وجانب الهوى، حتى أصبحنا نرى أناساً يتصدرون لقيادة الجمهور دون ركيعة من علم أو خلق أو حياء، وقد يختلقون الأراجيف ليرفعوا باطلاً، ويهووا بحق، وأكثر القراء ساذجون يقرؤون فيصدقون، ويغترون فينحدرون.

أما المدارس ودور العلم فلدينا آلاف تغدو وتروح إليها وهمها الظفر بالشهادة ثم المطالبة بالوظيفة، ولكن الشعور برابطة الود بين الأستاذ والتلميذ منقطعة أو كالمنقطعة، فالتلميذ يتلقى الدروس بفتور لينجو من نقاش أهله، والمدرس يعطي المعلومات ليخرج من تبعه الحساب، ويرتاح من تهجم الناظر أو المفتش أو العميد، ونحن نريد ضميراً يرتاح لما يؤديه، نريد أن تكون المعاهد كلها أسراً كبيرة قائمة على التراحم والتعاقد تخرج للأمة كل حين من يتولى إصلاحها، ويكفل هدايتها، نريد أرواحاً لا أجساداً، وأشخاصاً لا أعداداً، ومعاني لا ألفاظاً وحقائق لا صوراً.

فإذا تركت المدرسة إلى الأسرة، رأيت البيت يهجر يوماً بعد يوم، تؤثر الأم عليه جولات في الأسواق أحياناً، وجلسات في الملاهي أحياناً، ويفر الأب إلى المقهى والملهى مؤثراً لراحته ولذته، ساكناً إلى لهوه ولعبه، مشفقاً من تبعاته في داره وواجباته في أسرته، والولد يقسو على والديه، ويلقى بالغلظة أبويه، وبطال بحقه ويحاسب عليه، ويعصى الوالدين أكثر مما يطيع! والمرأة تستبدل بكرامة الأمومة وعز الزوجية، ذل الخدمة، وعبودية المصنع وابتذال السوق، وتهمل جمال الخلقة ونضرة الطبيعة، إلى زيف الأصباغ والألوان.

وإذا كنّا نحن المسلمين قد سبقنا إلى تكريم المرأة والإشادة بحقّها في الميراث والمُلْك والتصرّف فيما تملك بكلّ الوجوه، ونُوليها كل أنواع العقود مما لم تنله المرأة الأوروبية في بعض دول الغرب إلى يومنا هذا . . . إذا كنّا قد طفرنا بالمرأة هذه الطفرة الرائعة فإننا لا نزال نسمع من يقولون إنها في البيت مغلولة مقيدة، ولا بدّ أن تخالط الرجال في كل مجتمع، وتغلبهم في كل عمل، لتأخذ بحقّها من المدنية! وقد نسوا أن مدنيّتهم هذه تدبير أسواق اللذة ومجامع الترف وأنديّة اللهو على المرأة البائسة وحدها! فهم لا يجدون غيرها سلعة رخيصة يتداولونها دون حياء أو تحرّج، وقد عبّر الدكتور «عزّام» عن الحقيقة المُرّة حين قال:

«لقد أدركتم على هذه المخلوقة البائسة كل دار للهو وكل مباءة للإثم، وعرضتموها على النظارة رقيقة في صورة حرّة ومُكرّهة كأنها مختارة، وباكية بوجه ضاحك، وشقيّة في ثياب سعيدة، ومبتذلة بدعوى التكريم، ومسخرة باسم التحرير جعلتموها وسيلة إلى كل كسب، وشركاً لكل صيد، وجلبتم بها المُشترين إلى متاجركم، ونشرتم صورها في آلاف الأشكال للترويج لبضائعكم، وجذب القُراء لصُحفكم، فأخذتموها إلى سواحل البحار، وإلى مسابح الملاهي، فعزّيتُموها ولهوتم بها ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وكذبتم على أنفسكم وعلى الحقائق فقلتم حرّرناها وأسعدناها، وليس للمرأة في هذا كله تحرير إنها مُسخرة مُسيّرة بأهواء الرجال وأشرار عبّاد المال».

والحقّ أن الكاتب الكبير قد أشبع قضية المرأة تحليلاً وتدقيقاً في صفحات رائعة تذكّرنا بما قاله الأستاذ العلامة «محمد فريد وجدي» رحمه الله في كتابه المرأة المسلمة الذي عقده للرّد على «قاسم أمين»!، ومع أن كتاب المغفور له الأستاذ «وجدي» قد صدر منذ أكثر من ستين عاماً حين لم يعمّ بلاء الاختلاط السافر كما عمّ الآن، فإن الأستاذ «وجدي» كان يرى بعين عقله ما نشاهده الآن على مسرح الحياة من عبودية المرأة واسترقاقها، مما فصله الدكتور «عزّام» تفصيل

المشاهد المتطلّع بعد أن حكاها الأستاذ «وجدني» حكاية المتفرّس المترقّب فتقابلا معاً على حكم سواء .

ويطول بنا القول لو ذهبنا نشير إلى كلّ ما سجّله الدكتور عزّام في مقالاته الرائعة «أمم حائرة» وهي فصول صادقة الحسّ، قوّة العاطفة شفّافة التعبير، وقد ختمت بأراء حاسمة تلخّص العلاج الناجع بما يهدي إلى الطمأنينة والخير، مهتدية بأصول راسخة من سنن الاجتماع وهدى الخلق وما يُوحى به الدين من الإيمان بالله والصدق والعدل! وهي في لبابها الخالص تذكير بما سبق أن أفاض فيه الكاتب المؤمن حين بسط الصفحات الطوال بالسنة الثامنة من مجلة الرسالة، متحدّثاً عن أخلاق القرآن وهي صفحات مؤمنة تأخذ مكانها الرائع في أدبنا التوجيهي المعاصر، ولن نعفي أنفسنا من الإشارة الهادفة إليها في هذا المجال! .

لقد اندلعت الحرب العالمية الثانية على الناس، فذهب الكتّاب يطبّون لأدوائها المستعصية كل مذهب، وكلّ منهم يفتنّ في تشخيص العلاج كما يُمليه اتجاهه الفكري في الحياة! وقد انبرى الدكتور عزّام لُسمع المثقفين في الإذاعة الأثيرية بمصر ثم على منبر الرسالة ما أوضحه القرآن للبشرية من أخلاق ترتفع بالناس من وهدة الشرّ إلى أوج الخير، وكان جديداً على الناس أن تظهر هذه الموضوعات التقليدية في قالب أدبي ممتاز يضمّ الفكرة الهادفة إلى الصورة الكاشفة إلى التعبير المحكم في غير تشدّق أو تكلف أو مُباهاة! وإنما هو حديث يتحدّر تحدّر المزن الصافي إلى العقول فيخصبها، وإلى النفوس فيروّيها ومن أعجب ما فيه هذا النفاذ السريع إلى الحقائق الأصلية في آيات الله، وحديث الرسول، وسير السلف من الصالحين .

وإنك لتسمع عشرات المتحدّثين يتكلمون عن الرحمة والعفو والإحسان والصدق والصبر والعدل وصلة الأرحام في أبحاث طويلة، ولكن الكثيرين منهم يفقدون بصيرة المؤمن النافذة إلى الجوهر، الهادية إلى اللباب، في غير ضجيج أو فرقة، بل ربما ساق لك الدكتور عزّام من القول ما تحسبه بدهياً واضحاً يعرفه

الخاصّة والعامة، ولكن مكانه من السياق، بجذبك إليه وكأنك تسمعه للمرة الأولى، فأنت تقرأه مستعيداً مأخوذاً، وتودّ لو طال القول أكثر مما طال لتستمرىء طعاماً هنيئاً له في حلقك مذاق الشهد، وفي جسمك نبض القوة وبأس الفتوة، ولك أن تقرأ طرفاً من مقدمة أخلاق القرآن نقلاً عن عدد الرسالة (٣٧٥) لتجد الداعية المؤمن يقول:

«كلّ ما يزدان به تاريخ الإسلام من سير الملوك والولاة والقواد والقضاة والعلماء والصالحين وغيرهم، فهو أخلاق القرآن تتجلّى في صور مختلفة، فإن رأيت ملكاً من المسلمين ملك الدنيا ولم تملكه، وسيطر على الأرض ولم تسيطر عليه، فسأس عباد الله بعديل الله، وأتعب نفسه ليربح رعيته، وراقب فيهم ربّه ليلة ونهاره، فهذا من أخلاق القرآن، وإن رأيت والياً دخلت الدنيا يده ولم تدخل قلبه، وكفّ يده عن المحارم ولم يألُ جهداً لخير الناس، فهذا من خلق القرآن، وإن رأيت قائداً يحتقر المهالك، ويقذف بنفسه في المعارك، ويفتح البلاد ولا يعيثر الفساد، قد ملكت القناعة قلبه ويده، وكفّ العدل عن العدوان فهذا خلق القرآن في أحسن مظاهره، وإن رأيت قاضياً كدّ عقله في معرفة الحق والتثبت، وأثر العدل وجانب الجور وأخلص لله فكره وحكمه وأقضى مضجعه عظم التبعة، فذلك من قضاة القرآن، وإن رأيت عالماً توجه إلى الله بفكره وأدام النظر في ملكسوت السماوات والأرض، ودأب في البحث ابتغاء الحق لا يميل مع الهوى ولا يرجو غير وجه الله فهو من علماء القرآن».

هذه فقرة من مقالة واحدة وكم لها من أخوات! ولا أتهم نفسي بالإعجاب بها دون مبرّر، حين أترك الدكتور: «زكي مبارك» رحمه الله يعلن رأيه فيها فيقول في العدد (٣٧٤) من الرسالة ص ١٣٧٥ ما نصّه: «سمعت المحاضرة التي ألقاها في المذيع عن أخلاق القرآن، فبهرت قلبي وعقلي، وأشعرتني أن من العقوق أن أسكت عن توجيه القراء إلى متابعة هذا الباحث المفضل، وإنما وجب ذلك التوجيه لأن مباحث الدكتور عزّام تتسق بالدقة وتخلو من البريق، فهو لا يجذب إليه

من السامعين غير طلاب المعاني من الذين يعرفون من قبل أنه باحث على جانب عظيم من الدقة والعمق.

شعرت وأنا أسمع محاضراته عن أخلاق القرآن أن القرآن نزل أسس، فهو يحدثنا بما نرى ونسمع من معضلات الوجود، ومع أن الدكتور: «عزاماً» أضاء روعي بهذا المعنى فما أحسست أنه تكلف أو تعسف، أو حاول الظهور بمظهر الغير على الشريعة الإسلامية، فهو يلقي كلاماً فطرياً سمحاً لا زخرف فيه ولا تنميق وهو ينقل إلى سامعيه آيات القرآن في لطف ورفق حتى لتكاد تحسب أنه وجدها مسطورة في صفحة واحدة من صفحات المصحف الشريف.

ومن العجب أن مقالات عزّام عن الأمم الحاضرة كمقالاته عن أخلاق القرآن، وكغيرها من البحوث الضافية لم تُجمع بعد في كتاب بل انسابت جداولها في أعداد الرسالة والثقافة! مع أهميتها البالغة في تكوين رأي إسلامي ثاقب وأدب ديني مستنير! ولعل كتابه الأوابد أقرب الكتب إلى طبيعة هذا الأدب الديني المنشود إذ أن أكثر صفحاته تنفح بعبير الإسلام وتضيء بتاريخ أبطاله وغرّ مواقفه، وقد قال عنه في المقدمة: «إن كلماته ذات حظّ من النزعات الروحية العالية التي تسمو بالإنسان عن الأهواء التي تنقسمه، والمطامع التي تستعبده، ومن المقاصد الجليلة التي تجمع الناس على خطّة من الخير والحق، وتؤلّف الناس كلهم على شُرعة من الإنصاف والعدل».

وللدلالة على مكانة الأوابد من الأدب الإسلامي نذكر أنها ضمت فصولاً رائعة عن الهجرة والمولد النبوي ومجلس رسول الله، والإسلام، والكعبة والحجّ وعرفات، ومؤتة، واليرموك، وعن عمر، وبلال، وعقبة بن نافع، والمثنى بن حارثة وعقبة، ومحبي الدين النووي، والمعتصم بن صمادح، وعثمان بن أبي العلاء، والمنصور بن عامر، وسعيد بن جبير، وعمر المختار، ومحمد إقبال، وديوجين، ومصطفى صادق الرافعي، وعن مصر وسوريا وعين جالوت والصحراء والأندلس وبغداد وعن ما لا أحصر من الفنون الأدبية والمناجاة الصوفية والغزل الشعري

العفيف... كل ذلك بقلم نأسى لاجتجابه بعد أن كان يفيض بإلهام صادق،
وشعور أمين!

فهيهات العقيق وكيف يدنو هيهات الغداة فتى العقيق

- ٣ -

ذكر الدكتور «زكي مبارك» أن عزّاماً يتّجه إلى المعاني مُتَحاشياً البريق اللفظي الخادع، وتلك سِمَة الكاتب الموضوعي الذي يجد لديه ما يقوله، دون أن يشعر بضرورة تَلَفُّته إلى التباهي برونق الصياغة، وجمال العبارة، وفي استطاعته كل الاستطاعة أن ينمّق وأن ينسّق، ولكن رسالة الإصلاح التي يحملها في قومه ترباً بصاحبها أن يظلّ رهين الاستعارات والكنائيات دون ما ضرورة، ولسنا بذلك ننكر جاذبية النثر الفني في دنيا البيان، ولكننا نؤكد أن ميدان الإصلاح الاجتماعي ومجال البحث الأدبي يحتمان على الكاتب الجاد أن ينصرف إلى الموضوع دون إجهاد...

لقد كانت البحوث الأدبية في بعض اتجاهاتها عند عزّام ردّاً علمياً على مُفترّيات تأخذ طابع البحث في النظر والتعليل، وكانت أخلاق الكاتب تأبى عليه أن يتعرّض إلى الأشخاص صارفاً وقته في إيضاح البواعث وكشف الأغراض، فهو يتّجه إلى الموضوع وكأنه ييسط فكرة علمية لا تتصل بمعارضة متشدّد، ونستشهد على ذلك بمقالاته المتتابعة عن الأدب العربي ومكانته بين الأمم وقد ظهرت أولاً بمجلة الثقافة سنة ١٣٦١ هـ سنة ١٩٤٢ م ابتداءً من العدد (١٩٧) وما يليه، إذ دفع إليها ما أذيع حينئذٍ من ضالة الأدب العربي إذا قيس بغيره، وهي دعوى تعتمد على السفسطة أكثر مما تعتمد على الحقيقة، وقد أصبحت تعلقة المستغربين من أدعياء البحث المقارن، وتطلّبت كاتباً ذا ثقافة واسعة كعزّام يصدع بالحق في هذه الدعوى المريضة، فشط الدكتور للقول محدّداً هدفه الموضوعي، فأعلن أن الأدب العربي أوسع ما نعرف من الآداب مكاناً، وأطولها زمناً.

فالآداب الأوروبية الحديثة كلها تؤرّخ بالعصر الذي يسمّى عصر النهضة ولا يزيد أطولها عمراً على خمسة قرون، والأدب الفارسي قد نشأ في حضانة الأدب

العربي منذ عشرة قرون، فأخذ الفرس أوزان الشعر العربي وقوافيه، ولم يكن لهم غيره مثلاً يحتذونه إذ لا نعرف حتى اليوم شيئاً عن الشعر الفارسي قبل الإسلام، وكذلك أخذ أدباء الفرس موضوعات النثر العربي وأساليبه، وأخذوا كذلك فنّ البلاغة العربية موضوعاً وألفاظاً، فبحثوا في البيان والمعاني والبديع على السُّنن المعروفة في الكتب العربية، وعن الفرس أخذ الترك والهند، كما أخذوا عن العربية مباشرة، لذلك يُعدّ الأدب العربي أدب المسلمين كافةً.

أما فلسفة اليونان وعلومهم، فلم تؤثر في البيان العربي قدر ما أثرت في علوم البلاغة إذ أن أثر المنطق وأرسطو يتضح في تقسيماتها وتعريفاتها اتّضحاً يُنبئ عنه أمثال قدامة في نقد النثر.

وقد كان للأدب العربي من القوّة والمكانة ما حفظ خصائصه على مرّ الدهور، وينبغي أن يُقال إن هذا الأدب كأمله، اعترّ بنفسه، واعتدّ بها مزهواً فكان من هذا الإعجاب ما صدّه أن يأخذ كثيراً من آداب الأمم، وهذا يصدق على الشعر أكثر من النثر لأن طرائق الشعر الجاهلي كانت أبين وأرسخ، ولأن الاعتداد بها كان أشدّ وأوفى.

وإذا تحدّثنا عن الآداب الأوروبية فإن المخلصين من باحِثيها لا يُمارون في اتصال الآداب العربية بها والتأثير فيها، فقد نشأ في جنوبي فرنسا في القرن الخامس الهجري ضرب جديد من الشعر ليس له أصل أوروبي، ولكنه يشبه أوزان الموشحات الأندلسية - يقصد شعر التروبادور - وموضوع هذا الشعر الجديد هو الغزل السامي العفيف المقتبس من الغزل العذري في الأدب العربي، والذي يحمل من العواطف الرقيقة ما يُوضح أثر الاحتذاء الواضح لأمثال جميل بن معمر وكثير غزّة والعباس بن الأحنف وقيس بن ذريح، هذا من ناحية الموضوع أما من ناحية الشكل فإن أوزان هذا الشعر المستحدث مأخوذة من الأدب الأندلسي أزجالاً وموشحات، وكما تسرّب الأدب العربي إلى أوروبا من الأندلس فقد تسرّب إليها من جنوب إيطاليا، وأثر في النثر كما أثر في الشعر، إذ أن أثر كليله ودمنة،

والمقامات وقصة المعراج ورسالة الغفران مما خاض فيه الباحثون لينتهوا إلى حقيقة هذا التأثير.

وقد أفاض الدكتور في هذه الحقائق إفاضة لم تذهب بقلمه إلى الإسراف والغلو، بل وقفت به إلى حدود الإنصاف المُحايد فقال في صدق: «وقد نظر الباحثون إلى الشعر العربي فلم يجدوا ملحمة كالإلياذة، ولا شعراً تمثيلاً كشعر أورستوفان فقالوا: إن الشعر العربي غناء كله ليس فيه قصص ولا تمثيل، وعابوه بهذا واشتدوا في العيب، ولسنا في مقام الدفع عن شعرنا ولا نرتضي لأنفسنا العصبية في تفرق الحق والاعتراف به، بل نعترف بأن ما في شعرنا من قصص قصير لا يُقاس بما أثر عن قدماء اليونان والرومان والهند والفرس، لأن شعراءنا عُتُوا بالقيمة لا بالكثرة فأتوا بالأبيات الرائعة القليلة في وصف المعارك الكبيرة، حين أطال غيرهم وأظهروا براعتهم في التفصيل والإطناب واستغنوا بهما عن الإبداع».

ثم أفاض الباحث في شعر الحماسة العربي وفي روائع الحكم الخلقية في التراث الأدبي! ونقد شعر الطبيعة لدى العرب بوقوفه عند المحسوسات السطحية دون التعمق في المعاني، ولكنه خصّ المدح في الشعر العربي بحديث جيد يُعلن أن الأماديع ليست كلها استجداء يخلو من العاطفة، بل إنها تتضمن أحاسيس الشعر وانفعالاته كإنسان ملهم، كما توضح وقائع السلم وحوادث الحرب، وتشيد بالمكارم الإنسانية والفضائل الخلقية والنقد يتّجه إلى الطريقة التي عُولِجَتْ بها دون أن يمسّ ما تضمنته من كرام الأحاسيس! وهكذا اتّسع نطاق الدفاع المخلص عن الأدب العربي في مقالات عزّام اتّساعاً ينقصه التلخيص! ولكننا نشير إليه، دالّين على موضعه من مجلة الثقافة ليقراه مَنْ يشاء.

وقد امتدّ جبل الجدل في مسائل هامة تعرّض لها الأستاذ الكبير «أحمد أمين» في الرسالة أولاً والثقافة ثانياً، ورأى عزّام فيها ما يدعو إلى النفاس الجادّ، وعزّام تلميذ أحمد أمين في مدرسة القضاء، ثم هو بعد ذلك زميله في الجامعة ولجنة التأليف وأكثر ما شاهداه من مؤتمرات ولجان ورحلات، فإذا تعرّض لمجاذبته

الرأي فهو تعرّض المخلص الودود الذي لا يفوته شيء من مقالات أستاذه وصديقه! لقد ناقشه في السنة الأولى من الرسالة وفي السنة الأولى من الثقافة، ثم في السنة الخامسة منها وكان عزّاماً أحسن بعد الاعتراض على متابعة صديقه في نقاشه الأخير بالثقافة العدد (٢٨٢) فقال:

«ولعلّ الأستاذ الفاضل - يريد أحمد أمين - لا يقول ما بال فلان لا يكتب في مشاكلنا ولكن يعترض ولا يتبدى ولكن يعقب، لا يقل الأستاذ هذا فإني لا أجادله إلّا قليلاً حين لا أجد من الجدال بُدّاً، وربما تتوالى الأعوام لا أعترض له فيها رأياً وقد مضى على مناقشتي إياه في الأدب الجاهلي أربعة أعوام لم أجادله فيها».

ولباب ما اتجه إليه النقاش في المرة الأخيرة بعد هذا التبرير المتواضع، ما ذهب إليه الأستاذ أحمد أمين من اصطناع لغة عربية خالية من الإعراب ومن الألفاظ الضخمة، ومستعملة للكلمات العالمية ذات الأصل العربي لتكون لغة الجمهور، أما الخاصّة فلهم اللغة الفصحى يكتبون بها للمتخصّصين، ويقرؤون بها التراث القديم، وينتفعون به وينقلون منه ما شاؤوا إلى اللغة الجديدة لنفع الجمهور.

وقد قال الدكتور عزّام في تفنيد ذلك: «إني أردّ هذا الرأي من وجهتين: الأولى أنه يجعل للأمة لغتين حقاً، ويبقى هذا الفرق البين بين الخاصّة والعامة، ويلزم الأديب أن يكتب مرة للعامة ومرة للخاصّة، ويضطر القارئ إلى الاضطراب والقلق بين هذا وذاك، فليس بين العامة والخاصّة حدّ واضح، وكثيراً ما يشتركون في قراءة مقالات وكتب، ثم أنكتب الجرائد بلغة معربة أم بلغة غير معربة؟ لقد توهمنا أن لنا لغتين ففكرنا من هذا، ورأينا رأياً للخلاص منه فإذا هو يحقّق ما توهمناه ويوقعنا فيما أشفقنا منه».

ثم تعرّض عزّام إلى إهمال الإعراب فقال: «وأنا أزعّم أن العامّي يستوي عنده أن تكتب له ألفاظاً معربة أو غير معربة طالما كان اللفظ معروفاً عنده، والموضوع في حدود معارفه، فإذا كتبت له: «محمد شارك عليّاً في التجارة» فهمها كما يفهم محمد شارك علي في التجارة. فالشرط الأول لكلّ إفهام أن تضبط له

الكتابة ضبطاً ييسّر له قراءة الجملة كما أرادها الكاتب وسيان عنده بعد أن يقرأها مضبوطة صحيحة وأن تكون معربة ومهملة».

وكم يلدّ الباحث أن يُفرد موضوعاً خاصاً بمناقشة عزّام «لأحمد أمين»، لأن صاحب فجر الإسلام عالم مُصلح وكاتب غيور، ولكنه يميل إلى التجديد والابتداع في أكثر ما يقترح! ولا بدّ لصاحب المقترحات المتابعة من طفرات متسرّعة تكون ميدان المجاذبة، وعزّام كاتب مطمئن يميل إلى الابتداع المعتدل دون شطط في الابتداع! وقد كانت مُساجلته لأستاذه حول موضوع جنابة الأدب الجاهلي على الأدب العربي موضع ارتياح القارئ إذ أنها قُوِّرت بمناقشة أخرى صاخبة أدارها الدكتور زكي مبارك في الرسالة تحت عنوان جنابة أحمد أمين على الأدب العربي وقد تسلسلت حلقاتها حتى بلغت العشرين! وإذا بدّا مبارك ثائراً غاضباً محقّق الأسلوب فقد كان عزّام هادئاً مقنّعاً يجادل بالتي هي أحسن، لذلك كان موضع الإيثار لدى المنصفين.

وقد سبق الأستاذ أحمد أمين صديقه وتلميذه إلى لقاء ربّه فكتب الدكتور عزّام ذكرياته عنه في مرارة وحزن، وعرج على اختلافهما الأدبي في بعض الآراء فقال: «لا أذكر أنني خاصمت الأستاذ أو نازعته أو نافرته ساعة واحدة في هذه السنين الطويلة على اختلافنا في الآراء أحياناً واختلافنا في الطرائق والأساليب والنزعات أحياناً».

ومما يحضرني الآن أنه كتب مقالات عن الأدب الجاهلي في مجلة الرسالة - الصحيح أنها مجلة الثقافة سنة ١٩٣٩ - فخالفته بمقالات في المجلة نفسها، وقلت في نفسي، ولعلّي قلت له أيضاً سأجعل هذه المقالات مثلاً للجدال الخالص من الشوائب الذي لا يقصد إلّا الحق ولا يبغض المخالف حقّه، ولا يحيد قيد شعرة عن أدب المناظرة.

ولمّا طبع كتاب «فجر الإسلام»، كنت معه في لجنة التأليف فأرسلت المطبعة نسخاً من الكتاب، فحرصت على أن تظهر يديّ بأول نسخة، ولمّا أراد إعادة طبعه

سألني أن أقرأه وأبين رأيي فيما آخذه عليه ففعلت، وذكر هذا في مقدمة الطبعة الثانية. كذلك كان يأنس بي ويركن إليّ، وكذلك كنت أستشيريه وأستهديه».

وإذا كان أدب الخطاب وعفة النقد من سُنّة النقاش لدى عَزَام فإنه إذا أحسَّ إنقاصاً متجنباً من متكبّر يتعالى بغروره على الجدل المنطقي، فلن يدعه سادراً في غلوائه إذ يقدم على مهاجمته دون مبالاة أو اكتراث، وموقفه من عبد العزيز فهمي (باشا) ينطق باعتزازه بالحق، وهو أن الباطل لديه، مهما استند إلى كبير يتشّدق بفقهه على الناس في شموخ لا يملك من مقوماته العلمية سوى الادّعاء والتناول.

فقد كان من آفة عبد العزيز فهمي حين قدّم اقتراحه الخاصّ باستعمال الحروف اللاتينية مكان الحروف العربية إلى مجمع اللغة العربية أنه أُحيط بنفر من السياسيين وكبار الكتّاب يمجّدون عبقريته، ويروونه صاحب سبق لا يلحقه العصر، وذو رسالة مستقبلية، ستقدّرها الأجيال القادمة حين ينضج التفكير في الشرق، وقد صدّق المسكين ما سمع وقرأ من المَلَق الخادع، فعَدّ نفسه صاحب اقتراح تقدّمي متحرّر يعصف بالجمود المتخيّل ويُنذ التزمّت المتوهم.

وكان من مصادفات عَزَام أنه ألقي محاضرة عن الخط العربي بسط فيها القول عن بدعة الحروف اللاتينية، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يعالج فيها الدكتور قضية الحروف اللاتينية، إذ سبق أن بسط القول فيها بالسنة الثالثة من مجلة الرسالة سنة ١٩٣٥، أي قبل أن يتقدّم الباشا باقتراحه بتسع سنوات، فلما أُتيح له أن يعالج مشكلة الخط العربي سنة ١٩٤٤ رجع بالقول إلى ما سبق أن أوضحه بشأن هذه البدعة غير الطريفة دون أن يشير إلى عبد العزيز بشيء!.

ولكن الباشا المتغطرس ظن نفسه المقصود بالنقد متخيلاً أنه وحده صاحب الاقتراح الميت! إذ أوهمه ذلك مَنْ نافقوه مع أنه مقلّد متأخر لأصحاب البدع الغربية، ولم يطق الرجل الكبير أن يسمع حجة تدفع حجّته، إذ رأى أسلحته تكلّ دون أن تنال عزاماً بجرح، فانطلق يسبّ ويشتم! كأن السباب يصلح لمعركة علمية تتقارع بها الحجج.

وقد عمد إلى حشو صفحات من كتاب «الحروف اللاتينية للكتابة العربية» بالهجوم الظالم على عزّام ونظرائه من ذوي الرأي المحاجّ، وقد اختصّ الدكتور عزّاماً بما ترفع عن ذكره إذ سجّله مُطيلاً مُسِفّاً مُحَنَقاً فيما بين ص ٥٨ و ٧٣ من الكتاب المُشار إليه، وقد ظنّ أن مكانته السياسية ستدفع الرجل الحازم عن مجابته، ثم احتاط فأوعز إلى بعض حواريه برجاء عزّام أن يكفّ عن الرّدّ!

ولكن الدكتور المتواضع للمخلصين المتكبّر على الأدعياء المثرثرين قد كشف البهتان في مقال صارم نشره بمجلة الرسالة بالعدد (٥٨٧) ١٥ شوال سنة ١٣٦٣ هـ قال فيه بصراحة كاوية: «أبدأ بمجادلة الأستاذ في الخطّة التي ارتضاها لنفسه فأقول غير متردّد، إنها خطة جائزة منكرة تكفل لصاحبها ألاّ يهتدي إلى صواب ولا يتعد عن ضلال، خطة تعنى بأصحاب الآراء أكثر مما تعنى بالآراء، ثم لا ينال أصحاب الآراء من هذه العناية إلّا الاستهزاء والبغي والافتراء، وسواء على صاحبها أن يقارب الحقّ أو يباعده، أو يصف خصمه بصفاته أو بما يناقضها... وقد وصفني بالتزمّت، ثم كتب صحيفتين في هذا التزمّت كأن مقصده الكلام في التزمّت لا في الدفاع عن بدعة الحروف اللاتينية، وأنا أعرض على القارئ مقدمة كلام الأستاذ إذ يقول:

«والتزمّت - أجازك الله - متى أخذ بخناق الرجل نكر خلقه إنه يورثه اقعنساساً^(١) فيبدو مقعّر الظهر، محدب الصدر، منتفخ الأوداج، محتقن الوجه، بارز الحذقتين، في الأوج هامته، وفي الحضيض همّته، إن لم يكن كالملقّ بجبل المشنقة فهو على الأقلّ ضابط صفّ معلّم بأورطة الأساس، يمشي متشامخاً مُدِلّاً بكفائته بين أنفار القرعة المستجدين، هكذا يفعل التزمّت، ثم هو يُخرجه في تصرّفاتة عن التعابير المألوفة بين الناس، يجعله متى أراد إخراج كلمة من فيه رطلاً خرجت على الرغم منه قنطاراً، وإذا أرسل صوته يميناً التوى فذهب شمالاً، وإذا

(١) اقعنسس: خرج صدره ودخل ظهره خلقة.

بصق أمامه على استواء نكص البُصاق إلى الوراء ثم هو يُخرجه من فيه فيرتد إلى مآقيه» .

هراء طويل لا طائل تحته! ولكن الدكتور عزّاماً جعله حقيقة مريرة تدعو إلى الرثاء والضحك معاً حين واجه الأستاذ عبد العزيز فهمي بهذا القسم المُحرج فقال تعقيباً على حديثه :

«وأنا أنشد الأستاذ الله الحقّ أن يسأل نفسه هادئاً إن استطاع : أهذه الأوصاف تنطبق عليّ أو عليه خلقة وخُلُقاً؟ ثم أنشده الله ألا يشعر بشيء من التناقض والتهافت والتهافت في أن يصف إنساناً في مقال واحد بأنه من أرباب الحناجر وأنشيد الوطنية اللفظية، وبأنه متوتر متزمت؟ إني لا أنال من سعادة الأستاذ بمثل أن أدعو القارئ إلى قراءة هذا الفصل المُضحك المُبكي فهو أبلغ شيء في وصف كاتبه» .

ووجه المرارة في تعقيب عزّام أنه أكد الحقيقة الصارخة التي تؤكّد أن الصفات الخلقية لتعابير الجسم من احتقان وانتفاخ الأوداج وما إليها هي أقرب إلى صورة عبد العزيز وأبعد ما تكون عن صورة عزّام! وليس بعد العيان بيان! .

إن الحديث الطيّب ليتسع عن عزّام ولكني هنا أسطر مقالاً ولا أوّلف كتاباً! فلا اجتزئ غير مُطيل .

محمد مصطفى المراغي جبهة عالية

- ١ -

لبعض الناس ولع شديد بمهاجمة الشرفاء من الأحرار، واختلاق شتى المثالب المندية اختلاقاً آفكاً كي يلصقوها بالبرءاء، وأشد ما تكون هذه المفتريات وقيةً وحرَجاً حين تُلصَق بأعلام الإسلام من أئمة الدين، وتفسير هذه الشائنة النفسية واضح لا لبس فيه، لأن هؤلاء يستشعرون في أعماقهم من النقائص ما يطفح به الكيل، فيحاولون انتقاص الشرفاء ليكونوا معاً في طريق، ولكن الحق لا يعدم النصير، فلا بد أن تشرق الشمس ذات صباح فتبهد الغيوم، وفقاً لسنة طبيعية هتف بها شوقي حين قال :

إن الذي جعل الحقيقة علقماً لم يُخلِ من أهل الحقيقة جيلاً

لقد كان محمد مصطفى المراغي إمام المسلمين في عصره، وحامل لواء الإصلاح الأزهري تشريعاً وتنفيذاً ومراجعةً، وكان من الشمم الرفيع، والخلق النزيه، والترفع النبيل، بمنزلة يعرفها كبار الحاكمين، فيعدلون سلوكهم المتعطرس في حضرته رعاية لمقامه، وخوفاً من كلمة الحق أن تحرقهم حين تتقد من فمه، ثم شاءت الظروف السياسية، أن يسكت الكاتبون عن الإفاضة في تدوين مآثره، سلوكاً أغرى المُتتقصين بما هو منه براء، فقد تجرأ كاتب متسرّع على القول بأن

المراغي كان صنيعة الإنجليز، ففرس بذرة ظالمة أخذت تنمو في صحائف الأفكين، وكأنهم عثروا على كنز ثمين، ينفقون منه متى يشاؤون، فكثرت ترهات، وسوّدت صحائف، وراجت أراجيف.

ولكن الله يشاء أن يُظهر الحق على لسان الأعداء أنفسهم، إذ رأت جريدة الأهرام ذات عام أن تُلهي القراء عن واقع مصر الحاضر، بنشر تقارير السفارة البريطانية عن زعماء الأُمس جميعاً، وكانت صراحة «لامبسون» أقوى من أن تُحجب، فقد عرّى نفوساً كانت متدثرة بأكثف الطبقات من الملابس الواقية، ولكنه وقف حائراً أمام المراغي لا يستطيع أن يفتری عليه ما يشين، فلم يسعه إلا أن يقول نقلاً عن جريدة الأهرام الصادرة في ٢٠/٢/١٩٧٠ م:

«المراغي شيخ الأزهر السابق، وُلدَ حوالي ١٨٨٠ م، وأمضى سنوات عديدة قاضياً لقضاة السودان، ثم أصبح رئيس المحكمة العليا الشرعية، رجل يحظى باحترام عالمي، أخلاقه ممتازة، وأراؤه مستنيرة إلى أبعد الحدود، طراز فريد من رجال الدين، سافر في بعثة من قبل الملك فؤاد إلى الحجاز، لبحث احتمالات التدخل المصري، لإعادة السلام بين الملك علي وابن سعود، عُيِّن شيخاً للأزهر في مايو سنة ١٩٢٨ حين أحسَّ كلُّ من القصر وزعماء الوفد المسؤولين أنهم لا يستطيعون تخطي رجل مثله بكل علمه وفضائله، وقد تجلّى حماسه لإصلاح المجتمع الإسلامي فيما قدّمه من مقترحات لتعديل قوانين الزواج والطلاق، وبدأ في محاولته للاقتراب من مسألة إصلاح الأزهر، وهي مسألة شديدة الحساسية، وقد مدح باتباعه أسلوباً مزج فيه الصراحة والمديح في كسب القصر إلى صفّه، في الجهود التي يبذلها لتوجيه تطوّر المجتمع الإسلامي في مصر، إلى صور تتناسب وتتفق مع المدنية الحديثة.

وكان مشروع القانون الذي وضعه لإصلاح الأزهر يستهدف توسيع آفاق طالب الأزهر، وضمان فرص أوسع لعمله بعد أن يتخرّج من الأزهر، وقد لقي هذا المشروع تأييد غالبية الطلبة، وتأييد هيئة التدريس والعلماء، باستثناء الغارقين في

الرجعية منهم، وكان لابد من الموافقة على المشروع في أوائل أكتوبر سنة ١٩٢٩ م لبدء تطبيقه في العام الدراسي الجديد، ولكن الملك فؤاد أخر توقيع القانون طويلاً بحيث لم يجد الشيخ المراغي بدءاً من الاستقالة، وكانت استقالته خسارة لفرصة كبيرة.

وبعد صدور دستور سنة ١٩٣٠ م، وما تجلّى في قانون الأزهر الجديد من انعكاس لازدياد سلطان الملك وامتيازاته، قام الشيخ المراغي بدور ملحوظ في زيادة التنسيق بين الوفد والأحرار الدستوريين في المعارضة، ودفعه شعوره بالظلم الذي وقع عليه إلى القيام بتصرفات لم يقصد بها إلا إحراج الملك فؤاد، وكان من بين هذه التصرفات تبنيّه بصفته رئيساً لجمعية الدفاع عن الإسلام - لقضية الدعوة ضدّ الإرساليات في صيف سنة ١٩٣٣ م. وكان ربط اسمه بقضية من قضايا التعصّب هذه مما أساء إلى مكانته.

وفي سنة ١٩٣٤ م أدّى عدم شعبية خلفه في مشيخة الأزهر إلى سلسلة من الإضرابات، بدأت في نوفمبر وانتهت بعودته مظفراً إلى منصبه كشيخ للأزهر، وقد تردّد اسمه كثيراً كمرشّح لمنصب وزير الأوقاف في وزارة نسيم باشا، وكمرشّح لمجلس الوصاية على العرش.

وقد أعيد تعيينه شيخاً للأزهر في آخر إبريل سنة ١٩٣٥ م، وفي سنة ١٩٣٧ م لعب دوراً هاماً وإن كان متواضعاً في السياسة المصرية، فقد كان له باعتباره أستاذاً للملك فاروق نفوذ لدى تلميذه الشاب، وكان هو والأمير محمد علي مسؤولين تماماً عن الاتجاهات المحافظة التي تجلّت في سياسة القصر، وحيث أنه كان ضدّ الوفد بحكم مشاعره المحافظة، وصدافته القوية لمحمد محمود، فإنه استخدم نفوذه في تحويل الأزهر إلى حصن للحركة الطلابية المعادية للوفد.

هذا ما كتبه السفارة البريطانية عن الرجل، وهي كتابة صريحة كان الغرض منها أساساً أن يكون لديها سجلّ صادق عن كل رجل بارز في مصر، لتحديد موقفها منه، مهما خالف اتجاهها، وخالفته، وقد أغنانا هذا التقرير عن تسجيل حياة الإمام

الرسمية، إذ أشار إليها في إيجاز مفيد، وإذا كان لي أن أعلّق عليه بشيء، فإنني أخالف ما جاء عن انتقاده بشأن موقفه من الإرساليات الأجنبية، إذ ثبت مما نشرته الجرائد المصرية جميعها أن هذه الإرساليات قد قامت بمحاولات يائسة لتنصير عدد من المسلمين، إغراء بالمال والمنصب، حتى دعت جريدة السياسة أمام هذه الوقائع المنكرة إلى إغلاق جميع الإرساليات، فيا لله، كيف يهب الغيورون حفاظاً على إسلامهم من جميع الطبقات، ثم يأمل كاتب التقرير من الأستاذ المراغي أن يسكت عن تنصير المسلمين، كيلا يُساء إلى موقفه!!.

إن المنتظر المتوقّع منه أن يقود جماعة الدفاع عن الإسلام صيانة لدينه، ومُراعاة لرسالته، لا إغاطة للملك فؤاد كما فهم كاتب التقرير، وأي شيء أعزّ على المراغي من الإسلام؟ حتى نلتبس في نصرته إياه شتى التأويلات، أما المأخذ الحقيقي الذي وُوجه به المراغي عن حق فهو انضمامه لحزب ضدّ حزب، حين حاول نصره محمد محمود، فدفع بالطلاب إلى مأزق ما كان أحراهم أن يتعدوا عنه، وكفى المراغي شرفاً أن يكون ذا مأخذ واحد.

بقي أن نعرف بعض مواقف المراغي الشجاعة من الإنجليز، وفي طليعتهم صاحب هذا الخبر «السّير مايلز لامبسون» و«لورد كليرن» فيما بعد!! ليعلم الذين يفترون الكذب على الأحرار أنهم واهمون مُنخدعون.

حين قامت الحرب العالمية الثانية، كان مركز إنجلترا في بدايتها ضعيفاً حرجاً، إذ توالى انتصارات هتلر على نحو يُؤذّن بانهزام الحلفاء، واضطرت إنجلترا أن تُذيع في الناس أنها تحارب من أجل الإنسانية المنحدرة أمام دكتاتورية النازية، وطلب السّير مايلز لامبسون، من الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي أن يذيع على العالم الإسلامي بياناً يعلن فيه، أن إنجلترا تحارب في سبيل الديمقراطية، لترعى حقوق العدالة والأخوة والمساواة، وتعاضم الشيخ الأكبر أن يجروا السفير على طلبه، فلم يشأ أن يغفل الطلب، كأن لم يكن، ولكنه انتهز فرصة الاحتفال بموسم ديني، فألقى أمام الملك خطبة رنانة توضح ما قاسته مصر،

والعالم الإسلامي من أهوال هذه الحرب المدمرة، حين سقطت القنابل على الإسكندرية وبعض المدن المصرية، فأحدثت من الضرر النفسي ما فاق الضرر المادي، ثم هتف صريحاً بأن مصر تكابد حرباً لا ناقة لها فيها ولا جمل، وأن المتحاربين في المعسكرين المتنازعين لا يمتان إليها بسبب.

وانشرت خطبة الإمام على الأثير في شتى أنحاء العالم، ففرع السير مايلز لامبسون فرعاً شديداً، وهاتف رئيس الوزراء «حسين سري» في منتصف الليل يطلب منه إقالة المراغي، وفرع رئيس الوزراء تبعاً لما شاهد، واتصل تليفونياً قبل الفجر ليحتج على المراغي، وينذره بأنه لا بد أن يحيطه علماً بكل ما يقول قبل أن يخطب به.

واستمع الشيخ متعجباً ثم قال للرئيس حسين سري: «أتريد أن أعرض عليك كلامي؟! مَنْ أنت؟ أنا أستطيع أن أقيلك من منصبك بخطبة واحدة من فوق منبر الأزهر، أو منبر الحسين!! قل هذا لمن هددك يا حسين! وانتقل الحديث إلى السفير البريطاني، فخاف العاقبة وآثر السكوت!.

هذا هو المراغي صنيعة الإنجليز كما يزعمون، وهذا موقفه الرائع في وقت كان زعماء البلاد جميعاً في قبضة السفارة، لا يجروون على تحذيرها في الصغير أو الكبير، فكيف - يا الله - تُخلّق بشأنه الأراجيف وممن؟ من الأذئاب!!.

أما قبل ذلك فقد كابد الإنجليز منه في السودان رهقاً كارياً، حين صار قاضي القضاة، إذ كان بصراً على ألا يتقدمه الحاكم البريطاني في موقف، وحين شبت ثورة سنة ١٩١٩ دعا المراغي أعيان السودانيين إلى التبرع لمصايب الثورة المصرية، وأرسل وفوده لقضاة الشرع في شتى الأقاليم، ومعهم منشورات تثبت فظائع الإنجليز، فأراد الحاكم الإنجليزي أن يمنع التبرع، وأرسل المستر (دن) رئيس القضاء المدني إلى الشيخ المراغي ليبلغه بضرورة السكوت، واحتد النقاش بين الرجلين، وفجأة قال المستر (دن) للشيخ المراغي: «أنا أكلمك كرئيس» فانتفض الشيخ المراغي ليصيح في وجهه: مَنْ أنت؟ أنا رئيس مثلك، وأنا مُعَيَّن

بأمر ملكي كما عُيِّنْتَ أنت!! وأنهى الحوار، فجاء السير (لي ستاك) حاكم السودان العام، ليرجو المراغي شخصياً في إيقاف التبرّعات ومنع المنشورات، وكان مما قاله الحاكم مُداوراً: أنا إيرلندي، والإنجليز ينتهكون بلادنا، ولكني أمثل الآن إنجلترا، فلا علاقة لي بإرلندا، وأنت الآن في السودان ولا علاقة لك بمصر! فقال له المراغي مبتسماً: أنا لم أقم بغير جمع التبرّعات، وكان في استطاعتي أن أهيّج الشعور سياسياً ودموياً، ولكني اصطنعت الحزم، فتخاذل الحاكم، ولكنه وقف دون إيصال التبرّعات إلى لجنة الوفد المركزية، فأخذ الشيخ يسأل عن زائري مصر من أبناء السودان، ليحملهم ما جمع من المال حتى بعث به لمُستحقّيه، ورأت بريطانيا أن تعمل على إعفائه من منصبه حين وقف أمامها ثابت الجأش، قوي المراس، فألغت عقده، ورجع الرجل مهيباً كريماً إلى مصر، ليتبوأ مركزه القضائي في المحكمة العليا الشرعية عن جدارة وإيمان! فأين هو إذن صنيعة الإنجليز يا قوم؟.

وإذا وُجِدَ مَنْ ينسى الحوادث العادية في حيوات العظماء، فإن الحوادث الخارقة في حيوات هؤلاء أعصى على النسيان، ومهما حاول المُغرضون أن يطمسوا لألاءها الساطع فالحق أظهر من أن يضيع، ومن هذه الخوارق النادرة في حياة الإمام المراغي: موقفه في قضية الوقف، إذ حاول بعض الكبراء أن يُغريه بعشرة آلاف من الجنيهات، نظير أن يتنحى عن نظر القضية فقط، إذ لا يمكن أن يتصوّر أحد من الناس أن يحكم المراغي بغير ما يعتقد أنه الحق، وكانت عشرة آلاف تساوي مائتي ألف في حساب اليوم، فلمس القاضي الأكبر بوادر الاحتيال الدنيء، وأصرّ إصراراً جازماً على أن يبتّ بنفسه في الحكم، وقد ضاق هذا الكبير المتغطرس ذرعاً بموقف الشيخ، وغرّه الشيطان فسوّل إليه أن يقتله في الطريق إلى المحكمة كيلا ينطق بالحكم، وفُوجيء القاضي النزيه بمن يرمي ماء النار عليه فيحرق رقبته، ويولّي هارباً ظاناً أن الموت محقّق، ولكن الشيخ تحمّل النار الكاوية في جيده، وذهب إلى المحكمة لينطق بما يعتقد أنه حكم الله، ثم يتوجّه إلى المستشفى كي يُعالج. وحين أُقيمت دعوى التعويض على الجاني، كان محامي الشيخ هو الأستاذ «أحمد لطفي بك» نقيب المُحاميين إذ ذاك، وقد مات بعد

المُرافعة دون أن يترك لأسرته شيئاً ذا بال، فرأى الشيخ أن يتنازل عن الآلاف لورثة المحامي عن كرمٍ وسَمَاح! أفليس في ذلك ما يدلّ على رحمة الشيخ وسموّه وعزّته وهمايته! فإذا أُضيفت إلى هذه الخارقة مواجهته لفاروق حين طلب منه أن يفتي بتحريم زواج الملكة فريدة بعد طلاقها منه، حيث قال للملك في وضوح: أما الطلاق فلا أرضاه، وأما التحريم فلا أملكه، إذا أُضيفت هذه إلى تلك كفتاك معاً كل تعقيب، وقد آن لنا أن نتنقل إلى تحليل أبرز أعمال الإمام في مضممار الإصلاح الديني بعد هذا التمهيد.

- ٢ -

أجمع الصفوة ممّن تحدّثوا عن الأستاذ المراغي، كالأساتذة: العقّاد، وأحمد أمين، وأحمد حسن الزيّات، ومصطفى عبد الرازق، أن الشيخ أحقّ تلميذ بوراثته الأستاذ الإمام محمد عبده، إذ قام على تنفيذ برنامجه الإصلاحية في الشريعة وفي الأزهر، والحقّ أن المراغي قد تتلمذ على محمد عبده، وكان من حظّه أن ينال درجة العالمية على يده، ثم يذهب مبعوثاً إلى السودان باقتراحه، وقد اجتمع به قبل السفر، وحملته نصائحه العلمية والخلقية، ومثل الإمام محمد عبده خليق بأن يلفت نظر تلميذه، بل بأن يأخذ بمجامع قلبه، إذ صادفت تعاليمه منه نفساً متطلّعة وقلباً عاشقاً، وعقلاً يقظاً وعزيمة ذات حُسْم ومضاء.

وفي الاحتفال الكبير الذي أقيم لتكريم المراغي بمناسبة عودته للأزهر شكر المحتفلين، وأدار كلمته الضافية على الإصلاح الأزهري، وأثر الإمام محمد عبده في التمهيد له، وكان ينتهز سوانح الفرص ليتحدّث عن أستاذه في الصّحف، والإذاعة، ومجالسه العامة والخاصّة.

وقد نقلت مجلة الأزهر بعض أحاديثه عن الإمام^(١) في مطلع الجزء السابع من المجلد الثاني عشر ص ٣٨٥ وننقل منه ما يُلقي الضوء على صنيع المراغي

(١) مجلة الأزهر، السنة الثانية عشر، رجب، سنة ١٣٦٠ هـ.

نفسه، إذ عبّر تعبيراً دقيقاً عن بواعث اهتمامه بالإصلاح الأزهري حين عبّر عن جهاد أستاذه، فكان مما قال:

«نشأ الشيخ في عصر من العصور القائمة، كل شيء فيه مُبْضٌ مؤلم للنفوس الحرة والفطر السليمة، الأمم المسلمة تنحدر علمياً وسياسياً واجتماعياً إلى أحط الدركات، وليس لطالب الحرية العقلية بينها متنفس، فالدين يفهمه الناس على غير وجهه، واللغة العربية اختلطت بغيرها من لغات العجم، والزلفى إلى الله لها طرق لم يشرعها الله، والزلفى إلى الحكام لها طرق لا يرضاهم ذو مروءة، ذهب ربح المسلمين، وتداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة على قصاص، وليسوا قلة ولكن غثاء كغثاء السيل، ذهب يتعلم كما يتعلم غيره قواعد جافة، ليس لها حياة تصلها بمنابعها من الكتاب الكريم، والسنة المطهرة، ولا بأصولها من لغة العرب وأساليبهم، فتعلم القواعد في مختصرات، رضىها ذلك العصر المظلم، لا تفهم إلا بشروح وحواشٍ، وصناعة خاصة.

فلا اللغة العربية بمساعدة على إجادة النظم والشر والكتابة والخطابة، وفهم القرآن الكريم، ولا الفقه يسد حاجة المجتمع وحاجة الحكومات والدول في التشريع والتنظيم، ولا دراسة الكلام والمنطق موصلة إلى الاستدلال الصحيح الذي يطمئن إليه العقل، ويقنع الخصم، والمتحدث في الاجتهاد وتخير الأحكام لتطابق حاجة العصر، ولتلائم أحوال الأمم والأزمنة، مبتدع مخالف لما أجمع عليه المحققون، والداعي إلى سيرة السلف الصالح، داعٍ إلى مخالفة سيرة العلماء المبرزين، والداعي إلى كتب الأولين، مقصّر عن فهم كتب المحققين من المتأخرين، والمُنَادِي بأن كتب الفقه، وكتب التفسير، وكتب الحديث مُلِئَتْ بمعلومات خاطئة، وبأوهام لفقها من قبل علماء الإسرائيليات، مُخَالِف لما دَرَج عليه صالحو هذه الأمة وجهابذتها».

كان بوذي أن أسترسل في نقل هذا الحديث الضافي، وقد شغل عدة صُحُف من مجلة الأزهر، لأظهر كيف أحسّ المراغي بما كابده أستاذه من هول الصراع

أولاً، ولأقول ثانياً إن هذه المكابدة الأليمة صادفت وتراً مَرِناً من قلب التلميذ، فظَلَّت شغله الشاغل طيلة حياته وقد عمل جهده، قبل أن ينال مشيخة الأزهر على إصلاح ما يقدر عليه، في وظائف المحاكم والمساجد، ثم شاء الله أن يصطفيه بالإمامة حين تَبَوَّأ منصبه الأعلى في الأزهر، فأُبيح له أن يأخذ في أسباب التنفيذ، بعد أن شرح أستاذه العَلَّة وشَخَّص المرض، ووصف الدَّاء، وكان مرور أكثر من عشرين عاماً على وفاة الإمام مما لم يذهب بأثر البيئة الأزهرية ذهاباً يمهّد الطريق أمام المُصلح البصير، فجاهد الشيخ جهاد الأبطال حتى ظفر بمُبتغاه، وحسبك أن تعلم أن ظروفًا كبيرةً أجبرته على الاستقالة، حتى لا يمضي في سُنن الإصلاح.

وكان ذوو الأمر يُؤثرون أن يطوي برنامجَه الإصلاحي ويبقى على رأس الأزهر أستاذاً أكبر، ولكن الرجل غضب فآثر الاستقالة، ودَوَّت العاصفة من بعده سنوات عدَّة، ولم تسكت ريحها الهبوب حتى أذعن ذوو الأمر للواقع، فعاد الأسد إلى عرينه على رؤوس الجراب، وما هذه الأصوات الهائفة بزعامته، والمظاهرات الداعية إلى قيادته، إلَّا جِراب قاتلة أجبرت المسؤولين، أن يتداركوا النار قبل استفحال الحريق.

ونحاول في إيجاز - نُجَبِّر عليه لضيق المقام - أن نلَمَّ إماماً عاجلاً بأهم خطوات المراغي الإصلاحية في سبيل الأزهر والتشريع واللغة، وتلك الثلاث هي أبرز مناحي جهاده، ليجد القارئ نتائج القضايا تابعة للمقدمات دون اعتساف، وليعرف كيف كان الصادقون من ذوي العزم يجابهون الواقع المتحجّر، مواجهة قوية لا تعرف النكوص، وكيف كانوا يستروحون نسائم الأمل في محابس اليأس القاتل، فيمدّهم بروح واثق، إذ إن رحمة الله قريب من المُحْسِنِينَ.

كان الأزهر الذي نراه الآن في كلياته العلمية المزدهرة، ومعاهده المترامية المنتشرة، قبل المراغي محجوراً في نطاق ضيق، يُوحى بالاختناق، فطلابُه يقطعون النهار ورُكُفاً من الليل في دراسة المتون والحواشي دون أن يحسّ بهم أحد، لقد كانت الجامعة المصرية مطمح الأنظار بكلياتها الناهضة، ذات الشموخ

والكبرياء، وكانت الوظائف الراقية تحتضن المتخرجين منها احتضاناً، يدلّ على أنهم مع أبناء المدارس العالية مناط الحظوة والرجاء، وطالب الأزهر يقطع عمره الطويل في دراسة متفهمرة، ثم لا يعترف به أحد! لقد حلّ غيره محلّه إذ فتحت مدرسة القضاء الشرعي لتخريج القضاة، وهيئت دار العلوم لإعداد مُدرّسي اللغة العربية والدين، وشرعت وزارة الأوقاف في إعداد مدرسة مُماثلة للوعاظ والخطباء، فماذا عسى بعد ذلك يبقى لهؤلاء المتيقظين قبل الفجر في المسجد الجامع، يصلّون ويقرؤون حتى تحين العشاء، ثم يمضي بهم العمر الشاسع دون أن يشعر بهم أحد!.

إن المطالبة بحقوقهم، لن تكون مقبولة منطقية، إلّا إذا أُعيدَ نظام جامعي لإصلاح التعليم، وإلّا إذا اتصل الأزهر بثقافة عصره، وألّم بحضارته المدنية، وعلومه الحديثة، وهُيئَ سلاح مُماثل لسلاح النظراء! لا بدّ من إنشاء كليات أزهرية ثلاث، تختصّ إحداها بالشرعية، وثانيتها بالعقيدة، وثالثتها باللغة، ولا بدّ أن يكون الكتاب، والطالب، والأستاذ، في مستوى الإفادة المتحقّقة، ثم لا بدّ أن يُتاح لمن يتخرّجون في هذه الكليات أن يأخذوا بنصيبيهم من الحياة، حين يعطون الأمة من جهودهم المُثمرة ما يهدي ويُنير.

لقد رسم المراغي خطّة الإصلاح واضحة النقاط، سافرة الحقائق، فحدّد الزمن، وعيّن المنهج، واختار المواد، وأعدّ المشروع الضخم في قالبه القانوني بعد أن مهّد له خطيباً في المحافل، ومُنَاقِشاً في الصُحف السّيّارة! وكان من الاستهتار العقلي أن يُناوئه من يحرصون على القديم لأنهم لا يُحسِنون سواه، أو لأنهم يحسدون صاحب هذا الارتقاء الدّافع إلى الازدهار الفكري والتقدّم العلمي، وأن يجدوا من ذوي الأمر من يحرص على أن يظلّ رجال الدين في مطاوي الخمول لا يؤدّون رسالة، ولا ينعمون بفكر، ولا يتمتعون بحياة، ولكن ذوي البصائر النيرة من شباب الأزهريين، قد اشرأبوا إلى مشرق النور في برنامج الإصلاح فتواصوا بالجهاد، وأعلنوا الثورة حين حيل بين المراغي وبين ما يريد.

ثم جاء خلفه فاضطر إلى إسكات الثوار بتنفيذ ما ارتآه المراغي، فأنشئت الكليات، ونُظِّمَت الدراسة بالمعاهد، ولكن روحاً من الإرهاق أخذت تضع الحواجز، حتى لِيُخَيَّلَ للرائي أن المباني قد أنشئت ذراً للرماد، وأن روح الإصلاح الحقيقي لا تزال بعيدة عن شبيبة الأزهر في صالات الدرس وباحات البحث، وقد تجمَّعت الأسباب لإحداث رجَّة مزللة، فاعتُقل طلاب، وفُصل مُدرِّسون، وعُطِّلَت دراسة، وانتظمت مظاهرات، وصار الأزهر بركاناً يغلي ويثور، وقد بذل القصر الملكي، ورئيس الوزراء القائم جهدهما كي يستكين الثائرون دون جدوى، حتى إذا تحقَّق الجميع من وشك انفجار يعصف بدوي الأمر سارعوا بدعوة المراغي إلى مكانه القيادي، وكانت فرحة غامرة دوى صداها البهيج في ربوع الإسلام.

وطبيعي أن يجد المراغي في سبيل التطبيق بعض العقبات، فالنفوس لا تنهض فجأة من حالٍ إلى حال دون تمهيد، فهناك مَنْ يتعذَّر عليه أن يترك أساليب المتأخرين في حفظ التفريعات، ومناقشة التراكمات وإرجاع الضمائر، وهناك مَنْ لا يهشَّ لأفانين البحث المنظم من جمع الحقائق للموضوع الواحد من مظانها المختلفة، وصياغتها صياغة علمية، ذات مقدِّمة وعرض وخاتمة، لأن إلف المرجع الواحد جعل المدرِّس ظلاً باهتاً لكتاب قد لا يكون أحسن الكتب في بابهِ، وهناك مَنْ ينكر أن يفتح باب الاجتهاد في مسائل الفقه واللغة وتفسير الآيات وشرح الأحاديث، إذ يرى أن الأول لم يترك للآخر شيئاً، بل هناك مَنْ حاول أن يطمس لآلء التجديد، بدعوى أن الأزهر قد انصرف عن العلم الحقيقي إلى المظهر الخارجي.

وكان هذا القول المسموم يوجِّه من نفوس ذات شأن سياسي، يهولها أن يجد الإسلام مكانه المطمئن من نفوس الأزهرين، وأن ينهضوا إلى إعلان رسالته العادلة في الناس، فيشيدوا بالحرية والإخاء والعدالة والمساواة!

كان هؤلاء يترخَّمون على زمن الجمود، ويسرون انسياح الأزهرين في المجتمع الإسلامي طلباً للدين، وحرصاً على الحياة، وكانت أراجيفهم تصل إلى

الإمام المراغي فيقابلها بالابتسام، ولكنه اضطر إلى التعقيب عليها حين وجد الأمير محمد علي يقرر أن الأزهر القديم أفضل من الأزهر الحديث، وأن حديث الأمير وجد السنة تردده من كبار العلماء، فانتهاز الإمام الأكبر أول احتفال أقيم بالجامع الأزهر بمناسبة عيد الجلوس الملكي، وجعل خطبته الحافلة ردّاً على هذا العبث المقصود، وقد نقلتها مجلة الأزهر في الجزء الرابع من السنة العاشرة في الافتتاحية التي تخصّص لكلمات الإمام^(١)، ولا مناص من الاجتزاء ببعضها ليكون فيه عظة بالغة لمن كابر عن جحد.

قال الإمام المراغي: «سيتبين من هذه المقارنة أن هذا الوهم وهم باطل، لأن الأزهر الحديث أفضل من الأزهر القديم، من الناس من يقولون: إن الأزهر القديم كان متمسكاً بدينه أكثر من الأزهر الحديث، وأنا أقول لهؤلاء: لا، فالأزهر الحديث متمسك بدينه أكثر من الأزهر القديم - كل المفاصد الموجودة الآن ليس للأزهر الحديث شأن فيها، إلّا أن يطلب إزالتها، فقد نظم البغاء وليس للأزهر الحديث أثر فيه، وأبيحت الخمر في البلاد وليس للأزهر الحديث شأن فيها، ووُجدت البدع في الموالد والأسواق والقبور وليس للأزهر دخل في وجودها. كلّ هذا وُجد في عهد الأزهر القديم، ولم يرفع صوته مطالباً بإزالة هذه المنكرات التي استقرت في البلاد، وكأنها شأن من شؤونها القومية، والتي يُطالب الأزهر الحديث بإزالتها، فالأزهر الآن مُكبّل بآثار الماضي، وهو يعاني في سبيل إزالة تلك الآثار ما يعاني ولا أظن هذه المنكرات كانت تستطيع أن توجد في الأزهر الحديث، لقد اتصل الأزهر الحديث بالناس، بالوعظ والإرشاد، وعلى صفحات الجرائد يُفهمهم دينهم، فاستفادت الأمة منه، واستفاد العالم الإسلامي كذلك، أما الأزهر القديم فكان قابلاً بين الجدران، لا أثر له في الخارج، ولا يعرفه الناس إلّا بطريق السماع».

ثم قال الإمام مقارناً بين نظم الدراسة في الماضي والحاضر:

(١) مجلة الأزهر، المجلد العاشر، (د) من الجزء الرابع، ربيع ثاني، سنة ١٣٥٨ هـ.

«يمكنني أن أقارن بين الحياة العلمية في الأزهر الآن وفيما مضى، لقد كان أكثر العلماء يطرقون الاحتمالات المتعددة في عبارات الكتب، وكان هذا كل شيء اشتهروا به في العلم، وما كان يوجد بينهم من يستطيع أن يحاضر في موضوع علمي، ولا أن يلخص مسألة من المسائل بعبارة يمكن أن تفهم، وكانوا يعنون بالموضوعات العلمية من جهة الأدلة ومقارنة المذاهب ونقدها، بل كانوا يعنون بالألفاظ، فلم تكن الدراسة شهيّة مثمرة، ولكن الأزهر الحديث احتفظ من تلك الطرق بما يجب أن يحتفظ به دائماً، وأضاف إلى ذلك أنه استطاع أن يحصل العلم تحصيلاً حقيقياً، وأنه استطاع أن يتصل بالبيئات الأخرى ويُجاريها، ولا شك عندي أنه في هذه الناحية يفضل الأزهر القديم».

هذا بعض ما قاله الإمام، ومقطع الرأي في هذه القضية إذا احتاج النهار إلى دليل أن ننظر إلى مرافق الدولة في كثير من نواحيها، لنجد الأزهرين قد أسهموا بنصيبهم المُشرف في إدارتها وإصلاحها، وإلى الصُحف العلمية والمجلات الأدبية لئرى الأزهرين يخاطبون الناس بأسلوب العصر ومنطق الحياة، وإلى المؤلفات - دراسية وغير دراسية - لنجد لأبناء الأزهر نصيبهم الموفور في مضممار البحث الأصيل، فأين كان الأزهر القديم من ذلك كله؟.

نترك إصلاح الأزهر إلى إصلاح المجتمع الإسلامي، فقد قام المراغي بنصيبه الموفور في إقرار النصوص الدينية إقراراً يعود بالخير على الأمة الإسلامية، بعد أن توقّف الاجتهاد في الشريعة توقفاً جعل الفقهاء منعزلين في زواياهم الضيقة، دون أن يستطيعوا إمداد العصر بفقيه الإسلام في معضلات الحياة، وقد كان الرجل كبير القضاة في محاكم الشرع، وقف على مشكلات الأسر، ومآزق الطلاق، ومعضلات النفقة، وأزمات الميراث، وجعل يتصفّح أقوال الفقهاء من جميع المذاهب، ليختار منها ما يُريح الناس عن بصيرة مُوْغلة في أسرار التشريع وقضايا الأصول، ومُوجبات القياس، والأخذ بالاستحسان، وسدّ الذرائع، ومُراعاة المصالح المرسلّة، مما سجّله الأصوليون دون تعنّت في التطبيق، أو تنطّع في التعليل، أو لىّ للمسألة على غير وجهها الصريح.

وللمراغي في هذا المجال رسالة فقهية تُنبئ عن المعية شفافة، وتنطق بأن التشريع لا يفقد في شتى العصور إماماً يرضي دين الله بتيسير حاجات الناس، ولعلّ هذا بعض ما عناه الأستاذ عبد الجواد رمضان حين قال في رثائه:

لقد ودعت منه الشريعة مذهباً إماماً له شراحه ومُتونه

وطبيعي أن يثور الجامدون على سعة فكره، وهم الواحد منهم أن يلتزم بما قاله إمام واحد، لا يتعدى مذهبه في كل ما قال، ولم يكن دين الله وقفاً على فقيه يختار بين عشرات من أمثاله المُبرزين، وقد جادلهم المراغي بالتالي هي أحسن، فكتب فصولاً في ذم التقليد، هي من أبرع ما قيل في موضوعها، وأظهر قانون المحاكم الشرعية للأحوال الشخصية، فكان رحمة للناس حين أخذت به الوزارة، وألزمت القضاة أن يعملوا بمقتضاه، ولئن خالفه مخالف فتلك طبيعة العلم في كل زمان ومكان، وما زالت الأئمة في القديم والحديث تأتي بما يؤخذ منه ويرد، دون أن يُجحد لفاضل فضله، وحين تولّى الإمام مشيخة الأزهر للمرة الثانية ترأس لجنة لمدرسة الأحكام الفقهية، ورسم خططها السديدة، وتحدث مع الأعضاء - وكلهم من رجال الفقه والتشريع - بما يوضح حجته دون نقاب، وقد سجّلت مجلة الأزهر ملخصاً جيداً لحديث الأستاذ جاء فيه^(١):

«قد يظن أن في هذا العمل (تخيّر أصح الأحكام من مختلف المذاهب) ابتداءً وأن سلف الأمة لم يعملوا بمثله، وأنا أدفع هذا الظن بما أطلعكم عليه، مما هو مذكور في كتاب (الولاية والقضاة للكندي) إذ جاء في مواضع متفرقة منه ما يلي:

كان أبو عبيد يذهب مذهب أبي ثور، ثم صار يختار، فجميع أحكامه بمصر باختياره، فحكم بما لو حكم به غيره ما سكتوا عنه، ولم ينكر عليه أحد، لأن أبا عبيد لا يطعن عليه في علم، ولا تلحقه تهمة في رشوة، ولا يحيف في حكم، وهو آخر قاضٍ ركب إليه الأمراء في مصر. قال الطحاوي: وكان أبو عبيد يُداكرني

(١) مجلة الأزهر، السنة السابعة، ص ٥٩٢، سنة ١٣٥٥ هـ.

بالمسائل، فأجبت يوماً في مسأله فقال لي: أو كما قال أبو حنيفة؟ فقلت له: أيها القاضي أو كل ما قال أبو حنيفة أقول به؟ قال: ظننتك مقلداً، فقلت له: وهل يقلد إلا عصبي أو غبي، فطارت هذه الكلمة حتى صارت مثلاً.

ثم قال الإمام: وفي كتب الفقه الإسلامي من الآراء والمذاهب ما فيه شفاء للناس، إذا أحسن التخير، وصدقت النبوة، وصححت العزيمة، واعتقد أنه لا يكاد يخطر رأي ببال، في حادثة عرضت للفقهاء من قبل، إلا وهذا الرأي موجود، يمكن العثور عليه للباحث المجتهد، غير أنه لا يفوتني وقد كنت قاضياً من قبل، أن إصلاح القانون إصلاح لنصف القضاء فحسب، أما النصف الآخر فهو بين القاضي وبين نفسه، لأن عليه أن يفهم الوقائع أولاً، كما هي بعد تلمس أدلتها ونقدها، وبعد الموازنة بينها، وعليه أن يبذل الجهد لثلا يطول الوقت، فيفلت الحق من يد صاحبه، وعليه أن يشعر الناس جميعاً بالاطمئنان إليه، وأن يحملهم على الرضا بحكمه ولو كان عليهم، بسيرته الطاهرة، وبُعده عن الشُّبهات.

وقد أنشأ الإمام تخصص المادة، وزمانه ست سنوات بعد الدراسة العالية، بكل كلية من الكليات الثلاث، لتُخرج كلية الشريعة فقهاء من طراز مالك وأبي حنيفة والشافعي، وتُخرج كلية اللغة أدباء من أمثال المبرّد والجاحظ وعبد القاهر، وتُخرج كلية أصول الدين متكلمين من أمثال الأشعري والغزالي، هكذا كان يقول المراغي رحمة الله عليه. وحين بدأ الطلاب يقدّمون رسائلهم الجامعية، كان المراغي في طليعة من يتصدّرون المناقشة في رسائل الفقه، ليثبت تعاليمه الناجعة في هذا الوسط الثقافي، بين الأساتذة المُناقشين، والحاضرين من المستمعين، ففي أول رسالة بمدرج كلية الشريعة غصّ المدرج بجمهور العلماء، ووقف الطالب يعرض رسالته في جو صافٍ من الحرية.

ثم دارت المناقشة سافرة واضحة دون حرج، واهتبل الإمام المراغي الفرصة ليوجّه تلاميذه من العلماء وجهة ذات سداد، وقد كان الأستاذ محمد المدني أحد شهود هذا المحفل، فكتب بمجلة الرسالة فصلاً ممتازاً، يصوّر الجوّ العلمي الرائع

كما رآه لأول مرة في تاريخ الأزهر الحديث، وقد أبدع إبداعاً نعهده في قلمه السيّال، وكان مما قاله رحمه الله^(١):

«وكان من المبادئ الجليلة التي سمعناها، ما قرّره فضيلة الأستاذ الإمام المراغي من أن الدين في كتاب الله غير الفقه، وأن من الإسراف في التعبير أن يُقال عن الأحكام التي استنبطها الفقهاء، وفرّعوا عليها، واختلفوا فيها، وتمسكوا بها حيناً، ورجعوا عنها حيناً أنها أحكام الدين، وأن من أنكرها فقد أنكر شيئاً من الدين، فإنما الدين هو الشريعة التي أوصى الله بها إلى الأنبياء جميعاً، وأما القوانين المنظّمة للتعامل والمحقّقة للعدل، والدّافعة للحرّج فهي آراء للفقهاء مستمدة من أصولها الشرعية، تختلف باختلاف العصور والاستعدادات، تبعاً لاختلاف الأمم ومقتضيات الحياة فيها، وتبعاً لاختلاف البيئات والظروف، ولو جاز أن يكون الدين هو الفقه مع ما نرى من اختلاف الفقهاء بعضهم مع بعض، وتفنيد كل آراء مُخالفٍ فيه وعدّها باطلة لحقّت علينا كلمة الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْراً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام / ١٥٩].

وكان من المبادئ التي قرّرها فضيلة الأستاذ الأكبر: مسألة تأثير العُرف في المعاملات، وقد ضرب لذلك مثلاً بأن عُرّفنا الحاضر قد أهدر المعايير والأوزان في التعامل بالذهب والفضة، فأصبحنا نصرف الذهب بالفضة من غير نظر إلى الوزن ولكن على أساس العدّ، وكذلك الأمر في صرف الفضة بالفضة، وكان من المبادئ التي قرّرها فضيلته أيضاً: التفريق بين ما حرّم لنفسه وما حرّم لغيره، وما يبنّي على هذا التفريق من جواز إباحة الأخير عند الحاجة».

وفي كُليّة أصول الدين كان الإمام يختار أعلام الفكر المصري لمناقشة رسائل الطلاب، من أمثال: أحمد لطفي السيّد، ومنصور فهمي، وكذلك يختار في

(١) مجلة الرسالة، السنة التاسعة، العدد ٣٩٦، (١/٧/ ١٣٦٠ هـ).

رسائل كلية اللغة أمثال: عبد الوهّاب عزّام، وعلي الجارم، وأمين الخولي، ليصل الأزهري بتيّار الثقافة المعاصرة في كل اتجاه، وذلك تقدّم واثب سريع.

أما دروس المراغي في تفسير القرآن فكانت مواسم عالمية في شهر الصيام لمُدارسة القرآن الكريم، حيث كانت الإذاعة المصرية تنقل هذه الدروس إلى شتّى ممالك الإسلام وبقاعه. وكان الإمام من جُودة الإلقاء، وقوة الاختيار، وسهولة العرض، وصدق النظر، وبراعة الاستشفاف، وجمال التعبير، بحيث كان مطمح العلماء وموضع احتذائهم، وما عُرِفَ بعد محمد عبده من جذب الجمهور المثقف إلى مُدارسة كتاب الله كما جذبه المراغي، وليت أعماله الإدارية الكثيرة لم تُجَلِّ بينه وبين هذا التفسير في كل أسبوع لا في شهر رمضان فحسب، إذن لَغِنِمَتِ المكتبة القرآنية من دروس الأستاذ ما يُضيف إليها الطّارف المفيد.

وكأنَّ الله قد شاء لرجال الإصلاح الديني من أمثال: جمال الدين، ومحمد عبده، وحسن البنا، ومحمد مصطفى المراغي، أن يكون نصيبهم من التأليف القلمي بحيث لا يظهر مواهبهم الحافلة، إذ انصرفوا إلى المؤلفات الحيّة من البشر، حين ترك كل إمام صفوة من تلاميذه يُذيع آراءه وينشر مبادئه، وتجعل منه مصباحاً يضيء إذا ادلّهَمَ الظلام.

ومما وُفِّقَ إليه المراغي خطبه المنبرية يوم الجمعة، إذ كانت موضع العجب والإعجاب، حيث جعلت إمام المسلمين يقف موقف رسول الله والخلفاء من بعده على جذوع المنابر ليهتفوا بكلمة الله، وما رأى الناس قبل المراغي إماماً يخطب الجمعة متحدثاً عن وقائع الزمن، وداعياً إلى الله في بيان ساحر، وكان من الأوفق أن يخصّه باحث أدبي بالتحليل في رسالة جامعية، ليرى الناس كيف صار البيان الديني باباً من أبواب الأدب المعاصر، حين ابتدأه محمد عبده، وقفّا آثاره تلميذه المراغي، ثم ناشئة من أبناء الأزهري ترى النموذج الساحر، فتحاول أن تحتذيه، راجعة إلى الأصول الأولى من كتاب الله، وسُنّة الرسول، وروائع عليّ بن أبي طالب، والحسن البصري، والأوزاعي، ومَن تبعهم بإحسان.

إن الكلام عن المراغي يحتاج إلى كتاب يُسهب لا إلى مقالٍ يُوجِز، ولعلنا قد أشرنا إلى نقاط هامة، تهَيء عناصر متعددة لمن يريد أن يمتد بتاريخ المراغي إلى أفقه الفسيح، فيمتّع ويُجيد.

مصطفى صادق الرافعي مدره الإسلام، وعبقري البيان

- ١ -

تستطيع أن تجد لكل أديب شبيهاً يماثله في السابقين أو المعاصرين، ولكنك لا تستطيع أن تجد لمصطفى صادق الرافعي في نشره هذا الشبيه، إذ كان الرجل نسيجاً وحده دون خلاف.

إذا طلبت للرافعي الناثر شبيهاً يُحاكيه، فاترك الإنسان إلى غيره من مظاهر الطبيعة لتجد للرافعي ذلك الشبيه المنشود.

هل رأيت الرعد المجلجل، الذي يأخذ عليك سمعك وشعورك حين يدوي في الفضاء؟ هكذا يكون الرافعي، حين يزار غاضباً لحرمة تُنتهك، أو معصية تُداع.

هل رأيت الزلزال المدمر، يبعث اللهب، ويرمي بالشواظ؟ هكذا يكون الرافعي، حين يقف أمام أعداء الإسلام، ليرجمهم بالنقد القاتل، ويسحقهم بالصاعق المبيد.

ثم هل رأيت النسيم الهادي، يرف على الروض الزاهر، فيحمل عبيره الفواح إلى النفوس، يشرح به الصدور، ويمتّع الأحاسيس؟ هكذا يكون الرافعي، إذا رقّ في عتاب، أو عذب في مناجاة، أو حنّ إلى غائب حبيب.

ثم هل رأيت النмир العذب يتفرق به الجدول الصافي، فتنهّل منه شراباً
لذيذ الرّشف، حلّو الوقع من اللّهاة والصدر؟ هكذا يكون الرافعي، إذا روى حديثاً
عن السّلف الصالح، يفيض بالعبرة الواعظة، ويدعو إلى القدوة الحسنة، عن هدى
وإيمان.

هذه هي أشباه الرافعي، حين تتطلّب الشبيه في دنيا الشر والناثرين.

لقد آمن الرافعي برسالته في الحياة كداعية له مذهبه الهادي إلى الصراط
المستقيم، فأصبح مدرة الإسلام، يكافح الدّاء، ويُنَاوِي أعداءه، ويدعو إلى التي
هي أقوم.

وإن من أعظم خوارق الرافعي البيانية: أن يتكلم في حادثة تعرفها تمام
المعرفة - إذ قرأتها مرّات عدّة في كتب التاريخ - ثم تُطالع ما كتب الرافعي في هذا
المجال الذائع، فلا تجد غير الطريف الجديد، حتى لكأنك تقرأ عن موضوع لم
تسمع به قبل الآن.

أتعرف موضوعاً أشهر من موضوع الإسراء والمعراج على سبيل المثال،
فاستحضر إذن كل ما سمعت وقرأت عنه، ثم اقرأ مما كتبه مصطفى صادق الرافعي
في هذا الموضوع:

«لقد حارّ المفسّرون في قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من
المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنُريه من آياتنا إنه هو
السميع البصير﴾ [الإسراء/ ١] فإن السرى في لغة العرب لا يكون إلّا ليلاً،
والحكمة (في ذكر كلمة الليل) هي الإشارة إلى أن القصة قصة النجم الإنساني
العظيم، الذي تحوّل من إنسانيته إلى نوره السماوي في هذه المعجزة، ويتّسم هذه
العجيبة أن آيات المعراج لم تأت إلّا في سورة النجم.

وأنا ما يكاد ينقضي عجبي من قوله تعالى: ﴿لنُريه من آياتنا﴾ مع أن
الألفاظ كما ترى مكشوفة واضحة، يخيل إليك أن ليس وراءها شيء، ووراءها

السّر الأكبر، فإنها بهذه العبارة نص على إشراف النبي ﷺ فوق الزمان والمكان، يرى بغير حجاب الحواس، مما مرجعه إلى قدرة الله لا إلى قدرة نفسه، بخلاف ما لو كانت العبارة: ليرى من آياتنا، فإن هذا يجعله لنفسه في حدود قوتها وحواسها وزمانها ومكانها، فيضطرب الكلام ويتطرق إليه الاعتراض، ولا تكون ثمّ معجزة وتحويل فَعَلَ الرؤية من صيغة إلى صيغة كما رأيت، هو بعينه تحويل الرائي من شكل إلى شكل، كما ستعرفه، وهي معجزة أخرى يسجد لها العقل، فتبارك الله مُنْزِلَ هذا الكلام.

وإذا كان النبي ﷺ نجماً إنسانياً في نوره، فلن يأتي هذا إلا من غلبة روحانيته على مادته، ومتى غلبت روحانيته كانت قواه النفسية مُهيأة في الدنيا لمثل حالته في الأخرى، فهو في هذه المعجزة أشبه بالهواء المتحرك، فقل لي: أيعترض على الهواء إذا ارتفع أنه لم يرتفع في طيارة!.

ومن ثم كان الإنسان إذا سما درجة واحدة في ثبات قواه الروحية، سَمَا بها درجات فوق الدنيا وما فيها، وسَخَرَتْ له المعاني التي تسخر غيره من الناس، ونشأت له نواميس أخلاقية غير النواميس التي تتسلط بها الأهواء، ومتى وُجِدَ الشيء من الأشياء كانت طبائع وجوده هي نواميسه، فالنار مثلاً إذا تضرّمت أوجدت الاحتراق فيما يحترق، فإن وضع فيها ما لا يحترق أبطل نواميسه وغلب عليها.

ويمضي الرافعي في مثل هذا التحليل المخارق حتى يشغل حديث الإسراء والمعراج سبعة أعمدة طوال، تشرق بها صفحات الرسالة، وكلّها كما يقول سعد زغلول في بيان الرافعي: «تنزيل من التنزيل، أو قس من نور الذكر الحكيم».

أمامك «وحي القلم» بأجزائه الثلاثة، اقرأ فيه ما تناوله الرافعي تحت عناوين: (أمرأ للبيع) و(الأسد) و(قصة زواج) و(قبح جميل) و(اليامتان) وما يجري هذا المجرى من حوادث التاريخ، فإنك تجد ما لا تعهد من موضوعات تعرفها جيداً، وقد أَلَمَّتْ بها في مظانّها الكثيرة، لأن الرافعي يتلقّف الخاطرة الصغيرة، فيطير بها إلى آفاقه الرحبية، فإذا هي في مرآته الوضيئة شيء آخر غير

الذي نعهد، بل إذا هي إبداع خارق يدهش له العقل، وينحني له التحليل، ثم لا يجد القارئ تعليلاً لما يفجؤه من خيال الرافي، إلا أن الكاتب مُبدع فذ من أئمة المُبدعين، وأن الارتقاء إلى أفقه الأعلى يتطلب جناحاً قوياً يقدر على التحليق، فليس كل قارئ بقادر على أن يرتقي إلى أفق الرافي، والسهولة في الأداء قد تكون سمة بارزة لغير مصطفى صادق، ولكنها تواتيه في أحيان دون أحيان، تواتيه حين يتسرع في الإنشاء وفق ما يسبح به خاطر العابر، وتُخلفه حين يجلس لاصطياد الفرائد منمقاً مدققاً، إذ إن الفن البياني في رأيه هندسة وتصميم وبناء ثم زخرفة وتنميق ووشي، ويحيط بذلك كله شجر ذو مرأى وظلّ وثمر ليكتمل الإطار.

وكان الرافي أعلم بنفسه حين قال متحدثاً عن صناعة البيان^(١):

«إذا قيلَ الأدب فاعلم أنه لا بدّ معه من البيان، لأن النفس تخلق فتصوّر فتحسن الصورة، وإنما يكون تمام التركيب في معرضه، وجمال صورته، ودقة لمحاته، إذ ينزل البيان من المعنى الذي يلبسه منزلة النضج من الثمرة الحلوة، إذا كانت الثمرة وحدها قبل النضج شيئاً مُسمّى أو متميّزاً بنفسه، فلن تكون بغير النضج شيئاً تاماً ولا صحيحاً، وما بدّ من أن تستوفي عمرها الأخضر الذي هو بيانها وبلاغتها، وهذه مسألة كيفما تناولتها، فهي هي حتى تمضيها على هذا الوجه الذي رأيت في الثمرة ونضجها، فإن البيان صناعة الجمال في شيء جماله من فائدته، وفائدته من جماله، فإذا خلا من هذه الصناعة التحق بغيره، وعاد باباً من الاستعمال بعد أن كان باباً من التأثير، وصار الفرق بين حاله كالفرق بين الفاكهة إذ هي باب من النبات، وبين الفاكهة إذ هي باب من الرحيق، ولهذا كان الأصل في الأدب البيان والأسلوب في جميع الفكر الإنساني، لأنه كذلك في طبيعة النفس الإنسانية».

وقد أفلح الرافي مدى عمره الأدبي في أن يكون له طبقة ممتازة من صفوة القراء تهيم بدقة وصفه، وبراعة توليده، وبُعْد غوره، وجودة تصويره، وتشاق إلى

(١) الرسالة، (العدد ١١٠)، سنة ١٩٣٥ م.

آثاره في حنين وانجذاب، وله في دنيا الشعر نظراء آثروا العمق والتأني، والغوص والنفاذ، وأكاد أجزم أنه في الشر شبیه بأبي تمام في الشعر يعلوان ويعلوان! وسأحاول بعد حين أن أحدد مكانه الأدبي بين أئمة البيان العربي المعاصر ليميز الزميل عن الزميل.

- ٢ -

على أن الرافي قد ظلم بالنسبة إلى سواء لدى مؤرخي الأدب المعاصر، حيث تعرّض إلى حملات ظالمة شنها عليه أعداؤه الكثيرون، فقد تواطأ خصوم الفكرة الإسلامية، وأذئاب الدول الاستعمارية، وأشياخ المجون الإباحي على النيل منه، والخط من أدبه، إذ كان حرباً عليهم جميعاً، يقف حيالهم في طليعة المناضلين عن دين الله، وتاريخ العرب، ومجد الشرق، وقوف القائد المدجج بالسلاح، وينادي البراز مؤيداً بالحجة والعقل، مُصاولاً بعزيمة المؤمن، وهمة المثابر الشامس، حتى كُتِبَ له النصر في مواطن كثيرة، تركت جراح مُناوئيه تسيل، وقلوبهم تنفر، ثم مات الرجل وأصبح جهاده في ذمة التاريخ، وأدبه في ميزان النقد، فهبّت فئات ناقمة تصمه بما هو منه براء، تشفياً من دائها القديم.

ترعرع الرافي في عهد سيطر فيه الاحتلال الأوروبي على أكثر بلاد الإسلام، فحاول أن يخدع المسلمين عن مثلهم الرائعة بقشور من المديّة الزائفة، وانطلق صنائعه يدعون إلى المذاهب المنحرفة قولاً وعملاً، ثم يعمدون تحت ستار من البحث المُغرِض إلى تشويه الحقائق الدينية، وإشاعة الأراجيف الشائنة عن أبطال التاريخ الإسلامي، ثم إلى الخط من البيان العربي، والفصاحة البليغة، تمهيداً للطعن في كتاب الله ذي الإعجاز المبین.

وكان للدُّخلاء من سعة النفوذ، وامتداد الجاه ما مكن لهؤلاء المُغرِضين من مطايا الصُّحف ومنابر التوجيه في الجامعات والمدارس، فرزقوا الخطوة الآهلة، والدويّ الصاحب، ولكنهم وجدوا مَنْ ناوهم عن صدق وإيمان، فكشفوا سواد الضمائر وعقارب الصدور، وفي مقدمة هؤلاء كان الرافي يتصدّر الجبهة المُدافعة

مدرهاً مبارزاً، ولن نبخسه حقّه حين نقول إن زملاءه من المجاهدين الكبار أمثال محمد فريد وجدي، وشكيب أرسلان، ومحمد أحمد الغمراوي، وغيرهم، كانوا يقفون معه في صفٍّ واحد، ولكن مصطفى صادق الرافعي كان أبعدهم تأثيراً لما رُزِقَ من قوة في الحجاج، ولدّد في الحوار، ولما أُعْطِيَ من تهكّم ساخر، يعصف بالضلال عصف النار بالهشيم، فرجع بنصر من الله، وعرف له المخلصون مكانه الشجاع.

لا ننكر أن أساتذة مخلصين كمحمد سعيد العريان، قد وضعوا اللّبنات الأصيلة في كتابة تاريخ صادق لمصطفى صادق، ولكن نأسى لأناس لم يتركوا أحقادهم، فجعلوا يذكرون الرافعي بعد مماته بما كانوا يصمونه به في حياته، وليتهم كانوا صادقين مع أنفسهم، فتعذرهم لصدق الاتجاه، وإن وقعوا في الخطأ، ولكنهم يعرفون من الرافعي روعة خيال، ودقّة غوص، وجمال تصوير، ثم يحاولون أن ينكروا ذلك في صلافة تدلّ على الغباء!

ولم يكن هؤلاء وحدهم، بل أضيف إليهم من أخلصوا للرجل في حياته، ثم بدّأ لهم أن ينتفعوا بآثاره بعد مماته، إذ عمد أحد أصدقاء الكاتب الكبير إلى نشر رسائل خاصة كان الرافعي يرسلها إليه متعرّضاً إلى ثلّب من يناوئونه، والرافعي بشر لا نبيّ، فليس المُتَنَتِّز منه أن يكتب خطاباً خاصاً لمُريد تلميذ بالنسبة إليه، ليقول له: إن خصومي دَوو مواهب، بل ليجد في هذه الصفحة التي لن يقرأها غير تلميذه مُتَنَفِّساً لآلامه، فكأن هذه الرسائل بهذا الاعتبار لا تخرج عن كونها شبيهة بحديث شفوي يلقيه كبير ضائق الصدر على نفر من خلصائه في ساعة ترويح، تمثّل الخواطر الوقتية المُعارضة التي تذهب وتجيء، ولكن هذا التلميذ الانتهازي أراد الكسب والاشتهار عن طريق هذه الرسائل، وأكثرها موجز لا يحمل معنىً ذا بال، فقدمها بخيرها وشرّها للنشر ليتلقفها خصوم الرافعي، فيفرحوا بها فرح الأعمى بالضياء، وتكون هي وحدها - بين كتبه الكثيرة - مناط الحكم على إسلامه أولاً، وأدبه ثانياً، ونفسيته ثالثاً، وقد يصطنع بعضهم الخبرة المُفتَعلة باللاشعور والكبت والإسقاط، وسائر هذه الاصطلاحات الطريفة في علم النفس، لكي ينتهي إلى أن

الرافعي حاقداً مريضاً، وقد نسي أن هذا المقياس المصطنع لو طُبِّق عليه فيما يكتبه جاداً - فوق ما يكتبه هازلاً - لسلب عنه أبرز خصائص الإنسان.

وثالثة الأثافي : أن يعمد كاتب متعجل إلى ما سطره الرافعي في كتاب (على السفود) فيجعله وحده خلاصة أدب الرافعي في صباه وشبابه وكهولته! ومع أن مصطفى صادق الرافعي لم يظهر هذا الكتاب باسمه الصريح مقدراً ما يحمل من قسوة النقد على الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد لأسباب كثيرة كان من سوء الحظ أن تتجمع حول الرجلين العظيمين، مع هذا التخفي المتهرب، واعتراف الرافعي نفسه أنه سلاح كربه يضطر إلى استعماله في ساحة اللجاج، فقد شاء الكاتب المغرض أن يجعل مدار حكمه على الرافعي كتاباً واحداً تبرأ منه صاحبه حين باعد النسبة إليه، وكان مثل هذا الكاتب المغرض فيما تعمّد من سوء مثل من يعمد إلى قصر واسع يشغل عشرات الحُجَر والأبهاء، مزدانة بأجمل الرياش، ومُحلّاة بأرقى وسائل البهجة والنعيم، فيترك ذلك كله ليسلّط نقده الحادّ المتشجّع على غرفة ضيقة في أعلى السطح يقيم فيها صغار الدّواجن! أفيلق في منطق العقل أن يكون ذلك طريقنا الأوحَد في مجال النقد الأدبي، والموازنة بين المتماثلين!.

لقد أدّى الرافعي دوره الضخم في بعث اليقظة الإسلامية وإيقاد الحمية العربية، وعلى من يتصدّر للحكم عليه ألا يقف عند الكلف الباهت في وجه القمر ليجمعه وحده مجال القول، تاركاً أثر هذا الكائن المُشرق في هداية المدلج، وإضاءة الطريق، وجمال الليل، وسلام الحياة.

ولّد الرافعي في أسرة تحتلّ مقاماً دينياً مرموقاً، إذ كان أكثر رجالها يتداولون القضاء الشرعي بمصر والشام، وقاضي المحكمة الشرعية في الإقليم الكبير حينئذٍ هو رئيسه الروحي، وموضع فتواه وهدايته وإليه المرجع في شؤون الدنيا والدين، وداره مُنتدى العلماء والأدباء والباحثين.

وأُسرة الرافعي تضرب بجذورها البعيدة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولأعضائها افتخار معتزّ بهذه النسبة الفاروقية، سواء في الشام أو مصر، وقد بلغت من المنزلة الرفيعة أدباً وعلماً ما أشار إلى بعضه أحمد شوقي حين قال في تكريم شاعر طرابلس الشام (عبد الحميد الرافعي)، وابن عمّ مصطفى صادق، وأمين الرافعي، وعبد الرحمن أخيه:

أعزني النجم أو هبني يرَاعاً يزيد الرافعيين ارتفاعاً
إذا أسد الشرى شبت فعفت رأيت شبابهم عفوا جِباعاً
هُمُ زادوا القضاء جمال وجه وزادوا غرة الفتيا تماعاً

وكان والد مصطفى يهيئه لحياة عملية مُثمرة. فالحقه بالمدارس الابتدائية حتى نال شهادتها، وعزم على أن يمتدّ به إلى الدراسة الثانوية، ولكن الحُمى أصابته ولم ترحل عنه إلاّ بعاهة أصمّت أذنه، فوقفت حجر عثرة في طريق مستقبله التعليمي، ومن هنا عكف الطالب الناشئ على مكتبة أبيه يقرأ منها ما يقرأ، مهتدياً بفطرته الذاتية إلى ما يُرضيه، وكانت مكتبة القاضي الكبير لا تخرج عن محيط الدين والأدب والتاريخ الإسلامي، فأتاحت للناشئ المتطلع أن يدرس كل ما يقع في يده دراسة الدؤوب المُثابر، وصادفت هذه الدراسة منه نفساً متطلّعةً، وقلباً شاعراً، وعقلاً نقّاداً، فعادت عليه بما يعود النмир العذب على الأرض الطيبة بعد أن وضع فيها البذر الجيد.

وقد أثر في مطلع حياته أن يكون شاعراً يلتحق بالكوكبة المجلية من تلاميذ البارودي، أمثال شوقي، وحافظ، ومحرم، والكاشف، والكاظمي، فنظم الشعر الجيد، وأصدر في الثالثة والعشرين ديوانه الأول، فكان حديث الأندية، وقد أفردت له جريدة المؤيّد صفحتها الأولى لتنشر مقدمته الأدبية، ذات الطابع الجزل الأسر، ففاجأت القراء بباحث كاتب نقّاد، حتى إن الشيخ إبراهيم اليازجي قد هاله أن يأتي ناشئ بهذا البيان، وعكف على مراجعة الكتب الأدبية ليهتدي إلى أصولها، حتى إذا استيأس أفرد مقالاً مُقرّظاً للمقدمة والديوان في صدر (الضياء).

وشعر الرافعي حينئذ يُنبئ عن موهبته، فقارئه لا ينزل به عن مستوى أعلام الشعر في عصره، ومثل هذه الشاعرية الذافقة لا يمكن أن تستر في نفس صاحبها الجائشة، وأخالها بعد صدور ثلاثة أجزاء من الديوان، أثرت الشعر المنشور لتجد الأفق الطليق الممتد على نحو لا تعوقه القوافي والأوزان، فجاء أكثر ما كتبه الرافعي في حديث القمر، وأوراق الورد، والسحاب الأحمر، ورسائل الأحزان، شعراً عاطفياً تنقصه القافية والوزن، بل إن كثيراً مما جاء في أجزاء وحي القلم يمثل الرافعي الشاعر، أكثر مما يمثل الرافعي الكاتب، فأنت تقرأ خطرات الكاتب المؤمن، فتجد نمطاً من البيان الديني لم يعهد في العربية من قبل، إذ كان أكثر من يتعرّضون للمعاني الإسلامية ينحون منحى العلماء والمؤرخين لا منحى المُلهَمين من الشعراء.

إن الرافعي يقف أمام الحادثة الصغيرة لتنبثق أمامه ينباع ثرة تجيش بالموج الزاخر، وله براعة في اختيار ما يمتع، ويسروق ويلذّ، فهو إذا تعرّض مثلاً لحكاية فتح العرب لمصر، جعل عنوانها المختار (الياماتان) وأخذ يستلهم هذين الطائرين أنبل ما ينتظر من أظهر الخواطر، وأرقّ الأحاسيس، وروح الشاعر هي التي وجّهته هذه الوجهة البارعة، إذ كان موقف عمرو بن العاص من يمامة الفسطاط حين انتظرها بعض الأمد، فلم يزعج أفرانها الصغار، مما يصلح قصة شاعرة، لها من القصة براعة التسلسل، وعذوبة الحوار، وجودة التحليل، ومن الشعر فيض الإلهام، وقوة الطيران، ونغم الموسيقى الخالب، وروعة التصوير الجاذب! وكأن الشعر بمعناه الحقيقي قد أبى إلّا أن يفرض نفسه وحده في ختام القصة، فشاء الرافعي المُبدع أن يختمها بهذا السحر الوثّاب، حين قال بعد أن صوّر بطلتي القصة (مارية وأرمانوسة) ثم قال على لسان مارية:

«على فسطاط الأمير يمامة جائمة، لو سُئِلت عن هذا البيض لقالت: هذا كنزي.

هي كأنها امرأة ملكت ملكها من الحياة، ولم تفتقر، فهل أكلف الوجود شيئاً كثيراً إذا كلفته رجلاً واحداً أحبه!؟.

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها! الشمس والقمر والنجوم في عينها أصغر من هذا البيض، هي كأرق امرأةٍ عرفت الرقة مرتين: في الحب والولادة، فهل أكلف الوجود شيئاً كثيراً إذا أردت أن أكون كهذه اليمامة؟.

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها، تقول اليمامة: إن الوجود يحب أن يرى بلونين في عيني الأثنى، مرة حبباً كبيراً في رجليها، ومرة حبباً صغيراً في أولادها، كل شيء خاضع لقانونه، والأثنى لا تريد أن تخضع إلا لقانونها!.

آيتها اليمامة: لم تعرفي الأمير، وترك لك فسطاطه، هكذا الحظ، عدل مضاعف في ناحية، وظلم مضاعف في ناحية أخرى.

احمدي الله - آيتها اليمامة - أن ليس عندكم لغات وأديان، عندكم الحب والطبيعة والحياة.

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها، يمامة سعيدة ستكون في التاريخ كهدهد سليمان، نُسب الهدهد إلى سليمان، وستنسب اليمامة إلى عمرو! وهاً لك يا عمرو، ما ضرَّ لو عرفت اليمامة الأخرى؟».

وقد يظن أحد أن جوّ القصة التاريخية هو الذي نفح الرافعي بهذه الخواطر الحارة، والحقيقة أن الكاتب الموهوب رائع في كل ما يكتب تاريخاً أو أخلاقاً أو رسالةً أو قصيدة! حتى العبادات التي تعود الأدباء أن يبعدوا عن استلهاها نجد الرافعي قد كتب فيها أبداع ما يكتب أديب فنان، فما تحدّث أحد عن مزايا الصوم والصلاة والحج والزكاة بأحسن مما تحدّث الرافعي رضي الله عنه في القديم والحديث، بل إن صوت المؤذن الصادح بقوله: (الله أكبر) قد ألهم الكاتب المؤمن ما لا تظنه يخطر على قلب بشر، فهو يقول إن الصوت الصارخ بحقيقة السماء رهيب، يقع على الأثم المذنب كأنما تفرغ السماء منه ملء سحابة على الرجس فيظهر.

وَيَمْضِي فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَعَانِي الظَّاهِرَةِ يَسْطُرُ صَفَحَاتٍ تَزْدَهَرُ بِالنُّورِ، وَتَنْفَحُ بِالْوَرْدِ، وَتُشْرِقُ بِالْأَمَلِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْخَتَامِ، فَتَهْتَفُ بِهِ شَاعِرِيتهُ كَيْ يَحْلُقَ فِي أَجْوَانِهَا الطَّلِيْقَةَ، لِيَضَعَ نَشِيدَ الْأَذَانِ مِنْ قَافِيَةِ الْإِيْمَانِ، فَيَكُونُ مِمَّا اسْتَمَّ لَهُ هَذَا الْجَمَالُ السَّاحِرُ، يَلُوحُ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ مِنْ فِقْرَاتِ النَشِيدِ:

اللهُ أَكْبَرُ، بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ مِنَ الْيَوْمِ، تَرْسُلُ الْحَيَاةَ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ نِدَاءً هَا يَهْتَفُ: أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ إِنْ كُنْتَ أَصَبْتَ فِي السَّاعَاتِ الَّتِي مَضَتْ، فَاجْتَهِدْ لِلْسَّاعَاتِ الَّتِي تَتَلَوُ، وَإِنْ كُنْتَ أَخْطَأْتَ، فَكْفَرْ وَامْحُ سَاعَةً بِسَاعَةٍ، فَالزَّمْنُ يَمْحُو الزَّمْنَ، وَالْعَمَلُ يَغَيِّرُ الْعَمَلَ، وَدَقِيقَةُ بَاقِيَةِ فِي الْعُمْرِ أَمَلٌ كَبِيرٌ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ.

بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ يَتَنَاوَلُ الْمَرْءُ مِيزَانَ نَفْسِهِ حِينَ يَسْمَعُ اللَّهَ أَكْبَرُ، لِيَعْرِفَ الصَّحَّةَ وَالْمَرَضَ فِي نَيْتِهِ، كَمَا يَضَعُ الطَّيِّيبُ لِمَرِيضِهِ بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ مِيزَانَ الْحَرَارَةِ.

الْيَوْمُ الْوَاحِدُ فِي طَبِيعَةِ هَذِهِ الْأَرْضِ عُمْرٌ طَوِيلٌ لِلشَّرِّ، تَكَادُ كُلُّ دَقِيقَةٍ بِشَرِّهَا تَكُونُ يَوْمًا مَخْتُومًا بَلِيلٌ أَسْوَدُ، فَيَجِبُ أَنْ تَقْسِمَ الْإِنْسَانِيَّةُ يَوْمَهَا بِعَدَدِ قَارَاتِ الدُّنْيَا الْخَمْسِ، لِأَنَّ يَوْمَ الْأَرْضِ صُورَةٌ مِنَ الْأَرْضِ، وَعِنْدَ كُلِّ قِسْمٍ مِنَ الْفَجْرِ وَالظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرَبِ وَالْعِشَاءِ، تَصِيحُ الْإِنْسَانِيَّةُ مُنْبَهَةً نَفْسَهَا: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ.

بَيْنَ الْوَقْتِ وَالْوَقْتِ مِنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ تَدْوِي كَلِمَةُ الرُّوحِ: اللَّهُ أَكْبَرُ، وَيَجِيبُهَا النَّاسُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، لِيَعْتَادَ الْجَمَاهِيرُ كَيْفَ يُقَادُونَ لِلْخَيْرِ بِسَهُولَةٍ، وَكَيْفَ يَحَقِّقُونَ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ مَعْنَى اجْتِمَاعِ أَهْلِ الْبَيْتِ الْوَاحِدِ، فَتَكُونُ الِاسْتِجَابَةُ إِلَى كُلِّ نِدَاءِ اجْتِمَاعِي مَغْرُوسَةً فِي طَبِيعَتِهِمْ بِغَيْرِ اسْتِكْرَاهٍ.

فَلَا تَضْطَرُّوْا، هَذَا هُوَ النِّظَامُ، وَلَا تَنْحَرِفُوا، هَذَا هُوَ الْمَنْهَجُ. لَنْ يَكْبُرَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مَا دَامَتْ كَلِمَتُكُمْ اللَّهُ أَكْبَرُ^(١).

هَذَا نَمَطٌ مِنَ الشُّعْرِ الْمُنْثُورِ يُلْهِمُهُ كَاتِبُ الْبَيَانِ الدِّينِيِّ فَيَكُونُ إِمَامًا فِي مَدْرَسَةٍ جَدِيدَةٍ لَا تَزَالُ تَنْتَظِرُ إِلَى الْيَوْمِ خَيْرَةَ التَّلَامِيذِ وَصَفْوَةِ الطُّلَابِ.

(١) مجلة الرسالة، السنة الثالثة، العدد (٧٩)، ٢ شَوَّال، سنة ١٣٥٣ هـ.

ولكي نحدّد مكانة الرافعي بين أئمة النثر البياني المُعاصِر نذكر أن الكتابة الأدبية في العصر الحديث قد تنوّعت إلى منزعين واضحين: منزع الترسّل، ومنزع السّجع، وزعيم الوجهة الأولى محمد عبده، ومن تلاميذه: المنفلوطي، والرافعي، والبشري، والزّيّات، على اختلاف أقدارهم وطاقاتهم الفنية، وزعيم الوجهة الثانية: عبد الله فكري، ومن تلاميذه: حفيي ناصف، ومحمد المويلحي، وتوفيق البكري، على اختلاف طاقاتهم أيضاً، وقد تمّ الغلب لمدرسة محمد عبده، لأن ضروريات الحياة الأدبية، وانفساح ميادين الكتابة، وظهور الصّحف اليومية حافلة بالجديد من المقالات المُعالِجة لشؤون الأمس واليوم، بل لشؤون الساعة والدقيقة، كلّ أولئك لم يفسح الوقت لتؤدّ ذوي الأسجاع، بل فرض الترسّل فرضاً على الكاتبين.

كان المنفلوطي والرافعي والبشري والزّيّات إذن من مدرسة واحدة، تتّجه وجهة البيان المُشرّق، وقد مضى كلّ واحد من تلاميذ هذه المدرسة إلى حيث يؤهّله استعدادُه ومنحاه، فالمنفلوطي يُؤثّر السهولة والانسحاب، لذلك نجد بيانه عذباً سهلاً ينحدر انحدار الماء في مجراه دون كدرة أو غثاء.

أما عبد العزيز البشري فقد برع في التصوير الظاهر لمعالم الجسد المرئي، والوصف الباطن لخوافي النفس المستكينة مع نكتة ظاهرة، وخفّة روح لا يضائلان من رصانة الأسلوب وقوّة أمره.

وقد أولّع أحمد حسن الزّيّات بالتنسيق اللفظي، والتصوير الوجداني، دون أن يغفل جانب الفكر الهادئ الذي يعرض الميسور دون المستتر، فجاء بيانه آية في حلاوة نسقه، وصفاء مورده، وجودة تقسيمه، وصحّة ازدواجه.

فإذا تركنا هؤلاء الثلاثة إلى الرافعي رحمه الله فإننا نجده أعمقهم فكراً، وأبعدهم غوصاً، وأناهم منالاً، حيث تتوالى معانيه في براعة ومقدرة، وقد أُوتِيَ تحليلاً فلسفياً يكشف الغوامض، وتعليلاً منطقياً يؤيّد له الظواهر، وخيالاً شعرياً

يبعث البهاء والجلال والروعة فيما يكتب، وإذا دقّ حيناً وغمض فلأنه نسيج وحده وفريد نوعه .

وقد فتح كتاب البيان الديني في سجلّ الأدب المعاصر، ليقول لمن يترصدون الغرائز الهابطة، ويتعمدون النزوات الساقطة: ليس البيان آهة مخدع وعهارة ساقط، ووقاحة مُبتذلة، وقضاء حاجة دنيئة، لأن بواعث الغرائز المُسِفّة كائنة لدى الحيوان قبل الإنسان، بل ربما أذاها الحيوان ببراعة أكثر من براعة الإنسان، فهي أولى بالتستّر والاحتجاب، إنما البيان سموّ بالعواطف، وارتقاء بالنوازع، وارتفاع بالأحاسيس لأن البياني ملائكي أفقه السماء وليس شيطانياً وحله في الأرض فإذا ترك الذروة إلى الحضيض فهو إثم مُفترى وذنب مفضوح .

هذا الاعتقاد الشريف في سموّ البيان وطهارة رسالته، دفع مصطفى صادق الرافعي إلى حمل راية الجهاد ضدّ أعداء العروبة وخصوم الإسلام، ومقالاته النقدية في أمّهات الجرائد اليومية والمجلات الدورية، تدلّ على زعامته المؤمنة في هذا المجال، وبها صار مدرّة الإسلام وكاتب العرب، ولعلّ كتابه الذائع (تحت راية القرآن) قد جمع ما يدلّ على اتجاهه الأدبي روحاً وتفكيراً وحباً وبغضاً، ومُوالاة ومُعاداة، وجدّاً وسخرية، ورمزاً وتصريحاً، وجهرّاً وتلميحاً، وكان هذا الكتاب القيم ضرورة من ضرورات الدفاع المؤمن لهجمات الإلحاد المادي، والترفع الغربي، وإعادة لمقدّسات العروبة، في أدبها النابض وثقافتها المتشعّبة، وهداها المنير، وإذا كان اصطلاح القديم والجديد كان الشعار المتردّد حينئذ بين الرافعي وخصومه، فإن الكاتب الكبير قد أعلن رأيه في هذه القضية الحسّاسة حين قال :

«إن أرادوا بالمذهب الجديد العلم والتحقيق، وتمحيص الرأي والإبداع في المعنى، على أن تبقى اللغة العربية قائمة على أصولها، وعلى أن يكون التفنّن طرائق لا مذاهب يُراد بها إثبات ومحو، فإننا لا ندفع شيئاً من هذا، ولا ننزع فيه بل هو رأينا ورأي الحياة، وقانون الطبيعة، ولكننا مع هذا نزيد عليه أن الأصل في

ذلك كله هو سلامة اللغة وسلامة القومية، فلا ننظر في آراء الأمم إلا على أننا شريقون، ولا ننقل من لغات الأفرنج إلا على أننا أهل لغة لها خصائصها، فلا تصرفنا مدنيّتهم عن أنفسنا، ولا نأتي بسيوفهم لرقابنا، بل نُؤثر الفضيلة على الرأي، ونرغب في المصلحة الجافية على المفسدة اللينة.

وإن أرادوا بالمذهب الجديد أن يكتب الكاتب بالعربية منصرفاً إلى المعنى والغرض تاركاً اللغة وشأنها، متعسّفاً فيها، آخذاً ما يتفق كما يتفق، معتبراً ذلك اعتباراً من يرى أن مخّه بلا غلاف من عظمه وأن أصابع قدميه كأهداب عينيه، وأن اللغة أداة، ولا بأس بالأداة ما اتفق منها، ولا بأس أن يمزج الجراح مزعاً من جلد العليل بأسنانه، أو بأظافره، أو بنصل الفأس ما دامت معقمة، إن أرادوا بهذا أو بأشباهه ما يسمّونه بالمذهب الأدبي الجديد، قلنا: لا ثم لا ثم ثلاث لاءات^(١).

ويواصل الرافعي حربه القاهرة على أعداء البيان الجزل ومن يزعم أن لغة القرآن الكريم، والجملة القرآنية بالذات، تنأى بقارئها عن أسلوب العصر، فيفسح المجال الرائع لبراهينه الساطعة، كي يدحض باطل المُغرضين، حين يقول في صراحة:

«إن هذه العربية بُنيت على أصل سحري يجعل شبابها خالداً عليها، فلا تهرم ولا تموت، لأنها أُعدت من الأزل فلكاً لليرين الأرضيين العظمين: كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، ومن ثم كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء كأنها آخذة السحر لا يملك معها البليغ أن يأخذ وأن يدع، وكيف تريد ممن عجز عن الفصيح أن يشني عليه، وهو لو أثنى عليه لَطُولِبَ به، ولو طُولِبَ به لَبَانَ عجزه وقصوره، ولو ظهر منه الناس على هذا العجز لما عدّوه في شيء ولذهب عندهم قليل ما لا يحسنه بالكثير الذي يحسن»^(٢).

وقد اشتهر الرافعي بمنأواته للدكتور طه حسين، وللاستاذ عباس محمود العقّاد، أما معركته مع الدكتور طه حسين، فقد كان فيها صاحب حقّ صريح، لأنه

(١) تحت راية القرآن، ص ١٥، ط ٤.

(٢) تحت راية القرآن، ص ٣٠، ط ٤.

يدافع عن حقائق مُشْتَهرة قام الدليل على ثباتها، وجاء الدكتور ليُوهنها مستنداً إلى قراءات في كتب التبشير والاستشراق المُغرِض، ولا يُؤخَذ على الرافعي إلا قسوة التعبير، فلو أنه عمد إلى الحقائق الصريحة دون إيغال في التجريح، لبلغ من النجاح أكثر مما بلغ، ولعلَّ مَسَلَكَ الدكتور طه المتعالي المتشامخ دون حق كان السبب في عناد الرافعي، وركوبه الصَّعب في مجال التجريح.

أما معركته مع الأستاذ العقَّاد، فقد كُنَّا نؤثر ألا تقع، لأن الرافعي كالعقَّاد، كلاهما مُخلص غيور، وكلاهما لا شُبْهة في دينه ولا أدبه ولا عرويته، ولخير لأبناء الحق أن يجتمعوا في صفٍّ واحد، ولكن تنافس النظراء حالٌ دون الالتقاء، وكان في الرافعي تقمُّم واجترأ وفي العقَّاد صلابة واعتداد، ولعلَّه بثقافته المعاصرة أقوى منطقاً وأبلغ سداداً من صاحبه! وإن كان للرافعي عرافته الأسرة في قوَّة البيان وروعة التصوير! رحم الله العملاقين.

ولي اقتراح أدبي لا أدري ما موقعه لدى النقاد! هذا الاقتراح هو أن نعد إلى مقالات الرافعي في وحي القلم، وأوراق الورد، والسحاب الأحمر، ورسائل الأحزان، فنختار من كل مقال ما يسهل تناوله على الناشئة، ونبدؤه بتقديم يُوضح مراميهِ، ونختمه بأسئلة تُشير إلى أهم محتوياته، وبذلك نيسر أدب الرافعي على الناشئة، فينتفعون به سموّاً وتوجيهاً وإيماناً، حتى إذا بلغوا مبلغ المتمكِّنين رجعوا إليه في كتبه الأساسية، دون حاجة إلى التيسير، وكذلك نفعل في كتاب (إعجاز القرآن) لأن حقائقه القوية تغلف كثيراً في صياغة متأبِّية إلا على مَنْ عرف معادن البيان، وجرى في الأدب على عرق يضرب بجذوره إلى عهود الفصاحة الزاهرة!.

وهنا يكون تراث الرافعي مُتداول الصفحات، مُشْتَهَر الخواطر بين جمهرة القراء، وهنا نهتك حجاب الصمت... الذي غلَّف إنتاج الأديب النابغة في هذه الأيام، فذكر الناس تلاميذه وتلاميذ تلاميذه، وتركوه في معقله الأشمِّ، لا يرقى إليه غير النُور القوية، ذوات الأجنحة الفتية! وما أقلُّها في عالم البغاث.

الإمام الأكبر محمود شلتوت الفقيه المصلح المجدد

كان الإمام محمود شلتوت فقيهاً كبيراً بين فقهاء كبار من أساتذته ولداته، ولكنه كان أوسعهم صدئ، وأبعدهم تأثيراً، وأشدّهم نفوذاً، حيث كانت تنتشر آراؤه في كل بيئة، وتتداول في كل قطر، وتناقش في كل وقت، وقد ساءلت نفسي كثيراً لماذا كان لشلتوت هذا الدويّ المرن المصلصل، وقد يأتي غيره بما يأتي به فلا يطنّ صداه حتى ينقطع، ثم نظرت فوجدت أن الرجل الكبير كان بلاغياً يُراعي مقتضى الحال زماناً ومكاناً وأناساً، فهو يتحدّث في الإذاعة عن موضوع ما، فيصوغه صياغةً واضحةً سافرةً، يصل بها إلى قلب كل سامع، مهما كانت درجته متواضعة في الفهم.

ثم بتحدّث عن الموضوع نفسه في صحيفة يومية فيعلو بمستواه إلى درجة القارئ الذي يمضي بخطواته الأولى في طريق الثقافة، فإذا انتقل الحديث إلى مجلة شهرية وجدت الموضوع نفسه قد زاد عمقاً واتساعاً على وضوح معانيه، وسُفُور وجهه، أما إذا انتقل به إلى ميدان التخصص فألقاه على طلبة الدراسات العليا للتشريع أو حاضر به في مجمع علمي، فإنك ترى العمق العميق والفهم الدقيق، والاستشفاف النافذ، والرأي الجديد! هكذا كان الرجل بين أبناء جيله.

وهكذا امتدّ تأثيره إلى كل نفس، بل هكذا شغلت فتواه الجريئة عقولاً وألسنةً وأقلاماً، والرجل جريء حقاً، ولكن جرائته الفقهية ليست جراءة الدّعويّ

المتطلع للمخالفة، فيسوق الفتوى الجريئة ليُقال مَنْ ذا قالها، ولكنها جراءة البَحَّاثَة الذي أَلَمَ بمعضلات الجيل، ووقف على ثنية عالية من ثنايا الزمن السائر، ليراقب موج الأجيال قرناً وراء قرن، فيعلم أن لكل زمان عرفه المتعاهد، ومصالحه المرعية، وذرائعه التي يجب أن تسدَّ، وإذ ذاك يصدر فتواه وقد عاش معها مصباحاً ممسياً، وراجعها راثحاً وغادياً، حتى إذا تمكَّنت من نفسه، ونزعت كل خالجة من خوالج شكِّه، نطق بها صريحة رنانة، فأثارت أقلاماً، وحركت أفكاراً، وشغلت صُحفاً، وملأت أنديةً!!

أي والله، وقد كان الرجل كائنة العلم الراسخين واسع الصدر، فسيح العطن، رحب الأناة، يقابل مُعارضه بابتسام مُشجَّع، إذا أنس منه ميلاً للحق، وبحثاً عن الدليل، وركوناً إلى المنطق، ولكن ضيقه يغلبه على قوم يعارضون لوجه المعارضة، وتلمسون له الشُّبهات، ويحثون عن النِّيَّات المستترة دون دراية وفراصة، فهم يؤوِّلون كل منزع بما يُلقى الريب، ويفسِّرون كل اتجاه بما يبعث الفتنة، وهؤلاء لا يتحمَّلهم حلِيم مهما اتَّكأ على صبره، وماذا عسى أن تبلغ أعصاب الإنسان، حين ترى الدسائس تُحاك، والغشَّ يستظهر، واصطناع الغيرة على الحق من ذوي الباطل، ما عسى أن تبلغ أعصاب الإنسان من الصبر، ومَنْ يدَّعون وراثة الأنبياء يجادلون لوجه المجادلة ويتعصَّبون لأنفسهم الجامدة، دون أن يتعصَّبوا لما عرفوا من أدلة، وما لقنوا من براهين، وما دعوا إليه من القول الحكيم، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن.

إن شئت أن تجد من مسلك الشيخ مثالين مختلفين يكونان تطبيقاً لما نقول، فانظر إلى موقفه من الأستاذ العلامة محمد الخضر حسين، ومن شيخ الإسلام التركي مصطفى صبري رحمهما الله! فقد عارض محمد الخضر حسين شلتوتاً في اتجاهات كثيرة، أظهرها موقفه من موضوع: «شخصية الرسول»، كما عارض الشيخ مصطفى شلتوتاً في أكثر من فتوى ولكن الشيخ شلتوت يعرف للخضر مقام المخلص المناضل عمّا يعتقد، فيحترم رأيه ويشيد به، ويعده في طليعة مَنْ رُزقوا الفقه علماً والثبات خلقاً.

ويرى في كلام شيخ الإسلام التركي لجاجاً ورمياً بالكفر، واتهاماً بالخيانة، دون أن يقتصر على مناقشة الرأي، فيعلم أن الرجل جاوز حدّه معه، كما جاوزه مع الإمام محمد عبده، والشيخ محمد مصطفى المراغي، والأستاذ محمد فريد وجدي، إذ رمى هؤلاء جميعاً بفساد العقيدة، فلا يستطيع شلتوت صبراً على مَنْ يترك أصول المناظرة وأدب البحث إلى الرمي بالزيف والضلال، ويشبها ناراً حامية، والرجل معذور لأنه ينتصر بعد ظلمه، فما عليه من سبيل، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس.

التحق الطالب محمود شلتوت بمعهد الإسكندرية الديني بعد وفاة الأستاذ الإمام بعام واحد، وقد انتظمت الدراسة في معهد الثغر على نحوٍ جديد يقوم على تعاليم محمد عبده، وقد اختير له من فضلاء الأساتذة مَنْ يقدّرون حاجة المعهد الجديد إلى الرقي العلمي، والأخذ بأساليب العصر قدر المستطاع، وكان الشيخ الكبير محمد شاكر رحمه الله شيخ المعهد، وهو لسان بارز من ألسنة الإصلاح الديني، فسهر على رعاية العلم بالمعهد، وأيقظ في الطلاب غوافي الأمل، إذ فتح عيونهم على ما يجب أن يكون عليه أزهرى المستقبل من حيث اليقظة الفكرية، والإسهام الحقيقي في هداية قومه، باذلاً جهده في ضرورة الدراسة الجادة والاستيعاب الشامل، لأن العلم الجاد طريق التفوق.

وهذا ما وعاه الطالب محمود شلتوت، إذ حرص على التفوق العلمي حرصاً كلّفه الكثير من الصبر والجهاد، حيث كان ينال الأوليّة كل عام، فيُجَلّى بين قوم نُبهاء، والأوليّة في هذا العصر كانت موضع فخر ونباهة، إذ بها وحدها يصير الطالب مفرداً بين لذاته، وليس سبيلها بهيّن ممهّد، ولكن اجتيازه في مقدور الصفاة من النابهين، هذا النبوغ المتكرّر كل عام قد أعطى الطالب ثقة في نفسه، وتقديراً لدى شيخ معهده وأساتذته المواد، فجعلوا يشيدون به، ومنهم مَنْ كان يدعوه لقراءة الدرس ليلاً في منزله قبل أن يلقي على الطلاب في صبيحة الغد، وتلك شهادة بكفاءة الطالب الممتاز حقّاً.

وما زال محمود يواصل السَّبق حتى انتهى من الدراسة قبل شُبوب ثورة سعد زغلول بعام واحد، فعُيِّن مُدرِّساً بالمعهد غبَّ التخرُّج دون أن ينازعه مُنازع، ولم يكن التعيين إذ ذاك سهلاً هيناً كعهدهنا به اليوم، لأن التدريس الرسمي بالأزهر كان موضع اتِّئاد فاحص، ونظر مديد، ولكن سطوع شلتوت قد رشَّحه لإجماع أساتذته على اختياره، فعهد إليه بتدريس الفقه للفرقة الرابعة لا الأولى.

ولم يكن من المُتَنظَر أن يعكف المُدرِّس الناشئ على الدرس وحده، فإن آماله الوائبة وحميته الوطنية دفعتا به إلى المشاركة في الثورة المصرية بالثغر، وكانت الإسكندرية يومئذٍ موطن اعتقال القاهريين، كما كانت القاهرة موطن اعتقال أبناء الأقاليم، فأخذ الشيخ الشاب يجمع التبرَّعات لأُسَر المعتقلين، ويتحسَّس أنباءهم وراء القضبان، وكان اختياره لهذا العمل البارَّ استجابة لنفس خيرة، وجدت الجهاد الوطني يتَّسع لأكثر من ميدان، إذ لا يقتصر على المظاهرات السياسية، والخطب النارية، ولكنه يمتد إلى إرواء النفوس، وإشباع الجسوم، وقد ظلَّ حبَّ الخير عالِقاً بنفس الشيخ في كافَّة أدوار حياته، وهو ما يجب أن يكون موضع الاحتذاء.

وكانت الفترة الحرجة بعد الحرب العالمية الأولى قد دفعت المبهورين بالتقدُّم الحضاري لأوروبا أن يشنَّوا حرباً طاحنةً على الثقافة الإسلامية، ويرونها من أسباب التقهقر السياسي، فملؤوا الجرائد والمجلات أدعاءً وتخرُّصاً، ونهض في وجوهم من يدفعون هذا الزَّيف من علماء الأزهر وغيرهم، فكانت أقلام الأساتذة محمد شاكر، وعبد الباقي سرور نعيم، وعلي سرور الزنكلوني، ويوسف الدجوي، من كبار العلماء، ذات صدقٍ قويٍّ في نفس العالم الشاب، فرأى أن يكون للصحافة من قلمه نصيب مماثل، أخذ يُدلي بدلوه في مسائل الدين، وصِلته بالاجتماع والتقدُّم، ثم فتح الله على الأستاذ محمد مصطفى المراغي فكتب مذكرته التفصيلية في شؤون الأسرة، وضَمَّنَّها من الآراء الفقهية ما لم يقف عند حدِّ المذاهب الأربعة كما هو طريق العلماء، بل تعدَّى نظره هذا الأفق إلى شتى الآراء في المذاهب المختلفة لكبار الفقهاء في الإسلام.

وقد عكف الأستاذ شلتوت على دراسة ما قاله المراغي، فأثر في نفسه تأثيراً نقله نقلةً فسيحةً من سرداب ضيق إلى ميدان واسع، ومن حينها والرجل يكتب في الفقه الإسلامي بروح ممتدة، ونظر بعيد، فلم يتقيد بالفقه الحنفي الذي درسه في الأزهر، واتخذ مذهباً له في الدراسة، ولم يقتصر على المذاهب الثلاثة الأخرى، بل جعل كل رأي إسلامي موضع النظر، نظر في فقه زيد بن علي، وجعفر الصادق، وابن حزم، وعكف بصفة خاصة على آراء ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم.

وجال قطاف هذا الثمر في تكوينه الفقهي، فرأى فيه الناس عالماً فقيهاً من طراز متجدد، ودفعته شجاعته الواثبة إلى أن يكون - على شبابه الباكر - صاحب رأي في كل ما يقال، وبذلك لفت أنظار أساتذته إلى موهبته، فاختر لتدريس مادة الأصول في القسم العالي بالأزهر، دون أن يمر على تخرجه أكثر من عشرة أعوام! مع أن الدراسة في القسم العالي، (ودراسة الأصول بالذات) كانت وقفاً على من بلغوا النهايات من أعمارهم الدراسية، وكان شلتوت الشاب جديراً بما أُسند إليه، وكان من تلاميذه بالقسم العالي من انبهروا بعلمه الراسخ، وشجاعته الفكرية.

ومن سجل ذلك في إعجاب مثل: عبد الحليم محمود، ومحمود الشرقاوي! بل كان له مع الأخير موقف يدل على إفراط في السماحة، إذ كان الأستاذ الشرقاوي ممن يضيق بالأساتذة في غير تحفظ، وممن يواجههم بالنقد الصائب تارة والمُخطيء تارات، وقد ناقش الشيخ شلتوتاً دون أن يرعى الصغير مكانة الكبير، وانتهى الأمر إلى شيخ القسم العالي الأستاذ عبد المجيد اللبان، وكان صديقاً لوالد الشرقاوي، إذ هو زميله في الدراسة، فرأى أن يعفو شلتوت، وأن يُقبل الطالب يد أستاذه كالمعتاد في الأزهر، بين التلاميذ والشيوخ، ولكن الطالب فاجأ الشيخ اللبان بالامتناع، فقام شلتوت إلى رأسه مُقبلاً، وقال له: يعجبني اعتزازك برأيك، وصحبه إلى حلقة الدرس مُشجعاً عاطفاً.

ثم ترأس الأزهر شيخه المجدد محمد مصطفى المراغي، وبدأ عهده بدراسة النظم التعليمية في الأزهر، وبإعداد مذكرته الشهيرة عن إصلاح الأزهر، وما كاد

شلتوت يقرأها في الصحف حتى احتلت منافذ إحساسه، وسيطرت على شعاب تفكيره، وأخذ يكتب في السياسة والأهرام والمقطم داعياً إلى تنفيذها، وقد هزّه هزة العجب أن يقول الإمام المراغي:

«يجب أن يدرس الفقه الإسلامي دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب، وأن تُدرّس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنة، والمجمع عليها، والنظر في الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف، وأمزجة الأمم المختلفة كما يفعل السلف من الفقهاء، ويجب أن تُدرّس الأديان يُقابل ما فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود في الدين الإسلامي، لنُظهر للناس يُسرّه وقُدسه وامتنازه عن غيره من مواطن الاختلاف، ويجب أن يُدرّس تاريخ الأديان وفِرَقها، وأسباب التفرّق. وتاريخ الفِرَق الإسلامية على الخصوص وأسباب حدوثها»^(١).

كان شلتوت ممّن أُشرب حبّ التشريع الإسلامي فقهاً وأصولاً، وممّن عكف على دراسته وتدرّسه طالباً وأستاذاً، فلفت المراغي ذهنه إلى ضرورة التجديد الفقهي، كي تكون الشريعة الإسلامية قائمة بحاجات العصر، وعدّ نفسه منذ قرأ المذكّرة من جنود المراغي في موكب الإصلاح! وطبيعي أن يغضب كلّ الغضب لابتعاد المراغي عن الأزهر مُجبراً غير مختار، وأن يزداد غضبه حين يرى الشيخ التالي يقف من آراء الشيخ التجديدية موقف المُعارض، فلئن قامت الكليات على وفق ما جاء بمذكّرة المراغي، فإن النظرة إلى الفقه الإسلامي لم تزل في حيّزها الضيق، وهذا ما دعا شلتوتاً إلى الكتابة عن ضرورة الإلزام بما جاء في المذكّرة، وإلى أن يقود حملة صادقة من ذوي ميوله، كي يدفع بالأزهر في كليّة الشريعة إلى نحو آخر من التدريس، حتى ضاق به الأستاذ الأكبر محمد الأحمدى الظواهري فأصدر قراره بفصله، مع مَنْ اتّجهوا اتجاّاه من العلماء.

(١) مجلة الرسالة، العدد (٤١٢)، ٢٦/٥/١٩٤١ م.

وهكذا حوِّبَ الشاب المجدّد في مصدر رزقه فلم يحزن، واندفع إلى المُحاماة الشرعية الحرة لتكفل لأسرته لُقمة العيش، وكان الله عزّ وجلّ قد هبّا ذلك، ليدرس أحوال الأسرة دراسةً ميدانيةً، فيرى مسائل الزواج والطلاق والميراث والنفقة على طبيعتها الحيّة بين المتخاصمين، وليراجع ما كتبه الفقهاء مُراجعةً من يشد استقرار الأسرة الإسلامية في ضوء التشريع الصحيح، ثم انقضت أزمة الباحث المجتهد، وعاد إلى مكانه مُدرّساً بكلية الشريعة، فاختر أن يدرس مادة جديدة لم تكن مقرّرة من قبل، هي مادة الفقه المقارن، وقد حصر اتجاهه في المذاهب الأربعة وحدها، ليمنع هبوب الاعتراض، من جهات قوية لا تكاد تسمح بالمقارنة بين مذهب وآخر، من المذاهب الأربعة إلّا بحرّج وضيق، فكيف يكون صراخها لو وُجدت مذاهب أخرى تزحم مذاهب الشافعي ومالك وابن حنبل وأبي حنيفة!

لقد كان اتجاه شلتوت إلى الدراسة المقارنة نقطة تحوّل عملي أمام الطلاب والمُدرّسين، فعرفوا - تطبيقاً - أن آراء الأئمة يؤخذ منها ويرد، وأن طالب الأزهر المستنير قد ورث هؤلاء الأئمة جميعاً، ولم يتحرّج أفعه في زاوية خاصّة، بل في كتاب خاصّ، هو موضع هواه، وسرّ نجواه، وكان الأستاذ محمد علي السائس شريك الأستاذ في العناية بالفقه المقارن تأليفاً وتدرّساً، فأصدرا كتاباً قيماً لا أدري لماذا لا يُطبع الآن مرة جديدة، ولماذا لا يدرسه طلبة كلية الشريعة والقانون، وهو الأمثل في بابه طرافة استنتاج، وأصالة ترجيح، وعدالة ميزان، ولم يغفل الشيخ قضية فقهية من قضايا عصره دون أن يُصدّر رأيه فيها، فكان مصدر الفتوى في كثير من شؤون الفقه ومسائله، يُزاحم أساتذته الكبار مُزاحمةً ناهضةً مُشرّبةً إلى الاجتهاد، حتى زاملهم مُزاملة الكفاء للكفاء! وصار ينتظر رأيه الفقهي فيما يختلف فيه المتجادلون، فإذا تصدّر للحكم، فالرأي المؤيّد بالدليل، والإفتاء المستند إلى الترجيح والتصحيح.

وكان من حظّ الأزهر أن يبعث الأستاذ محمود شلتوت ليمثله في مؤتمر لاهاي العالمي سنة ١٩٣٧، وقد انعقد بهولندا لدراسة القانون الدولي المقارن،

حيث جمع أساطين الفقهاء والأصوليين في الشرق والغرب، ليوضحوا ما يحبذونه من الأفكار القانونية، فألقى الشيخ بحثاً ضافياً تحت عنوان (المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية) مُوضحاً معنى المسؤولية في الإسلام، وشارحاً نصوص الفقهاء في الضمان والتعويض، ومستشهداً بنصوص القرآن والسنة في تحديد المسؤولية، وقد امتدّ بها الإسلام بحيث تشمل مسؤولية الطبيب عن مريضه، ومسؤولية مَنْ يقصر عن إغاثة الملهوف، ومسؤولية الحيوان حين يُتلف زرعاً مملوكاً لسوى صاحبه، ومسؤولية المسلم أمام إتلاف مُحترزات غيره التي يحرّمها الإسلام كالخمر ولحم الخنزير، موضحاً المراد من قول الفقهاء: حقوق الله، وحقوق العباد.

ولم يغفل الحديث عن المسؤولية الناشئة عن مخالفة العقد، والاستيلاء القهري مما عُرِفَ في الفقه باسم الغصب، وتحقّق السببية بين الفعل والضرر، مُقسّماً التسبّب إلى إيجابي وسلبي، والتسبّب الإيجابي واضح معروف، أما التسبّب السلبي فقد فسّر الشيخ غامضه بأمثلة ونصوص ذات إقناع.

وامتدّ البحث إلى المسؤولية الجنائية، فتحدّث عن الحدود في الإسلام حديثاً جمع من نصوص الفقهاء ما كان غائباً عن الكثيرين حتى من ذوي التخصص أنفسهم، وختم البحث بقوله: (إن الشريعة الإسلامية لم تقيد الفقهاء بعد أصولها الكلية بخطة معينة في البحث، وإنما فوّضت لهم الرأي والاعتماد على ما يقدرّون من مصالح وحقوق وواجبات في العصور المختلفة والبلدان المتباينة)^(١).

وكانت نتيجة البحث سارة، إذ قرّر المؤتمر بإجماع أعضائه اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع الحديث، مع الاعتراف بصلاحياتها للتطوّر، كما قرّر المؤتمر أن تكون اللغة العربية - لغة الشريعة الإسلامية - إحدى لغات المؤتمر في دوراته المقبلة، وأن يدعى إليه أكبر عدد من علماء الإسلام على اختلاف المذاهب والأقاليم، وكان الأستاذ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر السابق

(١) الإسلام عقيدة وشريعة، ط ٢، ص ٤٤٩.

زميلاً للأستاذ شلتوت في المؤتمر، وقد ألقى بحثاً آخر في موضوع مختلف، فأحرز فضلاً مُمائلاً، رحمهما الله.

عاد المراغي إلى الأزهر، وانفسحت آمال المُشْرِئِينَ للإصلاح، حين راوه يُوسد إلى صاحبه، وكان الذين حُورِبُوا في وظائفهم من زملاء شلتوت أشدَّ الناس وثوقاً باطراد مجرى الإصلاح على يد الإمام المراغي، فظَلُّوا يرتقبون خطوات التنفيذ السريعة، وكان الإمام المراغي قد أدرك أن الإصلاح مُحتاج لبعض المُصانعة كيلا ينقلب عليه الأمر ببعض المكاييد، التي لا يغفل عنها المُغرضون من أعداء التوثب الأزهري، فرأى التَّوَدَّة والانتظار، ولكن ما ركن إليه من هذه التَّوَدَّة قد أغضب شيعته، فأخذوا ينادون بضرورة التجديد الفعلي في المقررات والمناهج والأساتذة، ويُعيدون نُشر المذكرة التي تقدَّم بها الإمام المراغي في مشيخته الأولى.

وكان أكثرهم جرأة في ذلك مَنْ عُرِفُوا بجماعة «الشيخ عبد المجيد سليم» وهم نفر من المتطلِّعين إلى نهضة الأزهر، يتقدَّمهم شلتوت، وينضمُّ إليهم الأساتذة: محمد البهي، ومحمد المدني، وعبد العزيز عيسى، وذوو الأقلام المبيَّنة التي اتخذت من مجلة الرسالة منبراً جريئاً لأرائها فدَعَت الكُتَّاب من الأزهر وخارجه إلى المناداة بضرورة الإصلاح، وكان الإمام المراغي - على عكس ما توهم بعض الناس - مغتبطاً بما ينادي به هؤلاء فهم غَرُسُ يده وثمره دَوَحَتِه، بدليل أنه عمل جاهداً على أن يكون الأستاذ محمود شلتوت عضواً بجماعة كبار العلماء، وكان أصغر المتقدمين سنّاً فاصطفاه وباركه ونشطت الجماعة بمقدَّم الشيخ، إذ أنه ابتداءً كفاحه بتقديم اقتراح جوهرى، يبعث في هذه الجماعة فيضاً من الحركة الواعية ويحدِّد لها طُرُقاً من العمل المُثمِر، وخلاصته ما يلي:

أن يكون لجماعة كبار العلماء مكتب علمي دائم، وأن يجعل لهذا المكتب مكان معين معروف، شأن كل هيئة رسمية من الهيئات التي تعمل لأغراض خاصَّة.

أما مهمة هذا المكتب بعد إنشائه فهي ما يأتي:

أ - معرفة ما تهاجم به الأديان عامة، والدين الإسلامي في عصرنا الحاضر، والردّ عليه ردّاً كافياً مُقنعاً بأسلوب مُلائم لطريقة البحث الحديث.

ب - بحث ما يحصل فيه الاختلاف بين علماء العصر من جهة أنه بدعة يجب تركها أو ليس كذلك، ووضع الأصول الكفيلة بتمييز ما هو بدعة مما ليس بدعة، والعمل على نشر ذلك ليرجع إليه الناس.

ج - العمل على وضع مؤلف يحتوي على بيان ما في الكتب المتداولة من الإسرائيليات التي دُسّت على التفسير، وأخذها الناس على أنها من معاني القرآن، والتي لا يدلّ على صحتها نقل، ولا يؤيدها عقل.

د - إصدار الفتاوي في الاستفتاءات التي تردّ من المسلمين في جميع الأقطار، إلى مشيخة الجامع الأزهر.

هـ - بحث المعاملات التي جَدّت وتجدّ في العصر الحاضر من جهة حكم الشريعة فيها، حتى يظهر للناس سعة صدر الشريعة وقدرتها على تلبية حاجات الناس في مختلف العصور.

و - تنظيم طرق الوعظ والإرشاد، والاتصال بالهيئات المُعدّة لذلك، كوزارة الشؤون الاجتماعية، والجمعيات الإسلامية في مختلف الأقطار.

ز - التنقيب عن الكتب المفيدة في مختلف العلوم، والعمل على إحيائها وإخراجها إخراجاً علمياً متقناً.

ح - الإشراف على مجلة الأزهر، والعمل على توجيهها في طريق تخدم به الحركة الفكرية الإسلامية. وتُبرز به ثقافة الكليات الثلاث.

كان اقتراح الأستاذ شلتوت ذا إزعاج لبعض الكبار، من أعضاء الجماعة فتحدّثوا بشأنه مع الأستاذ الأكبر المراغي متعجبين أن يكون أصغر الأعضاء سناً هو الذي يتولّى رسم الخطة لأساتذته، وكان في المراغي حلم وتؤدة فرد بالتّي هي

أحسن وأوصى أن تُؤلف لجنة برئاسة العالم الفقيه الحُجّة عبد المجيد سليم^(١) مفتي الديار المصرية حينئذٍ لدراسة الاقتراح ، ووضع الضروري منها موضع التنفيذ - وكلها ضروري مُلزم - ولكن اللجنة أُلّفت ممّن يعارضون الاقتراح في أكثريتهم لا في جميعهم ، فكانت عوامل الشبّط تكتنفها من كل مكان، حتى انتهى أمرها إلى الجمود الثقيل، وقد ظلّ الاقتراح عالقاً بنفس صاحبه يدعوله في كل مكان، إذ يعزّز عليه أن يكون للأزهر هيئة من أكبر علمائه، ثم لا تصنع شيئاً!! بل يعزّز عليه أن تكون الأكثرية من هؤلاء بعيدة عن التأثير العلمي في محيط الأزهر نفسه، بل المحيط العلمي العامّ في مصر، وفي العالم الإسلامي على امتداد ربوعه، وأن يكون في غير العلماء من رجال الأزهر من يعالج شؤون الثقافة الإسلامية على نحو لا يستطيعه كثير من هؤلاء الكبار!.

ولورجع الأستاذ شلتوت إلى أناة صابرة لأدرك مبلغ الحرج الذي أوقع فيه الإمام المراغي حين جعله يقارن بين العبء الثقيل، ومَنْ فرض عليهم حينئذٍ أن ينهضوا به فيجد القوى كليلة، والسّواعد هزيلة! ونحن - علم الله - نصوّر واقعاً، ولا نفتات على أحد، كما يسرّنا أن نقرّر أن الوضع في عهدنا الراهن قد تغيّر، وأن الكبار من العلماء قد تحمّلوا المسؤولية عن اقتدار.

مضى الشيخ شلتوت في دعوته الإصلاحية دون ترقّب، وقد اجتمع حوله خلاصة من نابهي الطلاب في الكليات الثلاث يشدّون أزره، وينشرون أفكاره، ثم فاجأ المسؤولين بمحاضرة صريحة ألقاها في كليّة الشريعة تحت عنوان: (السياسة العلمية التوجيهية للأزهر) أثنى فيها على المذكرة الإصلاحية التي أشرنا إليها من قبل، وألّم بخلاصة جيدة لما قرّره بها الإمام المراغي من ضروب الإصلاح، وانتهى إلى أن أمدأ طويلاً قد مرّ على الأستاذ الأكبر دون أن يأخذ بما يرى، فلم تزل كتب الأزهر هي الكتب المعقّدة التي تنحو في التآليف منحىً عسيراً لا يسهل على القارئ اجتيازه إلّا بشرح الألفاظ، وإرجاع الضمائر، وشغل الأفهام بصحيح

(١) لنا ترجمة وافية عن هذا الإمام الجليل في كتاب (علماء في وجه الطغيان).

العبارة، وكأنها هدف لذاتها دون ما تقصد إليه من معنى ضاع في ضباب الصياغة، ولم نزل نشغل أنفسنا بالفروض الفقهية المستحيلة كما اشتغل بها فقهاء العصر المملوكي، ولم نزل الإسرائيليات ذائعة تملأ من كتب التفسير التي تدرس بالأزهر فراغاً كبيراً، ولم يزل الطلاب يمتحنون في المقروء فحسب، دون أن يتموا المنهج، وهم لا يقطعون من الزمن الدراسي في العام الطويل غير أربعة أشهر إن لم تقل! وإن ذلك كله يدل على أن الإصلاح المُدَوَّن في مذكرة الأستاذ الأكبر قد تجمّد ولم ينطلق.

والحق أن صاحب المحاضرة قد واجه المسؤولين مواجهة خطيرة بعد أن أذاعها وطبعها وبعث بها إلى الجرائد والصحف، فنقلت خلاصتها، واضطر أنصار المراغي أن يهاجموها، وأن يقولوا إن خطوات الإصلاح تسير بنجاح، وانطلق أنصار الشيخ شلتوت يدفعون الرد، وكان من غير هؤلاء وأولئك من أراد أن يصطاد في الماء العكر، فظاهر بتأييد الشيخ شلتوت لا اقتناعاً بما قال، ولكن كيداً لشيخ الأزهر، ودبت القطيعة بين ذوي الإصلاح من شيخ يترأس ويملك الرأي ثم لا يُسرّع في التنفيذ، ومن ناثر كان بالأمس نصيراً ثم أضحي مُعارضاً، وانتقل الإمام المراغي إلى جوار ربّه، وأعقبه سواه وسواه، والعلة هي العلة.

على أن الشيخ شلتوت قد شغل نفسه بنوع آخر من الجهاد العلمي، وهو التقريب بين المذاهب الإسلامية، حيث حضر إلى مصر أحد الكبار من علماء الشيعة ليقرب بين مُفكرَي المذهبين الأساسيين في الإسلام، وليقضي على أسباب الخلاف بين أصحاب العقيدة الواحدة، فتألّفت جماعة للتقريب برياسة وزير مُصلح نابيه هو محمد علي علوية باشا، ويتأييد الإمام المراغي، والإمام عبد المجيد سليم، والإمام مصطفى عبد الرزاق، وكلهم من رؤساء التوجيه الإسلامي في الشرق، فدعت إلى نبذ الخلاف وتلافي الشقاق، وأكدت أن القرآن الكريم والسنة المطهرة هما أساس الدين، فبهما تقررت قواعده وإليهما يرجع المسلمون في كل شأن من شؤون الحياة.

وما زال الأئمة من سابقي الفقهاء يردون حوضهما في ذكاء ولفانة، وجودة استنباط، حتى ظهرت طبقة من المتعصبين كلّت همّتهم عن حمل ما نهض به السلف، فأوقفوا الاجتهاد، وضيّقوا دائرة الفقه الإسلامي إلى حيث لم تعد تتسع لمعضلات الحياة، كما اتجهوا إلى علم الكلام فجعلوه مصدر تنابد واضطغان، ولوّنوه بأفكار باعدت بينه وبين حقيقته القرآنية، وبه صار المسلمون شيعاً وأحزاباً، فتعدّدت الأمة الواحدة إلى فِرَق، وتعدّدت الفرقة إلى شعب، وكلهم متقاطعون متدابرون، ينظر بعضهم إلى بعض نظر أصحاب الأديان المختلفة، لا نظرة أصحاب الدين الواحد، حتى طفح الكيل، وتحتم أن ينهض المصلحون برأب الصدع وإزالة الخلاف.

كانت مهمة الجماعة شاقة، إذ وجدت المعارضين ممن يعزّ عليهم أن يشدّوا عمّا ألفوه، وأن يفسّحوا عقولهم إلى مدى يستحوذ كتباً لم تُقرأ، وأفكاراً لم تُعهد بالنسبة إلى من في مثل مستوياتهم المحدودة، ولكن ذوي العزم ثابروا على الدعوة إلى التقريب المذهبي، حتى أصبح هدفاً يُرتجى، وكان من نصيب الشيخ شلتوت أن يقوم بالدعوة إلى الجماعة مُحاضراً وكاتباً، وفي ظلال جماعة التقريب أصدر تفسيره القوي لكتاب الله، إذ ظهر منجماً على صفات مجلة «رسالة الإسلام» وهي لسان حال جماعة التقريب.

والحق أن من يتصدّر لتفسير كتاب الله إذا كان ذا أهلية مقتدرة، وذا مسؤولية يلتزم بها جانب القيادة العلمية، إذا كان كذلك، فعليه أن يتجنّب المكرور الذائع من القول، وكتب التفسير من الكثرة الكاثرة بحيث لم تدع مجالاً للإعادة والتكرار، فلا بدّ للمفسّر من منحى جديد يفتح آفاقاً مُضيئة، وهذا ما اتجه إليه الشيخ حين جعل تفسيره ذا منحى طريف، يُساير جماعة التقريب في طرح الخلافات المذهبية، التي حملت حملاً باطلاً على كتاب الله، بأن يكون التفسير تفسير المسلمين جميعاً، لا يتعصّب لمذهب فقهي، ولا يميل إلى لون خاص من ألوان السياسة أو العقيدة الكلامية، كما ينجم من سطوات العلوم اللسانية من نحو وبلاغة، والعقلية من فلسفة ومنطق، ليجيء سافر الصفحة، وضيء الدلالة.

ومن منهج هذا التفسير أن تكون السورة ذات وحدة واحدة، تتسع دائرتها لتضم جزئيات منفردة تنتمي إلى المحيط العام دون نشاز، وأن يتباعد عن إقحام المصطلحات والنظريات العلمية على النص، كيلا نحمل كلام الله ما لا يطيق، وأن يعقب على آراء السابقين بما يعن له من تصويب إذا وجب التصويب.

يقول الأستاذ الدكتور محمد البهي في مقدمة تفسير الشيخ شلتوت^(١):
«والقارىء لهذا التفسير، في طريقه إلى القرآن الكريم، وفي مروره بصناعة المفسرين المتعددة الطوايع والخصائص، لا يمر بهذه الصنعة مروراً عابراً، وإنما في أثناء سيره يقف على ما كان لهذه الصنعة من أثر في تفكيك وحدة المسلمين، وفي تعقيد فهم كتاب الله، وفي حجب المسلمين عن تلك الروح الصافية، لهداية القرآن الكريم.

وهذا التفسير هو أجدر أن يسمى: «تفسير مشاكل التفسير» أو يسمى نهضة في تفسير القرآن، ورجوعاً به إلى طبيعته لرد المسلمين إليه، لا إلى أقوال قد يحجب الكثير منها ما له من مدلول أو قيمة، هو أجدر أن يسمى تعقياً على تفسير المفسرين، ليرفض الصنعة، ويرد الأمر إلى مصدره فيؤخذ منه في وضوح، وبذلك يرفع العقبات ويزيل الحواجز».

ومع التسليم بما قاله الدكتور البهي، من أن هذا التفسير جدير بأن يسمى تعقياً على التفسير، فإن موضع الانتقاد على هذا التفسير، أنه لم يشمل كل ما تعرض له من آيات السور القرآنية، إذ جعل يختار من نصوص السورة ما يتصل بطابعها العام، بمعنى أنه ترك آيات كثيرة دون تفسير، ومعنى ذلك أنه لا يُغني عن سواه فيما تعرض إليه من السور، فأنت مثلاً إذا قرأت تفسير المنار وهو معني بما عني به تفسير الشيخ شلتوت من مراعاة الوحدة ومن التعقيب على ما لا يرتضي من أقوال السابقين، فإنك تجده يشمل السورة جميعها، ألفاظاً وتركيباً وغرضاً، بحيث يجوز أن يُغني عن سواه، أما تفسير الشيخ شلتوت فاكتفاء بالبعض عن البعض،

(١) مقدمة تفسير القرآن الكريم، للدكتور محمد البهي، ص ٦، ط ١.

ورسم لإطار عام لا يشمل جزئيات كثيرة تندرج فيه وتأوي إليه، وهو جهد كبير لا محالة، ولكنه في مضمونه الصريح تعقيب وتوجيه.

ولا ننكر أن الشيخ شلتوت قد اختصّ مشكلات العصر بمزيد من التحليل، وأوغل في إيضاح بعض ما اختلطت مراميه لدى سابقيه، فاهتدى إلى يُسرٍ حميد، ولكن المفهوم من تفسير كتاب الله لا ينحصر في ذلك وحده، بل على مَنْ يتصدّى لتفسير كتاب الله في مؤلف يحمل عنوان (تفسير القرآن الكريم) أن يقف عند كل آية ليأخذ القارئ نصيبه الأوفى من الكتاب المبين.

ومن حظّ القراء أن آثار الشيخ قد جمعت في مجلّدات أربعة، فلم تَمُضِ بها الصُحف والمجلّات في أنهارها المتراصة، كما مضت بمقالات المراغي وأحاديثه وفتاويه، ولكن هذه الآثار قد تعدّدت طبعتها إذ أشبعت حاجات القراء، فظهر كتاب له: (الإسلام عقيدة وشرعية) في نحو ستمائة صفحة ليتحدّث عن أصول الإسلام، في العقيدة والتشريع، فيتكلم عن ذات الله وصفاته، وعن القضاء والقدر وعالم الغيب، والجبر والاختيار، ثم عن طريق ثبوت العقيدة في كتاب الله، وعن السُنّة ومكانتها في الإسلام عقيدةً وتشريعاً، وعن الإجماع وثبوت العقيدة، وكلها فصول تمسّ الحاجة إلى الإلمام بها في منطق معاصر لم تضيقه المتون، ولم تشته الشروح.

وقد جاء الفقيه الكبير بالجديد حقاً فيما أفاض فيه من حديث الأسرة زواجاً وطلاقاً ونسلاً وميراثاً، ومن حديث المال والحدود والقصاص، والمسؤولية الجنائية والمدنية، ومن حديث أسس الدولة في الإسلام، ومكانة الشورى وأولي الأمر، والتكافل الاجتماعي، والعلاقات الدولية، وأنا أدعو كل مسلم غير متخصص في هذه المسائل أن يقرأها في كتاب (الإسلام عقيدة وشرعية) حيث هيأ الله لها فقيهاً متمكناً، نافذ البصر يجلوها أتمّ جلاء.

وللشيخ كتاب آخر تحت عنوان (من توجيهات الإسلام) في حجم أخيه السابق، وهو مُكَمَّل له من ناحية، إذ اشتمل على بعض ما لم يأت به، وهو مُفَصَّل

ما أجمل من ناحية ثانية، إذ عالج بعض ما عالج من بحوث سابقة رأى أن تُكتَب على نحوٍ آخر من البَسْط والتذليل، لتصل إلى كل قارئ! وأنا أنصح بقراءة كتاب (التوجيهات) قبل قراءة كتاب (العقيدة والتشريع) ليتدرَّج القارئ بأفكاره درجة فدرجة، وليت الحريصين على الخير يعملون على إعادة طبع (مقارنة المذاهب) فيكتمل بين يدي القارئ فكر الشيخ، على أتم ما كان.

أما مجموعة الفتاوى فالحاجة إليها ضرورية، إذ شملت مشكلات المسلم المعاصر في حياته اليومية والعامة، وقد أحسن الدكتور محمد البهي التنويه بها على نحوٍ صادق الدلالة كاشف المرمى فيما كتبه في مقدمتها، التي نختار منها قوله^(١): وإذا كانت الضرورة تدعو إلى تنوير المسلمين في حياتهم اليومية عن طريق الفتاوى، فإن فتاوى الأستاذ الأكبر تميَّز بطابع خاص، هو الإحساس القوي بالحياة اليومية وبأحداثها، والعمق في فهم الإسلام وتطبيق مبادئه.

فالأستاذ الأكبر قد عاش في فتاواه بين المسلمين، وفي صلات المسلمين بغيرهم، ومَرَّت عليه التطورات العديدة والقوية في حياة الإنسان، وهو مُقدَّر لهذه التطورات التي دفع إليها تقدُّم العام، وكانت ثمرتها الحضارة الصناعية والمادية التي يتمتع بها الإنسان حيناً وتسد حاجته اليومية حيناً آخر، وقد يشقى بها حياته أحياناً، فهو لم يكن في عزلة عن الحياة الإنسانية المعاصرة، يوم حلَّ المُشكِـل، ووضَّح عناصره، وآثاره على الفرد والمجتمع ثم استوحى القرآن والحديث الصحيح بما أفتى به.

وقد أحدثت آراء الشيخ في فتاويه تارةً وفي مقالاته تارةً أخرى جدلاً كبيراً بين المفكرين من الفقهاء والعلماء، لأن النزعة التجديدية لدى الرجل الكبير، لا بدَّ أن تصطدم بنزعة محافظة لدى قوم يحملون من الغيرة على الحقيقة مثل ما يحمل، ولا بدَّ أن يوجد في محيط التشريع مَنْ يحافظ ومَنْ يجدد، لكل منهما نصيبه المشكور فيما يُدلي به من رأي، والذين لا يقدرّون الرأي المُخالف متى صدر عن

(١) مقدمة الفتاوى ص (ت)، ط ١.

إخلاص حميد وبحث أمين، يحبّون أنفسهم أكثر مما يحبّون الحق، وما هكذا يجب أن يكون الوضع بين علماء الإسلام!

وسنمثّل ببعض النماذج التي دار حولها الخلاف بين الشيخ ومعارضيه، لنعرف كم كافح شلتوت وجالد ولنرى أن قوماً سلكوا في معارضته مسلك الحق فكانوا شرفاء، وأن قوماً ركبوا جناح الغرض فكانوا دخلاء.

النموذج الأول: جاء سؤال للشيخ عن المصارف المالية، والقرض منها بريح، وعن حكم الشرع في الأسهم والسندات فأجاب الشيخ بما خلاصته، أن الله قد حرّم الربا، بأن يكون لرجل على آخر دين فيطالبه به، فيقول له أخره وأزيدك على مالك، وهذا الصنيع لا يجري عادةً إلا بين مُعَدَم غير واجد، ومُوسِر يستغلّ حاجات الناس غير مُكْتَرِث بشيء من معاني الرحمة المشروعة، وهذا حرام قطعاً.

وقد توسّع الفقهاء كثيراً فيما يتناول الربا، ورأى كثيرٌ منهم أن الحرمة فيما يحرّمون، تتناول المتعاقدين معاً المُقْتَرِض والمُقَرِض، وإني أرى - كلام الشيخ - أن ضرورة المُقْتَرِض وحاجته مما يرفع عنه إثم التعامل، لأنه مضطر أو في حكم المضطر، وقد صرّح بذلك بعض الفقهاء فقالوا: يجوز للمُحتاج الاستقراض بالريح، وإذا كان للأفراد ضرورة أو حاجة تُبيح لهم هذه المعاملة فإن للأمة ضرورة أو حاجة كثيراً ما تدعو إلى الاقتراض بالريح، والإسلام الذي يبنّي أحكامه على قاعدة (اليسر ودفع الضرر) يعطي للأمة في شخص أفرادها وهيئاتها هذا الحق، ويُبيح لها أن تقترض بالريح تحقيقاً لتلك المصالح، ولا يكون ذلك إلا بالقدر المحتاج إليه، ولدفع الضرورة والحاجة ولا يكون قرض إلا من جهة لا تضمر استغلالنا.

أما الفرق بين الأسهم والسندات، فهو أن الأسهم من الشركات التي أباحها الإسلام باسم المضاربة، وهي التي تتبع الأسهم فيها ربح الشركة وخسارتها. أما السندات وهي القرض بفائدة معينة لا تتبع الربح والخسارة، فالإسلام لا يُبيحها إلا حيث دُعِت إليها الضرورة الواضحة التي تفوق أضرار السندات.

هذا ما قاله الشيخ مخلصاً، وليس لي مقدرة الحكم الفاصل بينه وبين معارِضيه من كبار الفقهاء، ولكني أقول: إن الشيخ مسبوق في فتواه بما قاله الشيخ: محمد عبده، والشيخ رشيد رضا، والشيخ عبد الوهاب خلاف في مجلة (لواء الإسلام) وأنصّ في مجلة لواء الإسلام بالذات، لأن رئيس تحريرها الأستاذ الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله قد حمل على الفتوى حملاً ثقيلاً، وله الحق أن يعارض ما لم يقتنع به، وأن يعقد ندوة خاصة لتخطئة شلتوت، فأبو زهرة علّم شامخ في مجال التشريع، ولكني آخذ عليه تعريضه رحمه الله بالنيات، إذ كان من اللائق ألا ينشر ما كتبه تحت عنوان (المفتي يفتي بالحق لا بما يشتهي) بعد أن نشر فصولاً فندت رأي الشيخ! في عددي: رجب وشعبان من سنة ١٣٨٠ هـ، فمن يقدر على الزعم بأن شلتوتاً يفتي بما لا يرى أنه الحق! لنفرض جدلاً مع الشيخ أبي زهرة رضي الله عنه أن شلتوتاً قد أخطأ، ولكن كيف نفرض أنه تعمّد الخطأ لشهوة في نفسه!!

أما النموذج الثاني ففتوى الشيخ بشأن نزول عيسى آخر الزمن، إذ أحال عليه الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي سؤالاً خاصاً بنزول عيسى كي يُجيب عليه بما يراه، فأجاب بما خلاصته^(١):

١ - أنه ليس في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رُفِعَ بجسمه إلى السماء، وأنه حيّ إلى الآن فيها، وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض.

٢ - أن كل ما تفيده الآيات الواردة في هذا الشأن هو وعد الله عيسى بأنه مُتَوَفِّيه أجله، ورافعه إليه وعاصمه من الذين كفروا، وأن هذا الوعد قد تحقّق فلم يقتله أعداؤه، ولم يصلبوه ولكن وفّاه الله أجله ورفعته إليه.

٣ - من أنكر أن عيسى قد رُفِعَ بجسمه إلى السماء، وأنه فيها حيّ إلى الآن، وأنه سينزل منها آخر الزمان، فإنه لا يكون بذلك منكراً لما ثبت بالدليل

(١) الفتاوى، ص ٥٨، ط ١.

القطعي، فلا يخرج عن إسلامه وإيمانه، ولا ينبغي أن يحكم عليه بالردة، بل هو مسلم مؤمن ولا شبهة في إيمانه عند الله.

لم تكد هذه الفتوى تُذاع حتى كانت مثار لفظ قوي في مجلات كثيرة، وقد تورط شيخ الإسلام التركي في عهد الخلافة العثمانية في إسفاف ما كان منتظراً من مثله، حين هاجم شخص شلتوت لا رأيه، وأخذ يزعم أن الفتوى كتبت بروح قاديانية، وأن المسلمين في الهند سيحزنون لمن ينصر القاديانية عليهم، والمثل العامي يقول: «أنا وابن عمي على الغريب»^(١) وهذا منطلق يعزف عن روح الحق، ومن الصواب أن تقتصر على التعليق عليه فلا نطيل.

وأما النموذج الثالث فهو ما أثاره مقال الشيخ شلتوت عن «الهجرة وشخصيات الرسول»^(٢)، حيث ذهب إلى أن لرسول الله ﷺ شخصيات متعددة، شخصية الرسول، وشخصية الإمام العام، وشخصية المفتي، وشخصية القاضي، فهو بالشخصية الأولى مبلغ عن الله، لا يخرج فيما أوجي إليه عن حدود ما أمر به، أو نهى عنه. والمسلمون مُكلّفون به كما تلقوه عنه، وهو بالشخصية الثانية رئيس المسلمين، وزعيم قوميتهم يعمل على تركيز أمته، وطبعها بطابع مميز، وهو بشخصية المفتي إما أن يُجيب بلسان الوحي فليس له اجتهاد في ذلك إلا في تطبيق النص على جزئيات الحوادث، وإما فقيه يجتهد، ويقدر، ويلاحظ أحوال السائلين فيُجيبهم بما يراه كما يفعل سائر المجتهدين، وهو بشخصية القاضي حَكَم بين المتخاصمين، يسمع دعاواهم ويتعرف الحق، ويقدر ظروف القضية وأحوال المتقاضين، وأحكامه في هذه الدائرة، لا عموم لها في الأشخاص، كما يقول العلماء الأصول فليس لها صفة التشريع العام.

وكان لا بدّ أن يكثر التعليق على ما حدّده الشيخ، وإن كان مسبوقاً به. ومن الذين كتبوا المقالات المتتابعة في نقد هذا المقال: أستاذنا العلامة محمد الخضر

(١) مجلة الرسالة ٥/٤، ١٠/٥/٤٣ من ردّ الشيخ شلتوت على مُعارضيه.

(٢) مجلة الرسالة ٤٤٩، ٩/٢/٤٢، العدد الهجري الممتاز.

حسين، حيث جرى على طريقته الخاصّة في الوقوف لدى كل لفظ من الألفاظ، ومناقشة كل ما يحتمله من المعاني، وهو منحى يوضح وجه الخلاف بين شلتوت والخضر، إذ يعتمد الأول على روح النص العام، ويقف الثاني عند مدلوله الحرفي، ولم يضق شلتوت بما قاله الخضر، حيث صدر عن روح مخلص، ولم يفهم ذلك من تملقوا الشيخ شلتوت، إذ حاولوا الوقعة بين الرجلين، حين تقدّم الشيخ الخضر حسين إلى هيئة كبار العلماء بكتابه (القياس في اللغة والنحو) وكان الشيخ شلتوت المناقش الأول في الجماعة، فحسبه الصغار متعصباً، وظنوا أنه سيرفض كتاب معارضه، ولكن الشيخ قال لهم قولته الذائعة: من أسقط محمد الخضر حسين فقد أسقط نفسه!! ولا يفي مقال برأسه حق هذه العبارة من الإعجاب.

ومضت الأيام فأصبح شلتوت شيخ الأزهر، وعمل على إنشاء مجمع البحوث الإسلامية، ليعطي الصورة القوية التي أرادها لهيئة كبار العلماء، وأضاف إليها اتّساع المجمع، كي يشمل غير الأزهرين من أعلام الدين في العالم الإسلامي جميعه، كما عمل على تعليم الفتاة في الأزهر فأنشأ معاهد الفتيات، وكلية البنات الإسلامية، أو قل إن ذلك قد تمّ بتوجيهه ومسعاه، ثم دبّ خلاف بينه وبين السيد وزير الأزهر لعهدده في تطبيق القانون الجديد للأزهر لا نرى أن نتعرّض لأسبابه، إذ مكانه غير هذا النطاق.

وقد تمتّع شلتوت بالإمامة الحقيقية للمسلمين أثناء قيامه على أمر الأزهر، إذ رحل إلى مختلف البلاد الإسلامية زائراً وداعياً إلى الائتلاف. فلمس من أحوال المسلمين ما دعاه إلى العمل على تقرير اللغات الأجنبية بالأزهر، ليعث من طلابه من يصلحون لمخاطبة المسلمين في كل مكان، ومن البلاد التي زارها: أندونيسيا، والملايو، والفلبين، وهونج كونج.

وكان ممثّلو الجيش والحكومة ورجال السلك السياسي يشاركون الشعب المسلم في استقباله، وهو ما تكرر من بعد، عند زيارات الإمام عبد الحليم

محمود، فعلى مصر أن تعمل جاهدة على تقوية أواصرها بالمسلمين في كل مكان، لأن الجميع أبناء أمة واحدة، يأمرّون بالمعروف، وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

ثم أراد الله عزّ وجلّ أن يختاره إلى جواره ليلة الإسراء والمعراج من شهر رجب ١٣٨٣ هـ فأحدث منعه أثراً أليماً في النفوس، وفاضت الصُّحف في مراثيه وتقديره، وظلّ حديثه ساطع الأرج على أسلات من تحدّثوا عنه، وفي كتبه العلمية التي تعدّدت طبعتها من بعده، لتحمل مشعل التوجيه، وتوقد جذوة الإيمان، وترسي دعائم اليقين، رضي الله عنه وأرضاه .

الدكتور محمد أحمد الغمراوي بين البحث العلمي والنقد الأدبي

- ١ -

رأيت مرة واحدة، في مختتم حياته، حين كان في إدارة مجلة الأزهر، يقدم بحثاً كتبه عن (الجبال في القرآن)، وكنت مشوقاً جداً الشوق أن أتحدث إليه فأفيض، ولكنني أجللت شيخوخته أن تكون موضع ثروة لاغية، وآثرت أن أنظر إلى عينه الهادئة المطمئنة من وراء منظاره، تصور بهدوئها المطمئن قلباً مؤمناً أثلجه برد اليقين، فسكن في صدره مستريحاً من هبات الزعازع، وأوهام الظنون، بعد كفاح بطولي تناءت شفته واتسع مداه.

ثم خرج الزائر، وخاطري يجول بي في عالمه الفسيح، متذكراً ميادين نضاله، وقفزات جواده.

ومرت الأيام فقرأت نعيه، فاستشعرت مع لوعتي المكظومة أسفاً كاوياً بين سريرتي، إذ مضى دون أن أسعد بالحديث إليه، مع موأاة الفرصة، ولكنني عزيت نفسي أنني لست وحدي الذي أتهيب مقامه الجليل، فزملاؤه الكبار من أساتذة الجيل في كلية الطب، وكلية الصيدلة، ولجنة التأليف والترجمة والنشر، وجمعية الشبان المسلمين، كانوا جميعاً يتهيبون جلاله العلمي، وإيمانه اليقيني، وقد عبّر عن هؤلاء جميعاً الدكتور أحمد أمين حين تحدث عن زملائه في لجنة التأليف والترجمة، وقال عن الدكتور الغمراوي:

«وهذا عالم آخر طبيعي كيماوي، أيضاً جعل علمه ونفسه وكل ما يملك من ملكات وثقافات لخدمة دينه، وأثر في كثير من الطلبة في مدرسته العالية فدينهم، وملاً المسجد به وبهم، قد حفظ القرآن وأطال قراءته، وبذل جهداً في فهمه، فهو يفهمه كما يقول المفسرون، ويزيد عليهم ما يفهمه من نظريات الطبيعيين والكيميائيين، وما يقتبسه من أقوال المتدينين من العلماء الأوروبيين، يحلوه الكلام في الدين وهداية الضالين، ويعزّ عليه أن يسمع إلحاداً، أو كلمة يشم منها إلحاداً، بل لا يسمح أن ينقد أمراً من أمور الدين، ولو كان في التفاصيل، وهو في كل ذلك مخلص، لا يقول كلمة بلسانه ينكرها قلبه، قوي الحجة، طويل النفس في المناظرة، مؤثر إذا قال، جزل الأسلوب إذا كتب، يدرس الكيمياء والطبيعة، فتكون ديناً، ويشرح النظرية الكيماوية فتكون من سنن الله الكونية، يتحرّج صحبه أن يذكروا أمامه شيئاً يمسّ شعوره الديني، وعاطفته المسلمة، وبهابونه في طربوشه أكثر مما يهابونني في عمامتي»^(١).

وكلمات الأستاذ أحمد أمين ذات إيجاز مركّز ولو وفّقني الله إلى تفصيلها في هذا المجال لقلت عن الرجل الكبير بعض ما يستحقّ، إذ من حقه على الشبيبة المؤمنة والنشء المتأهّب أن يلمّوا ببعض مواقفه ليكون يقينه الراسخ مناراً يهدي إلى السبيل القويم.

وُلد الغمراوي قبل أن ينتهي القرن التاسع عشر بسبعة أعوام في إحدى مدن محافظة الغربية، ونشأ في أسرة دينية، إذ كان الرابع بين إخوة خمسة حفظوا القرآن جميعاً في الطفولة وهيئوا للالتحاق بالأزهر الشريف، وقد كان صاحبنا استثناء بينهم حيث قدّر له أن يلتحق بالمدرسة الابتدائية بطنطا ثم الخديوية بالقاهرة، وكان هواه أن يُزامل أشقاءه في الأزهر. وإذا سار في غير طريقهم فقد أخذ على نفسه أن يتزوّد بالثقافتين المختلفتين، فكان يبدأ بعلوم المدرسة، ثم يأخذ كتب إخوته ليقرأها معهم، وليسأل عمّا يستعصي عليه من معضلات الفقه والتوحيد والنحو والبلاغة!

(١) حياتي ص ١٥٥، ط ١، للدكتور أحمد أمين.

وذلك توفيق من الله أن هداه إلى الكتب الإسلامية مع ما يقرأ في كتب المدارس في وقت واحد.

وكان يحسّ بدافع بحثه إلى التفوّق في علوم الأزهر، وعنده الأصل من كتاب الله يحفظه عن ظهر قلب، ومن حديث البخاري يتناول حفظه وشرحه مع أخيه محمود، الذي قدّر له أن يكون شيخاً لمعهد الزقازيق الثانوي فيما بعد. وكتائباً مُصاوياً تعرفه صُحف المقطّم والأهرام والأخبار (الرافعية) في العشرينات والثلاثينات.

وقد اشتهر محمد أحمد الغمراوي بين الطلاب بغيرته الشديدة على أصول الدين وتعاليم الشريعة، وهي غيرة تجد تطبيقها في سلوكه الشخصي بين عارفه، إذ كان أميناً لا يخون، صادقاً لا يكذب، وافيّاً لا يغدر، وله صولة في الحق تجبره ألاّ يسكت على خطأ. كان المدرّسون يشرحون تاريخ أوروبا بإفاضة ويُجملون تاريخ الإسلام كله في باب واحد، فدعا نفرّاً من زملائه في الخديوية الثانوية إلى قراءة التاريخ الإسلامي، ومنهم أستاذنا الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني، فألفوا جماعة لقراءة أعلام الإسلام وجعلوا يتدارسون كتاب (حُمة الإسلام) الذي ألفه المرحوم مصطفى نجيب، فكان مسلماً إلى ما فوقه من كتب التراث، وكانت النصوص الأدبية في عهد دنلوب مقصورة على نماذج مُشتهرة من الشعر العباسي والجاهلي والأموي، فجعل الطالب الطامع يُحضّر معه ملازم صفراء من كتب الأزهر تضمّ أحاديث الرسول، لتكون مع كتاب الله في مقدمة النصوص المحفوظة.

وكان يحافظ على الوضوء الطاهر، لُتّاح له الصلاة في فسحة الظهيرة، حيث لم تكن للمدارس أماكن للصلاة كعهدنا الآن، ولم يكن تعمّقه في تحصيل الثقافة الدينية بمانة من التفوّق في علوم المدرسة، بل ربما كان اتصال الجسور مُساعداً على التبريز والتفوّق لديه، حتى إذا أتمّ دراسته الثانوية، التحق مع زميله الكرداني بالقسم العلمي بمدرسة المعلمين العليا، وتخرجاً معاً حين اشتعلت الحرب

العالمية الأولى لأول أعوامها، وكان من حق سبقهما الظافر أن يبعثا فوراً إلى إنجلترا كمن سبقهما من مُتقدّمي الطلاب، ولكنها الحرب!

وفي سنة ١٩١٤ حيث اندلعت شرارة هذا الحريق العالمي، اجتمع نفر من مُتخرّجي المعلمين العليا ومدرسة الحقوق لِيُنشئوا ما أسموه لجنة التأليف والترجمة والنشر، وليكِلوا رئاستها إلى الشيخ أحمد أمين، وكان من هؤلاء الأستاذ محمد أحمد الغمراوي، وقد ذكره أحمد أمين^(١) أول ما ذكر من أسماء: أحمد زكي، والكرداني، والعبادي، وخلاف، وأبي حديد، وصبري أبو علم، ويوسف الجندي، ممّن صمّموا على إقامة نهضة علمية مباركة، كانت ذات أثر بعيد في رقيّ الثقافة العربية الأصيلة، لأن هذا نفر من الشباب كان يجمع بين الحمية الإسلامية والغيرة القومية، والتطلّع الحضاري، على حين كان فريق من تلاميذ (الجريدة) يتجهون في كتاباتهم وجهة غربية مندفعة لا تعرف الانتاد، ونفر آخر لا يبعد محيطه الثقافي عن مدى ثقافة العصر المملوكي، وفي هؤلاء وأولئك إفراط وتفريط.

فجاء شباب لجنة التأليف والترجمة ليعثوا نهضة علمية ذات وسامة وأتزان، وكان الأستاذ الغمراوي أذكاهم لهيباً، حين يتعرّض الحديث لتأخّر الشرق، ونهوض الغرب، وقد أمّده انتكاس المدنية الغربية باشتعال الحرب العالمية بما أخذ يردّده طول حياته من إيضاح الفرق بين التقدّم المادّي الخادع، والتقدّم الخلقي الأصيل، لأن أوروبا حين نهضت نهضتها الحضارية عن طريق البحث العلمي، لم تنهض نهضة خلقية مماثلة عن طريق الدين الصحيح، فأخذت تأكل نفسها، وتهدم مدنيّتها، وعلى الذين يشيدون بتقدّمها العلمي، أن يعرفوا أن العلم لا يتسبب إلى وطن، وأنه يدور دورته في الأمم والشعوب متقلّلاً من الشرق إلى الغرب، ولن يرتفع بناؤه على أساس ثابت إلّا إذا ارتكز على أخلاق طاهرة، يدعمها تشريع سماوي لا يأتيه الباطل!

(١) مجلة الرسالة، العدد (٧٠)، ١٩٣٤/١١/٥.

هذا ما اعتقده الغمراوي، ودعا إليه طيلة حياته مع نفر من ذوي مشربه الإصلاح، وقد ذهب إلى إنجلترا بعد عامين (سنة ١٩١٦) ليتخصص في الكيمياء والطبيعة مع صديقه أحمد عبد السلام الكرداني، الذي يقول عنه في مقدمة كتابه عن (الإسلام في عصر العلم):

«وكان طول مدة دراسته بإنجلترا - كما كان في مصر - مُجِدّاً متفوقاً، وكان لشخصيته وأخلاقه أكبر الأثر في إخوانه المصريين الذين زاملوه في الدراسة بالخارج، وكنت معه حريصين على الذهاب إلى (وكنج) إحدى ضواحي لندن، حيث تُقام صلاة العيد في مسجدّها، وفي لندن تقابلنا مع مولاي (محمد علي الهندي) أول من ترجم القرآن، ومع الإنجليزي المسلم «المستر مارما ديوك بكتول» الذي ترجم معاني القرآن، وحضر إلى القاهرة قبل طبع الترجمة ليراجعها مع صديقه الأستاذ الغمراوي»^(١).

رجع الغمراوي من بعثته ظافراً متقدماً، وقد اجتهد في تحصيل كل ما يتعلق بتخصصه العلمي الدقيق، متفعلاً بما تهيأ له في إنجلترا من رحلات علمية إلى أماكن مختلفة، ومن ذهاب مع أساتذته وزملائه إلى (المناجم) في باطن الأرض لرؤية ما يدور بها، ومن تتبّع للمراصد - والمجاهر في صوامع العلم والعلماء.

وقد تحدّث الأستاذ عن بعض ذلك فيما نشره من مقالات حديثاً يدلّ على أنه لم يُضِعْ لحظة من بعثته دون عمل جادّ، في تواضع مؤمن ينأى به عن الغرور، وقد اشتغل بعد عودته فترة محدودة في التدريس بالتعليم الثانوي، ثم انتقل إلى معامل وزارة الصحة، وكانت إذ ذاك مصلحة تابعة لوزارة الداخلية إلى أن اختير أستاذاً للكيمياء في كليتي الطبّ والصيدلة، وهنا كان المثل الحيّ للأستاذ المسلم الداعية بخلقه الرفيع، وسلوكه المثالي، إلى أجمل نمط من أنماط الرجولة الباسلة، ذات الفروسية النبيلة في ردّ الضيم، وقمع الغلو، ومعارضته من يحسبون أنفسهم على شيء وهم أدعياء، وبهذه الفروسية النبيلة خاض معارك علمية توجّهت بنصر مُبين.

(١) الإسلام في عصر العلم: مقدمة الكرداني، ص (ن).

وإذا كانت لجنة التأليف قد أرضت طموح الغمراوي ثقافياً، فإن طموحه الإسلامي جعل يتطّلع إلى ميدان فسيح يجد فيه مجاله العلمي، لأن الشبيبة المسلمة أوشكت أن تضيق في مهبّ التيارات الوافدة، وقد اتسعت الصُّحف المُغرِضة لنشر ما يناوئ الإسلام، بل أخذت تهاجم تعاليمه الدينية، حين دعت إلى صور من التحلّل ووجوه من الإلحاد، وأخذت تبذر عوامل التشكيك في كل راسخ وطيّد، فإذا أُضيف إلى ذلك تنازع الأحزاب سياسياً، واضطراب الشباب بين النوادي المتناحرة، والاجتماعات المتعارضة، فإن ذلك الواقع الجهم يدعو الغمراوي ومَن يسير في طريقه إلى تفكير جدّي يرجع بالشباب إلى حظيرة الإسلام، ويرتفع بمثله وآماله وأحلامه إلى مستوى القرآن.

وهنا بدأ التفكير في إنشاء جمعية الشبّان المسلمين بقيادة الدّادة من أمثال: عبد الحميد سعيد، وعبد العزيز جاويز، وأحمد تيمور، ومحمد الخضر حسين، وعبد الوهّاب النجار، وأحمد إبراهيم، ومحبّ الدين الخطيب، ويحيى الدرديري، فرأت من تجاوب المشاعر، والتضاف القلوب ما ثبت الأقدام، وبسط الآمال.

ولسنا نريد أن نبسط نشأة هذه الجمعية، ولكننا نلمع إلى الدور الإيجابي الذي قام به الغمراوي حين أخذ على نفسه أن يُحاضر الشبيبة المسلمة أسبوعياً في مسائل الدين والعلم، فجعل يعرض شُبّهات الملاحدة عرضاً موضوعياً، ليُجيب عن كل شُبّهة بما يهدي إلى الحق، وقد اعترف الكاتب الإسلامي الغيور الأستاذ عبد المنعم خلاف أنه تلميذ الندوات العلمية التي أدارها الغمراوي في منتدى جمعية الشبّان المسلمين، ومن حظّ التاريخ الإسلامي الثقافي لهذه الجمعية أن الأستاذ محبّ الدين الخطيب سجّل بعض هذه الندوات في مجلة الفتح، كما نقل بعضها الآخر في الجزء الثاني من كتاب (المنتقى من محاضرات جمعية الشبّان المسلمين).

وعن هذا الجزء نشير إلى خلاصة ندوة عقدها الغمراوي في رجب ١٣٤٨ هـ فتحدّث عن صلة الدين بالعلم، وعن اهتمام الإسلام بدراسة الكون، ذاكراً أن

هذه الدراسة مما يجب أن ينهض بها جماعة لا فرد، وأشاد بعلاقة العقل المكيّنة بكل مبحث إسلامي، ثم فتح باب الأسئلة العلمية يتقدّم بها كبار المستمعين، ويُجيب عنها الغمراوي في ثقة واتزان، وقد كان الأستاذ عبد الوهّاب النجار - وهو سنّاً في منزلة الأستاذ من الغمراوي - يتقدّم بالأسئلة العلمية ليُجيب عنها الرجل في دائرة اختصاصه.

سأل النجار عن أيام الخلق الكوني التي جاءت في سورة فصلت ﴿ قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ﴾ [فصلت / ٩] إلى قوله تعالى: ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ الآية ١٢ فأجاب المسؤول بما حدّد المراد من اليوم.

وسأل النجار عن معنى قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾ [الزمر / ٦].

وسأل أحد الفضلاء عن معنى قول الله: ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ [الأنعام / ٣٨] وهل يلزم أن يحيط القرآن بكل شيء؟.

كما سأل بعضهم عن معنى قوله تعالى: ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس / ٨٢].

والإجابة على هذه الأسئلة مبسّطة بالجزء الثاني من (المتقى)^(١)، فلا سبيل إلى إيجازها، وهي تدلّ على حصافة العالم ودقّته وصبره وسعة صدره، وسيطرته البالغة على جمهوره بالمنطق الصائب، والنظر السديد.

وأعظم من ذلك لدى دلالتها الباهرة على سموّ الخلق النفسي لدى أمثال العلماء، حين طلبوا العلم من مصدره دون اعتبار لعرّافة السائل وحادثة المسؤول.

(١) يُراجع ما بين ص ٣٢، ص ٥١ من الجزء الثاني، (المتقى)، المطبعة السلفية، سنة ١٣٥٠ هـ ليجد القارئ الإجابة المطمئنة على كل سؤال.

فإذا كان الأستاذ الغمراوي قد دلَّ على عظمة علمية حين وُفِّق إلى الإجابات السديدة، فإن الأستاذ عبد الوهَّاب النجار قد دلَّ على عظمة خلقية حين رضي أن يسأل سؤال المستفيد من بعض أبنائه، وهذا المشهد العلمي وحده يُغني عن كل مثال يبحث عنه في وجوب الحرص على الحقيقة، ووجوب طلبها من مصدرها الحقيقي، وشدة التواضع في تحصيلها، ولا تزال هذه المواقف الحية مصدر عطاء خلقي لمن يتدبرها بيقظة وإمعان.

أمواف الأحرار إن مصيبة ألا يهيج عهدك التذكار

- ٢ -

كان تمكن الأستاذ الغمراوي من مادته العلمية مدعاة أسئلة كثيرة، دارت حول ما يُعرف بالتفسير العلمي للقرآن الكريم، إذ إن الآيات العلمية في كتاب الله قد فُسرَت على غير وجهها لدى أئمة من السابقين، لم تُنحَ لهم ثقافتهم الكونية أن يجيشوا بالرأي العلمي في بعض ما تناولوه، وقد جاءت الكشوف العلمية الحديثة داخضة بعض هذه الآراء، فظن السُدج من القراء والمغرضون من ذوي النزعات المنكرة أن القرآن هو الذي أخطأ، ونسبوا أخطاء المفسرين إلى كتاب الله نفسه، وهو ما نهض الأستاذ الغمراوي لتصحيحه، مُحاضراً ومُدَرساً ومؤلفاً، فجعل يعرض الآيات العلمية في كتاب الله عرضاً جديداً، وقد بلغت في إحصائه الدقيق خمس آيات الكتاب العزيز، مُحاولاً أن يرى الناس رأي القرآن المؤيد للعقل، السائر في طريق العلم اليقيني الصحيح.

ولم يكن الغمراوي ممن يخطفون المسائل العلمية خطفاً، كما نرى لدى فريق من مؤلفي اليوم، يُكثِّرون الحديث عن الإعجاز العلمي للقرآن دون غوص واقتدار، فيأخذون آية من الآيات أخذ المتعجل الذي يلم بالسطح البارز دون أن يهتدي إلى الغور العميق، ويُطالعون قُرَّاءهم بما لا يُغني من الحق شيئاً وإن كتبوا كثيراً وطنظوا طويلاً! وكتاب الله أعزَّ على المؤمنين من أن يقتحم أسواره متعجل لا يرعى دقة العالم وصبر الباحث الدؤوب.

ولا ننكر أن الأستاذ الغمراوي قد سبق بنفر من الفضلاء نهجوا نهجه، ولكننا ننصّ على أنه أكثر هؤلاء صبراً، وأدقّهم تخصصاً فوقّ إلى خير كثير.

ومظنة الخطأ في التفسير العلمي هي الاعتساف في التأويل، والتعمّل في الربط، وقد التفت الأستاذ الغمراوي إلى خطر هذين حين قال^(١):

«ويجب أن ننّبّه إلى أمرين هامّين: الأول أنه لا ينبغي في فهم الآيات الكونية من القرآن الكريم أن نعدل عن الحقيقة إلى المجاز، إلّا إذا قامت القرائن الواضحة تمنع من حقيقة اللفظ وتحمل على مجازه، لأن مخالفة هذه القاعدة الأساسية الأصلية البسيطة، قد أدّى إلى كثير من الخطأ في التفسير، وسرى أن من أعجب عجائب القرآن: أن المطابقة بين آياته وآيات الفطرة، تكون أتم وأيسر، كلما أخذنا بتلك القاعدة في فهم كونيّات القرآن.

هذا أمر، أما الأمر الثاني فهو ينبغي ألاّ نفسّر كونيّات القرآن، إلّا باليقيني الثابت من العلم، لا بالفروض ولا بالنظريات التي لا تزال موضع فحص وتمحيص، لأن الحقائق هي سبيل التفسير الحق، هي كلمات الله الكونية، ينبغي أن يفسّر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية، أما الحدسيات والظنيّات فهي عرضة للتصحيح والتعديل، إن لم يكن للإبطال في أيّ وقت فسيبيلها أن تعرض على القرآن بالقاعدة السابقة ليتبيّن منها مبلغ قُربها منه أو بعدها عنه، وعلى مقدار ما يكون بينها وبينه من اقتراب، يكون مقدار حظّها من الصواب».

هذان الأمران عدم الالتجاء من الحقيقة إلى المجاز إلّا إذا قامت القرينة الدالة على المجاز، وعدم التفسير بالدليل الظنيّ، هما الدعامتان الواقيتان من التعسف، وبدون مراعاتهما زلت أعلام كثيرة فيما تورّطت فيه من التأويل.

وقد أشار الإمام المراغي في مقدمة كتاب (الإسلام والطب الحديث)^(٢) إلى وجوب الحذر من ليّ النصوص وتأويلها على غير وجهها لتناسب ما يروونه من

(١) الإسلام في عصر العلم، ص ٣٢٣.

(٢) الإسلام والطب الحديث، للدكتور عبد العزيز إسماعيل، وللإمام المراغي به مقدمة هادية.

حقائق العلم المعاصر، وهو في ذلك يجري مع الأستاذ الغمراوي في ميدان واحد ميدان المنطق النزيه .

ولا يتسع المجال هنا لعرض نماذج كثيرة مما اهتدى إليه الغمراوي في تفسيره العلمي، ولكننا نكتفي بإيجاز أمثلة يسيرة مما صحح به أقوال القدماء المفسرين، ليرى القارئ كيف كان التقدم العلمي المعاصر عوناً على تأييد حقائق القرآن، وكيف يُرى الله آياته للناس في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أن القرآن حق .

وليُعذرني القارئ في الإجمال، فحسبي أن أشير إلى المصدر ليرجع إليه وهو كتاب (الإسلام في عصر العلم).

وكان الرجل دقيقاً حين فصل بين ما جاء في القرآن من الشرعيات والكونيات، إذ أن الشرعيات من حيث الاعتقاد والأحكام لا بد أن يتضح الحق فيها قبل وفاة الرسول، وإلا فقد فاتت فرصة التوضيح والتصحيح، أما الكونيات فتصحيح خطأ معتقد الناس فيها مما يظهره الزمن أنا بعد أن، لأن آيات الله الكونية من الجلال والعظم بحيث لا يحول تصوّرها الكامل دون الاهتداء بها إلى الله، والزمن في سيره المتواصل يسير نحو هذا التصوّر شيئاً فشيئاً، لذلك جاءت كشوف العلم كاشفة لبعض حقائق الكتاب المبين .

أ - فمما كشف عنه العلم، تصحيح ما قاله المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمَ السَّمَاءَ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ [النّازعات / ٢٧ - ٢٩] إذ رجعوا بالضمير في قوله تعالى : ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ إلى الأرض، لأن السماء في رأيهم لا ظلام بها، ولو أخذوا النص القرآني على حقيقته لقالوا إن للسماء ليلاً غير ليل الأرض وإن لم يعرفوه .

وهذا وحده سبق إلى حقيقة لم يعرفها العلم بالمشاهدة إلا قريباً، حين جاءت سُفُنُ الفضاء وصعد الإنسان إلى القمر، فوجد الأرض كوكباً مُضيئاً يُرى بعيداً في سماء حالكة السواد، لأن الضوء في ذاته لا يُرى، وإنما يظهر أثره منعكساً

عن المراثيات ولا انعكاس في أعلى السماء، فلا ضوء إذن، وإذا كان الضمير يعود في العربية إلى أقرب مذكور فإن الحق مع الغمراوي، وقد جعل يفرّق بين لفظ (أغطش) ولفظ (أظلم) فرقاً دقيقاً حين قال: (وظلمة ليل السماء) يكفي في الدلالة عليها كلمة الليل، أما شدة تلك الظلمة، فقد دلّ عليها الفعل (أغطش) فلو كان يغني عنه الفعل (أظلم) الذي فسّره به المفسّرون لنزل القرآن به لأنه أنس وأوضح.

ب- قال الله عزّ وجلّ في سورة [نوح / ١٥ - ١٦] ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً. وجعل القمر فيهنّ نوراً. وجعل الشمس سراجاً﴾ قال المفسّرون: إن السموات داخل بعضها في بعض، لذلك كان القمر فيهنّ جميعاً، ووجود القمر في إحداها يصدق على وجوده في مجموعها كالذرة تكون في علبة داخل علبة داخل أخرى فيصدق عليها أنها في العلّب الثلاث.

وإنما قال المفسّرون ذلك لاعتقادهم أن القمر واحد لا يتعدّد وقد فاتهم أن الحقائق العلمية في القرن السابع عشر ستستقر بعد أن اخترع (جاليلو) منظاره المقرّب، على أن في السموات أقماراً كثيرة، فالقمر في الآية تدلّ الألف واللام فيه على الجنس لا على العهد، ولذلك كان لكل سماء أقمار لا قمر واحد فلا داعي إذن للقول بأن السموات يدخل بعضها في بعض، ووجود القمر في إحداها يصدق على وجوده في مجموعها كالذرة في العلّب الثلاث.

ج- يقول الله تعالى في سورة [الرحمن / ١٩ - ٢٢]: ﴿مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ قال المفسّرون: إن قول الله ﴿منهما﴾ يعود إلى أحدهما فقط فيصدق على المجموع، إذ لا يوجد اللؤلؤ إلا في البحر فقط، ولا يوجد في النهر.

ويعقب الغمراوي على ذلك بأن اللؤلؤ يوجد في النهر عند ملتقى البحرين في بعض الأقطار، فيكون ذلك إخباراً عن حقيقة اللؤلؤ النهري الذي تذكره دائرة

معارف (هتشنش) المصوّرة وإذ ذاك فالضمير في قوله تعالى : ﴿ منهما ﴾ يعود إلى البحرين كليهما لا على مجرى واحد .

وهناك أمثلة كثيرة من هذا الوادي فطن إليها الغمراوي فأراح البلغاء واللغويين والنحويين من عبء كثير، حين أخذوا يتكلفون في إرجاع الضمائر، وتحوير الاشتقاق! وأقول البلغاء قاصداً مَنْ يُعرفون بالبلاغيين حيث تورط بعضهم في القول بالمبالغة في مثل قول الله : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيأً إداً . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ [مريم / ٨٨ - ٩٢] .

قال الغمراوي : «إن المبالغة لا تكون إلا في كلام محدودي القدرة ممن يعجزون عن الفعل، أما الحق سبحانه وتعالى الذي لا يُعجزه شيء فلا يمكن أن تكون هناك مبالغة فيما يخاطب به عباده، إلا أن ترد على لسان مَنْ يتحدث عنهم القرآن من الإنس أو الجن أو الملائكة، فالآيات ليست من المبالغة، وإنما تقرر حقيقة من الحق، هي أن نسبة الولد إلى الله من الشناعة بحيث تُغضبه الغضب الذي لولا حلم الله وحكمته لعجل الله من أجله بالقيامة، إذ أن هذه الأحداث التي ذكرتها الآية لن تقع إلا في القيامة، ونسبة تلك الأحداث إلى السماء والجبال والأرض من الإعجاز البلاغي، إذ ليس يخطر على بال مخلوق أن يحكي عن السماء أنها تنفطر، وعن الأرض أنها تهوي منهدة»^(١) .

ولهذا النظر الثاقب حرص الأستاذ الأكبر محمد الأحمد الطواهري على اختيار الدكتور الغمراوي أستاذاً بقسم الدعوة في كلية أصول الدين، فقرأ على الطلاب دروساً في الإعجاز العلمي للقرآن، نشر بعضها في كتابه الذائع (في سنن الله الكونية) وقد مهّد له بمقدمة تدلّ على مكانة العلم في القرآن، وأتباعه سنّة الفطرة الهادية إلى الاسترشاد بالعقل، وكان لظهور هذا الكتاب النادر صدىً رناناً في الدوائر العلمية، حتى قال الأستاذ فريد وجدي : إنه من أنفس ما قيل في

(١) الإسلام في عصر العلم، ص ٢٨١ .

موضوعه، ونقل صفحات كثيرة منه بمجلة الأزهر التي يُشرف على تحريرها! والغريب أن بعض الأدعياء قد تناقلوا بعد عشرين عاماً من صدوره حقائقه الرائعة ونسبوا إلى أنفسهم دون حياء، والرجل حيّ يُرْزَق يقرأ ويتسم، ولم تأذن له مثاليته أن يقول للغاصب الناهب: لماذا لم تذكر مصدرك الأوحد!

- ٣ -

كان عراك الغمراوي في مضمار الحقائق الكونية وصلتها بالقرآن هو الجهاد الأصغر، أما الجهاد الأكبر فعراكه الجاهد مع محاربة الانحلال الديني الوافد مع التيارات الغربية، وهو انحلال ذو مظهر اجتماعي من ناحية، وذو مظهر ثقافي من ناحية ثانية، فمظهره الاجتماعي يتجلى في كثرة ما ينتشر في المسارح ودور الخيالة من روايات هابطة تدعو إلى الجريمة، وتشجع الفساد في الأسرة، حين يكون البطل نجماً كبيراً لأنه تحلل من قيود العفة، ففسق عن أمر ربّه، وحين سهّل باب المعصية لكل من يرى المسرح ودور الخيالة من الشباب إذ يجد الحيلة المحكمة، والتبرير اليسير، كما يتجلى هذا المظهر فيما يُنشر في الصُحف من خلاعات مُسيفة، ومن تهجم على حقائق الإسلام، بدعوى التقدم الحضاري ومحاربة الجمود.

وقد أسف الغمراوي حين قارن بين عهد صباه وعهد كهولته، فوجد العهد الأول ذا حفاظ على نصرته الفضيلة في مضمار الصحافة، كان الطعن في الإسلام يُوجّه من كاتب فرنسي كهانوتو، فتقوم قائمة الصحافة المصرية، وتظل المؤيد واللواء وغيرهما ميداناً تركّض في ساحته الأفلام نقداً وتجريحاً للباطل، أما عهد الكهولة فقد أصبح الطعن الظالم يجد أسباب التشجيع لدى من رأوا تقدّمهم الفكري في أطراح الدين، ومُجاراة الغرب في اعتزال ما ينتمي إلى الروحية الصافية، بل يجد بواعث التساهل في نفوس مؤمنة ما كان لها أن تساهل، ولكنها تتعلّل بضعف القدرة على المقاومة تارة، وبأن الإسلام منبع لا تنال منه هذه الهبات المتتالية، وبأن باب التأويل واسع، إذا كان النص صريحاً من كتاب الله، وبأن

الحديث النبوي موضوع إذا خالف موضع الأهواء الهابطة، وبأن الإجماع ليس طريق التشريع، وأنه لم يتم في تاريخ الإسلام على وجهه الصحيح.

وكل ذلك قد بحثه الغمراوي وأطال في تشريحه وتحليله إطالة شافية، يجد القارئ نماذج حية منها في بعض ما نشره بالأعداد الممتازة من مجلتي الرسالة والثقافة بمناسبة العام الهجري والمولد النبوي.

فإذا تركنا المظهر الاجتماعي إلى المظهر الثقافي فلسنا نحصي ما نهض به الكاتب الداعية من معارك نقدية حامية، قامت بينه وبين نفر من كبار الكتاب رزقوا قوة الأداء وامتداد الصيت، وقد آثروا أن يمتد هذا الصيت إلى أبعد حدوده بما يجهون به الرأي العام، من آراء تدعو إلى الغيظ والألم، وإذا تعدّر أن نحصي هذه المعارك الأدبية فإننا نشير إلى ثلاث منها، ولعلّ أشدها ضجيجاً معركته مع الدكتور طه حسين حول قضية الشعر الجاهلي، وهي قضية كاد يلتبس فيها وجه الحقيقة بما انتشر من غبار حالّ دون الرؤية الصحيحة.

فالحق الذي لا مرأى فيه أن الدكتور طه حسين قد تعمّد إثارة الجمهور حين نصّ على أن القرآن لا يكفي لإثبات وجود إبراهيم عليه السلام، وهو نصّ مُقحّم على البحث الأدبي إقحاماً، إذ كان من الممكن أن يخلو منه كتابه الخاص بالشعر الجاهلي، ولو خلا كتابه من هذا النص ما أحدث ضجيجاً ما، فقضية الانتحال ذائعة قد سطرها ابن سلام في القديم، وأكدها الرافعي في الجزء الأول من كتابه عن الأدب العربي قبل أن ينشر الدكتور كتابه بخمسة عشر عاماً على الأقل، وبالعراق الرافعي في تأكيدها بما لا حدّ وراءه، وهو من هو في تحفظه ويقينه، وجاء مرجليوث فخلط الحق بالباطل، وامتدّ بها إلى حيث السرف الشديد، وقفاه طه حسين فجعلها قضية الموسم! وكل ذلك ما كان ليحدث ضجيجاً لولا ما تضمنه من المروق الديني!

وقد سبقت كتاب الغمراوي في نقض كتاب الدكتور طه كتب ممتازة، سطرها الرافعي، ومحمد الخضري، ومحمد الخضر حسين، ومحمد فريد.

وجدي، ومحمد لطفي جمعة، وتأخر كتاب الغمراوي ليأتي بكثير مما تركه هؤلاء الفضلاء دون أن يغمطهم فضلهم الجدير.

ونحن نعرف أن لكل ناقد مذاقه الخاص، ولن يغني ناقد عن ناقد إذا اختلفت الثقافات وتنوعت الاتجاهات، لذلك حفل ردّ الأستاذ الغمراوي بفوائد علمية نادرة، لن تكون إلا من مثله ونستشهد لذلك - مثلاً - بما ذكره عن مذهب ديكرت في الشك، فقد زعم الدكتور أنه يجب على الباحث أن يشك في كل شيء، وأن يتجرّد من كل شيء، كما دعا إلى ذلك الفيلسوف الفرنسي، وقد ردّ عليه الخضر حسين، وفريد وجدي، ولطفي جمعة في هذا المنحى بما راق وأعجب، ولكن الأستاذ الغمراوي قد أربى عليهم جميعاً، حين ذكر أن عظمة ديكرت ليست راجعة إلى أنه شكّ - كما يريد الدكتور طه أن يقول - ولكن لأنه تطلّب مخرجاً من الشك، واهتدى إلى طريقة في البحث خرج منها إلى بحبوحة اليقين، وقد أثمرت هذه الطريقة في العلوم الرياضية، ولكنها لم تُثمر في العلوم الفلسفية إلا قليلاً.

على أن ديكرت كان يشك وهو غلام ناشئ قريب العهد بكلية الجزويت، وحين تجاوز العشرين كان قد استقرّ على مذهب يقيني، فدعا إلى الشك المبدئي لا ليجعله هدفاً وغاية، بل ليكون وسيلةً إلى يقين جازم! وإذا كان الدكتور قد دعا إلى أن يشك كل باحث في كل ما تقدّمه من البحوث، فليس هذا سبيل العلماء، إذ لو ابتدأ كل باحث بالشك فيما قاله السابق ما تقدّم العلم خطوة، وإنما السبيل أن يعتمد الباحث إلى ما تقدّمه، فإذا كان صحيح الوجه تركه إلى سواه، وانتقل إلى مناطق الشبه ليجلوها، أما أن يكون الشك لذات الشك مع وضوح الدليل في جانب اليقين فذلك هو الشطط الكبير.

وقد أطال الدكتور طه في الحديث عن الشعوبية، ورمى أبا عبيدة بالاختلاق لأحداث التاريخ المسلم بها، وخاض في هذا المنحى بما عفى عليه ناقدهو بالمنطق الحاسم، وقد جاء الغمراوي في هذا الصدد بما دلّ على تناقض المنقود

تناقضاً مكشوفاً يعصف بنتائجه، فقال ما فحواه: إن صاحب البحث يزعم أن علماء الموالي كانوا يزدرون العرب، ويحرصون على تسجيل مثالبهم، ثم يزعم عقب ذلك أن العرب كانوا يرجعون إليهم في كل ما يروونه من لغة وأدب، واستشهد بأبي عبيدة، وهنا يتساءل الغمراوي: أفلم يكن هؤلاء الذين يرجعون إليه يزدرونه كما يزدريهم لو صح ذلك - أو لم يخشوا منه أن يدسّ عليهم ما يهوي بمنزلتهم، وهم يعرفون مبلغ ازدرائه إياهم! ثم ما قول صاحب الكتاب في أن أبا عبيدة الذي يقول عنه إنه كان يُسرف في بغض العرب وازدرائهم هو نفسه الذي روى أكثر أيام العرب انتصاراً ومجداً، ومنها يوم خزار الذي انتصف فيه العرب من اليمن، ويوم ذي قار الذي انتصف فيه العرب من الفرس، أفيكون متعصباً للفرس على العرب ويسجل ذلك بإفاضة وإسهاب؟.

والحق أن الغمراوي كان صادقاً حين سمى كتابه بالنقد التحليلي، لأنه جعل يقف أمام كل رأي ليحلّله، وليفتّنه تفتيتاً يدعه كالهباء الطائر، لأن روحه العلمية حتمت عليه أن يسלט مجهره على كل زاوية ليرصد دقائقها الخافية، ومن هنا كانت الجدة في كتابه الذي تأخر عن كتب سابقيه، وهو لا محالة قد انتفع بآراء هؤلاء الفضلاء، ولكن اتجاذه العلمي التحليلي قد فتح عليه بالكثير مما تركوه. ونستشهد - ثالثاً - لذلك بما قاله في الردّ على ما ذكره الدكتور طه من تلفيق حماد الراوية، وخلف الأحمر، ونسبتهما الشعر لمن لم يقله، حيث أوقع الدكتور في مأزق حرج، حين سأله عما ادّعه من قدرة «حماد وخلف» على التلفيق فقال^(١):

ولسنا ندري إن كان يريد أن الله قد اختصّ الملقّين وحدهم بهذا العلم الفذّ، والقدرة المتفوّقة، أم أن الله قد أشرك معهم في ذلك غيرهم، من أهل الثقة والبصر، فيكون اشتراكهم مع أولئك في العلم والقدرة واقياً من الانخداع بهم، والوقوع في شرك تلفيقهم، على أننا نحبّ أن نعرف من أين جاء هؤلاء الملقّين ذلك العلم وتلك المقدرة وهم ولدوا وماتوا متأخرين، ولم تولد معهم تلك

(١) النقد التحليلي، للغمراوي، ص ٢٦٤.

المقدرة، ولا ذلك العلم بالشعر، أفليس إقرار صاحب الكتاب لهم بهذا العلم الواسع يلزمه من ناحية أخرى أن يقرّ بأنه قد كان هناك قبل أن يولدوا علم باللغة والشعر، فلما نشأوا أخذوه وتفوّقوا فيه، ثم أليس إثبات مثل ذلك العلم لحَمَاد وخلف دليلاً على أن غيرهما كان يعلمه، وكان يقدر على النقد كما كانا يقدران على الوضع، بفرض أن الوضع ليس في ذاته أصعب ولا أشقّ من النقد.

ويطول القول إذا تَبَعْنَا أمثال هذه البوادة الساطعة فلنجزىء.

أما المعركة الثانية، فقد كان الدكتور زكي مبارك طرفها الثاني، إذ شاء الأستاذ الغمراوي أن ينقض بعض آرائه المتسرّعة في كتاب (النثر الفني) الذي نال به درجة الدكتوراه من جامعة السوربون بباريس، وقد تأخّر نقد الغمراوي عن زمان صدور الكتاب بنحو أحد عشر عاماً، ولعلّ مرّة ذلك إلى أن الناقد كان مشغولاً بتأليف كتابه (في سُنن الله الكونية) وبترجمة كتاب (مرشد المتعلّم) حتى إذا فرغ من ذلك، تابع الدكتور مبارك في مأخذ طارئة تتعلّق بمقاله عن النواحي الإنسانية في حياة الرسول، واستتبع الجدل جدلاً دفع بالغمراوي إلى الرجوع للنثر الفني كي يكشف عن أخطائه.

وكان ردّ الغمراوي من القسوة بحيث أثار ثائرة الدكتور زكي مبارك فخاصم الأستاذ الزيات، وكفّ عن النشر بمجلة الرسالة بعد أن كان فارسها الأول لعدّة أعوام، وعلى صفحاتها جابه طه حسين، وأحمد أمين، وعبد العزيز البشري، والسباعي البيومي وتوفيق الحكيم بأعنف ما يقال، حتى دعاه الزيات بالمُلاكم الأدبي الذي لا حيلة في دفعه.

وكنا نطمح من زكي مبارك أن يكون ذا روح رياضية حين يتناول كاساً مرة قدّم نظائرها لسواه، ولكنه هاج وسبّ وغضب، فلم يحلّ ذلك دون أن يستمر الغمراوي في نقض الكتاب.

ومن يعرف غيرة الغمراوي يؤكد أنه سيكون قاسياً على صاحبه، إذ أن مؤلّف النثر الفني قد تورّط في شطط كان الأولى به أن ينأى عنه، وذلك حين ادّعى أن من

تعرّضوا للقرآن من السابقين كان همّهم أن يُظهرُوا محاسنه ووجوه إعجازه، مع أن النقد في رأي زكي مبارك هو أن يقف الباحث الأدبي موقف الممتحن للمحاسن والعيوب.

وقد حسم الغمراوي القضية حسماً بارعاً حين ذكر أن معجزة الله في خلق الكائنات هي معجزته في إعجاز القرآن فكما ينظر العالم الطبيعي إلى آيات الكون بروح الباحث المستشفّ لأسرار القدرة، فكذلك ينظر الأديب الناقد إلى كلام الله بروح المستشفّ لمناحي الإعجاز لأن القدرة هنا هي القدرة هناك، وكما لا يستطيع عالم الطبيعة أن يقول إن هناك خرقاً في خلق السموات والأرض، فلن يقدر ناقد الأدب أن يقول إن هناك ثلماً في صياغة القرآن، يقول الأستاذ الغمراوي رحمه الله^(١):

«إن القرآن الكريم كلام الله، كما أن النبات والحيوان والكواكب من كلماته، وإن اختلف الخطاب، بكلّ خاطب الله عباده، وعن كل أعجز خلقه أن يأتيوا بمثله، ليكون عجزهم دليلاً لهم، وحبّة عليهم، أفيدرس الناس آيات الله في الحيوان والنبات والكواكب لا يتوقعون عيباً، ولا يرون إلّا كمالاً يتفاهم ويزداد، فلا يجد زكي مبارك في ذلك ما يلزمهم به، ولا يعد علمهم لذلك غير صحيح، حتى إذا درسوا آيات الله في الكتاب العزيز، فلم يتوقعوا نقصاً، ولم يروا عيباً، ولم يجدوا إلّا كمالاً وإعجازاً لمزهم وهمزهم وقال: لم يذكروا إلّا المحاسن، كأن هناك بجنب المحاسن عيوباً كان عليهم أن يذكروها، وإلّا كانوا غير نقّاد».

وقد أخطأ زكي مبارك حين زعم أن الباقلاني في مجال الموازنة بين الشعر والقرآن كان يأتي بالقصائد الضعيفة ليرتفع النص القرآني بإزائها، وهذا غير الحق لأن الباقلاني قد اختار المشتهر الرائع من عيون قصائد امرئ القيس، وأبي تمام، والبحتري، وهم من أمراء الشعراء دون نزاع، وقد أبان الغمراوي ذلك في إيجاز كان في وسعه أن يُطيله بالاستشهاد لأن القضية أوضح من ضوء النهار.

(١) الرسالة، العدد ٥٦٣، ١٧/٤/١٩٤٤ م.

والنثر الجاهلي قد حكم الدكتور مبارك بوجوده، ولكنه طعن في كل ما رَوَتْ الكتب منه، مثل خطبة قس بن ساعدة، ليقول إن القرآن شاهد على وجود النثر الجاهلي قال الدكتور مبارك :

ولا ينبغي الاندهاش من عدّ القرآن أثراً جاهلياً، فإنه من صور العصر الجاهلي، إذ جاء بلغته وتصوّراته وتقاليده، وهو بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفرّده بصفات أدبية لم تكن في ظنّهم معروفة عند العرب - يعطينا صورة للنثر الجاهلي، وإن لم يكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصورة النثرية عند غير النبي من الكتّاب والخطباء.

فيقول الأستاذ الغمراوي تعقيماً على ذلك^(١): «فهل رأيت أو سمعت بحمق كهذا الحمق الذي يريد أن ينفي عن العرب تهمة أخذ النثر الفني من الفرس أو اليونان، فلا يرى سبيلاً إلى هذا إلا أن يسلبهم القرآن كتاباً من عند الله ليردّه أثراً جاهلياً يثبت لهم به ذاتية أدبية، أفترى هذا الرجل يرى القرآن من عند الله أم من عند العرب، وإذا كان من عند الله فكيف يمكن أن يثبت به للعرب ذاتية أدبية كالتّي أراد، وليس للعرب منه حرف، وإن كان أثراً جاهلياً يثبت قدم النثر الفني، أي نثر الرسائل والكتب، فكيف يمكن أن يكون من عند الله؟».

وفي رأيي أن المسألة في هذه النقطة بالذات أقلّ مما تصوّر الأستاذ الغمراوي، لأن زكي مبارك يريد أن يقول: إن القرآن قد أعجب العرب وتذوّقوه وفهموه، فهم بذلك أهل بيان وفكر! ولكنه تسرّع حين زعم أن القرآن يمثّل النثر الجاهلي!! لقد كان عليه أن يقول إنه يدلّ على أن الذين نزل فيهم يُحسِنون القول ويتذوّقون أنماطه الرفيعة، فجاءهم القرآن بنمط يُحسِنون تذوّقه، ولا يقدرّون على صوغه! ولعلّ ذلك ما أراد المبارك ولكن طريقتة الأسلوبية تُجبره على القفز الواثب دون تحديد، والتماس المعاذير أولى.

(١) الرسالة، العدد ٥٦٥، ١٩٤٤/٥/١ م.

وليس من سبيلنا أن نتبّع مواضع الأخذ والردّ فيما نتعرّض له، ولكننا نُشير فقط إلى أنموذج أو أنموذجين لندفع بالقارئ إلى الاستيعاب إذا أراد، وقد حدّدنا له المصادر بأرقامها وتواريخها، لأننا نكتب فصلاً ولا نؤلّف كتاباً.

ونترك زكي مبارك إلى عبد الرحمن شكري، حيث قامت بينه وبين الأستاذ الغمراوي معركة أدبية نبيلة، امتدّت قرابة عام كامل على صفحات الرسالة ما بين سنتي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ م، وأقول معركة نبيلة لأن الأستاذ عبد الرحمن شكري كان يكتب مقالاته المتوالية بإمضاء (قارئ)، ولكن الزيّات كان يعنونها بعنوان بارز إذ يقول في رأس كل مقالة إنها لأحد أساطين الأدب الحديث.

وكان شكري عَفّ المنطق طاهر اللسان، مستقيم الرأي، فصادف من صاحبه ارتياحاً لمنزعه الأخلاقي في المعارضة وبادله تقديرًا بتقدير، ومدار النقاش في هذه المعركة كان متّجهاً إلى ما عُرف حينئذٍ بقضية القديم والجديد، إذ كتب الأستاذ الغمراوي عدّة مقالات يتنصر فيها للرافعي في مواجهة الأستاذ سيّد قطب، فأعلن أن المسألة مسألة دين وأخلاق قبل أن تكون مسألة أدب وشعر، وأن المجتدين يريدون هدم الدين، أما أنصار القديم فمن مذهبهم الحفاظ عليه، وهو كلام لم يُرضِ الأستاذ عبد الرحمن شكري باعتباره في طليعة المجتدين، وإن دار النقاش حول العقاد، وطه حسين، لا حول شعره، فرأى أن يتستّر تحت توقيع (قارئ) ليدفع عن الجديد الذي يتزعّم أمره مع العقاد.

وقال فيما قال - وصدق حقاً - ليس كل قديم داعياً للفضيلة، فعندنا آثار امرئ القيس، وعمر بن أبي ربيعة وأبي نواس، وما جاء في الأغاني بأجزائه العشرين، وكلها من الأدب القديم، كما ليس كل جديد داعياً للتحلّل، فعندنا شعراء وأدباء يسلكون مسلك الرافعي في الحفاظ عن الدين، بل عندنا من أنصار القديم من أعانوا على نشر طائفة من الشعر الماجن وهم رجال دين، مثل: السيد توفيق البكري في فحول البلاغة (قال شكري في صهاريج اللؤلؤ ناسياً لأن صهاريج

اللؤلؤ قد خَلا من المجون دون فحول البلاغة) ومثل الشيخ محمد شريف سليم فيما نشر من شعر ابن الرومي!!.

فليست المسألة إذن مسألة قديم وجديد، قدر ما هي مسألة اتجاه واتجاه، وقد ردّ الغمراوي على شكري شاكراً ومقدّراً في مقالات متتابعة، ذاكرةً أنه يريد بالقديم قديم الإسلام لا قديم المسلمين.

فكلّ ما دعا إليه الإسلام من الفضائل الخلقية وتابعه المسلمون محبّذين فهو القديم بعينه، وإن كان جديداً يقوله شعراء اليوم، وكلّ ما حاربه الإسلام من الرذائل والموبقات واتّجه إليه المتحلّلون فهو ما يعنيه بالحديث وإن قاله شعراء العصر الأموي وشعراء العصر العباسي، فالمعيار الثابت في القِدَم والحداثة، وفي الخير والشرّ، وفي المجون والورع، وفي القبح والجمال، يجب أن يرجع إلى تعاليم الإسلام، وبهذا يفهم الأدب العربي في ميزان الدين الصحيح! وقد طال النقاش في غير إسراف، ولكنه انتهى بتحرير المناط كما يقول الأصوليون.

ولقد ظلّ الأستاذ الغمراوي يحمل رمح الفارس في حومة النضال الأدبي حتى آخر عام من وفاته، فما برزت قضية من قضايا الأدب والتربية والاجتماع إلا كان الرجل صاحب الصوت المؤمن في حلبتها، لقد ناقش قضية سفور المرأة، وناقش قضية الفن القصصي في القرآن، وناقش قضية ترتيب سور القرآن وفق النزول.

وجاء اليقين بعد أن فرغ لساعته من كتابة آخر مقال لمجلة الأزهر يناقش فيه قضية السجع في القرآن الكريم مُعارضاً ما اتجه إليه ابن الأثير وابن الصائغ من دعوى التقديم والتأخير في الآيات رعاية للفاصلة، وهو منحنى أيده الدكتور عبد الرؤوف مخلوف على صفحات مجلة الأزهر، وعارضه الأستاذ الغمراوي، ولكل دليله المختار، ولكن المهم في ذلك كله أن الرجل في شيخوخته قد لبّى نداء ربّه ومداد قلمه على صحيفته لم يجفّ، ليشهد له عند الله بمواصلة الجهاد

على وهن الكبر، وصراع الداء، ولن يضيع ثوابه المضاعف لدى ربه، فمن جاء
بالحسنة فله خير منها، وما يلقاها إلا الذين صبروا.

الدكتور محمد حسين هيكل والتاريخ الإسلامي

- ١ -

نشرت مجلة طائفية أن كتاب «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل، وقد كتبه مؤلفه دون أن يعتقد ما جاء به، إنما فعل ذلك رغبة في الكسب المادي، وحباً في الاشتهار.

قرأت ذلك فغلى الدم في عروقي، غضباً على مَنْ يتجرأ على تزيف الحقائق، وابتداع الأراجيف، وعهدي بمن يحوكون الإفك أن يكونوا مهرة في التلفيق، فلا يختلقوا الأكذوبة إلا إذا أحكمت على وضع يوحى بالصدق، أما أن يكون الافتراء واضح البطلان، صريح البهتان، هكذا، فتلك آية الغباء السخيف.

لقد كان الدكتور هيكل زعيماً من زعماء الأدب في عصره، وكان اسمه يسير مسير الشمس في الشرق العربي قبل أن يتجه إلى دراسة التاريخ الإسلامي! فكيف يحرص على الاشتهار من فاض حديثه، ودوى صيته، وقام على تحرير أعظم مجلة أدبية في عصره!.

وكيف يتطلب المكسب المادي، ومكانته من السياسة اليومية، ومن حزبه السياسي، ومن رواج مؤلفاته، مما يجبى إليه المال دون حساب، فوق ما ينعم به من ميراث أبيه، مع ما يقر به عارفوه من قوة إخلاصه، ونبل ترفعه، وشدة إباته!.

لقد عزّ على هؤلاء المرجفين أن تكتب أنصح الصفحات عن نبي الإسلام في كتاب مُبين، تتعدّد طبعاته، ويشتهر حديثه، وتدوّي حقائقه، فتشفي صدور قوم مؤمنين!

عزّ عليهم ذلك دون أن يملكوا من النقد العلمي ما يضائل من لآلئه الأخذ، فكان قُصاراهم أن يعمدوا إلى الأراجيف، وقد جهلوا أن دولة الباطل لا تدوم، وأن الزبد يذهب جفاء، وأنه لا يصحّ إلّا الصحيح.

وإذا كان الدم قد غلى في عروقي حين قرأت ذلك. فلا بدّ أن أسكت لفتح الغضب في صدري بحديث عن الدكتور محمد حسين هيكل والتاريخ الإسلامي.

- ٢ -

نعرف أن تاريخ الإسلام في عصر النبوة المحمدية، والخلافة الراشدة موضع فخار للمسلمين، وباعث كرامة وعزة لمن شرفوا بهذا الدين، إذ ضمّ من خوارق التضحية في سبيل الإنسانية ما يبعث على الاحتذاء، ويدفع الخلف إلى ضرورة إحياء هذا المجد التالد من جديد، فالتذكير بهذا التاريخ يُؤتي أكله الشهيّ إذا أدّى على خير وجوهه من التسجيل.

ونحن نعرف أن كتب القدماء في أكثرها، روايات تتألف وتتعارض، وأخبار تتوالى منتظمة حيناً، ومضطربة حيناً آخر، وقارئها المُعاصر في حاجة إلى صبر طويل ليميّز الخبيث من الطيب، ثم إلى مقدرة خاصّة من الفهم يصل بها إلى أبواب الأحداث، مُولّفاً من شتاتها تصوّراً مجموعاً لما كان.

وقد بذل المُعاصرون قبل الدكتور هيكل جهداً مشكوراً في كتابة تاريخ هذه الحقبة، على نحو يُوحى بالتسلسل المطّرد، ويمنع التخلخل المضطرب، فكتب أمثال محمد الخضري، وعبد الوهاب النجار ورفيق العظم تاريخ هذا العهد كتابة ذات جهد وإخلاص، وقد أشرت إلى جهودهم بالتفصيل فيما قبل هذا الحديث^(١)، ولكن ما كتبه جميعاً كان إلى الردّ أقرب منه إلى التحليل، فلا ننكر

(١) تاريخ النهضة الإسلامية، للمؤلف، جزءان.

إخلاصهم واجتهادهم فيما دَوَّنوه، ولكنهم قد تركوا لغيرهم أن يقول ما يتم به صنيعهم البادئ، تحليلاً وتشريحاً ورجوعاً بالنتائج إلى المقدمات، ومن وراء ذلك كله قلم بارع تنهمر شآبيبُه على القارئ كما يتدفق الغيث، ليحيي ويخصب ويُزهر، ذلك هو قلم الدكتور هيكل دون نزاع.

قد يكتب التاريخ الإسلامي في عهده الأول داعيةً نشأ في مهاد الثقافة الإسلامية، ووطد نفسه على أن يكون أحد الهداة المرشدين، ومثل هذا لا يُستغرب منه أن يشيد بعظمة نبي الإسلام قدر ما يستطيع، إذ لا يتوقع منه غير ذلك، فإذا أتقن ما كتب جاء إتقانه طبعياً لا يُثير سؤالاً، ولا يستدعي تعليلاً، أما إذا كان المتحدث عن تاريخ الإسلام كاتباً لم ينشأ في مهاد الثقافة الإسلامية، ولم تُوح مبادئه الأولى بأنه سيكون ذا قلم يهتف بمجد الإسلام، بل إن هذه المبادئ ربما أوحث للناس بحتمية ابتعاده عن هذا المنحى المشهود، إذا كان المتحدث عن تاريخ الإسلام هو هذا الكاتب، فإن إبداعه البياني وإخلاصه العلمي وتوقده العاطفي، مما يجب أن تُبحث أسبابه، لتكون موضع الاعتبار والتأمل.

وهذا ما يدعونا إلى متابعة حياة هيكل الثقافية متابعة واعية، لنعرف كيف انتقل من اتجاه إلى اتجاه، بل لنعرف كيف كان صادقاً حين أثر اتجاهها على اتجاه، وفي ذلك ردُّ قاطع على مَنْ يُلَبس الأشياء غير أثوابها، فيتعلل بالكسب المادّي تارةً وبحبّ الاستشهار تارةً أخرى، وهو يعلم في أطواء نفسه أنه يفتعل مختلقاً، ويزور ملفقاً، إذ بدت البغضاء من لفظه مترجمة عن باطن محترق وصدر مشبوب.

ذهب الدكتور هيكل إلى فرنسا في أوائل هذا القرن، بعد أن أتم دراسته في مدرسة الحقوق بمصر. وكان بريق الحضارة الأوروبية حينئذٍ يخطف أبصار كثير من الشباب المسلم، إذ ينظرون فيجدون دولهم الإسلامية تزرع تحت نير الاستعمار، وقد جندت الأقلام المستعمرة لتصمّمها بالتأخر والغفلة والجهل ولتجعل الإسلام المُفترى عليه علّة العِلل، في هذا التخلف المنحدر، إذ هو في زعمهم عدو

العقل، وموطن الخرافة، وذو شريعة بدوية قاسية، لا يمكن أن تلائم عهد الحضارة والتمدّن فهي العقبة الكأداء في كل إصلاح يُراد، أما الغرب بحضارته وفلسفته وحرّيته وعلمه فقائد الإنسانية الحقيقي، وباريس رائده القائد، إذ هي مدينة النور، وصاحبة الدعوة الأولى إلى الحرية والإخاء والمساواة.

هذا ما جنّدت الأقلام المستعمرة لترديده وبثّه في كل قطر إسلامي عن عمْدٍ مُغرَض، وتدلّيسٍ كربه.

وهيكل الشاب يقرأ ذلك، وينظر ما حوله في بيئته الجديدة فينفعّل بما يرى، ويتأثّر بما يقرأ، ثم تجيش خواطره بما يقرأ ويُشاهد، فيدفع بقلمه إلى تمجيد الحضارة الحديثة، ويتخذ من أدباء فرنسا ومفكرّيهم موضعاً لتحليله الأدبي في مقالات يُرسلها من باريس إلى مصر لتُنشر في الجريدة، ويخصّ جان جاك روسو بمقالات تحليلية كانت نُواة لما أصدره عنه من مؤلّفات مستقلة، حتى إذا أتمّ دراسته القانونية ورجع إلى مصر لم يترك قلمه دون أن يجول به في شجون من هموم الشرق، وفنون الغرب، ومن حوله نفر يميلون إلى اتجاّحه، بل يزدون فينتقلون من تمجيد فرنسا وإنجلترا إلى مهاجمة التقاليد الشرقية متسلّحين بما قرؤوه لقساوسة المبشرين وكهنة المستعمرين، دون أن يرجعوا إلى حقائق الإسلام في تراثه الأصيل، وأين هم منه؟ وهو في رأيهم أوراق صفراء، سُطّرت في عصور الانحطاط.

ثم شاء الله أن تنهار الدعائم فجأة، دعائمهم التي كانوا يرونها أثبت من أن تزول.

انهارت هذه الدعائم حين قامت الحرب العالمية الأولى، لتنبئ عن فساد الحضارة الأوروبية، وطلائها الظاهري الخادع بما لم يكونوا يحتسبون.

وما ظنك بأُمّ تدّعي قيادة الإنسانية ثم توقد لهيباً يمتدّ إلى أطباق الكرة الأرضية جميعها، فيحصّد عشرات المدن بما تضمّ من أرواح ومنازل وميادين، ويترك وراءه حشوداً من الأرامل واليتامى والمشوّهين، حتى إذا انتهت الحرب وظنّ

الظَّانُّونَ أَن فَرِيقًا ارْتَكَبَ وَزَرَهَا دُونَ فَرِيقٍ، وَأَنَّ فَرَنْسَا وَإِنْجَلْتَرَا لَمْ تَكُونَا ذَوَاتِي أَثَرٍ فِي انْدِلَاعِ اللَّهْبِ، إِنَّمَا اضْطَرَّتَا إِلَى الْإِصْطِلَاءِ بِنَارِهِ، بَعْدَ أَنْ أَخَذَ يُحَاصِرُهُمَا عَنْ شِمَالٍ وَيَمِينٍ، حَتَّى إِذَا ظَنَّ الظَّانُّونَ ذَلِكَ، وَجَدُوا هَاتَيْنِ الدَّوْلَتَيْنِ تَتَقَاسِمَانِ رُبُوعَ الشَّرْقِ مُسْتَعْمَرَةً بِأُطْشَةٍ، وَتَصْبَّانِ الْعَذَابَ صَبًّا عَلَى الْهِنْدِ وَالْمَغْرِبِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ، فَتَقْذِفُ الْمَدَافِعَ جَمَمَهَا عَلَى الْأَمْنِيِّينَ فِي مَنَازِلِهِمْ، فِي مَتْنَصِفِ اللَّيْلِ لُتْسِكْتَ كُلَّ صَوْتٍ يَنَادِي بِالْحَرِيَّةِ وَالْإِسْتِقْلَالِ، وَأَبْنَاءُ الْبِلَادِ يَخُوضُونَ حَرْبًا غَيْرَ مُتَكَافئةٍ بَيْنَ الْأَعْزَلِ الْمُسَالِمِ، وَالْمُحَارِبِ الْمُهَاجِمِ.

أَيْنَ إِذْنُ حَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمَتَمَدِّنةِ؟!

وَأَيْنَ خَدِيعَةُ الْعِلْمِ وَالنُّورِ وَالْحَرِيَّةِ؟

وَأَيْنَ الْعَمَلُ عَلَى قِيَادَةِ الشُّعُوبِ الْمُتَخَلِّفَةِ إِلَى مَدَارِجِ التَّقَدُّمِ وَالْإِرْتِقَاءِ؟! مِمَّا طَنَطَنُوا بِهِ سَاعَةَ الْهَوْلِ ثُمَّ وَلَّوْا عَنْهُ مُفْتَرِسِينَ.

إِذْنُ شَاهَتِ الْحَضَارَةُ الْأُورُوبِيَّةُ فِي عَيْنِ هَيْكَلٍ، وَرَأَى أَمَالَهُ الَّتِي بَشَّرَ بِهَا فِي رِسَالَتِهَا الْإِنْسَانِيَّةِ رَمَادًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَأَخَذَ يَفْكَرُ فِي اتِّجَاهٍ جَدِيدٍ يَنْقُذُ بِلَادَهُ مِنَ التَّقَهُّقَرِ، وَيَفْتَحُ أَمَامَ مِصْرٍ نَوَافِذَ الْأَمَلِ مِنْ جَدِيدٍ.

وَكَانَ الْمَدْلَسُونَ مِنْ دُعَاةِ الْغَرْبِ قَدْ أَخَذُوا يَكْتُبُونَ عَنِ الْحَضَارَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ الْقَدِيمَةِ مُعْجِبِينَ، لَا حِبًّا فِي هَذِهِ الْحَضَارَةِ، وَلَكِنْ لِيُوهِنُوا رَابِطَةَ الْإِسْلَامِ بِبِعْثِ النُّعْرَاتِ الْإِقْلِيمِيَّةِ فِي كُلِّ قَطْرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ، فَالْفِرْعَوْنِيَّةُ فِي مِصْرَ، وَالْأَشُورِيَّةُ فِي الْعِرَاقِ، وَالْفِينِيقِيَّةُ فِي لُبْنَانَ وَسُورِيَا، وَالْبَرْبَرِيَّةُ فِي الْمَغْرِبِ، هِيَ الْوَسَائِلُ الْمُخْتَارَةُ لِإِبَادَةِ التَّرَابِطِ الدِّينِيِّ بَيْنَ الْعَرَبِ، وَتَفْرِيقِ التَّكْتَلِّ الْرُوحِيِّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ خَدَعَ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ حَسِينُ هَيْكَلُ بِهَذَا الْبَهْرَجِ فِيمَنْ خَدَعَ، فَوَلَّى وَجْهَهُ شَطْرَ الْفِرْعَوْنِيَّةِ حِينَئِذٍ مِنَ الدَّهْرِ، يَرَى مَاضِيَهَا الْبَعِيدَ مُوَضَّعَ اعْتِرَازٍ، وَمَوْئِلَ فَخْرٍ وَمِبَاهَاةٍ، وَمُبْعَثَ أَمَلٍ يَوْشِكُ أَنْ يَبُورِقَ، فَأَخَذَ يَكْتُبُ الْفُصُولَ عَنْ مِينَا وَخَوْفُو وَتَحْتَمَسَ وَرَمْسِيْسَ وَتَوْتِ عَنخْ آمُونِ!.

ولسنا ممن يُنكرون أن يكتب تاريخ الأجداد على نحو يبعث الاستطالة والمُباهاة، ولكننا نذكر أن يكون حديث الفرعونية ستاراً لقطع الأواصر الواشجة بين العرب والمسلمين، وهو ما عناه دُعاة الاستعمار، لأنهم في قرارة أنفسهم لا يريدون غير الحديث عن أوروبا وحدها، فإذا تعذّر أن تؤمن البلاد بسيطرة الدخيل المستعمر، وإذا تجمعت الأمم المغلوبة تحت راية واحدة تذكر بالأمس المضيء، فلتكن الفرعونية في مصر، كما تكون الآشورية والبربرية والفينيقية في أماكنها، معول هذه الرابطة الوطيدة التي تؤلف بين العرب والمسلمين.

ولكن هيكلاً لم يلتفت إلى ذلك في بعض أيامه، فأخذ يوالي زيارته لآثار الفراعنة في الأقصر وأسوان والجيزة والفيوم والشرقية، متحدّثاً عن أمجاد التاريخ الغابر، وداعياً إلى استلهاهم، وكان الشاب المتحمّس مخلصاً لاتجاهه الثاني فيما بينه وبين نفسه، كما أخلص لاتجاهه الأول حيناً من الدهر، فرأى في مجد الفراعنة ما يفتح منافذ الأمل لشعب محتل له من عزة أجداده سبيل مُمهّد للحرية والاستقلال.

ثم أخذ يتلقّت عن يمين وشمال ليجد الصدى المؤثّر لما يكتب فلا يرى غير الفراغ!! لأن مصر الإسلامية لا تعتزّ بشيء اعتزازها بدينها الكريم، فالوطن وطن عربي إسلامي يُضيئه القرآن، ويقوده الأزهر في اتجاهه الروحي، ولن تصل إلى آذانه نعرات المفتونين بالآثار والحفائر والعاديات!.

ولما كان الدكتور هيكل في صميم روحه طالب حقّ، يرتاد كل سبيل ليجد منافذ النور، فقد أدرك بعينه إخفاق الدعوة إلى الفرعونية، وتأكد أن الطنين لا يبلغ الأذان، فأخذ يبحث من جديد عن أقوم العمل لبعث الأمة العربية، فوجد ضالّته المنشودة في تاريخ العرب ومجد الإسلام، فاتجه بخالص جهده بعد أن استحصّد فكره، واتّسع أفقه، وعمقت تجرباته، إلى الدراسات الإسلامية، مبتدئاً بسيرة رسول الله ﷺ، ومعقباً بسير الأعلام من أمثال أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفّان.

وفي خلال حديثه عن سياسة هؤلاء، تحدّث عن أبي عبيدة ابن الجراح، والمثنى بن حارثة، وخالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، وعمر بن العاص، وغيرهم من أبطال الفتح الإسلامي، بما يدلّ على غيرة إسلامية يدعمها إخلاص زائد للحقيقة، وصدق بالغ في الأداء، ولو تنفس به العمر أكثر ما تنفس، لتحدّث عن عليّ بن أبي طالب في كتاب برأسه كما فعل مع سابقه.

وكيلا يظن القارئ أننا نستنتج القول استنتاجاً شخصياً دون أن تكون خلاصته واقعاً ملموساً من حياة الدكتور هيكل، فسأتركه يتحدّث عن نفسه حين يقول رداً على مَنْ يخفى عليهم جوهر الحضارة الإسلامية فيتخطّون في اتجاهات تعارض وتتصادم، وذلك من مقدمته الرائعة لكتابه الذائع (في منزل الوحي)^(١):

«لقد حاولت أن أنقل إلى أبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية، وحياته الروحية، لتتخذها جميعاً هدًى ونبراساً، لكنني أدركت بعد لأيٍ أنني أضع البذر في غير منبته، فإذا الأرض لا تتمخض عنه، ولا تبعث الحياة فيه، وانقلبت ألتمس في تاريخنا البعيد، في عهد الفراعين موثلاً لوحى هذا العصر، يُنشئ فيه نشأة جديدة، فإذا الزمن، وإذا الركود العقلي قد قطعاً ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة، ورويت فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي يُنبِت ويُثمر، ففيه حياة تحرّك النفوس، وتجعلها تهتز وتربو، ولأبناء هذا الجيل في الشرق، نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين».

- ٣ -

إن بذرة الإيمان في نفس الدكتور هيكل لم ينقطع نموؤها المتصل في فترة ما من حياته، حيث لم نعهد عليه نزقاً فكرياً طائشاً حين اتصل بثقافة الغرب، دارساً ومُقيماً، كما عهد لدى نفر كانت المُباهاة بالإلحاد وسيلة للنباهة الخادعة لديهم،

(١) في منزل الوحي، ص ٢٤، ط ٢.

بل عرفت عنه الاستقامة الفكرية الجادة، والاعتدال الممتزن، مع أنه في حديثه عن أمثال جان جاك روسو في صدر حياته، كان من الممكن أن ينحدر بقلمه إلى تمجيد نوع من السلوك الشاذ، مأخوذاً بما يحيط الكاتب من هالات النبوغ، أو على الأقل كان من الممكن أن يلجأ إلى تبرير ما تورط فيه صاحب العقد الاجتماعي من هنات يقف لديها الأخلاقيون مشفقين.

لم يكن منه هذا التمجيد، ولم يكن منه هذا التبرير، على وجودهما الواضح لدى كثير ممن تباهوا بالحديث عن روسو، وعن مذهبه في السياسة والتربية والاجتماع، وذلك ما ينطق بأصالة سمو النفس لدى هيكل، بل ما يؤذن باتجاهه الروحي فيما سيأتي من أيامه.

وقد قدر عليه أن يرأس تحرير جريدة كان من محرريها من يتشدقون بالهجوم على مقررات دينية راسخة الأساس، ولم يكن هيكل أقل من أحدهم ذكاءً، أو أضال منه صوتاً، ولكنه كان كالعقّاد في اتجاهه الجاد القويم، يقرأ آثار المتطرفين والمعتدلين من الماديين في الغرب، أو من سواهم، ليظل له في استيعابه عقله المسيطر، وروحه الموجّه، ولينأى عن أساليب الخداع، محتقراً بواعث الإغراء الكاذب، بانتشار الدوي، وأدعاء السيطرة المستعملة عن سبيل مجابهة الجمهور في مخالفة ما يعتز به من قيم.

هكذا كان هيكل نظيف القلم في كل ما كتب، حتى ظهر معدنه الأصيل حين بلغت بذرة اليقين في نفسه أقصى مراحل نموها، فامتد ساقها، وأورقت أغصانها، وتساقطت ثمراً شهياً داني القطوف، ظهر ذلك من نفسه واضحاً في موقفه من مأساة التبشير في مصر، إذ كان عجباً كل العجب أن ينهض نفر ممن عيناهم بالقول إلى التهوين من شأن التبشير، وأدعاء أن العقيدة الثابتة لا يمكن أن تتزلزل، وهو اتجاه أقل ما يقال فيه إنه لا يعبأ بمصير هؤلاء الذين خدعوا بالإغراء الكاذب فاستسلموا لجواذب التبشير، إذ سدت به حاجاتهم الذاتية إلى المال أو المنصب، أو ما يستميل النفس من متع الحياة.

كان عجباً كل العجب أن ينهض هذا النفر إلى التهوين من شأن التبشير، على حين يعلو صوت الدكتور هيكل بمهاجمتهم الصريحة، ولا ننكر أن جرائد الجهاد والبلاغ وكوكب الشرق قد أسهمت في الحملة على التبشير، فذلك شيء طبيعي من جرائد تنطق بلسان الشعب، وتعبّر عن الأكثرية المطلقة من مشاعر المصريين، إنما نظري الدكتور هيكلاً لأنه نجا بالسياسة اليومية عن أن تذللّ بالسكوت عن هذا المأثم الفاضح، وله زملاء في التحرير يحاولون تجاهل الأمر، وكأنه لا يمسّ الأمة في شيء، ولم يؤثر هيكل السكوت، بل كان أعلى المهاجمين صوتاً، وأقواهم صيلاً، وأشدّهم مواصلة للاستنكار، ويحثّ عن العوامل المستترة والظاهرة وراء هذا الإجرام الأثم.

ومن هنا كان طريق التحوّل في حياته، من المباحث الثقافية العامة إلى العكوف على مباحث الإسلام في مثله الرائعة ورجاله الأفذاذ، لقد دفعه الخوض في جريمة التبشير إلى الكشف عن وسائل الغرب في خداع الشرق، ومحاولة الازدراء بماضيه الثقافي والحضاري ليمهد الطريق إلى تشويه قيمه الروحية معقلاً وراء معقل، وقد أمدّته ثقافته الواسعة بما لا يمكن دحضه من الأدلة الدامغة، فأظهر كيف حاول المستشرقون ومن وراءهم من الأذئاب تزييف العقيدة الإسلامية بالافتراء الصارخ حين دمغهم الحق الواضح، وكيف أصرّوا على أنها مدعاة التأخر السياسي والفكري، مع أن الاستعمار الأوروبي هو السبب الأول في هذا التأخر المُشين.

وقد اهتزّت الحكومة المصرية لِمَا وجّه الدكتور هيكل من نقد صارخ لسكوتها على حركات التبشير، وما انتشر من الحديث عن ضحاياها في المعادي والمطرية وبورسعيد وأسيوط، فاستدعته النيابة للتحقيق بتهمة إثارة المشاعر، ولكنه رجل القانون الواصل من صحّة اتجاّاه، فدمغ المحقّقين بما لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً معه، وخرج من جلساته هذه ليزيد الحملة أواراً على صفحات السياسة.

وقد جاهر هيكل بأن إدارة الأمن الإنجليزي في وزارة الداخلية المصرية هي التي تتحمّل تبعّة هذه الجرائم، وهو اتّهام أقام الحكومة وأقعدّها، فكلفت النيابة

بضرورة مؤاخذته، ثم رفعت دعوى عليه أمام محكمة الجنايات بتهمة الوقعة بين رجال الأديان! ولكن الصوت المصري في المعركة كان يشدّ أزر المجاهد الشريف.

وقد رَأَسَ الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي جماعة مقاومة التبشير، وضمَّ إليه ذوي الغيرة من عارفي البواعث، وراصي المشبه من الاتجاهات، وكان في محمد محمود رئيس حزب الأحرار حمية وحفيظة، فآثر هيكَل بالتأييد حتى افتضح موقف القائمين بالتبشير، فخفت صوته، وركدت ربحه، ولكنه وجَّه الدكتور هيكَل إلى بعث الحمية الإسلامية، بتصحيح ما زَيَّف المُفترِّون من حقائق الإسلام ونبِيَّه الصادق، ومن هنا كان اتجاهه الغيور إلى الحديث عن أبطال الإسلام، وفي طليعتهم نبِيَّه الكريم.

تعرَّض الدكتور هيكَل - لأول مرة في حياته الثقافية - إلى كتب التراث الإسلامي من فقه وحديث وتفسير وتوحيد، ليكشف عن روح الإسلام فيما تطوَّبه صحائف التراث من معانٍ، وكتب التراث لا تُعطي كنوزها سافرة لِمَن يقتحمها لأول مرة، إذ إنَّ طريقتها التعبيرية تكاد تكون وقفاً على نفر يفتحون بتجرباتهم المغاليق، وقد تكون الكتب الأولى أيسر تناوُلًا وأهون تحصيلًا، ولكن تقدَّم الزمن دفع بقوم إلى تعسير اليسير بما أحكموه من أقفال، وبما أضافوه من الثقافات الوافدة من علوم المنطق، ونحلَّ الفرق، وشبه الدَّهرين، يعرف ذلك كل المعرفة مَن اختبر هذه الكتب، بل يكاد يعرفه مَن وقف على شواطئها، لأنه إذا لم يصارع الموج فقد شاهد الماء بين الضفاف يموج ويصطفق ويزخر ويجيش، وقد تعلق غواربه فتطوي السفين الحائر في مهبِّ الزعازع!

ولم نذكر كتب التاريخ بين ما ذكرنا من قبل، وهي لباب ما يعنيه مؤرِّخ يعتمد على الروايات الأولى في مصادرها الأصلية، فهي دون شك أسهل مراجعة من كتب الفقه والتوحيد، ولكنها تُورث قارئها ساماً مُفَرطاً بتضارب الروايات، وانقطاع القول قبل انتهائه قفراً إلى منحى آخر، وتشتت الأحداث وفق ترتيب

السنوات لدى بعض الكاتبين، ثم بعدم الجزم الصائب في كثير مما يقتضي الجزم، وأنكى من ذلك كله تسجيل الروايات الضعيفة التي تنطق البداءة بتكذيبها!.

وكل ذلك صبر عليه الكاتب الهادف، مُضيفاً إليه ما تناوله المعاصرون ما بين مشرق ومغرب من شجون التاريخ الإسلامي، وفيهم مَنْ رَعَا الله فيما كتب، وَمَنْ تنكب الجادة لغاية يراها كل أهدافه، ومنتهى ما يأمل من تسطير الأخبار على غير وجهها الصحيح!.

وقد حدّد الدكتور هيكل هدفه من كتابة السيرة النبوية، إذ صرّح أنه لا يريد أن يضيف مكرراً معاداً، ولكن يريد بعد اقتناع صارم أن يرسم للبشرية عامّة صورة إنسانية فريدة تكون موضع الاقتداء بسلوكها الحيّ، وخلقها الحميد، فتصبح باب الإنقاذ في مضطرب الفساد السياسي، ومشتجر الخلاف المذهبي. وسيرة محمد ﷺ وهي أول السَّير في طريق الأسوة والاحتذاء.

ونحبّ أن نسمع من الدكتور هيكل قوله بصدد ذلك^(١): «من أجل هذا كان خليقاً بكل مَنْ يتصدّى للبحث في مثل هذا الموضوع أن يتوجّه به إلى الإنسانية كلها لا إلى المسلمين وحدهم، فليست الغاية الصحيحة منه دينية محضة، كما قد يظن بعضهم، بل الغاية الصحيحة منه أن تعرف الإنسانية كيف تسلك سبيلها إلى الكمال الذي دلّها محمد على طريقه، وإدراك هذه الطريقة غير ميسور، إذا لم يهتد الإنسان إلى هذه السبيل بمنطلق عقله، ونور قلبه، راضي النفس بهذا المنطق، مُنْشَرِح الصدر إلى هذا النور، لأن مصدرهما المعرفة الصحيحة والعلم الصحيح.

فالتفكير الذي لا يعتمد على المعرفة الدقيقة ولا يتقيّد مع ذلك بالطرائق العلمية، كثيراً ما يعرّض صاحبه لأن يخطيء وأن يكبو، وكثيراً ما ينأى به لذلك عن

(١) حياة محمد، ص ٥٩، ط ٣.

محبة الحق، فطبيعتنا الإنسانية تجعل تفكيرنا يتأثر بمزاجنا تأثراً عظيماً، وكثيراً ما يختلف المتساوون علماً في تفكيرهم لغير سبب إلا اختلاف أُمزجتهم مع إخلاصهم جميعاً في القصد والغاية، وهذا الاختلاف نعمة كبرى على الإنسانية في ميادين الفن والحياة العملية، ولكنه نقمة على العلم وعلى التفكير القائم على أساسه، ابتغاء أمثال الحياة العليا لخير الإنسانية جمعاء.

ودراسة التاريخ يجب أن تكون غايتها نشدان الأمثال العليا من حقائق الحياة، فيجب أن يتجنب من يدرس التاريخ سلطان الهوى وحكم المزاج، ولا سبيل إلى تجنبها إلا أن يتقيد الإنسان بالطريقة العلمية أدق التقيد.

هذا الولع بهداية الإنسانية جمعاء عن طريق السيرة النبوية أولاً، وباتباع الطريقة العلمية التي تقتنع بها العقول كافة مسلمة أو غير مسلمة ثانياً، هو الذي دعا الدكتور هيكل أن يخاطب العقل وحده في كتابته، فلا يلجأ إلى غير ما يتجرأ العقل الأوروبي المتحرر على إنكاره!

لذلك أغفل حديث الخوارق والمعجزات في كتابه، وجعل القرآن وحده معجزة الرسول التي يجب أن تكون موضع الإقناع، مما كان موضعاً لنقد الناقدين، ولكل وجهة هو مولئها.

غير أنني أحرص على أن أُبين أن هناك فرقاً واضحاً بعيداً بين من ينكر الخوارق مؤكداً أنها لم تحدث وبين من يهملها فقط ليُقنع قوماً لا يؤمنون بالإسلام إقناعاً عقلياً يعتمد على الدليل الفرق واضح صريح، ويدعو إلى تكراره في هذا الموقف، لأن بعض الناقدين قد غفلوا عن منحى الدكتور هيكل في اتجاهه إلى البشرية عامة بكتابه، وواجهوه بالاعتراض الصارخ أن أغفل حادثة انشقاق القمر وما ينحو منحاهما، وكأنه ينكر وقوعها.

وهذا ما لم يقله الكاتب صراحةً أو تلميحاً، ولكنه عبّر عن هدفه بأجلى بيان حين أكد أنه يكتب للإنسانية جمعاء، وفي بني الإنسان من يريدون الإقناع العقلي

وحده، وهم أكثر المثقفين في العالم وذوو التأثير القوي في ملايين الناس، فلنأت بيوتهم من أبوابها!.

وهذا كلام من الوضوح بحيث يجب أن يُنهي الججاج، وهو مع وضوحه لا يزال موضع الاحتكاك لدى أناس يسرهم أن يتناولوا آثار هيكل الإسلامية بالملام يغمضون عن الروائع منها ويحاولون تجويف الهنات!.

وقد تحتاج هذه المسألة إلى مزيد من بسط، ولكنني أوجز القول اتكالا على ما كتبه^(١) من قبل في هذا الصدد، وسيرى النور عن قريب.

- ٤ -

لقد كان كتاب حياة محمد وما تلاه من كتب الشخصيات الإسلامية لهيكل، فاتحة مدد من الكتب التاريخية، تنحو منحى المؤلف الكبير وأكثرها مما دار في فلكه، وسار على طريق عبده قلم الدكتور، وفي الكاتبين من ملأه الرضا وغمرته الغبطة، فاعترف بفضل الدكتور على موضوعه، واقتبس منه مشيداً، وهم الكثرة، وفيهم من عزّ عليه أن يجد الفرق شاسعاً بينه وبين الدكتور فيما كتب كلاهما، مع تأخره عن سابقه تأخراً كان يحتم عليه أن يكون أكثر جودة، وأسطع بريقاً، عزّ عليه ذلك فشاء له تفكيره أن يحاول تنقّص الدكتور ما استطاع.

ولسنا نجعل الدكتور هيكل في منجاة من النقد، فكل إنسان يخطئ ويصيب، ولكننا نأسف حين نرى النقد هجاء أو أشبه بالهجاء، وهو ما لا تعرفه آداب البحث لدى الذين يقدّرون حرمة العلم، وكرامة العلماء، ولن يضير الدكتور أن ينتقصه متسرّع مشتت بعد أن أنصفه العادلون الفهماء.

ومن المضحك أن يتصنع هؤلاء المتسرّعون غير دينية وحمية إسلامية يكتبون دفاعاً عن أمثال خالد بن الوليد وغيره من أعلام الصحابة، وكأنهم يتحدثون

(١) السيرة النبوية في آثار المعاصرين، بحث واف تقدّم به الكاتب إلى المؤتمر الإسلامي العالمي للقرن الرابع عشر الذي تُشرف عليه جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

عن مؤلف أجنبي لا يشاركهم عقيدتهم الإسلامية، فضلاً عن قيامه بالحديث عنها وعن أبطالها بأبلغ مما يستطيعون، بل بما لا يمكن أن يستطيعوه.

وعزاؤنا مع هؤلاء أن نجد أساتذتهم الكبار قد أوفوا هيكلاً حقّه تمام الإيفاء، وأيّ علّم من أعلام الإسلام في عصره أبعد من الإمام محمد مصطفى المراغي صوتاً، وأثبت مقاماً، وأرسخ قدماً، وأنأى عن الشبهة فيما يقول ويجزم، وقد قدّم كتاب «حياة محمد» بمقدمة كاشفة هادية، مادحة مؤيدة قال فيها:

«ويطول بي القول إذا أنا عرضت لما في كتاب الدكتور هيكل من حسنات، وحسي أن أنبّه إلى تلك الحسنات إجمالاً وسيدرك الناس جماله بأنفسهم، ويستمتعون بلذة نتاج الفكر تهديه الأسانيد الصحيحة، ويهديه المنطق الدقيق، تسعده الفطرة الصادقة، وسيرون أن الدكتور كان مخلصاً للإخلاص كله للحقيقة، عامر القلب بما في الوحي المحمّدي من هدي ونور وبما في سيرة رسول الله ﷺ من جمال وجلال وعظمة وعبرة، مطمئناً كل الاطمئنان إلى أن هذا الدين المحمّدي سينقذ البشر مما هم فيه من الحيرة، وينشلهم من ظلمات المادة، ويبصرهم بنور الإيمان ويوجههم إلى النور الإلهي، فيدركون به سعة رحمته التي وسّعت كل شيء وعظمة مجده الذي تسبّح به السموات والأرض، وكل شيء فيهما، وعزّته التي تتضاءل أمامها الموجودات.

وقد وُفق الدكتور هيكل في تنميق الحوادث، وربط بعضها ببعض، فجاء كتابه عقداً منضداً وسلسلة متينة محكمة الحلقات، وقد أبدع في بيان الأسباب والأغراض والحكم بياناً قوياً واضحاً، يجعل القارئ مطمئن النفس، رضي القلب ليستمتع بما يقرأ، ويُبلّج قلبه ببرد اليقين فيملك عليه أمره، ويُجبره على متابعة القراءة، حتى يوفي على آخر ما بيده من البحث».

أما ما وقع فيه الكاتب من المآخذ - ولا بدّ لكل كاتب من مأخذ - فقد تناولها المُصنّفون في حيدة، ورأوا أن أمثالها لا يحول دون الإعجاب بمقدرة الكاتب وموهبته النفاذة، ولعلّ أستاذنا العلامة محمد فريد وجدي وهو من نعلم شدة

إخلاص وقوة دفاع، وسعة اطلاع، قد كان من أبرز من اهتدى إلى هذه المآخذ في كتاب «حياة محمد» فساقها لا ليصد الناس عن آثار الدكتور هيكل، بل ليقول إنه على رغم هذه المآخذ يرى أن «صفحات هذا الكتاب من حسنات هذا العصر في البيان، والبحث العميق، ولا نشط إذا حكمنا بأنها من الطرائف التي كُتِبَ لها الخلود».

ثم قال الأستاذ وجدي رحمه الله^(١):

وليس مؤدى هذا الإطراء أننا نوافق المؤلف على كل الآراء التي بسطها في مقدمة كتابه، كتعليقه أسباب الخصومة بين المسيحيين والمسلمين، أو تقريره بأن الأوروبيين لما فقدوا الروحانية هبوا يتلمسونها في المذاهب الهندية، كما لا نوافقه على كثير مما جاء في صلب الكتاب، من الأحكام الاجتماعية، كقوله عن قريش: إنها كانت أشبه بجمهورية حرّة، وكاعتداده في دحض بعض الشبهات بقوله: العظمة لا تخضع لقانون، ولها أشباه في الكتاب لا تمت إلى العلم بصلة، وبعضها بالخطابيات أشبه، بيد أن هذه الهنات لا تنقص من قيمة هذا الكتاب الممتع، ولا نعرف أنه يخلو من أمثاله كتاب في الأرض، فهي لا تمنعنا أن نكيل الثناء للدكتور هيكل، بغير حساب، راجين أن يوفقه الله إلى إبراز ثمرات أخرى لآلِمِيَّتِهِ النيرة في هذه الناحية من الدراسات الإسلامية، فهي في حاجة إلى الكثير من أمثاله في هذا العصر.

هذا هو سبيل المُنْصِفِينَ في النقد التزيه الجاد.

أما الآخرون من ذوي الاستعلاء المتشامخ، في غير وجهه الصحيح، فنمثّل لهم بكتاب عالم ذي مقدرة وبيان لا ينكرهما أحد، ولكنه إذا كان رجل بحث وغوص، فقد فاته أن يكون رجل إنصاف وعدل، فقد شاء الأستاذ الكبير صادق إبراهيم عرجون أن ينقد بعض آراء الدكتور هيكل فيما كتبه عن خالد بن الوليد،

(١) مجلة الأزهر، المجلد ٦، ص ١٣٦، سنة ١٣٥٤ هـ.

ولكل باحث أن ينقد الدكتور هيكل كما يشاء، ولكن ليس لمُنصف أن يتجاوز الحق، فيقدّم لنقده بمقدمة ظالمة، تجعل الدكتور هيكلًا تلميذ المستشرقين، فهو في رأيه الخاصّ يبعد عن مصادر الإسلام مستقيماً من مصادر الغرب، يقول الأستاذ بعد مقدمة قصيرة:

«إن بعض هذه البحوث تستوحي باحثي الغرب في فهم مسائل الإسلام، وتأخذ الإسلام من غير مصادره، وتصوغه في غير أسلوبه، أو هي بعبارة أخرى تسلك مسلك الاستعمار الاقتصادي، الذي يأخذ الخامات من أرضنا ويلادنا إلى أرضه وبلاده، ثم نستردّها منه، وقد حاكها على منواله، وصبغها بأصباغه ثم ختمها بخاتمه، فكانت علينا شيئاً جديداً، لا تعرفه طبيعتنا، ولا تستسيغه عقولنا، إلّا أن نجرّده من كل ما طرأ عليه بعيداً عن بيئتنا.

وهذا الخطر كامن في كثيرٍ من هذه البحوث التي أحسنت قاصدة أو غير قاصدة - فأخذت بأعضاء الشباب إلى النظر في تاريخ الإسلام، وأساءت لأنها أرث هذا الشباب الإسلام بأسلوب ويطرائق غريبة عن الإسلام، فكان من اللازم أن تُجرّد أعلام إسلامية المظهر والمخبر، تمشي إلى هذه البحوث بالنقد المُمحّص، الذي يردّ الحقائق إلى أصولها، ويترك الأصباغ الأجنبية وما يتصل بها مجردة في أيدي أصحابها، حتى يستطيع الشباب الإسلامي فهم الإسلام بروح الإسلام وبأسلوبه المُنتزَع من بيئته»^(١).

وقد أطال الكاتب في مثل هذه المعاني إطالة لا فائدة في نقلها، وأخطر ما في قوله هو أن بحوث هيكل إسلامية المظهر لا المخبر، وأن نقده هو - تبعاً لذلك - إسلامي المخبر والمظهر معاً، والإسلام لا يشقّ الضمائر لبحث عن أعماق أصحابها، فخرجون وهيكل سيّان أمام الناس، وإذا كان من الظلم أن يقول ناقد إن بحوث عرجون إسلامية المظهر دون المخبر، فإن قول عرجون ذلك عن الدكتور هيكل ظلم مُجحف، وشيء كان ينبغي ألا يقع فيه.

(١) خالد بن الوليد، تأليف صادق عرجون، ص ٢٨٦.

وقد زعم أن هيكلًا رجع إلى كتب الاستشراق دون أن يرجع إلى مصادر الإسلام، وهذا ما ينكره كلٌّ من قرأ بحوث هيكل، لأن صاحب «حياة محمد» قد امتلأ بالقرآن والحديث وكتب السابقين امتلاءً يعزّز كثيراً على بعض من يحكم عليهم عرجون بأنهم أصلاء غير دُخلاء.

وكأنني بالأستاذ الكبير يستكثر أن يكون ذوو الثقافة المدنية قادرين على أن يجمعوا إليها ثقافة دينية مكينة، وهو استنكار تهدمه آثار عباس العقاد، ومحمد فريد وجدي، ومحمد حسين هيكل، ممّن سبقوا الأستاذ كثيراً كثيراً في مجال التحقيق، وليس إلى مقارنة من يعينهم بالتفريط بهم من سبيل إلا أن يكونوا بالنسبة إليهم في درجة الاستفادة من المفيد.

وهيكل بعد، قد فتح المجال لكتابة التاريخ الإسلامي، فأزال كثيراً من الصخور، وعَبَّد الطريق، حتى استطاع أن يجتازه من كتبوا من بعده، ولم يكن الرجل تابعاً للمستشرقين، وقد هاجمهم فيما كتب، وناقش ما تورطوا فيه من أخطاء، وفتح الطريق للحجاج العقلي المستنير مع هؤلاء، فكيف يكون تابعاً لهم؟!.

إذا كان عيب هيكل أنه لم يقتصر على ثقافة واحدة، بل كان ذا أفق شامل محيط، فما ذنبه الذي ارتكبه حينئذٍ ليرضي أصحاب الثقافة الواحدة، فتكون بحوثه إسلامية المظهر والمخبر معاً!!!.

أخشى أن يكون في دعوة الشباب إلى العزوف عن كتب حياة محمد، والصادق أبي بكر، والفاروق عمر، صدٌّ عن سبيل الله الحق، لأن غير هيكل من ناقديه، لم يبلغوا مبلغه من الجهارة والنفاذ والسداد، والأجدر بكتّاب التاريخ الإسلامي أن يكونوا وحدة تتألف لا شيعاً تتنابد.

لقد ناقش الأستاذ صادق عرجون هيكلًا في مسألة عزل خالد، وجعلها باباً لكل هذه المثالب التي ألحقها بهيكل، وأنا أفترض أن الدكتور هيكل قد أخطأ في تقدير الأمر بالنسبة إلى هذه القضية، وأن الأستاذ عرجون قد أصاب في كل ما قال

بشأنها! أف يكون معنى ذلك أن الرجل ربيب الاستشراق، وأن بحوثه التاريخية إسلامية المظهر لا المخبر، وأنه يعوزه الرجوع إلى مصادر الإسلام؟! .

إن أستاذنا المغفور له العلامة المحدث الشيخ أحمد محمد شاكر، رحمه الله، قد خطأ الدكتور هيكل فيما ذهب إليه من أمر خالد، فكتب في مجلة المقتطف (أغسطس سنة ١٩٤٥) فصلاً شافياً وافياً عن مقتل مالك بن نويرة وموقف خالد بن الوليد ملأ ما بين صفحتي ١٩٩، ٢٠١، وقال كلاماً ينحو منحى ما قاله الأستاذ عرجون، ولكنه وهو من البيئة الإسلامية الخالصة التي يعينها الناقد قد عرف للكاتب الكبير حقّه، فأثنى عليه بما يستحقّ، وقال في ختام نقده:

«وبعد فإن كتاب المؤلف (الفاروق عمر) لا يزال مع هذا كتاباً قيماً جديراً بما نال من تقدير، أفدنا منه فوائد جمّة، وأعجبنا بكثيرٍ من أبحاثه، ووقفت عند كثيرٍ من روائعه، مغتبطاً متذوّقاً ما فيها من بلاغة، مهتزّاً بما صدقت في الوصف، وبما احتوت من قوّة التصوير.

ومن أحسن كلماته التي أوفى بها على الغاية، وأطلت الوقوف عندها، كلمة أقتبسها لتكون دستوراً لكثيرٍ من الباحثين، علّهم ينتفعون بها، ويتعظون بما وعظهم المؤلف فيها: قال ص (٣٣): فما أكثر الذين لا يؤمنون بالكثير من آراء الناس، ويرونها ميّناً باطلاً، وحديث خرافة، ثم يكتمون ذلك أو يتظاهرون بنقيضه، التماساً للعافية، وجرّاً للمنفعة، وحرصاً على ما بينهم وبين الناس من تجارة، وأنت لا تجد هذا النفاق في سواد الناس وعامّتهم ما تجده في المثقفين منهم، بل إنك لتجده فيمن نصّبوا أنفسهم لزعامة الناس، والإبانة لهم عن وجه الحق في الحياة».

هذا ما قاله هيكل الباحث النفسي الدارس، وقد اختاره العلامة الشيخ أحمد شاكر ليعلن في صراحة أن الحكم على سرائر الناس ليس بالسهولة التي يرتضيها من جعلوا أنفسهم وحدهم المصيبين.

وحسب الدكتور هيكل - بعد ذلك كله - أن حبّ القراء في مطالعة صحائف العزّة، ودروس المجد، وأمثلة الكرامة الحرّة، في أعمال قادة الإسلام وأئمتهم الخالدين.

أبو الأعلى المودودي صوت الإسلام الصادق

اهتزَّ العالم الإسلامي لوفاة الإمام أبي الأعلى المودودي اهتزازاً أليماً، فقد كان من أكبر دُعاة الإسلام الحقيقيين في هذا العصر، ونعني الحقيقيين: الذين يفهمون روح الإسلام الصادق فهماً لا يقلُّ عن إدراكهم للتيارات المُناوئة لهذا الدين، وبهذا الفهم المزدوج تمكَّن من أن يدحض جَجَج الألداء بمنطق مُعاصر، يأتِي بالمقدمات الواضحة لينتهي إلى النتيجة الحاسمة في وضوح لا يتحمَّل اللجاج.

فلم يكن الرجل مماثلاً لفريق من الدُّعاة لا يملكون غير الصراخ الساذج دون حِجَّة مُقنعة أو أدلة مُفجِّمة، ومثل هؤلاء على كثرتهم لا يكسبون للإسلام أرضاً جديدة، بل لا يقنعون بعض الذين يسكنون أرض الإسلام عن ميراث متواصل عبر الأجيال، إذ يتطلبون درجة من المرجوح العقلي تحملهم على الاقتناع الجازم حين تستأصل أشواك الشُّبهات من نفوسهم.

أما أبو الأعلى المودودي فقد واجه افتراءات المرجفين برسالة الإسلام مواجهة منطقية عاقلة، فكان امتداداً مُثمراً لَمَن سبقوه في حُومة الكفاح البطولي عن الإسلام، وأعني بالامتداد المُثمِر: أن أبا الأعلى جاوز نطاق الدفاع إلى الهجوم، لأن سابقه كانوا يحكم تقدّمهم الزمني لا يملكون غير الوقوف في وجه الطوفان،

مُحاولين أن يضعوا السدود الناهضة حيث تكالبت أقلام الحاقدين في دول الاستعمار على تشويه محاسن الإسلام مؤيدين بسيطرة الدّخلاء من الحاكمين، وكأنهم رأوا في احتلال المسلمين عيباً يُوجّه للإسلام نفسه، إذ كان في زعمهم من أكبر أسباب هذا الاحتلال، بشريته التي وصفوها بغياً بالبداءة والتقهقر والجمود، فكان قُصارى السابقين من سلف المودودي أن يصدّوا هذه الشُّبهات في فورات حماسية حيناً، وفي حجاج منطقي آخر، دون أن يتعرّضوا في أكثر الأحوال إلى إيضاح ما ينخر في المدنية الأوروبية من فساد، ولكن أبا الأعلى قد تجاوز ذلك إلى الهجوم على زيف المدنية الأوروبية، فخطا الخطوة التالية مُكَلِّلاً بالتوفيق.

يقول الداعية الإسلامي الكبير أبو الحسن الندوي بصدد ما نعينه في رثائه الحارّ للعلامة المودودي^(١):

«إنني لا أعرف رجلاً أثر في الجيل الإسلامي الجديد فكرياً وعلمياً مثل تأثير الراحل العظيم، فقد كان السيد جمال الدين الأفغاني من أقوى الشخصيات الإسلامية التي نبغت في القرن الماضي، وأكثرها نفوذاً في عقول الشباب المثقف، وسيطرةً بل سحراً عليها، وتأثيراً في الاتجاهات والأساليب الأدبية والكتابية والخطابية، حتى كان صانع جيل، ومفتتح عهد، ولكن الحق يقال: إن سيطرته العقلية والنفسية كانت محصورة في السخط على الأوضاع السياسية القائمة، والاستعمار الأجنبي، وفي إثارة الأنفة والنخوة في الشعوب الإسلامية المحكومة في بلادها، والعمل للجامعة الإسلامية، دون فكرة منسّقة، أو دعوة واعية إيجابية، تقوم على الدراسات الإسلامية العميقة، والنقد والتحليل العلميين للحضارة الغربية المادية، وقيمها وموازينها، مع شدة حق هذا النابغة وتلميذه العملاق الشيخ محمد عبده على الأمم الغربية التي قادت الحملة والزحف على العالم الإسلامي، وفي مقدمتها الشعب الإنجليزي والحكومة البريطانية، وكانت دعوة سلبية أكثر منها إيجابية.

(١) مجلة الاعتصام، العدد ١٢، (ذو الحجة، سنة ١٣٩٩ هـ).

ولكن الأستاذ السيد أبا الأعلى المودودي قد قامت دعوته على أسس علمية أعمق وأمتن من أسس تقوم عليها دعوات سياسية، وردود فعل للاستعمار الأجنبي، وكانت كتاباته وبحوثه موجّهة إلى معرفة طبيعة هذه الحضارة الغربية وفلسفتها في الحياة، وتحليلها تحليلًا علميًا قلّما يوجد له نظير في الزمن القريب.

وقد عرض الإسلام ونظم حياته وأوضاع حضارته وحكمه وصياغته للمجتمع والحياة وقيادته للركب البشري والمسيرة الإنسانية في أسلوب علمي رصين، وفي لغة عصرية تتفق مع نفسية الجيل المثقف، وتملاً الفراغ الذي كان يوجد في الأدب الإسلامي من زمن طويل.

وكلام العلامة أبي الحسن الندوي مع تقديري الأكيد لمكانته السامية في ريادة الفكر الإسلامي المعاصر، يحتاج إلى أن أعقب عليه بأن الزمن وحده كان عامل النمو الطبيعي الذي جعل بذرة جمال الدين تنمو إلى غصن نضير على يد محمد عبده ثم تؤتي الثمرة في أغصانها المورقة على يد أبي الأعلى، فكان لا بدّ من وقت طبيعي للنمو المرحلي، ولو سبق أبو الأعلى لغرس البذرة وحدها، إذ كان ذلك في مثل زمان جمال الدين الأفغاني غاية ما يستطيع.

وقد جاوز محمد عبده مرحلة جمال الدين حين سلك السبيل العقلي في دفع شُبُهات الغرب، فكتب في هذا المجال ما نظلمه كل الظلم لو جعلناه خطابة حماسية فحسب، وتفسيره لكتاب الله، وردّه على هانوتو، وسبحاته الموفقة في رسالة التوحيد، وفي الإسلام والنصرانية، مما ينتمي إلى المنطق العاقل، لا إلى الانفعال المتحمّس.

وقد مضت ثلاثون عاماً بعد رحيله حتى ائتلق كوكب أبي الأعلى المودودي، وتصدّر للقيادة العلمية ذات التمكن، فأتاح له هذا الزمن المديد أن يقرأ ويدرس ما جدّ في ثقافة الغرب وما ظهر في نظمه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية مُعلناً فساده، مما كان مستتراً أيام محمد عبده، ولو عاش محمد عبده حتى أدرك ما أعقب الحرب العالمية الأولى من ظهور الخلل المتهدّم من أسس الحضارة

الأوروبية القائمة على الافتراس من ناحية، والخداع من ناحية أخرى، لكان من المنتظر أن يدرك ما أدركه أبو الأعلى المودودي رضي الله عنه!!.

فلكل زعيم من هؤلاء الثلاثة الكبار فضله السَّبَّاق، وجهده الوثَّاب، وقد كافأهم المسلمون بما يستحقُّون من التوقير والإجلال، ولما عند الله أوفى وأعظم.

نشأ أبو الأعلى المودودي في أسرةٍ كريمة طاهرة، وفي رعاية والد عالم مؤمن، لقَّنه كتاب الله وحديث الرسول في صغره، ومنذ سته الرابعة. أخذ يذهب مع أبيه ليؤدِّي الصلوات الخمس بالمسجد كل يوم.

وقد قال الإمام أبو الأعلى عن والده:

«لقد أحسن تربيتي، وكان إذا سمعني أخطيء في كلمة نهرني، وعلمني النطق السليم، وكان يحكي لي كل مساء قصص الأنبياء والمرسلين، ووقائع التاريخ الإسلامي، وحوادث الهند، واهتم بأخلاقي، فما كان يدعني ألعب مع أقراني ممَّن كانوا على خلق سيئ، وكنت إذا اعتدت عادة سيئة خلَّصني منها، وكان يأخذني معه دائماً عند رفاقه، وكلَّهم على درجة عالية من الثقافة والاتزان، فانتقلت إليَّ من مُجالستهم العادات الفاضلة الحسنة»^(١).

هذه النشأة الصالحة، وهذه المجالس الفكرية المُثمِّرة، قد دفعت الفتى إلى أن ينهل من معين الثقافة المُعاصرة جهد الطاقة، وقد مات والده قبل أن يتمَّ تعليمه الرسمي، فنهض بأعباء الأسرة مُشتغلاً بالصحافة، وهو توفيق من الله إذ جعله في ميدان يتطلَّب الدراسة المتوالية، والثقافة المتصلة، فاستكمل بذلك ما فاته من حجرات الدرس، وساعدته الأوضاع الاستعمارية الظالمة في بلاده إلى أن يفتح عينيه في بقعة ليعرف العدو من الصديق، حين يلتفت فيرى الاستعمار الإنجليزي شديد الوطأة من جهة، ويرى الأغلبية الساحقة من حزب المؤتمر الهندي تحارب الإسلام وتردّد ادّعاءات المحتل، على حين ضمَّت الرابطة الإسلامية أعلاماً لا

(١) مجلة المختار الإسلامي، ص ٨٤، (ربيع الأول، سنة ١٤٠٠).

تعرف من الإسلام سوى اسمه، وهي بعدُ محسوبة عليه فكانت ترى في حركة مصطفى كمال بتركيا أفضل مظهر لتجديد الإسلام، وتبالغ في نشر أعماله، كمَثَل أعلى يجب أن يُحتذى في الهند، فكانها بهذه السطحية الساذجة تشارك قولاً وعملاً حزب المؤتمر في تشويه معاني الإسلام.

وهنا امتلاً أبو الأعلى عزيمة ذات حمية، إذ انبعث ثائراً في وجه الفريقين معاً، فأصدر عدّة صُحف جريئة تنكر على مَنْ يجهل الإسلام أن يتحدّث عنه، وأن يشيد برجل لا يحمل من الإسلام غير اسم ينتسب إلى أبنائه فحسب.

لقد أصدر المودودي صُحفاً تحمل أسماء (ناج) و(مسلم) و(الجمعة) دون أن يعبا لمصادرة الحكومات المتابعة لما يُنشر من صُحف، فأخذ كلما تُصدر صحيفة يُنشئ غيرها، ملتزمة بنهجه الإسلامي الثائر، حتى كَوّن من حوله نفراً من أهل الحق يؤمنون بأهدافه، ووجد خصومه أنفسهم أمام مُعارض ذكي، ومُكافح مُستتير، فحسبوا له ألف حساب، على حين قد امتدّ في دعوته، فأصدر جريدة (ترجمان القرآن) على نحو غير معهود في الصُحف الإسلامية، إذ كانت ميداناً للهجوم الراصد، فالانتصار الساحق، فهي تهاجم في شدّة مَنْ يلصقون الأراجيف بالإسلام، وفيهم وثنيون وهندوكيون وبوذيون، ومسيحيون لا يتقيدون بتعاليم المسيحية، بل يبذلون الجهد المستميت في التبشير بين المسلمين تارةً، وفي تحريف الكَلِم الإسلامي قرأناً وحديثاً عن مواضعه تارةً أخرى!.

لقد انبعثت صحيفة (ترجمان القرآن) لتحدّث بلسان العصر عن قضايا إسلامية تعرض في ثوب جديد، وتتسلسل من منطق مستتير، إذ تحدّثت عن قضايا القدر والجبر والاختيار، وعن الحضارة الإسلامية، ومنزلة الجهاد في الإسلام، وعن الرُّبا والمُعاملات المالية، من حَجَر ورهن وسلم وبيع وشراء، وعن طبيعة الحكم في الإسلام، وعن الأسرة والحجاب وتنظيم النسل، وعن فساد الأنظمة الأوروبية التي يروج لها الأذئاب عن جهل وخداع مما سنلّم بطرف منه بعد حين.

وكان الإمام المودودي مُفجماً في منطقته، فجذب انتباه أنصار الفكرة الإسلامية، واندفعوا يترجمون مقالاته القوية إلى العربية والفارسية والإنجليزية والفرنسية، حتى انتشرت تعاليم الإسلام على يده صحيحة صريحة في ربوع بذل أصحابها جهد الجبابة في تشويه هذه التعاليم، ثم توج ذلك كله بوضع دستور شامل للحكم الإسلامي لا يزال - للآن - أهم مرجع مُعاصر للدارسين.

تجاوز أبو الأعلى مرحلة الدعوة باللسان والقلم إلى مرحلة العمل الحقيقي، حين أَلَف الجماعة الإسلامية لتقوم بتطبيق ما دعا إليه من آراء نظرية في مجال التشريع الإسلامي حكماً وقيادةً ومعاملات، وقد بدأ ذلك بإصدار بيان رنّان قال فيه ما نصّه:

«لا بدّ من وجود جماعة صادقة في دعوتها إلى الله، جماعة تقطع صلتها بكل شيء سوى الله، جماعة تتحمّل السجن والتعذيب والمصادرة وتلفيق الاتهامات، وحياسة الأكاذيب، وتقوى على الجوع والعطش والحرمان والتشريد، وربما القتل والإعدام، جماعة تبذل الأرواح رخيصة وتتنازل عن الأموال بالرضا والخيار، وتقدّم كل ما تملك قرباناً في سبيل إقامة مجتمع الإسلام ونظامه، وإن الذين تتوفّر لديهم الرغبة في ذلك عليهم أن يجتمعوا في لاهور يوم الخامس والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٤١ م لبحث إجراءات تأسيس حركة إسلامية في شكل منظّم.

وسرعان ما استجاب المخلصون إلى نداء المودودي، فسارع إليه الأكفاء من كل أطراف الهند المترامية، فسارع الإمام بطرح دستور الجماعة، تاركاً المجال للمناقشة الصريحة، حيث انتهوا إلى الموافقة التامة».

وبدأ الكيان الإسلامي يتمثل في تجمّع جديد، يقوم بتطبيق ما جاء في دستور الجماعة، وطبيعي أن يواجه المودودي وجماعته حرباً ضارية من ذوي التحلّل والغرض، لأنه طالب بتطبيق الدستور الإسلامي، إذ لا معنى لقيام الباكستان على أساس إسلامي دون أن تعتمد على التشريع الإسلامي، فرآه الحاكمون مصدر خطر على جاههم العريض، وناذبوه العداء، حين رأوه يزور

البلاد محبباً دعوته الإصلاحية، فاتهموه بالشغب، وحكم عليه بالسجن ليقضي عامين طويلين في الغياهب، دون جريمة صادقة.

وإذا كان الخير يأتي من الشر في أحيان كثيرة، فقد كان سجن أبي الأعلى المودودي عامل يقظة للمسلمين في الباكستان، فأخذت الشبيبة المؤمنة تهتف باسمه، وتسعى جاهدة إلى نشر آرائه الإصلاحية، حتى خرج إلى الحرية في مطلع عام ١٩٥٠ منصوراً مؤزراً، فرأى الشعور العام في وطنه مهيباً لتنفيذ الشريعة الإسلامية، فواصل الشيخ الكادح حتى قطف الثمرة، إذ أعلنت الجمعية التأسيسية قرار المبادئ، وفحواه أن تكون الباكستان دولة إسلامية تلتزم بالتشريع القرآني، وذلك كله تتويج لنجاح الجماعة الإسلامية وأميرها الشجاع، ولكن أخطاء التطبيق لا بد أن تحدث، وأي تطبيق عملي يخلو من الأخطاء؟.

فلم يسكت المودودي على الخطأ، وبادر إلى النقد الهادف مستأنفاً رحلاته الدائمة في ربوع البلاد ليجمع الأشياء حول أفكاره، فاصطدم بالحاكمين مرة ثانية، وقد علموا أن لا هناء مع بقائه فاجتروا على الحكم بإعدامه.

ولا تسَلَّ عن ثورة العالم الإسلامي كله في شتّى ربوع الإسلام، وفي داخل الباكستان، إذ انتشرت المظاهرات مطالبة بالإفراج عنه، ومُنذرة بأخطر شقاق، يعصف بالامة الناشئة، فتراجع الخصوم في خجل، واستبدلوا الإعدام بالسجن، ففضى الإمام الصابر في غياهب الاعتقال أصعب فترة من حياته الزمنية، إذ سَلَط السجان عليه إرهاباً وإعصاباً، ومُجافاةً للقانون في عدم تهيئة الضرورات الحيوية لإنسان أودِعَ الغياهب لا لجريمة جنائية بل لاتباع هوى يعصف بالنفوس فتستجيب للنزوات عاصفة بالعدالة.

وكان لا بدّ لليل أن ينجلي، فانقضى عهد الأحكام العرفية في البلاد، وخرج السجين المظلوم ليستأنف جهاده الحيوي، فأثر الرحلة إلى خارج الباكستان ليزور أكثر بلاد الإسلام، ومعه تاريخه الحافل في الدعوة إلى سبيل الله، ومقاومة الطغاة، وما تقدّمه من مؤلفات تُرجمت إلى مختلف اللغات الإسلامية، فأعطت أبناء دينه

فكرة صادقة عن منهجه الإصلاحى ، حتى كان له فى كل بلد يدين بالإسلام حواريون وأنصار يعكفون على مؤلفاته باعتبارها أدسم زاد مُعاصِر يجمع التفكير الإسلامى الصحيح ، وتخصّص مؤلفون فى الفارسية والعربية والتركية لإصدار الأسفار المتوالية عن أهداف أبى الأعلى وأعماله ، مستشهدة بما تجمع فى مؤلفاته من الآراء .

ثم رجع الدّاعية الرّحالة إلى الباكستان لا لينال التقدير على جهاده المشكور ، بل لِيُسَجِّنَ مرّةً ثالثة ، فاهتبل الفرصة لكتابة مؤلفات جديدة تتحدّث عن الإسلام والمسلمين فى ضوء ما شاهد من الرحلات ، وما ناوأه به الغلاة من الخصوم فى الشرق والغرب ، فكان ما كتبه الإمام فى معتقله مصدر خير أكيد ، إذ صحّح الأخطاء ، وعدل المعوجّ من الأفكار ، وهدى الناس إلى نفع جديد .

وأهم ما يعنينا فى هذا المقام أن نبين كيف واجه أبو الأعلى المودودى بريق الحضارة الغربية من ناحية ، وكيف شخص أدواء العالم الإسلامى من ناحية ثانية ، وستكون مؤلفاته ومقالاته مرجعنا الأول فى هذا المجال ، ومحاولة تلخيصها مع وفرتها الزاخرة فى بحث موجز عمل فوق الطاقة البشرية للكاتب ، ولكننا نرسم المخطوط العريضة فحسب .

ومن حُسن الحظ أن أكثر مؤلفات الدّاعية مُترجم إلى العربية ذائع مشهور ، فما رزق داعية إسلامى فى عصرنا الراهن حظوة بالغة فى انتشار مؤلفاته بلغات كثيرة شرقية وغربية ، كما رزق أبو الأعلى المودودى ، وهذا توفيق من الله كبير ، إذ شاءت قدرته القديرة أن يكون صوت الإسلام الحقيقى على يراع المودودى عالى النّبرة ممتد الاتجاه ، وفى هذا عزاء للرجل فى حياته ، عن بعض كفاحه المرير ، وثواب له فى آخرته ، إذ سلك مسلك المُرسّلين ، والعلماء ورثة الأنبياء .

تحدّث المودودى عن بهارج الحضارة الأوروبية ، التى يشتدّق بالدعاية لها أنصارها المغرّرون ، والتى يخدعون بها المسلمين عن الإسلام ، إذ يجعلونها مصدر قوة فى البلاد المتحضّرة ، وأساس رقيّها الاجتماعى والسياسى ، فوجدها

تنحصر في العلمانية، والقومية، والديمقراطية وهي أصنام ثلاثة صارت تُعبد من دون الله، وقد أنحى عليها المودودي بمَعْوَلِهِ حتى تحوَّلت إلى أنقاض.

فالعلمانية - أولاً - تعني عزل الدين عن الحياة الاجتماعية للأفراد، ومعنى ذلك أنها ترى الدين مجرد علاقة فردية بين الإنسان وربِّه فحسب، أما تنفيذ تشريعه في الحياة فشيء لا يلتزم به، وقد جاء هذا الخطأ في فهم علاقة الدين بالمجتمع من الفهم الأوروبي للكنيسة واللاهوت، حيث وقفت الكنيسة أمام الفكر المتحرر، وحاربت كل عقل جادّ يبحث عن الحقائق! ولكن الكنيسة شيء والإسلام شيء آخر، إذ ليس فيه رجال كهنوت يُصادرون حرية الفكر.

وقد كشف أبو الأعلى عن زيف العلمانية حين قرّر أن الفصل بين علاقة الفرد في مجتمعه، وما يفرضه دينه عليه شيء مستحيل، لأن خالق الكون، إما أن يكون السيد الحاكم للإنسان وللعالم، وإما ألا يكون، فإذا كان السيد الحاكم للإنسان فليس من المعقول أن يفرض تشريعاً في كتابه المُنزَّل، ثم لا نأتمر به، وليس من المعقول أن يكون تشريعه مقصوراً على علاقة الفرد به دون علاقته بالمجتمع، حتى نقول إن الدين علاقة بين العبد وربِّه، وليس مصدر تشريع ينظّم علاقة الناس بعضهم ببعض.

وليس أسخف لدى العقول أن يدّعي كل إنسان بمفرده أنه عبد الله وخادم له ومُتَّبِع لدينه، حتى إذا ما اجتمع مع غيره من الأفراد، وكونوا مجتمعاً وشكّلوا دولة تنكروا لعبوديتهم لله.

ونحن إذا لم تكن لنا حاجة إلى هداية الله في مجتمعنا العائلي الصغير، ومجتمعنا الشعبي الكبير، ومجتمعنا الدولي الأكبر، فليس بنا حاجة إلى الله على الإطلاق، إذ ليس الدين إلا طقوساً وتراويل، ثم إن ما يدّعونونه من الحياة الفردية الخاصة ليس إلا مجرد وهم، لأن الإنسان كائن اجتماعي، وحياته في كافة مراحلها حياة اجتماعية، حين نشأ بين أسرته طفلاً، وفي مدرسته تلميذاً، وفي مجتمعه

رجلاً، وهذه النشأة المختلطة تربطه بالآخرين ربطاً لا فكاك منه، وتدعوه إلى اتباع ما سنّه الله في كتابه، فكيف يصبح الدين بعد ذلك علاقة بين الفرد وربّه.

وفي المجتمعات الإلحادية التي كفرت بتشريع السماء نجد القوانين تُوضَع وفق الرغبات العارضة، والأهواء الجامحة، وهي عُرضة للتغيير والتبديل بمجيء عهد، وزوال عهد، فكيف يكون ما يُسنّ من القوانين الوضعية شريعة صالحة، وهي في يوم تحلّ الحلال، وفي يوم آخر تحرّمه وتُبيح الحرام؟.

هذه القوانين الأرضية لا يشعر لها الإنسان في أعماقه بسلطان رادع، فهو إذا ارتكب الجريمة دون أن يراه أحد عدّ نفسه بريئاً غير مذنب ونام ليله وقضى نهاره وادعاً مستريحاً، أما قانون السماء فيُشعرك بالإثم حين ترتكبه، لأن الله غير غافل عنه، وسواء بعد ذلك وقعت تحت طائلة العقاب الدنيوي أم لم تقع، فالقول إذن بما تقول العلمانية من أن الدين علاقة خاصّة بين العبد وربّه، قول زائف لا يعرف مستقرّه الصحيح.

فلإذا رجعنا إلى الافتراض الثاني، وهو أن الله ليس السيّد الحاكم، فلنكن صريحين في الإلحاد، ولنمنع القول الخادع بأن الدين علاقة بين المرء وربّه، إذ كيف توجد علاقة بين إنسان وشيء آخر لا يعتقد أن له سلطاناً عليه؟ وكيف بعد هذا الاعتقاد نهض لدفع رذيلة وتحقيق فضيلة.

هذا عن العلمانية.

أما القومية، فقد انتشرت في أوروبا بادية ذي بدء فراراً من تعسف الباباوات، إذ هبّ رجال الإقطاع من الملوك والأمراء للخلاص من تحكّم الكنيسة والباباوات فنادوا بالقومية ليكون الولاء للوطن وحده، وكانت هذه القومية مصدر خطر مُوَبّق، إذ عملت على إفساد المناهج التعليمية، وتغيير الحقائق التاريخية لتخلق مزايا للوطن الخاصّ لم تكن له، ولتجعل من حكامه الذين يدعون إلى القومية نماذج للأبطال المُكافحين في سبيل الرقيّ.

وقد ترتب على ذلك أن تربّصت كل دولة بجارتها، وأخذت تعدّ الأسباب لاكتساحها تحت نعمة إعزاز الوطن، وإذلال أعدائه فقامت حربان عالميتان في مدى عشرين عاماً تحت نداء القومية، وأثكلت العالم أكثر من عشرين مليوناً من الأنفس، غير ما دمر من المنازل والمعاهد والجامعات والمتاجر، وما مُني به كثير ممّن نجوا من الموت من أمراض دائمة سببها الإشعاع الذري والتدمير المبيد بالقذائف الصاروخية.

وحاولت القومية أن تستر خداعها في الاستيلاء على الدول الضعيفة، فاخترعت أسماء: الرصاية، والانتداب، والحماية، والمخالفة، والتعاون، إلى آخر هذه الكلمات التي فقدت معانيها، وأصبحت أحابيل شرّ، ووسائل اغتصاب.

لقد واجه المودودي دُعاة القومية في صراحة، فاعترف بأن خير الشعب هدف مقصود، على شريطة ألا يستهدف تحطيم الشعوب الأخرى، إذ في ذلك رجوع للجاهلية العمياء، حين تكون مصلحة القبيلة كل شيء، وحين تُبنى هذه المصلحة على سلب القبيلة الأخرى، وتشريد أبنائها، وسبي نسائها، حتى جاز لبعض الشعراء أن يقول:

وأحياناً على بكر أختينا إذا ما لم نجد إلا أختانا

وبمراجعة تاريخ القوميات في المعسكر الغربي، نجد بلاءً صاعقاً أورث الكوارث، وإذا كنّا نعدّ الفرد الذي ييني سعادته على أنقاض فرد آخر أثماً مجرمًا، ونعدّ الأسرة التي تمتصّ خير الأسرة المجاورة معتدية باغية، فكيف بالله لا نعدّ الدولة المُعتدية بأساطيلها ودباباتها وطائراتها على دولة عزلاء باغية مجرمة، بل نعدّها متقدّمة ذات مدنية تحاول نشرها بين الهَمَج والمتوحشين! وأي همجي متوحش في الاثنين؟! الذي يسكن منزله آمناً دون أن يعتدي على أحد، ثم يروع بجبار مفترس، دموي يسلبه أمه، وقد يسلبه حياته؟ أم هو هذا الجبار المفترس، الذي احتذى حذو شريعة الغاب فأعمل براثن الأسود في جسوم الظباء!.

إن الضمير الإنساني يقطع بأن القومية في مدلولها الأوروبي والصهيوني لعنة من لعنات الأثرة والأنانية، وقد ورّطت الدنيا جميعها في حروب طاحنة أزهدت فيها ملايين الأرواح، ولولا تكافؤ السلاح الذري لدى الأمم المتناحرة، لقامت حرب ثالثة، لا تذر من شيء أنت عليه.

نقول ذلك لأن السلاح الذري قد استعمل بقسوة وضراوة في أخريات الحرب العالمية الثانية، حين كان مُلكاً خاصاً لفريق دون فريق!.

وقد أصبح معنى القومية في ألمانيا وإيطاليا وإنجلترا وفرنسا لأعوام كثيرة، مناقضاً لمعنى الإنسانية والعدالة والحرية والإخاء.

لذلك دَعَا الأستاذ أبو الأعلى المودودي أن تظهر الأشياء في مسمياتها الصحيحة، فلا نقول للليل الدّامس: أنت نهار مُضيء، ولا نقول للقومية الأثرة الطامعة: أنت مجد وطن، ومفخرة بلاد، ومشرق تاريخ!.

ونأتي للديمقراطية - وهي القناع الأخير - فنجدها تُوحى في ظاهرها بأن الشعب مصدر السلطات، ولو كان ذلك صحيحاً لجاز أن تكون وسيلة السلامة لدى قوم، ولكن الواقع أن الديمقراطية تقسم البلاد إلى أغلبية مطلقة، وأقلية محدودة، وهنا تخضع قوانين البلاد وأنظمتها في الأخلاق والمدنية والاجتماع إلى رغبات الأكثرية.

وعلينا بعد ما جرّبناه من مرارة وألم أن نبادر إلى المُناداة بمبدأ العالمية، ومن معناها أن نعتقد أن نظام العالم جميعه قائم على التسليم بإرادة الخالق وحده، والخضوع لإرادته التي تجعل الناس جميعاً سواسية دون أدنى تمييز بين جنس أو أرض أو لون أو لغة، وهذا النظام يجب أن يكون فكرياً عقائدياً قائماً على مبادئ إلهية ثابتة لا نعرات قومية متغيرة، وهو نظام لا يُنافي القومية القائمة على حبّ الوطن والعمل على إسعاده ورقّيه، دون المّساس بحقوق الأوطان الأخرى.

وحين نؤمن بالاستقلال القومي، لا ندعو إلى الاحتجاز في مناطق ضيقة من الأرض، ولا إلى سيطرة شعب على شعب بل يتولى كل شعب أمره بنفسه،

فتتكاثف البشرية جمعاء على الإسعاد المشترك، والتعاون المتكامل، حتى ليصدق على الجميع قول الشاعر الكبير محمد إقبال (كل البلاد موطني لأنها بلاد ربّي).

وإذا استقرّ هذا الاعتبار الإنساني لدى كل أمة فقد رفرف علم السلام، على أن يتوافر الشعور التام بأن الأرض جميعها لله، وإنما البشر خلفاء الله في أرضه يعملون بأمره، وينفذون ما شرعه للناس.

وفي مجال الاجتهاد التشريعي أفاض أبو الأعلى في أصول إسلامية ممتازة تُشير إليها دون أن نجد السبيل إلى إيجازها، لأن مواد التشريع لا توجز، فلكل لفظ مدلوله ومحترزه، واختصاره يخلّ ولا يفيد.

أما تشخيص الدواء لما يشيع في جسم العالم الإسلامي من داء فما أكثر ما خاض أبو الأعلى فيه كاتباً ومُحاضراً ومؤلفاً ومُحاوراً ومُناظراً، وخُلاصة ما قال: إن الإسلام لا يزال يعطي الدليل على قوّته، فما قامت ثورة من ثورات التحرير الصادقة إلّا اعتمدت على آيات القرآن وتوجيهات التشريع، وفي هذه الحركات التحريرية انتفاضات صادقة تحبّ الدين باطناً وظاهراً وانتفاضات ادّعائية تنادي بالدين لتجذب إليها أعناق المؤمنين، وهي في باطنها الدّفين تخصمه وتُظهر له العداء، ودليل ذلك أنها لا تعمل على تنفيذ شريعته.

وقد جال الإمام المودودي في شتى ممالك الإسلام ودرس تواريخ الأمم الإسلامية، فعرف أن الإسلام كان مصدر انتصار المنتصرين، نادت به الثورة الجزائرية حين كانت البلاد في قبضة الفرنسيين، فوجدت من الشعب المسلم كلّ معين، بل نادى به مصطفى كمال نفسه حين تقدّم لمحاربة اليونانيين، فجمع خلفه الجموع، وكسب النصر باسم الإسلام، ثم حين تمكّن حبّه من النفوس، وملك الرّقاب ظهرت خبيثته الدفينة، فانتفض على ما كان من أسباب نصره، وموضع فخاره، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرَدّ له.

والمأساة كل المأساة يُفصح عنها العلامة المودودي بقوله:

«في كل بلد إسلامي درست تاريخه تجد هذه الظاهرة، تلعب دورها - دور الولاء الظاهري للإسلام - حتى تكسب الثمرات، ثم الانتفاض عليه، إذ نجد الذين بيدهم أزمة القيادة والتوجيه، بعيدين عن الإسلام لا يجدون في أنفسهم ميلاً إلى تطبيقه، لأنهم تثقفوا بثقافة تبدلت بها مقاييسهم للقيم، وتبدلت بها خصالهم، وبهرت عيونهم حضارة أخرى غير حضارة الإسلام، وأخذ بمجامع قلوبهم منهاج غير منهاج الإسلام، وكانت الجماهير الإسلامية مضطرة إلى إسناد القيادة إليهم طوعاً أو كرهاً، ثم إن ما حققه هؤلاء القوم من الانتصارات قد حققوها باستشارة جذوة المسلمين الإسلامية، وما من معركة تحريرية تحقق انتصارها إلا بهذه الطريقة نفسها»^(١).

وموقف الإمام المودودي من الماركسية أشهر من أن يُشار إليه، فقد كتب عنها ما صار سلاحاً باتراً لدى كل كاتب إسلامي لأن علم المودودي الموسوعي، وعقله المبلور، وفكره المستنبط، ونظره العميق إلى شتى حركات الانقلاب في الكتلة الشرقية مما جعله يضع النقاط على الحروف، والحق أن مفكراً كبيراً من طراز المودودي يجب ألا تخلو مكتبة في بيت كل مسلم من مؤلفاته، إذ يعطي المسلم ما لا يجده عند سواه، وكأنه في إعطائه الفسيح الزاخر مؤيد بروح الله!

ونحن لا نبخس أدوار الذين حاربوا معه في شتى ممالك الإسلام وبلاده في اتجاه واحد ولكن الحق يُوجب أن نقول: إنه - نضر الله ثراه - كان قائداً معلماً بين جنود بواسل كماء.

ومن أفضح الأكاذيب التي أُلصقت بأبي الأعلى المودودي: اتّهامه بأنه يدعو إلى حمل السلاح أمام مُخالفيه، وهو ما تبرأ منه مؤلفاته جميعاً، وكلها بين أيدينا كاملة غير منقوصة، وكتاب الجهاد في الإسلام أولى الكتب بالحديث عن حمل السلاح، إذا كان مما يرى العلامة، ولكنه على النقيض من ذلك يدعو إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

(١) مجلة الأزهر، ص ٣٢٧، (صفر، ١٣٩٩).

وقد عهدنا كثيراً أن تُلصق تُهَمّ الدماء والاغتيال بالأطهار من الشرفاء، رغبةً في تلوّث اتجاهاتهم النبيلة، فكأن هؤلاء المفترين وقد عجزوا عن الحوار الحرّ عن طريق المنطق السديد لم يشاؤوا أن يتركوا الصحيح صحيحاً، فحاولوا إثارة الغبار بالباطل كي يقذي العيون.

ولعلّ أمير الجماعة اليوم (مولانا غلام أعظم) خليفة الإمام المودودي قد جلا هذا المعنى في إجابته عن سؤال صريح فقال^(١):

«الحكومات السابقة كانت لا تجد اتّهاماً حقيقياً فتلجأ إلى الاختلاق كي تنال من الجماعة عن طريق تشويه السمعة، فمولانا المودودي يعارض بشدّة استخدام السلاح في الدعوة، وقد طلب منه الجيل الجديد عدّة مرّات السّماح له بالدفاع عن النفس باستعمال القوة ضدّ العناصر المُعارضة التي تستعمل القوة في مواجهة الجماعة، ولكنه أبى عليهم ذلك، لأن الإسلام إذا لم يكن حاكماً فاستعمال أبناؤه السلاح يُعدّ بمشابهة انتحار، ويسوق دليلاً على ذلك بعدم سماح رسول الله ﷺ لأصحابه في العهد المكي باستعمال القوة ضدّ هؤلاء الذين كانوا يعذبونهم ويضطهدونهم، ولم يسمح لهم بذلك إلّا بعد انتقالهم إلى المدينة وتكوين الدولة الإسلامية».

لقد لبّى المودودي نداء ربّه راضياً مرضياً بعد جهادٍ ظافرٍ سيكون وسيلته إلى الخطوة برضوان الله، مع أسلافه من كبار الدّعاة الذين جعلوا الإسلام شغلهم الشاغل في الحياة، فاعتزّوا به، واعتزّ بهم، وسيكون موضع مُباهاتهم الفاخرة يوم يقوم الناس لربّ العالمين.

(١) مجلة الدعوة، العدد (١٧)، ص ٩، ذو القعدة، سنة ١٣٩٧ هـ.

الشيخ محمد أحمد عرفة ناقد تعددت صولاته، واتسعت ميادينه

- ١ -

هو ناقد، بل فارس تعددت صولاته، واتسعت ميادينه، لا أقول ذلك اقتناصاً لصورة بلاغية تزين التعبير، بل أقوله تعبيراً عن حقيقة واقعية، يجب أن تكون ذائفة مُشتهرة بين الدارسين لأن تاريخ المعارك الفكرية لدينا في حاجة إلى تسجيل شامل مطمئن يحفظ حقوق قوم أدوا كرامة العلم نقاشاً ونقداً وتجريحاً وتعديلاً ثم مضوا عن هذه الحياة في صمت لاذع، حيث تُجوهلت أقدارهم وتُنوسيت فضائلهم، لأنهم لم يصطنعوا طُبولاً تدق من ورائهم لتقدم جزاء ما سلف إليها مُحابة.

فما أكثر هؤلاء الذين يتجاهلون ذوي الفضل، لا شيء إلا لأنهم كانوا يسرون على الصراط القويم، وما أكثر هؤلاء الذين يدقون الطبول لذوي الشهرة العريضة، لا شيء سوى أنهم كانوا بعض ذبولهم المندفعة وراءهم في كل اتجاه، وإلا فكيف تفسر سكوت الأقلام عن فرسان كبار من ذوي المعارك الفكرية، أمثال: أحمد زكي باشا، ومحمد أحمد عرفة، ومحمد لطفي جمعة، ومحمد الخضر حسين، ومحمد فريد وجدي، ومحمد أحمد الغمراوي، وقد تركوا من الآثار الناهضة ما يشهد لهم بالفضل الكبير، ثم اتجاهاها إلى ترداد الذائع المتعالم عن المشاهير، دون إضافة سطر واحد إلى هذا الذائع المتعالم، إلا أن يكون الحق قد

عدم أنصاره، وللحق صمت محدود الزمن، ولكنه لا بد أن ينطق بأبلغ لسان حين تحين الساعة، وينتبه الراقدون.

انتسب الطالب محمد أحمد عرفة للأزهر عقب وفاة الإمام محمد عبده، وقد فاضت الصُحف في تعداد مآثره، فلفتت ذهنه إلى مثالٍ نادر من العلماء الذين يحملون أمانة القلم هدياً وإصلاحاً، ثم وقع في يده كتاب «نهج البلاغة» بشرح الأستاذ الإمام، فأقبل على حفظ روائع عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، مشروحة بقلم الإمام المصلح، وكان الأزهر حينئذٍ يكتفي بكتب العلم عن كتب الأدب، فمن اقتصر من طلابه على متونه وحواشيه فقد قبع في زاوية ضيقة، ومن أرشدته تعاليم الإمام إلى كتب التراث بعامة فقد نظر إلى الدنيا ببصر ثاقب.

لذلك كان محمد عرفة من الفريق الثاني، الذي جمع بين الاتجاهين في عهد الطلب، وكان للجرائد على عهده كتاب كبار، من أمثال: المتفلوطي، والمويلحي، والبرقوقي، وعلي يوسف، وعبد الكريم سليمان، ومحمد شاكر، وكلهم أزهيون يحملون أمانة الكلمة، ويمهّدون الطريق لجيلٍ لاحق من العلماء، يخرج عن نطاق الشروح والمتون إلى معالجة شؤون الساعة وأحداث العصر، ف جذبوا أعلام الناشئة من الأزهريين إلى ميدان الكتابة الصحفية، وفسحوا المجال لأسماء مؤمنة مستنيرة، أخذت تشرق في الصحف اليومية مُرشدة هادية، ومناقشة نافذة.

ومن هذه الطليعة الناهضة أسماء: محمود أبو العيون، وعلي سرور الزنكلوني، وعبد الباقي سرور نعيم، ومحمود شلتوت، ومحمد سليمان، وعبد المتعال الصعيدي، ومحمد أحمد عرفة الذي نخّصه بدراسة اليوم مُنصفين غير متزידين.

ولم يكد عرفة يفرغ من دراسته الأزهرية، وينتقل إلى التدريس بعد تفوّقه في امتحان العالمية، حتى شغلت الجرائد بقانون ٢٥ لسنة ١٩٢٠ الخاص بالأحوال الشخصية، حيث رأى المشرّع أن يعدل عن قانون ٢١ لسنة ١٩١٠ الذي نصّ

على وجوب العمل بالراجح من مذهب أبي حنيفة، وبمذهب أبي يوسف في مقدار المهر ومسائل أخرى، إذ رأى واضعو القانون الأخير أن تتسع دائرة الأخذ من أحكام الأئمة، لتُجيز للقاضي أن يحكم بغير مذهبه، وبالضعيف منه إذا رُوِّعَت المصلحة.

وهي مناسبة فسيحة لانطلاق الأفكار المجددة في محيط التشريع الإسلامي، وقد دفعت بالشيخ محمد عرفة إلى كتابة سلسلة من البحوث الفقهية، فكان أول من أوجب إعادة النظر في الطلاق المعلق، وطلاق الغضبان والمُكره، وطلاق ثلاثة الأيمان بلفظ واحد.

وأخذ ينتقي من نصوص السابقين ما يؤيد منحاها، ويفسّر الآيات والأحاديث تفسيراً يتّجه لليسر السهل، لا إلى التشديد الصعب، ولم يشأ أن يمهر مقالاته باسمه الصريح، بل رمز إليه بحرفي (م.ع.) كيلا تكون حدائته العلمية مانعة دون النظر في آرائه، وقد كانت آراؤه مصدر نقاش متصل بين المُشرعين الكبار، وقد جعلوا يتساءلون في لهفة عن صاحبها، مُقدّرين أنه من ذوي المناصب العالية في الأزهر والمحاكم الشرعية، حتى تسنى لهم أن يهتدوا إليه بعد أن تمخّض الجدل عن حقائق جديدة، وجدت طريقها إلى بعض العقول، ونحن إذا رجعنا إلى ما كتبه الشيخ المراغي من بحوث تالية تمخّضت عن قانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩، نجد أن كل ما جاء به الأستاذ عَرَفَة قد وافق تفكير الإمام المراغي، ولا ندعي أن الرجل الكبير قد سَطَا على أقواله، بل نقول: إن الإخلاص للحقيقة قد صادف توافقاً بين الشيخين.

وقد زاد المراغي زيادة ممتازة حين كتب مذكرته التفسيرية لقانون رقم ٢٥، فبدأها بفصول جيّدة عن التشريع، تتحدّث عن مسائل قوية من قضايا علم الأصول، إذ فسّر معنى الاجتهاد، ووازن بين المجتهد المطلق، والمجتهد المقيد، وحدّد المراد بلفظي التجديد والتقليد، وأكد ضرورة الرجوع إلى غير أصحاب المذاهب الأربعة المشتهرة.

كما تحدّث عن قضاء القاضي بغير مذهبه حيناً، وبالضعيف المرجوح منه حيناً آخر، وأفاض في تغيير الأحكام بتغيّر الزمان والمكان والعُرف، حتى إذا فرغ من ذلك كله في إشباع وإقناع أخذ يعرض مواد القانون الجديد في هدي ما قدّم من قواعد ونقول، عن الأئمة الكبار.

وقد تحدّث الشيخ عرفة عن صنيعه هذا فقال في وضوح عن أبحاثه تلك: «لقد أثارت بعض المُحافظين فردّوا عليها، ولكنها كانت حجراً ألقى في الماء الرائد، فنُبّهت الأذهان، وفعلت فعلها حتى صدر قانون المحاكم الشرعية بعد ذلك مُطابقاً لكل ما اقترحت، فإن كان ذلك قد حفظ الأسرة المصرية من التداعي والانهار، وحفظ الأبناء من الشتات والضياع، فعند الله أحتسب ما صنعت، وأدّخر ما قدّمت»^(١).

رَشّحت هذه الدراسات الفقهية صاحبها ليكون أستاذاً بكلية الشريعة الإسلامية عقب إنشائها، فوكيلاً لها، فأُتيح له المجال كي ينهض بدراسة الأحكام الفقهية في جوٍّ أرحب، ومع عقول لا ينقصها الاستعداد.

وقد رأس جماعة من زملائه ليعملوا بتوجيهه على كتابة مؤلّف يشمل آيات الأحكام القرآنية في أجزاء أربعة، يختصّ كل جزء بعام دراسي من أعوام الكلية.

وآيات الأحكام القرآنية قد وجدت مَنْ يهتم بها من السابقين، ولكن على نحوٍ مذهبي محدود، فتفسير آيات الأحكام الذي كتبه الجصاص يتجه وجهة الأحناف، وتفسير آيات الأحكام الذي كتبه ألكيا الهراسي يتجه وجهة الشافعية، وتفسير آيات الأحكام الذي كتبه ابن العربي يتجه وجهة المالكية، وللأخير قسوة مُفرّطة حين يتناول الرأي المُخالف، وكأنه يناقش خصوصاً لا أئمة يتجهون معه نحو هدف واحد.

(١) عن الجزء الثالث من كتاب (الأزهر في ألف عام)، ص ١٠٧، نقلاً عن مقال نشره الأستاذ محمد عرفة بجريدة المصري، (يونيه، سنة ١٩٥٢ م).

فرأى الأستاذ عرفة أن يكون تفسيره لآيات الأحكام شاملاً وجهات متعددة بحيث لا يقف عند المذاهب الأربعة في بعض ما يتجه إليه إذا كانت الحاجة ملزمة إلى فضاء أوسع.

وأضرب لذلك بما كتبه في آيات الوصية، حيث رأى أن يكون الوارث بعض من يختص بالوصية إذا دعت ضرورة إنسانية لتفضيله، وجمع من النصوص ما يؤيد منحه، وأزال من بعضها ما يُشتم منه رائحة التعارض بالتأويل والتخريج، ودراسة الأحكام القرآنية في هذا الأفق العالي ذات نور يوحى بالهداية إذ هي خطوة متسعة لشمول الشريعة، وإيفائها بمتطلبات الحياة على وجه لا تعوقه الأسداد.

وإذا كنا قد بدأنا بالناحية التشريعية من جهاد الرجل الفاضل فلن نغفل نقداته الأصولية الكبيرة لدائرة المعارف الإسلامية، حين همّ بترجمتها إلى العربية نفر من الشباب الجاد، فقد قرأ الأستاذ أجزاء المجلد الأول في اهتمام، ووجد في بعض المواد ما أخطأ سبيله عن عمد قاصد، فشرع ينشر في الصحف والمجلات تصويباته الفقهية والتاريخية، وينادي بوجوب التعليق على المواد العلمية في الحواشي، حين يكون المكتوب خطأ منحرفاً عن الصواب.

وقد استجاب القائمون على أمر الدائرة لاقتراحه، فأخذنا نقرأ نقود الأعلام من الدارسين لما يُقال على غير وجهه، ومن أبرز ما جلى فيه الكاتب ما نشره خاصاً بمادة (الإجماع) الأصولية، إذ خبط كاتب هذه المادة خبطاً عشوائياً في موضوع أصولي دقيق لا ينهض به غير فقيه راسخ، فزعم أن الإجماع قد ينقض ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله، وأنه قد حدث بالفعل في تاريخ الفقه الإسلامي، وادّعى أن للمسلمين أن يحملوا دينهم ما يشاؤون من الآراء المستحدثة إذا وافقوا عليها مهما كانت مخالفة للنص الصريح، فيكون في مقدور أئمتهم أن يلحقوا بالشرع الإسلامي ما ليس فيه، وكأنهم غير مسلمين إذ لا يتقيدون بنص من كتاب أو حديث!!.

ثم يستدلّ كاتب المادة بالإجماع الدّالّ على التوسّل بالأولياء، حيث صار أمراً جديداً أُضيف إلى الدين، وهو استدلال فاسد، إذ لا إجماع على التوسّل كما زعم، وإنما هو خبط يتعمّده مستشرق غير متخصص، وأظهر هذه الآراء خطيرة ما ادّعاه من امتداد الإجماع إلى دائرة العقائد فيما يُعرّف بعلم التوحيد، مع أن الإجماع في علم الأصول خاص بالفروع العلمية في أحكامها الفقهية.

ولسنا نريد أن نناقش هذه الآراء فننقل عن الأستاذ عرفة ما نسفها به من حق صريح، ولكننا نشير إلى مكان الردّ في المجلد الخامس من مجلة الأزهر ص ٥٦٠ وما بعدها، كما تضمن هذا المجلد نقاشاً آخر حول الحج في الإسلام، إذ جاءت أحكامه في الدائرة مشوّهة تتطلّب التصحيح، كما تضمّن المجلد فصلاً رائعاً عن تصحيح ما قيل في الدائرة عن أبي هريرة رضي الله عنه!.

وأنا أعجب للذين يُفردون الكتب في ثلب هذا الصحابي الجليل، متّخذين من بذور دائرة المعارف سُموماً قاتلة للبحث العلمي النزيه! أعجب لهؤلاء كيف سكتوا عن نقاش الأستاذ عرفة لما كتب، إذ أبطل الباطل في منطق صريح، وإذا كانوا لم يقتنعوا به فلم لم يردّوا عليه؟ ولم اعتمدوا على السّموم القاتلة التي تصيّدونها للمستشرقون من الأخبار الضعيفة والروايات المكذوبة وحدها!! وكأن لهم غرضاً حقيقياً في إلباس الباطل زيّ الحق، حيث يُظهِرونه خالياً من نقود الفاقهين، وكأنه صحيح لا بُس فيه! وأذكر أن القائمين على نشر الدائرة قد انتفعوا بكثير من آراء الشيخ حين انتدبوه إلى كتابة تعليقات مصحّحة فيما جدّ من أجزاء الدائرة، فأبلى مع غيره من كبار المعقّبين أحسن البلاء.

وحين انتشر بلاء التبشير في أوائل العقد الثالث من هذا القرن، نشط الأزهر إلى تأليف لجنة من كبار العلماء، للدفاع عن الإسلام، بكتابة أبواب هادفة في كتب موجزة، تتحدّث عن أصول الإسلام ومحاسنه، فكتب الكبار من أمثال الشيوخ: يوسف الدجوي، وإبراهيم الجبالي، ومحمد الخضر حسين فصولاً هاديةً وُرّعت على الناس، وترجم أكثرها إلى مختلف اللغات.

وقد قام الأستاذ محمد أحمد عرفة بواجبه حين ألف رسالته الموجزة تحت عنوان: (السّر في انتشار الإسلام) فأوضح أن انتشار الإسلام يرجع إلى أمرين: يرجع إلى أصوله الأخلاقية في الهداية والتشريع، وإلى سلوك الداعي إليه، وأتباعه المثل الأعلى في الحياة، وهو إجمالاً قام المؤلف بتفصيله حين أوضح رسالة الحق والخير والجمال في الإسلام، وعلى وجه صريح تسنده النصوص والوقائع، وقد ترك الأقوال الصريحة من كتاب الله تنطق بما يجلو الصواب، وفي مجال الحديث عن رسول الله أتى بفضائله الذاتية كما اشتهرت عنه من حلم وعفو وتسامح وتواضع وصبر وكرم مُفْرِط، وهي صفات تجد دليلاً ملموساً من الواقع المتواتر، ثم تحدّث عمّا زعمه الزاعمون من انتشار الإسلام بالسيف فأبطله بالحق الملمزم، ورأى في أحداث التاريخ أيام الفتوح من سلوك أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وعمر بن العاص ما نصر الحق على يده، وقد ترجم ما كتبه الأستاذ إلى لغات مختلفة فعاد بخير كثير.

أما كتاب (نقض مطاعن في القرآن الكريم) فقد ردّ به الأستاذ عرفة على محاضرات قرآنية ألقاها الدكتور طه حسين بكلية الآداب، تشبع فيها بما كتبه المستشرق «كازانوف» عن القسم المكي في القرآن، وقصر سورة وخلوها في زعمه من المنطق والنقاش، على عكس ما يرى في القسم المدني، إذ كانت سورة مُسَهَّبة ذات حوار وعقل! كما تورّط الدكتور في الحديث عن لفظة قرآن بما لا ينتمي للحق، وعن أوائل بعض السور المبدوءة بالحروف أمثال؛ ق، ص، يس، حم، وكلّ ذلك كان يتطلّب الردّ الملجم، وهو ما نهض به الأستاذ عن اقتدار وبقظة وعمق.

ولن نخالف الواقع حين نقول: إن الدكتور طه حسين قد ترك هذه الآراء الهابطة معتقداً بطلانها، لأن ما جاء في كتابه الرائع (في مرآة الإسلام) عن القرآن الكريم، يعصف بهذه الأكاذيب، وحسبنا منه أنه تراجع عن شسطه، حين سحب كهولته المظمتة بعيداً عن تسرّع الشباب، وليس يجوز لنا الآن أن نُسْرِف في تعداد

هذه السّقطات التي أسقطها من حسابه فلم يجمعها في كتاب منشور، وإن أساء
بإلقائها على الطلاب.

وقد وقف الدكتور عبد الحميد سعيد رحمه الله منه موقف الكرامة حين ندّد
بأراجيفه الظالمة في مجلس النّوّاب، ودعا إلى التزام الحق حول كتاب الله! وفيمن
كتبوا تاريخ الدكتور طه من ينتقصون صنيع الدكتور عبد الحميد سعيد ويعدّونه
ممثلاً للرجعية! هكذا قالوا في أكثر من كتاب!! وهؤلاء أذئاب تتحرّك تابعة مُسخّرة
دون استقلال، إذ كيف يخطيء أستاذ في كتاب الله خطأ شديد العوار، فإذا قام من
يحتجّ على خطئه الفادح عُدّ رجعيّاً متخلّفاً!! إلّا أن نكون في هذا النظر قد تركنا
الإسلام جانباً لتتّلف للمبشرين لأننا ذبول.

وإذا كنّا قد سكتنا عن ردّ الأستاذ على هذه الافتراءات بعد أن تراجع عنها
صاحبها، فلن نسكت عن إبداعه الرائع في كتابه الجادّ، حين تحدّث عن السياسة
الإلحادية في التعليم، فبيّن أن الذين ينشرون الإلحاد في صفوف الناشئة وبين
جماعات الأمة قد تعلموا تعليماً ناقصاً، فلا هم مع العامّة في جهلهم الطبيعي، ولا
مع الخاصّة في تغلغلهم العاصم من الخطأ، ولو فهموا العلم حقّ فهمه لآمنوا
إيمان العلماء، ممّن رأوا قدرة الله واضحة فيما درسوه من مظاهر الكون ومشاهد
الطبيعة، ونحن نعرف أن بعض الذين يتمسكون بحرية النقد الأدبي، لا يمشون
مع الحرية في وجهها الصحيح، لأن أساس هذه الحرية أن تكون مستقلاً لا تابعاً
وما جاء الدين مُعارضاً للعلم في شيء من حقائقه لدى الأصلاء الفاهمين، ولكن
الذين يتصيّدون الشُّبهات هم الذين يحتاجون إلى التّؤدة والتّثبت ليعلموا أن النقد
نظر جادّ هادف، وليس وثباً خاطفاً في الطريق، هذا بعض ما أفاض فيه المؤلّف
عن أصالة وإبداع، فقدّم المثل على شجاعة الخلق، وأمانة العلم، واستقامة
الدليل.

لنا أن نترك ميدان التشريع والأصول إلى ميدان البلاغة واللغة والنحو، مما يُعرَف بالعلوم اللسانية، إذ إن نضال الشيخ في ساحاتها العريضة قد أثمر أطيّب الثمر، حيث قُدِّرَ له أن يترك كلية الشريعة الإسلامية إلى كلية اللغة العربية، ليتداول تدريس علوم مختلفة بها فيتفوّق على المشاهير!.

وإنني لأعجب كلّ العجب حين أجد الكليّات المتخصّصة الآن لا تستطيع أن تُخرِج عالِماً كبيراً في ميدان دراستها إلّا بجهدٍ جاهد، وعلى ندرة نادرة تَجعله في مكان الشذوذ، أما الأستاذ محمد عرفة، ومحمد الخضر حسين، ومحمد علي النجار، فقد تعلّموا تعليماً عامّاً غير متخصّص، بحيث كانت علوم الشريعة، وعلوم اللغة، وعلوم العقائد، تُلقى عليهم في مستوى واحد، ثم تجد الواحد منهم يكتب في كل علم وكأنه أفرغ له حياته العلمية، بحيث لا تتّسع لسواه.

ها نحن أولاء نرى الأستاذ عرفة يتّجه إلى كلية اللغة، فيدرس الفلسفة وبرع في مسائلها، ثم يختار في تخصّص الأستاذية لتدريس الأدب والبلاغة، فيفرض على الطلاب دراسة مستوعبة لكتب التراث النقدي، لم تكن مما درسه الأزهر من قبل، إذ يتخصّص كل طالب في دراسة أمثال: قدامة، وأبي هلال، وابن طباطبا، وابن سنان الخفاجي، والباقلاني، والآمدي، والجرجاني قرابة عام، ليعدّ بحثاً مبدئياً يتعهده الشيخ في كل خطوة من خطوات تكوينه، حتى إذا استوى على سوقه شدّبه وهذّبه، ودفع به إلى مجلة الأزهر ليُنشر على حلقات.

وقد كان الأزهر منذ عهد الإمام محمد عبده يبدأ زميناً بكتب المدرسة السكاكية، فيدرس في البلاغة آثار السعد التفتازاني، والسيد الجرجاني، والخطيب القزويني، وما يدور حولها من الحواشي والشروح، حتى يرتقي في السنوات الخاتمة إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، وعندهما يقف، فجاء الشيخ عرفة وارتفع بالسلسلة إلى عهد الجاحظ صاحب أول كتاب في البيان والتبيين، فإذا أضفنا إلى ذلك بحوثه البلاغية التي نشرها بإمضاء (م.ع.) في مجلة الأزهر عن

التجريد والتشبيه، والذكر والحذف، بالمجلد الرابع والعشرين لسنة ١٩٥٢ م، عرفنا كيف قام الرجل بنصيبه الأوفى في هذا المجال.

فإذا كان الحديث عن النحو والنحاة، فلن يُنكر مكان الأستاذ لدى الدارسين، إذ كان أحد قطبي معركة إحياء النحو، يوم أن أَلَف الأستاذ الكبير إبراهيم مصطفى كتابه التجديدي ودفع به إلى الدارسين، فكان أول صوت رنان مُعاصر ارتفع بصيحة الابتكار النحوي.

وواضح أننا لن نبخس الناس أشياءهم، حين نجدهم يعكفون على البحث الخالص، ليخرجوا بنتائج جديدة، مهما كانت تجد المخالف، فحسب الأستاذ إبراهيم مصطفى أنه ترهّب في دير النحو سبع سنوات، ليبرز كتابه للناس، والذين يقرؤون كتب النحاة منذ سيبويه إلى عهد الأستاذ، يعرفون أنه كان يشقّ طريقه في الصخر مع كتب دقيقة، تستخدم الفلسفة والمنطق في التعبير، لتمضي بالقارئ إلى أدغال مرهوبة ذات آساد ونمور.

وقد كان الأستاذ محمد عرفة على سطوته العلمية في الردّ، يعرف لصاحبه ما لاقاه في نضاله من أهوال، إذ خاض ما خاض من أمواج، وقد ألمع إلى ذلك في طيّات كتابه، حين عارضه في مسألة التنوين، وكونه علامة للتنكير في رأي الأستاذ إبراهيم مصطفى، فقال الأستاذ عرفة ص ٢٣١ من كتاب «النحو والنحاة».

«أما مؤلف الكتاب فلم يشأ أن يرفض أن التنوين علم التنكير، وذهب يتلمّس وجوهاً تجعل ما نُؤنّ من الأعلام نكرات، وما لم يُنوّن من الأوصاف والجموع معارف، وفي الحق أنه ركب كل صعب وذلول، والتمس وجوهاً خفيّة، لتطرد له هذه العلامة وتنعكس، وإني أرى أن الإنصاف يحتم عليّ أن أعلن إعجابي بهذا الجهد الذي بذله في العلم، ليُكسب ما نُؤنّ صفة التنكير.

ثم قال بعد أن نقد رأيه: لذلك نرى من الإنصاف أن نحمد للمؤلف هذا الجهد، ونرى من الحق أن نرفض ما ذهب إليه، فقد بلغ جهده ومَن بلغ جهده بلغ عذره».

وكيلا يتطوَّح بنا القلم إلى منادح رحبية، نوجز آراء الأستاذ إبراهيم مصطفى التي نقضها الأستاذ محمد عرفة في هذه الأمور الأربعة، وقد لخصها الناقد ص ١٤ من كتاب النحو والنحاة:

١ - نقد النحويين في قصرهم مباحث النحو على الإعراب والبناء، دون أن يبحثوا خصائص الكلام من تقديم وتأخير، ونفي واستفهام، وإثبات وتوكيد.

٢ - الرد على النحاة في زعمهم أن الإعراب أثر لفظي لا معنوي.

٣ - نقد النحاة في زعمهم أن الحركات اجتلبها العامل، وإثبات أن المتكلم هو الذي أحدثها.

٤ - إثبات أن التنوين علم التنكير، فلك في كل علم ألا تنونه!

ثم تكفل كتاب «النحو والنحاة» بالرد عليها جميعاً بما يعرفه الدارسون، ومن يتعرض للموازنة بين الناقد والمنقود، لا بد أن يكون في مقامهما النحوي من جهة، وأن يفرد مؤلفاً خاصاً بهذه الناحية، ليتسع لكل ما قيل، من جهة ثانية، وأين أنا من هذين؟ ولكني أشير إلى تضلع الأستاذ عرفة في فنه، ووثوبه الظافر في اجتهاده، وانتحائه منحى المنطق الملزم في نقاشه، فهو في حديثه عن العامل يفترض الفروض في كون الأفعال والحروف والأسماء قد عملت الرفع والنصب والجرّ والجزم فيقول في تساؤل: لا جائز أن تكون فاعلة بالإرادة، لأننا نعلم أنها لا إرادة لها، إذ لا حياة فيها، ولا جائز أن تكون فاعلة بالطبيعة، لأن الفاعل بالطبيعة لا يتخلف أثره، فالنار مهما وُجِدَتْ أحرقت، وهذه ليست كذلك.

ثم يستمر في افتراضياته العلمية حتى ينتهي إلى أن النحاة قد أدركوا ما أدرك المؤلف، ولكنهم جعلوا العامل سبباً فحسب، وله في ذلك بيان رائع متدفق، في تسلسل المقررات العلمية، وأشدّ روعةً ونصوعاً وتدفقاً في تصوير الحيرة العلمية التي تكتنف الباحث في خطواته الفكرية. وأيّ تصوير أبلغ من قوله في تصوير هذه الحيرة^(١):

(١) النحو والنحاة، ص ٧٩.

«لا يظن ظان أن هذه البحوث كانت متسلسلة، وبهذه السرعة التي يشعر بها قارئ هذا الكتاب، كلا، لم يكن الأمر كذلك، فقد كنّا نُبدىء ونُعيد، ونهتدي ونضلّ، ونسير على الجادة أحياناً، ونعتسف أحياناً، وإذا وجدنا شيئاً من الضوء مشيناً، وإذا أظلم علينا الأمر وقفنا، وربما طال بنا الوقوف، سنين معدودة، وربما بدّا لنا سراب فيخلناه ماء، وفرحنا الفرح كله، فلما قربنا منه وثبتناه بدّا لنا خداعه، وعادل فرحنا بجلاء الحقيقة حزننا على فوات المطلوب».

وتلك حالة يعرفها الأصلاء من الباحثين، وهي في حاجة إلى شاعر مصوّر ليمتدّ بها إلى أفصح ما يستطيع من رصد الخوارج العائرة بين الأمل واليأس، والخيبة والنجاح.

وقد قال الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي في تصدير الكتاب، وهو من غناه المؤلف بقوله عنه (تقديم الكتاب لعلم من أعلام العلم والبيان) إذ شاء المراغي ألاّ يُفصح عن نفسه كيلا يدخل طرفاً رابعاً في النقاش، كما أجاز الدكتور طه حسين لنفسه أن يكون طرفاً ثالثاً، حيث قال في تقديم إحياء النحو، إنه كان يراجع الأستاذ إبراهيم مصطفى في مسأله، ويتفاهم معه مباحثه، فهو ليس جديداً عنده، قال الأستاذ المراغي^(١):

«لم يظهر لي مثال واضح على أن العلوم يسقي بعضها بعضاً، ويُعين بعضها على بعض، كما ظهر لي في هذا الكتاب، فحن في علم العربية، وفي علم النحو خاصّة، فما دخل الفلسفة؟ وإنها لأبعد الأمور غناء في هذا الموضوع، ولكن لشدّ ما أغنت وأجدت حين استوحاها في مسألة العامل وردّ الاعتراض عليه».

وإذا كان الإمام المراغي قد أشار إلى أثر الفلسفة في قضية العامل النحوي، فإنني أُشير إلى أثرها البارز فيما كتبه المؤلف عن التنوين، وهل هو علامة التنكير؟ كما يذهب إلى ذلك الأستاذ إبراهيم مصطفى، إذ كتب الأستاذ محمد عرفة فصلاً

(١) النحو والنحاة، مقدمة الأستاذ الأكبر، ص ٦.

بديعاً ممتعاً تحت عنوان (استخدام المنطق الاستقرائي في تعريف معنى التنوين)^(١)، فذكر في مبدئه أنه يريد أن يصطحب القارئ في رحلة فكرية يتتبع فيها مراحل الاستنباط ليعرف معنى التنوين، ولأي غرض يوجد، وقد سار الكاتب في مراحل البحث مرحلة مرحلة، فتكلم تطبيقاً عن مرحلة الملاحظة فمرحلة الفروض، ثم امتحن الفرض بما عن له من الملاحظات، واهتدى إلى النتيجة القائلة بأن التنوين للتعريف والتذكير معاً، وليس للشاني وحده، كما شاء المؤلف، وتتبع هذه المراحل كما اطردت على يراع الناقد من أبداع ما يمتع به القارئ في حلبة الصيال، ولعلنا ندفع باجني اليوم إلى مُعاودة هذه النظرات ليكملوا خطوات الطريق.

وإذا كانت هناك بعض الصعوبات الحقيقية في تعلم النحو، فقد وعد الأستاذ عرفة ص ٢٣٥ أن يضع كتاباً مدرسياً لصغار التلاميذ في المدارس والمعاهد، يكشف عن سرّ العربية ويقرب لغة الضاد من طبيعة المتكلمين، بأسلوب سهل يجد مكانه من الارتياح لدى المدرسين والطلاب.

ولكن الأستاذ عدل إلى نهج آخر من الإصلاح حين أظهر مؤلفه الرائع (اللغة العربية ولماذا أخفقنا في تعليمها) وكان في أصله الأول مقالات عشر، نُشِرت تباعاً بمجلة الرسالة، ولم تقتصر على طبيعة المعالجة لمسائل النحو بل امتدت إلى فروع اللغة العربية جميعها، حيث دار الحديث في مجال كلي يرسم النهج العام لطبيعة اللغة، وجدوى التدريس في فروعها، حين ينتحي الوجهة الصحيحة في منطق الأستاذ، وكانت المقالة الأولى تمهيداً موطداً لما يليها، إذ تحدّث عن الأسلوب السائد في التدريس، ومدى صلاحيته، وعن الأسباب الموجبة للاحتفاظ بلغة القرآن، وجاءت المقالة الثانية لتحدّث عن وسائل الإخفاق في تعليم هذه اللغة، ومن أهمها تكلم الأساتذة باللغة العامية حتى في شرح مواد اللغة نفسها!!.

(١) النحو والنحاة، ص ٢٢٦، مطبعة السعادة.

وتنالت المقالات لتوضح أن اللغة ملكة لا تُنال إلا بالمران الدائم والتكرار المُلح، واستظهار القواعد دون المِران على قراءة النصوص الأدبية لا يُجدي فتيلاً، في تكوين هذه الملكة، وإذا أراد الأساتذة أن يُوجدوا هذه الملكة فلا بدّ من الإكثار من الشواهد المناسبة، وأن يحرصوا على تهيئة فصول سهلة لكبار الأدباء تكون زاداً للطلاب، على أن تكون مَشوقة، تدفع إلى الاستيعاب في شغف، حين تنحو منحى الشعر السّلس، أو القصة الطريفة، أو الخطبة المؤثرة.

وقد عقد موازنة بين طلاب يأخذون اللغة من الأساليب الصحيحة، وبين آخرين يأخذونها من القواعد ليثبت فائدة الأساليب، وإذا لم يكن من المُستطاع خلق بيئة فصيحة في المدرسة، فلنخلق بيئة تحاول الابتعاد عن المبتذل من ألفاظ العامية، وتميل إلى استعمال الألفاظ المشتركة بين العامية والعربية، وما أكثرها، بل ما أعظم قدرتها على استيعاب الخواطر، ولو قدّر لذوي الأمر أن يجمعوها لتكون في متناول الطلاب.

وقد قال الأستاذ محمد عرفة، بعد أن أشبع الحديث عن جدوى النصوص الصحيحة في استقامة الألسنة «يا قوم لقد جرّبتم طريقة القواعد في تعلّم اللغة العربية ألف مرة، وفي كل مرة تخفقون، فجرّبوا مرة واحدة طريقة الحفظ والتكرار، وأنا كفيل لكم أن تحمدوا هذه التجربة».

ومن أظهر ما اقترحه الأستاذ، أن يقتصر في التعليم الابتدائي على الاستكثار من المطالعة ودروس المحفوظات، ومثل ذلك في التعليم الثانوي مع إضافة قواعد اللغة بالقدر الضروري، وأشار إلى طريقة السلف في الإكثار من الشواهد، والاهتمام بما تتضمن من صور وتعبير وفكر، وقد لاقى كتاب الأستاذ عن تعليم اللغة ارتياحاً كبيراً من العلماء، فأثنت عليه الأعلام في الصُّحف الأدبية، وتناوله العلامة الكبير الشيخ عبد القادر المغربي بالتلخيص في مجلة المجمع العربي بدمشق، إذ كتب فصلاً طويلاً عنه بدأه ببيان رأيه الخاص في طريقة تعلّم اللغة ثم قال عقب ذلك:

«هذه خلاصة ما كنّا ننصح به شدة الأدب من إخواننا، ولم يدُر في خلدنا أن يقوم أستاذ جليل من جماعة كبار العلماء الأزهريين في مصر، وهو الشيخ محمد عرفة فيتناول هذا الموضوع، ويكتب فيه بلباقة وجِدْق سلسلة مقالات بلغت العشر أجاد فيها كل الإجابة وأحسن في التنبيه والنصح كل الإحسان... وقد رأينا أن نلخص هذه المقالات الأنفة الذكر ونشرها في مجلتنا (مجلة المجمع العربي العلمي بدمشق) تعميماً لفائدتها، ثم تابع العلامة المغربي تلخيص المقالات في إيجاز مفيد»^(١).

وإن بحثاً عن تعليم اللغة العربية يهتم به العلامة المغربي هذا الاهتمام لـدو سداد بليغ.

- ٣ -

ثم ماذا؟ هل وقف الشيخ لدى النقاش العلمي في مسائل التشريع والأدب وعلوم اللغة العربية؟ أو أنه شارك في مُعضلات عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية؟ إن صحيفة الأهرام ومجلة الرسالة تشهدان بمقالاته الاجتماعية ذات الوعي البصير، ولست أخصّهما بالذكر لأنهما كانا وحدهما مجال إبداعه، بل لأنهما كانا موضع تفضيله، إذ أكثر من الكتابة فيهما بالقياس إلى غيرهما.

وللشيخ في خطواته الاجتماعية شفافية ذات رفيف، وقد كنّا نلمس هذه الشفافية فيما سمعناه من محاضراته الدينية في جمعية الهداية الإسلامية، إذ كان وكيلاً لها يشارك رئيسها العلامة الشيخ محمد الخضر حسين في توجيه الشبهة دينياً وثقافياً، كما شاركه في اتجاهه النقدي، فحملاً أمانة القلم في تقويم المعوج، وإن اختلفت الطريقتان عند التناول، لأن الشيخ الخضر كان يقسم الباب المنقود إلى فقرات متتالية لينقد كل فقرة على حدتها بما يعنّ له، أما الشيخ عرفة فكان يلخص الباب جميعه ليكرّر عليه بالنقد جملة واحدة، وللخضر إيجاز العالم ودقته، ولعرفة إسهاب الأديب ورقته.

(١) نشرت مجلة الأزهر، (ربيع الأول، سنة ١٣٦٣ هـ)، ما كتبه المغربي نقلاً عن مجلة المجمع، ومنه اقتباسنا هذا.

وسنقتصر هنا على التعليق على أثرين نفيين من آثار الأستاذ محمد عرفة في مضممار السياسة، حيث كتب مؤلفين هادفين أحدهما عن (الإسلام والشيوعية) وثانيهما عن (إنقاذ البشر من القنبلة الذرية).

أما كتابه عن «الإسلام والشيوعية»، فقد سطره للموازنة بينهما، مبيّناً حقيقتيهما، وأيّهما يوافق طبائع الوجود، وأيّهما مدعاة التقدّم الإنساني، وما علّة ذلك، وطبيعي أن يستعين بأقوال الدارسين في توضيح الشيوعية، إذ أحاط خبراً بما قيل عنها، حتى تملأ من مناحيها، فاندفع إلى توضيح مراميها، لا ليتكاثر بالأقوال، ويتزيّد بالنصوص، بل ليحوك ثوباً جديداً من نسجه الخاص.

وفي الفصول الأولى أوضح ما رُب الشيوعيين من تحطيم الملكية الفردية، ومحو الدين من النفوس، والكفر بالله واليوم الآخر، وإيقاد نار الحرب بين الطبقات، وإماتة الشعور الوطني، واتخاذ العنف والإرهاب والتخريب وسيلة للانتشار، ولا يظن أحد أن الرجل يخوض في حديث معاد، فلكل كاتب ذاتيته الواضحة، وداء كالشيوعية يتطلّب من علماء الإسلام أن يتآزروا على استئصاله، كلّ بما يعنّ له، وإذا اتّحد كاتب مع كاتب في شيء، فلا بدّ أن ينفرد عنه في شيء آخر.

ومن أبدع فصول الكتاب: ما جاء تحت عنوان (اعتماد الشيوعية على العنف والإكراه)^(١) إذ نقل الكاتب الكبير نصوصاً صريحةً للينين وستالين تدعو إلى إبادة المُخالفين، كأن يقول الأول: «هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشيء، وإنما الشيء الهام أن يصبح الرّبع الباقي شيوعيين» وحيث يدعو الثاني إلى الحرب وإن أغرقت الكون في الدماء، وبعد أن يكشف أهوال الشيوعية المدمّرة، ينتقل إلى الإسلام دين الرحمة والإنسانية، فيضع الصفحة الخضراء بإزاء الصفحة الحمراء.

وقد تحدّث عن ضرورة القتال في الإسلام دفاعاً وصوناً، لا بغياً وعدواناً، فأثنى بما يقنع بالدليل، ويُضيء بالنبراس، ثم أخذ يُدلي برأي الإسلام فيما تُجيزه

(١) الإسلام أم الشيوعية، ما بين ص ٢٤ وص ٣٦، ط دار الكتاب العربي.

الشيوعية من التجسّس، والإكراه على الإلحاد، وتحريم الملكية، والتآمر الخفي، والتزلف الظاهري، خاتماً كتابه بفصل جيّد عن (موضع الدين الإسلامي من الأمة الإسلامية) التزم فيه جانب الصراحة حين رأى الكثيرين من علمائه ينصرفون عن مُحاربة الفساد، وعن إيضاح رأي الإسلام في مُعضلات الزمن، إلى التأليف في مسائل ذائعة مشهورة، مستشهداً بآيات ساطعة من كتاب الله، ومواقف جادة لزعماء العصر الذهبي للإسلام، وناشراً على الأمة الإسلامية تفكّكها المتخاذل، ثم ختم القول بالرجاء الحارّ في أن ترجع الوحدة، وتعود الألفة، فيتآزر المسلمون.

أما كتاب (إنقاذ البشر من أن يفنوا بعضهم بعضاً بالحرب الذريّة) فقد كتبت عنه فصلاً تحليلياً بمجلة الأزهر (المحرم ١٣٩٩ هـ) تحت عنوان (عالم أزهري يدعو إلى السلام العالمي) نظراً لخطورة موضوعه، وقد بدىء بفصل عن الحياد الإيجابي بين الكتلتين المتصارعتين، فأوضح أنه وهُم لا حقيقة، إذ يفتقر إلى فلسفة نظرية تؤيّد اتجاهه تأييداً يدفع إلى تحبيذه الفعلي، إذ إن أكثر مَنْ يدّعون ظاهرياً هذا الحياد ينحازون إلى أحد المعسكرين، باطنياً، وفيهم مَنْ هو عين لهذا المعسكر يعمل لحسابه، مما يذهب برسالة عدم الانحياز.

وكان الأستاذ عرفة جاداً واقعياً حين أعلن أنه لا يناقش قضية الحرب الذريّة بمنطق الدين، لأن أكثر الدّاعين إلى الحرب لا يستجيبون إلى الهدى، ولو تّبّعوا تعاليم رسالة سماوية لكفّوا عن الشرّ، كما أنه لا يتحاكم إلى الضمير لأن الفلسفة الوضعية قد أفسدت حقيقته في منطق الكثيرين، فهم يرونه أثراً من آثار التربية الاجتماعية يتّجه وجهتها في الشرّ والخير دون أن يتقيّد بمثل، كما أنه لا يتحاكم إلى هواتف الخير والقيم العليا التي لا يجرؤ أحد على الشك فيها، لأن الناس مع افتتانهم بها نظرياً يجحدونها عملياً، على حدّ قول الله: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ [النمل / ١٤].

إنما يتحاكم إلى المنفعة الذاتية التي ينشدها الجميع صراحة دون كبّس، يتحاكم إلى المصلحة المادية التي يدور المُحتَرَبون في فلکها، مهما اصطنعوا

الشُّعارات، وتظاهروا بالمبادئ، هذه المنفعة تنادي بالعمل على السلام، وتجنّب الحروب الذريّة، لأنها إذا نشبت مع خطرها الهائل، ستعصف بالمنتصر والمنهزم معاً!! وإذا كانت العقابة واحدة بالنسبة إلى الدمار الشامل الذي يعمّ الفريقين، فأى عاقل يعمل على استئصال أمته وفناء أهله وذويه؟.

ثم تحدّث عن مذهب القوّة وكيف اعتنقته ألمانيا فهوى بها في حربين عالميتين، إذ نزع من القلوب عوامل الرحمة بالضعيف، وأخذت تعاليم «نيتشة» تدعو إلى إبادة الضعفاء من الألمانين أنفسهم، فأئى تكون لهذه التعاليم معشار شفقة بالبعداء؟.

ثم كرّر على الشيوعية فتحدّث عن أخطارها حديثاً جديداً إذا قيسَ بما كتبه من قبل، وإن التقى معه في النتيجة القائلة بخطر هذا المذهب الحاقداً، مع ما اعترف به من ظهور الفساد عملياً حين طُبِّقَت آراء الشيوعيين في بلادهم، حيث وأدت هذه الآراء حرية النفوس، ولم تُشيع الفقير، ولكنها أجاعت الغني، وفقاً لأهواء قلة دكتاتورية، تتحكّم باسم الجماعة، لتغنم ثراء القلة القليلة.

وكان الرجل رائعاً رائعاً حين تحدّث عن أخطار القومية، داعياً إلى الإنسانية الشاملة التي تجعل الناس في كل قارة سواسية كأسنان المشط، والرجل الكبير وإن أثر تجنّب الاستشهاد بالنصوص الدينية فإن قارئه يستشعر في كل سطر من سطور كتابه تشبّعه الحميد بروح الإسلام المُنصِّفة وتعاليم القرآن الهادية، تلك التي لاحت حقائقها المُقنعة في بيان جزل أسر، ومنطق فصل حاسم، لو قرأه القارئ بعيداً عن شتى المؤثرات العارضة، لأن للحق صولة دافعة وسيطرة كاسحة تربط بينه وبين القلوب الصافية.

هذا بعض ما عَنّ لي أن أرصده من صولات هذا الناقد العالم المُصلِح، وقد تركت الكثير من مواقفه النقدية والإصلاحية، لأن الاستيعاب الشامل يكون في كتاب مستقل، ولا يتمّ في فصل واحد مهما تعدّدت صفحاته، وإذا فاتنا أن نستوعب فحسبنا أن نلفت غيرنا إلى الاستيعاب، ليجعل من كل عنصر باباً، فتتكامل الفصول، وتأتلق القسمات.

عباس محمود العقّاد في كتبه الإسلامية

- ١ -

يَحَارُ الكاتب حين يدرس إسلاميات العقّاد، لأن الكاتب الكبير متعدّد الثقافة، متنوّع المواهب، غزير الإنتاج في اتجاهات كثيرة، تتّصل من قريب أو بعيد بالحقل الإسلامي الذي أولاه أكبر اهتمامه، فأثمر في روضه دوحاً يانعاً يؤتي أشهى الثمار، وينفرد بسمات خاصّة لا تُتاح لسواه.

لم يُعرَف عن الكاتب الكبير الأستاذ: عباس محمود العقّاد انحراف ديني في كلّ ما كتب على امتداد عمره البعيد، بل كان قلمه بمنجاة مما تورّط فيه بعض الكبار من زملائه، حين أخذوا في شبابهم الأول ببعض بهارج الاستشراق، وحين رحلوا إلى أوروبا في عهد كانت فيه سيّدة الشرق، ومِصباح النور عند قوم، فنقلوا بعض ما يسمعون مُنْبهرين، وفيما نقلوه ما ينحي باللائمة ظلماً وافتراءً على الإسلام!

كان الأستاذ العقّاد منذ نشأته الأولى بمنجاة مما تورّط فيه هؤلاء، لأن فطرته الصافية قد هدّته إلى الطريق القويم، فكان يقرأ في كل اتجاه لا ليكون أسيراً لما يقرأ، بل ليصبح صاحب الرأي الأول فيما يُطالع، لم تخدعه الأسماء المجلجلة، ولم تغشه الأنوار الفاتنة، بل عرف كيف يميّز الخبيث من الطيب عن فطرة خالصة يمدّها البصر الثاقب، والفكر المطمئن السديد.

لقد اتجه في مطلع حياته إلى الفكر الأدبي، ثم إلى النضال السياسي، ولم يَنْدُرْ نفسه للدفاع عن حقائق الإسلام منذ ملك اليراع القوي، والبيان الصارم النافذ، ولكنه كان في هذه المرحلة يستحصد ويقوى، ويكابد ويعالج، حتى إذا بلغ أشده، وجاوز الأربعين، شاء الله له أن يُلجِج المضممار الإسلامي وقد مَلَك قوة العقل، وسطوة البيان، مع إيمان مطمئن لحقائق الإسلام، إيمان تغذى بالحب والصدق، والاستقلال والنزاهة، وإذا وجدت هذه الصفات مع عقل مفكر، وخاطر واثب، وبصر لامح، فلا عجب أن يُبدع صاحبها في حقل الثقافة الإسلامية ما أبدع عباس محمود العقاد.

عرف اتجاه العقاد في المنحى الإسلامي منذ كتب نقده لإعجاز القرآن، الذي ألفه قريعه المبدع الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمهما الله، فقال فيما قال: «فليكن كتابه (الرافعي) نموذجاً في البلاغة البدوية، أو تسييحاً بالآيات القرآنية، أو تحية يقرؤها المسلم غير سامع إليها، ويقرؤها غير المسلم فلا تزیده بالقرآن علماً، ولا تطرق من قلبه أو عقله مكان الإيمان والتسليم»^(١).

وإذا كان في هذا القول بعض الشطط، حين جعل كتاب الرافعي نموذجاً للبلاغة البدوية وحدها! مع أنه نموذج للبلاغة العربية في أرقى عهودها الزاهرة ذات الحضارة المثمرة، فإن منحى العقاد في إقناع غير المسلم هو الهدف الذي يجب أن يوضع صوب العينين لدى كل كاتب إسلامي، لأن العقاد يرى أن الإسلام رسالة عالمية، ويجب على مَنْ يكون من فرسانها أن يخاطب العقل البشري كافة بمنطق العقل وحده، لذلك جاءت كتابة عباس محمود العقاد الإسلامية مُقنعة هادية لمن يتلمس الحقيقة الخالصة، بعيداً عن التحيز.

وكان الفكر الإسلامي على يد العقاد صالحاً للرواج في آفاق بعيدة، تنتكر للأديان بعامة، وللإسلام بخاصة، وأعني بالرواج دوام النظر والتأمل، وإن لم يدفع إلى الاعتناق، لأن الإيمان لدى الكثيرين ليس قضية اقتناع بالدليل، ولكنه إرث

(١) ساعات بين الكتب، ص ١٠، ط ٤.

يمتدّ من الأجداد إلى الأحفاد، لدى الكثرة الكاثرة، إلّا مَنْ استضاء بمصباح التأمل، بعيداً عن الجواذب والحوائل، ومَنْ يُكْتَب له الهداية من هؤلاء يكون في تأثيره واحداً بالآلف!

لقد كتب العقاد مؤلفاته الإسلامية جميعها وفي اعتقاده أن قارئه لجوج ملّحاح، يريد الدليل المُقنع، والمنطق الجادّ، ويرتّبص بالثغرات والمنعرجات ليصل منها إلى ما يريد من العناد فكانت هذه المؤلفات جميعها نمطاً من الجدل الهادف، ذي الحُسم الواضح.

وقد ذكر الكاتب الكبير في مقدمة: «عبقريّة محمد» أنه يكتب عن رسول الله بالقدر الذي يطمئن إليه المسلم وغير المسلم فإذا أنس القارئ من كاتبه بسطاً في الجدل، وعمقاً في التّقصّي، وتلمساً للسيطرة المُلزمة، فليعرف أنه فارس في ميدان يُنازل فرساناً ملؤوا الساحة بالضجيج عن غرض مريض.

ولسنا هنا في مجال السرد لمؤلفات العقاد الإسلامية، وقد ناهزت الأربعين كتاباً، يحتاج كل كتاب منها إلى بحث مستقل، ولكننا نسلط الأضواء على اتجاهه الفكري في الطريق الإسلامي حين نختر من هذه المؤلفات ما يقرب فكره الديني تقريباً ملموساً، لمن أراد الاطلاع السريع.

وقد تحدّث الكاتب الكبير عن حقائق الإسلام في عدّة مؤلفات، وعن أباطيل خصومه في مؤلفات أخر على التّفصيل، وإن تعرّض لهذه الأباطيل إجمالاً في حديثه عن حقائق هذا الدين، كما تحدّث عن حالة الإسلام المُعاصِر مقارنةً بما كان من مجده السّالف، وعزّه الغابر، ومتطلّعاً إلى مستقبله المُشرق بإذن الله.

أما حديثه عن أعلام الإسلام: فقد اشتهر اشتهاراً ذائعاً، إذ كان ولا يزال موضع الدراسة لطلّاب التعليم الثانوي في مدى فسيح، وقد حظّي من التقدير والاحتراف بما لم يُحظّ به جانب آخر من جوانب الحقل الإسلامي، لأن حديث الأعلام ذو جواذب وجدانية، تجعله أكثر بريقاً، وليس معنى ذلك أنه يفوق في

مادته العلمية شتى الجوانب الأخرى، ولكن معناه أن الحظ السعيد قد مضى به إلى أفق فسيح .

وسنختار في مجال الحديث عن حقائق الإسلام ما كتبه تحت عنوان: (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) وتحت عنوان: (الفلسفة القرآنية) وتحت عنوان: (التفكير فريضة إسلامية) لأن هذه البحوث تدور في فلك واحد، وبعضها مكرّر مُعاد، ولكن تكرار العقاد لا يعني إعادة السابق كما مرّ، ولكنه يعني التفصيل للمُجمل، والتوضيح للغامض، والإيجاز للمُسهب، لدواعٍ يتطلبها موقف دون موقف، والنظرة الفاحصة لكتاب (حقائق الإسلام) تدلّ على أنه كتبه للخاصّة أولاً، وقد تملّكه شعور بأن كتابه سيترجم إلى عدّة لغات (وهذا ما قام به المؤتمر الإسلامي فعلاً) وسيقرؤه نفر كثير من خصوم الإسلام، وفي هؤلاء الخصوم من يرتفع بذكائه إلى مستوى سقراطي، بحيث لا يعيبه أن يُماري في سطوع الشمس إذا شاء .

لذلك: نجد الطابع الفلسفي الرصين يعمّ هذا الكتاب الثمين في كلّ ما تعرّض له الكاتب الكبير من بحوث، نجده في الباب الأول حين تحدّث عن حقيقة الدين، وعن ضرورته اللازمة في الحياة، فذكر أن أكبر الشُّبهات التي تعترض عقول المتشكّكين والمنكرين شُبهتان، هما شُبهة الشرّ، إذ لا يستطيعون التوفيق بين وجود الشرّ في العالم، وبين الإيمان بآله رحيم قدير في جميع الصفات، وشُبهة الخرافة في كثيرٍ من العقائد الدينية، حين تعجز بعض العقول عن التوفيق بين العقائد وبعض المحسوسات والمعقولات .

والمدار مدار فلسفي جادّ، سبق فيه الباحث سبقاً يعتمد على الحجّة العقلية، والنقاش المُفجّم، وقارئ هذا الفصل يجده دفاعاً عن حقيقة الأديان السماوية بعامة، وعن الإسلام بخاصة باعتباره الصورة الصحيحة لدين الله منذ نزل من السماء إلى الأرض، وقد اكتمل اكتمالاً وضيئاً على يد محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

وقد أصاب الكاتب مفصل الحق حين وازن بين الإسلام وغيره، فذكر أن الديانة (أي ديانة) تفضل سواها بمقدار شمولها لمطالب الروح، وارتقاء عقائدها وشعائرها في آفاق العقل والضمير، وكذلك كانت الديانة الإسلامية كما آمنّا بها، ملة لا تفضلها ملة في شمول حقائقها، وخلوص عباداتها وشعائرها من شوائب الملل الغابرة حين حُرِّفت عن مسارها الصحيح، إذ أن بعض العقائد يصيب النفس بما يشبه داء الفصام، لأنه يقسم الشخصية الإنسانية على نفسها، ويمزق الضمير الحائر بين نوازع الجسد، ونوازع الروح، وبين سلطان الأرض وسلطان السماء، وبين فرائض السعي، وفرائض العبادة.

وشمول العقيدة الإسلامية هو الذي يعصم ضمير المسلم من هذا الفصام الروحاني، وهو الذي يعلمه أن يرفع رأسه حين تدول دولته أمام المسيطرين عليه، وهو الذي يحفظ كيان الدولة الإسلامية أمام الضربات التي تلاحقت عليها من غارات الفاتحين، والاستعمار والحروب الصليبية والتبشير.

ثم أفاض الباحث إفاضة مُشَبَّعة عن العقيدة الإلهية في الإسلام، فوازن بين الإله في رأي أفلاطون وأرسطو مُبَيَّنًا خطأ الاثنين معاً، وهما من أصحاب العقول المثالية، واستعرض عقائد الهنود والمصريين منتقلاً إلى ما يدين به أهل الكتاب في إفاضة وإشباع، لينتهي إلى أن الله رب العالمين في الإسلام لم يكن صورة مُحَرَّفة من صورة الله في العقائد الكتابية، كما يُوحى بذلك بعض المُبَشِّرِينَ، بل كان هو الأصل الذي يؤوب إليه مَنْ ينحرف عن العقيدة في الإله الكامل كأكمل ما كانت عليه، وكأكمل ما ينبغي أن يكون.

ووالى الحديث عن النبوة في القديم والحديث، ليرى أن النبوة في الإسلام كانت كمال النبوات، وختام الرسالات عن حق صريح، ثم تحدّث عن الإنسان والشیطان حديثاً يُجَمِّل ما فصله في كتابين مستقلين عن الموضوعين، وخصّ العبادات والمعاملات بفصلين رائعين، وجاء الفصل الثالث ليعمد إلى اللباب من حقائق التشريع، فيحدّث عن الحرية الإسلامية والأمة والأسرة والرق، وزواج

الرسول، وحقوق الحرب في الإسلام وحقّ الإمام، وقد أكثر من الشواهد والمنقول عن أئمة الإسلام من المحافظين والمُجدِّدين معاً، ليبين أن هؤلاء الأعلام مع اختلاف مناحيهم في التجديد والمحافظة قد فهموا جوهر الإسلام، عن إدراكٍ واعٍ صحيح، فلم يحدث بينهم من الاختلاف ما نراه لدى بعض النحل المُخالفة، حين يقف المفكر من أخيه في ساحة الدين الواحد موقف النقيض من النقيض.

أما الفصل الرابع: فقد تحدّث عن الأخلاق والآداب حديث المثقف المُعاصر، وقد كان المؤلّف صريحاً حين ذكر في خاتمة كتابه أنه لم يؤلّفه ليشرّ بالإسلام هؤلاء الماديين المتعطّشين إلى إنكار كل معنى شريف من معاني الحياة البشرية، ولكنه كتب هذا المؤلّف للمتدينّ المُنصف الذي ينظر إلى دينه نظرةً واعيةً، ثم للمسلم الذي يتلقّى حملات الخصوم، ليعلم أنه حقيق بالاطمئنان إلى حقيقة دينه، وبمواجهة المستقبل بعزيمة وإيمان.

أما كتاب (الفلسفة القرآنية) فقد تحدّث عن أكثر ما جاء في كتاب (الحقائق)، وهو حديث إذا اتفق في النتائج والنصوص والأحداث التاريخية، فقد اختلف في السياق والتركيب وتعدّد التناول النظري للحقائق، وقد ذكر العقّاد أنه في كتابه هذا يبيّن صلاح العقيدة الإسلامية لحياة الجماعة البشرية، وأن الجماعات التي تدين بها إنما تستمدّ حاجتها من الدين الذي لا غنى عنه ثم لا تفوتها منه حاجتها إلى العلم والحضارة، ولا استعدادها لمُجاراة الزمن حيثما اتجه مجراه.

وقد جاء الباب الأول ليتحدّث عن القرآن والعلم، ليُوضح أن الإسلام يفتح أبواب المعرفة للمسلمين ويحثّهم على وُلوجها والتقدّم فيها، وقبول كل مُستحدّث من العلوم على تقدّم الزمن وليست فضيلته الكبرى أنه يُقيدهم عن البحث والنظر كما يزعم الواهمون.

وتوالى الحديث عن الأسباب والخلق، وعن الأخلاق المُثلى في منطق الإسلام، ورجوعها إلى المصدر الإلهي وحده لأنها في مناطها الأعلى لا تتعلّق بمنفعة المجتمع، ولا باستطاعة القوة، ولا بالقانون والسلطان، بل تتعلّق فوق ذلك

كله بما في الإنسان من حبٍّ للجمال، وشوق إلى الكمال، وكلاهما نفحة من الخالق يهتدي بها الأحياء عامة في معارج الرِّفعة والارتقاء .

وفي الحديث عن الطبقات أوضح الباحث الكبير كيف أعطى القرآن بنصوصه المفصلة المساواة حقّها، كما أعطى التفاوت بين الأحاد والطبقات حدّه، فلا يمتنع التفاوت، ولا يكون مع هذا سبباً لإعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه، ولو كان من المستضعفين في الجنس، أو من المستضعفين في المنزلة الاجتماعية.

وقد اتسع الحديث لنقد الشيوعية نقداً واعياً بصيراً، وهو حديث صحب العقاد في شتى مراحل حياته عن ثقة وإيمان، وربما كان كتابه عن (الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام) من أوفى وأدقّ ما كتب في موضوعه، وهو حديث يُفصح عن خلق العقاد الشجاع، قدر ما يُفصح عن عقله النافذ البصير.

ولا نقف عندما قال عن المرأة والزواج في الفلسفة القرآنية، إذ أن العقاد أفرد لذلك كتاباً مستقلاً، ولكننا نشير إلى أن قارئ هذين الموضوعين في كتاب الفلسفة القرآنية يشعر أن الكاتب الكبير سيّد الموقف، وأنه حين يُوجز الحديث يطوي من المعاني ما يلحظه القارئ البصير من خلال السطور، أما حين يبسط الحديث في الموضوع نفسه، فإن القارئ البصير يشعر براحة نفسية إذ يجد ما استشعره من خلال الكلمات قد جاء مبسوطاً مُسهّلاً، ومعنى الإسهاب لدى العقاد يختلف عن معناه لدى سواه، لأن إسهاب العقاد هو استرسال في الحجة واستطراد في الإقناع، وإحاطة بالموضوع من كافّة نواحيه، وليس قطعاً لألفاظ تتسع وتمتدّ دون أن تضيف الجديد، وإذا أضافت شيئاً فليس بالرائع الباهر.

وفي كتاب الفلسفة تقرير لحقائق قوية عن الرقّ في الإسلام مقارناً بسواه، وعن العلاقات الدولية، ومسألة الروح والقضاء والقدر، والتصوّف، والحياة الأخرى، وكلها بحوث عويصة لم تُكتب بالسهولة التي يظنها القارئ حين يستمرى طعاماً شهياً قد نضج على ناره الهادئة، فيظن أن طاهيه لم يتكلّف شيئاً!

ولكنه لو أحاط علماً بما قرأ الكاتب الكبير حين قدّم هذه الفصول، من مراجع فلسفية، ذات استعصاء، لأدرك أيّ عناء كابد.

وطبيعي أن يكون عناء المتحدث عن القضاء والقدر، والروح والمادة، والحياة الآخرة، والجنة والنار، وموقف الحساب والعقاب، وأمثال هذه الشوائك الدقيقة، مما يتطلب برهاناً قوياً، لأن العقاد لا يجعل النص وحده دليلاً، بل يجعل العقل مفسّر النص ومؤيّدته وهاديه!

وقد يضطر القارئ إلى مخالفة الكاتب الكبير في بعض اتجاهاته، كما جاء في بعض حديثه عن نعيم الجنة الروحي، ولكنها مخالفة من يقدر وجهات النظر، واعتماد الباحث على نصوص قوية لأئمة كبار من المفسّرين والمتكلمين، بلغوا الذروة الشاهقة في دنيا النظر الصائب والجدل الشديد، مع مقارنات طريفة، ممّا قاله أعلام الإسلام، وأخبار الديانات الأخرى، تنتهي إلى قول العقاد الدقيق: «إذا أعطينا أسلوب العقيدة حقّه من التعبير، ففي العالم الآخر كما يدين به المسلم رضاءً للوازع الأخلاقي، ورضاءً لدوافع التفكير، ورضاءً لعقيدة الدين».

أما كتاب (التفكير فريضة إسلامية) فقد كتبه العقاد متأقفاً من قوم يدّعون أنهم درسوا الإسلام، وتبطنوا حقائقه، فأروه يدعو إلى الانقياد والتسليم دون تفكير وتأمل! وهؤلاء يكذبون عن عمد، حين يزعمون أنهم درسوا الإسلام، وانتهوا إلى نتيجتهم الباطلة، لأن دارس الإسلام لا بدّ أن يقف على نصوص القرآن والحديث، وتطبيق السلف لما جاء بهما! وكلّ ذلك يدلّ دلالة صريحة على أن الإسلام دين العقل، ولكن المغرضين من هؤلاء يبذلون أعنف الجهد في جمع ما يوحى ببعض التعارض من النصوص للوهلة الأولى، مُحاولين أن يضربوا الأقوال بعضها ببعض، ليُجبروا القارئ على أن يعتقد أن الإسلام يقف في طريق التفكير.

لهؤلاء وأمثالهم أعداد المؤلف الكثرة ليجمع في كتاب واحد ما يؤكّد أن التفكير فريضة إسلامية محتومة، وأن مزية القرآن الأولى، هي التنويه بالعقل

والتعويل عليه، فالعقل لا يذكر في كتاب الله إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به، والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضية في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة.

ومن خصائص العقل: ملكة الإدراك التي يُناط بها الفهم والتصور، كما أن من خصائصه أنه يتأمل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه، ويستخرج منه بواطنه وأسراره، ليعرف كيف يهتدي إلى الحكم الصحيح، والرشد من أعلى خصائص العقل الإنساني، إذ هو تمام تكوينه وثمره وجوده.

ثم يكثر الأستاذ من النصوص القرآنية الصريحة في تأييد ذلك كله، ليصل إلى أن العقل الذي يخاطبه الإسلام هو العقل الذي يعصم الضمير، ويدرك الحقائق، ويميز بين الأشياء ويوازن بين الأضداد، حتى يصل صاحبه إلى مرتبة الحكمة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً).

وفي باب الموانع والأعذار: تحدّث الكاتب عمّا يمنع أشعة العقل من النفاذ إلى الحقائق، وأكبر هذه الموانع عبادة السلف في عرفها السائد، والاقتداء الأعمى بأصحاب السلطات الدينية، والخوف المهيمن من أصحاب السلطة الدنيوية، والإسلام يأبى على المرء أن يُحيل أعذاره على السلف من الآباء والأجداد، كما يأبى له الخضوع إلى ذوي الكهانة من المحترفين، ويدعو المسلم إلى الجهاد والهجرة، فراراً بعقيدته من الاضطهاد، وصفوة القول - في منطق العقل - أن الإسلام لا يعذر العقل الذي ينزل عن حق الإنسان رهبة للقوة أو استسلاماً للخديعة، ولا حدود لذلك إلا حدود الطاقة البشرية كما تنهض بها الأمم، دون أن تقتصر على طاقة فرد.

وفي مجال إكبار العقل: تحدّث الكاتب عن المنطق باعتباره جامعاً لأسباب النظر والتمييز، وقد فرّق في دقة بالغة بين المنطق والجدل، فالمنطق في أصل وضعه علم يبحث عن الحقيقة من طريق النظر المستقيم، والتمييز الصحيح، أما

الجدل فيبحث عن الغلبة والإلزام بالحجة، وقد يتحرى مجرد السبق والفوز في مجال المناقضة دون نظر إلى الحق في ذاته، وكل ما يشير إلى كراهة المنطق في بعض أقوال الأئمة من السابقين يختص بالجدل وحده، لأنه في كثير من أموره لجاج وعناد وتطاول، أما المنطق العاصم من الشبهة، والمانع من الخطأ فلن يكرهه أحد، وقد استشهد العقاد بنصوص صريحة للغزالي، وابن تيمية، والسيوطي تعضد دعواه.

ثم جال القلم الجبار جولاته الموقفة متحدثاً عن الفلسفة والعلم والفن الجميل، وعن المعجزة والاجتهاد في الدين، وعن فنون تتعلق بالتصوّف والمذاهب الفكرية والاجتماعية، والعرف والعادات، لينتهي إلى أن التفكير الصحيح واجب محتوم في الإسلام، وليقول إنه ليس من روح الدين الحنيف أن يجمد المؤمن على عادة موروثه، لأنها عادة موروثه فحسب، وليس من روحه أن يرفض عادة جديدة لأنها عادة جديدة فحسب، ولكن المسلم يعتصم من روح الإسلام بحصافة تعيده من سحر الغلبة، فلا تهوله بروعتها، وتلك مفخرة للإسلام تتمناها الأمم متى اختارت لنفسها الصراط القويم.

- ٢ -

نعرف أن نفراً من ذوي الغيرة الدينية قد تخصصوا في ردّ الشُّبهات الظالمة التي يحاول أعداء الإسلام ترويجها بشتى الأساليب، ولهم في هذا المضمار احتيال آثم ينأى عنه كل ذي أمانة علمية، إذ أن أحدهم يظن الظن المتوهّم دون دليل ملموس فيحكيه بصيغة غير جازمة، ويجيء غيره على الفور فيتخذ الظن حقيقة، ويُطيل الكلام في تأييده راجعاً إلى ما حكاه سابقه، باعتباره مصدراً صحيحاً لا مرية فيه، مع أن سابقه المُفترى قد قدّمه في صيغة الشك لأنه اختلقه اختلاقاً من ذات حقه الخائن، ويجيء الثالث فيتحدّث عن الاختلاق المتكرّر وكأنه حقٌّ لا شك فيه، وأمامه مصدران (محترمان!!) ومن هنا كثرت الأراجيف المزعومة، فنهض لدرئها كبار المخلصين.

وإذا كان جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومَن وليهما من تلاميذهما المثقفين قد بدأ بالدفاع الملجم أمام هذه الأراجيف فإن الأستاذ العقّاد لم يقتصر على الدفاع وحده، ولكنه بثقافته الواسعة قد ولج إلى البواعث والأسباب، فكشف عنها في جِهارة وسطوع، حين حدّد الطوائف المُناوئة للإسلام على اختلاف مناحيها، بل على تناقض مناحيها، إذ تجمّع الكُفَر المُلحدون وفريق من أهل الكتاب المتدينين، على غرض واحد هو تشويه الإسلام.

وقد عرف العقّاد هذه الحقيقة، وعلّلها بأن الماديين من المُلحدين يجدون الإسلام أقوى من خصومهم، فليس في المسيحية مذهب شامل في السياسة والاقتصاد والاجتماع يقف أمام شيوعيتهم الخادعة، ولكن الإسلام وحده صاحب الحلّ المتكامل في شؤون الحياة، إذ يقيم المجتمع على نظامه الواضح، ويقرّر الحقوق والواجبات بقسطاس مستقيم، نصّ عليه في آيات الذكر الحكيم، كما أنه بشموله الواسع يُحيط بشؤون الدنيا جميعها أفراداً وجماعات، ويتقبّل الجديد الصالح، إذ يجد أصوله في تعاليمه الأصلية، وينفي الجديد الخبيث إذ يجد لديه من المناعة ما يدفع بالميكروبات والجراثيم عن جسم صحيح الأعضاء مُكتمِل الحياة! لذلك كان الشيوعيون ومَن تبعهم من الملاحدة يبذلون في مهاجمة الإسلام ما لا يبذلون معشاره في مواجهة دين آخر.

أما المُغرضون من المتدينين المحترفين، فهم في رأي العقّاد سُماسرة التبشير الذين يتخذون تشويه الإسلام صناعة يستدرّون بها الرزق، ويتوسّلون بها إلى جاه الرئاسة وسُمتعة الصلاح والتفوّق بين المتعصّبين والجهلاء في البلاد الأوروبية والأمريكية، فهؤلاء هم أصحاب مصلحة خاصّة في تشويه الدين الإسلامي، وتمثيل المسلمين على الصورة^(١) التي تُذكي عند القوم جذوة التعصّب، وتُملي لهم في الجهالة والغفلة، فلا يسرّهم أن تظهر الحقيقة لهم، ولمَن يستأجرونهم ويُرسلونهم للتبشير، ولا يندر أن يكون المبشّر مُلحدًا بالدين كله

(١) ما يقال عن الإسلام للعقّاد، ص (١٠)، ط بيروت.

مسيحية وإسلامية - وتلك ملاحظة ذكية للأستاذ العقّاد - ولكنه يعلم أنه يقطع موارد رزقه إذا كشف عن إلهاده، أو قال عن الإسلام قوله حق وإنصاف، تمحو عداوة الأعداء وتُضعف غيرتهم، وحملاتهم التبشيرية في بلاد المسلمين، فهو إذن كاذب يتعمّد الكذب لينتفع به، ولا يزعزعه عنه علمه بالحقيقة التي لا يقتنع داخلياً بمواجهتها، ولكنه في قُصارى أمره مرتزق ميت الضمير.

وأوجع ما يكون الدسّ وأنكاه حين يكون من دارس مثقف يُلبس الباطل ثوب الحق، حين يزن الأشياء بميزانين مختلفين، لأن مثل هذا المغرّض لا بدّ أن يتكلّم عن المسيحية والإسلام معاً، فإذا كان الميزان واحداً فلن يصل إلى هدفه المقصود في تحطيم الإسلام، فليغير الميزان إذن ليواصل دسّه المُنكر.

وقد سبّر الأستاذ العقّاد غور هذا الطراز من هؤلاء، فوجدهم دائماً ينظرون نظرة جانبية إلى الإسلام وحده، ولا يعمّمون هذه النظرة إلى غيره فيما يعالجون من مسائل المسيحية في أوروبا وأمريكا، وعندهم أن مسائل الإسلام يجب أن تكون موسومة بالغرابة والشذوذ والمخالفة، فهم يتطلّبون الشاذ الغريب في كل مسألة إسلامية، ولا يحسبون أن التعليل العلمي يتّسع لتفسير الإسلاميات وغير الإسلاميات على قاعدة واحدة من قواعد الفهم والتحليل.

وقد تسرّبت طريقة هؤلاء - للأسف - إلى أذناهم وتلاميذهم من الشرقيين مسلمين وغير مسلمين^(١)، فأكثرهم يبتدىء البحث بالفرقة بين ما يبحث في شؤون الإسلام، وما يبحث في شؤون غيره، وكلهم يخصّ الإسلام بمنظار خاص، فإذا عدل عنه إلى غيره جاء بمنظار آخر.

هذه النظرات الثاقبة من العقّاد، جعلته يفهم طريقة الإقناع المُلجّمة لمن يقرأ هؤلاء، لأن أصحاب هذه الطّعون يعرفون زيفها في نفوسهم، والأولى أن نتعدّى نقاش الجاحد إلى من يقرؤه ممّن يصدق الأشياء جاهلاً بواعثها، والعقّاد نظّار منطق، يدرس القضية المتّسعة ليحيط بأسبابها ونشأتها في صبر وأناة، ثم

(١) ما يقال عن الإسلام، ص ١٣٠.

يخلو إلى نفسه ليواجه نقاط القوة البارزة في يد الخصم بأعنف ما يعصف من الأدلة المركزة في حسم لا يسمح للججاج.

ونحن قد قرأنا كثيراً مما قاله المدافعون عن الإسلام في قضية انتشار الإسلام بالسيف، تلك التي اتخذها ذوو الأغراض علكاً يلوكونه في كل حين، دون أن يدركوا مَلَل السامعين، ودون أن يستشعروا تعب الأسنان والأضراس من مضغ هذا العلك المملول. قرأنا كثيراً مما قاله هؤلاء المدافعون، وقرأنا معه ما كتبه العقّاد، فرأينا الحجّة الباهرة في إيجاز، والإفحام المُلجّم في نفاذ، والحقّ الصريح في وضوح.

يذكر العقّاد - في هذا المجال - أن الإسلام استخدم القوة كما استخدمها كل دين في تاريخه، ولم يكن الإسلام لينتصر بالقوة وحدها، لو لم تكن أهدافه الإصلاحية مدعمة لهذا الانتصار، هذا إلى جانب الحقائق التالية:

١ - كان الإسلام في بداية عهده هو المُعتدّى عليه لا المُعتدي، وظلّ كذلك حتى فرّ من مهبطه إلى بلد آخر، فلم يرتح من المؤامرات والمخالفات المتجمّعة للاعتداء والاستئصال! وقد كانت حروب النبي دفاعاً، ولم تكن منها حرب الهجوم إلّا سبيلاً للمبادرة بالدفاع بعد الإيقان كل الإيقان من نكث العهد، والعمل على الغزو والاعتداء.

٢ - يُعاب على الإسلام أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تُحارب بالبرهان والإقناع، ولكن لا يُعاب عليه أن يحارب بالسيف سلطة تقف أمامه بالسيف، وتحول دون أن يبلغ مداه الإصلاحية من النفوس، لأن السلطة لا تزول إلّا بالسلطة، ولن تجدي الحجّة في إقناع ظالم متكبر، يرى أنه وحده صاحب الرأي المُطاع، وفي أحداث التاريخ المتتابعة ما يدلّ على أن السلطة لم تدعن للرأي المجرد في يوم من الأيام، ولكنها أذعنت للجهد.

٣ - إن الإسلام لم يحتكم للسيف قطّ، إلّا في الأحوال التي أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها، لأن الدولة التي يثور عليها أعداؤها في الداخل

أو الخارج لا تجد بدءاً من مقاومتهم، فالسلاح في هذه الحالة أمر لا مفرّ منه، وبعده تأتي الهدنة، فالاتفاق على الصلح والوثام.

٤ - للأديان الكتابية وضع غير وضع الإسلام، فاليهودية لم تكن لتدعو إلى انتشار مبادئها بين الناس، بل تؤثر الانزواء والاحتجاز، ومثلها في انكماشها المتحيز لا تحتاج إلى القتال في شيء، أما المسيحية فقد عنت أولاً بالأداب والأخلاق، وظهرت ثانياً في دولة تحكمها دولة أجنبية لا سبيل إلى مقاومتها، ولكن الإسلام قد عُني بالمعاملات والشرائع الدستورية، دون أن يقتصر على الآداب والأخلاق، كما أنه ظهر في وطن لا سبيل لسيطرة الأجنبي عليه، داعياً إلى مُثل جديدة تتطلب الانتشار العام بين الناس، فإذا اختلفت نشأته مع نشأة المسيحية، فإن ذلك الاختلاف هو الذي منعها بدءاً من امتشاق السيف، بدليل أنها اضطرت إلى الحروب المتكررة في حياتها الطويلة منذ أصبحت ذات دولة! وذلك يدلّ على أن القتال لا مفرّ منه.

٥ - إن الفتوح الإسلامية لم يتمّ شيء منها إلا بعد أن استقرّت الدولة الإسلامية، وأصبحت ذات وضع سياسي مُعترف به، فلا يمكن إذن أن يقال إن هذه الفتوح كانت سبب انتشار الإسلام، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الإسلام أجاز للأمم المفتوحة أن تبقى على دينها مع أداء ضريبة الدفاع، فليس في الأمر إلزام باعتناق الإسلام.

٦ - إن المقابلة بين البلاد التي فتحها الإسلام في حالتين مختلفتين، حالتها قبل الفتح، وحالتها من بعده، هذه المقابلة تجعل للإسلام وجهه الكريم فيما هدف إليه من إصلاح وإسعاد، واستتباب أمن، وصيانة للكرامة الإنسانية من أن تُهان.

بهذه الحجج المُقنعة مَلَكَ العقاد زمام الموقف، وبأمثالها كان صاحب رأي جهير في قضايا الإسلام، بحيث يُغني عن غيره في الكثير، ولا يكاد يُغني عنه سواه.

فإذا أراد القارىء دليلاً آخر فإننا نوجز في أسطر معدودات ما ذكره العقاد في موضوع (الرق في الإسلام) حيث كان الطبل الأجوف الذي يضرب عليه ذوو الأبواق ممن يشهرون بالأراجيف، دون استعداد للفهم الصحيح .

إن الذين يسلكون منحى العقاد في تبرير الرق في الإسلام، يتحدثون عنه، وكأنه شيء زال وانقضى في العصر الحديث، تحت تأثير الحضارة الأوروبية، التي أوجبت خدمة الإنسانية بتحريمه، ولكن العقاد يلفت الأذهان إلى حقائق جديدة بالنسبة لمن قرءوا دفاع المخلصين عن الإسلام، ونحن نوجز هذه الحقائق المسكتة في هذه النقاط، لتدل على مدى البصر النفاذ لهذا الذهن البصير^(١).

١ - إن القوانين الدولية اليوم تُبيح تسخير الأسرى واعتقالهم إلى أن يتم الفداء بتبادل الأسرى، أو بذل التعويض الذي تفرضه الدولة الغالبة، وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل أن تنظم بينها معاملات الحرب، كما نظمها الإسلام، حين جعل على الدولة الإسلامية، أن تحرر الأرقاء من أحد مصارف الزكاة «في الرقاب».

٢ - إن الدول الغربية لم تهتد إلى نظام التبادل إلا بعد قيام الحروب بينها وبين الدول الإسلامية، فتعلمت من المسلمين وحدهم نظام تبادل الأسرى، ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الإسلامية لتقدم العالم كله في قضية الأسر والرق أكثر من عشرة قرون.

٣ - ماذا كان يحدث في هذا العصر لو لم يأخذ الأخذون بنظام الإسلام في التبادل؟ وماذا تصنع كل دولة بمن لديها من الأسراء؟ أتغنيهم من العمل؟ أتعاملهم معاملة المواطنين؟ إنها لا تصنع أكثر مما صنعه الإسلام، يوم أوجب على المسلمين أن يمنوا بالتسريح، أو يقبلوا الفداء أو العتق، أو يوجبوه في مقام التكفير والإحسان.

(١) ما يقال عن الإسلام، ص ١٥٢ وما بعدها.

٤ - جاءت أولى خطوات الحضارة الحديثة في تحرير الأرقاء، على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى في بلاد تُنفق الأجور الوافرة على الصّناع، وبين أصحاب هذه الصناعات حيث تُدار بأيدي الأرقاء، ولا تنفق عليها أجور فاضطر أصحاب الأموال إلى إطلاق الأسراء، لأن الدولة ستجبي من الضرائب ما يجعل النفقات متعادلة، فيزيد أصحاب العبيد على مُنافسيهم بمغارم المطعم والملبس والسكنى، ويصبح الرقيق عبثاً.

٥ - احتاجت دول الحضارة إلى تجنيد العبيد في صنع السلاح أولاً، ثم إلى مجموعة الأصوات في الانتخابات ثانياً، ثم إلى الإذعان لرغبات الكثرة الكاثرة من أبناء القارة الإفريقية خوف الشّقاق المدمر ثالثاً، وإذ ذاك وجدوا أن الحرية أمر مفروض لا معدى عنه.

٦ - إن الموازنة بين الأرقاء في المدن الإسلامية من ناحية العدد، وبينهم في الدول الغربية، تنطق بلسان الأرقام مُعلنة أن عددهم في الدول الإسلامية لم يزد بعد ثلاثة عشر قرناً عن ثلاثة ملايين، على حين كان عدد السود في الأمريكتين فقط قد بلغ العشرين مليوناً، ولم يمضِ على حكم الرجل الأبيض أكثر من ثلاثة قرون.

٧ - لا وجه للمقارنة بين المساواة في النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال في الإسلام وبين تحريم ذلك كله، واستباحة الدم انتقاماً من الأسود حين يريد بعض هذه الأشياء لدى الغربيين.

هذه النقاط جميعها مُلزِمة مُقنعة وقد أكّدها العقاد بعد أن ألمعَ إلى الشائع المُشتهر من أقوال زملائه التي عرفت في هذا المجال، مثل اشتراك جميع الأديان في إباحة الرّق، دون أن تشرّع ما شرّعه الإسلام من وجوب العتق في مواضع، واستحسانه في مواضع أخرى، ومثل ضرورة فكّ الأسار تكفيراً عن ذنوب مشتهرة، مما يدلّ على تشوّف الإسلام للحرية، مع الإشارة إلى أقوال أفلاطون وأرسطو

والقدّيس بولس وتوما الأكويني في تحييد الرق^(١). مما يوضح شمول النظرة لدى العقّاد، وهو شمول أكّده سِعة الثقافة وعمق الاستنباط معاً، مع صبر دائب على التأمل والتشريح.

على أن الدفاع عن الإسلام لا يقف عند ردّ المطاعن وحدها في آثار العقّاد، بل كان منه مهاجمة المذاهب الحديثة التي خدعت الناس بطلاء زائف، وكادت تُقنع بعض السذج بأنها تشمل قفزات واثبة في مضمار التقدّم الحضاري، وهي تحمل من بواعث الانحلال والتقهقر ما لمحّه العقّاد بين الطيّات المتداخلة فأفصح عنه بجلاء.

لقد حارب الكاتب الكبير نزعات التكبر المغرور في الفاشية والنازية، حتى أصبحت حياته موضع الخطر في بعض ظروف الحرب العالمية الثانية، كما وقف من الوجودية موقف المفكر الذي لا يخدعه الطلاء الخارجي عن التعنّ الداخلي، كما لا نظن أن كاتباً عربياً مسلماً أبلى بلاءه في مُنازلة الشيوعية، إذ دأب على مهاجمتها يوم كانت لدى بعض الأغرار وسيلة النجاة من كل مأزق، وموضع الحلّ المحتوم لكل أزمة.

وتعرض في شجاعة لكثيرٍ من السفاهات المنحطّة، التي ترشح بها نفوس سوداء، تحمل سموم العدا للرفق والتقدّم وهي تدّعي في وقاحة أنها تعمل على نشر المحبة والسلام.

وما كتبه العقّاد عن الشيوعية منذ كان لها دولة حتى فارق الحياة، أكثر من أن يحيط به الحصر، وما جمعه في كتاب خاص تحت عنوان (الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام) لا يمثل إلا خلاصة مقرّبة لما عكف على إذاعته من مقالات شديدة السطو على مدى يزيد عن أربعين عاماً، لم يتخلف فيها الكاتب الكبير عن إعلان صوته الجهير في مُنازلة المأجورين من العملاء، حتى في أشدّ أيام سطواتهم

(١) الفلسفة القرآنية، ص ٨٢.

القاهرة، حين أخذوا يسيطرون على أدوات النشر، استجابة لتزعجات سياسية سادت بعض دول الإسلام في فترات تقارب وتباعد مذبذباً وجزراً.

وما قلناه عن حديث الكاتب حين عالج موضوع الرق، نقوله عن حديثه حين كرر سطواته على الشيوعيين، إذ إنه جاء بفيوض من الحقائق المُقْنِعة تكتسح ما يتراكم من لئال الدعايات الوبيثة من أرجاس، ومن أوضح ما قاله العقاد في هذا الصدد: إن التفاوت بين الناس موجود دون إنكار، ولكنه لا يمنع المساواة في الحقوق والواجبات، ولا يكون سبباً للظلم والإجحاف، وحكمة التفاوت ظاهرة لأن الحياة تفتقر إلى التعدد الدافع للعمل لا إلى تكرار الصورة الواحدة التي لا تُسفر عن شيء، ولا معنى للتفاوت إذا تساوى العامل والكسول، والنشيط والخامل، واطمأن المجردون من المزايا إلى خمولهم الساكن، حاسبين أنهم سينالون ما نال المكافح المُجاهد، وهو ما لم يحدث في دولة الشيوعية التي قدّرت للرؤساء كل نعم، وجعلتهم أباطرة يتحكمون باسم الشيوعية التي ادّعت المساواة، وجعلت الرؤساء في القمة والمرؤوسين في الحضيض، وهو واقع ملموس لا سبيل إلى إنكاره.

يقول الكاتب الكبير ببعض التصرف:

لقد تأسس النظام الشيوعي منذ ثلاثين سنة (كان ذلك سنة ١٩٤٧) فحاول أن يقضي على الطبقات، فما هي إلا سنوات حتى ظهرت بوادر التفاوت بينها، وظهرت بين أناس يرغبون في منعه، ويؤمنون ببطلانه، ودانوا بما تدين به حكومتهم إذ نشؤوا تحت ظلّها، ولم يسمعوا رأياً مخالفاً، وقد بدؤوا التجربة فلم يتقدّموا خطواتهم الأولى حتى تبين لهم خطر التسوية بين المطبوع على العمل والمطبوع على الكسل، وبين من يركن إلى الكفاف ومن يطمح إلى التفوق والبروز، وقد سمحوا بشراء الكماليات، وأضافوا التفاوت في حظوظ المعيشة، وفي مراتب الشرف، إلى التفاوت في الأجور والمكافآت، وأنشؤوا الطبقات باليمين وهم يحاربونها باليسار وكان هذا كل ما استفادته الأمة الروسية من هذه التجربة الدامية

التي كَلَّفَتْهَا نَيْفًا وَعَشْرِينَ مَلِيُونًا من النفوس البشرية، بين قتلى الثورة، وفرائس الاضطهاد، وصرعى المجاعة والوباء، عدا خسارة الأمة في الحرية واستقلال الفكر والشعور^(١).

ويقول الأستاذ العقَّاد في مقام آخر ببعض التصرّف أيضاً:

والشيعوية في لبابها قائمة على خليقة الحسد، لأنك لا ترى شيوعياً إلا رأيته حاسداً للممتازين من خلق الله، كيفما كان سبيل الامتياز، وليس منهم مَنْ يشعر بالعطف على الضعيف والفقير، ولكنهم جميعاً يحقدون على القوي والغني، وعلى صاحب فضل يشيد به الآخرون، وليست التفرقة عندهم بين الناس تفرقة بين مَنْ يحمد أو يذم، ولا تفرقة بين مَنْ يحب ويكره، ولا تفرقة بين مَنْ يكرم ويلوم وإنما هي على الجملة تفرقة بين مَنْ يحسد أو لا يحسد، كائناً مَنْ كان مثار الحسد عليه^(٢).

وقد حنق الشيوعيون على الكاتب الكبير، لأنه كشف عن دخائلهم بمجهره الدقيق، فأخذوا يحطّون من قدره، حين يوازنون به سواء، لا حباً في غيره، ولكن لِيُنْفِرُوا الناس من تتبّع آثاره، ولكن الله كان مع الحق، فما زالت مؤلّفات الرجل العظيم تُطبع متعددة ذائعة وما زال مرور الزمن يزيده تقديراً فوق تقدير.

- ٣ -

ظهرت مؤلّفات قيّمة عن رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، بدأ بها المغفور له الأستاذ محمد أحمد جاد المولى، وتلاه الدكتور هيكمل، والدكتور طه حسين، والأستاذ توفيق الحكيم، والأستاذ محمد فريد وجدي، وغيرهم من كبار المفكرين والأدباء، ولكن هذه المؤلّفات وما لحقها بعد ظهور (عبقريّة محمد) لن تغني عمّا كتبه الأستاذ العقَّاد في شيء، لأن العقَّاد لم يكتب السيرة النبوية على نهجها

(١) الفلسفة القرآنية، ص ٤٢.

(٢) في بيتي، ص ٤٨.

المعهود، وإنما كتب سيرة رسول الله بالحق الذي يثبت له الحب في قلب كل إنسان وليس في قلب المسلم وكفى - كما قال في مقدمة الكتاب - وبالقياص الذي يفهمه المعاصرون، ويتساوى في إقراره المسلمون وغير المسلمين، ليقيم البرهان على أن محمداً عظيم في كل ميزان عظيم في ميزان الدين، وعظيم في ميزان العلم، وعظيم في ميزان الشعور، وعظيم عند من يختلفون في العقائد، ولا يسعهم أن يختلفوا في الطباع الأدبية.

وهذا المنحى الذي قصده العقاد واضح لا لبس فيه، ولكن نفرأ ممن يسوؤهم أن يظهر كتاب عن نبي الإسلام بهذه الجهارة الساطعة، عزّ عليهم أن يسبق العقاد في مجال ركض فيه الفحول فجاء سابقاً غير لاحق.

وفي الكاتبين أنفسهم من عزّ عليهم أن يسبقه العقاد في مجال السيرة النبوية، وتاريخ الخلافة الراشدة، فقال: إنه لم يفهم ما كتب العقاد! قال ذلك بعد أن لقي العقاد ربّه، وأصبح حديثاً يروى لا أسداً يزار، فيرعب فيخيف، وقد اضطر المدافعون عن العقاد أن يبرزوا من آثار هذا الناقد ما يدل على مديح مُفْرِط كتبه مُحْتَفِلاً مُنَوِّهاً في رسالة بعث بها للعقاد.

وقد أنصف الأستاذ توفيق الحكيم كتاب «عبقريّة محمد» حين قال عنه^(١):

«من الفصل الأول أدركت أن الأستاذ العقاد لديه ما يقول وأن الكلام الذي عنده يُرغمنا على أن نصغي إليه، وأن كل ما عُرف من قبل عن النبي محمد لن يُغنيننا عما عند العقاد، لأن العقاد قد درس وفكّر، واستنتج لنفسه، ثم صنع للنبي ﷺ صورة (قلمية) لا يمكن أن يرى نظيرها، وفي صفحات مثل صفحات كتابه المتوسط الحجم، أنه ما قرأ ليكتب سيرة، كما فعل الذين سبقوه، ولم يرو لنا قصة، ولم يسرد تاريخاً ولكنه رسم ملامح، وخط قسّامات، وأبرز ذلك الوجه الشريف الجليل...»

(١) مجلة الثقافة، العدد ١٧٥، ١٩٤٢/٥/٥.

على أن الحرِّي أن نلتفت إليه، هو الطريقة التي جرى عليها العقاد في تحقيق غرضه، فهو لم يكتفِ باستخراج الوقائع من بطون كتب السيرة، لأنه يعلم أن هذه الوقائع قد أصبحت معروفة لأكثر الناس، بما ظهر من كتب حديثة العرض عصرية الأسلوب، فنراه قد استخدم هذه الوقائع استخداماً آخر جديداً واستنطقها معاني أخرى طريفة، ولم يرضَ أن يسير خلفها لتقوده كما فعل أكثر الرواة، بل تناول هو زمامها وقادها بيدين من المنطق السليم، والتفكير المستقيم، في طريق كله ضوء ونور.

وفي الحق أن أظهر ظاهرة في الكتاب هي قوة الاستنتاج العقلي، التي تستولد من الحوادث الصّماء، خصائص ومقومات لتلك الشخصية الإنسانية الكاملة، وجاوز الأستاذ العقاد التمهيص والاستقراء إلى البحث المقارن في أغلب الأمور، عارضاً حال الأمم الأخرى في مختلف العصور، ليبيّن على وجه التحقيق مركز الفكرة التي يجليها من التاريخ الإنساني العام.

وما قاله الأستاذ توفيق الحكيم عن عبقرية محمد يصدق على العبقریات جميعها، لأن منهج الكاتب الأدبي واحد في تناول هذه الشخصيات البارزة في التاريخ الإنساني بعامّة.

وقد أشار الأستاذ العقاد إلى هدفه حين ذكر في مقدمة كتبه أنه لا يكتب سيرة، ولكن يكشف عن نفسية عظيمة تصلح أن تكون موضع القدوة.

ومع وضوح هذا القول تقريراً وتطبيقاً، فقد وجد من يتجاهله عن غيظ تعرف بواعثه الدفينة فزعم زاعم أن العقاد بكتابة العبقریات الإسلامية يتّجه إلى (المتافيزيقيا) أو إلى ما وراء الطبيعة بدلاً من الاتجاه إلى الطبيعة والمجتمع!

وهذا خطأ كاذب لأن سير العظماء الذين مثّلوا أعظم أدوار الإنسانية في اتجاهها الصحيح، ليست خروجاً عن عالمنا المعاصر إلى ما وراء الطبيعة، ولكنها ولوج في صميم المجتمع، إذ يقدم الكاتب النموذج الإنساني الأعلى للحياة.

وقائل هذا الزعم لا يعنيه أن تصلح الحياة بإحياء هذه النماذج الصالحة للقدوة، ولكنه يضيق ذرعاً بأبطال الإسلام ويرى في الإشادة بهم تضيقاً على ما يتسع له في محيط التبذل من إسفاف وسقوط، وفي محيط التعامل من غدر وخيانة ودس وكيد! فكيف يطبق أن يذكر هؤلاء البررة ليكونوا بمثابة لعنات تصب عليه.

كما زعم زاعم آخر أن العقاد يبتسر التاريخ ابتساراً ليخدم أغراضاً خاصة على حساب الحقيقة.

وقائل هذا الزعم لا يحب الحقيقة التي يتظاهر بالدفاع عنها، لأن العقاد لم يذكر حادثاً واحداً غير حقيقي، حتى نزع من أنه يبتسر التاريخ لأغراض خاصة على حساب الحقيقة، فكل ما ذكره العقاد من الأحداث والوقائع حق لا مبالغة في سطر واحد من سطور، بل في لفظ واحد من ألفاظه! ولكن الزاعم المضطعن لا يريد الترحيب بأبطال الإسلام قدر ما يريد الإشادة بأناس لوثوا تاريخ الحياة سقوطاً وانحرافاً، وكأنه وازن بين من يحبهم ومن يتحدث عنهم العقاد، فرأى الفجوة من الاتساع بحيث لا يجوز أن تشمل النقيض ونقيضه في مجال واحد، هو مجال الإعزاز والإكبار، بل يجب أن يكون إكبار الفضلاء باعثاً حقيقياً على احتقار الهابطين من ذوي الأهواء!

وقد عرف العقاد أن أعداء اتجاهه سيفترون الأقاويل تشويهاً لمحاسن ما أبدع في العبقريات، فاضطر إلى أن يسطر وجهة نظره في مقدمة عبقرية الصديق، مع وضوحها الساطع لدى دارسي العقاد، وقارئ ما أبدع من روائع، قبل أن يكتب هذه المقدمة. قال العقاد^(١):

«إنني لا أكتب ترجمة للصديق رضي الله عنه، ولا أكتب تاريخاً لخلافته وحوادث عصره، ولا أعنى بالوقائع من حيث هي وقائع ولا بالأخبار من حيث هي أخبار، فهذه موضوعات لم أقصدها، ولم أذكر في عناوين الكتب ما يعد القارئ

(١) عبقرية الصديق، مقدمة الكتاب.

بها ويوجّه استطلاعها إليها، ولكنما قصدت أن أرسم للصديق صورة نفسية نعرفنا به وتجلو لنا خلائقه، وبواعث أعماله، كما تجلو الصورة ملامح مَنْ تراه بالعين، فلا تعيننا الوقائع والأخبار إلا بمقدار ما تؤدّي أداءها في هذا المقصد الذي لا مقصد لنا غيره، وهي قد تكبر أو تصغر فلا يهْمنا منها الكبير والصغير إلا بذلك المقدار. . .

ومن هَـمّا أن تكون الصورة صادقة كل الصدق في جملتها وتفصيلها، فليس من غرضنا التجميل الذي يخرج بالصورة عن حقيقتها، ولسنا نريد أن يطلع القارئ على تلك الصورة فلا يعرفها، ولا يعرف أبا بكر منها، ولكن تجميل الصورة شيء وتوقير صاحبها شيء آخر، فإنك إذا صوّرت أبا بكر، ورفعت صورته مكاناً عالياً، لم تكن أضفت إليه جمالاً غير جماله، أو غيرت ملامحه النفسية بحيث تخفى على مَنْ يعرفها، فهذا التوقير الذي لا يخلّ بالصورة، ولا يُعاب على المصوّر، وليس هو بالتجميل المصطنع الذي يضلّ الناظر عن الحقيقة».

وموضع الفصل الحاسم في هذه القضية أن نطلب من هؤلاء الذين يزعمون أن العقاد قد جاوز الحقيقة إلى الخيال، أن يبرزوا لنا موقفاً واحداً في كتبه الإسلامية لم يكن واقعاً صريحاً لا لبس فيه، ولم تكن كتب السابقين قد تداولت تسجيله مؤرخاً عن مؤرخ، فإذا كان الأمر كذلك، فقيم اللجاج، من أقلام تدّعي القيامة على النقد، وتخدع القارئ بالبهتان، لحاجة في نفس يعقوب؟.

وقد فهم بعض مَنْ يدّعون القدرة على التفسير والتوجيه، أن العقاد يكتب في تمجيد البطولة والأبطال، لخدمة اتجاه سياسي خاصّ يدور في فلكه، ويتقدّم هؤلاء خطوة أخرى فيزعمون أنه يريد بذلك محاربة الشيوعية التي تنكر دور الفرد وتوجّه الاهتمام إلى المجتمع، والعقاد يحارب الشيوعية دون هوادة بما لا شك فيه، ولكنه يعتقد أن الشيوعية حين تلغي دور الفرد لا تهتم بالفرد ولا بالمجتمع! فالمجتمع الذي أوجدته في مدى نصف قرن مجتمع خائف هائب مزعج لا يستطيع أن يتنفس، وللشخص دور فيه، ولكن أيّ فرد؟ هو مَنْ يملك الحكم، أو يدور في فلك

مَن يملك من المقرَّبين إلى رؤساء التنفيذ، أما ما عدا هؤلاء فهم الجماهرة المقهورون!!.

والعقَّاد أيضاً لا يدور في فلك الغرب حين يكتب العبقريات اعترافاً بمكانة العظماء، لأنه يعلم أن الديمقراطية الغربية ذات عيوب بارزة، وأن المساواة لديها لا تتحقَّق على السُّنن المأمول لأن الحزب الحاكم يخضع لرئيس يوجِّه الأعضاء، ويكسب الأصوات بالدعاية والإعلام في منهج تضلُّ به الحقائق.

وإذن فالعقَّاد لا شرقي ولا غربي حين يكتب العبقريات، ولكنه مسلم آمن بعظمة نبيِّ الإسلام وخلفائه عن بحث صارم وعزم جاد، وأمانة مطمئنة، فرأى أن يُبرز مبررات هذا الإيمان في خلال ما يكتب عن أبطال دينه! وهذا ما أوقد اللهب لدى الموتورين، وإنهم لكثير.

وقد تعود الذين يكتبون تاريخ الرجال أن يتشحوا بالعدالة حين يُفردون بابين في ما يكتبون، يتحدث أحدهما عن محاسن الإنسان وثانيهما عن مساوئه ويرون ذلك آية العصمة والنزاهة وقد أشار العقَّاد إلى ذلك في مقدمة كتابه (عبقرية عمر) فقال:

«فالناس قد تعودوا ممَّن يسمَّونهم بالكُتَّاب المُنصِّفين أن يحبِّدوا وينقدوا، وأن يقرنوا بين الثناء والمَلَام، وأن يسترسلوا في الحسنات بقدر، لينقلبوا من كل حسنة إلى عيب يكافئها، ويشفعوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها، فإن لم يفعلوا ذلك، فهم إذن مظنة المغالاة والإعجاب المتميِّز، وهم إذن أقلَّ من الكُتَّاب المُنصِّفين الذين يمدحون وينقدون، ولا يعجبون إلَّا وهم متحفِّزون غلام!!.

عرض لي هذا الخاطر، فذكرت قصة العاهل الذي تحاكم إلى قاضيه مع بعض السَّوْقَة في عِقار يختلفان عليه، فحكم القاضي للسَّوْقَة بغير الحق ليَغْنَم سُمعة العدل في محاسبة الملوك، وعزله العاهل، لأنه ظلم، وهو يتغني الرياء بظلمه، فكان أعدل عادل».

وليس معنى ذلك أن العقاد لم يخالف أحداً ممّن تحدّث عنه - حاشا رسول الله - في موقف، بل إنه أبدى رأيه في كل ما تعرّض لتمحيصه من المواقف، وأعلن مخالفته في أشياء لم تكن موضع ارتياحه، ونقل عن عبقرية خالد قوله الصريح عن موقف ابن الوليد من مالك بن نويرة بعد أن عرض الكاتب الناقد الموضوع من كافة وجوهه عرضاً وافياً لا خفاء فيه - قال العقاد -^(١):

«وحسبنا من هذه الأقوال جميعها أن نقف منها على الثابت الذي لا نزاع فيه، والثابت الذي لا نزاع فيه، أن وجوب القتل لم يكن صريحاً قاطعاً في أمر مالك بن نويرة، وأن مالكا كان أحقّ بإرساله إلى الخليفة بين زعماء فزارة الذين أرسلهم خالد بعد موقعة البزاحة، وأن خالداً تزوّج امرأة مالك وتعلّق بها، وأخذها معه إلى اليمامة بعد لقاء الخليفة.

وأوجب ما يوجبه الحق علينا بعد ثبوت ذلك كله أن نقول: إن موقعة البطاح صفحة في تاريخ خالد كان خيراً له وأجمل لو أنها حذفت، ولم تكتب على قول من جميع تلك الأقوال، لأنها لم تضيف إلى فخاره العسكري كثيراً ولا قليلاً، وأهدفته لملام أحمد ما يحمد منه أن له عذراً فيه يقبله أناس ولا يقبله آخرون، ويجب تقرير هذا عند تقدير خالد لأنه الحق الذي لا يعلو على ميزانه ميزان، في ترجيح الرجال والأعمال، ولأن الرجل الذي يخشى على قدره من تقرير أخطائه رجل لا يستحق أن يكتب له تاريخ، إذ معنى الخشية عليه من أخطائه أنه فقير من الحسنات والعظام، وأنه من الفقر بحيث تعصف الأخطاء بعظائمه وحسناته، ولم يكن خالد بن الوليد كذلك».

وأجمل ما في العبقريات إفحام العقاد المُلزم لمن يحاولون تشويه التاريخ الإسلامي في عهده الأول بمُفتريات كاذبة، يردّدونها عن عمد مع وضوح بطلانها، ومع إيضاح وجه الحق في تنفيذها دون أن يستجيبوا لوضوحه.

(١) عبقرية خالد، ص ١٤١، ط ١٩٧٠ م.

وللعقّاد في هذا المجال سطوع نفاذ واستطراد، وسُطوع العقّاد ونفاذه مما يعهده القارئ عنه في كل مجال، ولكن استطاده وتدّقه وانسيابه في مجال القمع الحاسم شيء حميد حقاً، لأن الاكتفاء باللمح الدالّ لا يُسكّت أفواهاً مغرصة تعودت على الصياح لَجَبّة دون مبرّر، ويزيد صياحها كلما كان مُعارضها رقيق الحاشية معتدل الإقناع، ولا بدّ إذن من سيل جارف يقتلعها اقتلاعاً.

ونمثّل لذلك برّدّه على الفرية الكاذبة التي زعمت وجود مؤامرة بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة عند وفاة رسول الله لتكون الخلافة من نصيب أبي بكر دون علي، فبعد أن أوضح أن الروايات التاريخية الموثوق بها لم تُشير إلى شيء من ذلك، وأن خلائق الأبطال الثلاثة كما يعهدها المسلمون بمنأى عن التآمر الموهوم، وأن منطق الأحداث - وقد شرحه العقّاد شرحاً وافياً - يدلّ على أن الأمر قد وقع منهم جميعاً موقف المفاجأة التي لم يتدبّروها إلّا بعد وقوعها، وأن أمارات استخلاف أبي بكر كانت ظاهرة من طلائعها الأولى قبل مرض رسول الله، ولم تكن هناك إشارة ما، تدلّ على أنه ﷺ يريد أن تكون الخلافة في بني هاشم.

أقول: بعد أن أوضح العقّاد ذلك كله في اقتناع مُلزم لا حيلة للمُعارض فيه، استطرد استطراداً مكتملاً طريفاً، وإنما نجعله استطراداً وهو من صميم الموضوع لأن ما سبق به كان ذا غناء مُلزم، ولكن الكاتب جادّ به على القارئ مشبعاً ممتعاً مقنعاً فقال متسائلاً^(١):

«كيف كانت الخلافة صائرة إلى غير ما صارت إليه وهي محصورة في قريش؟ وإلى من كانت تصير؟ إن الذين تولّوها بعد أبي بكر من صحابة النبي هم عمر وعثمان وعلي ومعاوية، فأَيّ هؤلاء كان أظهر حقاً، وأقرب طريقاً، وأدنى من الصديق إلى اتفاق المسلمين عليه؟ أهو عمر؟ لقد كان أصغر من أبي بكر بنحو عشر سنين، ولم تكن له سابقته في الإسلام وصحبته النبي، ولم تكن ألفه الناس

(١) عبقرية الصديق، ص ٢٤، طبع سنة ١٩٦٥ م.

له كآلفتهم لأبي بكر، وليس هو بأقوى عصبية منه بين بطون قريش، وليس هو بالذي يشغب على أبي بكر ويعصيه لطمع في الخلافة إذا تقدّم إليها، بل كان هو الذي بايعه وحثّ الناس على بيعته.

أفكانت تصوير إلى عثمان؟ إن عثمان رضي الله عنه أسلم على يدي أبي بكر، وقد كانت معه عصبية بني أمية وهي عصبية قوية، ولكن زعامة تلك العصبية كانت في يد أبي سفيان يوم ذاك، ولا طريق إلى الخلافة، وإن طمع فيها، وقد تنزّه عثمان أن يركن إلى العصبية، لئلا ينافر أبا بكر في حقّ لا ينكره ولا ينفسه عليه.

أفكانت تصوير إذن إلى عليّ بن أبي طالب؟ إنما كانت تصوير إليه بحجة بني هاشم، وهي الحجة التي اتقاه النبي جهده كما قدّمنا، وكان بنو هاشم مع هذا لا يتفقون على اختيار واحد من رؤسائهم الثلاثة: العباس، وعليّ، وأخيه عقيل، ولم يكن عليّ بعد هذا وذاك قد جاوز الثلاثين إلا بسنوات قلائل، وهي عقبة من العقبات التي لا يسهل تذليلها في أمة ترعى حق السنّ ومكانة الشيوخ إلا بوصية من النبي عليه السلام - ولم تكن هناك وصية من هذا القبيل كما اتفق عليه كل سند وثيق.

أفتكون إلى معاوية؟ إنه نفسه لم يدُرْ بخلده أن يرشّح نفسه في تلك الآونة... إلخ.

وأما هذا النقاش المُلزم الطريف كثير فيما كتب الأستاذ العقّاد عن الأعلام.

وبعد:

فقد كان اتجاه الكاتب الكبير في مجال الحديث عن الإسلام متشعباً ممتدّ السُّبل والآفاق، وقد ألمعنا إلى أشدّ هذه الطرق وضوحاً، وأكثرها اتساعاً، حين أوجزنا الحديث في هذا المجال، وقد بقي مجال كبير لاستدراك كثير مما لم نلّم به، ولسنا في مقام الاستقصاء، ولكننا نشيد بعبقريّة كاتب إسلامي مناضل، دافع

عن الحق بعيداً عن الغرض، ووقف في الميدان فارساً معلماً، يُنازله مشات
الخصوم فيُبارزهم في ثقة، ثم يعود مُكلّلاً بالنصر متوجّاً بالنجاح.
رضي الله عنه وأرضاه.

الفهرس

٥	مقدمة الكتاب
٩	النّهضة الإسلامية المعاصرة
٢٥	روّاد النّهضة في مرآة كاتب كبير
٤١	عبد الرشيد إبراهيم داعية الإسلام في آسيا
٥١	محمد الخضر حسين في آثاره العلمية
٦٧	عبد العزيز جاويز المجاهد الكاتب البطل
٨١	عبد الحميد بن باديس الإمام الجزائري المجاهد
٩١	محمد فريد وجدي العلامة الموسوعي الناقد
١٠٧	لورد هدلي رئيس الجمعية الإسلامية ببريطانيا
١٢٣	أحمد أمين يتحدث عن نفسه
١٤٧	محمد إقبال شاعر الإسلام وداعية الحق
١٦٣	المؤرّخ المجاهد رفيق العظم
١٨٧	شكيب أرسلان لسان العرب ومدرّة الإسلام
٢٠١	محمود أبو العيون المصلح الديني والكاتب الاجتماعي
٢١٧	عبد الحليم محمود الإمام النوراني
٢٣٥	محمد رشيد رضا صاحب المنار

٢٥١	 محمد البشير الإبراهيمي داعية الجزائر
٢٦٩	 سيد بن علي المرصفي شيخ أعلام النهضة الثقافية
٢٨٣	 محمد الخضري المؤرخ، البَحَّاث، الأديب
٣٠١	 أحمد غلوش رئيس جماعة منع المسكرات وداعية الإسلام
٣١٧	 عبد الوهاب النجار المؤرخ، البَحَّاث، المجاهد
٣٣٩	 أحمد حسن الزيات فقيه البيان العربي والأدب التوجيهي
٣٦١	 طنطاوي جوهري الباحث المفسر المصلح
٣٧٥	 محمد عاكف شاعر الإسلام في تركيا
٣٨٩	 عبد الوهاب عزّام الأديب المجاهد الغيور
٤١٣	 محمد مصطفى المراغي جبهة عالية
٤٣١	 مصطفى صادق الرافعي مدره الإسلام، وعبقري البيان
٤٤٧	 الإمام الأكبر محمود شلتوت الفقيه المصلح المجدّد
٤٦٩	 الدكتور محمد أحمد الغمراوي بين البحث العلمي والنقد الأدبي
٤٩١	 الدكتور محمد حسين هيكل والتاريخ الإسلامي
٥٠٩	 أبو الأعلى المودودي صوت الإسلام الصادق
٥٢٥	 الشيخ محمد أحمد عرفة ناقد تعدّدت صولاته، واتّسعت ميادينه
٥٤٣	 عباس محمود العقّاد في كتبه الإسلامية
٥٧١	 الفهرس

تم بعونه تعالى الجزء الأول
ويتبعه الجزء الثاني